جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء
UNIVERSITE HASSAN II DE CASABLANCA
الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم تدبّر

تدبر القرآن الكريم
أعلام ومناهج

بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتدبر القرآن الكريم

بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتدبر القرآن الكريم

مؤتمر
تدبر القرآن الكريم
أعلام ومناهج

المملكة المغربية - الدار البيضاء محرم 1437هـ أكتوبر 2015م

الحضارة
الطبعة الأولى

تدبر القرآن الكريم
أعلام ومناهج

بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتدبر القرآن الكريم

تدبُّر

مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر القرآن الكريم
أعلام ومناهج

بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتدبر القرآن الكريم

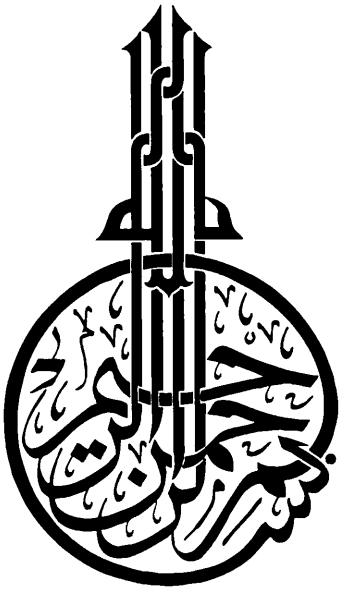
الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥
هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ ـ تحويلة ٣٣٣
ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١
ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤
البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com
www.tadabbor.com @tadabbor

© مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية
بحوث المؤتمر العالمي الثاني لتدبر القرآن الكريم - تدبر القرآن الكريم أعلام ومناهج - مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - ط١ - الرياض، ١٤٣٧هـ
٧٣٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٣-٧-٩٠٧١٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - بحوث ٢ - القرآن - مؤتمرات ٣ - القرآن- مباحث عامة أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ٩١٣٦ / ١٤٣٧
رقم الإيداع: ٩١٣٦ / ١٤٣٧
ردمك: ٣-٧-٩٠٧١٢-٦٠٣-٩٧٨



المقدمة

اللّٰهُمَّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والصلاة والسلام على رسولك الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فبين أيديكم **إحدى وعشرون** ورقةً علميَّة، هي حصيلةُ المحاور العلميَّة لمؤتمر: (**تدبُّر القرآن الكريم.. مناهج وأعلام**)، الذي عُقد في مدينة **الدار البيضاء** بالمملكة المغربيَّة، في المدَّة (من: ١٥ إلى: ١٦ المحرَّم سنة ١٤٣٧هـ) بالتعاون مع جامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء.

وقد كان من أبرز أهدافه الجليلة:

إبراز الأُسس المعرفيَّة لتدبُّر كتاب الله من خلال المنهجيَّة التي سار عليها أعلام المتدبِّرين في القرون الماضية، مع رصد أبرز الإصدارات والكتب العلميَّة التي كُتبت في فنِّ التدبُّر، وقراءة المناهج المعاصرة التي اختطَّت منهجيَّةً جديدة في أصول التدبُّر وتقويمها، وتعزيز التواصل والتعارف بين أهل القرآن والمهتمِّين بتدبُّره.

ويأتي هذا المؤتمر إكمالًا للمسيرة العلميَّة التي بدأتْها **الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم**، وتحقيقًا لأهدافها التي رسمتها، وما خرجت به من رؤًى وتوصيات في مؤتمر تدبُّر الأول الذي عُقد في دولة قطر.

استُكتب لأوراق هذا المؤتمر جمعٌ من المتخصِّصين المتميِّزين، ثم حُكِّمتْ وقُوِّمتْ وجُمعتْ في هذا الإصدار الذي تحت أيديكم، وقد حَرَصنا أن نضعَ أوراق الباحثين كاملة، بعد تنقيحها وضبطها، ولم نتدخَّل في مادَّتها العلميَّة؛ لكي تكونَ أمام الدارسين والباحثين بصورتها التي وُضعت عليها، متضمِّنةً آراء أصحابها ومقدِّميها.

ولعلَّ أبرز ملحوظةٍ أُوردت على بعض هذه الأوراق: تداخلُ معنى التفسير والتدبُّر فيها، وعدم التفريق الظاهر بينهما عند بعض الباحثين؛ ولئن كان ذلك صحيحًا من حيثُ الجملة فهو عائدٌ إلى تحرير مفهوم التدبُّر عند الباحث نفسه، ولا يخفى أن آراء الباحثين والدارسين مشتجرةٌ متباينة في تحرير هذه المسألة (التلازم بين التدبُّر والتفسير).

ونذكر هنا للفائدة والدَّلالة: أنه سبق **لمركز تدبُّر للدراسات والاستشارات** أنْ أصدرَ كتابًا خاصًّا في تحرير مفهوم التدبُّر، تضمَّن أوراق عمل الملتقى العلميِّ الأوَّل، تحت عنوان (**مفهوم التدبُّر.. تحرير وتأصيل**)، يحسُن الرجوع إليه لمن أراد الاستفادةَ والاستزادة في هذا الموضوع، وباب التنقيب والبحث والمراجعة مفتوحٌ لكلِّ من أراد المدارسة والإثراء.



وفي هذا المقام نشكر الله ﷻ أهلَ الثناء والحمد على توفيقه وتيسيره، ثم نشكر الأساتذة الكرام الذين كتبوا هذه البحوثَ المتميِّزة؛ كتب اللهُ أجرهم، وبارك في أوقاتهم.

سائلين المولى القدير أن يباركَ في الجهود ويُسدِّدَ الخطا، هذا والله تعالى أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

رئيس اللجنة العلميَّة في مركز تدبُّر

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

الجلسة الأولى

أعلام المتدبرين

(مدرسة المتقدمين)

أوراق العمل

الورقة الأولى ١١

ابن عباس ﷺ ومنهجيته في تدبُّر القرآن الكريم

د. أحمد بن محمد العمراني

الورقة الثانية ٦٧

الحسن البصري ومنهجه في التدبُّر

د. عادل رفوش

الورقة الثالثة ١١٣

ابنُ جَريـرٍ الطَّبَـري ومَنهجيَّتُـه في التَّدَبُّـر

فوَّاز بن منصَّر سالم الشاووش

الورقة الرابعة ١٤٥

الإمام القَصَّاب ومنهجه في تدبُّر القرآن من خلال كتابه «نُكَتُ القُرآنِ»

أ. د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري

الورقة الخامسة ١٨١

الجوانب التدبرية في تفسير ابن كثير وطرائق استخلاصها

د. محمد بن عبدالله الربيعة

الورقة الأولى

ابن عباس ﷺ ومنهجيته في تدبر القرآن الكريم

إعداد

د. أحمد بن محمد العمراني

أستاذ الفقه المقارن والتفسير بجامعة شعيب الدكالي الجديدة المغرب

السيرة الذاتية

الاسم: أحمد بن محمد العمراني.

عنوان المراسلة: ص ب ٣٠٨٠ ، الجديدة - ٢٤٠٠٠ - المغرب.

الهاتف الأرضي: ٠٠٢١٢-٥-٢٣-٣٥-٢٧-٤١.

شواهد:

- الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب فاس المغرب ١٩٨٦م.

- دبلوم الدراسات العليا الماجستير في الدراسات الإسلامية تخصص (تفسير القرآن وعلومه) من جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الانسانية - فاس- المغرب ١٩٩١م.

- دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية تخصص (تفسير القرآن وعلومه) من جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب - فاس. - المغرب . عام ٢٠٠٢م.

مهمات حالية:

- أستاذ الفقه المقارن والتفسير بجامعة شعيب الدكالي. الجديدة المغرب.

- رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم سيدي بنور.

مهمات موازية:

-عضو اللجنة العلمية لاختيار الأساتذة بدار الحديث الحسنية .

-عضو خبير محكم في ترقية الأساتذة بجامعة الملك سعود.

-عضو محكم في وضع معايير محتوى برنامجي الدراسات القرآنية والقراءات ودبلوماتها في الجامعات السعودية.

-عضو رابطة المتخصصين في الدراسات القرآنية .

إسهامات علمية:

- مقالات علمية منشورة في عدد وافر من المجلات العربية والإسلامية، منها:

مجلة دعوة الحق المغربية، ومجلة نشرة الأئمة المغربية، ومجلة كلية الآداب بالجديدة، ومجلة الرسالة التي يصدرها المجلس العلمي المحلي لإقليم الجديدة، ومجلة الوعي الإسلامي، ومجلة منار الإسلام، ومجلة البيان.



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وبعد:

لا يكاد التاريخ يعرف أمة من الأمم عُنِيت بكتاب ربها كما عُرِف ذلك للأمة الإسلامية، فمِن يوم نزل القرآن غضًّا طريًّا على قلب النبي ﷺ والأمةُ مُعْتَنِيَةٌ به، فمن حِفْظِه في الصدور إلى كتابته في السطور، إلى فهمٍ لمعناه واستكناه له، وكشف عن أسراره، وغوص على درره وعجائبه التي لا تنقضي.

ولم يكن همُّ سلف الأمة حفظَ لفظ القرآن الكريم فحسب، بل كانت غايتهم العظمى تدبُّره والعمل بكل ما جاء به، فقد كانوا ينظرون إلى القرآن على أنه كتاب هداية وإرشاد، يطهر القلوب، ويزكي النفوس، ويثقف العقول، ويهدي للتي هي أقوم، فلا هداية تداني هدايته، ولا صلاح للبشرية من دون الأخذ بأحكامه وآدابه، وبهذا أَمْكَنَ سلفُ هذه الأمة أن يكونوا مدينة فاضلة، ذِكرُها شذًى يتضوَّع، وأن يسودوا العالم في أقلَّ من قرن.

ومن البديهي أن العمل بالقرآن، والاهتداء بهديه في العقائد الصحيحة، والأحكام السامية، والآداب العالية؛ لن يكون إلا بعد فهمه وتدبُّره، والوقوف على ما حوى من نصح ورُشْد، وهذا لا يتحقق إلا بالتأمُّل الدقيقْ، والفهم العميقْ، من أجل الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظه ومعانيه.

وقد قيض الله ﷻ لقرآنه من الصحابة الكرام علماءَ أجلاءَ فضلاءَ، تركوا لنا في تدبُّره ثروةً قَيِّمةً، بما رووه عن صاحب الرسالة، وما استنبطوه بعقولهم الصائبة، وأذواقهم المرهفة.

وحديثي في هذا العرض العلمي سيتجه إلى بيان ما حوته كتب التفسير- وغيرها من المظان- من تدبُّرٍ لآيات القرآن، واستنباطٍ منهجية تدبُّر القرآن لعبدالله بن عباس ﷺ، أحد أحبار الأمة في تأويل القرآن، ومَن نَقَلَ عنه كلُّ الأقطاب والأتباع، وهذا يقتضي مني تحديد مجموعة من المفاهيم الواردة في عنوان العرض، مثل: التدبُّر، والمنهج، ومنهج تدبُّر القرآن، بإيجازٍ غير مُخِلٍّ، إضافة إلى الحديث عن صاحب هذا المنهج التدبُّري لكتاب الله، وهو عبدالله بن عباس.

وهذا يعني أن العرض سينقسم إلى ثلاثة مباحث، يتحدث المبحث الأول عن حَبْر الأمة من حيث النشأة والمكانة، والمبحث الثاني: عن المفاهيم الواردة في عنوان العرض، والمبحث الثالث: عن منهجية ابن عباس في تدبُّر القرآن الكريم.



المبحث الأول

عبدالله بن عباس ﷺ.. ولادته ومكانته

ولادته ونشأته:

ليس من نافلة القول إذا قلنا: أنَّ عبدالله بن عباس ﷺ ليس بحاجةٍ إلى ترجمة؛ لأن جل كتب التراجم عَرَّفتْ به، وكلَّ كتب الحديث روت له، رجل عاش في بيت النبوة، وعاش في كنفه محاطًا برعايته، دعا له الحبيب المصطفى قبل ولادته، فقد أخبر العباسُ ابنَ أخيه رسول الله ﷺ بحمل زوجته أم الفضل، فقال رسول الله ﷺ: «**عَسَى أَنْ يُبَيِّضَ وُجُوهَنَا بِغُلَامٍ**» فولدت عبدالله بن عباس[1]. استَهَلَّ قبل الهجرة بثلاث سنين[2]، لتحتضنه الأيدي العَطُوف، وتنطلقَ به إلى صاحب الرسالة، الذي أخذه ﷺ بين ذراعيه، وجعله في حجره، وحنَّكه برِيقِه الشريف[3].

كانت ولادته من أبوين نجيبين شريفين في الجاهلية والإسلام، فأبوه: العباس بن عبدالمطلب، سيد قريش ومن ذوي الحكمة والرأي فيها، وأمه: أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزم بن بجير الهلالية، أخت ميمونة زوج النبي ﷺ [4]، وخالة خالد بن الوليد[5].

---

(١) أخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٥٤١/١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٥٦٥/٢٣٢/١٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨٩/٢٩) مرسلًا عن داود بن علي.

(٢) المستدرك للحاكم، كتاب معرفة الصحابة، (٦٢٧٧)، ج: ٦٩٥/٣، وجمهرة أنساب العرب: ١٨، ومشكاة المصابيح، للخطيب التَّبْريزي، ص: ٦٩٦.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، ٣٠/٣، والاستيعاب، ٣٤٤/٢، وأسد الغابة، ١٩٢/٢، وغاية النهاية، ص: ٤٢٦، وأنساب الأشراف للبلاذري، ٢٣٣/١.

(٤) انظر الإكمال في أسماء الرجال لمحمد بن عبدالله الخطيب التَّبْريزي، ص: ٦٩٦.

(٥) أسد الغابة ١٩٢/٣، وتاريخ بغداد ١٧٣/١، والاستيعاب ٣٤٢/٢، وتذكرة الحفاظ ٤٠/١، والإصابة ٣٢٢/٢، وتهذيب التهذيب ٢٤٦/٥، وتلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، ص: ١٢، بالهامش.

نشأ إذن عبدالله بن عباس كأعز فتًى في قريش، وترعرع في أحضان الإسلام، ورضع خلاصته منذ نعومة أظفاره، حتى ذاع صيته، وعلا شأنه، ولعل لرابطة النسب -التي كانت تربطه ببيت النبوة- أثَرَها البالغَ في حياته ودرجة ثقافته، وهو لا يزال يافعًا، إذ كان يُسمَحُ له بأن يتردد على بيت النبي ﷺ، وفيه خالته ميمونة زوج النبي ﷺ فتؤنسه وتلاطفه، ويراه النبي ﷺ الذي يتوسم فيه الخير، ويدعو له بقوله: «**اللهُمَّ آتِهِ الْحِكْمَةَ**»(١)، وفي رواية: «**اللهُمَّ بَارِكْ فِيهِ وانْشُرْ مِنْهُ**»(٢)، وفي رواية أخرى: «**اللهُمَّ احْشُ بَدَنَهُ حِكَمًا وَعِلْمًا**»(٣)، ودعا له بالحكمة مرتين، كما قال هو عن نفسه(٤)، وبالفقه في الدين بقوله: «**اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»(٥) وفي رواية: «**اللهُمَّ عَلِّمْهُ الْقُرْآنَ**»(٦).

تميز بين أقرانه بالفهم والعلم، وهذا ما جعل الفاروق عمر ﷺ يأخذ بقوله في كل معضلة ولا يدعو سواه، ويقول له: «أنت لها ولأمثالها»(٧). وجعل أُبيَّ بنَ كعبٍ يقول فيه: «هذا يكون حبر الأمة، أوتي عقلًا وفهمًا»(٨). وجعل أبا هريرة يسأل الله أن يجعله خلفًا لزيد بن ثابت بعد وفاته بقوله: «مات اليوم حبر هذه الأمة، ولعل الله يجعل في ابن عباس منه خلفًا»(٩).

علمه ومكانته:

تعلم القرآن وعلومه منذ الصغر؛ إذ قال: «جمعت المحْكَم في عهد رسول الله وأنا ابن عشر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٦/٢٧/٥) من حديث ابن عباس

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣١٥/١) من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٥٨٥/٢٣٧/١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٦/١) من حديث ابن عباس.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٢٣/٦٧٩/٥).

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٩٧/١٢٧/٤).

(٦) أخرجه البخاري (٧٥/٢٦/١) من حديث ابن عباس.

(٧) الاستيعاب: ٣٤٤/٢، والطبقات: ٣٦٩/٢، و٣٧٠ بمعناه.

(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٧٠/٢.

(٩) المستدرك: ٤٨٣/٣، كتاب معرفة الصحابة، ح: ١٨٣، والتهذيب: ٢٤٧/٥، و٣٤٨/٣ والطبقات: ٣٦٢/٢.

حِجَج»[1]، ليصل إلى مرتبة الأستاذية، ويتفرغ في عهد عمر للإلقاء بدل التلقي، فعلَّم الصغار والكبار وعمره لم يتجاوز سن المراهقة[2]، فقد قال: «كنت أُقرئ عبدالرحمن بن عوف في خلافة عمر»[3]. وما إن توفي عثمان حتى كان على رأس المفتين بالمدينة، قال ابن حزم: «وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فُتيا ابن عباس في عشرين كتابًا»[4].

وقُصد ﷺ من كل حَدَبٍ وصَوْب للشِّعر، وللأنساب، ولأيام العرب ووقائعها، وللفقه، والتفسير، فعن أبي صالح قال: «لقد رأيت من ابن عباس مجلسًا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخرًا، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق، فما أحد يقدر على أن يجيء، ولا أن يذهب، قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لي: ضع لي وَضوءًا، قال: فتوضأ وجلس، وقال له: اخرج وقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل. قال: فآذَنْتُهم، فدخلوا حتى ملؤُوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل. قال: فخرجت فآذَنْتُهم، فدخلوا حتى ملؤُوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل، فخرجت فقلت لهم، قال: فدخلوا حتى ملؤُوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم بـه وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل. قال: فخرجت فآذَنْتُهم، فدخلوا حتى ملؤُوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل. قال: فدخلوا حتى ملؤُوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله»[5].

---

(١) المسند: (٣١٢٥)، و (٢٢٨٣)، و (٢٦٠١)، و (٣١٢٥)، و (٣٣٥٧).

(٢) مقدمة كتاب المباني لنظم المعاني، ص: ٥٧.

(٣) مقدمة كتاب المباني لنظم المعاني، ص: ٥٧.

(٤) إعلام الموقعين: ١/١٢.

(٥) صفة الصفوة: ١/٣١٦، الحلية: ١/٣٢٠، الطبقات: ٢/٣٦٧، المستدرك.: ٣/٦١٩، ح: ٦٢٩٣، بنحوه.

ويصوِّرُ عبيدالله بن عبدالله بن عتبة هذه الثقافة التي أمدت تفسير ابن عباس بقوله: «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلمِ ما سبقه، وفقهِ ما احتيج إليه من رأيه، وحِلمٍ، ونسب، وتأويل، وما رأيت أحدًا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أثقبَ رأيًا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يومًا ولا يَذْكُرُ فيه إلا الفقه، ويومًا التأويل، ويومًا المغازي، ويومًا الشعر، ويومًا أيام العرب، ولا رأيت عالمًا قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلًا قط سأله إلا وجد عنده علمًا»(١).

فكان فعلًا ممن آتاه الله علمًا غزيرًا، وحظًّا من المواهب كبيرًا، نال الذروة وقاد الفكر والرأي، علَّمَ وأفاد، فما من آية إلا وله فيها كلام أو للتابعين الآخذين عنه، ولا أغالي إذا قلت: إن تأويله للكتاب ما زال هو الشمعة التي يستضيء بها كل المفسرين إلى اليوم.

بدأ في حفظ القرآن الكريم وهو صغير، فقد روى ابن أبي مُلَيْكة قال: سمعت ابن عباس يقول: «سلوني عن سورة النساء؛ فإني قرأت القرآن وأنا صغير»(٢).

كما عَبَّر غير ما مرة عن علمه بالتأويل؛ فقد روى له الطبري قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]؛ قال: «أنا ممن يعلم تأويله»(٣). وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢]، قال: «أنا من أولئك القليل، وهم سبعة»(٤).

استوعب بحقٍّ القرآنَ كلَّه، واستفاد من رسول الله ﷺ معلِّمِه الأول، فقد أخرج الطبري في جامعه بسنده عن ابن عباس قال: كنت رِدْفَ النبي ﷺ، فقال: «**يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، ارْضَ عَنِ اللهِ**

(١) أسد الغابة لابن الأثير: ٣٨٣/٣.

(٢) المستدرك للحاكم: ٣٣٠/٢، (٣١٧٨)، وقال الذهبي: «على شرطهما»، ونقله السيوطي عنه: ٤٢٢/٢. وأيضًا أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن: ٢٨٠/١، باب فضل العلم.

(٣) جامع البيان: ١٨٣/٣، ونقله السيوطي: ١٥٢/٢، عن ابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري من طريق مجاهد.

(٤) الطبقات الكبرى: ٣٦٦/٢، وذكره الفراء في معانيه: ١٣٨/٢، وعبدالرزاق في التفسير: ٣٣٧/١، والطبري: ٢٢٦/١٥، ونقله السيوطي: ٣٧٥/٥، عن عبدالرزاق والفريابي وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق به، وقوله: وهم سبعة، أي: عدد أصحاب الكهف.

بِمَا قَدَّرَ وَإِنْ كَانَ خِلَافَ هَوَاكَ؛ فَإِنَّهُ مُثْبَتٌ فِي كِتَابِ اللهِ»، قلت: يا رسول الله، فأين وقد قرأتُ القرآن؟ قال في قوله سبحانه: «﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]»[1].

نال ابن عباس عدة ألقاب، منها: ترجمان القرآن[2]، وفارس القرآن[3]، وحبر الأمة[4]، وحبر العرب[5]، وبحر الأمة[6]، وشيخ المفسرين[7]، والأب الأول لتفسير القرآن[8]، ورباني الأمة[9]، وأفقه من مات وعاش[10]، ورباني العلم[11]، ومن الراسخين في العلم[12]، وأعلم الناس[13].

إنه بحق «قلعة من السَّداد والحكمة»[14]، ضاهى هبة الزمان في جيله وبعد جيله إلى اليوم؛ إذ كان يمثل حاجة الجيل الذي تلا جيل الرسول ﷺ إلى الوسائل والأساليب التي يستعين بها على فهم القرآن وتدبُّر معانيه، وكان أول باحث عن هذه الأسباب والوسائل[15].

---

(١) جامع البيان: ٣٤٦/٢، والدر المنثور للسيوطي: ٥٨٧/١، نقلاً عن ابن جرير.

(٢) الطبقات الكبرى: ٣٦٦/٢، والحلية: ٣١٦/١، ومصنف ابن أبي شيبة: ٣٨٣/٦، والمستدرك: ٦١٨/٣، ح: ٦٢٩١، والتهذيب: ٢٤٧/٥، والإتقان: ٢٣٤/٤.

(٣) سفينة البحار: ١٥٠/١.

(٤) التهذيب: ٢٤٧/٥، والحلية: ٣١٦/١، والمستدرك: ٦١٦/٤، ح: ٦٢٨٤، وكتاب معرفة الصحابة، والإتقان: ٢٣٤/٤..

(٥) جامع البيان: ٤٣/٢٠، والتهذيب: ٢٤٥/٥، والطبقات: ٣٦٦/٢.

(٦) الطبقات: ٣٦٦/٢، والحلية: ٣١٦/١، والمستدرك: ٦١٦/٤، ح: ٦٢٨٥، وكتاب معرفة الصحابة، والإصابة: ٣٣٣/٢.

(٧) تفسير المراغي: ٦/١.

(٨) مذاهب التفسير: ص: ٨٩.

(٩) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٧٠/٢، وتهذيب التهذيب: ٢٤٧/٥، والمستدرك على الصحيحين: ٦٢٦/٣، ح: ٦٣١٠. والإصابة: ٣٣٤/٢.

(١٠) الطبقات: ٣٧٩/٢.

(١١) مصنف ابن أبي شيبة: ١٦/٧.

(١٢) الطبقات: ٣٧٠/٢.

(١٣) الطبقات: ٣٦٩/٢. والتهذيب: ٢٤٧/٥.

(١٤) تاريخ القرآن لعبدالصبور شاهين ص: ١٦١.

(١٥) مناهج في التفسير، الصاوي الجويني: ص: ٢٤.

ولعل خير شهادة يُختَمُ بها هذا المبحث: ما جاء على لسان الحبر نفسه- حين شتمه رجل- حيث قال له: إنك تشتمني وفيَّ ثلاث خصال: «إني لآتي على الآية من كتاب الله فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يَعدِل في حكمه فأفرح به ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح، وما لي به من سائمة»[1].

عُمِّرَ طويلًا، وتوفي ﷺ عن عمرٍ يقارب السبعين سنة ٦٨هـ، ومات بالطائف، ودفن بها، وتولى وضعه في قبره محمد بن الحنفية، قال عنه تلميذه سعيد بن جبير: «مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم تَرَ عينٌ خِلْقَتَه، فدخل نعشه، ثم لم يُرَ خارجًا منه، فلمَّا دُفن تُلِيتْ هذه الآية على شفير القبر لا يُدرَى مَن تلاها[2]، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾» [الفجر].

ومما قيل بعد موته: «مات أعلم الناس، وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبةً لا تُرْتَقُ»، وهو قول جابر[3]. وقال رافع بن خَدِيج: «مات اليوم من كان يُحتاج إليه من بين المشرق والمغرب»[4]، وقال ابن الحنفية يوم موته: «اليوم مات رباني هذه الأمة»[5].

---

(١) الحلية: ١/٣٢٢.

(٢) المستدرك: ٣/٦٢٧، والتهذيب: ٥/٢٤٧.

(٣) الطبقات: ٢/٣٧٢.

(٤) الطبقات: ٢/٣٧٢.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم: ٤/١١٤٠.



المبحث الثاني

تحديد بعض المفاهيم

المنهج لغة واصطلاحًا:

المنهج لغة: كلمة مأخوذة من فعل نَهَجَ يَنْهَجُ نَهْجًا، قال ابن فارس: «النون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول النهج: الطريق؛ ونَهَجَ لي الأمرَ: أَوْضَحَه، وهو مستقيم المِنهاجِ. والمَنْهَجُ: الطريق أيضًا، والجمع: المناهج». وهو ما ذهب إلى مثله ابن منظور والزَّبيدي والفيروزابادي وغيرهم[1]. والمعنى الذي يناسبنا في هذا المقام هو الطريق الواضح. واصطلاحًا: له تعاريف متعددة بحسب الحقول المعرفية، لكن نختار من بينها: «الطريقة التي يَنْهَجُها الفرد للوصول إلى هدف معين[2]»، أو خطوات منظمة يتبعها الباحث في معالجة الموضوعات التي يقوم بدراستها إلى أن يصل إلى نتيجة معينة»[3]. وجاء عن ابن عباس في بيان قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ قال: سبيلًا وسنة. فالشِّرعة والمنهاج: الطريق الواضح[4]. وفي السنة النبوية: «**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ... ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ**»[5]، وفي حديث الرؤيا التي عبرها أبو بكر ﷺ: «**ثم يكون من بعدك رجل على منهاجك**»[6].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب، والقاموس المحيط، ومختار الصَّحاح وتاج العروس، مادة: (نهج).

(٢) محاضرات في العلوم التربوية والسلوكية، أ.د. محمود أبو دف، د. حمدان الصوفي، د. يحيى موسى، ص ٩٢، مكتبة آفاق، غزة، ٢٠٠٣م.

(٣) مناهج البحث العلمي، د. عمار بوحوش، د. محمد الذنيبات، ص ١٣، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٩م.

(٤) تفسير سفيان: ص: ١٠٣، وعبدالرزاق في التفسير: ١٨٧/١، والطبري: ٢٧٠/٦، و٢٧١، وابن أبي حاتم: ١١٥١/٤، ونقله السيوطي: ٩٦/٣، عن عبد بن حميد وسعيد بن منصور والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٥) أخرجه أحمد (١٨٤٠٦/٣٥٦/٣٠).

(٦) أخرجه أحمد (٢١١٣/٥٢٥/٢).

وعن العباس ﷺ قال: «إن رسول الله ﷺ والله ما مات حتى ترك السبيل نَهْجًا واضحًا...»[1].

ويتضح لنا من هذه النصوص وغيرها أن كلمة المنهج أو النهج أو المنهاج في الاصطلاح وفي الشرع، لا تخرج عن المعنى اللغوي الذي ذكرناه سابقًا، وهو ما تواتر في الدراسات الإنسانيّة عامّة، ويختلف معنى هذه الكلمة بحسب السياق الذي ترد فيه.

التدبُّر لغة واصطلاحًا:

«الدال والباء والراء: أصل هذا الباب أنَّ جُلَّه في قياسٍ واحد، وهو آخِر الشَّيء»[2]. والتدبُّر هو: النظر في عواقب الأمور[3]. وفي اللسان: «النظر الثاقب في أدبار الأمور والوقوف على ما تنتهي إليه»[4]. واصطلاحًا: «عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر الذي يعني تصرفَ القلب بالنظر في الدليل، والتدبُّر تصرفه بالنظر في العواقب»[5]. وباختصار عند بعض العلماء: «العمل على تحقيق وتحديق النظر فيما يبلغه المعنى القرآني المدِيدُ من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذا نظر لا يتناهَى، فإن المعنى القرآني له أصل يبدأ منه، ولكن منتهاه لا يكاد يبلغه أحدٌ من العباد، فصاحب القرآن الكريم في سَفَر دائم طلبًا للمزيد من المعنى القرآني»[6]. «وكلُّ تَعَقُّلٍ وتَفَكُّرٍ وتَفَقُّهٍ وتَفَهُّمٍ للبيان القرآني لا يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم لا يكون من تدبُّر القرآن الكريم في شيْءٍ»[7]. وجاء عن ابن عباس في بيان قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]، قال: «فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وما فيه من المواعظ والذكر، والأمر والنهي، وأن أحدًا من الخلائق لا يقدر عليه»[8]. وعلى هذا يكون المقصود من الحديث عن منهجية تدبُّر القرآن الكريم عند ابن عباس: الطريقة والخطوات المنظمة التي اتبعها أو نَهَجَها حبر الأمة في تدبُّره لآيات الكتاب لإيصال الخطاب إلى عقول العباد وقلوبهم.

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٨٤/٢٢١. تعليق المحقق: «رجاله ثقات غير أنه مرسل».

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

(٣) دستور العلماء جامع العلوم في اصطلاحات الفنون لنكري: ١/١٩٤. والتعريفات: ١/٥٤.والقاموس الفقهي: ١/١٢٨.

(٤) لسان العرب مادة: دبر.

(٥) التعريفات للجرجاني...بتصرف.١/٥٤.

(٦) العزفُ على أنوار الذِّكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنّي في سياق السورة. لمحمود توفيق.١/١١

(٧) العزفُ على أنوار الذِّكر.١/١١

(٨) زاد المسير لابن الجوزي: ١/٤٣٨، لباب التأويل للخازن: ١/٤٠٢.



المبحث الثالث

منهجية ابن عباس في تدبر القرآن

مدخل:

تخبرنا مرويات التفسير والحديث وكتب التراجم والتاريخ، عن اكتمال الفهم والمعرفة لأصول الدين جميعًا لدى الصحابة ﷺ، وكان ذلك بفضل تدبُّرهم لآيات القرآن امتثالًا لقوله تعالى: «﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]. ومن المسلَّم به أن الرسول ﷺ قد بلَّغَ الرسالة كما أُمِرَ، ولم يكتم منها شيئًا امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وبإقرار الرسول ﷺ بذلك: «**لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ...**»[1]. وقول عائشة ﷺ فيما رواه عنها مسروق قَالَ: «كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: [...] وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧][2] [...]. وقال أبو ذر: «تَرَكْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا وَهُوَ يُذَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا»[3]. كان مَن سَمَّاهم القرآن: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] حريصين على الاستيعاب الدقيق لكل ما يسمعونه أو يتعلمونه، فقد روي عَنْ أَبِي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٣٣٢/٧٩/٧)، والحاكم في المستدرك (٢١٣٦/٥/٢)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١/٣٠٣/١٤) من حديث ابن مسعود.

(٢) صحيح مسلم (١/ ١٥٩) ١٧٧/٢٨٧.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٥٥) ١٦٤٧.

عَبْدِالرَّحْمَنِ قَالَ: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»(١)، وقام عبدالله بن عمر ﷺ بحفظ سورة البقرة في ثمانِ سنين لاستغراقه في المعرفة والفهم(٢)، وكانت أم الدرداء ﷺ تصف زوجها بأن أفضل عمله التفكر(٣). وعلى هديهم سار عبدالله بن عباس ﷺ في تعلم القرآن وفهمه وتدبُّر معانيه، فقد استوعب القرآن جملة وتفصيلًا، ونُقِل عنه في تفسيره وبيان معانيه من النصوص أكثر من أن يُحصَى أو يُعَد، إذ يقول تلميذه مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أُوقِفُه عند كل آية منه وأسأله عنها»(٤)، وفي رواية(٥): ثلاثين عرضة(٦). وروى ابن جرير عن ابن أبي مُلَيْكة قال: «رأيت مجاهدًا سأل عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، قال ابن عباس: «اكتب، حتى سأله عن التفسير كله»(٧).

وبالرجوع إلى الآثار المروية عن ابن عباس في مختلف المظانِّ من كتب تفسير وحديث وطبقات ومصنفات ومسانيد وغيرها، التي تتجاوز ٧٥٠٠ أثر دون المكرور، يتبين لكل ذي عينين

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٤٦٦) ٢٣٤٨٢. إسناده حسن. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٤٦٠-٤٦١ عن محمد بن فضيل، بهذا الإسناد. وأخرجه ابن سعد ٦/١٧٢. والطبري في تفسيره ١/٣٦ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٤٥١) و(١٤٥٢).وأورده الدارقطني في «العلل» ٣/٦٠ والحاكم ١/٥٥٧، وعنه البيهقي ٣/١١٩-١٢٠.

(٢) الفتاوى الكبرى، (٥/ ١٥٥/ ١٥٦).

(٣) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، د مصطفى محمد حلمي: ١/٢٢.نقلاً عن نقض المنطق: ٨٧.

(٤) المعرفة والتاريخ: ١/٧١٢، وجامع البيان: ١/٤٠، والحلية: ٣/٢٧٩، والبداية: ٩/١٨٩، والتهذيب: ١٠/٣٩، ومصنف ابن أبي شيبة: ٦/١٥٤، والمستدرك للحاكم: ٢/٣٠٧، كتاب التفسير ح: ٣١٠٥، ومقدمة ابن تيمية: ص: ٧.

(٥) الحلية: ٣/٢٨٠، وطبقات ابن سعد: ٥/٤٦٦، وتهذيب الأسماء: ١/٨٣، والعبر للذهبي: ١/١٢٥، ميزان الاعتدال: ٣/٤٣٩، وطبقات الداودي: ٢/٣٠٧، والتهذيب: ١٠/٣٨، والبداية: ٩/١٨٩، وغاية النهاية: ٢/٤٢. وزاد فيها أن: « ١٩مرة من العرضات المذكورة كلها يأمره فيها أن يكرر من سورة ألم نشرح».

(٦) وهذا لا يعني أبدًا التعارض؛ لأن الإخبار بالقليل لا ينافي الإخبار بالكثير، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط ودقة التجويد وحسن الأداء، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلبًا لتفسيره ومعرفة ما دق من أسراره وخفي من معانيه، كما تُشْعِر بذلك ألفاظ الرواية.

(٧) جامع البيان: ١/٤٠.

أن ابن عباس ﷺ كان له منهج تدبُّري، مؤسس على ما استفاده وتعلمه من معلمه الأول محمد رسول الله ﷺ، ثم الشيوخ الكبار من الصحابة الأجلاء، هذا المنهج بُنِيَ بناء سليمًا على ست صفات أحسب أهميتها عند كل متدبِّر لكتاب الله، وهي صفات تمثلها ابن عباس حبر الأمة؛ وهي: العلم والمعرفة، واللين والرقة، والخوف والخشية، والتلاوة بالأسوة والقدوة، والاستماع بالإصغاء والسكينة، والبكاء بغزارة الدمع. تمثَّلَها بكل وعي وقوة عند تعامله مع آي الكتاب، سواء في تفكره أو قراءة ما بين أسطر الآيات، أو في مواعظه وذكره، أو في تعامله مع الأوامر والنواهي، أو في نظرته لعظمة الخالق وكتابه.

ويمكن بيان تجليات ذلك في جملة من العناصر الأساسية ممثلة في:

المطلب الأول: إحسان البيان لتقوية الإيمان

وهذا لا يتحقق إلا بما يأتي:

أولًا: تقديس الآيات ابتداء

١- **بيان تعظيم الخالق:** لا شك أن السلف الصالح- وبخاصَّة الجيل الأول- كانوا يحتاطون لعقيدتهم قولًا وفعلًا ونظرًا، وقد شغلهم الاهتمام بتوعية العامة، وتثقيف تلامذتهم بما يحصن عقيدتهم ويقوي إيمانهم، بمنهج سليم واضح ميسر، اتضح هذا في بيان ابن عباس حبر الأمة لآيات الكتاب، أذكر من ذلك نماذج صرح فيها بما اختلج في كيانه من الدعوة إلى تصحيح العقيدة بتوجيه التفكر بقوله: «تفكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة»[1] فقد بيَّنَّ ما ينبغي التفكير فيه وكيفية ذلك، من ذات إلاهية وصفات وأسماء، وكون وإنسان، وحقيقة الشيطان ووساوسه، وقَدَر، وغير ذلك مما حوته آيات الكتاب من قضايا عالجها ابن عباس في تدبُّره؛ إذ دعا إلى التفكر في الخلق لا في الذات، بقوله: «تَفَكَّروا في خلق الله ولا تَفَكَّروا في ذاته»[2]. وفي رواية قال: «تَفَكَّروا

(١) العظمة لأبي الشيخ: ٤٢/٢٩٧/١ ما ذكر من الفضل في المتفكر في ذلك، والدر المنثور: ٤١١/٢ نقلاً عن أبي الشيخ.
(٢) الدر المنثور: ٤٠٩/٢. نقلاً عن البيهقي.

في كل شيء ولا تَفَكَّروا في ذات الله؛ فإن بين السماء السابعة إلى كرسيِّه سبعةَ آلاف نور، وهو فوق ذلك»[1]. كما كان يُبْدِعُ في الجواب إن تعلق بالأمور الغيبية، فقد سأله أحدهم مرة عن الوِلْدان أفي الجنة هم؟ قال: حسبك ما اختصم فيه موسى والخضر[2]. كما انتقل بحديثه عن أسماء الله وصفاته، فتحدث عن قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١][3]. وعن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة]، فقال: «الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها»[4]. وعن «الحمد لله رب العالمين»، فقال بلسان جبريل يحدث محمدًا ﷺ: «قل الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات كلهن ومن فيهن، والأرض كلهن ومن فيهن وما بينهن مما يُعلَم ومما لا يُعلَم، يقول: اعلم يا محمد، أن ربك هذا لا يشبهه أحد»[5]. وعن قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف] «وفوق كل ذي علم عليم»؛ فقال لرجل قال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم، وهو فوق كل عالم[6]. وقال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم[7]. وزاد الأمر بيانًا عندما تحدث عن قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: «إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصلي ربك؟ قال: اتقوا الله، قالوا: فهل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، قالوا: فهل يصبغ ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربه ﷻ: يا موسى، سألوك: هل يصلي ربك؟ فقل: نعم، أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله ﷻ

---

(١) الدر المنثور: ١١٠/١.

(٢) المستدرك: ٤٠١/٢/٣٣٩٨/كتاب التفسير، وقال الذهبي: «على شرطهما»، ونقله السيوطي: ٤٢٦/٥، عن ابن أبي حاتم والحاكم عن ابن أبي مليكة به.

(٣) الدر المنثور: ١٣٩/٥.

(٤) جامع البيان: ٥٤/١، وذكره ابن أبي حاتم بالسند نفسه: ٢٦/١، والسيوطي: ٢٤/١، عن البيهقي في الأسماء والصفات مع بعض الزيادات.

(٥) جامع البيان: ٦٢/١، وذكره ابن أبي حاتم: ٢٧/١، بالسند نفسه، وذكره ابن كثير: ٤٢/١،

(٦) تفسير عبدالرزاق: ٢٨٤/١، والطبري: ٢٦/١٣، و٢٧/١٣، وابن أبي حاتم: ٢١٧٧/٧، ونقله السيوطي: ٥٦٢/٤، عن عبدالرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٧) الدر المنثور: ٥٦٢/٤.

على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، إلى آخرها. وسألوك: هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين بيديك فقم الليل، ففعل موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم، فلما ذهب من الليل ثلث نَعَسَ فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات على الأرضين فهلكَتْ كما هلكت الزجاجتان بيديك، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ آية الكرسي. وسألوك: هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها في صبغي، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، إلى آخرها»[1].

٢- **بيان خطورة وساوس الشيطان العقيدية وغيرها ورَدُّها:** وهذا أمر عقيدي، ومن المعلوم أن كيد إبليس مع أمة محمد انتقل إلى الوسوسة؛ لهذا أمرنا رب العالمين أن نستعيذ منه بالمعوذتين، بلفظ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس]؛ كما جاء في حديث النبي ﷺ الذي رواه ابن عباس قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أحدنا يجدُ في نفسِهِ، يُعرِّضُ بالشَّيءِ، لَأَنْ يكونَ حُمَمَةً أحَبُّ إليه من أن يتكلَّم بِهِ، فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الحمدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**» قال ابنُ قدامة: «**رَدَّ أَمْرَهُ**» مكانَ: «**رَدَّ كَيْدَهُ**»[2]. وهي أمور عالجها ابن عباس بدقيق تدبُّره في آيات الله، فقد أخرج أبو داود عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، فقال لي: أشيء من شك؟ وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئًا فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد][3]. وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عباس، سمعت الله يقول: «وكان

---

(١) العظمة لأبي الشيخ: ٢/٤٥٢-٤٥٣، ٢٢، والدر المنثور: ٦/٦٤٦، نقلاً عن أبي الشيخ وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) سنن أبي داود ت الأرناؤوط ٧/ ٥١١٢/٤٣٥. إسناده صحيح، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٤٣٥) و(١٠٤٣٦) من طريق شعبة، وأخرجه النسائي (١٠٤٣٤)، ومسند أحمد (٢٠٩٧)، وصحيح ابن حبان ١٤٧.

(٣) الدر المنثور: ٨/٤٩.

الله» كأنه شيء كان، فقال ابن عباس: أما قوله: «وكان الله» فإنه لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن[1]. وعنه قال: قال يهودي: إنكم تزعمون أن الله كان عزيزًا حكيمًا، فكيف هو اليوم؟ قال ابن عباس: إنه كان من نفسه عزيزًا حكيمًا[2]. كما حرَص ﷺ على توجيه المسلمين إلى الكيفية التي يجب أن يواجهوا بها كيد الشيطان ووساوسه، فقد روي عنه قوله: «إذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واحملوا عليه، إن كيد الشيطان كان ضعيفًا»[3]. وقيل له يومًا: هل لك في عُبيد بن عُمير إذا سمع النداء خرج فتوضأ؟ فقال ابن عباس: هكذا يصنع الشيطان، إذا جاء فآذنوني، فلما جاء أخبروه، فقال: ما يحملك على ما تصنع؟ فقال: إن الله يقول: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] فتلا الآيةَ، فقال ابن عباس: ليس هكذا، إذا توضأت فأنت طاهر ما لم تُحْدِثْ[4].

وروي عنه مرة أنه قال: «أيما رجل منكم تخيل له الشيطان حتى يراه فلا يَصُدَّنَّ عنه وليَمْضِ قُدُمًا، فإنهم منكم أشدُّ فَرَقًا منكم منهم، فإنه إن صَدَّ عنه رَكِبَه، وإن مضى هرب منه. قال مجاهد: أنا ابتليت به حتى رأيته، فذكرت قول ابن عباس ﷺ، فمضيت قُدُمًا، فهَرَبَ مني»[5]. وبيَّنَ لعبدالله بن عمرو أرجى آية في الكتاب، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال: قال ابن عباس: فرضي منه بقول: بلى، قال: فهذا لما يعترض في الصدور مما يوسوس به الشيطان[6]. وليس كما فهم عبدالله بن عمرو قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٨٩٩/٣، و: ٩٤٤/٣، و: ١١١٢/٣و٢٧١١/٨،

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ١١١٢/٤، ونقله عنه السيوطي: ٧٣٢/٢.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٠٣/٣، ونقله السيوطي: ٥٩٣/٢، عن عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٥٧/١.

(٥) العظمة لأبي الشيخ: ١٦٨٦/٥، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٤٣٦/٣.

(٦) فضائل القرآن: ٨٦/٢، وذكره عبدالرزاق في تفسيره: ١١٦/١، والطبري: ٤٩/٣، وابن كثير: ٥٦٠/١، والحاكم في المستدرك: ١٢٨/١/ (١٩٨) كتاب الايمان، وقال الذهبي: «فيه انقطاع»، والسيوطي: ٣٤/٢، عن عبدالرزاق وابن جرير، وأيضًا عن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن أبي حاتم.

٣- **تعظيم آيات الكتاب**: فمن عرف قيمة الشيء اهتم به، ومن أقواله المأثورة: «تَضَمَّنَ اللهُ لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه]»(١). وقال: «من سمع آية من كتاب الله تتلى كانت له نورًا يوم القيامة»(٢). وكان إذا رأى المصحف قد فُضِّضَ أو ذُهِّبَ، قال: «أَتُغْرُونَ به السرُّاقَ، وزينتُه في جوفه؟»(٣). وهذا قد يشترك فيه مع الكثيرين ممن تعاملوا مع كتاب الله قراءة وتفسيرًا وتعليمًا وتدبُّرًا، لكن ابن عباس صدر منه في أثناء قراءته للكتاب ما يؤكد نظرته الخاصة له، وهي تتضح في جملة عناصر؛ منها:

أ- **أصل القرآن وصفته**: فقد روي عنه أنه صلى على جنازة، فقال رجل: اللَّهُمَّ رب القرآن العظيم، اغفر له، فقال ابن عباس: «ثَكِلَتْك أمك! إن القرآن منه، إن القرآن منه»(٤). وروى عنه ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، قال: «إن هذا القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تُبلَغُ غايتُه، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف غوى، أخبار وأمثال، وحرام وحلال، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظَهْرٌ وبَطْنٌ، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء، وإياكم وزلَّةَ العالم!»(٥). وجاءه يومًا رجل من حضرموت سائلاً عن القرآن: أكلام من كلام الله أم خلق من خلق الله؟ قال: بل كلام من كلام الله، أوما سمعت الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؟ فقال له الرجل: أفرأيت قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] قال: كتبه الله في اللوح المحفوظ بالعربية، أما سمعت الله يقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج]؟ المجيد: هو العزيز؛ أي: كتبه الله في اللوح المحفوظ(٦).

---

(١) جامع البيان: ١٤٧/١، وتفسير ابن كثير: ١٤٣/١.

(٢) فضائل القرآن: ٢٤٩/١، وذكره عبدالرزاق في مصنفه: ٣١٠/٣.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد: ٢٣٤/٢، وذكره ابن أبي شيبة: ٣٠٢٣٣/١٤٩/٦، في المصحف يحلى.

(٤) شعب الإيمان: ١٦٨/١٨٨/١، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٢٢٤/٧.

(٥) الدر المنثور: ١٥٠/٢، وروح المعاني للألوسي: ٧/١.

(٦) الدر المنثور: ٣٦٥/٧.

ب- **مكانة القرآن بين الكتب**: فقد روى عنه ابنه عبيدالله أنه قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل عليكم بين أظهركم محصن ولم يشب؟ فهو أحدث الأخبار بالله، وقد أخبركم الله عن أهل الكتاب أنهم كتبوا بأيديهم كتبًا ثم قالوا: هذا من عند الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا، فبدلوها وحرفوها عن موضعها، أفما ينهاكم ما جاءكم الله عن مسألتهم؟ فوالله ما رأينا أحدًا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم»(١).

ج- **دقة أحرفه وكلماته**: وهذا لا يخفى على مُطَّلع حصيف، فحبر الأمة عاش مع القرآن، وغاص في أحرفه كما في جُمَلِه، يتجلى هذا في كثير مما روي عنه، من ذلك: أنه كان يقرأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: ٤٨] قال: خذوا هذه الواو واجعلوها ههنا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآية(٢). وكان يقرأ قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح] قال: إذا أَشْكَلَ ياءٌ أو تاءٌ فاجعلوها على ياء؛ فإن القرآن كله على ياء(٣). وقال: «كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما عنى به الذنب»(٤). وفي قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة] قال: «كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا ألا يذبحوها، وكل شيء في القرآن «كاد» أو «كادوا» أو «لو» فإنه لا يكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]»(٥). وقال: «عسى من الله واجب»(٦). وقال:

(١) المصنف لعبدالرزاق: ١١٠/٦، وفتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب التوحيد، ٦٠٧/١٣، رقم الحديث: ٧٥٢٢، و٧٥٢٣، وذكره أيضًا في كتاب الشهادات، باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، ٣٦٥/٥، رقم الحديث: ٢٦٨٥، وتكرر أيضًا في الحديث رقم: ٧٣٦٣، وذكره ابن أبي حاتم: ١٥٤/١، والبيهقي: ٢٧٤/١٠، وابن أبي شيبة: ٣١٣/٥. والحاكم في المستدرك: ٣٠٤١/٢٨٩/٢/كتاب التفسير، وهو على شرطهما، وذكره ابن كثير: ٤٠٦/١. والسيوطي: ٤٠٢/١، عن عبدالرزاق والبخاري وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٢) الدر المنثور: ٦٣٤/٥.

(٣) الدر المنثور: ٥١٦/٧.

(٤) جامع البيان: ١٨٥/١، وذكره ابن كثير: ١١٦/١به، والسيوطي: ١٠٥/١، عن ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) جامع البيان: ٣٥٤/١، وابن أبي حاتم: ١٤٣/١، وابن كثير: ١٩٤/١،

(٦) الدر المنثور: ٥٨٧/١، ولم أعثر على الأثر عند البيهقي منسوبًا لابن عباس لكني وجدته عنده منسوبًا للشافعي، ١٣/٩.

«كل سلطان في القرآن حجة»(١). وكل شيء في القرآن «قُتِلَ» فهو «لُعِنَ»(٢). وقال مرة للضحاك: «احفظ عني، كُلُّ شيء في القرآن ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة] فهي للمشركين، فأما المؤمنون فما أكثر شفعاءهم وأنصارهم!»(٣).

إنها إشارات مختصرة في استيعابه وتدبُّره لأحرف الآيات وكلياتها، ولا يسعنا التفصيل في كل ما ذكر، يتبين من خلالها حُسْنُ تدبُّرِهِ لآيات الكتاب، وبُعْدُ نظره في أجزائه كما في كلياته.

ثانيًا: تقديس الآيات امتثالًا:

١-**الإنصات والتسليم**: وبهذا حصل لهم الفلاح؛ لأن مشكلة أبناء الأمة اليوم هي في ضعف الإنصات، وغياب التسليم، ولا فوز لنا إلا باتباع نهج الأوائل، وقد وردت عن حبر الأمة في هذا أقوال تعبر عن هذا المنهج الأمثل والأقوم تعبر عن حسن نظرهم لكتاب الله وحسن توجيههم لعامة الناس، حيث جاءه رجل فقال: اعْهَدْ إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأوعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه(٤). وكان ﷺ يعيش مع القرآن بالفعل قبل القول، حيث يروي عنه زيد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن ابن عباس قال: «جاءه نعي بعض أهله وهو في سفر، فصلى ركعتين ثم قال: فعلنا ما أمر الله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]»(٥). ويلتزم حرفية النص، حيث قال: «إنما أمرتم بالطواف ولم تؤمروا بدخوله»(٦). وكان يقول: «حق على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم؛ لأن الله تعالى يقول:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ١٤٧١/٥، ونقله السيوطي: ٧٢١/٢، عن عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه،

(٢) جامع البيان: ١١٣/١٠، وابن أبي حاتم: ١٧٨٣/٦، ونقله السيوطي: ١٧٣/٤، عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابي الشيخ.

(٣) الدر المنثور: ٢٤٥/٤، ولم أعثر على الأثر عند أبي الشيخ في العظمة.

(٤) الدر المنثور: ٢٥٢/١، وقد بحثت عن النص في الكتب التي نقل عنها السيوطي فوجدت النص مسندًا لابن مسعود. انظر: الزهد لابن حنبل: ١٥٨/١، والبيهقي في شعب الإيمان: ٢٠٤٥/٣٦١/٢، وحلية الأولياء: ١٣٠/١.

(٥) المستدرك: ٢٩٦/٢، حديث رقم: ٣٠٦٧، وقال: «صحيح»، ونقله ابن كثير عن ابن جرير: ١٥٢/١،

(٦) جامع البيان: ٢٣/٢.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة]»[1].

وكان يقول: «الله أكبر كبيرًا، الله أكبر كبيرًا، الله أكبر وأجل، الله أكبر ولله الحمد»[2]. وروى قيس بن أبي حازم قال: صليت خلف ابن عباس بالبصرة، فقرأ في أول الركعة بـ(الحمدُ لله) وأولِ آية من البقرة ثم ركع، ثم قام في الثانية، فقرأ: الحمدُ لله والآيةَ الثانيةَ من البقرة، ثم ركع، فلما انصرف أقبل علينا فقال: إن الله يقول: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠][3] وقال: من نذر أن ينحر نفسه أو ولده فليذبح كبشًا، ثم تلا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١][4]. وقال لرجل قال: نذرت لأنحرن نفسي، قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ثم تلا: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات]، ثم أمره بذبح كبش[5]. وعن عمرو بن دينار قال: رأيت ابن عباس يكبر يوم النحر ويتلو: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣][6]. وطاف يومًا مع معاوية بالبيت، فجعل معاوية يستلم الأركان كلها، فقال له ابن عباس: لمَ تستلم هذين الركنين ولم يكن رسول الله ﷺ يستلمهما؟ فقال معاوية: ليس شيء من البيت مهجورًا، فقال ابن عباس: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. فقال معاوية: صدقت[7].

٢- **التأثُّر دون تكلُّف**: وهذا من حسن تدبُّره، وتعليمه لغيره، فقد جاء أبو جمرة نصر بن عبدالرحمن وقال لابن عباس: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأَدَبَّرَها وأرتِّلَها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول. وفي رواية: أحب إلي من أقرأ القرآن

---

(١) جامع البيان: ١٥٧/٢، وذكره ابن كثير: ٣٨٤/١، بلفظ: «ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله إلا بالتكبير». ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٤٦٨/١.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٥٦٥٥/٤٩٠/١، والدر المنثور: ٤٦٨/١، عن ابن أبي شيبة والمروزي والبيهقي في سننه.

(٣) سنن البيهقي الكبرى: ٢٢٠١/٤٠/٢، وقال علي بن عمر: «هذا إسناد حسن، وفيه حجة لمن يقول: إن معنى قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ إن ذلك إنما هو بعد قراءة فاتحة الكتاب والله أعلم». وسنن الدارقطني: ٤/٣٣٨/١، والدر المنثور: ٣٢٣/٨.

(٤) المعجم الكبير: ١١٩٩٥/٣٥٣/١١، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ١١٤/٧.

(٥) مصنف عبدالرزاق: ١٥٩٠٤/٤٦٠/٨، المعجم الأوسط: ٤٠٨/٧٤/١، والدر المنثور: ١١٤/٧، عن عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه.

(٦) الدر المنثور: ٥٦٢/١.

(٧) مسند أحمد: ٢٦٦/٣، /١٨٧٧، وذكره الحاكم في المستدرك ٦٣٠٥/٦٢٤/٣.وقال: «صحيح».

هَذْرَمةً[1]. وقال ابن أبي مُلَيْكة: «صَحِبْت ابن عباس من مكة إلى المدينة ومن المدينة إلى مكة، فكان إذا نزل منزلًا قام شَطْرَ الليل فأكثر في ذلك النشيج، قلت: وما النشيج؟ قال: النحيبُ البكاءُ، ويقرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق][2]. وقال: «إذا قرأتم سجدة «سبحان» فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه»[3].

٣- **العزيمة بدل الرخصة**: وهذا في نفسه قبل غيره، ثم في أقرب الناس إليه، ثم لكل الناس المتأمِّلين في أقواله، حيث روى عكرمة أن ابن عباس لما سقط في عينيه الماء، أراد أن يخرجه من عينيه، فقيل له: إنك تستلقي سبعة أيام لا تصلي إلا مستلقيًا، قال: فكره ذلك وقال: «إنه بلغني أنه من ترك الصلاة وهو يستطيع أن يصلي لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»[4]. ولما اشتكى بصره قيل له: نداويك وتدع الصلاة أيامًا؟ قال: لا؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»[5]. وعن مجاهد أنه دعا سُمَيْعًا وكُريبًا وعكرمة فقال لهم: «إنكم قد بلغتم ما يبلغ الرجال من شأن النساء، فمن أحب منكم أن أزوِّجه زوَّجْتُه، لم يزنِ رجلٌ قط إلا نزع الله منه نور الإسلام، يرده الله إن شاء أن يرده، أو يمنعه إن شاء أن يمنعه»[6].

٤- **اعتبار أوليات القرآن**: حيث رويت عنه آثار متعددة في جملة مواضيع مختلفة، ففي أمور تتعلق بالحج، روي أن رجلًا أتاه فقال: يا ابن عباس، أبدأ بالصفا قبل المروة، أو أبدأ بالمروة قبل الصفا، أو أصلي قبل أن أطوف، أو أذبح قبل أن أحلق، أو أحلق قبل أن أذبح؟ فقال ابن عباس:

---

(١) فضائل القرآن: ٣٢٦/١، ونقله السيوطي: ٣١٣/٨، عن الفريابي بلفظ: «يقرأ آيتين ثلاثة ثم يقطع لا يهذرم».

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٣٥٧٢٠/٢٤٤/٧، والزهد: ١٠٤٣/٢٧٨.وذكره أبو نعيم في الحلية: ٣٢٧/١ ونقله السيوطي: ٥٩٨/٧، عن ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن ابن أبي مليكة.

(٣) الكشاف للزمخشري: ٢٥/٣.

(٤) سنن البيهقي الكبرى: ٣٤٩٩/٣٠٩/٢.، ونقله السيوطي في الدر المنثور: ٧١٢/١، و٧١٣، ولم أعثر عليه في كتابه الطبقات.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٧٨٢/٢٩٤/١١)، ونور الدين الهيثمي في كشف الأستار (٣٤٤/١٧٤/١)، ورواه اللالكائي موقوفًا على ابن عباس في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٥٣٥/٩٠٩/٤).

(٦) سنن سعيد بن منصور: ١٤٠/١، باب الترغيب في النكاح، وذكره عبدالرزاق في المصنف: ٤١٧/٧، وذكره ابن أبي شيبة: ١٧٦٤٠/٤٦/٤/ باب ما ذكر في الزنا وما جاء فيه، وذكره ابن أبي شيبة: ٣٠٣٣٠/١٦٠/٦/ ما قالوا في صفة الإيمان، وأيضًا: ٣٠٣٥٢/١٦٣/٦.

خذ ذلك من قِبَل القرآن فإنه أجدر أن يُحفَظ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فالصفا قبل المروة، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال بالذبح قبل الحلق، وقال ﷻ: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] فالطواف قبل الصلاة[١]. وقيل له مرة: كيف تأمر بالعمرة قبل الحج والله يقول: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]؟ فقال: كيف تقرؤون؟ إن الدَّين قبل الوصيَّة أو الوصيَّة قبل الدَّين؟ قالوا: الوصيَّة قبل الدَّين، قال: فبأيهما تبدؤون؟ قالوا: بالدَّين، قال: فهو ذلك[٢]. وقال مرة: من كان له مال يبلِّغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابْن عباس، اتق الله! إنما سأل الرجعةَ الكفارُ، قال: سأتلو عليك بذلك قرآنًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ٩، ١٠] إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١١] قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مئتي درهم فصاعدًا، قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والبعير[٣]. وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] قال: قد غفر له، إنهم يتأولونها على غير تأويلها، إن العمرة لتكفر ما معها من الذنوب فكيف بالحج؟[٤].

وفي الصلاة سئل مرة عما يقطع الصلاة، لورود أحاديث في الموضوع، فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وما يقطع هذا؟[٥]. وفي حديثه عن صلاة الضحى

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٣٣٢/٣، وذكره ابن أبي حاتم: ٣٣٧/١، وذكره الدارقطني: ١٧٩/٢، ح رقم: ٢٤٣٠ والحاكم: ٢٩٣/٢، حديث رقم: ٣٠٥٦، وقال: «صحيح»، وأيضًا: ٣٠٥٧، وقال: «صحيح»، وأيضًا: ٢٩٧/٢.

(٢) مسند الشافعي: ١٧٦٢/٣٨٤/١، وقال الشافعي ﷺ: «يعني أن التقديم جائز». وسنن البيهقي الكبرى: ١٢٣٤٤/٢٦٨/٦، ونقله السيوطي الدر المنثور: ٥٠٣/١-٥٠٤، عن الشافعي والبيهقي.

(٣) جامع البيان: ١١٨/٢٨.

(٤) جامع البيان: ٣٠٧/٢، والسيوطي: ٥٦٨/١، عن ابن جرير.

(٥) المصنف لعبدالرزاق: ٢٩/٢، وذكره ابن أبي شيبة: ٢٥٨/٢، وسنن البيهقي الكبرى: ٣٣٢٨/٢٧٩/٢، ونقله السيوطي: ١٠/٧، عن عبدالرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي في سننه.

في القرآن، قال: لا يغوص عليها إلا غائص، ثم قرأ: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص][1].

وسئل عن صلاة الفجر، فقال: إنها لفي كتاب الله، ولا يقوم عليها، ثم قرأ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]... الآية[2].

وفي الصدقة في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال: «لَأَنْ أُقْرِضَ مئة درهم مرتين أحب إليَّ من أن أتصدق بها مرة»[3].

٥- **إنزال الآيات على الواقع**: حيث روي أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال لهم: «إن الله ستير يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله ﷻ بعدُ بالستور، فبسط عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به»[4].

٦- **حسن الإفهام لأهل الكتاب والمخالفين**: حيث روي أن رجلًا من أهل الكتاب جاءه فقال: تقولون: جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال ابن عباس: أرأيت الليل إذا جاء أين يكون النهار؟ وإذا جاء النهار أين يكون الليل؟[5]. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ قال: من سلَّم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيًّا؛ ذلك أن الله يقول:

---

(١) مصنف عبدالرزاق: ٤٨٧١/٧٩/٣، وأيضًا: ٤٨٧٠/٧٩/٣، عن معمر عن عطاء الخراساني بلفظ: «لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى قرأت: {سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق}». ونقله السيوطي في الدر المنثور: ٢٠٦/٦، عن ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب.

(٢) جامع البيان: ١٦٧/٩.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٢٢٢٤٠/٤٧٣/٤/ما جاء في ثواب القرض والمنيحة.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٣٢/٨، وقال فيه ابن كثير: «هذا صحيح إلى ابن عباس». وسنن البيهقي الكبرى: ١٣٣٣٧/٩٧/٧، ونقله السيوطي: ٢١٩/٦، عن أبي داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن.

(٥) جامع البيان: ٤/، ٩٢، ونقله السيوطي: ٣١٥/٢، عن عبد بن حميد وابن جرير.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦][1]، وفي رواية قال: «لو قال لي فرعون خيرًا لرددت عليه»[2]. وقال: «إني لأرى لجواب الكتاب حقًّا كرد السلام»[3].

- وفي القدرية، يحكي تلميذه طاوس قال: كنت عند ابن عباس ومعنا رجل من القدرية، فقلت: إن أناسًا يقولون: لا قدر، قال: أوفي القوم أحد منهم؟ قلت: لو كان ما كنت تصنع به؟ قال: لو كان فيهم أحد منهم لأخذت برأسه ثم قرأت عليه آية كذا وكذا: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ [الإسراء][4]. وذكر له أن قومًا يقولون في القدر، فقال ابن عباس: إنهم يُكَذِّبون بكتاب الله، فلآخذن بشعر أحدهم، فلأَنْصِينَّه، إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، وأول شيء خلق القلم، وأمره أن يكتب ما هو كائن، فإنما يجري الناس على أمر قد فُرِغَ منه[5]. وقال: ما في الأرض قوم أبغض إليَّ من القدرية، وما ذاك إلا لأنهم لا يعلمون قدرة الله تعالى، قال الله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء][6]. وذكر القدرية فقال: لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا، ثم قال: الزنا والسرقة بقَدَرٍ، وشرب الخمر بقَدَرٍ[7].

- وعن الخوارج روى أبو زُمَيل الحنفي، عن ابن عباس قال: لما اعتزلت الحروريةُ قلت لعلي: يا أمير المؤمنين، أَبْرِدْ عنِّي الصلاةَ لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلِّمَهم، قال: إني أتخوَّفُهم عليك، قال: قلت كلا إن شاء الله، فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، فدخلت على قوم لم أر قومًا قط أشد اجتهادًا منهم، أيديهم كأنها ثَفِنُ إبل، ووجوههم مُقَلَّبةٌ من آثار السجود، قال: فدخلت: فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم، على أصحاب رسول الله ﷺ نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٣/١٠٢٠-١٠٢١، ونقله السيوطي: ٢/٦٠٦، عن ابن أبي حاتم.

(٢) كتاب الصمت لابن أبي الدنيا ٥/١٩٩، وأيضًا: ٥/١٩٨، والطبري: ٥/١٨٩، وابن أبي حاتم: ٣/١٠٢٠، ١٠٢١، والحلية: ١/٣٢٢، ونقله السيوطي: ٢/٦٠٦، عن البخاري في الأدب وابن المنذر.

(٣) الأدب المفرد: ١/٣٨٢/١١١٧، وشعب الإيمان: ٦/٥١٠/٩٠٩٧ ونقله السيوطي في الدر المنثور: ٢/٦٠٨، عن البيهقي.

(٤) المستدرك: ٢/٣٩٢/٣٣٧٢/كتاب التفسير، وقال الذهبي: «على شرطهما»، ونقله السيوطي: ٥/٢٣٩، عن ابن المنذر والحاكم.

(٥) الدر المنثور: ٧/٦٨٦.

(٦) الدر المنثور: ٥/٦٢٢.

(٧) - الدر المنثور: ٧/٦٨٦.

فقال بعضهم: لا تُحَدِّثوه، وقال بعضهم: لنُحَدِّثَنه، قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله وخَتَنِه، وأول من آمن به وأصحابُ رسول الله معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثًا، قلت: وما هن؟ قالوا: أولاهن: أنه حكَّمَ الرجال في دين الله، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠، ٦٧] قال: قلت: وماذا؟ قال: قالوا: قاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يغنم، لئن كانوا كفارًا لقد حلت له أموالهم، وإن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم، قال: قلت: وماذا؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المومنين، فإن لم يكن أمير المومنين فهو أمير الكافرين. فقال: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحْكَم، وحدثتكم من سنة نبيكم ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم، قال: قلت: أما قولكم: إنه حكَّمَ الرجال في دين الله فإنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] أَنْشُدُكم الله، أفحُكْمُ الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ فقالوا: اللَّهُمَّ في حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم، قال: أَخَرَجْتُ من هذه؟ قالوا: اللَّهُمَّ نعم، قال: وأما قولكم: إنه قاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يَغْنَمْ؟ أَتَسْبُونَ أمكم ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام، إن الله ﷻ يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فأنتم تترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللَّهُمَّ نعم، قال: وأما قولكم: محا نفسه من أمير المومنين، فإن رسول الله دعا قريشًا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا، فقال: «**اكْتُبْ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، فقالوا، والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، فقال: «**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ يَا عَلِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ**»، فرسول الله كان أفضل من علي، أخرجت من هذه؟ قالوا: اللَّهُمَّ نعم، فرجع منهم عشرون ألفًا وبقي أربعة آلاف فقُتِلوا[1].

(١) حلية الأولياء: ١/٣١٨-٣١٩، وذكره عبدالرزاق في مصنفه: ١٠/١٥٧، و١٠/١٦٠، وابن أبي شيبة: ٧/٥٥١/٣٧٨٧٣، والحاكم في المستدرك: ٢/١٦٤/٢٦٥٦/كتاب قتال أهل البغي، وهو آخر الجهاد، وقال الذهبي: «على شرط مسلم»، ونقله السيوطي: ٢/٥٢٧، عن أبي نعيم والطبراني والحاكم والبيهقي في سننه.

- وجاءه مرة رجل من أصحابه، فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة- يعني المختار بن أبي عبيد- فقال ابن عباس: صدق، فنفرتُ، فقلت: يقول ابن عباس: صدق؟! فقال ابن عباس: هما وحيان: وحي الله، ووحي الشيطان، فوحي الله إلى محمد، ووحي الشياطين إلى أوليائهم، ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وأما الأولياء فهم النصراء والظهراء في هذا الموضع[١].

المطلب الثاني: تنويع الأقوال وحسن الاختيار مع المناقشة والحوار:

أولًا: تقديس الآيات إفهامًا:

١- **النظر فيما أشكل على الأفهام**: وهي آثار أشكلت على مجموعة من الصحابة، وأحرجتهم في حياتهم، استأثر بحسن التدبُّر فيها حبر الأمة، وكان له فيها فهم صائب عالج به ما أصابهم منها، حيث أجاب عن إشكال في الفهم حصل للصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان الذي قال له: إني قد ضربتني أمواج القرآن البارحة في آيتين لم أعرف تأويلهما، ففزعت إليك، قال: وما هما؟ قال: قول الله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وأنه يفوته إن أراده، وقول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠] كيف هذا يظنون أنه قد كذبهم ما وعدهم؟ قال ابن عباس: أما يونس فظن أن لن تبلغ خطيئته أن يُقدِّرَ الله عليه فيها العقاب، ولم يشكَّ أن الله إن أراده قَدَرَ عليه. وأما الآية الأخرى، فإن الرسل استيأسوا من إيمان قومهم، وظنوا أن من عصاهم لرضا في العلانية قد كذَّبهم في السر، وذلك لطول البلاء عليهم، ولم يستيئس الرسل من نصر الله، ولم يظنوا أنهم كذبهم ما وعدهم، فقال معاوية: فرَّجْتَ عني يا ابْن عباس فرج الله عنك[٢].

---

(١) جامع البيان: ٢٠/٨، وذكره ابن أبي حاتم: ١٣٧٩/٤، عن أبيه عن أبي حذيفة عن عكرمة بن عمار عن أبي زميل به، ونقله السيوطي: ٢٥١/٣، عن ابن أبي حاتم.

(٢) الدر المنثور: ٦٦٧/٥.

وأجاب عن إشكال وقع لعمر بن الخطاب في المرأة التي أنكر الناس حملها، حيث روي عن ابن عباس أنه قال: إني لصاحب المرأة التي أتي بها عمر وضعت لستة أشهر، فأنكر الناس ذلك، فقلت لعمر: لم تظلم؟ فقال: كيف؟ قال: قلت له: اقرأ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] كم الحول؟ قال: سنة، قال: قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهرًا، قال: قلت: فأربعة وعشرون شهرًا حولان كاملان، ويؤخَّرُ من الحمل ما شاء الله ويقدَّمُ، فاستراح عمر إلى قولي[1].

كما وضح لابن عمر إشكالًا وقع له في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ثم قال ابن عمر: لئن آخذنا بهذه الآية لنهلكن، ثم بكى ابن عمر حتى سالت دموعه، قال: ثم جئت عبدالله بن العباس، فقلت: يا أبا عباس، إني جئت ابن عمر فتلا هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية، ثم قال: لئن آخذنا بهذه الآية لنهلكن، ثم بكى حتى سالت دموعه، فقال ابن عباس: يغفر الله لعبدالله بن عمر، لقد فَرِقَ أصحاب رسول الله ﷺ منها كما فَرِقَ ابن عمر منها، فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فنسخ الله الوسوسة وأثبت القول والفعل[2].

٢- **النظر في مقاصد الآيات**: عن ابن عباس قال: «كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم، فقال بعضهم: يأذن لهذا الفتى معنا، ومن أبنائنا من هو مثله؟! فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، قال: فأذن لهم ذاتَ يوم وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ فقالوا: أَمَرَ نبيَّه ﷺ إذا فُتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه، فقالَ لي: ما تقول

(١) المصنف لعبدالرزاق: ٣٥٢/٧، وأيضًا: ٣٥١/٧، وذكره سعيد بن منصور ٦٦/٢/باب المرأة التي تلد لستة أشهر، ونقله السيوطي: ٤٤٢/٧، عن عبدالرزاق، وابن المنذر عن نافع بن جبير به، وأيضًا عن سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) صحيح مسلم: كتاب التفسير، ج: ١٢٦/١٢، رقم الحديث: ٢٠٠، وذكره عبدالرزاق في التفسير: ١٢١/١، وذكره الطبري: ١٤٤/٣، ونقله ابن كثير: ٦٠١/١، والسيوطي: ١٢٧/٢، عن عبدالرزاق وأحمد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد به، وأيضًا عن عبد بن حميد وأبي داود في ناسخه وابن جرير والطبراني والبيهقي في الشعب عن سعيد بن مرجانة به، وأيضًا ١٢٨/٢، عن ابن أبي شيبة وابن جرير والنحاس في ناسخه والحاكم به.

يا ابْن عباس؟ قال: قلت: ليست كذلك، ولكنه أخْبَر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بحضور أجله، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ فذلك علامة موتك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾، فقال لهم: كيف تلوموني على ما ترون؟»[1].

ويروى عن ابن عباس ﷺ قال: كنت قاعدًا عند عمر بن الخطاب؛ إذ جاءه كتاب أن أهل الكوفة قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا، فكبر ﷺ، فقلت: اختلفوا، فقال: أفٍّ وما يدريك؟ قال: فغضب، فأتيت منزلي، قال: فأرسل إلي بعد ذلك فاعتللت له، فقال: عزمت عليك إلا جئت، فأتيته، فقال: كنت قلت شيئًا أستغفر الله لا أعود إلى شيء بعدها، فقال: عزمت عليك إلا أعدت علي الذي قلتَ. قلتُ: قلتُ: كتب إلي أنه قد قرأ القرآن كذا وكذا، فقلت: اختلفوا، قال: ومن أي شيء عرفت؟ قلت: قرأت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] حتى انتهيت إلى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة] فإذا فعلوا ذلك لم يصبر صاحب القرآن، ثم قرأت: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة] قال: صدقت والذي نفسي بيده[2].

---

(١) مسند أحمد ت شاكر (٣/ ٣٥٤)٣١٢٧. إسناده صحيح، ونقله ابن كثير في التفسير بمعناه ٩: ٣٢٢- ٣٢٣ عن البخاري. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦: ٤٠٧ ونسبه لسعيد بن منصور وابن سعد والبخاري وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي وأبي نعيم في الدلائل، ولم ينسبه للمسند مسند أحمد: ٣٣٥٣/١٢٠/٥، وأيضًا: ٥٠/٥/٣١٢٧، وأيضًا: ٢٦٥/٣، وأيضًا: ٣٢٠١/٧٢/٥، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المناقب: ٣٦٢٧/٧٧٩/٦، وأيضًا تكرر تحت رقم: ٤٢٩٤و٤٩٦٩و٤٩٧٠، وذكره الترمذي: ٣٣٦٢/٤٥٠/٥، وعبدالرزاق في التفسير: ٣٣٠/٢، وذكره الطبري: ٣٣٣/٣٠، وأيضًا ٣٣٤/٣٠، والحلية: ٣١٧/١، والطبراني في الأوسط: ٣١٩/١، وأيضًا: ٤٨٦/١، وأيضًا: ١٥/٣، ونقله السيوطي: ٦٦٢/٨، عن الطبراني وابن مردويه بنحوه جوابًا عن سؤال عمر.

(٢) الأحكام لابن العربي: ١٤٥/١، وذكره السيوطي: ٥٧٨/١، عن ابن جرير.وبنحوه عن المستدرك: ٦٣٠١/٦٢٢/٣، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين تعليق الذهبي في التلخيص: «على شرط البخاري ومسلم»، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٥٧٨/١، وأيضًا المستدرك: ٦٣٠٢/٦٢٣/٣، تعليق الذهبي في التلخيص: «سكت عنه الذهبي في التلخيص» ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٥٧٨/١.

وعنه: أن عمر بن الخطاب جلس في رهط من أصحاب رسول الله من المهاجرين، فذكروا ليلة القَدْر، فتكلم منهم من سمع فيها بشيء مما سمع، فتراجع القوم فيها الكلام، فقال عمر: ما لك يا ابْنَ عباس صامتًا لا تتكلم؟ تكلم ولا تمنعك الحداثة، قال ابن عباس: فقلت: يا أمير المومنين، إن الله تعالى وتر يحب الوتر، فجعل أيام الدنيا تدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، وخلق أرزاقنا من سبع، وخلق فوقنا سموات سبعًا، وخلق تحتنا أرضين سبعًا، وأعطى من المثاني سبعًا، ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع، وقسم الميراث في كتابه على سبع، ونَقَعُ في السجود من أجسادنا على سبع، وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعًا، وبين الصفا سبعًا، ورَمَى الجمار بسبع لإقامة ذكر الله مما ذكر الله في كتابه، فأراها في السبع الأواخر من شهر رمضان، والله أعلم، فتعجب عمر وقال: ما وافقني فيها أحد عن رسول الله إلا هذا الغلام الذي لم تستو شؤون رأسه، إن رسول الله ﷺ قال: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ»[1]، وفي رواية قال: ما من أحد يموت ولم يؤد زكاة ماله ولم يحج إلا سَأَلَ الكَرَّةَ، فقالوا: يا أبا عباس: لا تزال تأتينا بالشيء لا نعرفه، قال: فأنا أقرأ عليكم في كتاب الله: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون] قال: أؤدي زكاة مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: الحج[2].

ثانيًا: تقديس الآيات إرشادًا:

١- العلاج الروحي بالقرآن:

وهذا يُظْهِرُ معرفته الدقيقة للكتاب وحسن تدبُّره لآياته، حيث روي عنه في عسر المرأة قولُه: إذا عَسُرَ على المرأة ولدها، فيَكتُبُ هاتين الآيتين والكلمات في صحفة ثم تغتسل فتُسْقَى منها: بسم الله لا إله إلا هو الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات] و: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف][3].

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٤٦/٨٥)، والحاكم في المستدرك (١/٦٠٤/١٥٩٧)، والقصة أخرجها أبو نعيم في الحلية (١/٣١٧).

(٢) سنن الترمذي: ٥/٤١٨/٣٣١٦، وذكره الطبري: ٢٨/١١٨.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٥/٣٩/٢٣٥٠٨/ في الرخصة في القرآن يكتب لمن يسقاه.

وقال: من اشتكى ضرسه فليضع يده عليه وليقرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨] الآية[١].

وقال لمن وفد على سلطان وخافه على نفسه: «إذا أتيت سلطانًا مَهِيبًا تخاف أن يسطو عليك فقل: الله أكبر، الله أعز من خلقه جميعًا، الله أعز مما أخاف وأحذر، أعوذ بالذي لا إله إلا هو، الممسك السموات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه، من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس، اللَّهُمَّ كن لي جارًا من شرهم، جل ثناؤك، وعز جارك، وتبارك اسمك، ولا إله غيرك. ثلاث مرات»[٢].

٢- العلاج الروحي بالقرآن:

أ- **وعظ العقل والقلب: عن الضحاك قال:** «جاء رجل فقال: يا ابن عباس، إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أوبلغت؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله ﷻ فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله ﷻ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] أحكمتَ هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف] أحكَمْتَ هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب ﷺ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] أحكَمْتَ هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ بنفسك[٣].

ب- **وعظ المجالس:** حيث روى وهب بن منبه قال: أقبلت مع عكرمة أقود ابن عباس بعدما ذهب بصره، حتى دخل المسجد الحرام، فإذا قوم يمترون في حَلْقة لهم عند باب بني شيبة، فقال: أَمِلْ بي إلى حَلْقة المراء، فانطلقت به حتى أتاهم فسلم عليهم، فأرادوه على الجلوس، فأبى عليهم، وقال: انتسبوا إلي أعرِفْكم، فانتَسَبوا إليه فقال: أما علمتم أن لله عبادًا أسكتتهم

(١) الدر المنثور: ٣٣٢/٣، ولم أعثر على الأثر عند أبي الشيخ في العَظَمة.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٢٩١٧٧/٢٣/٦، والأدب المفرد: ٧٠٨/٢٤٧/١، وصححه الألباني، والمعجم الكبير: ١٠٥٩٩/٢٥٨/١٠، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٣٤/٧، وعن أبي الشيخ في العظمة، ولم أعثر عليه في كتاب العظمة.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي: ٧٥٦٩/٨٨/٦، وتفسير ابن كثير: ١٥٠/١، ونقله السيوطي في الدر المنثور: ١٥٨/١، عن ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر به.

خشيتُه من غير عِيٍّ ولا بَكَمٍ؟ إنهم لهم الفصحاء النطقاء النبلاء العلماء بأيام الله، غير أنهم إذا ذكروا عظمة الله طاشت عقولهم من ذلك، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استقاموا من ذلك سارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، فأين أنتم منهم؟ ثم تولى عنهم فلم يُرَ بعد ذلك رجلان[1].

ج- **وعظ القَدَر**: وهو منهج النبي ﷺ، عنه تلقاه حبر الأمة وتمثله، حيث يروي ابن عباس قال: كنت رِدْف النبي ﷺ، فقال: يابْن عباس، ارض عن الله بما قدَّرَ وإن كان خلاف هواك، فإنه مثبت في كتاب الله، قلت: يا رسول الله، فأين وقد قرأت القرآن؟ قال: في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة][2]. وقال مرة: «في القرآن ما أنزل الله جملة واحدة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] كان هذا قبل أن تخلق خولة، لو أن خولة أرادت ألا تجادل لم يكن ذلك، لكن الله كان قد قدر ذلك عليها قبل أن يخلقها»[3].

وعلى هذا النهج سار مع تلاميذه ومن يتلقى عنه أقواله، حيث روى عنه سعيد بن جبير يومًا أنه قال له: «احفظ عني ثلاثًا: إياك والنظر في النجوم فإنه يدعو إلى الكهانة، وإياك والنظر في القدر فإنه يدعو إلى الزندقة، وإياك وشتم أصحاب رسول الله ﷺ فيكبك الله على وجهك يوم القيامة»[4].

د- **نصح المذنبين**: عن الضحاك، عن ابن عباس؛ أنه قال: «يا صاحب الذنب لا يأمن شر عاقبتِهِ، ولَمَا يَتْبَعُ الذنبَ أعظم من الذنب إذا عملته، فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب من الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب وفرحك بالذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب

(١) الدر المنثور: ٢١/٧.

(٢) جامع البيان: ٣٤٦/٢، والسيوطي: ٥٨٧/١، عن ابن جرير.

(٣) الدر المنثور: ٧٢/٨.

(٤) طبقات المحدثين بأصبهان: ٣١٥/١، ونقله السيوطي: ٣٢٩/٣، في الدر المنثور عن المرهبي بلفظ: أنه قال: ذلك علم ضيعه الناس النجوم.

ماله؟ إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظلم يدرؤُه عنه، ولم يأمر بمعروف وينه الظالم على ظلم هذا المسكين، فابتلاه الله ﷻ»[1].

هـ- **الذكر الحسن**: حيث روي عنه أنه كان يقول عندما يقرأ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]: «اللَّهُمَّ إني أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض، أن تجعلني في حرزك وحفظك وجوارك، وتحت كنفك»[2].

المطلب الثالث: النظر في الآيات جملة وتفصيلًا:

أولًا: النظر في الآيات جملة:

وهذا من عظيم تمكنه واستيعابه لآيات الله حفظًا وفهمًا، فهو حالٌّ مرتحِلٌ به وفيه، كأنه ينظر إليه كلِّه في لوح واحد، حيث غاص في كتاب الله ليستقرئ الآيات، فيضع المسهَب أمام الموجَز، والمجمَلَ قُرْبَ المبيَّنِ، والخاص أمام العام، وربط بين السياقات، واستقرأ الآيات المتشابهة، كل هذا بعلم جم، ودقة متناهية تتجلى بوضوح في الأمثلة التي سأقدمها، ومنها:

١-**الربط بين الموجَز والمسهَب**: وأعني به ما ورد من آيات في كتاب الله تتحدث عن بعض القضايا أو المواضيع أو الشخصيات بإيجاز، لتقوم آيات أخرى بشرحها بتفصيل، وذلك كثير في كتاب الله؛ كقصص الأنبياء، وقصة آدم وإبليس، وخلق الإنسان... حيث روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة] قال: قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف][3]. ليفصل القول فيهما بقوله: «إن آدم ﷺ طلب التوبة مئتي سنة حتى آتاه الله الكلمات، ولقنه إياها، بينما آدم ﷺ جالس يبكي واضعًا راحتيه على جبينه؛ إذ أتاه جبريل فسلم عليه، فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه، فقال له: يا آدم، ما هذه البلية التي أجحف بك بلاؤها وشقاؤها؟ وما هذا البكاء؟ قال:

---

(١) تاريخ دمشق: ٦٠/١٠، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٦٥٣/٥.

(٢) المعجم الكبير: ٢٥٩/١٠/١٠٦٠٠، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ١٩٦/٦.

(٣) الدر المنثور: ١٤٤/١، وأيضًا عن ابن المنذر من طريق ابن جريج به.

يا جبريل، وكيف لا أبكي وقد حولني ربي من ملكوت السموات إلى هوان الأرض، ومن دار الظعن إلى دار الزوال، ومن دار النعمة إلى دار البؤس والشقاء، ومن دار الخلد إلى دار الفناء؟ كيف أحصي يا جبريل هذه المصيبة؟ فانطلق جبريل إلى ربه فأخبره بمقالة آدم، فقال الله ﷻ: انطلق يا جبريل إلى آدم، فقل: يا آدم، ألم أخلقك بيدي؟ قال: بلى يا رب، قال: ألم أنفخ فيك من روحي؟ قال: بلى يا رب، قال: ألم أُسْجِدْ لك ملائكتي؟ قال: بلى يا رب، قال: ألم أسكنك جنتي؟ قال: بلى يا رب، قال: ألم آمرك فعصيتني؟ قال: بلى يا رب، قال: وعزتي وجلالي وارتفاعي في علو مكاني، لو أن ملء الأرض رجالًا مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، أي أنه يا آدم قد سبقت رحمتي غضبي، قد سمعت صوتك وتضرعك، ورحمتُ بكاءك، وأَقَلْتُ عثرتك، فقل: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمت نفسي، فارحمني إنك أنت خير الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمت نفسي، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧][1].

٢- **الربط بين المُجمَل والمبيَّن**: إذ إنها كثيرة تلك الآيات التي لو قرأها الإنسان لما خرج منها بفهم كبير ودقيق لكل حيثياتها، ولكن إذا صال وجال مع القرآن اتضحت له معانيها، وهذا ما فعله ابن عباس ليبين كلام الله وآياته المجملة بما وضحته وبينته آيات أخرى، ومن الأمثلة على ذلك ما روي عنه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] قال: جعلوا لله من ثمراتهم ومالهم نصيبًا، وللشيطان والأوثان نصيبًا، فإن سقط من ثمرةِ ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن سقط مما جعلوه للشيطان في نصيب الله التقطوه وحفظوه وردوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سِقْيِ ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سِقْيِ ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدُّوه، فهذا ما جعلوا من الحرث وسِقْي الماء، وأما ما جعلوا للشيطان من الأنعام فهو قول الله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣][2].

---

(١) تاريخ دمشق: ٤٣٦/٧. ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ١٤٥/١-١٤٦.

(٢) جامع البيان: ٤٠/٨، وابن أبي حاتم: ١٣٩٠/٤ من طريق علي به، ونقله السيوطي: ٣٦٢/٣، عن ابن المنذر وابن

٣- **الربط بين السِّياق**: وأعني به النظر في الآية بما يذكر قبلها أو بعدها، وهذا كثيرًا ما يغيب عن الدارسين، وهذا خطأ جلل، يجب الانتباه إليه، والاحتياط من الجهل به، ومن الأمثلة على ذلك: ما رواه عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: تزعم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله جل وعز: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]؟ فقال ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها هذه للكفار[١].

وجاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] فقال ابن عباس: لم تصب المسألة، اقرأ ما قبلها: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] حتى بلغ: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء] فقال ابن عباس: فمن كان أعمى عن هذا النعيم الذي قد رأى وعاين، فهو في أمر الآخرة التي لم تُرَ ولم تُعايَنْ ﴿أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء][٢].

٤- **الربط بين الموضوعات**: وتتجلى هذه الناحية بالخصوص حين جمعه بين الآيات المتقاربة في السياق، وربطها برباط موضوعي، ومن ذلك ما بيَّنه ابن عباس في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] قال: «إن الله ﷻ كان عرشه على الماء، فلم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسمَّاه سماءً، ثم أيبس الماء فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها، فجعل سبع أرضين في يومين في الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوت هو النون الذي ذكره الله في القرآن: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم] والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال، فقرَّتْ، فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ يقول: أنبت شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾

أبي حاتم والبيهقي في سننه.

(١) جامع البيان: ٢٢٨/٦. ونقله السيوطي: ٧٢/٣، عن ابن جرير.

(٢) الدر المنثور: ٣١٧/٥.

يقول: أقواتها لأهلها ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ [فصلت] يقول: قل لمن يسألك هكذا الأمر ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: ١١] وكان ذلك الدخان من تَنَفُّسِ الماءِ حين تَنَفَّسَ، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها، فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة، والخلق الذي فيها، من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلَمُ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظًا تحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش، فذلك حين يقول: ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]»[1].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفُرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله[2].

هكذا يجمع ابن عباس ويستحضر كل الآيات التي تتعلق بموضوع الاختلاف المذموم، وختم تدبُّره بكلمة: «نحوه» ليبين أنه لم يشأ الاستقراء، وإنما أراد بيان المنهج المتبع من أجل فهم الكتاب.

- وروي عنه أنه قال: ما بعث الله نبيًّا إلا وهو شاب، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وقرأ: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠﴾ [الأنبياء]، ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ [الكهف: ١٣][3].

---

(١) جامع البيان: ١٩٤/١، وذكره ابن كثير: ١١٨/١، عن السُدِّي في تفسيره. والسيوطي: ١٠٦/١، عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق السدي به، والمتأمِّل في النص يجد أن ابن عباس ﷺ في معرض حديثه عن قصة خلق السموات والأرض استعرض مجموعة نصوص من سور شتى تتناول نفس الموضوع ببعض التفصيل.

(٢) جامع البيان: ٢٢٩/٧.و٣٣٠/٥. وذكره ابن أبي حاتم: ١٠٩٣/٤. و: ١٣١٤/٤، ونقله السيوطي: ٢٩١/٣، عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) الدر المنثور: ٣٧١/٥.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] يُعرَفُ البَرُّ والفاجرُ، ألم تسمع إلى قوله تعالى لفرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]، وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم]؟ فسمى الورود في النار دخولًا، وليس بصادر[1].

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨]، وقوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ونحو هذا من القرآن؛ فإن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتبعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول[2].

ثانيًا: النظر في الآيات تفصيلًا:

١- استعمال الإيجاز والتفصيل حسب الحاجة عند البيان:

حيث نجده ﷺ يتعامل في تدبُّره للآيات بحسب السائل مرة، أو الموضوع ثانيًا، أو الأهمية ثالثًا؛ ففي بيانه لقول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: لم يُبْتَلَ أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم ابتلاه الله بكلمات فأتمهن، قال: فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم] قال: عشر منها في الأحزاب، وعشر منها في براءة، وعشر منها في المؤمنين، وسأل سائل، وقال: إن هذا الإسلام ثلاثون سهمًا[3]. وقال: الإسلام ثلاثون

(١) جامع البيان: ١١٠/١٦، ونقله السيوطي: ٥٣٥/٥، عن عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) جامع البيان: ٥٨/١٩.

(٣) جامع البيان: ٥٢٤/١، وذكره ابن أبي حاتم: ٤٢٠/١، والسيوطي: ٤٧٤/١، عن ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه وابن عساكر به.

سهمًا، وما ابتُلِيَ بهذا الدين أحد فأقامه إلا إبراهيم؛ لقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ فكتب الله له براءة من النار(١).

وقال أيضًا: ابتلاه الله بالطهارة، خمس في الرأس، وخمس في الجسد، في الرأس: السواك، والاستنشاق، والمضمضة، وقص الشارب، وفرق الرأس. وفي الجسد خمسة: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء من الغائط والبول، ونتف الإبط(٢). وقال مرة أخرى: ستة في الإنسان وأربعة في المشاعر، فالتي في الإنسان: حلق العانة والختانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر وقص الشارب، والغسل يوم الجمعة. وأربعة في المشاعر: الطواف، والمسعى بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة(٣). وأضاف في أخيرة: الكلمات التي ابتُلِي بهن إبراهيم فأتمهن: فِراق قومه في الله حين أُمر بفِراقهم، ومُحَاجَّته نمروذ في الله حتى وَقَفَه على ما وَقَفَه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافهم، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرِّقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمر به من الضيافة والصبر عليها، وماله وما ابتلي به من ذبح ولده حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من أمر الله كله وأخلصه البلاءَ، قال الله له: ﴿أَسْلِمْ﴾ قال: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة]، على ما كان من خلاف الناس وفراقهم(٤).

- وهو صنيعه في بيانه لقول الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة]، حيث قال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ قال: دين الله(٥). وقال أيضًا: البياض(٦). وفي جوابه على قول بني إسرائيل لموسى: هل يصبغ ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربه: يا موسى، سألوك:

(١) جامع البيان: ٥٢٤/١، وذكره ابن كثير: ٢٩٠/١.

(٢) تفسير عبدالرزاق: ٧٦/١، وذكره الطبري: ٥٢٤/١، وذكره ابن أبي حاتم: ٢١٩/١، وذكره الحاكم: ٢٩٣/٢، كتاب التفسير، وذكره البيهقي: ٥٦٤/٨، عن عبدالرزاق، في كتاب الطهارة، ونقله ابن كثير عن عبدالرزاق: ٢٨٩/١، والسيوطي: ٢٧٣/١، عن عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه.

(٣) جامع البيان: ٥٢٥/١، والسيوطي: ٢٧٤/١، عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والأثر رقم: ٤٧١.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٠/١ وابن كثير: ٢٩٠/١، والسيوطي: ١٧٣/١، عن ابن إسحاق وابن أبي حاتم.

(٥) جامع البيان: ٥٧١/١، وذكره ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١، وابن كثير: ٣٣٠/١، والسيوطي: ٣٤٠/١، عن ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٦) الدر المنثور: ٣٤١/١.

هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم، أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها في صبغتي، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[1].

- وعند حديثه عن الريح تحدث أيضًا بتفصيل وعمق كبيرين، حيث قال: الماء والريح جندان من جنود الله ﷻ، والريح جند الله الأعظم[2]. وقال أيضًا: الريح ثمان؛ أربعٌ رحمةٌ، وأربعٌ عذابٌ، الرحمة: المبشرات والمنتشرات والمرسلات والرخاء. والعذاب: العاصف والقاصف وهما في البحر والعقيم والصرصر وهما في البر[3]. وجاء عنه: لا تسبوها؛ فإنها تجيء بالرحمة وتجيء بالعذاب، ولكن قولوا: اللَّهُمَّ اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا[4].

- وبالنسبة لِلَمْسِ الحائض تحدَّثَ بتفصيل وتدبُّر بالغ، فبيَّن أن القرآن أنزل في شأن الحائض، والمسلمون يخرجونهن من بيوتهن كفعل العجيم، ثم استفتوا رسول الله ﷺ في ذلك، فجاء القرآن في ذلك، فقال الله لرسوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فظن المومنون أن الاعتزال كما كانوا يفعلون، يخرجونهم من بيوتهم، حتى إذا قرأ آخر الآية فهم المومنون ما الاعتزال؛ إذ قال الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[5].

وأجاب مرة سائلًا بغية الشفاء من آية المحيض، فقرأ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ حتى بلغ آخر الآية، فقال ابن عباس: من حيث جاء الدم، مِن ثَمَّ أُمِرتَ أن تأتيَ[6]. وقال: طواهر من غير جماع، ومن غير حيض من الوجه الذي يأتي المحيض ولا يتعدى إلى غيره، قال سعيد: ولا أعلمه إلا عن ابن عباس[7]. وقال: يعني أن يأتيها طاهرًا غير حائض[8]. وقال: اسق نباتك من

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١، والسيوطي: ٣٤٠/١، عن ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة موقوفًا.

(٢) العظمة لأبي الشيخ: ١٣٣٦/٤، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٣٩٧/١.

(٣) العظمة لأبي الشيخ: ١٣٣٤/٤، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٣٩٧/١، وعن ابن أبي الدنيا.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٢٩٢٢٠/٢٧/٦، ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور: ٣٩٩/١..

(٥) تفسير ابن أبي حاتم: ٤٠٠/٢، والسيوطي: ٦١٩/١، عن ابن أبي حاتم.

(٦) جامع البيان: ٣٨٧/٢، وابن أبي حاتم: ٤٠٢/٢، وذكره ابن كثير: ٤٦١/١.

(٧) جامع البيان: ٣٨٨/٢.

(٨) جامع البيان: ٣٨٨/٢، والسيوطي: ٦٢٤/١، عن ابن جرير.

حيث نباته[1]. وأجاب رجلاً سأله عن إتيان المرأة في دبرها فقال: تسألني عن الكفر[2]. وقال لآخر: «أيْ ويحك! وفي الدبر من حرث؟! لو كان ما تقول حقًّا لكان المحيض منسوخًا إذا شُغِلَ من ههنا جئتَ من ههنا، ولكن أنى شئتم من الليل والنهار[3]. وقال مرة: من حيث جاء الدم، مِن ثَمَّ أُمِرتَ أن تأتي، فقال له الرجل: يا أبا الفضل، كيف بالآية التي تتبعها: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]؟ فقال: أيْ ويحك! وفي الدبر من حرث؟! لو كان ما تقول حقًّا لكان المحيض منسوخًا إذا شُغِلَ من ههنا جئتَ من ههنا، ولكن أنى شئتم من الليل والنهار[4]. وسئل عن العزل فقال: ما كان ابن آدم ليقتل نفسًا قضى الله بخلقها، هو حرثك، إن شئت سقيت، وإن شئت أعطشت[5]. وفي واقعة حدثت له، يحكي تلميذُه سعيد بن جبير قال: دخلنا على ابن عباس في صدر النهار فوجدناه صائمًا، ثم رحنا إليه من العشي فوجدناه مفطرًا، فقلنا له، ألم تك صائمًا؟ قال: بلى، ولكن جارية لي أتت علي فأعجبتني فأصبت منها، وإنما هو تطوع وسأقضي يومًا مكانه، وأزيدكم أنها كانت بغيًا فحصنتها، وأنه قد عزل عنها، قال سعيد: فعلمنا أربعة أشياء في حرث واحد[6]. وقال لرجل جاءه قائلاً: كنت آتي أهلي في دبرها، وسمعت قول الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال: فظننت أن ذلك لي حلال، فقال: يا لكع، إنما قوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن لا تعدو ذلك إلى غيره[7].

---

(١) جامع البيان: ٣٩٣/٢، وذكره البيهقي: ٣١٨/٧، والسيوطي: ٦٣١/١، عن سعيد بن منصور والبيهقي في سننه.

(٢) المصنف لعبدالرزاق: ٤٤٢/١١، ونقله عنه ابن كثير: ٤٦٥/١، وقال: «إسناد صحيح»، قال: «وكذلك رواه النسائي من طريق ابن المبارك عن معمر بنحوه»، والسيوطي: ٦٣٣/١، عن عبدالرزاق وعبد بن حميد والنسائي والبيهقي في الشعب عن طاوس به.

(٣) جامع البيان: ٣٩٤/٢، وذكره ابن أبي حاتم: ٤٠٥/٢، والسيوطي: ٦٣٠/١، عن ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) جامع البيان: ٣٩٤/٢، وذكره ابن أبي حاتم: ٤٠٥/٢، والسيوطي: ٦٣٠/١، عن ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) المصنف لعبدالرزاق: ١٤٦/٧، وذكره الطبري: ٣٩٥/٢، وسعيد بن منصور في سننه: ٩٩/٢/جامع الطلاق، والسيوطي: ٦٤٠/١، عن عبدالرزاق والبيهقي به.

(٦) سنن سعيد: ٥٩/٢، باب الرجل يكون له الأمة.

(٧) تفسير ابن كثير: ٤٦٦/١، والسيوطي: ٦٣١/١، عن عبد بن حميد.

- وقال في الكبائر: هي أكثر من سبع وتسع، فما أدري كم قالها من مرة[1]. وقال أيضًا: هي إلى السبعين أقرب[2]. وقال: إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار[3]. وقال: كل شيء عُصِيَ الله فيه فهو كبيرة[4].

-وفي قوله تعالى: ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟[5]. وقال: أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية؟[6]. وقال: نقصان أهلها وبركتها[7]. وقال: ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها[8].

٢-الاستفادة من اللغة ومضامينها، شعرًا ونثرًا:

وهذا لا يخفى على متأمِّل لترجمته، ولا لتفسيره وبيانه، ولولا تمكنه من اللغة والبيان، ما كان ليكون كلامه بهذا التدبُّر والعمق في الجواب، وقد روي له أكثر من ثلاثمئة توضيح في آيات الكتاب، أجاب عنها بالشعر والأدب واللغة، وبحكمة بالغة وتدبُّر حكيم، أقتصر في التمثيل له على بعض النصوص، منها قوله: إن سليمان بن داود ﷺ كان يوضع له ستمئة ألف كرسي، ثم يجيء أشراف الإنس حتى يجلسوا مما يلي الأيمن، ثم يجيء أشراف الجن حتى يجلسوا مما يلي

---

(١) جامع البيان: ٤١/٥، وابن أبي حاتم: ٩٣٤/٣.

(٢) المصنف لعبدالرزاق: ٤٦٠/١٠، وذكره أيضًا في تفسيره: ١٥٣/١، وذكره الطبري٤١/٥، ونقله السيوطي: ٤٩٩/٢، عن عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب، وأيضًا: ٥٠٠/٢، عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد.

(٣) جامع البيان: ٤١/٥، وذكره ابن أبي حاتم: ٩٣٤/٣، ونقله السيوطي: ٥٠٦/٢، عن البيهقي في الشعب.

(٤) جامع البيان: ٤١/٥، ونقله السيوطي: ٤٩٩/٢، عن ابن أبي حاتم، وأيضًا ٥٠٠/٢، عن البيهقي في الشعب.

(٥) جامع البيان: ١٧٢/١٣، ونقله السيوطي: ٦٦٦/٤، عن ابن جرير، وأيضًا عن ابن مردويه وابن جرير.

(٦) جامع البيان: ١٧٣/١٣، ونقله السيوطي: ٦٦٧/٤، عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) جامع البيان: ١٧٣/١٣، ونقله السيوطي: ٦٦٦/٤عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأيضًا عن ابن المنذر بنحوه: ٦٦٧/٤.

(٨) جامع البيان: ١٧٤/١٣، وذكره الحاكم: ٣٣٣٤/٣٨١/٢، كتاب التفسير، وقال الذهبي: «طلحة بن عمرو متروك». ونقله السيوطي: ٦٦٥/٤، عن عبدالرزاق وابن أبي شيبة ونعيم بن حماد في الفتن، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

الأيسر، ثم يدعو الطير فتظلهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، فبينما هو ذات يوم يسير في فلاة من الأرض فاحتاج إلى الماء، فدعا الهدهد، فجاء فنقر الأرض فأصاب موضع الماء، ثم تجيء الشياطين ذلك الماء فتسلخه كما يُسلَخُ الإهاب فيستخرجون الماء منه، قال: فقال له نافع بن الأزرق: قف يا وقاف، أرأيت قولك: الهدهد يجيء فينقر الأرض فيصيب موضع الماء؟ كيف يبصر هذا ولا يبصر الفخ يجيء إليه حتى يقع في عنقه؟ فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر حال دون البصر(١). ومنها قوله في بيان لفظ «الورد» في القرآن، قال: الورد في القرآن أربعة أوراد في هود، قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]، وفي مريم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وورد في الأنبياء: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء]، وورد في مريم أيضًا: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم]، كان ابن عباس يقول: كل هذا الدخول، والله لَيَرِدنَّ جهنم كل بر وفاجر ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم](٢).

ومنها: جوابه عن سؤال نافع بن الأزرق عن الورود، قال: الدخول، قال: إنما الورود الوقوف على شفيرها، قال: فقال ابن عباس: والله لأردنها ولتردنها، وإني لأرجو أن أكون من الذين قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾، وتكون أنت من الذين قال الله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾، قال: وكذلك كان يقرؤها، ويحك يا نافع بن الأزرق، أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٧، ٩٨] أفتراه ويحك إنما أقامهم على شفيرها والله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر](٣).

ومرة أخرى بلفظ: «الورود، الدخول»، وقال نافع: فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء] أورود هو أم لا؟ وقال:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٣١٨٥٢/٣٣٦/٦، والمستدرك: ٣٥٢٦/٤٤٠/٢، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، تعليق الذهبي في التلخيص: «على شرط البخاري ومسلم». وأيضًا المستدرك: ٤١٤٢/٦٤٤/٢ تعليق الذهبي في التلخيص: «صحيح»، ونقله السيوطي عنهما في الدر المنثور: ٦٥١/٥.

(٢) جامع البيان١١٠/١٢، وذكره ابن أبي حاتم: ٢٠٨١/٦، ونقله السيوطي: ٤٧٢/٤، عن ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٨١/٦..

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: ٩٨] أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع، فقال ابن عباس: ففيم الضحك إذن؟(١).

وفي بيان قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المرسلات]، و﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه]، و﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطور]، و﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة]، قال له نافع: فما هذا؟ قال: ويحك، هل سألت عن هذا أحدًا قبلي؟ قال: لا، قال: أما إنك لو كنت سألت هلكت، أليس قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج]؟ قال: بلى، وأن لكلِّ مقدارِ يومٍ من هذه الأيام لونًا من هذه الألوان؟(٢).

(١) تفسير عبدالرزاق: ٢/١١، وذكره الطبري: ١٦/١٠٨، عن الحسن بن يحيى عن عبدالرزاق به، ونقله السيوطي: ٥/٥٣٥عن عبدالرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن مجاهد به.

(٢) المستدرك: ٤/٦١٧/٨٧١٠/كتاب الأهوال، وقال الذهبي: «يحيى ضعفه النسائي».



الخاتمة

وبعد، فقد أفرغت قلمي من مداده ليتوقف عن الكتابة في هذا الموضوع الذي لا يحده عرض، ولا تنهيه ورقة، إذ كيف يمكن تحقيق ذلك والرجل عاش طيلة عمره يخدم القرآن، وترجمته خير معبرٍ عن هذا الكلام؟ لكن التوقف أمر لا غنى عنه لأي باحث في أي ميدان، ليفسح للآخرين بالتحدث والإدلاء بالرأي فيما سطر البنانُ، فإن كان صوابًا فمن الحكيم الديان، وإن كان به هَنَاتٌ، فذاك من طبيعة الإنسان، فنسأل القبول وحسن التعقيب وجميل الاستدلال.

هذا، وقد سعيت جهدي أن أستقرئ النصوص، وأكتشف المنهج، وأرتب الأفكار، لعلِّي أصل إلى استلهام المنهج التدبُّري لرجل القرآن في تدبُّره للقرآن، فكان كما تقرؤون مقسمًا إلى ثلاثة مباحث، يكمِّل بعضها وبعضًا، من تعريف بالشخصية لضرورة ذلك، ولتحقيق الجواب عن سؤال طبيعي قد يطرحه الباحث: لماذا ابن عباس؟ ومبحث ثان في توضيح المفاهيم الواردة في العنوان؛ إذ بدونِ تحديد المفاهيم لا يستقيم البيان. ومبحث ثالث، حاولت أن أغوص في تراث ابن عباس التفسيري من خلال رسالتي: «مدرسة ابن عباس في التفسير، جمع وتحقيق ودراسة»، تواصلت مع أكثر من ٧٥٠٠ أثر، لأختار منها ما ذكر، وقد احتاجت مني وقتًا في القراءة والتدبُّر، لأحسن ترتيبها وفهم أبعادها، واستنباط دررها، اقتصرت في كثير منها على قول ابن عباس وتدبُّره فيه، دون مقارنته مع الأقوال الأخرى، ودون الاستطراد في التأصيل لما ذهب إليه من حسن فهم وتدبُّر، ولعل ذلك يحتاج إلى بحث مستقل إن شاء الله.

وهي في الأخير إشارات تدبُّرية في آيات الله، من رجل شهد له الخاص والعام بفقه التأويل، وشهدت له النصوص بحسن تدبُّره وتفكره، والمقام لا يسع لمزيد من التفصيل والأمثلة، إذ اقتصرت على ما ذكر، سائلًا العلي القدير أن يجعلنا من المتدبِّرين لآياته، العاملين بها.



المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، قدم له وعلق عليه: د محمد شريف سكر، وراجعه: د: مصطفى القصاص، ط: ١٤٠٧/١. دار إحياء العلوم، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم ط: ١٤٠٥/٣/١٩٨٥، مكتبة دار التراث القاهرة.

٣- أحكام القرآن لابن العربي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط: ١٤٠٨/١/١٩٨٨. دار الكتب العلميَّة.

٤- الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي دار البشائر الإسلامية- بيروت ط٣، ١٤٠٩- ١٩٨٩، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

٥- الاستيعاب لأسماء الصحابة لابن عبدالبر، تحقيق: محمد البجاوي نهضة مصر القاهرة.

٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة دار الفكر بيروت.

٧- الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر، ت: ٨٥٢هـ، ١٣٥٨/١٩٣٨، مطبعة مصطفى الحلبي.

٨- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، حققه: محمد محيي الدين، دار الفكر بيروت لبنان.

٩- الإكمال في أسماء الرجال لمحمد بن عبدالله الخطيب التَّبريزي، نشر المكتب الإسلامي دمشق.

١٠- أنساب الأشراف للبلاذري ط: ١٩٥٩/دار المعارف بمصر.

١١- البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم، فؤاد السيد، ود/علي نجيب

عطوي ود/ مهدي ناصر الدين، ود/علي عبد الساتر، دار الكتب العلميَّة، ط: ١٩٨٩/٥.

١٢- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) تحقيق مجموعة من المحققين، نشر دار الهداية.

١٣- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام للذهبي، مطبعة السعادة: ١٣٦٨هـ وطبعة الهيئة العامة ١٩٧٥/ القاهرة بتحقيق محمد عبدالهادي أبو شعيرة.

١٤- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي دار الكتاب العربي بيروت، ١٣٣٩/وطبعة المكتبة السلفية.

١٥- تاريخ مدينة دمشق وذكرُ فضلها وتسمية من حلَّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تصنيف الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبةالله بن عبدالله الشافعي المعروف بابن عساكر ٤٩٩ هـ- ٥٧١هـ، دراسة وتحقيق: علي شير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٦- تاريخ القرآن لعبدالصبور شاهين. القاهرة دار القلم ١٩٦٦.

١٧- تدبُّر القرآن، لسليمان بن عمر السنيدي، نشر مجلة البيان، كتاب المنتدى ط٢/١٤٢٣.

١٨- تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث العربي وط: دار الكتب العلميَّة، وط: ١٣٣٣/٢هـ دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن.

١٩- تفسير سفيان الثوري، تحقيق: امتياز علي عريشي، ط: ١٩٨٣/١، دار الكتب العلميَّة.

٢٠- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) ضبطه وصححه جماعة من العلماء. نشر دار الكتب العلميَّة بيروت- لبنان ط١/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢١- تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة، د عبدالعزيز بن عبدالله الحميدي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة.

٢٢- تفسير ابن عباس المسمى: صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن العظيم، اعتنى بها وحققها راشد عبدالمنعم الرجال ط: ١٩٩٣/٢، مؤسسة الكتب الثقافية.

٢٣- تفسير القرآن لعبدالرزاق الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد الرياض، ط: ١٩٨٩/١.

٢٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط: ١٩٨٠/١، دار الفكر للطباعة والنشر.

٢٥- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، إعداد: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، ط: ١٩٩٧/١، مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة الرياض.

٢٦- التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب، جمعه وعلق عليه وقدم له: إبراهيم بن حسن، ط: ١٩٨٣، الدار العربية للكتاب.

٢٧- تفسير المراغي دار احياء التراث العربي بيروت، ط: ١٩٨٥/٢.

٢٨- التفسير والمفسرون للذهبي، توزيع المكتبة السلفية المدينة المنورة، وطبعة دار الكتب الحديثة ط: ١٩٧٦/٢.

٢٩- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي، القاهرة مكتبة الآداب ١٩٧٥.

٣٠- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، جمعه: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مطبعة الحلبي ١٩٥١/١٣٧٠.

٣١- تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف الدين النووي ت: ٦٧٦هـ، دار الكتب العلميَّة بيروت.

٣٢- تهذيب التهذيب لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) نشر مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند ط١: ١٣٢٦هـ/ج١٢.

٣٣- تهذيب الكمال لأبي الحجاج يوسف بن الزكي المزي ت: ٧٤٢، مؤسسة الرسالة.

٣٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر وتخريج أحمد شاكر دار المعارف، وطبعة دار الفكر.

٣٥- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان للقرطبي، صححه أحمد عبدالحليم ط: ١٩٨٢، توزيع دار الرشاد الحديثة.

٣٦- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي، تحقيق وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي دار عمران بيروت.

٣٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه= صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم فؤاد عبدالباقي ط١/، ١٤٢٢هـ،ج٩.

٣٨- جمهرة أنساب العرب لابن حزم، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف مصر. ونسخة بتحقيق عبدالسلام هارون القاهرة دار المعارف ١٣٨٢.

٣٩- حبر الأمة عبدالله بن عباس ومدرسته في التفسير بمكة المكرمة، للدكتور عبدالله محمد سلقيني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط١/١٤٠٧/١٩٨٦. القاهرة. أبو هاجر محمد السعيد زغلول دار الكتب العلميَّة.

٤٠- حلية الأولياء وطبقة الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبدالله ت: ٤٣٠هـ، ط: ١٩٨٠/٣.

٤١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ط: ١٩٨٣/١، دار الفكر للطباعة والنشر.

٤٢- دستور العلماء جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ات ق ١٢هـ) عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، نشر دار الكتب العلميَّة- لبنان / بيروت ط١/، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م ج٤.

٤٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ط: ١٩٨٧، دار الفكر. بيروت لبنان.



٤٤- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن، وتخريج: أبي هاجر زغلول ط١٩٨٧، دار الفكر ودار الرشاد الحديثة.

٤٥- الزهد لأحمد بن حنبل ت: ٢٤١هـ، دراسة وتحقيق: محمد السعيد بسيوني، ط: ١٩٨٦/١، دار الكتاب العربي بيروت لبنان.

٤٦- سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار لعياش بن محمد رضا المعروف بالمحدث القمي، إيران ١٣٥٠هـ

٤٧- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت٢٧٥هـ، مراجعة وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر للطباعة والنشر.

٤٨- سنن ابن ماجه لأبي عبدالله محمد بن يزيد القرشي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٩- سنن الدارقطني لعلي بن عمر الدارقطني ط: ١٩٩٤، طبعة جيدة ومنقحة بضبط الأحاديث والأسماء، دار الفكر بيروت لبنان.

٥٠- سنن الدارمي للدارمي، حققه وشرح ألفاظه وجمعه وعلق عليه ووضع فهارسه: د/ مصطفى ديب البغا، أستاذ بجامعة دمشق، ط: ١٩٩٦/٢، دار القلم.

٥١- سنن سعيد بن منصور، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ط: ١٩٨٥/١، دار الكتب العلميَّة بيروت.

٥٢- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ط: ١٩٩٤/١، دار الكتب العلميَّة بيروت لبنان.

٥٣- سنن النسائي المجتبى لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت٣٠٣هـ، ط: ١٩٣٠/١ دار الفكر للطباعة والنشر.

٥٤- شرح السنة القولية والفعلية والآثار لابن مسعود الفراء البغوي ت٥١٦هـ، تحقيق: زهير الشاويش ط١٩٧١، دار الفكر للطباعة.

٥٥- شعب الإيمان للبيهقي تحقيق: أبي هاجر ومحمد السعيد زغلول، ط١/١٩٩٠، دار الكتب العلميَّة.

٥٦- شرح مشكل الآثار لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت: ٣٢١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة ط١/- ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤م.

٥٧- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبد التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت ط٢/١٤١٤- ١٩٩٣.

٥٨- صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج بشرح النووي، ضبط النص ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه على الطبعة التي حققها محمد فؤاد عبدالباقي ط: ١/١٩٩٥، دار الكتب العلميَّة بيروت لبنان.

٥٩- صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري ط: ٤/١٩٨٦، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، وأيضًا طبعة المطبعة الهندية حيدر آباد١٣٥٥هـ

٦٠- الصمت وآداب اللسان لعبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا أبي بكر، دار الكتاب العربي بيروت ط١، ١٤١٠ تحقيق: أبي إسحاق الحويني.

٦١- طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، تحقيق: إحسان عباس ط: ١٩٧٠، دار الرائد العربي.

٦٢- الطبقات الكبرى لابن سعد ت٢٣٠هـ، ط: ١٩٦٠، دار بيروت للطباعة والنشر، وطبعة دار صادر بيروت.

٦٣- طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها لأبي محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني ت٣٦٩هـ، تحقيق: عبدالغفور عبدالحق حسين البلوشي، نشر مؤسسة الرسالة- بيروت ط٢، ١٤١٢- ١٩٩٢.

٦٤- طبقات المفسرين للسيوطي، تحقيق: علي محمد عمر ط١/١٩٧٦/مكتبة وهبة القاهرة.

٦٥- طبقات المفسرين للداودي ط: ١/١٩٨٣، دار الكتب العلميَّة.

٦٦- العبر في خبر من غبر للذهبي، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت سلسلة التراث العربي رقم: ١٩٦٠/٤.

٦٧- العزفُ على أنوار الذِّكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة، لمحمود توفيق.

٦٨- العظمة لعبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبي محمد، دار العاصمة الرياض الطبعة الأولى، ١٤٠٨ تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.

٦٩- العلل الواردة في الأحاديث النبوية، لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني ت٣٨٥هـ، المجلدات من ١-١١ تحقيق وتخريج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي، نشر دار طيبة الرياض. ط١/١٤٠٥ هـ١٩٨٥ م. والمجلدات من ١٢-١٥ علق عليها: محمد بن صالح بن محمد الدباسي، نشر دار ابن الجوزي- الدمام ط١، ١٤٢٧هـ.

٧٠- الفتاوى الكبرى لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية ت٧٢٨هـ، نشر دار الكتب العلميَّة ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.

٧١- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، عن الطبعة التي حقق أصلها عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، ورقم كتبها فؤاد عبدالباقي ط: ١٩٨٩/١، دار الكتب العلميَّة بيروت لبنان.

٧٢- فضائل القرآن ومعالمه وآدابه لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د/أحمد بن عبدالواحد الخياطي، ط: ١٩٩٥، مطبعة فضالة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

٧٣- في تدبُّر القرآن الكريم، لأبي بدر محمد بن بكر بن إبراهيم آل عايد، بحث محكَّم ومنشور في مجلة الجامعة الإسلامية. ١٤٣٢-٢٠١١.

٧٤- القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا، الدكتور سعدي أبو جيب، نشر دار الفكر دمشق سورية ط٢/ ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م.

٧٥- قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني، نشر: دار القلم، ١٤١٩/٢.

٧٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، الدار العالميَّة.

٧٧- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، ط: ١/١٩٥٥، مطبعة الاستقامة.

٧٨- لسان العرب لابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير محمد أحمد حسب الله هاشم أحمد الشاذلي، مطبعة دار المعارف.

٧٩- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبدالباقي ط: القاهرة ١٩٤٩.

٨٠-مجمع الزوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت٨٠٧هـ، ١٤٠٢هـ، دار الكتاب العربي.

٨١- محاضرات في العلوم التربوية والسلوكية، أ.د. محمود أبو دف، د. حمدان الصوفي، د. يحيى موسى، مكتبة آفاق، غزة، ٢٠٠٣م.

٨٢- مختار الصحاح لزين الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الحنفي الرازي ت٦٦٦هـ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، نشر المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت- صيدا ط٥/١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٨٣- مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر، نقله إلى العربية د: عبدالحليم النجار: ١٩٨٣/٢، دار اقرأ.

٨٤- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا ط: ١/١٩٩٠، دار الكتب العلميَّة بيروت لبنان.

٨٥- المسند لأبي عبدالله الشافعي ت٢٠٤هـ، ط: ١/١٩٨٠، دار الكتب العلميَّة بيروت لبنان.

٨٦- المسند لأحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة التراث الإسلامي مصر.

٨٧- مشكاة المصابيح للتبريزي، منشورات المكتب الإسلامي دمشق. وطبعة ١٩٦١/١، بتحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

٨٨- المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، ط: ١٩٨٩/١، دار الفكر.

٨٩- المصنف لعبدالرزاق الصنعاني ت٢١١هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ط: ١٩٧٠/١،

المكتب الإسلامي، بيروت لبنان.

٩٠- معاني القرآن للفراء ت٢٠٧هـ، ط: ١٩٨٠/٢، عالم الكتب. ونسخة بتحقيق: محمد علي النجار، القاهرة الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦.

٩١- معاني القرآن وإعرابه للزجاج ت٣١١هـ، شرح وتحقيق: عبدالجليل عبده شلبي، ط: ١٩٨٨/١، عالم الكتب.

٩٢- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق: محمود الطحان ط: ١٩٨٥/١، مكتبة المعارف الرياض.

٩٣- المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم- الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤- ١٩٨٣ تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

٩٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقي ط: ١٩٨١/٢، دار الفكر للطباعة والنسر.

٩٥- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبي الحسين ت٣٩٥هـ، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، نشر دار الفكر: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م. ج٦.

٩٦- المعرفة والتاريخ لأبي يوسف يعقوب بن سفيان ت٢٧٧هـ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط: ١٤٠١/٢هـ، مؤسسة الرسالة، وط: ١٩٧٤، مطبعة الإرشاد بغداد.

٩٧- مفاتيح تدبُّر القرآن الكريم للدكتور خالد عبدالكريم اللاحم، الرياض، ط١/١٤٢٥.

٩٨- مفاتيح التعامل مع القرآن، للدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي، نشر مكتبة المنار ط١/١٤٠٦.

٩٩- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبُّر والمفسر، د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطَّيَّار، نشر دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ط٢/، ١٤٢٧هـ.

١٠٠- مناهج في التفسير للصاوي مصطفى الجويني، المعارف الإسلامية، ١٩٧١م.

١٠١- مناهج البحث العلمي، د. عمار بوحوش، د. محمد الذنيبات، مكتبة المنار، الأردن،

ط١، ١٩٨٩م.

١٠٢- منهج تدبُّر القرآن الكريم، د. حكمت بن بشير ياسين، ط١/١٤٢٥، دار الحضارة للنشر والتوزيع.

١٠٣- منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، د. مصطفى محمد حلمي نشر دار الكتب العلميَّة- بيروت ط١/- ١٤٢٦هـ

١٠٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، تحقيق: علي البجاوي، عيسى الحلبي.

المجلات والدوريات والمنشورات:

١٠٥- مجلة أخبار التراث الإسلامي، نشرة علميَّة تصدر عن مركز المحفوظات والتراث والوثائق، العدد: ٢١/١٩٩٠/فقرة رسائل جامعية.

١٠٦- مجلة الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، السعودية.

١٠٧- منشورات معهد الدراسات المصطلحية بجامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس.

الورقة الثانية

الحسن البصري ومنهجه في التدبُّر

إعداد

د. عادل رفوش

المشرف العام والمدير العلمي لمؤسسة ابن تاشفين

للدراسات والأبحاث والإبداع

السيرة الذاتية

الاسم: د. عادل بن المحجوب رفوش المراكشي.

- ولد في مراكش عام ١٣٩٦ ١٩٧٦.

- كانت بداية طلبه للعلم في روض العروس في سن السادسة.

- تردد على مراكز العلم في مراكش، وحفظ كل المتون التي كانت تدرس في دار القرآن.

- في عام ١٤١٠ ١٩٩٠ رحل الشيخ إلى موريتانيا، ومكث فيها إلى سنة ١٤١٨ ١٩٩٨.

- رحل إلى الجامعة الإسلامية ومكث فيها إلى عام ١٤٢٦ ٢٠٠٥. درس خلالها في الجامعة ومعهد القضاء، ورحل إلى كبار مشايخ السعودية ودرس عليهم بنسب متفاوتة؛ مثل: المشايخ: عبد العزيز ابن باز / محمد ابن عثيمين / عبد الله ابن جبرين / حمود بن عقلة الشعبي / عبد المحسن العباد / الوائلي / عمر فلاتة / احمدوا في المدينة / والشيخ الفيفي ..

- درّس عددا من المتون والمطولات في المغرب وخارجه سردا أو شرحًا وتدريسا.

- له مشاركات في التأليف نظما ونثرا؛ كـ «نظم قطر الندى» و «إفراد رواية شعبة» و «زوائد الطيبة على الشاطبية» و «الدرة»، و «حاشية على نظم الرسالة»، و«نظم خليل»، و«الجامع في الآداب»، و«شرح ابن الطلعة»، ورسائل علمية في: «دعاوى القضاء»، و «فقه الأطباء»، و «فقه الصيادلة»، وشرع في تحقيق عدد من المخطوطات النفيسة؛ منها: «رد العقول الطائشة فيما اختصت خديجة وعائشة»، و «ابن ناجي على ابن الجلاب» ..

- كتب عددًا من القصائد الشعرية؛ منها: «مضى إلى الله» في رثاء الإمام الألباني، و «طود على الأكتاف محمول» في رثاء العلامة ولد عبد الودود، و «لن يفلح الإرهاب»، من «ديوان النخيل»، وغيرها كثير.

- نال شهادة الماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ٢٠٠٥.

- نال شهادة الدكتوراه سنة ٢٠١٣، بجامعة القاضي عياض بمراكش في موضوع: تحقيق شرح حلولو على مختصر خليل.

- أسس «مؤسسة ابن تاشفين للدراسات المعاصرة والأبحاث التراثية» في يناير سنة ٢٠١٥.



مقدمة

الحمد لله، وصلى الله على نبيه ومصطفاه، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد؛ فلم أكن متهيئًا للمشاركة في هذا المؤتمر السَنِي السُنِّي؛ الذي يعقد لِأَخْيَرِ ما يأتمرُ الناس حوله ويتنادَوْن من أجله: كتاب الله تعالى.

وفي لب لباب علومه المرشد إلى هداياته: علم تدبُّره؛ وكيف تعاطاه العلماء الأجلاء عبر قرون منذ أزمنة السلف الصالح إلى زماننا المعاصر.

فلما طُلِب مني ذلك غيرَ بعيد عن قرب الانعقاد، وفي ظرفية تتسم بالازدحام لتداخل المواسم والانشغالات؛ لم أستطع إلا تلبية الدعوة لما فيها من السعادة بالقوم الذين لا يشقى بهم جليسهم.

وإني لأرجو من الله تعالى أن يتقبلنا وإياهم في الصالحين.

ومما زاد من رغبتي في المشاركة: اقتراحهم «الإمام الحسن البصري» موضوعًا لعرضي المقتضب الوجيز.

وللرابطة السلفية التي تعلِّقُ قلوبنا بأولئك الأئمة الأعلام؛ فإن للإمام الحسن وقعًا متميزًا لما يحظى به من رفيع المقام بين أعلام الإسلام.

غير أنني صرت مترددًا في اقتفاء منهجه ﷺ حتى أوفيه بعض حقه الواجب له علينا، فالإمام مَعْلَمة في الفقه؛ حتى يكاد يتميز له بين الفقهاء مذهب خاصٌّ؛ ولكن هذا الباب ليس مباشرًا فيما نحن بصدده.

والإمام مَعْلَمة في القراءات؛ حتى صار له في القراء مقرأٌ خاص ما زلنا نرويه عن شيوخنا في الأربع الزوائد على العشر؛ بل صُنِّف في مفرداته مصنفات، وذُكِر له في ثنايا المطولات مئات الحروف التي تروى عنه؛ وتشكِّلُ الوجه القرائي لأئمة البصرة وللقراءات القرآنية عمومًا.

والإمام مَعْلَمة في التفسير؛ فلا تكاد تطالع تفسيرًا إلا وأحصيت للإمام فيه مئات النقول المسندة والمرسلة في بيان معاني كلام الله تعالى.

وإذا أردنا أن نوفي العَرْضَ حقه من غير تكلف ولا توليدٍ؛ فإن استقراء خطاه في تدبُّر كلام الله يستدعي الإحاطة بنظره الفقهي والقرائي والتفسيري جميعًا.

ولو أردنا الاقتصار على النوع الثالث لكونه مباشرًا؛ فإننا سنجابَهُ بمانع آخر متمثلٍ في أن الإمام لم يؤلف تفسيرًا يسهِّل هذا المبتغى؛ وإنما الموجود مجاميع جمعت كلامه المتناثر في التفسير كما هو الدأب في عموم أئمة هذه الحقبة التي كانت علومها في الصدور أكثر من السطور.

وأما المانع الأبرز- الذي أراه أكثر حضورًا في التأثير على ماهية العَرض المقتَرَح من اللجنة المنظِّمة وفقها الله؛ وهو مناهج التدبُّر عند الإمام الحسن البصري- فهو عُسْرُ استخراج المقصود حسب المصطلح المتواضَع عليه؛ فإن كلمة «مناهج» تقتضي «المعالم والقواعد».

وكلمة «التدبُّر» تقتضي البحث في أدبار المعاني، ونِكات الدلالات، وشفيف الاستنباطات؛ وهذا- بحسب ما آلت إليه علوم التفسير ومناهج البحث في دقائقه عند المتأخرين والمعاصرين- يعسر تطبيقه عند تفاسير الأولين؛ لا لخلو تفاسيرهم منه، ولا لعدم عطائهم فيه؛ كلَّا.

وكيف يُدَّعى ذلك وهم أساطين الكلام، ودواوين العلم والإيمان؟

وكل كلام لا يستند لعلومهم وسلوكهم؛ فهو إلى اللغط والغلط أقرب.

ولكن المراد: هو المطابقة بين آفة المصطلح وحتمية التطبيق:

فسعة علوم السلف، وفصاحة سليقتهم لسانًا وبيانًا، وتقدم زمانهم، واعتمادهم على المشافهات أكثر من المكاتبات، هذه الدواعي الأربعة هي التي تدعو لمزيد استخراج من كلام الله؛ ولذا يكثر التثوير عند المتأخرين؛ لأن الدواعي الأربعة اجتمعت فيهم وزادت.



وأما الأولون فما احتاجوا إلا بمقدار؛ فما أشبههم بعهد النبي صلوات ربي وسلامه عليه لقربهم منه، في أنه لم يحتج إلى التأليف فيه أو تفسير كل حرف منه؛ فضلًا عن ذكر ما يمكن تنزيل كتاب الله عليه، واستخراج ما يحتمله من دلالات لم تظهر قبل لديه.

إذن؛ فنحن أمام واقع يلزمنا ونحن نتباحث «مناهج التدبُّر» ألا نكلف كلام الأولين ما لم يقتضه زمانهم ولا دعت إليه حاجاتهم؛ وفي الوقت نفسه نتغيَّا ما زَبَرَه المتأخرون؛ كالذي نلحظه عند القرطبي مثلًا في استخدام علوم القرآن وآياته العظام في ذكر أحوالٍ من تاريخ الأندلس وأوضاع الطوائف ورد المقولات ونحو ذلك.

وعليه، فإنني بادئ ذي بَدْء أنبه على هذا المعطى؛ لكي أكون معتذرًا بين يدي الإمام وبين يدي هذا المؤتمر الكريم.

لقد اعتمدت في تتبع تفسير الإمام ﷺ على سرده كاملًا من الفاتحة إلى الناس في أيام معدودات بعد الحج؛ والذي وفق لجمعه الأستاذ الشيخ أحمد فريد المزيدي، وطبع عن دار الكتب العلميَّة في جزأين ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م؛ مع التأمُّل فيما هو منقول عنه في ثنايا المطولات.

وكنت رأيت في إحدى مكتبات المدينة المنورة مجموعًا آخر لتفسير الحسن البصري في خمسة مجلدات، ولكنني لم أستطع الحصول عليه في هذه الفترة وأنا بالمغرب؛ وهو من تأليف الأستاذين: الدكتور علي شاه الباكستاني، والدكتور محمد عبدالرحيم المصري نفع الله بهما.

أقول: لقد حاولت من خلال هذا المجموع لتفسيره أن أتلمس بعض ما يتطابق مع الاصطلاح؛ فلم أسلم من الفقد الذي ادعيته سلفًا؛ لأن عادة تلك التفاسير هي المعاني المجملة وتفسير بعض الغريب وذكر بعض أحوال النزول؛ وإن كان للإمام الحسن تميزًا ظاهرًا حتى عُدَّ أصل تفاسير التابعين.

وله ميزة أخص في استخلاص مواعظ القرآن وبث المواعظ من القرآن؛ حتى صار يسميه بعض الناس بالتفسير الوعظي؛ وهو باب عظيم القدر بالغ الأهمية، بل هو القلب واللب؛ مع ما للإمام من وجود في أحداث زمانه التاريخية والسياسية كما يُعلَم من مطوَّلات سيرته والكتابات حوله.

وباب المواعظ هو أغلب ما استخلصنا منه بعض معالم التدبُّر عند هذا الإمام رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وإن كان الأليق برسم معالم التدبُّر عند الإمام الحسن البصري هو قَصُّ أثره من خلال ثلاث شعب ذات ظل ظليل:

في علم القراءات؛ وهو ذو مقرأ ما زال يروى ويسند.

وفي علم الفقه؛ وهو ذو مذهب ما زال يذكر ويفرد.

وفي علوم التفسير؛ وهو فيه آيةٌ لا تخطئها العين.

ولكن سراديب الوقت ومعدود الصفحات لم يسعفنا لتناول كل ذلك؛ فاقتصرنا منه على معالم المعاني، ومن تلك المعاني انتقينا الأظهر والأهم؛ محاولين بحول الله تقريب ذلك بالقاعدة والمثال في فصلين.

وقد ذكرت في هذا العَرْض مقدمةً ذكرت فيها مفهوم التدبُّر الاصطلاحي ودواعيه عند المتقدمين والمتأخرين بإيجازٍ.

ثم تمهيدًا في لمحة عن سيرة الإمام، والكتب التي اعتمدتُّها أصالة لهذا العرض دون المراجع.

ثم فصلًا في مقدمات التدبُّر عند الإمام في خمس مسائل.

ثم فصلًا في نماذج من تطبيق التدبُّر عنده من أول القرآن إلى آخره، دون مقارنات لضيق المحل.

ثم خاتمةً في التذكير بأهم القضايا والاستنتاجات.

ثم الفهارس.

والله تعالى أعلم.



الفصل الأول

التهيؤ للتدبُّر عند الحسن البصري

هذا الإمام

رجلٌ ملأ ذكره الآفاق، ولم تكد تخلو من ترجمته الكتب العِتاق؛ بل أفرد سيرته جماعة؛ كابن الجوزي ﷺ في كتابه: «آداب الحسن البصري ومواعظه»؛ ط دار الصديق.

وكتاب شيخنا صالح أحمد الشامي: «مواعظ الحسن البصري»؛ ط المكتب الإسلامي.

مع بحث لطيف استفدت منه كثيرًا: «وصايا الإمام الحسن البصري لأهل القرآن» لمؤلفه: أبي عبدالله حمزة النايلي؛ ط دار الإمام البخاري.

ورسالة علمية محكمة في سبر مرويات الإمام الحسن البصري في الكتب الستة.

ورسالة علمية في فقهه المقارن في أربعة أجزاء، مع جزء وافٍ في ترجمته؛ للدكتورة: روضة جمال الحُصري. وغير ذلك؛ وهو كثير.

وُلد الحسن البصري سنة إحدى وعشرين، في خلافة عمر ﷺ، وترعرع في خلافة عثمان، وشب في خلافة علي ﷺ أجمعين.

زَرعَ فيه حب العلم وحفظ القرآن والعمل به جيلُ الصحابة الفريد، ومجتمع المدينة دار الهجرة التي كانت حديثة عهد بالوجود النبوي، وزاخرة بوفرة كبار الصحابة والتابعين؛ ناهيك عن كفالةٍ في بيت أمنا أم سلمة ﷺ زوج النبي ﷺ؛ التي كانت أمُّه خَيْرَةُ مولاةً عندها؛ وتَلْمَذةٍ مباشرةٍ على ابن عباس وبين يدي أنس بن مالك- رحل معه بعد إلى البصرة ولم يخرج بعد منها إلا للحج مرتين- وما زال يستمد من نور الصحبة حتى كان يشبِّهُ في كلامه بالأنبياء، وفي فضله

بعمر بن الخطاب، وفي هديه بعليِّ بن أبي طالب ﷺ؛ وبه تخرج سادات السلف الصالح؛ كأيوب السختياني، وبكر بن عبدالله المزني، وقتادة، ومنصور بن المعتمر.

ولا نستطيع في قبس من ترجمته إلا أن نشير إلى ما نقله الذهبي في وصف مجلسه؛ إذ قال في سير أعلام النبلاء:

«وقال جعفر بن سليمان: كان الحسن من أشد الناس، وكان المهلب إذا قاتل المشركين يقدمه».

وقال أبو سعيد بن الأعرابي في «طبقات النساك»:

«كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن، ويسمعون كلامه، ويذعنون له بالفقه في هذه المعاني خاصة.

وكان عمرو بن عبيد وعبدالواحد بن زيد من الملازمين له، وكان له مجلس خاص في منزله؛ لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن؛ فإن سأله إنسان غيرها تبرم به وقال: إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر.

فأما حلقته في المسجد فكان يمر فيها الحديث، والفقه، وعلم القرآن، واللغة، وسائر العلوم.

وكان ربما يُسأل عن التصوف فيجيب، وكان منهم من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص؛ كعمرو بن عبيد، وأبي جهير، وعبدالواحد بن زيد، وصالح المري، وشميط، وأبي عبيدة الناجي؛ وكل واحد من هؤلاء اشتهر بحال- يعني في العبادة» اهـ من السير للإمام الذهبي.

فتأمَّل حياة هذا العَلَم بين العِلْم والنُّسْك والجهاد في سبيل الله تعالى.

ولذلك قال الذهبي: «كان سيد أهل زمانه علمًا وعملًا»[1].

قال الأعمش: «ما زال الحسن البصري يعي الحكمة حتى نطق بها، وكان إذا ذكر عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين قال: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥٦٥/٤).

(٢) الحلية لأبي نعيم (١٤٧/٢).

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام[1]:

«مناقبه كثيرة، ومحاسنه غزيرة؛ كان رأسًا في العلم والحديث، إمامًا مجتهدًا كثيرَ الاطلاع، رأسًا في القرآن وتفسيره، رأسًا في الوعظ والتذكير، رأسًا في الحلم والعبادة، رأسًا في الزهد والصدق، رأسًا في الفصاحة والبلاغة، رأسًا في الأيْد والشجاعة».

ذلكم شيخ الإسلام الحسن بن يسار أبو سعيد البصري، المتوفى بالبصرة سنة عشر ومئة ١١٠هـ رحمه الله تعالى.

إذا سلمنا بضرورة حسن الإقبال على القرآن؛ ليتحقق كسر أقفال القلوب بحسن التأدب؛ وتبديد غشاوة النفس وران طبع الخاتم عليها -عياذًا بالله- بحسن التوكل والتفهم؛ فإننا سنجد الإمام الحسن البصري يجعل من التزكية للتعليم شعار حياة لكل المسلمين عمومًا، ولأهل القرآن خصوصًا.

العلم العملي:

فهو يرى التأثر بالقرآن عملًا واتباعًا أهم درجات قراءته والعلم به؛ فالتدبُّر الأمثل هو العمل المستقيم؛ وإن أهل القرآن حقًّا؛كما قال ابن القيم رحمه الله [2]:

«أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه وإن لم يحفظوه عن ظهر قلبٍ؛ وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فليس من أهله؛ وإن أقامَ حروفَهُ إقامة السهم».

قال الإمام الحسن البصري رحمه الله: «إنَّ أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرؤه»[3]؛ أي: يحفظه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «من تدبَّر القرآن طالبًا للهدى منه؛ تبين له طريق الحق»[4].

---

(١) (ج ٧/ ص ٤٩).

(٢) في الزاد (٣٣٨/١)..

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص. ١٣٦)..

(٤) المجموع (١٣٧/٣).

ومن هذا القَبيلِ ما رواه ابن عبدالبر[1] قال: «الذي يفوق الناسَ في العلم جديرٌ أن يفوقهم في العمل».

ويجلِّي الإمام الحسن هذا التدبُّر بألوان من التشخيص الظاهري على سِيمَا المتدبِّرين فيقول: «والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حَزِنَ وذَبُلَ، وإلاَّ نَصَبَ وإلَّا ذابَ وإلَّا تعِب»[2].

وقال: «إن الرجل إذا طلب القرآن والعلم لله ﷻ لم يلبث أن يُرى ذلك في خشوعه وزهده وحلمه وتواضعه»[3].

وذكر الغزالي في الإحياء[4] عنه قوله: «والله ما أَصبَحَ اليوم عبدٌ يتلو القرآن يؤمن به إلا كَثُرَ حزنه، وقَلَّ فرحُهُ، وكثر بكاؤه، وقلَّ ضَحِكُه، وكثر نصبه وشغله، وقلَّت راحته وبَطَالَته»[5].

التلازم واللزوم:

وإن هذا التدبُّر يستحق من المتدبِّر «حياة يحياها مع القرآن»، و«عِيشة راضية به ومعه في كل الأحوال».

وهذا هو ما عبر عنه الإمام بمصطلح «اللزوم»؛ إذ يقول: «الزموا كتاب الله، وتتبعوا أمثاله، وكونوا فيه من أهل البصر»[6].

فلا بصيرة بلا لزوم والتزام؛ ولا تدبُّر بلا تتبع واستقراء؛ ويرتكز هذا الأساس عند الإمام الحسن على أحد أهم علوم القرآن؛ وهو السَّبْحُ الطويلُ في «أمثال القرآن» التي تعتبر جوامع العلوم، ومفاتيح الرِّبِّيين إلى الربانية؛ لما ترشد إليه من «التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير؛ وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس؛ بحيث يكون نسبته

---

(١) في الجامع (١٠/٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٣٣/٢).

(٣) ذكره ابن الجوزي (ص. ٩٤).

(٤) (الصفحة ١٢٨٥).

(٥) نقلاً عن رسالة: وصايا الإمام الحسن لأهل القرآن ص ٥٣، جمع وتعليق الأخ الفاضل حمزة النايلي.

(٦) رواه الآجري في أخلاق حملة أهل القرآن (ص٤).



للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، مع بيان موازين المدح والذم، والثواب والعقاب، وتفخيم الأمر أو تحقيره؛ وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر»[1].

عَرْضُ النفسِ:

ومن تجليات هذا اللزوم «دوام العَرض» على القرآن في حياة التوبة الدائمة؛ حياة محاسبة للنفس ومراجعة للفكر وتقويم للقناعات؛ ووزن للموازين بأعدل ميزان وأصدق لسان: كتاب الله تعالى.

وهو معنى ما أرشد إليه الحسن؛ إذ قال: «رحم الله عبدًا عرض نفسه وعمله على كتاب الله؛ فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله الزيادة، وإن خالف كتاب الله أعتب نفسه ورجع من قريبٍ»[2].

وقال ﷺ: «من أحب أن يعلم ما هو فليعرض نفسه على القرآن»[3].

ورحم الله الحافظ المناوي إذ قال[4]: «فمن لم يجعل القرآن إمامه؛ فقد بنى على غير أساسٍ؛ فانهار به في نار جهنم».

قال ابن تيمية: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»[5].

اللذة والذوق:

ومن تجليات هذا اللزوم الهادي إلى حسن التدبُّر: «التذوق والتلذذ»؛ فإن العلم والإيمان ليس طقوسًا جوفاء، ولا قوانين صامتة بلا طعم شهي، ولا لون بهي، ولا ريح زكي؛ ولكنه نور وروح وقرة عينٍ.

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٨١٥/٤).

(٢) الآجري ص ٣، وابن الجوزي (ص. ٩٤).

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (ص. ١٣).

(٤) في الفيض (٥٣٥/٤).

(٥) نقله ابن القيم في المدارج (٤٣١/١).

وقد كان الإمام يقف أمام مائدة القرآن وفي ضيافة الرحمن مع أهل الله وخاصته أهل القرآن؛ وكأني به يعايش تلك الموائد وذلك الحضور بكل أسباب الإدراك الظاهرة والخفية والعَلية؛ انتهاجًا لمقام الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه»، وأن تستأنس بالوادي القرآني المقدس الذي بورك من حوله؛ فلا ترجع من ميعاده إلا بألواح النور والهداية تنطبع في قلبك وروحك من مناجاة الذي قال لكليمه موسى ﷺ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه]. ثم قال له: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف].

فالحضور بين يديه والتجرد إلا منه في التوجه إليه؛ مطلب هام في تدبُّر كلماته التي تمت صدقًا وعدلًا؛ وهذا لا يتأتى إلا بالرضى به والتذوق لطعم خطابه الأقدس.

ولذا قال الإمام الحسن:

«تفقدوا الحلاوة في ثلاث: في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر؛ فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا؛ وإن لم تجدوها فاعلم أنَّ بابَك مغلقٌ»[1].

حُجُب التدبُّر:

حماية المتدبِّر نفسه من موانع التدبُّر؛ وهي ألوان من أدران النفوس ورعوناتها؛ قسوة في القلب، وتفريط في العمل، وطمع في الدنيا، وحرص على أهلها، وتملق إلى سلاطينها؛ ولذلك لما دخل الحسن ﷺ على الوزير ابن هبيرة واعظًا ناصحًا، ثم خرج من عنده؛ فإذا بجمع من علماء التملق على الأبواب منتظرين، فقال لهم[2]: «ما يجلسكم ههنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالستهم مجالسة الأبرار؛ تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد فرطحتم نعالكم، وشمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم؛ فضحتم القراء فضحكم الله، والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيكم، أبعد الله من أبعد».

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٧١/٦)، والبيهقي في الشعب (٤٤٧/٥).

(٢) السير (٤ / ٥٨٦).

وقال السيوطي في «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين»:

«عن الحسن أنه مر ببعض القراء على بعض أبواب السلاطين، فقال: أقرحتم جباهكم، وفَرْطَحْتم[1] نعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم؟! أما إنكم، لو جلستم في بيوتكم لكان خيرًا لكم؛ تفرقوا فرق الله بين أعضائكم».

وأخرج ابن النجار عن الحسن أنه قال: «إنْ سرَّكم أن تَسْلَموا ويَسْلَمَ لكم دينكم، فكفوا أيديكم عن دماء المسلمين، وكفوا بطونكم عن أموالهم، وكفوا ألسنتكم عن أعراضهم، ولا تجالسوا أهل البدع، ولا تأتوا الملوك فيلبِّسوا عليكم دينكم»[2].

(١) فَرْطَحَ: بَسَطَ ووسَّع وجعله عريضًا، لسان العرب.

(٢) المورد العذب المعين في آثار أعلام التابعين (١٩٤/٢).



الفصل الثاني

حياة التدبُّر عند الحسن البصري: نماذج وأقوال

المبحث الأول: في تدبُّر مقرأته

إذا اعتبرنا-كما أشرنا سابقًا لمقرأ الإمام الحسن- قراءته رافدًا من روافد التدبُّر عنده؛ واستحضرنا جانب الاختيار في رواية القراءة كما هو معروف عند أهل الأداء؛ فلا شك أن النظر في بعض حروفه يجعل المتدبِّر والمفسر أمام معانٍ أرحب، ودلالات لآيات القرآن أكثر إشراقًا وإخباتًا؛ كما في قراءته: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَى﴾ [البقرة: ٨٣]؛ أي: كلمة أو مقالة حسنى. على معنى الأفضلية في الحسن المأمور به في تبليغ رسالة الإسلام[١].

وفي قراءته: ﴿تِلْكَ أَمَانِيهِم﴾ [البقرة: ١١١] بمد الياء ساكنة، ووافقه من العشرة أبو جعفر المدني؛ وما تضفيه على الآية من التحذير من معنى «القراءة الجوفاء» التي تجعل العلم قراطيس وتجعل الفكر أوهامًا؛ فلا تنفع إذ ذاك أمانِيُّ الأمانِي[٢].

وقراءته: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] بإسكان الظاء؛ ما يضفي على معنى الإنظار المتواتر معنى النظر العطوف، والشفقة على المدين، وتخفيف وطأة المغرم عليه؛ بِرًّا وإحسانًا، رجاء الإحسان من الله الذي يحب المحسنين[٣].

وقراءته: ﴿فَالِقُ الأَصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] بالفتح على الجمع لا بالكسر على المصدرية؛ وما تدل عليه من تعدد الإشراقات على مختلف الأكوان؛ ونعمة النور التي تعم كل الشعوب وكل الكائنات وفي كل الأصقاع[٤].

(١) انظر مفردة الحسن (ص.٢١٨)، وإتحاف فضلاء البشر (٤٠١/١).

(٢) انظر المفردة (ص. ٢٢٠)، والنشر لابن الجزري (٢١٧/٢).

(٣) انظر المفردة (ص. ٢٣٣)، والبحر المحيط (٣٤٠/٢)، والدر المصون للسمين الحلبي (٦٤٦/٢)، والإتحاف (٤٥٨/١).

(٤) انظر المفردة (ص. ٢٧٧)، والدر المصون (٥٩/٥). والإتحاف (٢٣/٢).

وقراءته: ﴿إِنَّهُمْ لا إِيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] كابن عامر في السبعة لا على جمع يَمينٍ كالجمهور «أَيمان»؛ بل على معنى نفي الإيمان وإثبات الكفرِ لهم؛ بما قام فيهم من نواقضه التي تلغي كل عهد وتبطل كل نفاقٍ(١).

وقراءته: ﴿وَلا أَدْرَأْتُكُم بِهِ﴾ [يونس: ١٦] في يونس(٢)؛ على معنى الإعلام وعدم الحرص على مبارزتهم بالمخالفة؛ وهو معنًى مهم يضاف لمعنييها عند ابن كثير بخلف عن البزي: ﴿ولَأَدْرَاكُم﴾ بلام الابتداء للتأكيد؛ وعند باقي القراء العشرة على نفي الدراية لولا أن الله علمه ما لم يكن يعلم(٣).

وقراءته: ﴿فِي غَيبَةِ الجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠، ١٥] التي أفادتنا إلى ظلمات غيابات الجب وقعره السحيق: معنى المدة الزمنية الطويلة التي غاب فيها يوسف ﷺ عن العالمين، لولا رعاية رب العالمين سبحانه(٤).

وقراءته في خاتمة سورة الرعد: ﴿قُل كَفى بالله شهيدًا بيني وبينكم ومِنْ عِندِهِ عِلْمُ الكتاب ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد].

ولا يخفى على المتدبِّر كم لهذا الحرف من ظلال وارفة وزلالات عذبة؛ يذوب لها قلب الناظر رِقة وخشوعًا؛ فلا يطمع في علم إلا من الله تعالى، ولا يفتح بابًا لاستنباط فتوحاته إلا بالتذلل بين يدي عالمه ومُنزله سبحانه؛ فمنه وبه تنزيله وحفظه وقراءته وفهمه وعلمه، وإليه يعود كل شيء؛ لا علم لنا إلا ما علمنا ﷻ(٥).

وقراءته في فاتحة القصص: ﴿ويَرَى فرعونُ وهامانُ وجنودُهما﴾ [القصص: ٦] على الفاعلية لا على المفعولية؛ وبمثله قرأ حمزة والكسائي وخَلف خلافًا لباقي العشرة؛ وإليه أشار الشاطبي في الحرز بقوله:

---

(١) انظر المفردة (ص. ٣٠٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (١٥/٥).

(٢) وقرأها بعضهم «ولا دَرَأْتُكم به».

(٣) انظر المفردة (ص.٣١٥)، والبحر المحيط (١٣٣/٥)، والقراءات الشاذة للشيخ القاضي (ص. ٥٢).

(٤) انظر المفردة (ص. ٣٢٧). وانظر الإتحاف (١٤١/٢). والقراءات الشاذة للقاضي ص ٥٥).

(٥) انظر المفردة (ص. ٣٤٠). والطبري (١٧٧/١٣) والمحتَسَب لابن جني (٣٥٨/١)

وَفِي نُرِيَ الْفَتْحَانِ مَعْ أَلِفٍ وَيَا ئِهِ وَثَلَاثٌ رَفْعُهَا بَعْدُ (شُ)كِّلَا

وقراءته في حرف سورة الرحمن ﷻ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شِوَاظٌ مِنْ نَارٍ ونُحَاسٍ﴾ [٣٥]؛ فأضاف لقراءة الجمهور التي أفادت العذاب الحسي بالنحاس المُحْمَى الصَّاهِرِ المذاب؛ العذابَ المعنوي الذي يلقاه أهل النار فيها عياذًا بالله غضبًا ومقتًا ونَحْسًا، حتى تكاد بهم تَمَيَّزُ مُنْفَجِرَةً غيظًا[1].

فهذه عشرة كاملة من مواضع تحيط بالقرآن كله؛ أردنا أن نبرز بها ما لاختياره في روايته من تأثير على معالم التدبُّر عنده؛ وكأنِّي بالحسن البصري ﷺ يؤكد لنا ضرورة الإحاطة بحروف القرآن وظواهر قراءاته وصنوف علومه؛ لمن أراد أن يحقق التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ.

وأن الإمام ﷺ أفادنا بتميز قراءته معاني غزيرة واستباطات جليلة؛ وأن قراءته مجردةً هي تدبُّر عملي حاصل بالتلاوة والسماع؛ قبل التفسير والتأويل؛ ناهيك عن التدبُّر والاستنباط والتثوير.

المبحث الثاني: في معاني مغانيه

وإذا أردنا أن ندخل «بوابة التأمُّل» عند سيدنا الإمام، وباستحضار ما سبق وأشرنا إليه من طبيعة تفاسير تلك الحقبة؛ وحاولنا أن نتلمس ما هو حري «بمصطلح التدبُّر» وداخل في المراد منه؛ وغير منصاعين إلى تكثير الصفحات بما هو شرح أو تفسير أو توضيح؛ فإننا لن نجد تلك الوفرة التي نطمح إليها؛ والتي لا نشك بأن أئمتنا كالحسن البصري كانوا أعلامًا فيها؛ ولو أنه وصلنا كل ما قالوه وجميع ما كتبوه؛ أو لو أنهم عاشوا إلى زماننا وتأولوا عليه الكتاب المحكم؛ لرأينا من تدبُّرهم العجب العجاب؛ لأنهم جمعوا كل وسائله؛ وأخصها: القلب الطاهر، واللسان الذاكر، والعقل الظاهر، مع التوفيق الوثيق من الأوَّل الآخر سبحانه.

أولئك الذين كان الواحد منهم يَدخلُ الناس من يهود ونصارى في دين الله أفواجًا؛ بمجرد سماعهم له وهو يفسر القرآن، ويُفتق معاني الإيمان منه، ويفجر أودية المعرفة فيه؛ كما ذكروا في سيرة ترجمان القرآن سيدنا عبدالله بن عباس ﷺ.

(١) انظر المفردة (ص. ٥٠٥) والقرطبي (١٧/١٧٢) والإتحاف (٤/٥١١) والقاضي في القراءات الشاذة (ص.٨٥).

إذن فالذي سنعرضه بعد استعراضنا تفسيره القرآنَ كاملًا مع بعض المقارنات والمقاربات؛ هو بمثابة الفوائد التدبُّرية عنه ﷺ؛ وليس هو قواعد بمعنى الحصر الكلي لمجموعات كثيرة من الجزئيات؛ لأننا لا نستطيع أن نتكلف ما ليس موجودًا؛ والله تعالى أعلم.

نعم؛ لو أنه اجتهد أصحاب هذا المؤتمر الكريم؛ واستغلوا هذه الجهود المباركة من أفاضل العلماء والباحثين المشاركين؛ فضموا ما ذكر عن الحسن البصري إلى غيره من نظائره وتفاسير أهل حقبته؛ فيمكن إذ ذاك أن تُستَقَى من الأمثلة العديدة قواعد معدودة محددة؛ يُلخص بها «تقعيد التدبُّر»[1] عند الطبقة العليا من مفسري السلف.

فإذا استفتحنا بالذي هو خير- وهو فاتحة الكتاب- فإننا نلحظ في إمامنا:

(١) اعتماد الرواية أصلًا للتدبُّر:

فلا يصح عنده الافتئات على المنقول أو تجاوز دلالاته لما هو دونها، فَضلًا عن المجيء بما هو أجنبي عنه أو معارض له؛ فهذا يجعل من دعاوى الابتكار في التدبُّر أشبه بالعبث والتقول والتكلف؛ ولا يسلم من ذلك إلا من استوعب المنقول وأحاط بالمأثور، ثم هو بعد ذلك بين يدي مأدبة الله فليظهر من فتوحاته ما يشاء.

ولذلك يكثر إمامنا من الرواية عن الرسول ﷺ، وعن الصحابة ﷺ؛ ويجعلها أصلًا لكل اجتهاد واستنباطٍ؛ كما في تفسيره السبع المثاني والقرآن العظيم بالفاتحة؛ وكان يكره تسميتها بأم الكتاب- في قولٍ- لظاهر آية الرعد: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد][2].

(٢) بِنْيَة الكلمة هي المعنى الأقرب:

فالكلمة من حيث أساس تركيب الكلام؛ لا يُتجاوَزُ بناؤها في عملية التدبُّر؛ بل يُنظَر في الكلمة: أصلها وزوائدها وتصرفات اشتقاقاتها؛ فتؤخذ منها المعاني الأولية لأي إرشاد تدبُّري؛ كما ستأتي الإشارة إليه في الاستخدام اللغوي عند الإمام ﷺ؛ ولذا نراه حينما تأول «السبع المثاني» بأنها سورة الفاتحة؛ قال ﷺ: «لأنها تُثَنَّى في كل صلاةٍ وفي كل قراءةٍ».

---

(١) وليس مطلق التفسير! فتنبه.

(٢) تفسير الحسن البصري (٢١/١)..



وكذلك في تفسيره التقوى «بالاتقاء» الذي يقتضي الابتعاد والترك والتفادي.

فقال ﷺ: «ما زالت التقوى بالمؤمنين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافةَ الحرام».

فيجعل الأقرب في بنية الكلمة هو الأولَ دخولًا كما رأيتَ.

ومن المعنى الأقرب الذي تدل عليه الحقيقة اللغوية؛ فإنه يعطي الأولوية للمعنى الأقرب للحقيقة الشرعية؛ كما في حمله إقامة الصلاة في ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على المفروضة؛ لأنها أساس الحفاظ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

ويبرز الزكاة المفروضة في مضمون: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة].

كما أنه يحتاط لذلك المعنى الأقرب أن يدخل فيه ما ليس منه فيحترز بإبعاده؛ كقوله عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة]؛ قال: «القرآن والتوراة والإنجيل والزبور؛ يصدقون بها ولا يعملون إلا بما في القرآن»[1].

وهذا من دقيق فهمه، الذي بفقدانه وقع بعض أهل زماننا من دعاة العلمانية ومرتزقة الغرب الليبراليين؛ في دعوى تقارب الأديان ووحدة الأديان، وتحريف معنى أن التوراة فيها هدى ونور؛ كما هو معروف في محله؛ فخلطوا بين التزكية الماضية والتصديق بالكتب، وبين داعي التشريع والهيمنة.

كما قال ربنا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٤٨﴾ [المائدة].

وهو عين ما بينه ﷺ عن اليهودية والنصرانية حماية لعروة الإسلام من كل الأباطيل؛ فقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة]؛ قال: «لا تَلْبِسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام؛ وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله»[2].

---

(١) تفسيره (١/٢٥)..

(٢) تفسيره (١/٣٧). وانظر كما أفاد محققه تفسير ابن كثير (١/٢٤٥). وزاد المسير لابن الجوزي (١/٥٤)..

ورغم الاهتمام الملحوظ «باللفظة» استخدامًا واحترازًا؛ فإنه لا يبالغ باستقصاء ما لا يظهر له فيها؛ وذلك دأب منه على منهج السلف الكِرام في ترك تكلف ما لم يبلغه علمه؛ ومنه قوله في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية]: «لا أدري ما الضريع؟ ولم أسمع فيه من الصحابة شيئًا».

وفي قولٍ عنه فسره: بالزقوم؛ قال: «وهو بعض ما أخفاه الله من العذاب»[1].

ومن صور تركه التكلف اللفظي والمعنوي: اختياره عدم تفسير الحروف الفواتح؛ كفاتحة الأعراف (٢٩٠/١)، وسائر مواضعها في القرآن العظيم.

وتركُهُ التباحثَ في الفَرْق بين السيئة والخطيئة كما يلوح من ظاهر التعاطف بينهما؛ في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٨١﴾ [البقرة]؛ فيقول[2]: «السيئة ههنا: الشرك أو الكبيرة من الكبائر، وما ندري ما الخطيئةُ؟ يا بُنَيَّ، اتل القرآن، فكل آية وعد الله عليها النار فهي الخطيئة».

فهو يوقظ لما ينبني عليه عمل وما تتعلق به النجاة؛ دون تكلف ما لا يحتمل. والله تعالى أعلم.

(٣) التقيد باللفظ القرآني:

أ- فحينما يخلو لفظ النظم القرآني من الحكم المقيِّد لظاهر الإطلاق؛ فإنه يتخذ ذلك قرينة على الرخصة؛ كما هو مذهبه في الترخيص للمتوفَّى عنها زوجها بالتزين والتصنع، ولا يرى الإحدادَ شيئًا؛ وذلك- والله أعلم- لأن لفظ القرآن خلا منه؛ واقتصر على ذكر العِدة أربعة أشهر وعشرًا براءةً للرحم؛ وما زاد اعتبره حَسَنًا وليس لازمًا؛ على ما يعرف تفصيله في كتب الفروع عند الفقهاء.

ب- وكان إذا قرأ آية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾ [البقرة] يفسر الأضعاف بتدبُّر عجيب وتأمُّل يأخذ بمجامع الأفئدة بخمسة أنواع: «أن الله أعطى الناس الدنيا قرضًا، وسألهم إياها قرضًا: فما أعطوه فلهم به العشرة إلى السبعمئة إلى ما لا يعلمه إلا الله، فإن أخذ منه مُصيبةً، فعليهم صلوات من ربهم ورحمة

(١) (٤٢٧/٢). وانظر تفسير القرطبي (٣٠/٢٠)..

(٢) (٤٧/١). وانظر زاد المسير (٩٠/١)..

وأولئك هم المهتدون، وإن شكروا بلسانهم فالله يزيد في آلائهم، وإن اقترفوا به الخطايا فهو يقبل التوبة منهم، والخامسة من العطاء والمضاعفة، وهي ربيع القلوب؛ قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

ثم قال عن الخامسة: «فلو أعطيها جبريل وميكائيل ﷺ وجميع النبيين لكان قد أجزل لهم العطاء»[1].

ج- وهكذا نرى الحسن البصري لا يميل مع المعنى الذي يتبادر منه خلاف الأصل، فيحمل المحتمل على الأليق والأحوط؛ كما نراه في تفسير الذين يتبعون المتشابه من الخوارج؛ ثم يقول في آية التزيين مبينًا الفاعل المبهم في الفعل الذي لم يسم فاعله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]، مستبعدًا حمل التزيين على الله ﷻ مع احتماله القوي وروده المعتبر؛ فيقول: «المزين هو الشيطان مَن زينها، ما أحد أشد لها ذمًّا لها من خالقها»[2].

وقريب منه قوله في قوله تعالى في آية النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء].

قرأها وقال: «رحم الله عبدًا صحبها على ذلك؛ ما الدنيا كلها من أولها إلى آخرها إلَّا كرجلٍ نامَ نومةً؛ فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه فلم ير شيئًا»[3].

ومن هذا الباب تفسيره معمولَ قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء]؛ قال: «أي: وما قتلوا ظنهم يقينًا».

---

(١) (١/٨٧ بتصرف)..

(٢) (١/١١٧)..

(٣) (١/١٩٤).

بمعنى: أنهم لا يقضون على ريب الاختلاف وعالم الشكوك بدواء العلم والقطع واليقين.

د- مع أنه قد يميل مع الظاهر كما أشرنا؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة]؛ قال: «أي: قَذَرٌ؛ فلا تصافحوهم، ومن صافحهم فليتوضأ»[1].

ولكن أخذه بالظاهر أحيانًا يجعل قوله مرجوحًا وخلاف الأقوى؛ ولذا رد عليه قتادة وابن المسيب حلفه بأن الابن المذكور في قصة نوح ليس ولده؛ لظاهر: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ [هود: ٤٦]، وقرينة: ﴿فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠][2].

هـ- ومِن أخذه بخلاف الظاهر: حمله النجوم على المصدرية لا على الجمع في قوله تعالى في شأن إبراهيم في سورة الصافات: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الصافات]؛ أنه «نظر فيما نجم من قولهم؛ وتفكر فيما يعمل إذا كلفوه الخروج».

وكأنه يريد تنزيه الخليل ﷺ من شبهة احتمال علم التنجيم[3]، والله تعالى أعلم.

(٤) العناية بسنن العرب ونظائر القرآن:

أصالة هذا المَعْلَم في «عبادة التدبُّر» لعموم المكلفين ولخصوص العلماء والمستنبطين؛ لا تحتاج منا إلى تأكيد؛ فذلك مما تواتر في الأدلة والشواهد، وصُنِّفت فيه المصنفات الصوامد؛ والمراد: تأكيد ما سبق من عناية الإمام بالكلمة العربية واللفظة القرآنية من مختلف الوجوه؛ وأن ذلك فرع عن سليقته العربية التي يرشح بها بيانه؛ فيأخذ ﷺ من لغة العرب واشتقاقها؛ وهو الذي كان يُحتج بفصاحته ويُلحِّن كبار شعراء عصره كالكُمَيتِ وأضرابه.

وقد ذكر ابن الجزري عن الشافعي قوله: «لو أشاء وأقول: إن القرآن نزل بلغة الحسن البصري، لقلت ذلك؛ لفصاحته وبلاغته».

---

(١) (٣٤٩/١).

(٢) (٤٠١/١). وانظر الطبري (٣٤٠/١٥). القرطبي (٤٦/٩). ابن كثير(٣٢٦/٤).

(٣) تفسير الحسن البصري (٢٠١/٢) وانظر تفسير ابن عاشور.

أ- ومما يؤكد هذا المعنى تدبُّره لإبطال عقيدة النصارى وعقيدة القاديانية في زماننا؛ بأوجز لفظ حين يبرز أن معنى «كلمة الله»: خلق بكلمة الله وهي «كن»؛ وأن «التوفية» راجعة لمعنى حمايته من أذى يهود: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران].

قال: «أي: قابضك من الأرض وافيًا تامًّا؛ من غير أن ينال منك اليهود شيئًا»[1].

وقال في آية النساء: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة]؛ قال: «وَفاةَ الرَّفْعِ إلى السماءِ».

ب- ومن تمام أخذه عن لغة العرب؛ أنه يربط القرآن بأيامها وعاداتها؛ لأنه يضفي بصيرةً على كتاب الله لا يبلغها من لم يكن خبيرًا بأحوال العرب ومعيشتهم؛ كما فصله الشاطبي في الموافقات؛ وتجد من شواهده عند إمامنا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم]: «كانت العرب تَعُدُّ الأَنْعَمَ فيها من يتغدى ويتعشى؛ فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم»[2].

وكما قال في قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [الجاثية]: «جعلت الرياح على الكعبة؛ فإذا أردت أن تعلم ذلك فأسند ظهرك إلى باب الكعبة؛ فإن الشَّمال عن شِمالك وهي مما يلي الحِجْرَ؛ والجَنوب عن يمينِكَ وهو مما يلي الحَجَرَ الأسودَ؛ والصَّبا مُقابِلَكَ وهي مستقبَلُ بابِ الكعبةِ؛ والدَّبورُ مِنْ دبر الكعبة»[3].

---

(١) (١/١٢٦).

(٢) (٢/٢٧).

(٣) (١/٦٥).

ج- ويتفنن في لغات أهلها؛ كما في تفسيره اللهو بالمرأة على لسان أهل اليمن في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء]؛ وقال: «اللهو: الولد أيضًا»(١).

نظائر القرآن:

د- ويحيل على المعنى الأوضح باللفظ الأبعد مع حصر النظائر؛ كما في حمله «إِنْ» على معنى «ما النافية»؛ فقال: «خمسة في القرآن:

١- ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم]؛ أي: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال.

٢- ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء]؛ أي: ما كنا فاعلين.

٣- ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف]؛ أي: ما كان للرحمن ولدٌ.

٤- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف]؛ أي: في الذي ما مكناكم فيه.

٥- والخامس الأخير: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس]؛ أي: فما كنتَ في شكٍّ»(٢).

هـ- ومن أمثلة تدبُّره بحصر النظائر قوله ﷺ: «ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق:

-أولهن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس].

-والثانية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر].

---

(١) (٤٧/٢). سورة الأنبياء (١٤٨/٢). آخر سورة العنكبوت.

(٢) (١٣٩١).

-والثالثة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود]»[1].

ومن النظائر عنده: حصر مواطن حساب الكفار يوم القيامة:

- موطن يُقِرُّون فيه.

- وموطن ينكرون فيه.

- وموطن يُختَم على أفواههم فتشهد جوارحهم. (٤٦٩/١) سورة النحل عند قوله تعالى عنهم: مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل].

- ومن جمعه النظائر: ما ذُكر في آداب القضاة وذكره ابن كثير في تفسيره وعنه القاسمي في محاسن التأويل وغيرهما؛ قال (١١/سورة الأنبياء): «وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن، فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة.

فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حُكمًا يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ الآية، فأثنى الله على سليمان، ولم يذم داود».

ثم قال الحسن: «إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثةً:

- لا يشترون به ثمنًا قليلًا.

- ولا يتبعون فيه الهوى.

- ولا يخشون فيه أحدًا».

ثم تلا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

(١) (٣٩٣/١)، وانظر الدر المنثور: (٢٧٢/٥).

وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

و قال الحسن في آية الأنبياء هذه: «لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده».

وفي شأن القضاة وآدابهم يَستنبِط معنى لطيفًا في ضرورة هيبة القاضي وتهيئة مقامه بالوجه اللائق بشرف الفصل بين الناس، فيقول في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل]، حين ولي قضاء البصرة قال: «لا بد للحاكم من وَزَعةٍ»؛ وقال: «يتقدمون»، وقال: «يدفعون»[1].

(٥) رعاية علم الفواصل والوقف والابتداء:

وإذا كانت الآية هي مجموع كلماتٍ قرآنيةٍ؛ فإن هذه الآية بعدما دخلت باب التراكيب صارت المعاني أكثر ورودًا كما هو معلوم؛ وصار لسُنَّة الفواصل والعدد؛ وبلاغة الوقف والوصل والبدء والختم؛ أجمل الوقع وأوفر المدد؛ وهو ما كان حاضرًا في تدبُّر سيدنا الإمام ﷺ؛ فهو يتخذ من الفواصل أوقافًا للأداء؛ ولكنه ينبه على احتمال اتصال المعنى، فليس كل وقفٍ انفصالًا؛ بل قد يستحسن ترك أولوية الوقف على الفواصل- أي: رؤوس الآي- لمصلحة أولوية المعنى البليغ الذي لا يظهر جَلِيًّا إلَّا بالوصل؛ وذلك كما في قوله تعالى في آية سورة البقرة: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة].

فقال الحسن مبرزًا تعلق فعل التفكر بالجار والمجرور بعده؛ وأن مقتضى العربية هو استحباب تعاقب العامل ومعموله؛ وخاصة في الفَضْلات؛ كالظرف والجار والمجرور؛ كما يعبر

(١) (١٢٤/٢). تفسير الطبري (٤٣٨/١٩)..

النحويون؛ لأنها شديدة الضعف، فكما أنه يتوسع في تحركها بين أعمدة الكلام تقديمًا وتأخيرًا؛ فإنها تضعف عن الاستقلال عن مُتَعَلَّقِها.

قال ﷺ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]: «والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء».

فإرشاد الآية عند الحسن البصري هو وجوب التأمُّل في المصيرين والمقارنة بين الدارين؛ فمن أيقن بأن الآخرة دار جزاء وبقاء؛ وأن الدنيا دار ابتلاء وانقضاء؛ سهل عليه الائتمار بالشريعة، والإذعان لأحكام الله، والشعور بحلاوة منفعتها وحسن عاقبتها في الدنيا والآخرة؛ سواءً في تحريم الخمر والميسر، أو في تحريم العدوان على اليتامى وفي كل ما ورد السؤال عنه أو تشريعه دون سؤال؛ فإن المتفكر سيوقن بأنه عين الإصلاح الكاشف للعنت عن البشرية؛ لأنه بعزة وحكمة العزيز الحكيم.

(٦) التدبُّر في خدمة الإصلاح:

-فكان ﷺ يجعل من تدبُّره تأثيرًا في الواقع آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر؛ كقوله عند قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة]: «والله إن هؤلاء الصيارفة لَأَكَلة الربا؛ وإنهم قد أَذِنوا بحرب من الله ورسوله؛ ولو كان على الناسِ إمامٌ عادلٌ لاستتابهم؛ فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح»[1].

وإذا كان ﷺ قد جعل من تدبُّره رسائل للعلماء والقضاة والحكام وعموم الناس؛ فإنه يعطينا على ذلك مثالًا آخر أكثر جلاءً؛ في إعلائه من قيمة الشورى، وأنها تشريع رباني يصلح الله به دين الناس ودنياهم؛ فقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى]: «ما تَشَاورَ قومٌ قط إلا هُدُوا لأَرشَدِ أمورهم- ثم يقرؤها- قال: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم لأفضل ما يحضر بهم»[2].

---

(١) (١١٠/١). ذكره ابن كثير في تفسيره (٧١٦/١)..

(٢) (٢٤٧/٢) وانظر الدر المنثور (٧٨/٩)..

فمبدأ الشورى من المبادئ الإسلامية المهمة، التي توفر الأمن والطمأنينة للأفراد، والاستقرار السياسي للدولة، ويؤدي إلى إشاعة المحبة وبث روح التعاون والتناصح بين الحاكم والرعية، وهو ضروري حتى لا ينفرد الحاكم بالأمر ولا يستبد بالرأي الذي قد لا يكون صوابًا؛ فإن رأي الجماعة خير من رأي الواحد؛ لأنه يأتي بعد نظر ودراسة وتفكر في الأمر وعواقبه؛ ومن ثم تضمن الأمة أكبر قدر من إصابة الحق.

قال ابن عطية في المحرر: «الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام؛ ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب» اهـ

وقال القرطبي عند تفسير هذه الآية: «كان الأنصار قبل قدوم النبي ﷺ إليهم إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه ثم عملوا عليه، فمدحهم الله به».

ونقل عن الحسن البصري أنه قال: «إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون، فمُدِحوا باتفاق كلمتهم»اهـ

وقال تعالى مخاطبًا رسول الله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن- كما قال الحافظ في الفتح شرح كتاب الاعتصام- عن الحسن البصري قال: «قد علم أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستن به من بعده».

فالشورى مشاركة في المسؤولية، وضمانة من الانحراف والاستبداد.

ولهذا بوب البخاري ﷺ في صحيحه بهاتين الآيتين بابًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة؛ وهذا فقه عميق ونظر دقيق من البخاري ﷺ؛ لأهمية الشورى وكون العمل بها اعتصامًا بالكتاب والسنة، وبعدًا عن الانحراف والبدعة؛ فما أحوج دعاة الإسلام اليوم إلى تدبُّره وتفهمه؛ لتسلم دعوتهم من القرارات العشوائية، والاتجاهات الفردية.

وقد وردت الآثار عن الأئمة في مدح الشورى وبيان فضائلها؛ كالذي نقلناه عن إمامنا الحسن البصري.

وفي لفظ عنه: «إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع»[1]، والله تعالى أعلم.

(٧) التدبُّر لإصلاح الأسرة والنفوس:

أ- ومن تدبُّره لإصلاح شؤون الأسرة التي هي «المجتمع الأوسط» بين «مجتمع النفس» و«مجتمع الأمة»؛ قوله ﷺ عند ذكر نبي الله إسماعيل في سورة مريم: «مَنْ كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، فَرَحِمَ اللهُ مَنْ وَعَظَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ، فَقَالَ: يَا أَهْلِي، صَلاتَكُمْ صَلاتَكُمْ، زَكَاتَكُمْ زَكَاتَكُمْ، جِيرَانَكُمْ جِيرَانَكُمْ، مَسَاكِينَكُمْ مَسَاكِينَكُمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْحَمَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَثْنَى عَلَى عَبْدٍ كَانَ هَذَا عَمَلَهُ، فَقَالَ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم]»[2].

كما سنجد الإمام ﷺ في آية آل عمران يعمق مفهوم الصلاح وبلوغ درجة الإحسان؛ وأنه لا يتنافى مع تقصير معيبٍ ملحوظ، وتفريط مذمومٍ غير محمود؛ وأن دنو هذا لا يمنع من علو ذلك رجاء بلا غرور، وخوفًا بلا قنوط؛ فيقول في آيتي آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران]؛ قال: «إن هذين النعتين لنعت رجل واحدٍ»[3].

ب- ومع هذا التفاؤل الشديد الذي يبثه الإمام ﷺ؛ إلا أنه لا ينساق معه؛ بل يتخذ من مرهبات القرآن مناسبة لتوطين المؤمن على عدم الاغترار بكرم الله تعالى؛ فيضرب المثل بأصحاب رسول الله ﷺ في «وقعة أحد» فيقول عن مضمون قصتها: «ولقد عفا عنكم حين لم يستأصلكم». ويصفق الحسن بيديه ويقول: «وكيف عفا عنهم وقد قُتِل منهم سبعون؛ وقتل عم رسول الله ﷺ، وكسرت رَبَاعِيَتُه، وشج في وجهه؟ قال: ثم يقول الله ﷻ: قد عفوت عنكم إذ عصيتموني- أي: بالنزول من جبل الرماة- ألا أكون استأصلتكم؛ فقال الحسن: هؤلاء مع

(١) (٢٤٧/٢). وانظر الدر المنثور (٧٨/٩). وانظر موسوعة الرسائل للأستاذ نايف الشحود.

(٢) (٢٦/٢). رواه ابن أبي الدنيا في العيال (ص. ٣٣٠)..

(٣) (١٤٦/١)..

رسول الله وفي سبيل الله؛ غِضابٌ لله يقاتلون أعداء الله؛ نهوا عن شيء فصنعوه؛ فوالله ما تركوا حتى غُمُّوا بهذا الغمِّ؛ فأفسقُ الفاسقين اليومَ يتجرم كلَّ كبيرةٍ ويركبُ كلَّ داهيةٍ؛ ويسحب عليها ثيابه، ويزعم ألا بأس عليه! فسوف يعلم؛ والله ذو فضل على المؤمنين»[1].

وقال ﷺ في قصة الثلاثة الذين خلفوا: «سبحان الله! واللهِ ما أكلوا مالًا حرامًا، ولا أصابوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرضِ؛ غير أنهم أبطؤوا عن شيءٍ من الخيرِ: الجهادُ في سبيل الله؛ وقد -واللهِ- جاهدوا وجاهدوا وجاهدوا؛ فبلغ منهم ما سمعتم؛ فهكذا يبلغ الذنبُ من المؤمن»[2].

قلت: ولا يخفى أن مقام صحابة رسول الله ﷺ في مثل هذه الهنات دائر بين الأجر والأجرين، بين الشهادة والتطهير؛ كما هو جلي في بقية القصة في سورة آل عمران؛ وأن الموعظة بهم واجبة على من بعدهم كما قال الحسن.

وقريب منه قوله في آية الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف]، وفي قوله ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[3]؛ قال ﷺ: «فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها! ثم إن علوجًا فُسَّاقًا أكلة الربا والغلول قد سفههم ربي ومقتهم؛ زعموا ألا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا وزخرفوا هذه البيوت؛ يتأولون: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]»[4].

وفي معناه كلامُه في الأعراف عن قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف]؛ قال: «والمنافق يسيء العمل ويتمنى ويقول: سواد الناس كثير، وسيغفر لي ولا بأسَ عليَّ»[5].

---

(١) (١/١٥٢).

(٢) (١/٣٧٣).

(٣) متفق عليه.

(٤) (١/٢٩٧). وعنه عبدالرزاق في المصنف:(٢٩٥٦٨). كما أفاد محققه جزاه الله خيرًا.

(٥) (١/٣٢١). زاد المسير (٣/٥٠). والدر المنثور (٤/٣٥٦). محققه.

فهذا ورعٌ زائف، ورجاء كاذب، وغرور خادع، وأمنٌ مِن مكر الله؛ وكذلك دأب إبليس مع أهل النفاق وأشباههم؛ يبحثون عن الرخص للتملص؛ ويعتذرون بالأيمان الكاذبة للتخلص؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة].

قال الإمام: «يقول المنافق لرسول الله ﷺ: لا تُكْسِبْني الإثم بأمرك إيَّايَ بالخروج وهو غير متيسر لي؛ فآثَمَ بالمخالفةِ»[1].

ج- ومع حزمه في الترهيب؛ فإن الإمام يفتح باب الطمع في الترغيب كما أمر الله في آيات عدة؛ ومن أرجاها قول الحق سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

وقد نزلت فيمن سلف منه الشرك والقتل والزنا وأنواع الكبائر قبل توبتهم وقبل إسلامهم؛ قال ﷺ: «انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»[2].

(٨) التدبُّر بتصوير المشاهد:

كثير من الناس يُحال في مثل هذا التعبير على كتابات بعض نبهاء المعاصرين كسيد قطب ﷺ؛ لكثرة ما يكرر هذا المضمون «التصوير» و«المشاهد»؛ فيخيل للبعض أن هذا من تزيدات المعاصرين! وربما خطَّأهم البعض فيه؛ مع أن كلا المصطلحين سائغ المعنى شرعًا؛ وورد في تطبيق التدبُّر عند العلماء سلفًا وخلفًا؛ ومنهم إمامنا الحسن ﷺ، ومن بديع مواعظه في تصوير معنى «هجر القرآن ونبذه»؛ عند قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال: «حفظوا حروفه وضيعوا حدوده؛ طَلَوْه بالمسك، وحلَّوْه بالذهب والوَرِق؛ وأدرجوه بالديباج، وزينوه بالذهب؛ ولم يحلوا حلاله، ولم يحرموا حرامه؛ فذلك النبذ وراءَ ظهورهم؛ واشتروا بآيات الله ثَمَنًا قليلًا.. اشتروا النار بالجنة؛ كتموا وباعوا فلا يبدون شيئًا إلا بثمنٍ؛ فالثمن قليل؛ ولو الدنيا بحذافيرها؛ فبئس ما يشترون»[3].

(١) (٣٥٥/١) وانظر النكت والعيون للماوردي: (١١٢/٢) وزاد المسير (١٨٦/٣)..

(٢) (٢٢٤/٢) وانظر تفسير ابن كثير (١٠/٧)..

(٣) (١٦١/١)..

وقال في قصة سحرة فرعون في سورة طه: «سبحان الله لقوم كفارهم أشد الكافرين كفرًا، ثبت في قلوبهم الإيمان بطرفة عين، ولم يتعاظم عندهم أن قالوا لفرعون في أبهته: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: ٧٢] في ذات الله والله إن أحدهم- يريد أهل زمانه- اليوم ليصحب القرآن ستين عامًا ثم يبيع دينه بشيء حقير»[١].

ومن ذلك في موعظته عن موقف من مواقف القيامة في قوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾ [الرحمن: ٤٤]؛ قال: «معشرَ الناسِ؛ ما ظنكم بقومٍ وقفوا في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة؛ فلما انقطعت أعناقهم من العطشِ والجوعِ والخوفِ أمر بهم ربهم إلى النارِ وجحيمٍ وحميمٍ؟! اللَّهُمَّ بك العناية وأنت المستعان؛ وإليك الملجأ وعليك التوكل؛ فنجنا برحمتك من عذابك يا غفور»[٢].

ويحرص ﷺ في تدبُّره على تصور المشهد بما يعين على تدبُّره، لا بما يجعله متكلفًا ما ليس مرادًا؛ وذلك كذكره عدد سحرة فرعون الذين ناظروا موسى ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف]؛ قال: «ظهر الحق وكان عدد السحرة الذين عارضوا موسى خمسةً وعشرين ألفًا»[٣].

وقال في آية طه: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه]؛ قال: «كان السحرة خمسةً وعشرين صفًّا، كل ألف ساحر صف»[٤].

وفي حال أشبه بالشاعر الولهان والعابد المستهام؛ ينطلق لسان الإمام وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت]؛ فيقول: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته؛ وعمل صالحًا في إجابته وقال: إنني من المسلمين هذا خليفة الله»[٥].

(١) (٣٩/٢). انظر القرطبي (٢٢٦/١١) والرازي (٤٤٠/١٠).

(٢) (٣١٠/٢).

(٣) (٣١٠/١).

(٤) (٣٧/٢).

(٥) (٢٣٩/٢)، وانظر القرطبي (٣٦٠/١٥) وابن كثير (١٧٩/٧).

ومن لطيف ذلك وغريب ما أُثِرَ عنه: ما استطرده عند ذكر كلب أصحاب الكهف؛ أنه قال ﷺ: «في الكلب عشر خصال محمودة، ينبغي أن تكون في كل فقير:

الأولى: أنه لا يزال جائعًا، وذلك من آداب الصالحين.

الثانية: أنه لا يكون له موضع يعرف به، وذلك من علامات المتوكلين.

الثالثة: أنه لا ينام من الليل إلا قليلًا، وذلك من صفات المحبين.

الرابعة: أنه إذا مات لا يكون له ميراث، وذلك من خِصالِ الزاهدين.

الخامسة: أنه لا يهجر أخاه وإن جفاه وطرده، وذلك من شيم المريدين.

السادسة: أنه يرضى من الدنيا بأدنى يسير، وذلك من علامات المتواضعين.

السابع: أنه إذا غلب عن مكانه تركه وانصرف إلى غيره، وذلك من علامات الراضين.

الثامنة: أنه إذا طرد ثم دعي أجاب ولم يحقد، وذلك من أخلاق الخاشعين.

التاسعة: أنه إذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد، وذلك من أخلاق المساكين.

العاشرة: أنه إذا رحل من مكانه لا يرحل بشيء، وذلك من علامات المتجردين. أو: المحزونين»اهـ[1].

وكان بعض شيوخنا يذكرها فائدة لنا في شرح الشاطبية عند قول الشاطبي ﷺ ناصحًا قارئَ القرآن:

وَقَدْ قِيلَ كُنْ كَالْكَلْبِ يُقْصِيهِ أَهْلُهُ ... وَمَا يَأْتَلِي فِي نُصْحِهِمْ مُتَبَذِّلَا

والله تعالى أعلم.

(٩) التدبُّر سلوك وأخلاق:

لعل شهرة الإمام بالتفسير الوعظي وإمامته في الزهد والقناعة؛ يجعل هذا من أجلى صور التدبُّر عنده؛ وكثيرٌ مما سبق يمكن إدراجه في هذا المَعْلَم؛ ولكننا آثرنا إبرازه بأوضح شواهده؛ أعني في التنسك والسلوك الذي هو من أعلام أئمته:

---

(١) (٢/ص٦) وانظر زاد المسير ٤/٢٤٢ وتفسير الماوردي ٢/٤٦٨ وذكره المقري في «نفح الطيب»(٢/٦٩٨) نقلاً عن شمس الدين المرعي في شرحه للألفية.

- فيتحفنا بنظر بالغ اللطافة؛ حين يأخذ من ابتهالات آخر سورة آل عمران ضرورة الإلحاح في الدعاء وتكرار الثناء على الله، فيقول: «ما من عبدٍ يقول: يا رب يا رب يا رب- ثلاث مرات- إلا نظر الله إليه؛ أما تقرأ القرآن؟ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران].

- ويعطينا في درس الأخلاق معنًى للبر بحيث يحصره في الامتناع عن الإيذاء، فيقول في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران]؛ قال: «هم الذين لا يؤذون الخلق»[1].

- وسأله مالك بن دينار عن قوله: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يوسف]؛ ما هي؟ فقال: «يا مالك، اتَّقَوُا المحارم؛ خَمَصَتْ بطونهم، تركوا المحارم وهم يشتهونها»[2].

- وقال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة]: «إذا أردت أن تكون مع الصادقين؛ فعليك بالزهد في الدنيا؛ والكَفِّ عن أهل المِلَّةِ»[3].

- وقيل له: أيحسد المؤمنُ المؤمنَ؟ قال: «لا أبا لك؛ ما نسَّاك بني يعقوب؟»[4].

ومن ذلك كلامه على آية الصبر في سورة الشورى (٢/٢٤٧)؛ قال: «سبَّ رجل رجلًا من الصدر الأول، فقام الرجل وهو يمسح العرق عن وجهه، وهو يتلو: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى]؛ قال الحسن: «عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون»[5].

(١) (١/١٦٤).

(٢) (١/٤٢٢).

(٣) (١/٣٧٤) وانظر تفسير ابن كثير (٤/٢٣٤).

(٤) (١/٤١٤) الدر المنثور (٥/٤٥٧).

(٥) ابن أبي الدنيا في الصبر (ص.١٢٣).

وهذا الذي أرشد إليه الإمام هو عين الصبر الجميل كما ورد عن السلف؛ كعمرو بن قيس المُلَائي، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣] قال: «الرضا بالمصيبة، والتسليم»(١).

وعن ميمون بن مهران قال: «ما نال عبد شيئًا من جَسِيمِ الخير من نبي أو غيره إلا بالصبر»(٢).

وقد سبق له في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة] ما يجعلك تستحضر في التدبُّر عظمة «اللفظ القرآني» و«الكلمة الإلهية»؛ بما يرفعك لاستقبال الخطاب الإلهي وكأنه لك خاصةً من دون الناس، وينبغي وجوبًا أن تعمل به؛ وأن الصبر هو لتحمل الدين كله ولتعلمه وتبليغه؛ وأن الصبر عند المصائب حسنٌ؛ وأحسن منه الصبر عن المحارم والمناهي؛ وأن لا دواء عند فساد الزمان أنجع من الصبر؛ فاصبر على الفقر وإن طُلْتَ الغنى؛ وتصبر على البغضاء وإن زُيِّنت لك المحبة؛ وتصبر على الذل وإن مُهِّد لك العز، وأُرْسِلَ في معناه عن رسول الله ﷺ أن من كان كذلك كان له أجر خمسين صِدِّيقًا(٣)، والله تعالى أعلم.

(١٠) التدبُّر لإصلاح عالَمِ العالِم:

فينبهنا في باب العلم إلى عظيم ما جعل الله من التفاوت بين العلماء، وأنه فاضل بينهم في الفضل والفهم والدرجة بما هو من محض كرمه، وأن ذلك ملحوظ في الاعتماد عليهم في الدين؛ فأولوا الأمر منهم أخص من أولي الأمر منا؛ الذين لهم رعاية للمسلمين وعناية بأمورهم؛ ثم بعد الاثنين تأتي درجة المستنبطين وهم المؤهلون للاستنباط في نوازل الأمور.

ثم تأتي درجة الموفقين من المستنبطين، وهم الذين جمعوا مع الأهلية أغلبية الصواب ودوام التوفيق، فهم أربع درجات والله أعلم.

---

(١) الصبر لابن أبي الدنيا (ص ٨٦).

(٢) روضة العقلاء لابن حبان البستي (ص ١٦٢).

(٣) تفسيره (٣٩/١) وانظر ابن كثير (٢٥١/١) والدر المنثور (١٠٧/١).

ولعل هذا ما عناه ﷺ بجعله الاستثناء في قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء] راجعًا إلى المستنبِطِينَ؛ أي: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلًا منهم[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]؛ قال: «إنه واللهِ ما أمسى على ظهر الأرضِ عالمٌ إلَّا فوقه من هو أعلم منه، حتى يعود العلم إلى الذي عَلَّمه»[2].

- ويأخذ من ظاهر جمع الملوك- مع امتناع تعدد الحكام- على معنى النعمة الشاملة والمنة الكافية؛ فقال: «من كانت له دار وزوجة وخادم فهو ملك؛ وهل المُلْكُ إلا مركبٌ وخادمٌ ودارٌ»[3].

أخذًا من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المائدة].

وإن نعم الله عليك التي جعلتك في مصاف الملوك لا ينبغي أن تجعلك متواكلًا لا تتخذ الأسباب؛ ولا غافلًا فلا تذكر الله إلا قليلًا؛ ولذا قال في آية النور: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور]: «أما إنهم كانوا يَتَّجِرون، ولم تكن تشغلهم تجارة عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة».

ويؤكده ما روي عن ابن مسعود ﷺ؛ أنه رأى قومًا من أهل السوق سمعوا الأذان، فتركوا بياعاتهم، وقاموا إلى الصلاة، فقال: «هؤلاء من الذين ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧][4].

- ومن الحمل على الأولى:

---

(١) (١/١٩٦).

(٢) (١/٤٢٥).

(٣) (١/٢٢٨).

(٤) (٢/٩٦) وانظر ابن كثير (٦/٧٠) الدر المنثور (٧/٣٠٩).

لما قيل له في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة]؛ قيل له: يا أبا سعيد، أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ قال: «إي والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل؛ وما جعل دماءَ بني إسرائيل أكرم على الله مِنْ دمائنا؛ قال: عظَّم واللهِ في الوزرِ كما تسمعون؛ ورغَّب واللهِ في الأجر كما تسمعون؛ إذا ظننتَ يا ابن آدم أنك لو قتلتَ الناس جميعًا؛ فإن لك مِنْ عملك ما تفوز به من النارِ؛ كذبَتْكَ واللهِ نفسُكَ وكذَبَك الشيطان»[1].

- وقال في آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة]؛ قال: «يا لها من سعة ما أوسعها! ويا لها مِنْ ثقةٍ ما أوثقها! الحمد للهِ بها، والحمد لله عليها؛ ما كان مؤمنٌ فيما مضى ولا مؤمنٌ فيما بقي إلا وإلى جانبه منافقٌ يكرهُ عمَلَهُ»[2].

- وقد ذكروا في ترجمته ﷺ: أنه توارى من الحجّاج تسع سنين، فلما بلغه موته قال: «اللّهُمَّ قد أمَتَّه فأمِتْ سُنَّتَهُ، وسجد شكرًا وقرأ آية إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم]»[3].

- وكان يتأول في آيات الوعيد في الأنعام: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام]؛ أنه الفتنة التي كانت بين أصحاب رسول الله ﷺ[4].

---

(١) (١/٢٣١).

(٢) (١/٢٤٩).

(٣) (١/٤٤٧)، والقرطبي (٩/٣٤٢).

(٤) (١/٢٦٨).

وقريب منه قوله في آية آخر الأنعام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام]؛ قال: «رأيت يوم قتل عثمان ذراع امرأةٍ من أزواج النبي قد أخرجت من بين الحائط والستر؛ وهي تنادي: ألا إنَّ اللهَ ورسوله بريئان من الذين فارقوا- هكذا بالألف لا بالتضعيف- دينهم وكانوا شيعًا»[1].

- وقريب من هذا تدبُّره في حقيقة العلم؛ وأن العلم يشخص بأثره، وأنه بمثابة صفقة البيع والشراء؛ فمن عقدها على باطلٍ أو حرامٍ أو تافهٍ فما هو بالعالم المُرتجَى ولا بالتقي الحصيف؛ وهذا حال سحرة بابل مع الشياطين بعد ملك سليمان ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة].

قال ﷺ: «لو كانوا علماء أتقياء ما اختاروا السحرَ».

وقال: «لو كانوا علماء لآمنوا بعلمهم ذلك واتقوا».

ثم يمعن ﷺ في التدبُّر، فيأخذ من الآية معنًى جليلًا فيقول: «ولا يوصف الكفار بأنهم علماء»[2].

(١١) تعميم الوعيد أسلم:

-ولا يمنع من تعميم الوعيد بجامع الترهيب؛ كما في تشبيهه أهل البدع وأهل المعاصي بأصحاب العجل، وأن الذلة والصغار يلحقهم حتى يتوبوا إلى الله تعالى؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف]: «إنَّ ذُلَّ البدعة على أكتافهم وإن هَمْلَجَتْ بهم البَغْلات وطَقْطَقَتْ بهم البَرَاذين»[3].

ومثله في قصة أصحاب السبت، قال ﷺ: «فكان يأتيهم في اليوم الذي حرمه الله عليهم كأنه المخاض لا يمتنع من أحدٍ؛ وقلما رأيتُ أحدًا يكثر الاهتمام بالذنب إلا واقعه؛ فجعلوا

---

(١) (٢٨٨/١).

(٢) (٥٣/١) وانظر الطبري (٤٤٣/٢) وابن أبي زمنين (٢٦/١) و ابن كثير (٣٥٠/١).

(٣) (٣١٧/١)، وبنحوه في آخر سورة الحجر (٤٦٢/١)، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (١٩٩/٦) وابن كثير (٤٧٨/٣).

يهتمون ويمسكون حتى أخذوه، فأكلوا أوخم أكلة أكلها قوم قط، أبقاه خِزْيًا في الدنيا وأشد عقوبة في الآخرة، وايمُ اللهِ، ما حُوتٌ أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله مِن قتلِ رجلٍ مؤمن؛ ولَلمؤمنُ أعظمُ حُرمةً عند اللهِ من حوتٍ، والله ما لحوم هذه الحيتان بأعظم عند الله من دماء قومٍ مسلمين، ولكن الله جعل موعد قومٍ الساعةَ والساعة أدهى وأمر»[1].

-ومن لطيف تدبُّره في هذا السياق: قوله في مسألة «الطوائف الثلاث»: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]: «نجت الفرقتان وهلكت العاصية؛ لأنهم لما قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ دَلَّ على أنهم أنكروا أشد الإنكار، وأنهم إنما تركوا وعظهم؛ لأنه غَلَبَ على ظنهم أنهم لا يلتفتون إلى ذلك الوعظ»[2].

فالحض على العمل هو أساس الرفعة بالعلم، وأرفع الأعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولذا قال ﷺ في قوله تعالى من سورة فاطر: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر]؛ قال: «لا يقبل الله قولًا إلا بعملٍ من قالَ وأحسَنَ العمَلَ قَبِلَ الله منه؛ وقال: فيعرض القول على العمل، فإن وافقه رُفِعَ وإلَّا رُدَّ؛ وقال: بالعمل قَبِلَ الله».

وعنه قال: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، مَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّهُ اللهُ عَلَى قَوْلِهِ، وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا رَفَعَهُ الْعَمَلُ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا؛ لزم ضرورةً صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل

(١) (٣١٩/١).

(٢) (٣٤٠/١). انظر الرازي (٢٨٢/٧) واللباب لابن عادل (٤٦/٨). محققه).

(٣) (١٨٥/٢). ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٣ /١٢٠). والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (ص ٥٦) والبيهقي في الشعب (١ /١٥٨).

الحديث: «قول وعمل»، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صَلَحَ الباطن صَلَحَ الظاهر، وإذا فسد فسد، ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[1]اهـ

وكَانَ الْحَسَنُ إذا أتى ختم سورة مريم يَقُولُ فِي مَوْعِظَتِهِ: «الْمُبَادَرَةُ عِبَادَةٌ، الْمُبَادَرَةُ، فَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْفَاسُ، لَوْ قَدْ حُبِسَتِ انْقَطَعَتْ عَنْكُمْ أَعْمَالُكُمُ الَّتِي تَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، رَحِمَ اللهُ امْرأً نَظَرَ لِنَفْسِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم]، ثُمَّ يَبْكِي وَبَكَى عَلَى ذُنُوبِهِ، ثُمَّ قَرَأَ وَيَقُولُ: آخِرُ الْعَدَدِ خُرُوجُ نَفْسِكَ، آخِرُ الْعَدَدِ فِرَاقُ أَهْلِكَ، آخِرُ الْعَدَدِ دُخُولُكَ فِي قَبْرِكَ»[2].

وعنه في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء]؛ قال: «عجبًا لابن آدم يغسل الخُرْء بيده في اليوم مرتين، ثم يتكبر يعارض جبار السموات».

وقيل له: إنه يشار إليك بالأصابع؟! فقال: «إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة، وفي دنياه بالفسق»[3].

ومن لطيف تدبُّره في آخر سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان]؛ قال: «مفتاح البحار: السفن، ومفتاح الأرض: الطرق، ومفتاح السماء: الدعاء».

وقال في آية سورة إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم]؛ قال: «هو المؤمن»[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨٧/٧).

(٢) (٣٠/٢) ورواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (ص. ١٤٦).

(٣) (١٥٧/٢) وانظر تفسير ابن كثير (٣٤٣/٦).

(٤) (١٥/٢).

(١٢) التدبُّر في تواقيع جامعة:

-ولا يخلو تدبُّره من عبارات مصكوكةٍ؛ يظهر عليها توقيع الحسن البصري من بعيد؛ فيقول تحت الآيات كلمات محكمات، من سجعات الحكم المأثورات؛ ما يجعلك تطرب لمعنى الآية وتؤثر في حياة خشوعك لها.

قال ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الأعراف]: «كم مستدرَج بالإحسان إليه! وكم مفتونٍ بالثناء عليه! وكم مغرورٍ بالستر عليه!»[١].

- وقال في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء]: «أي: لا تُحْسِنْ علانيتها وتُسِيءْ سريرتها»[٢].

- ومن بديع جوامع كلامه ﷺ: قوله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران]: «ولا يخاف الشيطانَ إلا وليُّ الشيطان»[٣].

- وقوله في سورة الحج لما سئل عن التجرد في الحج قال: «جرِّدْ قلبك من السهو، ونفسك من اللهو، ولسانك من اللغو؛ ثم يجوزُ كيف شئتَ»[٤].

- ويَستنبِط التعازيَ من القرآن، فيقول في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]: «عزَّى اللهُ رسولَهُ والمؤمنين عن الدنيا، وأخبرهم أن ذلك يصير باطلًا»[٥].

---

(١) (٣٢٣/١) وانظر القرطبي (٢٥١/١٨) واللباب (٤٢٤/١٥) محققه.

(٢) (٥٠٧/١) وانظر الطبري (٥٧٨/١٧) زاد المسير (٢٠١/٤) ابن كثير (١٢٩/٥).

(٣) (١٥٨/١).

(٤) (٦٩/١).

(٥) (١٦١/١).

- ولأن الآخرة ركن الإيمان الأعظم بعد الإيمان بالله؛ فقد كان تدبُّر الإمام دائرًا في فلكه استنباطًا وموعظةً؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام]، قرأها باسم الفاعل «مُستقِرٌّ»، وفسرها بقوله: «المستقِر في القبر، والمستودَع في الدنيا، وأوشك أن يلحق بصاحبه؛ فالمستقِرُّ هو الذي قد مات فاستقر به عمله»(١).

- ويأخذ ميزان العذر في المناظرة وعند الخلاف؛ في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران]؛ فيقول: «يعذر من حاجَّ بعلم ولا يعذر من حاجَّ بغير علمٍ»(٢).

وهو صاحب مقولة: «أول من قاس إبليس»؛ عند قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف](٣).

- وقال في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة]: «لا يزالُ الناس على دينٍ ما حجوا البيتَ واستقبلوا القبلة»(٤).

ويقول في آية هود: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود]: «استعينوا على السيئات القديمات بالحسنات الحديثات؛ وإنكم لن تجدوا شيئًا أذهب لسيئةٍ قديمةٍ من حسنةٍ حديثةٍ؛ ويقرأ الآية»(٥).

---

(١) (٢٧٣/١).

(٢) (١٢٨/١).

(٣) (٢٩١/١).

(٤) (٢٤٧/١).

(٥) (٤٠٩/١).

- وقال في قول الله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور]: «كُلُّ غريم مفارقٌ غريمَهُ إلَّا النار»(١).

- وقال في قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف]: «أي: إذ أنتم شباب ومعكم جهل الشباب»(٢).

- ودخل عليه قوم فقالوا: يا أبا سعيد، إنا نغشى الذكر، وإنَّ قومًا دخلوا يبكون، وإنَّا لا نبكي، قال: «فإن لم تَبْكِ العُيون فلتبك القلوب والأعمال، فَرُبَّ عينٍ باكيةٍ كاذبةٌ، ثم تلا: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف]»(٣).

- ويقول في سياق قصة يعقوب وجميل تحمله صبرًا وصفحًا: «ما مِن جَرْعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظٍ يتجرعها العبد بحلم وعفوٍ.. وأنه ليس في الحزن عارٌ»(٤).

«ومن ابتلي ببلاء فكتمه ثلاثًا لا يشكو إلى أحدٍ أتاه اللهُ برحمته»(٥).

- وإذا قرأ قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] بكى وقال: «نحن إذا نزل بنا أمرٌ فَزِعنا إلى الناس.. ولا يُبتَغَى الفرج من عند غير الله»(٦).

- وقال في قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت]: «إن الرجل ليجاهد وما ضَرَبَ يومًا من الدهرِ بِسَيْفٍ»(٧).

---

(١) (٣٦٣/٢).

(٢) (٤٢٨/١) تفسير البغوي (١٩٥/٤).

(٣) (٤١٥/١) عن الأشراف لابن أبي الدنيا (٤٨٠) المحقق.

(٤) (٣١٥/١).

(٥) (٤٢٧/١) وانظر: الطبري (٥٨٠/١٥) القرطبي (٢٤٧/٩) الدر المنثور (٣٨٦/٥).

(٦) (٤٢٠/١).

(٧) (١٤٣/٢) تفسير ابن كثير (٢٦٤/٦).

وقال في سورة الفلق في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق]؛ قال: «أول ذنبٍ كان في السماء الحسدُ، واليهود حَسَدَةُ الإسلام»[1].

- وفي قصة يوسف عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف]؛ قال: «من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله»[2].

(١) (٤٥٧/٢) وانظر الدر المنثور (٤٠٠/١٠).

(٢) (٤١٦/١) وانظر القرطبي (٣٥٣/١٤).



خلاصات وتوصيات

- البحث في مناهج الأعلام في التدبُّر أدق من البحث في مناهجهم في الرواية والتفسير والوعظ ونحو ذلك.

- الحسن البصري إمام التابعين تربى في مدرسة الصحابة؛ فتشكل منهاجه على أيديهم.

- إمامته شاملة لأبواب الخير؛ ومن أهمها منهجه في التدبُّر.

- صياغة منهاج متكامل للتدبُّر يتوقف على استقراء طرائق العلماء من السلف، وجمع ذلك في صعيد واحد ودراسة مقارنة.

- في طريق التدبُّر عند الإمام الحسن البصري معالم جامعة دالة هادية.

- التدبُّر عند الإمام الحسن البصري امتزج بحياته وأنفاسه.

- التدبُّر عند الإمام الحسن البصري يتجلى في علمه المستبحر ومواقفه المتنوعة.

- التدبُّر رافد من روافد الإصلاح عند الإمام الحسن البصري.

- الإصلاح عند الإمام الحسن البصري منظومة شمولية لا تتجزأ.

- تدبُّر القرآن والتخلق بأخلاقه متلازمان عند الإمام الحسن البصري.

- تأسيس هيئة متخصصة في تدبُّر القرآن العظيم؛ خطوة مهمة تقرب إلى المقصد الأم الذي يتوقف عليه صلاح حال الأمة؛ ألا وهو التمسك بكتاب الله، والعمل بتوجيهاته من الفرد والمجتمع والدولة:



عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع، فقال: «**قَدْ يَئِسَ الشَّيْطَانُ بِأَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ، وَلَكِنَّهُ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تُحَاقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ**» الحديث[1].

- من المهم في نظري إحداث تنسيق محكم بين جميع الهيئات والمؤسسات المهتمة بكتاب الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

(١) رواه الحاكم في مستدركه، وهو في الموطأ بلاغاً.

الورقة الثالثة

ابنُ جَريرٍ الطَّبَري ومَنهجيَّتُه في التَّدَبُّر

إعداد

فوَّاز بن مُنَصَّر سالم الشاووش

ماجستير في التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

السيرة الذاتية

الاسم: فواز بن مُنتصَّر سالم علي الشاووش.

تاريخ الميلاد: ١٩٨٣/١٢/١٥م، اليمن- عدن.

البريد الالكتروني: ashawoosh@hotmail. com

المؤهل العلمي:

- حاصل على شهادة البكالوريوس، قسم الحديث وعلومه، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عام ١٤٢٩هـ

- حاصل على شهادة الماجستير، قسم التفسير وعلومه، بالجامعة الإسلامية، ١٤٣٤هـ

- حالياً طالب دراسات عليا في مرحلة الدكتوراه، قسم التفسير وعلومه بالجامعة الإسلامية.

المؤلفات:

- الأساليب العربية الواردة في القرآن الكريم وأثرها في التفسير من خلال جامع البيان للطبري، وأصل هذا الكتاب رسالة علمية نال بها الباحث درجة الماجستير من قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

المشاركات والخبرات:

- حضور المؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، بالرياض عام ١٤٣٦هـ

- عمل باحثاً في إعداد مستخلصات الرسائل العلمية في مركز إحسان للدراسات القرآنية.

- عمل باحثاً في تحقيق المخطوطات وكتابة البحوث العلمية في كرسي الملك عبد الله للقرآن الكريم وعلومه بالجامعة الإسلامية.

الجوائز:

- حاصل على جائزة الرسالة العلمية المتميزة في الدارسات القرآنية التي تقيمها الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان)، عام ١٤٣٤-١٤٣٥هـ



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن خير ما صُرفت فيه الأوقات، وأثمنَ ما بُذلت له الجهود، وأشرفَ ما وُجِّهت إليه الهمم، هو العلم الشرعي؛ لأنه الكفيل بسعادة الدارين.

والقرآن الكريم هو أصل العلوم وأشرفُها، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يَعلم مَن جَهِله، ولا يَجهل مَن عَلِمه، والناس في فهمه وتدبُّره متفاوتون، فمستقلٌّ ومستكثر، كلٌّ بقدر ما أُوتي فيه من العلم والمعرفة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولا شك أن كلَّ من تأمَّل في القرآن وأطال النظر فيه وتدبَّره زاده ذلك إيمانًا بالله تعالى، ويقينًا بكتابه، وهذا هو المقصد من إنزاله، يقول ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، ويقول جلَّ في علاه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون]، ويقول جلَّ جلاله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف].

ولهذا حث السلف الصالح على تدبُّر القرآن وتأمُّله، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناده إلى محمد بن كعب القرظي ﷺ؛ أنه كان يقول: «لأن أقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة] والقارعة ليلةً أردِّدُهما، وأتفكَّر فيهما، أحبُّ إليَّ مِن أن أَبِيتَ أهُذُّ القرآن»[1].

(١) المصنف لابن أبي شيبة: (٥٣/٦)، (كتاب الصلاة، باب في قراءة القرآن)، برقم (٨٨٢٤).

ويقول ابن القيم: «فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها... فقراءة آية بتفكُّر وتَفَهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم»(١).

وآثار السلف في ذلك معلومة، وقصصهم في تدبُّر القرآن مشهورة، فمن ابتغاها وجدها.

ومن أولئك الأعلام المتدبِّرين: إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ﷺ، فإنه ألَّف كتابًا عظيمًا في التفسير، أصبح عمدة للمتقدمين والمتأخرين؛ لما يحويه من علوم كثيرة، وفنون مختلفة، حتى قال فيه أحد تلاميذه: «فلوا ادَّعى عالم أن يُصنِّف منه عشرة كتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مُفردٍ عجيب مستقصًى؛ لفعل»(٢).

إضافة إلى كون هذا التفسير يحوي خِزَانة عظيمة من أقوال السلف ومروياتهم بالأسانيد المتصلة إليهم، قلَّ أن تجد مثل ذلك في كتب المتقدمين، مما جعل أهل العلم يرتبطون به قراءة وفهمًا وتدريسًا.

وبما أن الإمام الطبري قد نال هذه المرتبة العالية في فهم القرآن وتدبُّره؛ فإني رأيت في هذا البحث أن أُلْمِحَ إلماحةً يسيرة إلى موضوع التدبُّر عند الطبري ومنهجيته فيه، وإلا فمثل هذا الموضوع لا يمكن أن يحيط به بحث مختصر كهذا، والله المستعان.

واشتمل على مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة.

تضمنت المقدمة: بيان أهمية تدبُّر القرآن الكريم، وأهمية تفسير الطبري.

وتضمن التمهيد: تعريفًا موجزًا بالإمام الطبري، وبيان معنى التدبُّر في اللغة.

وتناول المبحث الأول: بيان مفهوم التدبُّر عند الإمام الطبري، وخَلَص إلى أن مفهوم التدبُّر عند الطبري يشمل النظر في الآيات الشرعية، والتفكر في الآيات الكونية، وبهذا المعنى العام يشمل: «التفسير، والتأويل، والاستنباط، والتفكر»، فكلها عنده داخلة في نطاق التدبُّر.

وتناول المبحث الثاني: شروط التدبُّر عند الإمام الطبري، وهما شرطان، الأول: فهم المعنى،

(١) مفتاح دار السعادة: (١/١٩٢، ١٩٣).

(٢) تاريخ دمشق: (٥٢/١٩٦).

ولا يكون إلا بتعلم اللغة العربية وأساليبها. والثاني: ألا يكون المعنى مما استأثر الله بعلمه.

وتناول المبحث الثالث: المعاني المقاربة للتدبُّر عند الإمام الطبري، وهذه المعاني هي: «الاعتبار، والتفكر، والتذكر، والنظر، والتأمُّل»، فكلها عنده متقاربة المعنى، وإن كان لكل واحد منها ما يتميَّز به عن الآخر.

وتناول المبحث الرابع: نماذج من تطبيقات التدبُّر عند الإمام الطبري، واقتصر على أمثلة تطبيقية للطبري أَعملَ فيها التدبُّر بمعناه اللغوي في نقد الأقوال، والروايات التفسيرية، ودفع الإشكال المتوهم في بعض المعاني، وبيان الخطأ في التفسير الناتج عن عدم التدبُّر والنظر.

ثم خاتمة البحث، وفيها: ذِكر أهم النتائج، والتوصيات، والفهارس.

هذا، وأسال الله تعالى الإعانة والسداد، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

أولًا: تعريف موجز بالإمام الطبري:

اسمه وكنيته ونسبته[1]:

أما اسمه: فهو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، وقد اتفق المؤرخون على اسمه واسم أبيه، واختلفوا في جده، فأكثرهم يذكر أنه يزيد، والأقل يذكر أنه كثير.

وأما كنيته: فإنه يكنى بأبي جعفر، وعُرف بذلك، ولم يكن له ولد اسمه جعفر؛ لأنه كان عَزَبًا غير متزوج.

وأما نسبته: فهي (الطبري) نسبة إلى (طَبَـرِستان)، بفتح أوله وثانيه وكسر الراء، وهي بلدان واسعة كثيرة من بلاد فارس يشملها هذا الاسم[2].

مولده ورحلاته في طلب العلم ووفاته[3]:

أما مولده: فإنه ولد في آخر سنة أربع وعشرين ومئتين، وقيل: أول سنة خمس وعشرين ومئتين للهجرة، في مدينة (آمُل)- بضم الميم- بطبرستان[4].

---

(١) انظر معجم الأدباء: (٦/٢٤٤٥- ٢٤٤٩)، وغاية النهاية في طبقات القراء: (١٠٦/٢).

(٢) انظر معجم البلدان: (١٣/٤).

(٣) انظر نظر تاريخ بغداد: (٥٤٨/٢)؛ ومعجم الأدباء: (٦/ ٢٤٤١-٢٤٤٩)، والبداية والنهاية: (٨٤٨/١٤، ٨٤٩).

(٤) انظر معجم البلدان: (٥٧/١).

وأما رحلاته في طلب العلم: فإنه كان ينتقل من بلدة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، فرحل إلى العراق ثم الشام ثم مصر، وأخذ عن علمائها ومشايخها، ثم اتجه آخر حياته إلى بغداد وأقام بها وانقطع فيها للتدريس والتأليف إلى حين وفاته.

وأما سنة وفاته: فالأشهر أنها في شوال سنة عشر وثلاثمئة، وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين، وفي شعر رأسه ولحيته سواد كثير، ودفن في داره، رحم الله أبا جعفر الطبري، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

ثانيًا: تعريف التدبُّر لغة:

التدبُّر مشتق من مادة (د ب ر)، وهذه المادة تدل على عدة معان بتصاريفها المختلفة ترجع إلى معنى كلي وهو: «آخر الشَّيء»، ذكره ابن فارس بقوله: «الدال والباء والراء، أصل هذا الباب أن جُلَّه في قياس واحد، وهو آخر الشَّيء، وخَلْفُه خلاف قُبُله... والتدبير: أن يُدبِّر الإنسانُ أمره، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبتُه وآخرُه»[1].

وعليه، فإن التدبُّر في اللغة هو: النظر في عواقب الأمور وأواخرها، ثم استعمل في كل تأمُّل يقع من الشخص، سواء أكان نظرًا في حقيقة الشيء، أم أجزائه، أم سوابقه وأسبابه، أم لواحقه وأعقابه[2].

(١) مقاييس اللغة: (٣٢٤/٢)، مادة (دبر).

(٢) انظر روح المعاني: (٨٩/٣).



المبحث الأول

مفهوم التدبُّر عند الإمام الطبري

ولمعرفة مفهوم التدبُّر عند الإمام الطبري؛ لا بد أولًا من ذكر تفسيراته لآيات التدبُّر الأربع، والوقوف على بعض تفسيراته التي ورد فيها ذكر التدبُّر في أثناء تفسيره لبعض الآيات، ثم دراسة ذلك وتحليله واستخلاص مفهوم التدبُّر عنده.

أولًا: تفسيرات الطبري لآيات التدبُّر:

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء]؛ يقول الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ أفلا يتدبَّر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق؛ فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض»[1].

قال الله ﷻ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون]؛ يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: أفلم يتدبَّر هؤلاء المشركون تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعترفوا بحجج الله التي احتج بها عليه فيه؟».

﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ يقول: «أم جاءهم أمر ما لم يأت من قبلهم من أسلافهم، فاستكبروا ذلك وأعرضوا، فقد جاءت الرسل من قبلهم، وأنزلت معهم الكتب.

---

(١) جامع البيان: (٢٥١/٧).

وقد يحتمل أن تكون «أم» في هذا الموضع بمعنى: «بل»، فيكون تأويل الكلام: أفلم يدبروا القول؟ بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فتركوا لذلك التدبُّر وأعرضوا عنه؛ إذ لم يكن فيمن سلف من آبائهم ذلك»[1].

قال ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]؛ يقول الطبري: «وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وهذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد ﴿مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾، يقول: ليتدبَّروا حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به.

واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة القراء: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ بالياء، يعني: ليتدبَّر هذا القرآن من أرسلناك إليه من قومك يا محمد، وقرأه أبو جعفر وعاصم: «لتدبَّروا آياته» بالتاء[2]، بمعنى: لتتدبَّره أنت يا محمد وأتباعك، وأولى القراءتين عندنا بالصواب في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب»[3].

قال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]؛ يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبَّر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون؟ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يقول: أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر؟»[4].

ثانيًا: تفسيرات للطبري ورد فيها ذكر التدبُّر، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) جامع البيان: (٨٧/١٧).

(٢) قراءة: (لتدبَّروا) بالتاء وتخفيف الدال هي قراءة أبي جعفر، وجاء كذلك عن عاصم في رواية الكسائي وحسين عن أبي بكر، وقرأ الباقون: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ بالياء وتشديد الدال، انظر السبعة لابن مجاهد: ص (٥٥٣)، والنشر في القراءات العشر: (٣٦١/٢).

(٣) جامع البيان: (٧٩/٢٠، ٨٠).

(٤) جامع البيان: (٢١٥/٢١).

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف]؛ يقول الطبري: «وأما قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: تلك آيات الكتاب المبين: بيَّن حلاله وحرامه، ورشده وهداه... وقال آخرون:... بيَّن الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم، وهي ستة أحرف.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معناه: هذه آيات الكتاب المبين، لمن تلاه وتدبَّر ما فيه من حلاله وحرامه ونهيه، وسائر ما حواه من صنوف معانيه؛ لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه مبين، ولم يخص إبانته عن بعض ما فيه دون جميعه، فَدَلَّك على جميعه؛ إذ كان جميعه مبينًا عما فيه»(١).

قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾ [الأعراف]؛ يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبَّروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك ممن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه؟»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء].

يقول الطبري: «وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ يقول: وهؤلاء المشركون عن آيات السماء، ويعني بآياتها: شمسها، وقمرها، ونجومها، ﴿مُعْرِضُونَ﴾، يقول: يعرضون عن التفكر فيها، وتدبُّر ما فيها من حجج الله عليهم، ودلالتها على وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبَّرها وسواها، ولا تصلح إلا له»(٣).

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾ [النمل].

---

(١) جامع البيان: (١٣/٥، ٦).

(٢) جامع البيان: (١٠/٦٠٣).

(٣) جامع البيان: (١٦/٢٦٣).

«يقول تعالى ذكره: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفَنا الليلَ والنهارَ، ومخالفتَنا بينهما بتصييرنا هذا سكنًا لهم يسكنون فيه، ويهدؤون؛ لراحة أبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارًا، وهذا مضيئًا يبصرون فيه الأشياء، ويعاينونها فيتقلبون فيه لمعايشهم، فيتفكروا في ذلك، ويتدبَّروا ويعلموا أن مصرف ذلك كذلك هو الإله الذي لا يعجزه شيء؟...»[1].

ثالثًا: الدراسة والتحليل:

من خلال التأمُّل في تفسيرات الإمام الطبري لهذه الآيات، نجد أن تدبُّر القرآن عنده يكون في الأمور الآتية:

تدبُّر حجة الله تعالى على خلقه.

تدبُّر شرائع الله تعالى.

تدبُّر مواعظ الله تعالى.

تدبُّر الحلال والحرام والنهي وسائر صنوف معانيه.

تدبُّر الآيات الكونية.

وهذا يعني أن مفهوم التدبُّر عنده يشمل ذلك كلَّه؛ النظر في الآيات الشرعية[2]، والتفكر في الآيات الكونية[3]، وبهذا المعنى العام يشمل: «التفسير، والتأويل، والاستنباط، والتفكر»، فكلها عنده داخلة في نطاق التدبُّر، وهو بذلك لم يخرج عن معناه اللغوي، الذي هو النظر في عواقب الأمور وأواخرها.

ويتضح لنا- إضافة إلى ما سبق- أن التدبُّر المأمور به عند الإمام الطبري ليس خاصًا بالكافرين والمنافقين، وإنما يشمل- كذلك- المؤمنين؛ وذلك لتصويبه قراءة: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، بالتاء: «لتَدَبروا»؛ أي: لتتدبَّره أنت يا محمد وأصحابك.

---

(١) جامع البيان: (١٨/١٣٠، ١٣١).

(٢) ولمعرفة المزيد من كلام الطبري في تدبُّر الآيات الشرعية انظر جامع البيان: (١/٧٦-٧٨)، (٢/٥٣)، (٤/٦٩٣)، (٩/١٩٦)، (١٢/٦٢٧، ٦٢٨)، (١٦/٢٢٢)، (١٧/٨٧).

(٣) ولمعرفة المزيد من كلام الطبري في تدبُّر الآيات الكونية انظر جامع البيان: (٦/٣٠٨، ٣٠٩)، (٩/٤٣١-٤٣٢)، (١٢/٣٠٠).



المبحث الثاني

شروط التدبر عند الإمام الطبري

بالنظر إلى ما ذكره الطبري في مقدمة تفسيره من مباحث نفيسة تتعلق بالقرآن الكريم وعلومه؛ يمكننا أن نستخرج شرطين للتدبُّر عنده، وهما:

الشرط الأول: فهم المعنى:

وهذا الشرط مهم عنده لمن أراد تدبُّر القرآن؛ إذ لا يُتصوَّر أن يتدبَّر شخص كلامًا وهو جاهل بمعناه.

يقول الطبري: «محالٌ أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به، ولا معرفة من القِيْلِ والبيان والكلام إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبَّره ويعتبر به، فأما قبل ذلك فمستحيل أمره بتدبُّره وهو بمعناه جاهل، كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعر من أشعار بعض العرب، ذات أمثال ومواعظ وحِكَم: اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكِّر بما فيها من المواعظ؛ إلا بمعنى الأمر له بفهم كلام العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما نبهه عليه ما فيها من الحِكَم، فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق فمحال أمرها بما دلت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعبر، بل سواء أمرها بذلك وأمر بعض البهائم به، إلا بعد العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكَم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: اعتبر بها، إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا، وإلا بمعنى الأمر لمن كان بذلك منه جاهلًا، أن يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعد، ويتعظ بحكمه وصنوف عبره»[1].

---

(١) جامع البيان: (٧٧/١)؛ وانظر: (١١/١).

وحصول هذا الفهم للمعنى عنده لا يكون إلا بمعرفة لغة العرب وأساليبها؛ لقوله:

«... إلا بمعنى الأمر له بفهم كلام العرب ومعرفته».

«... إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا».

والسبب في اشتراطه معرفة اللغة العربية في فهم المعنى: هو أن القرآن عربي، نزل على وفق ما تعرفه العرب من كلامها، يقول الطبري مبيِّنًا ذلك:

«واتضح بما قلنا ووصفنا أن كتاب الله الذي أنزله إلى نبينا محمد ﷺ بلسان محمد ﷺ، وإذا كان لسان محمد ﷺ عربيًّا، فبيِّن أن القرآن عربي، وبذلك أيضًا نطق محكم تنزيل ربنا... وإذا كانت واضحة صحة ما قلنا، بما عليه استشهدنا من الشواهد ودللنا عليه من الدلائل، فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ، لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائمًا، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان بما قد تقدم وَصْفُنَا»[1].

ونلاحظ أن الإمام الطبري اشترط لتدبُّر القرآن فهم المعنى، ومعاني القرآن الكريم عنده ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما خصَّ الله نبيه محمدًا ﷺ بعلمه دون سائر أمته:

يقول الطبري: «فقد تبيَّن ببيان الله جلَّ ذكره؛ أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ، ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره، وواجبه، وندبه، وإرشاده، وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه، وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه التي لم يُدْرَك علمُها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمته، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويلَه، بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالةً أمته على تأويله»[2].

---

(١) جامع البيان: (١٢/١).

(٢) جامع البيان: (٦٨/١).

القسم الثاني: ما كان علمه عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن:

يقول الطبري: «... وأن منه ما يَعلَمُ تأويلَه كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وذلك إقامة إعرابه، ومعرفة المسَمَّيات بأسمائها اللازمة غير المشُتَرَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم، وذلك كسامع منهم لو سمع تاليًا يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة] لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة، وأن الإصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة؛ وإنْ جَهِلَ المعاني التي جعلها الله إفسادًا، والمعاني التي جعلها الله إصلاحًا»(١).

القسم الثالث: ما لا سبيل إلى الوصول إليه، وهو الذي استأثر الله بعلمه:

وسيأتي كلام الطبري في ذلك مفصلًا في موضعه بإذن الله تعالى.

وقد أشار إلى نحو هذا الكلام ابن عباس ﷺ بقوله: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذَر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»(٢).

ومن خلال تقسيمات الطبري لمعاني القرآن نستنتج الآتي:

أن القسم الأول: لا يحصل فيه التدبُّر إلا بعد معرفة بيان النبي ﷺ.

أن القسم الثاني: يحصل فيه التدبُّر ولا يحتاج إلى تفسير؛ لظهور معناه.

أن القسم الثالث: لا يقع فيه التدبُّر أصلًا، كما سيأتي بيانه.

الشرط الثاني: ألا يكون المعنى مما استأثر الله بعلمه:

يرى الطبري أن المعاني التي استأثر الله بعلمها، وحَجَبَ عن العباد تأويلها، لا يقع فيها التدبُّر؛ كحقائق وكيفيات المغيبات، ووقت وقوعها، وإليك نصَّ كلام الطبري في ذلك:

(١) جامع البيان: (٦٩/١).

(٢) انظر جامع البيان: (٧٠/١).

يقول بعد ذكره آيات التدبُّر: «... وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده، وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجَبْ عنهم تأويلُه من آيه»(١).

ويقول أيضًا بعد اشتراطه حصول فهم المعنى للمُتدبِّر:

«فإذْ كان ذلك كذلك، وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره، وحثهم على الاعتبار بأمثاله، كان معلومًا أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدل عليه آيه جاهلًا، وإذا لم يجز أن يأمرهم بذلك، إلا وهم بما يدلهم عليه عالمون، صح أنهم بتأويل ما لم يُحجب عنهم علمُه من آيه- الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه الذي قد قدمنا صفته آنفًا- عارفون، وإذا صح ذلك فسد قول من أنكر تفسير المفسرين من كتاب الله وتنزيله، ما لم يُحجب عن خلقه تأويله»(٢).

ويقول أيضًا في أثناء حديثه عن أقسام معاني القرآن: «...وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى ابن مريم، وما أشبه ذلك؛ فإن تلك أوقات لا يعلم أحد حدودها، ولا يعرف أحد من تأويلها إلا الخبر عن أشراطها؛ لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه»(٣).

فالأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها -وهي المتشابه الكلي- لا يقع فيها التدبُّر من جهة الوقت والكيفية، أما من جهة الإيمان بها، وبيان الحكمة منها فيقع فيها التدبُّر(٤).

---

(١) جامع البيان: (٧٦/١).

(٢) جامع البيان: (٧٨/١).

(٣) جامع البيان: (٦٨/١).

(٤) انظر مفهوم التدبُّر تحرير وتأصيل: ص (٧٣، ٧٤)، ورقة عمل الدكتور مساعد الطيار بعنوان (مفهوم تدبُّر القرآن)، ضمن أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الرياض بتاريخ: (١٤٢٩/٦/١هـ).



المبحث الثالث

المعاني المقاربة للتدبر عند الإمام الطبري

استعمل الإمام الطبري عدة معان مقاربة لمعنى التدبُّر أثناء تفسيره لبعض الآيات، ومن هذه المعاني:

الاعتبار:

ويقصِد به أحيانًا التدبُّر والتذكر؛ كما في قوله:

«وفي حث الله ﷻ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات، بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر]، وما أشبه ذلك من آي القرآن»[1].

وكثيرًا ما يقرن الطبري بين التدبُّر والاعتبار في سياق واحد، ومن أمثلة ذلك:

قوله: «... فاتلوه واعتبروا به وتدبَّروه كي إذا فعلتم ذلك تتقوني»[2].

وقوله: «... تدبَّروا أيها الناس واعتبروا، ففيما أنشأته فخلقته من السموات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم... معتَبَر ومدَّكر، وآيات وعظات»[3].

وقوله: «... ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله ولا تدبَّروا ما احتج عليهم من الحجج والدلالة على قدرته على فعل كل ما يشاء»[4].

---

(١) جامع البيان: (٧٦/١).

(٢) جامع البيان: (٥٣/٢).

(٣) جامع البيان: (٣٠٨/٦، ٣٠٩).

(٤) جامع البيان: (٩٧/١٧).

التَّفَكُّر:

كثيرًا ما يقرن الطبري بين التفكر والتدبُّر، ومن أمثلة ذلك:

قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]: «يقول تعالى ذكره: أولم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبَّروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جُنَّة به ولا خَبَل؟»(١).

وقوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر]: «يقول تعالى ذكره: إن في قَبض اللهِ نَفْسَ النائم والميت، وإرسالِه بَعدُ نَفسَ هذا ترجع إلى جسمها، وحَبْسِه لغيرها عن جسمها؛ لعبرةٌ وعظة لمن تفكر وتدبَّر»(٢).

وقوله: «﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يقول: أفليس لكم عقول تتدبَّرون بها وتتفكرون»(٣).

التَّذَكُّر:

أحيانًا يفسر التذكر بالتدبُّر، وكثيرًا ما يقرن بينهما، ومن أمثلة ذلك:

قوله: «﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ يقول: «أفلا تتدبَّرون ما تقولون، فتعرفوا خطأه فتنتهوا عن قيله؟»(٤).

وقوله في تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]:

«يقول تعالى ذكره: إنما يعتبر حجج الله فيتعظ ويتفكر فيها، ويتدبَّرها أهل العقول والحجى، لا أهل الجهل والنقص في العقول»(٥).

وقوله: «... إذ كانوا لا يتدبَّرون حجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينـزجرون عما هم عليه من تكذيب رسل الله وخلافهم»(٦).

---

(١) جامع البيان: (٦٠٢/١٠).

(٢) جامع البيان: (٢١٦/٢٠).

(٣) جامع البيان: (٦٢٣/١٩)، ولمزيد من الأمثلة انظر: (١٤٦/٦)، (٨٦/١٦، ٢٦٣، ٥٩٥)، (٥٤٩/١٧)، (٥/١٨، ١١٧، ١٣٠).

(٤) جامع البيان: (٦٤٣/١٩).

(٥) جامع البيان: (١٧٨/٢٠).

(٦) جامع البيان: (٢٢٩/٩).

النَّظر:

أحيانًا يُفسِّر النظر بالتدبُّر، ويَقْرِن بينهما، ومن أمثلة ذلك:

قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ «يقول تعالى ذكره: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبَّروا ذلك ويعتبروا به؟»(١).

وقوله: «... فكذلك الكافر، مَثَله في قلة فهمه لما يُؤمر به ويُنهى عنه بسوء تدبُّره إياه، وقلة نظره وفكره فيه، مَثَل هذا المنعوق به فيما أُمر به ونُهي عنه»(٢).

التأمُّل:

كثيرًا ما يقرن الطبري بين التأمُّل والتدبُّر، ومن أمثلة ذلك:

قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ [الدخان]:

«إني آتيكم بحجة على حقيقة ما أدعوكم إليه، وبرهان على صحته، ﴿مُّبِينٍ﴾ لمن تأمَّلها وتدبَّرها أنها حجة لي على صحة ما أقول لكم»(٣).

وقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام]: «أي ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة، ﴿مُّبِينٍ﴾ يقول: مبين لمن تدبَّره وتأمَّله أنه سحر لا حقيقة له»(٤).

وقوله: «﴿قُرْءَانٍ﴾ يقول: وآيات قرآن، ﴿مُّبِينٍ﴾ يقول: يبين لمن تأمَّله وتدبَّره رشده وهداه»(٥).

---

(١) جامع البيان: (٦٠٣/١٠).

(٢) جامع البيان: (٤٨/٣).

(٣) جامع البيان: (٣٠/٢١).

(٤) جامع البيان: (١٥٨/٩).

(٥) جامع البيان: (٥/١٤).

فهذه المعاني: «الاعتبار، والتفكر، والتذكر، والنظر، والتأمُّل» متقاربة المعنى عند الإمام الطبري، وإن كان لكل واحد منها ما يتميَّز به عن الآخر.

يقول ابن القيم: «... هذا يُسمى تفكرًا وتذكرًا ونظرًا وتأمُّلًا واعتبارًا وتدبُّرًا واستبصارًا، وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمع في شيء وتتفرق في آخر»[1].

(١) مفتاح دار السعادة: (١/١٨٨).



المبحث الرابع

نماذج من تطبيقات التدبر عند الإمام الطبري

تقدم أن مفهوم التدبُّر عند الإمام الطبري يشمل النظر في الآيات الشرعية، وما فيها من الأحكام والمواعظ والحلال والحرام وغير ذلك، ويشمل كذلك التفكر في الآيات الكونية من سماء وأرض وجبال وغيرها، فالتدبُّر عنده حينئذٍ يشمل: «التفسير، والتأويل، والاستنباط، والتفكر»، وذِكْر نماذج على ذلك مما يطول به البحث؛ لأن أساس تفسيره قائم على ذلك؛ ولكني وقفتُ على أمثلة استعمل فيها الطبري مصطلح التدبُّر بمعناه اللغوي- وهو النظر في عواقب الأمور وأواخرها- في نقد الأقوال والروايات التفسيرية، وفي دفع إشكال متوهم في بعض المعاني، وبيان الخطأ في التفسير، فرأيت أن أقتصر على ذلك في هذا المبحث.

المطلب الأول: إعمال التدبُّر في نقد الأقوال، ومن أمثلة ذلك:

المثال الأول:

ذكر الطبري خلاف أهل العلم في المراد بالأحرف السبعة الوارد ذكرها في حديث النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»[1]، وكان مما ذكر من الأقوال قولُ من قال: إن المراد بها سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة الألسن[2].

ثم رد هذا القول قائلًا: «فإن كانت الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن عندك كما قال هذا القائل متفرقة في القرآن، مثبتة اليوم في مصاحف أهل الإسلام؛ فقد بَطَلت معاني الأخبار

(١) أخرجه البخاري (٦/١٨٤/٤٩٩٢)، ومسلم (١/٥٦٠/٢٧٠).

(٢) انظر جامع البيان: (١/٤٩، ٥٠).

التي رويتَها عمن رويتَ عنه من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم اختلفوا في قراءة سورة من القرآن، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فأمر كُلًّا أن يقرأ كما عُلِّم؛ لأن الأحرف السبعة إذا كانت لغات متفرقة في جميع القرآن، فغير موجبٍ حرفٌ من ذلك اختلافًا بين تاليه؛ لأن كلَّ تالٍ فإنما يتلو ذلك الحرف تلاوة واحدة على ما هو به في المصحف، وعلى ما أنزل... مع أن المتدبِّر إذا تَدَبَّر قول هذا القائل في تأويله قول النبي ﷺ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**» وادعائه أن معنى ذلك: أنها سبع لغات متفرقة في جميع القرآن، ثم جمع بين قيله ذلك واعتلاله لقيله ذلك بالأخبار التي رُويت عمن رُوي ذلك عنه من الصحابة والتابعين... علم أن حججه مفسدةٌ في ذلك مقالتَه، وأن مقالته فيه مضادةٌ حججَه»(١).

نجد أن الإمام الطبري نقد قول هذا القائل وردَّه من خلال إعمال التدبُّر والنظر فيما يؤول إليه هذا القول من إبطال ما رُوي عن الصحابة الكرام من أخبار صحيحة.

المثال الثاني:

ذكر الطبري خلاف أهل التأويل في تأويل قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة]، ثم ذكر قول بعض نحويي أهل البصرة أن المراد بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون ذلك، ولم يكن ذلك؛ لأن الملائكة ادعوا شيئًا، إنما أخبرهم عن جهلهم بعلم الغيب وعلمه بذلك وفضله(٢).

ثم رد هذا القول فقال:

«وهذا قول إذا تدبَّره مُتدبِّر علم أن بعضه مفسدٌ بعضًا، وذلك أن قائله زعم أن الله جل ثناؤه قال للملائكة إذ عرض عليهم أهل الأسماء: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وهو يعلم أنهم لا يعلمون ذلك، ولا هم ادعوا علم شيء يوجب أن يُوبَّخوا بهذا القول، وزعم أن قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ نظير قول القائل: أنبئني بهذا إن كنت تعلم، وهو يعلم أنه لا يعلم؛ يريد أنه جاهل،

(١) جامع البيان: (٥١/١).

(٢) انظر جامع البيان: (٥٢٥/١).

ولا شك أن معنى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنما هو: إن كنتم صادقين، إما في قولكم، وإما في فعلكم؛ لأن الصدق في كلام العرب إنما هو صدق في الخبر لا في العلم؛ وذلك أنه غير معقول في لغة من اللغات أن يقال: صدق الرجل بمعنى علم...»[1].

فرد الطبري هذا القول من خلال تدبُّره وما يؤول إليه من تعارض وفساد، إضافة إلى كونه مخالفًا لأقوال المتقدمين والمتأخرين من أهل التأويل والتفسير[2].

المثال الثالث:

ذكر الطبري خلاف أهل التأويل في بيان حقيقة الإماتة التي في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]، ثم ذكر قول ابن زيد فقال: «وأما ابن زيد فقد أبان عن نفسه ما قَصَدَ بتأويله ذلك، وأن الإماتة الأولى: عند إعادة الله جل ثناؤه عباده في أصلاب آبائهم بعدما أخذهم من صلب آدم، وأن الإحياء الآخر: هو نفخ الأرواح فيهم في بطون أمهاتهم، وأن الإماتة الثانية: هي قبض أرواحهم للعود إلى التراب والمصير في البرزخ إلى يوم البعث، وأن الإحياء الثالث: هو نفخ الأرواح فيهم لبعث الساعة ونشر القيامة، وهذا تأويل إذا تدبَّره المتدبِّر وجده خلافًا لظاهر قول الله الذي زعم مفسِّرُه أن الذي وصفنا من قوله تفسيرُه. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر في كتابه عن الذين أخبر عنهم من خلقه أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وزعم ابن زيد أن تفسيره أن الله أحياهم ثلاث إحياءات، وأماتهم ثلاث إماتات»[3].

نلاحظ أن الإمام الطبري نقد قول ابن زيد في تفسير الإماتة وردَّه، وذلك لما تدبَّره وتأمَّل فيه ورأى أنه يؤول إلى ثلاث إماتات، وثلاثة إحياءات، وهذا مخالف لظاهر القرآن في أن كُلًّا من الإماتة والإحياء اثنتان لا ثلاث كما في سورة غافر.

---

(١) جامع البيان: (٥٢٥/١، ٥٢٦).

(٢) انظر جامع البيان: (٥٢٦/١).

(٣) جامع البيان: (٤٤٨/١، ٤٤٩).

المطلب الثاني: إعمال التدبُّر في نقد الروايات:

مثال ذلك: أن الإمام الطبري ذكر إشكالًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]، والإشكال هو: كيف قالت الملائكة ذلك لربها ولم يكن آدم بعدُ مخلوقًا ولا ذريته، فيعلموا ما يفعلون عيانًا؟ أَعَلِمتِ الغيبَ فقالت ذلك أم قالت ذلك ظنًّا، فذلك شهادة منها بالظن، وقول بما لا تعلم، وذلك ليس من صفتها؟[1].

ثم ذكر في الجواب عن ذلك أقوالًا وروايات، وكان مما ذكره رواية طويلة عن ابن عباس ﷺ من طريق أبي صالح عنه، ووردت أيضًا عن ابن مسعود ﷺ من طريق مُرَّة عنه، وجاء في بدايتها أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾، قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضًا، قالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

ثم جاء في آخر الرواية: أن الله تعالى علَّم آدم الأسماء كلها، ثم عرض الخلق على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة] أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا له: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة][3].

ثم قال الطبري معلقًا على ما ذُكر في هذه الرواية:

«**وهذا إذا تدبَّره ذو الفهم**، علم أن أوله يفسد آخره، وأن آخره يبطل معنى أوله؛ وذلك أن الله جل ثناؤه إن كان أخبر الملائكة أن ذرية الخليفة الذي يجعله في الأرض تفسد فيها وتسفك الدماء، فقالت الملائكة لربها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فلا وجه لتوبيخها على أن أَخْبرت عمن أَخبرها الله عنه أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء بمثل الذي

---

(١) انظر جامع البيان: (٤٨٢/١).

(٢) انظر جامع البيان: (٤٨٦/١، ٤٨٧).

(٣) انظر جامع البيان: (٤٨٨/١).

أخبرها عنهم ربها، فيجوز أن يقال لها فيما طوي عنها من العلوم: إن كنتم صادقين فيما علمتم بخبر الله إياكم أنه كائن من الأمور، فأخبرتم به، فأخبرونا بالذي قد طَوى اللهُ عنكم علمه، كما قد أخبرتمونا بالذي قد أطلعكم الله على علمه، بل ذلك خُلْفٌ من التأويل، ودعوى على الله ما لا يجوز أن يكون له صفةً، وأخشى أن يكون بعض نَقَلَة هذا الخبر هو الذي غلط على من رواه عنه من الصحابة...»[1].

نلاحظ أن الإمام الطبري من خلال تدبُّره وتأمُّله في هذه الرواية حكم عليها بالتعارض والتناقض؛ لمخالفة أولها آخرَها، إذ إنَّ المذكور في أول الرواية أن الله تعالى أخبر الملائكة بجعل ذرية له في الأرض يفسدون فيها، ويتحاسدون، ويسفكون الدماء، ثم ذُكر في آخر الرواية أن الله تعالى وبَّخهم على قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فكيف يوبخهم الله تعالى على قولهم ذلك، وهو الذي أخبرهم به ابتداءً؟! مما جعل الطبري ينفي ذلك أن يكون من صفة الله تعالى، وحكم على الرواية بالغلط والتناقض.

المطلب الثالث: إعمال التدبُّر في دفع الإشكال المتوهَّم:

مثال ذلك: أن الإمام الطبري فسَّر قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة]، بأن قوم موسى طُلب منهم ذبح أي بقرة؛ ولكنهم تعنتوا وشددوا على أنفسهم بكثرة أسئلتهم عن صفتها ولونها وسنها، وذكر أقوالًا للسلف مما يؤيد قوله[2]، ثم قال بعد ذلك:

«وقد زعم بعض من عَظُمَتْ جَهالته واشتدت حيرته؛ أن القوم إنما سألوا موسى ما سألوا بعد أمر الله إياهم بذبح بقرة من البقر؛ لأنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها خُصَّت بذلك، كما خُصَّت عصا موسى في معناها، فسألوه أن يُجَلِّيَها لهم ليعرفوها، ولو كان الجاهل تدبَّر قوله هذا، لسهُل عليه ما استُصعب من القول؛ وذلك أنه استعظم من القوم مسألتهم نبيهم ما سألوه

(١) جامع البيان: (٤٨٩/١، ٤٩٠).

(٢) انظر جامع البيان: (٩٧/٢-١٠١).

تشددًا منهم في دينهم، ثم أضاف إليهم من الأمر ما هو أعظم مما استنكره أن يكون كان منهم، فزعم أنهم كانوا يرون أنه جائز أن يفرض الله عليهم فرضًا ويتعبدهم بعبادة، ثم لا يبين لهم ما يفرض عليهم ويتعبدهم به حتى يسألوا بيان ذلك لهم، فأضاف إلى الله- تعالى ذكره- ما لا يجوز إضافته إليه، ونسب القوم من الجهل إلى ما لا ينسب المجانين إليه، فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض عليهم الفرائض، فنعوذ بالله من الحيرة، ونسأله التوفيق والهداية»[1].

فنجد أن قائل هذا القول استشكل أن يكون سؤال قوم موسى ربهم من باب التعنت والتشدد، ورأى أن الله أمرهم بذبح بقرة بعينها ولم يُبيِّنها لهم، ولو تدبَّر قوله هذا وما يؤول إليه مما لا يجوز إضافته إلى الله تعالى، من كونه فرض عليهم عبادة غير معلومة حتى يضطرهم إلى السؤال عنها، فلو تدبَّر هذا لسهُل عليه ما استُصعب من القول، ولعلم أن أسئلتهم هذه إنما كانت تعنتًا منهم وتشددًا، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة لأجزأت عنهم؛ ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم.

المطلب الرابع: عدم التدبُّر سبب في الخطأ في التفسير، ومن أمثلة ذلك:

المثال الأول:

قال الطبري بعد ذكره معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام]: «وكان بعضهم ينكر أن يكون الجواب بالواو، وبحرف غير الفاء، وكان يقول: إنما الواو موضع حال... وكأن معنى صاحب هذه المقالة في قوله هذا: ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: قد وقفنا عليها مكذبين بآيات ربنا كفارًا، فيا ليتنا نرد إليها فنوقف عليها غير مكذبين بآيات ربنا ولا كفارًا. وهذا تأويل يدفعه ظاهر التنزيل، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]، فأخبر الله تعالى أنهم في قيلهم ذلك كَذَبة، والتكذيب لا يقع في التمني، ولكن صاحب هذه المقالة أظن به أنه لم يتدبَّر التأويل، ولَزْمَ سُنَن العربية»[2].

---

(١) جامع البيان: (٢/١٠٢، ١٠٣).

(٢) جامع البيان: (٩/٢٠٩، ٢١٠).

المثال الثاني:

قال الطبري عند قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:]: «فإن قال: فما وجه تكراره: ﴿إِيَّاكَ﴾ مع قوله: ﴿نَسْتَعِينُ﴾، وقد تقدم ذلك قبل ﴿نَعْبُدُ﴾؟ وهلا قيل: إياك نعبد ونستعين، إذ كان المخبر عنه أنه المعبود هو المخبر عنه أنه المستعان؟... وقد ظن بعض من لم يُمعن النظر أنَّ إعادة: ﴿إِيَّاكَ﴾ مع: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بعد تقدمها في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بمعنى قول عدي بن زيد العبادي:

وَجَاعِلُ الشَّمْسِ مِصْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ ... بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَلَا

وكقول أعشى هَمْدانَ:

بَيْنَ الْأَشَجِّ وَبَيْنَ قَيْسٍ بَاذِخٌ ... بَخٍ بَخٍ لِوَالِـدِهِ وَلِلْمَوْلُـودِ

وذلك جهل من قائله؛ من أجل أن حظ ﴿إِيَّاكَ﴾ أن تكون مكررة مع كل فعل لما وصفنا آنفًا من العلة، وليس ذلك حكم «بين»؛ لأنها لا تكون إذا اقتضت اثنين إلا تكريرًا إذا أعيدت، إذ كانت لا تنفرد بالواحد، وأنها لو أفردت بأحد الاسمين في حال اقتضائها اثنين كان الكلام كالمستحيل؛ وذلك أن قائلًا لو قال: الشمس قد فصلت بين النهار، لكان من الكلام خلفًا لنقصان الكلام عما به الحاجة إليه من تمامه الذي يقتضيه «بين»، ولو قال قائل: اللَّهُمَّ إياك نعبد لكان ذلك كلامًا تامًّا، فكان معلومًا بذلك أن حاجة كل كلمة- كانت نظيرة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ - إلى ﴿إِيَّاكَ﴾ كحاجة ﴿نَعْبُدُ﴾ إليها، وأن الصواب أن تكون معها ﴿إِيَّاكَ﴾، إذ كانت كل كلمة منها جملة خبر مبتدأ، وبينا حكم مخالفة ذلك حكم «بين» فيما وَفَّق بينهما الذي وصفْنا قوله»[1].

فيتبين من خلال هذين المثالين أن من أسباب الخطأ في التفسير، وعدم إصابة الصواب في القول هو ترك التدبُّر، وعدم إمعان النظر فيما تؤول إليه هذه الأقوال من معانٍ فاسدة مخالفة لظاهر القرآن، أو لما تعرفه العرب من كلامها، أو لاشتمالها على ما لا يليق نسبته إلى الله جل في علاه كما في قصة بقرة بني إسرائيل في المثال الآنف الذكر.

---

(١) جامع البيان: (١/١٦٣-١٦٥).



الخاتمة والتوصيات

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن من نعمة الله عليَّ إتمام هذا البحث المتواضع، الذي لا أدعي فيه الإحاطة بجميع موضوع التدبُّر عند الطبري ومنهجيته فيه؛ ولكن بحسب ما سمح به الوقت والجهد، وفيما يلي بعض نتائج هذا البحث وتوصياته:

نتائج البحث:

التدبُّر في معناه اللغوي هو: النظر في عواقب الأمور وأواخرها، ثم استعمل في كل تأمُّل يقع من الشخص سواء كان نظرًا في حقيقة الشيء، أو أجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه.

مفهوم التدبُّر عند الإمام الطبري يشمل النظر في الآيات الشرعية، والتفكر في الآيات الكونية، وهو بهذا المعنى يدخل فيه «التفسير، والتأويل، والاستنباط، والتفكر».

التدبُّر المأمور به عند الإمام الطبري ليس خاصًّا بالكافرين والمنافقين، وإنما يشمل كذلك المؤمنين، وذلك على قراءة قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، بالتاء: «لتدَّبَّروا».

لم يُفرِّق الطبري بين مصطلح التدبُّر والمصطلحات الأخرى القريبة من معناه؛ كـ«الاعتبار، والتفكر، والتذكر، والنظر، والتأمُّل»، فكلها عنده متقاربة المعنى، وإن كان لكل واحد منها ما يتمَيَّز به عن الآخر.

يُشترط في حصول التدبُّر عند الطبري شرطان؛ هما: فهم المعنى، وألا يكون مما استأثر الله بعلمه.

استعمل الطبري التدبُّر بمفهومه اللغوي- وهو النظر في عواقب الأمور وأواخرها- في نقد الأقوال، والروايات التفسيرية، وفي دفع إشكال متوهم في بعض المعاني، وبيان الخطأ في التفسير.

ترك التدبُّر من أسباب الخطأ في التفسير، ومجانبة الصَّواب.

توصيات البحث

- جَعْلُ مادة تدرس في المدارس والجامعات تهتم بتدبُّر القرآن الكريم، وبيان ضوابطه وتحرير المسائل المتعلقة به.

- تتبع كلام السلف والعلماء والمفسرين في التدبُّر، واستخراج قواعد التدبُّر عندهم وصياغتها صياغة محكمة، مع شرحها وتوضيحها، وضرب أمثله لها، فعلى سبيل المثال من قواعد التدبُّر عند الطبري:

- مستحيل تدبُّر القرآن لمن يجهل معناه.

- لا يجوز تدبُّر القرآن إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا.

- لا يقع التدبُّر فيما استأثر الله بعلمه.

- عدم التدبُّر سبب في القول على الله بلا علم.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يوقفنا للعلم النافع، والعمل الصالح، وأن يجعل ما كتبته خالصًا لوجه الكريم، وأن يجزي مشايخي خيرًا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المصادر والمراجع

البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، ط: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: بشار عواد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الرياض: دار عالم الكتب، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبدالباري عطية، بيروت: دار الكتب العلميَّة، ط: الأولى، ١٤١٥ هـ

صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ

صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

غاية النهاية في طبقات القراء: أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، عُني بنشره: برجستراسر، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٣٥١هـ

كتاب السبعة في القراءات: أبو بكر أحمد بن موسى بن العباسي بن مجاهد التميمي (ت٣٢٤هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، ط: الثانية، ١٤٠٠هـ.

المصنف لابن أبي شيبة: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة، السعودية: دار القبلة، سوريا: مؤسسة علوم القرآن، ط: الأولى، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

معجم الأدباء: الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، ط: الأولى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

معجم البلدان: الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، بيروت: دار صادر، ١٣٩هـ-١٩٧٧م.

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، بيروت: دار الكتب العلميَّة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

مفهوم التدبُّر تحرير وتأصيل: «أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم»، الرياض: مركز تدبُّر للاستشارات التربوية والتعليمية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، بيروت: دار الجيل، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

النشر في القراءات العشر: شمس الدين أبو الخير بن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت٨٣٣ هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع، بيروت: دار الكتب علمية.

الورقة الرابعة

الإمام القصَّاب ومنهجُه في تدبُّر القرآن من خلال كتابه «نُكَتُ القُرآنِ»

إعداد

أ. د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري

أستاذ القرآن وعلومه في قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك سعود

السيرة الذاتية

الاسم: عبدالرحمن بن معاضة الشهري

الخبرة العلمية:

- **أستاذ القرآن وعلومه بقسم الدراسات القرآنية بجامعة الملك سعود بالرياض.**
- **المشرف على كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود.**
- **مدير عام مركز تفسير للدراسات القرآنية.**
- **عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.**
- **رئيس تحرير مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز.**

النتاج العلمي:

- كتاب «الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم: دراسة تأصيلية»، ط. دار المنهاج بالرياض.
- كتاب «القول بالصَّرْفةِ في إعجاز القرآن الكريم: دراسة نقدية»، ط. دار المنهاج بالرياض.
- كتاب «تحقيق متن ألفية السيوطي في البلاغة» (تحت الطباعة).
- كتاب «منهج الشيخ عبدالله بن محمد فودي في منظومته للإتقان في علوم القرآن» (المفتاح للتفسير).
- تحقيق كتاب "مواقع العلوم في مواقع النجوم» في علوم القرآن لجلال الدين البلقيني.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ البحث في مناهج العلماء الراسخين في تدبُّر القرآن وفهمه أمرٌ في غاية الأهمية لتتميم قواعد الفهم الصحيح، والتدبُّر المنضبط لآيات القرآن الكريم، ودعم تلك القواعد بالمزيد من الأمثلة والنماذج التي حررها العلماء الأفذاذ، وقد وقع اختياري على دراسة منهج العلامة الجليل محمد بن علي الكَرجيِّ القصَّاب ﷺ؛ لما له من الرسوخ في علوم الشريعة عامةً، ولما اشتمل عليه كتابه الوحيد الذي وصل إلينا «نُكَتُ القرآنِ» من الاستنباطات واللطائف التي تدل على دقة فهمه، وحسن تدبُّره للقرآن الكريم.

وقد جاء هذا البحث الوجيز متناسبًا مع الوقت المتاح لعرضه ضمن أوراق المؤتمر العلمي الدولي الثاني لتدبُّر القرآن الكريم، الذي تنظمه الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن تحت عنوان: «تدبُّر القرآن الكريم.. أعلامٌ ومناهج».

وقد جاء البحث في مقدمة، وخاتمة، وثلاثة مباحثَ على النحو التالي:

المبحث الأول: القصَّاب وكتابُه «نُكَتُ القرآنِ»، وقد اشتمل على التعريف بالمؤلف والكتاب، وقيمته العلميَّة، ومنهج المؤلف فيه على وجه الاختصار، مع ذكر بعض الدراسات العلميَّة التي كُتبتْ عنه وعن كتابه.

المبحث الثاني: منهجه في التدبُّر من خلال كتابه، وقد اشتمل على أربعة مطالبَ؛ هي:

المطلب الأول: الحرص على فَهم المعنى.

المطلب الثاني: تحريره للألفاظ، وإعماله لدلالاتها.

المطلب الثالث: الجمع بين النظائر من الآيات المتشابهة الألفاظ.

المطلب الرابع: مراعاة السياق.

وأما **المبحث الثالث** فجاء تحت عنوان: مقومات حسن تدبُّر القصاب، واشتمل على ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأول: صحة المعتقَد.

المطلب الثاني: تنوع العلوم والمعارف.

المطلب الثالث: العناية بعلوم العربية.

ثم **خاتمةٍ** تُجمِل البحث، وبعضِ التوصيات العلميَّة.

وقد حرَصْت على قراءة كتاب «نُكَتِ القرآنِ» مرتين، من أجل الخروج بتصورٍ دقيقٍ للمنهج العلميِّ الذي سار عليه القصَّابُ في استنباطه وفَهمِه للقرآن، والقواعد التي اعتمد عليها في ذلك، كما انتفعتُ كثيرًا برسالة علمية للباحث الدكتور محمد بن عبدالعزيز الصعب، بعنوان «الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره نكت القرآن: دراسة نظرية تطبيقية»، وقد أجاد فيها الباحث، فقد تتبَّعَ استنباطاتِ القصاب ودرسها دراسةً وافيةً.

وأرجو أن يكون هذا البحث كاشفًا لمنهج هذا العلَّامة الجليل في تدبُّره للقرآن، نافعًا لقارئه، والله الموفِّق للصواب.

المبحث الأول

القصَّاب وكتابُه «نُكَتُ القرآنِ»

المطلب الأول: ترجمة القصاب[1]:

اسمه، ونسبه، وكنيته:

هو: محمد بن علي بن محمد، الحافظ، الكَرَجيُّ، المجاهد.

والكَرَجيُّ- بفتح الكاف والراء، وبعدها جيم-: نسبة إلى الكَرَج، وهي بلدة بين أصبهان وهمذان «غرب إيران حاليًّا»[2].

وأما «القصَّاب» فهو لقبٌ لُقِّب به لكثرة ما قَتَلَ من الكفار في الجهاد، ولشجاعته في شدة الفتك برقابهم في ساحات القتال[3].

مولده:

لم تُورِد المصادر سنة مولد القصاب، ولكن بالنظر في تراجم شيوخه نجد أن أقدمهم وفاة كان قد توفي سنة ٢٨٩هـ، فيكون الإمام القصَّاب ولد في حدود سنة ٢٨٠هـ[4].

---

(١) انظر ترجمته في: نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر (٩٢/٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٣٧/٢٦)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٠٠/٣)، وهدية العارفين لإسماعيل البغدادي (٤٧/٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢١٣/١٦)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كَحَّالة (٥٨/١١)، والوافي بالوفيات (٨٥/٤)، وطبقات علماء الحديث لابن عبدالهادي (١٣٢/٣).

(٢) انظر: الأنساب للسمعاني (٤٦/٥)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي (٤٤٦/٤).

(٣) انظر: نزهة الألباب في الألقاب (٩٢/٢)، وتاريخ الإسلام (٢٣٧/٢٦)، وتذكرة الحفاظ وذيوله (١٠٠/٣)، وسير أعلام النبلاء (٢١٣/١٦)، والوافي بالوفيات (٨٥/٤)، وطبقات علماء الحديث (١٣٢/٣).

(٤) انظر: رسالة جهود الإمام القصَّاب في بيان عقيدة السلف والرد على مخالفيهم في كتابه النكت، رسالة ماجستير في قسم العقيدة في الجامعة الإسلامية، لحميد بن أحمد نجيعات (ص٣٧)، وترجمة المصنف في مقدمة

نشأته:

نشأ القصَّاب في بيت عِلْمٍ ساعده على بناء مَلَكتهِ العلميَّة، وتكوين قالَبه الفكري والتربوي.

فوالده علي بن محمد الكَرَجيُّ كان ممن يروي الحديث ويُرْوَى عنه، وهو من أصحاب الإمام المحدِّث علي بن حرب الطائي، وقد روى المصنِّف عن والده الحديث[1].

صفات القصَّاب:

كان القصَّاب من أئمة الدين الجامعين بين العلم والعمل، الناصرين لدين الله، الذابِّين عن حياض السنة وعقيدة السلف الصالح، وكان إمامًا حافظًا لعلوم الكتاب والسنة، متصديًا للفرق المبتدعة في زمانه، متمسكًا باتباع الدليل، بعيدًا عن تقديس الرجال، كما كان مجاهدًا في سبيل اللهِ أهلَ الكفر بالسِّنان[2].

ثناء العلماء عليه:

وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه: «الإمام المشهور»[3]. ووصفه الحافظ الذهبي بأنه: «الإمام، العالم، الحافظ»[4]. كما وصفه بالإمامة الصفدي[5]، وابن حجر[6]، وابن عبدالهادي[7]، والسيوطي[8].

وفيه يقول أبو الحسن الكَرَجي[9]:

تحقيق الجزء الأول من كتاب نكت القرآن، تحقيق: د. علي بن غازي التويجري (ص٢٣).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١٣/١٦)، وتذكرة الحفاظ وذيوله (١٠٠/٣)، وتاريخ الإسلام (٢٣٨/٢٦).

(٢) انظر: رسالة الاستنباط (٢٥/١).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢٥٢/٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢١٣/١٦).

(٥) الوافي بالوفيات (٨٥/٤).

(٦) نزهة الألباب في الألقاب (٩٢/٢).

(٧) طبقات علماء الحديث (١٣٢/٣).

(٨) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٣٨٠).

(٩) طبقات علماء الحديث (١٣٢/٣).

وَفِي الْكَرَجِ الْغَرَّاءِ أَوْحَدُ عَصْرِهِ تَصَانِيفُهُ تُبْدِي غَزِيرَ عُلُومِهِ

أَبُو أَحْمَدَ الْقَصَّابُ غَيْرَ مُغَالَبٍ فَلَسْتَ تَرَى عِلْمًا لَهُ غَيْرَ شَارِبِ

عقيدته:

كان القصَّاب على عقيدة أهل السنة والجماعة، وعلى طريقة السلف الصالح ومنهجهم، ويظهر ذلك من خلال عدة أمور، وهي:

تعظيمه للنصوص الشرعية، ومحاربته لمنهج المعتزلة القائم على تقديم العقل على النقل.

قوله بأن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ورده لقول المرجئة المناقض لذلك.

ردُّه على الخوارج في مسألة تكفير مرتكب الكبيرة[1].

إبطاله قول المعتزلة في خلود مرتكب الكبيرة في النار، وأنه في منْزلة بين المنْزلتين.

إثباته أسماء الله وصفاته على طريقة السلف؛ من غير تأويل، ولا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تمثيل[2].

إثباته المشيئة لله، وأن مشيئة العبد تابعة لها غير مستقلة عنها[3].

قوله بحجية خبر الواحد.

رده على الصوفية في باب التوكل.

بالإضافة إلى اعتماد العلماء الأعلام على كتابه "عقيدة الكرجي» الذي كان يُدَرَّس باعتباره متنًا في العقيدة[4].

---

(١) نكت القرآن (١٧٦/٤).

(٢) رسالة الاستنباط (٢٨/١).

(٣) نكت القرآن (٥٧٩/١).

(٤) حيث كان ينقل منه ابن تيمية، وابن القيم، والحافظ الذهبي. انظر: ترجمة القصاب في مقدمة تحقيق الجزء الأول (ص٣٣-٣٩).

مذهبه الفقهي:

يظهر أن القصَّاب كان شافعيًّا، لكنه غير متعصبٍ لمذهبه، شديد الذم للتقليد، فكان يجتهد، ولا يلتزم بقول ولا بمذهب؛ فكثيرًا ما كان يورد أقوال الأئمة ويناقشها ويردها[١].

شيوخه:

روى القصَّابُ عن علماء كُثرٍ، منهم الحافظ إبراهيم بن محمد بن يعقوب الهمذاني البزاز، ووالده علي بن محمد الكَرَجي، ومحمد بن إبراهيم الطيالسي، ومحمد بن العباس الأخرم، والحسن بن يزيد الدقاق[٢].

تلاميذه:

حدَّث عن القصَّاب وروى عنه طائفة من طلبة العلم؛ منهم ابناه أبو الحسن علي، وأبو الفرج عمار، كما أخذ عنه المنصور مظفر بن محمد البروجردي، وطائفة من غيرهم[٣].

مؤلفاته:

للقصَّاب عددٌ من المؤلَّفات، كلها اليوم مفقودة، ما عدا كتابًا واحدًا، وهذه التصانيف هي:

كتاب ثواب الأعمال.

كتاب عقاب الأعمال السيئة.

كتاب شرح السيئة.

كتاب تأديب الأئمة[٤].

---

(١) الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره "نكت القرآن" للدكتور محمد الصعب (١/٣٠-٣١).

(٢) الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (١/٣١-٣٢).

(٣) الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (١/٣٢).

(٤) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢٦/٢٣٧)، وتذكرة الحفاظ وذيوله (٣/١٠٠)، وسير أعلام النبلاء (١٦/٢١٣)، ومعجم المؤلفين (١١/٥٨)، والوافي بالوفيات (٤/٨٥)، وهدية العارفين (٢/٤٧)، وطبقات علماء الحديث (٣/١٣٢).

الرد على أهل الأهواء بالأخبار.

الرد على المخالفين.

كتاب الزكاة.

كتاب الطهارة.

كتاب الصلاة.

وصف الإيمان وشرح زيادته ونقصه[١].

نُكَتُ القرآن[٢].

شرح النصوص[٣].

كتاب السنة[٤].

وفاته:

توفي القصَّاب قرابة سنة الستين والثلاثمئة[٥]، ﷺ رحمة واسعة.

المطلب الثاني: التعريف بكتاب "نُكَتِ القرآنِ"

يتميز كتاب "نكت القرآن» بتقدم زمانه نسبيًّا، وتركيزه على استخراج الأحكام والفوائد واللطائف من آيات الكتاب، كما أنه يحوي جوانب من بيان معنى الآية.

---

(١) انظر: ترجمة القصَّاب في مقدمة تحقيق الجزء الأول من المطبوع (ص٣١).

(٢) وهو محقق في عدة رسائل جامعية، ومطبوع.

(٣) ذكره القصَّاب في كتابه «نكت القرآن» (٥٣٤/٣).

(٤) وقد نقل عنه عدد من الأئمة؛ كالصفدية لابن تيمية (١٦٢/٢)، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٣٣١/٢)، والعلو للعلي الغفار للذهبي (ص٢٣٩).

(٥) تذكرة الحفاظ وذيوله (١٠٠/٣)، وسير أعلام النبلاء (٢١٣/١٦)، ومعجم المؤلفين (٥٨/١١)، والوافي بالوفيات (٨٥/٤)، وهدية العارفين (٤٧/٢)، وطبقات علماء الحديث (١٣٢/٣).

طريقة الكتاب:

لقد جاء كتاب النُّكَت على النحو التالي:

جاء الكتاب مرتب الآيات والسور كما هي في ترتيب المصحف.

ارتكز الكتاب على ذكر النِّكَاتِ واللطائف والفوائد، ولم يكن تفسير الآيات والمعاني هدفًا أولَ للكتاب؛ بقدر ما كان الاهتمام منصبًّا على النِّكَاتِ والفوائد.

كانت بعض الفوائد تُسبَقُ بعناوينَ معبِّرةٍ عن الفائدة المذكورة.

كان الكتابُ شاملًا لجميع سور القرآن، غيرَ أنه لم يتعرض لجميع الآيات في السورة، بل ينتقي من الآيات ما يُستخرَجُ منه النِّكَاتُ والفوائد.

تنوعت الاستنباطات والفوائد والنِّكات في معظم أبواب العلوم؛ من العقيدة، والفقه، واللغة، والتفسير، وغيرها[1].

مميِّزات الكتاب:

تقدم عصر تأليف الكتاب؛ فهو من الكتب المتقدمة المؤلَّفة في علم التفسير.

قوة المؤلف العلميَّة، واجتهاده الفقهي والتفسيري؛ مما أضفى على الكتاب صِبْغةً علمية قوية.

تنوُّع العلوم التي حواها الكتاب.

الاستقراء الواسع، وتتبع شواهد المعنى من مجموع القرآن الكريم.

المناقشات الرصينة لأصول المبتدعة؛ من خلال الوقوف مع كل شاهد قرآني يرد عليهم، بالإضافة إلى المناقشات العقلية الموسعة.

دقة استنباط المؤلف.

تلخيص المسائل في عناوينها بدقة بالغة[2].

---

(١) الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (٣٩/١).

(٢) الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (٤٠/١).

عيوب الكتاب:

يمكن تلخيص عيوب الكتاب في النقاط التالية:

الظاهرية التي نحا إليها المؤلف في بعض الأحيان، بالرغم من وجود ما يخالف هذه الظاهرية من قرائن في الآية أو في غيرها من الآيات، ومن ذلك قوله في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء]: «دليل على أن الله ﷻ قد بعث إليهم قبل نوح غيره فكذبوه»[1].

وعند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة] قال: «دليل على أن مراعاة عدد الذنوب واجبة؛ إذ لا يَجْعَلُ نسيانَها في جملةِ ما يَعِيبُهم إلا وقد أَوْجَبَ عليهم حفظَها»[2].

إنكاره لأصل من أصول الفقه، وهو «القياس» المتفق على صحته بين علماء الأصول، حيث بالغ في رده وإبطاله[3].

جهود المعاصرين حول الكتاب:

حَقَّق الكتابَ ثلاثةٌ من الباحثين، ثم طُبع الكتاب بعد ذلك، وهم: الدكتور علي بن غازي التويجري، وقد طبعت رسالته في الجزء الأول من المطبوع، والدكتور إبراهيم بن منصور الجنيدل، وقد طبعت رسالته في الجزأين الثاني والثالث من المطبوع، والدكتور شايع بن عبده بن شايع الأسمري، وقد طبعت رسالته في الجزء الرابع من المطبوع[4].

---

(١) «نكت القرآن» (٣/٥٣٢).

(٢) «نكت القرآن» (٤/٢٥٣).

(٣) الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (١/٤١).

(٤) الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (١/٣٩).

رسالة «جهود الإمام القصَّاب في بيان عقيدة السلف والرد على مخالفيهم في كتابه النكت»[1].

دراسة متعلقة بالاستنباط عند المصنف، جاءت بعنوان: «الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره نُكَت القرآن: دراسة نظرية تطبيقية»[2].

(١) وهي رسالة ماجستير مقدمة في قسم العقيدة في الجامعة الإسلامية، لحميد بن أحمد نجيعات.

(٢) وهي رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، قُدمت لقسم الكتاب والسنة، في كلية الدعوة وأصول الدين، في جامعة أم القرى، بالمملكة العربية السعودية، عام ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، قدمها الباحث: محمد بن عبدالعزيز بن محمد الصعب، وبإشراف: د. سليمان الصادق البيرة.



المبحث الثاني

منهجه في التدبر من خلال كتابه

المطلب الأول: الحرص على فَهم المعنى:

فَهْم كلام الله ﷻ شرط أساسي للتدبُّر، وهذا الفهم لا بد أن يكون فهمًا صحيحًا سليمًا، منطلقًا من فهم السلف الصالح لكتاب الله ﷻ، مجانبًا لمعتقدات أهل الزيغ والضلال وتحريفاتهم؛ حتى يصح التدبُّر، وتسلمَ الفوائدُ والاستنباطات الناتجة عنه، ومثل ذلك لا يتأتى إلا من عالم بالتفسير، مُلِمٍّ بالأقوال فيه، مطلعٍ على آثار السنة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ولغة العرب؛ إذ هي أصول التفسير السليم، ومقومات فَهْم المعنى الصحيح.

قال الشاطبي ﷺ: «لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصارُ عليه دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة؛ لأنه إذا كان كليًّا وفيه أمور جُمْلية- كما في شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها- فلا مَحِيصَ عن النظر في بيانه، وبعد ذلك ينظر في تفسير السلف الصالح له إن أعوزته السنة؛ فإنهم أعرف به من غيرهم، وإلا فمطلق الفهم العربي لمن حصَّله يكفي فيما أَعْوَزَ من ذلك، والله أعلم»[1].

وقد كان للإمام القصاب حظٌّ كبير من هذه الأصول، والناظر في كتابه يجد إلمامًا دقيقًا بمعنى الآيات، وسببِ نزولها، والنَّسْخ فيها، وأقوالِ المفسرين في معانيها؛ سواء أقوال السلف أو اللغويين ومن بعدهم، وأحيانًا يسرد أقوالهم ويناقشها ويرجِّح بينها مستدلًّا بالسنة واللغة وأقوال السلف؛ قبل أن يستنبط نِكاتِها وفوائدها، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) الموافقات (٤/ ١٨٣).

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة] قال: «هو- والله أعلم- الكتاب الذي في السماء، وقد قال المفسرون فيه ألوانًا، لقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾، وهذا الذي عندنا ينشر، ويبتذل، وأدل الأشياء على ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أن يكون خبرًا لا نَهْيًا؛ لأن أكثر كلام العرب على نصب المضاعَفِ في مواضع الجزم، لخفةِ الفتح عندهم، وقد رفعوه أيضًا، إلا أن الفتح أكثر، ورأينا الله أظهر هذا اللفظ في الشرط والجزاء -وهو جَزْمٌ- فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فأشبه أن يكون لمَّا تُرِكَ إظهارُه في هذا الموضع ورُفِعَ صار خبرًا عن الملائكة المطهرين، فهذا أدل وأكثر، ولا أُحتِّم به، لاحتماله أن يكون نهيًا على جواز رفع المضاعف في موضع الجزم؛ كقوله ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] اتفق القراء على رفعه. فأُحب ألا يمس القرآن أحد من البالغين إلا طاهرًا بطهارة الصلاة احتياطًا، ولا أوجبه إيجابًا، لِمَا دلَّلْنا عليه من إمكان الخبر في ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ وفي ﴿مَّكْنُونٍ﴾، ولاتفاق أهل الصلاة على إجازة مسه للصبيان وهم غير متوضئين، ولو توضؤوا قبل أن يَعْقِلوا الوضوء ونيته ما طهروا به، ولو كان نهيًا متحققًا لمنع الأطفال من مسه حتى يبلغوا، وحديث رسول الله ﷺ في كتابه إلى عمرو بن حزم في ترك مسه إلا للطاهرين، مرسل، لا يثبت متصلًا، والله أعلم كيف هو»[1].

فهذا مثالٌ صريحٌ على حُسنِ فَهمِ القصَّاب ﷺ لتفسير الآي، وإلمامِه بالأقوال والآثار فيها؛ لذا نجده في تدبُّره لآيات الله ينطلق من خلال فهم معانيها، وسَبْرِ أغوارها، والغوص في دقائقها، ومن هنا أبدعَ في استنباط الفوائد الجليلة، واستخراج النِّكاتِ الدقيقة والمعاني البديعة، التي تَنِمُّ عن فقه عميق، وعلم دقيق، ورأي ثاقب، وفيما يلي أمثلة لذلك:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] ينطلق من خلال فهم معنى الآية وألفاظها وما تَعودُ إليه ضمائرُها؛ ليقرِّر حكمًا فقهيًّا دقيقًا، فيقول عن الآية: «حجةٌ في إيجاب العُشْرِ على الثَّمَر قُوتًا كان أو غيرَه؛

(١) «نكت القرآن» (٤/ ٢١٥). ينظر أمثلة أخرى: (١/ ١٧٥، ٢٤٠-٢٤٣، ٦٣٩، ٢/ ٣٨٣- ٣٩٣).

لدخول الزيتون والرمان تحت أداء الحق يوم الحصاد بالتسمية، وسائرِ الثمار في الجنات في الجملة، والهاء في: ﴿أُكُلُهُۥ﴾ و ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ و ﴿حَقَّهُۥ﴾ راجعةٌ -والله أعلم- على جنس المذكورات كلها، والجنس مذكر موحَّد».

ثم يورد مأخذًا على قوله ويناقشه ويجيب عنه، مستندًا إلى الكتاب والسنة واللغة، قائلًا: «فإن قيل: كيف يشتمل أداء الحق على جميع ما ذُكر في الآية، ولا يكون مقصودًا به الزرع وحده لذكر الحصاد، والحصاد واقع عليه دون سائره؟ قيل: هو عند العامة كذلك، فأما العرب التي نزل القرآن بلغتها فإنهم يوقعون اسم الحصاد على الزرع وغيره؛ إذ الحصاد عندها قطع الشيء واستئصاله، قال الله ﷻ مخبرًا عن أهل القرية الظالمة: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء]؛ أي: مستأصَلين بالعذاب والموت، والله أعلم.

قال محمد بن علي- وهو القصاب ﷺ-: فما كان من الحبوب والنخل والأعناب محدودًا بمبلغ الأَوْساق فالعُشر ساقطة عنه دون بلوغ الحد فصاعدًا، وما كان لا حدَّ فيه فالقرآن يوجب على جملته، ولم يسقط عنه بترك تسمية الحد، فعلى ما حُصِد من قليله وكثيره العُشرُ بجملة الكتاب، ولقول رسول الله ﷺ: «**فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعُشْرُ، وَمَا سُقِيَ بِالنَّوَاضِحِ وَالسَّوَانِي**[1]»[2].

وينطلق من خلال فهم معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤] وألفاظِه؛ ليقرِّرَ قائلًا فيه: «دليل واضح على أن الأَقْراء الحيض، لذكره المحيض بلفظه، وجَعْلِه الأشهرَ الثلاث عِوضًا منه»[3].

ومن خلال فهم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] يستخرج لنا أحكامًا فقهية دقيقة، واستنباطات سلوكية بديعة، وفوائد تربوية جليلة، فيذكر قائلًا: «هو حجةٌ في وجوب نفقة الآباء على الأبناء؛ إذ لو كانت النفقة غير واجبة

(١) الحديث أخرجه البخاري (٢/١٤٦/١٤٨٣) بلفظ: «فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا العُشْرُ، وَمَا سُقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ العُشْرِ» عن عبدالله بن عمر.

(٢) «نكت القرآن» (١/ ٣٧٨- ٣٧٩).

(٣) «نكت القرآن» (٢/ ١٢٧).

لهم عليهم لكان في الناس من تسمح نفسه بترك الإنفاق، وكان مع عدم الإجبار عليه آمنًا من الإملاق». مستندًا إلى أن «الآية عامة المخرج على جميع الآباء، فلا تدل إلا على الوجوب، بل على الإجبار مع المنع».

وفيها: عظة للمغتمِّين بكثرة ولادة الأولاد خشية العجز عن القيام بنفقاتهم ومؤوناتهم، وفي ضمانه ﷻ نَفَقتَهم أمانٌ للمضمون له ما يتقيه من العجز، ويَحْذَرُه من دخول الفقر عليه بسبب أولاده، وبشارةٌ يَسْكُنُ إليها المؤمن ويزول اضطراب قلبه بما لا يخلف ضامنه من وعده، وإذا كان في حياته مضمونًا له رزق أولاده وهو قيِّمُهم؛ فبعد وفاته أحرى أن تحسُن خلافةُ ضامنِه عليهم، وفي ذلك تطييب أنفس مَن يترُكُ بعدَه أَصَاغرَ، وسكون قلوبهم إلى من لا يُخلِفُ ميعادَا، ولا يضَيِّعُ لهالكٍ أولادَا»[1].

ويستخرج من ظاهر الآية الثانية في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور] معنًى عزيزًا في الآداب والأخلاق والسلوك، فيقول: «دليل واضح على أن من اغتاب مسلمًا، وأوصل إليه أذى القول في شتم نفس أو آباء، فتوبته منه تحط ذنبه، وتغفر خطيئته؛ وإن لم يحلله صاحبه، ألا ترى أن القاذف قد عمَّ المقذوف وآذاه بقذفه، ثم أوجب الله له المغفرة والرحمة بتوبته منه، ولم يشترط عليه تحليل المقذوف عنه؟ فالقصاص والمظالم ما كان في مالٍ أو نفسٍ أو جرح دون الكلام، والله أعلم».

ثم يورد إيرادًا- على ما ذهب إليه- يدل على علمه بالحديث وعلله، ويناقش ذلك المأخذ فيقول: «فإن قيل: أفليس قد روي أن النبي ﷺ قال لعائشة حين قالت: ما أطولَ ذيلَ امرأةٍ مرَّت بها، وما أقصرَ أخرى! فقال النبي ﷺ: «اغْتَبْتِهِمَا، قُومِي فَتَحَلَّلِيهِمَا»، قيل: هي أخبارٌ واهيةُ الأسانيدِ، وليس لها من القوَّةِ ما يُنْسَخُ بها القرآنُ، أو يُخصُّ بها، فيحتاج لمن وصل إلى استحلال من آذاه بكلامه أو قَفَاهُ بغِيبةٍ أن يستحلَّه، فإن لم يصل إليه أو وصل فلم يفعل فحكم الآية ما أخبرتك به»[2].

---

(١) «نكت القرآن» (٢/ ١٢٨).

(٢) «نكت القرآن» (٢/ ٤٢٢- ٤٢٣).

وكذلك إلمامه بتفسير الآيات المتعلقة بالنساء، وغوصه في معانيها أداه إلى استنباط أحكام مهمة تتعلق بآداب المرأة ولبسها، تتضمن ردًّا على الدعاوى المعاصرة المتعلقة بخروج المرأة واختلاطها والتساهل في ذلك، من ذلك: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] قال: «دليل على أن المرأة منهيَّة عن إبراز كل ما دعا إلى شهوتها، وإن كان مباحًا لبسه لها»(١).

وكذا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] قال: «دليل على أن على المرأة احترازَ كلَّ ما دعا إلى شهوتها، والفتنة عليها»(٢).

المطلب الثاني: تحريره للألفاظ، وإعماله لدلالاتها

عند إرادة تدبُّر الكلام واستنباط أحكامه واستخراج نكته وفوائده، فلا بد من إدراك دلالات الألفاظ على المعاني المرادة منه، ومن هنا كانت عناية علماء أصول الفقه بمبحث دلالات الألفاظ، وتأصيله، وتقرير قواعده وأنواعه، وذلك لتوظيفها في فهم نصوص الوحيين.

وأنواع دلالة الألفاظ على المعنى «تنحصر في: المطابقة، والتضمن، واللزوم»(٣)، أما دلالة المطابقة فهي: دلالة اللفظ على كامل معناه؛ كدلالة لفظ «البيت» على البيت كاملًا بجميع أجزائه.

وأما دلالة التضمن؛ فهي: دلالة اللفظ على جزء المعنى؛ كدلالة لفظ «البيت» على «السقف» لأنه جزء من البيت.

وأما دلالة الالتزام؛ فهي: دلالة اللفظ على أمر خارج عن معناه، لكنه لازم له لا يفارقه؛ كدلالة لفظ «السقف» على الحائط؛ إذ ليس جزءًا من السقف، لكنه لا ينفك عنه، فهو كالرفيق الملازم»(٤).

---

(١) «نكت القرآن» (٢/ ٤٤٤).

(٢) نكت القرآن (٣/ ٦٥٣).

(٣) روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة (١/ ٧٠).

(٤) المرجع السابق (١/ ٧١).

والذي يَعنينا في باب التدبُّر والاستنباط هو دلالة التضمن والالتزام؛ لأنه لا يقع في استخراج المعنى الخفي إعمالٌ لدلالة المطابقة.

وقد وظّف الإمام القصَّاب هذه الدلالات في تدبُّره لكلام الله، واستخرج بإعمالها أحكامًا نفيسة، ونُكَتًا بديعة، وفوائد جليلة، ولطائف عزيزة، منها[1]:

أولًا: فوائد مستخرجة بدلالة التضمن:

في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦] قال: «دليل على أن الإخوة والأخواتِ لا يرثون مع إناث الأولاد، كما لا يرثون مع ذكورهم؛ لشمول اسم الولد لهن كشموله لهم، ولا يجوز ترك نص القرآن وتوريثهم معهن بغير طائل من حجة»[2].

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥] قال: «يثبت نفقة الزوجات، وصغار الأولاد؛ لأن السفهاء في هذا الموضع النساءُ والصبيانُ، فلما أمر- جل وتعالى- برزقهم وكسوتهم علمنا أنهم نساؤه وصبيانه؛ إذ ليس ذلك بفرض عليه في الأجنبيين»[3].

في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] قال: «دليل على أن ولد الولد وإن سَفُلَ لا يزول عن اسم البنوة؛ إذ لا نشك أن من خوطب بهذا من بني إسرائيل أسباط أسباط إسرائيل بدرجات كثيرة، وقد سماهم الله بنيه»[4].

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] قال: «ردٌّ على الإمامية فيما يزعمون أن الإمام لا بُدَّ من علمه الغيب؛ لأن الله نفاه عن جميع

---

(١) انتفعت في هذا من بحث «الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (١/ ٥٦-٧٢)

(٢) «نكت القرآن» (١/ ٢٨٢).

(٣) «نكت القرآن» (١/ ٢٣٩).

(٤) «نكت القرآن» (١/ ١١١).

خلقه نفيًا عامًّا، ومنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فلم يَسْتَثْنِ به ولا بأحد من ولده، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يجتبيه فينزل عليه الغيب، أنه لا يعلمه إلا بالوحي لا بغيره، والإمام لا يوحى إليه، وكذلك في سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]»[1].

ثانيًا: فوائد مستخرجة بدلالة الالتزام:

تشمل دلالة الالتزام أنواعًا عديدة[2]، وفيما يلي نقف على أهمها في باب الاستنباط، مع شواهد إعمال القصَّاب لها:

دلالة الإشارة:

«هي دلالة اللفظ على معنًى ليس مقصودًا باللفظ في الأصل، ولكنه لازم للمقصود، فكأنه مقصود بالتبع لا بالأصل»[3]، كدلالة قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] على أن أقل أمد الحمل ستة أشهر[4].

ومن تطبيقاتها لدى القصَّاب:

في قوله تعالى إخبارًا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] قال: «ردٌّ على المرجئة فيما يزعمون أن الاستثناء في الإيمان شكٌّ فيه، أَفَترى إبراهيم وإسماعيل عندهم كانا شاكَّينِ في إسلامهما حيث دعوا ربهما أن يجعلهما مسلمين وهما مسلمان؟ أم لم يكونا أسلما عندهم قبل الدعاء فدَعَوَا أن يُرْزَقاه؟ أو لا يعتبرون- ويحهم- أنهما كانا لا محالة مسلمين، ومع الإسلام نبيَّينِ، فرغبا أن يُزاد في إسلامهما الذي لا نهاية لفضائله وزيادةِ الخشية في إقامة فرائضه»[5].

---

(١) «نكت القرآن» (١/ ٢٣٧).

(٢) ينظر: أصول الفقه: الذي لا يسع الفقيه جهله لعياض بن نامي السلمي، ص٢٥٩.

(٣) مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي ص ٢٨٣.

(٤) المرجع السابق ص ٢٨٣.

(٥) «نكت القرآن» (١/ ١٣٩).

في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] قال: «دليل على أن المرأة لا توطأ إلا حيث تكون حرثًا، والحرث: ما ينبت»(١).

في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٠] قال: «دليل على أن التحرز وأعمال الواسطات غير مؤثرة في توكل المؤمنين»(٢).

في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة] قال: «دليل على أن تمني المال ليطاع الله فيه، والحزن على فواته: طاعةٌ، وردٌّ على من يزعم من متنطعي المتصوفة أن عدم المال أربح للمرء من وجوده، وإن كان ناويًا طاعة الله فيه؛ للمخاطرة دون القيام بها وأداء حق الله فيها»(٣).

دلالة المفهوم:

المفهوم: هو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق، فهو المعنى المستفاد من حيث السكوت اللازم للفظ(٤).

وهو نوعان: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة، وفيما يلي بيانهما، مع شواهد تطبيقات كل منهما عند القصَّاب:

مفهوم الموافقة: هو ما يكون فيه المسكوت عنه موافقًا لحكم المنطوق، مع كون ذلك مفهومًا من لفظ المنطوق(٥). ومن أمثلته عند القصَّاب:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤] استنبط «أن المرتد تُقبل

(١) «نكت القرآن» (١/ ١٦٦).
(٢) «نكت القرآن» (١/ ١٣٩).
(٣) «نكت القرآن» (١/ ٥٦٩).
(٤) ينظر: معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة (ص:٤٤٨).
(٥) مذكرة في أصول الفقه (ص: ٢٨٤).

توبته، ولا يُقتل بتبديل دينه كما رُوي في ظاهر الخبر: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»[1]، فكان معنى «فاقتلوه»: إن لم يتب وبقي على الردة»[2].

وفي قوله تعالى حكاية عن المتحاكمين إلى داود ﷺ: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] قال: «دليل على أن الخصوم إذا خاطبوا الحاكم بمثله، وقالوا: اعدل في حكمك، ولا تَجُرْ علينا، لم يكن ذلك منهما سوء أدب، ولا يجاز للحاكم أن يحد عليهما ولا يعاقبهما»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٢٨] استنبط «أن النية الحسنة في ظاهر فعل منكر لا تنفع، واستعماله لا يجوز، فقد دخل الآن في هذا ما حُكي عمَّن كان يُجنِّن نفسه، ويفعل أفعالًا ظاهرها منكر، طلبًا للخمول والسقوط من أعين الخلق؛ لئلا يُشار إليه بالأصابع فيُفْتَتَنَ، لإنكار الله جل وتعالى على رسول الله ﷺ ما أنكر من ترك جلسائه، والإقبال على من أغفل قلبه عن ذكره، مع إرادة رسول الله ﷺ في ذلك ما أراد، وحرصه على إسلام من أقبل عليه»[4].

مفهوم المخالفة: هو أن يكون المسكوت عنه مخالفًا لحكم المنطوق؛ كقوله ﷺ: «**فِي الْغَنَمِ السَّائِمَةِ الزَّكَاةُ**»، فالمنطوق: السائمة، والمسكوت عنه: المعلوفة، والتقييد بالسوم يفهم منه عدم الزكاة في المعلوفة[5]. ومن أمثلته عند القصَّاب:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان: ٢٩] قال: «دليل على أن في الناس من يبكيان عليه؛ إذ لا يُخصُّ أولئك بذلك ويُجعل عقوبة لهم إلا وغيرهم مكرَمٌ به»[6].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (٣٠١٧/٦١/٤) من حديث ابن عباس.

(٢) «نكت القرآن» (١/ ٥٤٩).

(٣) «نكت القرآن» (٣/ ٧٥٢).

(٤) «نكت القرآن» (٢/ ١٩٦).

(٥) مذكرة في أصول الفقه (ص: ٢٨٥).

(٦) نكت القرآن (٤/ ١٣٧).

وفي قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧] قال: «دليل على أن التقتير في الإنفاق- مع السعة- على الأنفس والعيال مذموم، ولا نعلم رسول الله ﷺ ولا الخلفاء بعده قتَّروا على أنفسهم مع السعة، وكانوا كما قال الله ﷻ في هذه الآية: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان] قال: «دليل على أن المؤمن وإن دخل النار بعصيانه وجرمه وأُحرق في النار بقدر جنايته لم يُغَلَّ، ولم يُجعل في السلاسل حتى يعتقه الله برحمته، ويذر الكافرين في السلاسل والأغلال والسعير الذي يستعر عليهم، كلما نَضَجَ له جلدًا استعر على الجلد الذي يبدل له، خالدًا مخلدًا»[1].

المطلب الثالث: الجمع بين النظائر من الآيات والمتشابهةَ الألفاظ:

القرآن مصدر من مصادر التفسير المتفق عليها، بل إن التفسير بالقرآن هو أجل أنواع التفسير وأشرفها بالإجماع[2]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن قال قائل: فما أحسنُ طرقِ التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختُصر من مكان فقد بُسط في موضع آخر»[3].

ومن تفسير القرآن بالقرآن: جمعُ النظائر -وهي الآيات الواردة في المعنى الواحد- أو جمعُ الآيات المتشابهة الألفاظ، وكذلك المتقاربة المعنى وضمها بعضِها إلى بعض، ثم النظرُ إليها نظرةً شموليةً، وتدبُّرها جميعًا لاستخراج الأحكام والفوائد واللطائف التي لا يمكن استنباطُها إلا بمجموع تلك الآيات، وهي رتبة عالية في التدبُّر، تتطلب استحضارًا واسعًا لآيات القرآن ومعانيها، ونظرة شاملةً لتفسيرها، وقد كان للإمام القصَّاب ﷺ قدم راسخة في هذا المجال، والناظر في كتابه يجد أن له أساليبَ في جمع النظائر واستخراج النُّكَتِ منها، فمن ذلك:

---

(١) نكت القرآن (٤/ ٤٥٩).

(٢) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/١).

(٣) مقدمة في أصول التفسير، ص٩٣.

تدبُّر عدة آيات لاستخراج المدلول من مجموع تركيبها:

كثيرًا ما يكون استخراج الفائدة من خلال تدبُّر آية بمفردها، وأحيانًا يكون من خلال تدبُّر الآية مع نص آخر من القرآن أو السنة لاستخراج المدلول من مجموعها، وقد تميز القصَّاب ﵀ بذلك في تدبُّره لآيات الله، ومن أمثلة ذلك عنده:

- في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢] قال: «دليل على أن العدوان غير المقابلة، وهو ما زاد عليها، ألا تراه ﷻ يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالمقتصر على مثل ما فُعِل به مقابِلٌ، والزائد عليه متعدٍّ، ويؤيده من السنة حديثه ﷺ: «**الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِئِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ**[(١)]»[(٢)].

في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] قال: «دليل على أن الشيء وإن كان موضوعًا لمعنى فجائز أن يُسمَّى به ضدُّه؛ لأن المهاد اسم موضوع للراحة والوطء، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾ [النبأ]»[(٣)].

في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] قال: «دليل على أن قوله في سورة التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] خصوص لا محالة بـ«مِن»؛ إذ قد جعل دعاءهم ههنا في إعطائه إياهم الصالحين منهم في جملة ما أثنى عليهم به، ولو كانوا كلهم صالحهم وطالحهم على العموم فتنة ما كان الدعاء به ثناء»[(٤)].

ووضّحه أكثر في وقفته مع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم] حيث قال: «...إن الولد الصالح من نعم الله على أبيه وجده وليس بفتنة عليهما، وأن الولد الذي قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] هو الطالح لا الصالح، فتكون الآية عامة المخرج،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم ٤/٢٠٠٠ (٢٥٨٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) نكت القرآن (١/ ٢٨٩). والحديث رواه مسلم ٤/ ٢٠٠٠ (٢٥٨٧).

(٣) نكت القرآن (١/ ٤٢٣).

(٤) نكت القرآن (٣/ ٥١٧).

خاصة المعنى؛ إذ محال أن يمتنَّ على إبراهيم بإسحاق وابنه يعقوب وهما فتنة، والدليل على صحة ذلك: أنه قد قال قبل تلك الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤] فجعله خاصًّا، فمن كان عدوًّا لأبيه فهو الذي يكون فتنة عليه، ولا يجوز أن يكون يحيى بن زكريا فتنة على أبيه، ولا إسماعيل وإسحاق فتنة على إبراهيم، وقد يجوز أن يكون الولد الصالح فتنة على أبيه وجدِّه ما دام صغيرًا، فإذا كبر وظهر صلاحه وبانت طاعته عاد نعمة عليه، والدليل عليه: أن النبي ﷺ أبصر الحسن والحسين وهو على المنبر، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل إليهما وحملهما وعاد إلى المنبر، ثم قال: «صَدَقَ اللهُ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾، **إِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ لَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ نَزَلْتُ إِلَيْهِمَا فَحَمَلْتُهُمَا**»[1]. فقال: هذا فيهما وهما صغيران، فلما كبرا عادا نعمةً عليه بما صار لهما من الجلال والمحل في الإسلام، فلم يجز أن يُعدَّا حينئذٍ في عداد الفتن»[2].

تكرار المعنى واستقراء شواهده:

وهي سِمَةٌ بارزةٌ عند المصنف، خصوصًا فيما يتعلق بالرد على المبتدعة وأهل الأهواء، لاسيما المعتزلة، ومن أوضح الأمثلة في ذلك الرد عليهم في مسألة خلق القرآن، حيث أورد أكثر من عشرين شاهدًا قرآنيًّا[3]، ومن ذلك:

في قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٥] قال: «دليل واضح على أن القرآن غير مخلوق، وأن التوراة غير مخلوقة، وأنه ليس بحكاية، قد جمع كل هذا الإضافةُ إياه إلى اللهِ، وهم لم يسمعوه من رسول الله ﷺ، فلو لم يكن القرآن بجميع جهاته غير مخلوق لقال- والله أعلم-: حتى يسمع مثل كلام الله، أو حكاية كلام الله، أو قراءة كلام الله، فلما قال: ﴿ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ أبطل كل ذلك، فمن ادعى شيئًا منه خالف الله تعالى، وكان قوله

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٠٩/٢٩٠/١) والترمذي (٣٧٧٤/٦٥٨/٥) والنسائي (١٥٣٥/١٩٣/٣) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه.

(٢) «نكت القرآن» (٢/ ٢٤٣). ينظر أمثلة أخرى في كتابه النكت: (٣٤٦/١)، (٥٤٩/١)، (٢/ ٢٤١).

(٣) تنظر هذه الآيات مجموعة تحت عنوان واحد في رسالة الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب ٣٣٦/١-٣٤٣.

مردودًا، ومثله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]...»[(١)].

وقد استطرد كثيرًا في بيان ذلك ومناقشة ما قد يرِدُ عليه.

مثال آخر:

في قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]. قال: «نظير ما مضى في إباحة تسمية المخلوق بأسامي الخالق، ألا ترى أنه أخبر به عن نبيه ﷺ، ثم ذكره هو جل وعز، وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، وكل هذا حجة واضحة في إباحة ذلك، وقد لخصناه في سورة آل عمران»[(٢)].

وقد كرر هذا المدلول مستنبطًا من عدة آيات، من ذلك: ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩][(٣)]، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣][(٤)]، ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥][(٥)]، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف][(٦)]، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان][(٧)]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق][(٨)]، وغيرها من الآيات[(٩)].

---

(١) «نكت القرآن» (١/ ١٢٥-١٢٩).

(٢) «نكت القرآن» (١/ ٦١٧).

(٣) «نكت القرآن» (١/ ٢٠٥).

(٤) «نكت القرآن» (١/ ٦١٢).

(٥) «نكت القرآن» (١/ ٦١٣).

(٦) «نكت القرآن» (١/ ٦١٨).

(٧) «نكت القرآن» (٤/ ١٣٨).

(٨) «نكت القرآن» (٤/ ١٩٠).

(٩) وهو بهذا استنبط معنى جزئيًا من هذه الآيات؛ مما يجعل هذا المدلول كالقاعدة العامة، وهذا الأسلوب متكرر عند القصاب؛ لذا جعله صاحب رسالة «الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب» من قواعد الاستنباط عند القصاب. ينظر (١/١٠٢)، وفيها أمثلة أخرى.

وهذا الجمع ليس بمقتصر على الآيات فحسب، بل أيضًا يجمع معها نصوص السنة ويَعْضُدُ معانيَها بالآيات، مما يجعلنا نضيف أسلوبًا ثالثًا:

تعضيد معاني النصوص الأخرى بدلالات الآيات:

حيث يستخرج القصَّاب ﷺ من الآيات معنًى يَعْضُدُ به خبرًا من السنة سواء في معناه أو ثبوته، كاستنباطه من قوله تعالى إخبارًا عن زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [مريم: ٨-١٠] «دليل على تثبيت الخبر المروي وصحته: «ليس الخبر كالمعاينة». ثم وضح ذلك بقوله: «وذلك أن زكريا ﷺ لم يَشْكُ إلى ربه وَهَن عظمه، واشتعال الشيب في رأسه إلا وهو موقن بإجابة دعوته، ثم بشره الله ببشارة الغلام، فقال ما قال وهو عالم بأن ربه يقدر عليه، فلا وجه له- والله أعلم- غير ما قلنا من أن المعاينة في الأشياء أبلغ من الخبر، وإن كان الخبر بالغًا عند المؤمنين. ومثل هذا- والله أعلم- قصة إبراهيم ﷺ حيث سأل ربه عن كيفية إحياء الموتى فقال له: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]»[1].

المطلب الرابع: مراعاة السياق:

للنظر في سياق الكلام أهمية كبيرة لفهم مقصود المتكلم، يقول الشاطبي ﷺ: «فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرَّقَ النظرَ في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده»[2]. ومن هنا نجد إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري كثيرًا ما يقرر أهميته في تفسير كلام الله تعالى، ويستند إليه في ترجيحاته، وفي ذلك يقول: «فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حجة»[3]. وقال الزركشي عن دلالة السياق: «... فإنها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق،

(١) «نكت القرآن» (٢/ ٢٢٤).

(٢) الموافقات (٤/ ٢٦٦).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٦٧٥).

وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلِطَ في نظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير»[1].

ومن هنا تظهر أهمية النظر إلى السياق في تدبُّر كلام الله تعالى، والتعمق في فهم معانيه، واستنباط درره وفوائده.

وقد اعتنى القصَّاب بذلك كثيرًا، وراعى دلالة السياق في فهم معاني كلام الله وتدبُّره، واستنباط نُكَته ودرره، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ذكر مستندًا إلى السياق أن فيه: «حجة في اختصار الكلام، وإشارة إلى المعنى، لإحاطة العلم بأنهما لم يُنْهيا عن الدنو، إنما نُهِيا عن أكلها، فلما لم يوصل إلى الأكل إلا بالاقتراب منها استغنى- والله أعلم- به من ذكر الأول»[2].

قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] ذكر مستندًا إلى السياق أنه: «دليل على أن من وضع الكلمة موضع غيرها لا يكون كاذبًا؛ إذ لا يشك أحد من المسلمين أن عيسى ليس بخالق، وإنما أراد- والله أعلم:- أني أُصوِّر لكم صورة طير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله»[3].

ومن ذلك تحريره لمعنى الظن في الآيات، هل هو الشك أم اليقين:

نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة] حيث قال مستندًا إلى السياق: إنه «دليل على أن الظن من الأضداد، يكون بمعنى اليقين والشك،

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٢٠٠).

(٢) «نكت القرآن» (١/ ١٠٨).

(٣) «نكت القرآن» (١/ ٢١٢).

وهو ههنا يقين لأنه مدح للخاشعين»[1]. وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة] قال مستندًا إلى السياق: «فالظن بمعنى الشك، وقد صح التضاد فيه لشهادة القرآن بكلا المعنين»[2].

وفي قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢٤] قال مستندًا إلى السياق ومستدلًّا به: «الظن بمعنى العلم- والله أعلم- أي: علم داود، والدليل عليه: استغفاره وتوبته؛ لأن بالشك لا يتحقق الذنب»[3].

وفي قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة] قال: «الظن فيها بمعنى العلم، وهو كلمة من الأضداد، قد ذكرناها في غير هذا الموضع، وهكذا ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة] أي: وعلم، والله أعلم»[4].

وكما وظف دلالة السياق في فهم كلام الله تعالى، كذلك أعمله في تعضيد ما يتوصل إليه من نكت وفوائد، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة] ذكر أن فيه «إثبات القَدَرِ، ونفي الاستطاعة، وختم على نفي الإيمان عنهم، ودليل على أنهم بعد وضوح الطريق لهم بنِذارة النبي ﷺ محتاجون إلى توفيقٍ به يؤمنون؛ إذ لو كان ضلالهم عن الإيمان بجهلهم بسبيله لساروا فيه بعد النِّذارة»، ثم عَضَدَ كلامه بسياق الآيات فقال: «وقد أزال الريب تعالى عن ذلك، وأغنى عن الإغراق وحققه بقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة ٧].

---

(١) «نكت القرآن» (١/ ١١٧).

(٢) «نكت القرآن» (١/ ١٢٠).

(٣) «نكت القرآن» (٣/ ٧٥٥).

(٤) «نكت القرآن» (٤/ ٤٥٥).



المبحث الثالث

مقومات حسن تدبر القصَّاب

لمتدبِّر القرآن شروط ومقومات لا بد أن تتوافر فيه حتى يتأهل لتدبُّر القرآن وتصح استنباطاته منه، وأهم تلك الشروط والمقومات: صحة الاعتقاد، ومعرفة التفسير الصحيح، ومعرفة اللغة العربية وقواعد التدبُّر والاستنباط[1]، وقد استجمع إمامنا القصَّاب تلك الشروط والمقومات، فكان من نتاج ذلك كتابه النفيس «نُكَت القرآن»، وفي المطالب التالية توضيح موجز لذلك، وقد سبقت الإشارة لشرط معرفة التفسير الصحيح في المطلب الأول من المبحث الثاني.

المطلب الأول: صحة المعتقد:

لا شكَّ أن صحة المعتقد كان لها شأن كبيرٌ في حسن تدبُّر الإمام القصَّابِ للآيات، وقد سبق وأن بيَّنَّا أن الإمام القصَّاب يعتبر من أئمة أهل السنة والجماعة.

وقد ظهر أثر حسن اعتقاده في استنباطاته؛ حيث احتلَّت الاستنباطات العقدية المجال الأكبر والأوسع في استنباطاته، فقد بلغت استنباطاته في الرد على الفرق المختلفة قرابة (٣٢٧) سبعة وعشرين وثلاثمئة استنباطٍ[2]، ولقد تنوعت الفرق التي رَدَّ عليها المؤلف، فمنها:

الرد على المرجئة، ومن أمثلة ذلك: عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنفال] قال القصَّاب: «رد على المرجئة: فيما أضاف الهجرة والجهاد والنصرة والإيواء إلى الإيمان،

(١) منهج الاستنباط من القرآن الكريم لفهد الوهبي ص: ٢٠١.

(٢) وقد جمعها صاحب رسالة «الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره «نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب» تحت مبحث يحمل عنوان ذلك (١/٢٨٥- ٣٩٩).

وقد شهد لقوم في أول السورة تحقيقه، ولم يذكر هذه الشرائط، وذكر لأولئك شرائط لم يذكرها لهؤلاء، فدل على أن الإيمان ذو أجزاء، وأن كل خير يفعله المؤمن متقربًا به إلى الله، فهو من الإيمان فرضًا كان أو تطوعًا»[1].

الرد على المعتزلة، ومن أمثلة ذلك: عند قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة] قال القصَّاب: «رد على من يزعم من المعتزلة: أن العرش مُلْكُه، فكيف يكون محمولًا؟! أم كيف يكون الملائكة خارجين من المُلْك؟! فقد بان بغير إشكال أنه السرير»[2].

الرد على الجهمية، ومن أمثلة ذلك: عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] قال القصَّاب: «رد على المعتزلة والجهمية؛ إذ لا ينكر إبراهيم على أبيه ما لا يسمع ولا يبصر إلا ومعبوده يبصر ويسمع ويغني عن كل شيء»[3].

الرد على القدرية، ومن أمثلة ذلك: عند قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال القصَّاب: «مثبت مقالتنا في الرد على القدرية؛ لإضافة فعل التفرقة بالسحر إليهم، ونفي ضرهم به إلا بإذنه، كقولنا: إن فعل المعصية منسوب إلى العبد، وقضاءها إلى الرب. فمن آمن بالتفرقة وكفر بالإذن كفانا مؤونة الاشتغال به، ومن آمن بهما رجع إلى قولنا فيه»[4].

الرد على الرافضة، ومن أمثلة ذلك: عند قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤] قال القصَّاب: «دليل على أن المولى هو الناصر، لا المالك؛ إذ لو كان مالكًا لما شاركه فيه جبريل وصالح المؤمنين، فهو الآن رد على الرافضة فيما يحملون عليه قول النبي ﷺ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**»[5] أنها ولايةُ النُّصرةِ، لا ولاية التمليك»[6].

---

(١) «نكت القرآن» (١/١٣٩، ٤٧٦).

(٢) انظر: «نكت القرآن» (٤/٣٩٤).

(٣) «نكت القرآن» (٣/٧٤١).

(٤) «نكت القرآن» (١/١٣١).

(٥) أخرجه الترمذي (٥/٦٣٣/٣٧١٣)، وابن ماجه (١/٤٥/١٢١) من طريقين مختلفين، وهو حديث صحيح.

(٦) «نكت القرآن» (٤/٦٦٥).

المطلب الثاني: تنوع العلوم والمعارف

لقد ظهرت في استنباطات القصَّاب علومه ومعارفه المتنوعة، ولا شكَّ أن هذا قد ساعده على حسن تدبُّره وتأمُّله، وأعطى قيمةً علميةً لاستنباطاته ونِكَاتِه وفوائده.

فمن العلوم التي ظهرت عند القصَّاب:

أصول الفقه: وقد ظهر ذلك جليًّا من خلال إعماله دلالة الألفاظ بأنواعها، وقد تقدم بيان أمثلة لذلك في المبحث السابق.

أيضًا كانت له استنباطات بديعة في هذا العلم تدل على تضلعه فيه بلغت (٤٥) استنباطًا[١]، ومن أمثلة ذلك: استنباطه الحجة في قبول خبر الواحد من قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف] موضحًا ذلك بقوله: «لأن موسى ﷺ ترك ما عرفه من تحريم القتل وخرق السفينة بخبر الخضر؛ إذ كان عنده صادقًا ولزمته الحجة بقوله، حتى عاد الحرام عنده حلالًا»[٢]. كما استدل أيضًا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] إلى قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة]، وبقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]، وغيرها من الآيات[٣].

الفقه: وقد تبيَّن هذا في استنباطاته التي أيَّد بها بعض الأحكام الفقهية، والتي بلغت (٩٠) استنباطًا[٤]، ومن أمثلة ذلك: عند قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩] يقول القصَّاب: «دليل على أن نساءهم وصبيانهم لا جزية عليهم؛ لأنهم لا يقاتلون، بل قد نهي عن قتلهم»[٥].

---

(١) وقد جمعها صاحب رسالة «الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره نكت القرآن» تحت مبحث يحمل عنوان ذلك (٢/٤٢٨- ٤٥٩).

(٢) «نكت القرآن» (٢/ ٢١٨).

(٣) ينظر: "الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (٢/٤٣٧- ٤٣٩).

(٤) جمعها صاحب رسالة الاستنباط تحت مبحث يحمل عنوان ذلك (٢/٤٦١- ٥١٠).

(٥) «نكت القرآن» (١/٥١٨).

المطلب الثالث: العناية بعلوم العربية

لا شكَّ أنَّ اللغة العربية لها القدم الراسخة في حسن التأمُّل والتدبُّر لمعاني ألفاظ وآيات القرآن الكريم، وقد كان للقصاب إلمام واسع بأصولها ومسائلها، وعناية كبيرة بعلومها وفنونها، يظهر ذلك جليًّا من خلال مناقشاته واستدلالاته، ومن ثم برز أثر ذلك خلال استنباطاته التي بلغ مجموعها (١٢٩) تسعة وعشرين ومئة استنباط(١).

كما أن هذه الاستنباطات لم تكن مقتصرةً على فرع واحد من فروع اللغة العربية؛ بل قد شملت النحو، والبلاغة، وفقه اللغة، وغيرها(٢).

فمن أمثلة الاستنباطات البلاغية: عند قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] يقول القصَّاب: «دليل على إجازة التأكيد في الكلام؛ إذ السقف لا يخر إلا من فوق الإنسان، وقد أكَّده الله»(٣).

ومن أمثلة الاستنباطات النحوية: عند قوله تعالى: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة: ٨٦] قال القصَّاب: «دليل من جهة الإعراب: على أن المذكر يُغلَّبُ على المؤنث في اللفظ؛ إذ الخوالف كُنَّ لا محالة مع القاعدين من الضعفاء والمرضى وعادمي النفقة الموضوع عنهم الحرب»(٤).

ومن أمثلة استنباطه في فقه اللغة: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] قال القصَّاب: «دليل على أن النجس نجسان: نجس فعل، ونجس ذات. وهو في هذا الموضع- والله أعلم-: نجس فعل، وهو شركهم، لا أن أبدانهم نجسة، وكيف تكون نجسة وليست بين خلقتهم وخلقة المؤمنين فرق في شيء من الأشياء، وقد أباح الله لنا أكل طعامهم في ديارهم وقد مسوها بأيديهم»(٥).

---

(١) "الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (٩٦/١).

(٢) "الاستنباط عند الإمام القصاب من خلال تفسيره نكت القرآن» للدكتور محمد الصعب (٩٦/١).

(٣) «نكت القرآن» (٥٣/٢).

(٤) «نكت القرآن» (٥٦٦/١)، وانظر أيضًا: (٣٩٧/٤).

(٥) «نكت القرآن» (٥٠٦/١).

الخاتمة

بعد هذا البحث الوجيز من خلال كتاب العلامة القصَّاب ﷾ «نُكَتُ القرآنِ»؛ تتضح لنا بعض النقاط المهمة في خاتمة المطاف، منها:

ضرورة دراسة منهجية أمثال العلامة القصَّاب في تدبُّرهم للقرآن، وتعاملهم مع آياته، وإبراز أمثال هذا العالم السلفي الفذ، حتى يجد طالب العلم بين يديه نماذج وافرة من العلماء الراسخين في فهمهم للقرآن، وحسن التعامل معه.

أظهر البحث أهمية إتقان علوم الآلة التي لا بد منها لمفسر القرآن؛ كعلوم العربية وأصول الفقه ونحوها، وقد ظهر أثر إتقانها على حسن فهم القصَّاب للقرآن.

تبين لنا حسن توظيف القصَّاب لفهمه للقرآن في الرد على الفِرَقِ المخالفة لأهل السنة والجماعة، وأهمية ذلك لطالب العلم.

أظهر البحث أيضًا أن الكمالَ في البشر عزيزٌ، حيث وجدنا للعلامة القصَّاب بعض الخلل في الاستنباط بسبب اضطراب بعض الأصول التي اعتمد عليها، كنفيه للقياس وخطئِه في فهمه لبعض الآيات، مما يحتم على طالب العلم أن يكون حذرًا في قبوله لكلام العلماء مهما بلغ علمهم، ومحاكمتهم إلى الأصول والقواعد الصحيحة للعلم وفهمه الفهم الصحيح.



المصادر والمراجع

- جهود الإمام القصَّاب في بيان عقيدة السلف والرد على مخالفيهم في كتابه النكت، رسالة ماجستير في قسم العقيدة في الجامعة الإسلامية، لحميد بن أحمد نجيعات.
- نكت القرآن، تحقيق: د. علي بن غازي التويجري وزملائه، دار ابن القيم وابن عفان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ
- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم.
- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وفريقه، دار الرسالة ببيروت، ١٤٠٧هـ
- الاستنباط عند الإمام القصَّاب من خلال تفسيره نكت القرآن للدكتور محمد الصعب، رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، قدمت لقسم الكتاب والسنة، في كلية الدعوة وأصول الدين، في جامعة أم القرى، بالمملكة العربية السعودية، عام ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، قدمها الباحث: محمد بن عبدالعزيز بن محمد الصعب، وبإشراف: د. سليمان الصادق البيرة.
- الموافقات للشاطبي، تحقيق مشهور حسن سلمان.
- روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة.
- أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله لعياض بن نامي السلمي، دار التدمرية، ١٤٣٢هـ
- مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي.
- معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، للدكتور محمد الجيزاني، دار ابن الجوزي.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، دار عالم الفوائد.
- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور.
- تفسير الطبري، تحقيق عبدالله التركي، دار هجر للنشر.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق المرعشلي، الطبعة الأولى لدار المعرفة ١٤١٠هـ
- منهج الاستنباط من القرآن الكريم لفهد الوهبي، نشر معهد الإمام الشاطبي بجدة.

الورقة الخامسة

الجوانب التدبرية في تفسير ابن كثير وطرق استخلاصها

إعداد

د. محمد بن عبدالله الربيعة

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه، جامعة القصيم.

السيرة الذاتية

الاسم: د. محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الربيعة.

ج: ٠٥٠٤٨٨٢٣٤٢ - هـ: ٠٦٣٤٢٤٥٦٣

البريد الإلكتروني: mr6060@gmail.com

المؤهل العلمي:

- بكالوريوس (جامعة الإمام، كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم، التخصص: أصول الدين).
- الماجستير (جامعة الإمام، كلية أصول الدين، التخصص: القرآن وعلومه).
- الدكتوراه (جامعة الإمام، كلية أصول الدين، التخصص: القرآن وعلومه).

الخبرة العلمية:

- أستاذ مشارك في قسم القرآن وعلومه جامعة القصيم.
- عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.
- المشرف العام على مركز النبأ العظيم بمكة.
- عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه.
- المشرف العام على برنامج جودة تعليم القرآن سابقًا.

النتاج العلمي:

- كتاب "منهج الدوسري في تفسيره «صفوة الآثار والمفاهيم»" [ماجستير].
- كتاب "أثر السياق في التفسير: دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة» [رسالة دكتوراه].
- كتاب "منهج السلف في تدبر القرآن».
- كتاب "مقاصد سور القرآن عرض وبيان».
- كتاب "تحقيق العبودية في ضوء سورة الفاتحة».



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن المفسرين- مع كثرتهم وتعدد مناهجهم- يتفاوتون في عنايتهم بالجوانب التدبُّرية التي تتعلق بما وراء المعنى من الدلالات والهدايات والأثر الإيماني والعملي والواقع، وحين نَسْبُرُ التفاسير ذات العناية بالجانب التدبُّري، نجد أن تفسير ابن كثير يعد من أبرزها؛ لما يتميز به من العناية بالاستشهاد بالقرآن والسنة وآثار السلف وبهدايات الآيات.

وقد كتب الله تعالى لهذا التفسير القَبول والأثر المبارك؛ لما تميز به من تيسير للعبارة، وعناية بالتفسير بالمأثور، مع بيان لجوانب الهداية في الآيات.

وقد وُفِّق الإخوة في اللجنة العلميَّة في مؤتمر تدبُّر باختيار ابن كثير ضمن المفسرين الذين عنوا بالتدبُّر، وطلبوا مني الكتابة عن منهجه في التدبُّر، وقد كانت لي صحبة مع هذا التفسير عدةَ سنوات في مجلس تدارس مع بعض الإخوة، كما كانت لي دراسة لمنهجه في التدبُّر في معاهد تدبُّر في الرياض ومكة، فتكشَّفت لي فيه وجوه وجوانب متعلقة بالتدبُّر، أرجو أن يوفقني الله تعالى لإبرازها في هذا البحث.

وقد ركزت في البحث على استخلاص الجوانب التي عُنِيَ بها ابن كثير مما يتعلق بما وراء المعنى، مع بيان منهج عرضها.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الجوانب التدبُّرية عند ابن كثير.

المبحث الثاني: الاستشهاد بالنصوص والآثار في الجوانب التدبُّرية.

المبحث الثالث: الطرق المثلى لاستخلاص الجوانب التدبُّرية من تفسير ابن كثير.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا البحث، وأن يحقق فيه المأمول.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المبحث الأول

الجوانب التدبرية عند ابن كثير

تفسير ابن كثير يعتبر نموذجًا في تنوعه وشموله لجوانب مختلفة من التفسير، فهو غير مقتصر على معنى الآية وأقوال السلف فيها والترجيح بينها، وإنما له عناية بما وراء ذلك، مما يجعلنا نعيد النظر في هذا التفسير لنبرز فيه الجوانب الأخرى في التفسير، ومن أبرزها الجوانب التدبُّرية التي تركز على أغراض الآيات وهداياتها وجانب العمل منها.

ولعلي في هذا المبحث أن أجلِّيَ ذلك بما يلي:

المطلب الأول: عنايته ببيان غرض الآيات ومقصودها.

يستفتح ابن كثير تفسيره للآيات كثيرًا ببيان مقصود الآية وغرضها، قبل بيان معناها وإيراد أقوال السلف والمفسرين فيها، وهذا جانب من أبرز جوانب التدبُّر كما قال الشاطبي: «التدبُّر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد»[1]، ومن هذا الباب نستطيع القول بأن ابن كثير من أبرز المفسرين عناية بهذا الجانب؛ أعني: بيان أغراض الآية ومقصودها. ولعلي أجلِّي ذلك بالأمثلة:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة] قال ابن كثير: «شرع ﷻ في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده»[2].

(١) الموافقات (٤/ ٢٠٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٤).

فتجد أن ابن كثير ذكر غرض الآية ومقصودها، وهو جانب تدبُّري له ارتباط بالمناسبات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة] قال ابن كثير في فاتحة كلامه عن الآية: «شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو..»[1].

فذكر هنا غرض الآيات وهو أنها في تقرير النبوة. وهذا وإن كان متعلقًا بالمناسبات إلا أنه بيان للغرض من الآية، وهو جانب تدبُّري.

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة]؛ قال ابن كثير في فاتحة كلامه عن الآيات: «هذا مقامٌ ذَكَرَ الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم»[2].

فنجده قبل تفسير الآية بيّن غرضها وما تدور حوله، وهو جانب تدبُّري.

المطلب الثاني: عنايته ببيان دلالات الآيات وهداياتها.

مما تميز به ابن كثير: استنباطه لدلالات الآية وهداياتها بأنواعها: ومنها الدلالات العقدية والفقهية والتربوية والاجتماعية وغيرها، وهذا جانب متعلق بالتدبُّر أكثر من تعلقه بالتفسير.

ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]؛ قال ابن كثير: «هذه الآية

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٢٢).

دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمَّل هذه الموجودات السفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة؛ علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه»[1].

فنجده قد علق على الآية ببيان دلالة متعلقة بالعقيدة، وهو جانب تدبُّري.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]؛ قال ابن كثير في تعليقه على هذه الآية مستنبطًا دلالة دقيقة لطيفة: «وهذه الآية فيها تعريض- بل تصريح- بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله تعالى صوره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهًا كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله؟»[2].

فنجده قد علق على الآية ببيان دلالة متعلقة بالعقيدة، وهو جانب تدبُّري.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ قال ابن كثير: «...وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته- صلوات الله وسلامه عليه- إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة»[3].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران]؛ قال ابن كثير: «... وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق»[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩).

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ [آل عمران: ٣٢]؛ قال ابن كثير: «أي: خالَفُوا عن أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾، فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ قال ابن كثير: «فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة؛ كما هو الظاهر من السياق»(٢).

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ ﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ قال ابن كثير: «وفيه دلالة على كرامات الأولياء»(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عن مريم: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم]؛ قال ابن كثير: «فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة»(٤).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]؛ قال ابن كثير: «وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال؛ فإن الإقدام والإحجام لا يَنْقُصُ من العمر ولا يَزِيدُ فيه»(٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]؛ قال ابن كثير: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾؛ أي: مع كف الشر يعفون عمَّن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤] فهذا من مقامات الإحسان»(٦).

فهذه الأمثلة كلها متضمنة لدلالات وهدايات مستنبطة، غير متعلقة بمعنى الآية التفسيري اللغوي، إنما هي دلالات ما وراء المعنى، وهو جانب تدبُّري.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٦).

(٤) المصدر السابق (٥/ ٢٢٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٩).

(٦) المصدر السابق (٢/ ١٢٢).

المطلب الثالث: في بيان الدروس والعبر من القصص.

ابن كثير برز في تفسيره للقصص بذكر الروايات فيها، وهو إمام في السيرة وله كتاب البداية والنهاية، إلا أننا نجده أحيانًا يعلق على الآية بذكر مواضع الاقتداء أو الاعتبار فيها، ومن ذلك مثلًا:

قوله تعالى عن يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]؛ قال ابن كثير: «مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره، للحاجة»(١).

قال تعالى: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢]؛ قال ابن كثير: «وهذا من باب الجُعالة، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾؛ وهذا من باب الضمان والكفالة»(٢).

قوله تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ قال ابن كثير: «وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران]؛ قال ابن كثير: «وفي هذا تَحْذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبَهم ما أصابهم، ويُسْلكَ بهم مَسْلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»((٤))»(٥).

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٩٥).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤٠١).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠١).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨/٣٢١/٣) والترمذي (٢٦٤٩/٢٩/٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨١).

المطلب الرابع: عنايته ببيان الصور والأمثلة على الآية:

من الجوانب التدبُّرية التي عُنِيَ بها ابن كثير: بيانه لبعض الصور والأمثلة التي تؤكد مضمون الآية ودلالتها، وهو جانب تدبُّري، ومن الأمثلة في ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]؛ قال ابن كثير: «وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى]؛ قال ابن كثير: «أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف ﷺ لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف]؛ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه.

وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قَدَرَ عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غوث بن الحارث، الذي أراد الفتك به ﷺ حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ ﷺ وهو في يده صَلْتًا، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه.

وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذي سحره ﷺ، ومع هذا لم يَعْرِضْ له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه.

وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية- وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن مسلمة- التي سمَّت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «**مَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ؟**» قالت: أردت إن كنتَ نبيًّا لم يضرَّك، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا منك. فأطلقها عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدًّا، والحمد لله»(٢).

(١) المصدر السابق (٧/ ١٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١١).

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات]؛ قال ابن كثير: «أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]؛ قال ﷺ: «وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرانَيْ قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سَرَاتَهم، فاستاقهم مقرَّنين في الأصفاد، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليهم مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلَّغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله، وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾»(٢).

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح]؛ قال ابن كثير: «هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فَيْصَلٍ إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عَدد المسلمين وعُدَدِهم، وكثرة المشركين وعُدَدِهم»(٣).

(١) المصدر السابق (٧/ ٤١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ١٥١).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٣٤١).

المطلب الخامس: عنايته ببيان تطبيقات على الآيات وتنزيلها على الواقع:

مما تميز به ابن كثير أنه يورد عند بيانه للآيات تطبيقات عليها من واقع السلف أو غيرهم أو من واقعه، وهذا جانب تدبُّري ينبغي على القارئ المتدبِّر للتفسير أن ينتبه له.

ومن الأمثلة الواردة في تفسيره في هذا الجانب:

قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ قال ابن كثير: «...كما كان الصحابة ﷺ عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله»(١).

قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزُّخرُف]؛ قال ابن كثير: «هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهادَ والجِلَادَ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب»(٢).

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]؛ قال ابن كثير: «وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]؛ قال ابن كثير: «...وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ﷺ وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل»(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٥).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٤٤).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٤) المصدر السابق (٧/ ٣٦٣).



المبحث الثاني

الاستشهاد بالنصوص والآثار في الجوانب التدبرية

المطلب الأول: التفسير بالمأثور وعلاقته بالتدبُّر عند ابن كثير:

يعتبر ابن كثير من أبرز المفسرين عناية بالتفسير بالمأثور بأنواعه، بل هو الأشهر في العناية بتفسير القرآن بالقرآن والسنة، وهذا الذي أعطاه ميزة بين التفاسير.

وقد أخذ ابن كثير بقاعدة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في أحسن طرق التفسير الذي ذكرها في المقدمة بقوله: «إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له... وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين؛ مثل عبدالله بن مسعود...»[1].

ولذلك سلك ابن كثير مسلكًا بديعًا في الترتيب، فبعد أن يذكر الآية وغرضها ومناسبتها، يذكر الآيات الشاهدة عليها إن وجدت، ثم يذكر الأحاديث الواردة في موضوعها، ثم يذكر أقوال السلف في معناها، وربما يجمع أو يرجح بينها، ويعقب على الآيات أحيانًا بما يناسب.

وهذا المسلك الذي سلكه ابن كثير لا نجده ظاهرًا عند غيره من التفاسير بهذا الترتيب، وهذا ما يميز ابن كثير عن غيره.

والذي يزيد من تميزه في هذه الجانب هو: أنه لا يكتفي بإيراد الآيات والأحاديث والآثار في جانب المعنى فقط، بل إنه يستشهد بها في جوانب متعددة، ومنها:

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٩٢، تفسير ابن كثير (١/ ٧).

أن تكون الآية أو الحديث أو الأثر شاهدًا على غرض الآية وموضوعها.

أن تكون مؤكدة لدلالاتها وهداياتها.

أن تكون متضمنة صورة أو مثالًا للآية.

أن تكون تطبيقًا من النبي ﷺ أو الصحابة والتابعين لها.

وهذه الجوانب متعلقة بالتدبُّر أكثر من تعلقها بالتفسير، من جهة أن التدبُّر يتعلق بالمقاصد والموضوعات والدلالات والهدايات والصور والأمثلة والتطبيقات أكثر من تعلقه بالمعنى التفسيري؛ إذ إن هذه الجوانب تأتي وراء المعنى.

المطلب الثاني: استشهاده بالنصوص والآثار على غرض الآية وموضوعها:

كثيرًا ما يستشهد ابن كثير بالنصوص والآثار في بيانه للآية تأكيدًا لغرضها وموضوعها، وهذا جانب متعلق بالتدبُّر- كما ذكرت- من جهة أنه خارج حدود المعنى إلى آفاق الآية ومضمونها.

ومن أمثلة ذلك:

الاستشهاد بالقرآن:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]؛ قال ﷺ في بيانه لهذه الآية: «يخبر تعالى إخبارًا عامًّا يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت؛ كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]،... وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ تصغيرًا لشأن الدنيا، وتحقيرًا لأمرها، دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّعْد]، وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحْل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]»[1].

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧-١٧٩).

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]»(١).

الاستشهاد بالسنة:

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]؛ قال ابن كثير: «والمقصود من هذه الآية: أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**». وفي رواية: «**وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»(٢)»(٣).

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران]؛ قال ابن كثير: «أي: قد كنتم -أيها المؤمنون- قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا. وقد ثبت في الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»(٤)»(٥).

الاستشهاد بالآثار:

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ قال ابن كثير: «قال الحسن البصري: هذا خُلُق محمد ﷺ بعثه الله به»(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

(٢) الروايتان هما حديثان أخرجهما مسلم (١/٦٩/٤٩-٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري، ومن حديث ابن مسعود.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٩١).

(٤) أخرجه البخاري (٤/٦٣/٣٠٢٤) ومسلم (٣/١٣٦٢/١٧٤٢) من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٧).

(٦) المصدر السابق (٢/ ١٤٨).

المطلب الثالث: الاستشهاد بالنصوص والآثار على دلالة الآية وهداياتها:

يستشهد ابن كثير بالنصوص والآثار في تأكيد دلالة الآية وهدايتها، ومن أمثلة ذلك:

الاستشهاد بالقرآن:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣]؛ قال ابن كثير: «أي: غير متعاطٍ لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر؛ كما قال في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة]»(١).

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]؛ قال ابن كثير: «أي: مع المرافق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النِّساء]»(٢).

الاستشهاد بالسنة:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤]؛ قال ابن كثير: «أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد... وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم، قال: قلتُ: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلَّمة وأذكر اسم الله، فقال: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ...**»(٣)»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران]؛ قال ابن كثير: «دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار... وثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»(٥) الحديث»(٦).

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣١).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (١/٤٦/١٧٥)، (٧/٨٦/٥٤٧٧) ومسلم (٣/١٥٢٩/١٩٢٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٨/٧١/٦٣٢١) ومسلم (١/٥٢١/٧٥٢).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣).

الاستشهاد بالآثار:

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم]؛ قال ابن كثير: «قال بعض السلف: لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾، قال: ولا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالًا فخورًا، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النِّسَاء]»[1].

المطلب الرابع: الاستشهاد بالنصوص والآثار في ذكر الصور وأمثلة على الآية:

يستشهد ابن كثير على الآية بصور وأمثلة على ما تضمنته الآية، ومن أمثلة ذلك:

الاستشهاد بالقرآن:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢]؛ قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التَّغَابُن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الْأَعْرَاف: ٦٣، ٦٩]، وقال تعالى مخبرًا عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٥﴾﴾ [ص]»[2].

قَوْلُهُ تعالى﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]؛ قال ابن كثير في بيانها: «...وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال هؤلاء: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]»[3].

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٣٠).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٤٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٦).

الاستشهاد بالسنة:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]؛ قال الإمام أحمد: «حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد، عن أبي غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ قال: «هُمُ الْخَوَارِجُ»، وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال: «هُمُ الْخَوَارِجُ»[١]»[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران]؛ قال ابن كثير: «قد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة، فلنذكر ما تيسر منها؛ الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شعبة قال: علي بن مدرك أخبرني، قال: سمعت أبا زرعة، عن خرشة بن الحر، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلتُ: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: «الْمُسْبِلُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ، وَالْمَنَّانُ»[٣]. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَأَهْلُ السُّنَنِ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ»[٤].

المطلب الخامس: الاستشهاد بالأحاديث والآثار في تطبيق الآية والعمل بها:

يستشهد ابن كثير على الآية بذكر أحاديث أو آثار في تطبيقها.

ومن الأمثلة:

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/٥٩٤/٢٢٢٥٩)، بلفظه، وأخرج الجملة الثانية الترمذي (٣٠٠٠/٧٦/٥) وقال: «حديث حسن». قال في مجمع الزوائد (٢٣٣/٦): «رواه الطبراني، ورجاله ثقات». اهـ وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٥٥٤/١٠٥٥/٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣٥/٢٤٥/٢١٣١٨) ورواه مسلم (١٠٦/١٠٢/١) وأبو داود (٤٠٨٧/٥٧/٤) والترمذي (١٢١١/٥٠٨/٣) والنسائي (٢٥٦٣/٨١/٥) وابن ماجه (٢٢٠٨/٧٤٤/٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٢-٦٣).

الاستشهاد بالسنة في تطبيق الآيات:

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى] أورد ابن كثير حديثًا في تأول النبي ﷺ للآية، فقال: «قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»[1]»[2].

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر] السورة، أورد ابن كثير حديثًا في عمل النبي ﷺ بالسورة فقال: «وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا أبو عوانة، عن هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ حتى ختم السورة، قال: نُعِيَتْ لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهادًا في أمر الآخرة[3]»[4].

قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ قال ابن كثير: «ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييبًا لقلوبهم، ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير... وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو؟ فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامَئذٍ، فأبى عليه ذلك السَّعْدانِ: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك.

وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٩٥/٢٠٦٦) وأبو داود (١/٢٣٣/٨٨٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٧٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٣٢٨/١١٩٠٣) والنسائي في الكبرى (١٠/٣٤٩/١١٦٤٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٥١٠).

وقال ﷺ في قصة الإفك: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمٍ أَبَنُوا أَهْلِي وَرَمَوْهُمْ، وَايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ- وَاللهِ- مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا**»[1]. واستشار عليًّا وأسامة في فراق عائشة ﵄»[2].

إيراد الآثار الواردة عن السلف في تطبيق الآية وتنزيلها على الواقع:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ قال ابن كثير: «أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء؛ أنه قال: «إنا لنَكْشِرُ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم»[3].

في سورة الأعلى قال ابن كثير: «قال الثوري، عن السدي، عن عبد خير قال: سمعت عليًّا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى] فقال: سبحان ربي الأعلى».

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء]؛ قال ابن كثير: «قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، قال: مر عليٌّ على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأن يمس أحدكم جمرًا حتى يطفأ خير له من أن يمسها»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٦٧/٢٦٣٧) ومسلم (٤/٢١٢٩/٢٧٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠).

(٤) المصدر السابق (٥/ ٣٤٨).

المبحث الثالث

كيف نستخرج الجوانب التدبرية من تفسير ابن كثير؟

من أفضل ما يوصى به المتدبِّرون من كتب التفسير: تفسير ابن كثير، وذلك لما تضمنه من الجوانب التدبُّرية، وأعني بها: ما وراء المعنى مما سبق عرضه.

ولعلي في هذا المبحث أبين للقارئ الكريم منهجًا لقراءة تفسير ابن كثير قراءة تدبُّرية، واستخراج الجوانب التدبُّرية منه:

المطلب الأول: معرفة الجوانب التدبُّرية التي تضمنها التفسير:

من المهم للقارئ المتدبِّر أن يكون له منهج في قراءته لكتب التفسير قراءة تدبُّرية، وذلك من خلال التركيز على تلك الجوانب التدبُّرية، ومعرفة طريقة المؤلف في عرضها.

وبما أننا نتحدث عن ابن كثير فإنني سأذكر أهم ما وقفت عليه من الجوانب التدبُّرية التي تضمنها التفسير مما فصلته في المبحث السابق؛ لتكون منطلقًا للقارئ في قراءته للتفسير.

أولًا: بيان غرض الآية ومناسبتها.

من أبرز ما تميز به ابن كثير أنه يستفتح الآية بذكر غرضها ومناسبتها، وهو جانب زائد على المعنى، مما يمكن دخوله في التدبُّر من حيث إن التدبُّر كما قال الشاطبي: «إنما التدبُّر لمن التفت إلى المقاصد»[1].

وقد أوردت في المبحث السابق أمثلة على ذلك، فليراجعها القارئ الكريم.

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٠٩).

ثانيًا: إيراده للشواهد من القرآن والسنة وآثار السلف في جوانب غير متعلقة بالمعنى مباشرة، بل هي تابعة له، وهي أقرب في تعلقها بالتدبُّر، ومنها:

- الاستشهاد بالآيات والأحاديث والآثار على غرض الآية ومقصودها.

- الاستشهاد بالآيات والأحاديث والآثار على موضوع الآية، بذكر أدلة تشهد على الموضوع التي تضمنته الآية.

- الاستشهاد بالآيات والأحاديث والآثار على دلالات الآية وهداياتها تأكيدًا على ما يستنبطه منها.

- الاستشهاد بالآيات والأحاديث والآثار في بيان صور وأمثلة على ما تضمنته الآية.

وكل ذلك بينته مفصلًا بالأمثلة في المبحث الأول والثاني[1].

ثالثًا: بيان ما تضمنته الآية من دلالات وهدايات مستنبطة:

وهذا الجانب ظاهر في تفسير ابن كثير، فإنك حين تقرأ فيه تجده يستخرج من الآية بعض الدلالات والهدايات اللطيفة مما يتعلق بالعمل بها؛ وهو جانب تدبُّري.

وقد أوردت في المبحث السابق أمثلة على ذلك، فليراجعها القارئ الكريم[2].

رابعًا: إيراد صور وأمثلة وتطبيقات على الآية وتنزيلها على الواقع.

يذكر ابن كثير أحيانًا صورًا وأمثلة على ما تضمنته الآية، أو تطبيقات عليها من واقع السلف أو من واقعه، وهذا جانب تدبُّري، ينبغي للقارئ أن يتوقف عنده.

وقد أوردت في المبحث السابق أمثلة على ذلك، فليراجعها القارئ الكريم[3].

---

(١) ينظر: (ص: ٥، ٧، ٩).

(٢) ينظر: (ص: ١٥).

(٣) ينظر: (ص: ١٩، ٢٢).

خامسًا: ذكر الدروس والعبر في القصص القرآني:

مما يُعنى به ابن كثير أحيانًا أنه يورد بعض الدروس والعبر في بيانه للقصص القرآني، وهو جانب تدبُّري، ينبغي على القارئ المتدبِّر أن ينتبه له.

وقد أوردت في المبحث السابق أمثلة على ذلك، فليراجعها القارئ الكريم[1].

فهذه أبرز الجوانب التدبُّرية التي تضمنها التفسير، فلو أن القارئ المتدبِّر ركز عليها في قراءته للتفسير لاستفاد كثيرًا وازداد مَلَكَةً ودُرْبةً على معرفة وبيان ما تضمنته الآية من جوانب تدبُّرية.

المطلب الثاني: طرق استخراج الجوانب التدبُّرية في تفسير ابن كثير.

لا شك أن طريقة القراءة والمنهج الذي يتبعه القارئ له أثر في النتيجة والأثر الذي يحصل عليه، فلعلي هنا أذكر بعض الطرق المثلى لقراءة تفسير ابن كثير قراءة تدبُّرية، واستخراج الجوانب التدبُّرية منه، لعلها تعين القارئ الكريم في قراءته واستفادته المثلى من هذا التفسير المبارك.

الطريقة الأولى: القراءة الجماعية وتدارس جوانب التدبُّر:

- يجتمع مجموعة من طلبة العلم، أو طالب علم مع طلاب الحلقة أو المسجد أو الجامعة.
- يتفقون على مجلس تدارس أسبوعي.
- يقرؤون كل أسبوع مقدارًا معينًا من التفسير «ما بين ثمن- وجهان ونصف- إلى جزء»، ويكلف كل واحد منهم باستخلاص الجوانب التدبُّرية.
- يتم التدارس في المجلس في بيان ما ذكره ابن كثير من جوانب تدبُّرية، بحيث يأخذون مقطعًا من الآيات بحسب تقسيم ابن كثير ويتدارسونه.
- في ختام المجلس يتدارسون أثر الآيات على أنفسهم، ويخرجون بتوصيات عملية يطبقونها.

---

(١) ينظر: (ص: ١٨).

ويمكن استثمار هذه الطريقة في مجموعات الواتساب ووسائل التواصل الاجتماعي، وهي طريقة ناجحة بإذن الله.

الطريقة الثانية: القراءة الفردية مع الحزب اليومي.

من المهم أن يخصص الحافظ لكتاب الله تعالى أو المسلم عمومًا وطالب العلم خصوصًا وقتًا لحزبه من القرآن يوميًّا، بحيث يختم في الشهر مرة أو في الشهرين مرة، مع اصطحابه لتفسير من التفاسير يرجع إليه فيما يتعلق بالمعنى وما وراءه من جوانب تدبُّرية، ومن أفضل التفاسير التي يحسن اصطحابها تفسير ابن كثير وتفسير السعدي، وأنا هنا سأذكر منهجًا مقترحًا للقارئ للجمع بين قراءة القرآن وقراءة التفسير:

- أن يقرأ كل يوم نصف جزء إلى جزء.
- يطالع بعد قراءته تفسير ابن كثير للفهم العام للآيات، مع تركيزه على الجوانب التدبُّرية التي ذكرتها.
- يجتهد في الخروج بفوائد وهدايات يزكي بها نفسه.

الطريقة الثالثة: التدرب الجماعي أو الفردي على طريقة ابن كثير في ذكر الجوانب التدبُّرية.

هذه الطريقة هدفها تكوين الملكة التدبُّرية في الجوانب التي يذكرها ابن كثير، وهي تتلخص فيما يلي:

- تلاوة الآية أو الآيات.
- استحضار غرضها والشواهد عليها من القرآن والسنة.
- استخلاص دلالات الآية وهداياتها.
- استحضار صور وتطبيقات عليها.
- الرجوع إلى تفسير ابن كثير للنظر فيما ذكره من الجوانب السابقة، فينظر القارئ فيما ذكره ابن كثير زيادة على ما استحضره، وبذلك ينمي القارئ ملكة التدبُّر عنده.



الخاتمة والتوصيات

الحمد لله، وبعد...

فقد كان هذا البحث المختصر عن تفسير ابن كثير ومنهجه في التدبُّر، ولعلي أذكر أهم ما خلصت إليه:

- أن تفسير ابن كثير يعتبر من أبرز التفاسير التي عُنِيت بالجوانب التدبُّرية، وهو بذلك يعتبر مرجعًا في التدبُّر.
- أن ابن كثير قد عُني في التدبُّر بمجالات مختلفة؛ وهي:
- بيان أغراض الآيات ومناسباتها.
- بسط الكلام فيما يتعلق بموضوع الآية.
- بيان دلالات الآية وهداياتها.
- بيان الصور والتطبيقات وتنزيل الآية على الواقع.
- أن ابن كثير في عنايته بالتفسير بالمأثور لم يكتفِ بما يتعلق بالمعنى، بل إنه يورد الآيات والأحاديث والآثار في جوانب متعلقة بما وراء المعنى من المقاصد والموضوعات والدلالات والصور والتطبيقات.

التوصيات:

- أدركت من خلال هذا البحث منزلة ابن كثير وتميزه في الجوانب التدبُّرية، مما يدعو إلى أهمية تدريس تفسير ابن كثير من خلال الجوانب التدبُّرية فيه.

- أدركت أهمية ارتباط المتدبِّر بكتب التفسير لمعرفة جوانب التدبُّر فيها.

- أوصي بطرح برامج تدبُّرية تنطلق من هذا التفسير بقراءة جماعية؛ لاستخلاص الجوانب التدبُّرية وتكوين الملكة التدبُّرية من خلالها.

هذا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المصادر والمراجع

- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

- التفسير بالمأثور مفهومه وأنواعه وقواعده، محمد بازمول.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ط: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

- السنة، أبو عبدالله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨.

- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، ط: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

- مسند ابن أبي شيبة، عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، ط: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، طـ: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- مشكاة المصابيح، محمد بن عبدالله الخطيب العمري، ت: الألباني، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥.

- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الثانية.

الجلسة الثانية

أعلام المتدبرين

(مدرسة المعاصرين)

أوراق العمل

الورقة الأولى ٢١١

مظاهر التدبر عند الشيخ المفسر محمد الأمين رحمه الله تعالى

أحمد بن محمد الأمين حسن الشنقيطي

الورقة الثانية ٢٣١

وقفات مع مجالس القرآن للشيخ الدكتور فريد الأنصاري

د. مولاي عمر بن حماد

الورقة الثالثة ٢٥٣

منهجية التدبُّر عند الشيخ ابن عثيمين

د. عبد الله بن عبد العزيز العواجي

الورقة الرابعة ٢٩١

محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تدبر القرآن

د. جمال محمود أحمد أبو حسان

الورقة الأولى

مظاهر التدبر عند الشيخ المفسر محمد الأمين رحمه الله تعالى

إعداد

أحمد بن محمد الأمين حسن الشنقيطي

السيرة الذاتية

الاسم: أحمد بن محمد الأمين بن حسن الشنقيطي

المؤهل العلمي:

شهادة البكالوريوس (الجامعة الإسلامية، كلية القرآن الكريم، المدينة المنورة، ١٤٢٧هـ).

شهادة الماجستير (الجامعة الإسلامية، قسم القراءات، المدينة المنورة، ١٤٣٤هـ).

في طور إعداد رسالة الدكتوراه حاليًّا.

الخبرة العلمية:

- محاضر بقسم القراءات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- مجاز بالقراءات العشر الصغرى والكبرى من الشيخ إيهاب فكري، والشيخ حامد أكرم بخاري.

- مجاز بالقراءات العشر الصغرى من الشيخ محمد بيبا فاليل.

- مجاز برواية حفص عن عاصم، من الشيخ إبراهيم الأخضر والشيخ محمد أبو رواش والشيخ عبدالله عمر وغيرهم.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتابْ، هدىً وذكرى لأولي الألبابْ، وحَلَّاه بالأحرف السبعة وكمال الشرعة وفصل الخطابْ، وأودع فيه من الأسرار العجب العجابْ، وصانه من شين اللحن وطروِّ المحو ومن كل ما يستراب، وجعله الآية الباقية على امتداد الأحقابْ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريمُ الوهابْ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي الأوَّابْ، صلى الله عليه وعلى آله والأصحابْ، أما بعد:

فإنّ من دواعي سروري وشكري لله ﷻ؛ أن أتقدم للهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم بهذا البحث؛ للحصول على شرف المشاركة في مؤتمرها الدولي الثاني، وعنوان هذا البحث: «مظاهر التدبُّر عند الشيخ المفسر محمد الأمين»، وهذه المظاهر تُدوَّن في أوسعَ من ذلك، ولكني أوردتها على سبيل الإجمال والإيجاز، واستغنيت بظهور المثال عن التعليق وإبراز وجه الاستشهاد؛ خشية أن يطول البحث، ويخرج عن المقصود.

واقتضت طبيعة هذا البحث أن ينقسم إلى مبحثين وخاتمة، على النحو التالي:

المبحث الأول: التعريف بالشيخ الأمين، وبيان المراد بمظاهر التدبُّر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نبذة يسيرة عن الشيخ محمد الأمين ﷺ.

المطلب الثاني: المراد بظواهر التدبُّر.

المبحث الثاني: مظاهر التدبُّر عند الشيخ محمد الأمين ﷺ، وقد اشتمل على عشرة مظاهر.



المبحث الأول

التعريف بالشيخ الأمين، وبيان المراد بمظاهر التدبر

المطلب الأول: نبذة يسيرة عن الشيخ محمد الأمين ﷾

هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي بن أحمد بن المختار، من أولاد يعقوب بن جاكان الأبر؛ جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالجكنيين، ويعرفون بتجكانت، ويرجع نسب القبيلة إلى حِمْيَر، ويُلقب الشيخ بـ«آبّا»؛ بمد الهمزة.

ولد ﷾ (عام ١٣٢٥هـ)، وكان مسقط رأسه ﷾ في موريتانيا، في كيفا.

نشأ -أحسن الله مثواه- في جو يغلب عليه طلب العلم، وقد نما وترعرع وشب متأثرًا بالوسط القبلي المحيط به؛ وهو وسط تحتضنه البادية، ويغلب عليه التنقل من مكان إلى آخر طلبًا للمناخ الأصلح، تحدّث عن طفولته، فقال: «توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء عم، وترك لي ثروة من الحيوان والمال، وكانت سكناي في بيت أخوالي، وأمي ابنة عم أبي، وحفظت القرآن على خالي عبدالله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح؛ جد الأب المتقدم». وبعد أن رسخت قدمه في العلم قرر الخروج من بلاده لأداء فريضة الحج في السابع من شهر رجب، عام (١٣٦٧هـ) على نية العودة، وكان سفره برًّا، وقد كتب أثناءه رسالة سماها «رحلة الحج»، ضمنها مباحث جليلة، وبعد وصوله إلى هذه البلاد في أواخر شهر ذي القعدة من عام (١٣٦٧هـ) تجددت نية بقائه في المملكة العربية السعودية.

وكان زاهدًا ورعًا، لم تكن الدنيا تساوي عنده شيئًا، فلم يكن يهتم لها، ومنذ وجوده في المملكة العربية السعودية وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاءً، ولا مرتبًا، ولا

ترفيعًا لمرتَّبه، ولا حصولًا على مكافأة أو علاوة، ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه، وما حصل عليه لم يكن يستبقيه، بل يوزعه في حينه على المُعْوِزين؛ من أرامل ومنقطعين، وكان مستغنيًا بعفته وقناعته، بل إنَّه ليترك حقه الخاص تعففًا عنه؛ كما فعل في مؤلفاته وهي فريدة في نوعها، لم يقبل التكسب بها، وتركها لطلبة العلم، وكان يقول: «لقد جئت معي من البلاد بكنز عظيم يكفيني مدى الحياة وأخشى عليه الضياع، فقيل له: وما هو؟ قال القناعة».

توفي ﷺ ضحى يوم الخميس الموافق: ١٣٩٣/١٢/١٧هـ، وكانت وفاته بمكة المكرمة، مرجعَه من الحجِّ، ودفن في مقبرة المعلاة[1].

المطلب الثاني: المراد بظواهر التدبُّر.

إن عبارات العلماء اختلفت في تبيين المراد بالتدبُّر، وإن كانت عباراتهم متقاربة من حيث المقصود العام للتَّدبُّر، ومن باب الاختصار، أقتصر على كلام الإمام ابن القيم ﷺ في تبيين معنى التدبُّر، حيث قال: «هو تَحْديق ناظر القلبِ إلى معانيه، وجمعُ الفكر على تدبُّره وتعقُّلِه، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّدُ تلاوته بلا فهم ولا تدبُّر، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]»[2].

وأمّا بالنسبة لمرادي بظواهر التدبُّر في هذا البحث فهو: كل ما كان ناتجًا بسبب الفهم الصحيح للقرآن الكريم، والتفكر والتأمُّل في معانيه، سواء كان هذا الناتج حسيًّا أم معنويًّا، ويشمل ذلك ما كان على سبيل الاستنباط؛ إذ الاستنباط الغالب أن يكون ناتجًا عن التدبُّر.

---

(١) ينظر ترجمة الشيخ في: أضواء البيان: (٤٧٩/٩-٤٨٣)، وجهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف لعبدالعزيز الطويان: (٢٩/١-٣٣).

(٢) مدارج السالكين: (٤٤٩/١).



المبحث الثاني

مظاهر التدبر عند الشيخ محمد الأمين ﷺ

المظهر الأول: مؤلفاته المتعلقة بالقرآن الكريم:

إنّ مؤلفات الشيخ ﷺ المتعلقة بالقرآن، التي خلّفها للأمة هي نتيجة تفكر وتأمُّل وتدبُّر عميق في القرآن الكريم، وأبرز هذه المؤلفات سفره العظيم الموسوم بـ «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، حيث رسم فيه المنهج السَّليم لتفسير القرآن الكريم، وفسر كلام الله بعضه ببعض، وأبان أحكامه وحِكَمه، وفتح كنوزه، وأظهر نفائسه، ونشر دُرره بين يدي طلبة العلم.

إنّ تفسير القرآن بالقرآن كان معروفًا عند المفسرين المتقدمين، وكان مضمَّنًا في تفاسيرهم، ولكن الجديد عند الشيخ هو: إفراد تفسير القرآن بالقرآن في تفسير مستقل، وإلزام نفسه بإيضاح القرآن بالقرآن، وهذا العمل كلَّف الشيخ الكثير من الفكر والتأمُّل في آيات القرآن[1]، حتى ظهرت الفوائد والدرر النفيسة، التي يتلذذ بها كل من تناول تفسيره بالمطالعة أو الدراسة.

ومن هذه المؤلفات: «منع جواز المجَاز في المنزَّل للتعبد والإعجاز»، حيث ضمن هذا المؤلف إبطال إجراء المجاز في آيات الأسماء والصفات، وإبقاءها على الحقيقة، وهذا مبحث دقيق نتج عن فهم عميق لمعاني القرآن الكريم.

ومن هذه المؤلفات: «دفع إيهَام الاضْطراب عن آي الكتاب»، أبان فيه نوعًا من أنواع المشكِل، وهو: ما يوهم التعارض والاختلاف في القرآن كاملًا، وهذا المؤلَّف كذلك نتيجة فهم عميق وتأمُّل في القرآن الكريم.

---

(١) وهذا ذكره طلابه الذين كان يملي عليهم تفسيره.

المظهر الثاني: الاستنباطات التفسيرية التي لم يسبق إليها.

إنّ القرآن الكريم بحر لا تكدره الدلاء، مشتمل على الكثير من الكنوز والدرر، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنضب مشاربه، والعلماء متفاوتون في إدراك عجائب القرآن وأسراره، فالله ﷻ يفتح على من يشاء من عباده، ويكشف له عن شيء من أسرار القرآن، وربّما فتح الله عليه بما لم يخطر على بال أحد ممن تقدمه من العلماء، وهذا لا يخفى على من طالع كتب المفسرين الراسخين في العلم، والاطلاع على أسرار القرآن لا يكون إلا بعد تأمُّل وتدبُّر للقرآن، والشيخ الأمين ﷺ فتح الله عليه باستنباطات لم يسبق إليها، فإليك نموذجًا من هذه الاستنباطات:

قال ﷺ: «اعلم أولًا أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين آية «السَّجدة»[1] وآية «النَّازعات»[2]، فأجاب: بأنَّ الله تعالى خلق الأرض أوَّلاً قبل السَّماء غير مَدْحوَّة، ثم استوى إلى السَّماء فسوّاهنَّ سبعًا في يومين، ثمَّ دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرّواسي والأنهار وغير ذلك، فأصل خلق الأرض قبل خلق السَّماء ودَحْوِها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك بعد خلق السَّماء... وهذا الجمع الذي جمع به ابن عبّاس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه، مفهوم من ظاهر القرآن العظيم، إلا أنَّه يَرِدُ عليه إشكال من آية «البقرة»[3] هذه، وإيضاحه: أنَّ ابن عبّاس جمع بأنَّ خلْقَ الأرضِ قبل خَلْقِ السَّماء، ودحْوَها بما فيها بعد خلق السَّماء.

وفي هذه الآية التّصريح بأنَّ جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السَّماء؛ لأنَّه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقد مكثتُ زمنًا طويلًا أفكِّر في حلِّ هذا الإشكال، حتَّى هداني الله إليه ذات يوم، ففهمته من القرآن العظيم، وإيضاحه: أنَّ هذا الإشكال مرفوع من وجهين، كلٌّ منهما تدلُّ عليه آية من القرآن:

---

(١) يقصد آية سورة فصلت، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾.

(٣) هي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

الأول: أنَّ المراد بخلق ما في الأرض جميعًا قبل خلْقِ السّماء: الخَلْقُ اللُّغَوِيُّ الذي هو التَّقْدِيرُ، لا الخلْقُ بالفِعْل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تُسَمِّي التَّقدير خَلْقًا... والدَّليل على أنَّ المراد بهذا الخَلْقِ التَّقديرُ، أنّه تعالى نصَّ على ذلك في سورة «فُصِّلَتْ» حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

الوجه الثَّاني: أنَّه لمَّا خَلَقَ الأرض غير مدْحُوَّةٍ، وهي أَصْلٌ لكلِّ ما فيها، كان كُلُّ ما فيها كأنَّه خَلْقٌ بالفعل لوجود أصله فعلًا، والدَّليل من القرآن على أنَّ وجود الأصل يمكن به إطلاقُ الخَلْقِ على الفرع، وإن لم يكن موجودًا بالفعل، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]، قوله: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾: بخَلْقِنَا وتصْويرِنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم»[1].

المظهر الثالث: استحضار الآيات المتفقة لفظًا ومعنًى، أو متفقة معنًى فقط:

إنّ استحضار الآيات المتشابهات من الناحية اللفظية في الذاكرة الحاضرة أمر عسير على جُلِّ الحفاظ؛ إذ يُكلفهم ذلك الكثير من التفكير وعصف الذهن، ومع ذلك لا يَسْلَمون من فوت الكثير، وإنّ مما امتاز به الشيخ الأمين ﷺ شدة استحضاره للآيات المتشابهات، وكأنها وردت في موضع واحد من القرآن، بل إنه تجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة أعلى، وهي: استحضار الآيات المتفقة في الدلالة؛ أي التي اتفقت من الناحية المعنوية فقط، وليس بينها اتفاق ولا تقارب لفظي، وهذه المهارة لا تتكون لدى الإنسان إلا بعد طول إمعان نظر وتفكر وتأمُّل في القرآن الكريم، وهذا الاستحضار كان ظاهرًا في مصنفات الشيخ ودروسه، وأسوق مثالًا يجلِّي هذا المظهر وهو:

في مناقشته لمسألة فَناء النار، عندما بحث المسألة بالدليل الجدلي المعروف بـ «السبر والتقسيم»، وأقرَّ القول بعدم فناء النار، حيث قال: «فلم يبق إلا الاحتمال السادس، وهو: أنها أبدية وعذابها لا ينقطع، وقد جاء ذلك مبيَّنًا في كتاب الله في خمسين موضعًا منه»[2].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب: (١٦-١٨).

(٢) مجالس مع الشيخ الأمين: (٥٣-٥٨).

فسرد لهم الآيات مرتبة بحسب ترتيب المصحف، وكأنها جاءت مسرودة في موضع واحد[1].

ومن هذه الآيات الخمسين؛ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود][2]، فهذه بعض الآيات التي استدل بها، والتباين اللفظي بينها ظاهر، مع الاتفاق المعنوي بينها، وهو الدلالة على استمرار عذاب جهنم وعدم انقطاعه.

المظهر الرابع: استخدام القرآن في الترجيح في المسائل الخلافية:

عند مناقشة المسائل الخلافية كثيرًا ما يُرجح الشيخ الأمين ﷺ القول الذي فيه موافقة للقرآن، أو القول الذي يُمكن أن يُستنبط من القرآن ما يدل عليه، وفي ذلك يقول: «قلت ما قلتُ اعتمادًا على نص من كتاب الله قطعي المتن وقطعي الدلالة، وما كنت لأردَّ نصًّا قطعي المتن قطعي الدلالة بنص ظني المتن ظني الدلالة عند الترجيح بينهما»[3].

ومن أمثلة استخدام القرآن في الترجيح:

في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]؛ قال الشيخ الأمين ﷺ: «ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة؛ أنَّ منْ حِكَم بعثه لأَصحاب الكهف بعد هذه النَّوْمةِ الطَّويلة: أنْ يُبَيِّنَ للنَّاس أيُّ الحزبَين المُختَلِفَين في مُدَّة لُبْثهم أحصى لذلك وأضبط له، ولم يُبَيِّن هنا شيئًا عن الحزبين المذكورين، وأكثر المفسِّرين على أنَّ أحد الحزبين هم أصحاب الكهف، والحزبَ الثَّانيَ هم أهل المدينة الَّذين بُعث الفتية على عهدهم، حين كان عندَهم التَّاريخ بأمرِ الفتية، وقيل: هما حزبان من أهل المدينة المذكورة، كان منهم مؤمنون وكافرون، وقيل: هما حزبان من المؤمنين في زمن أصحاب الكهف...».

---

(١) ينظر: مجالس مع الشيخ الأمين: (٥٨).

(٢) ينظر: مجالس مع الشيخ الأمين: (٦٢-٦٥).

(٣) أضواء البيان: (٤/٤٩٩).

ثم قال: «والَّذي يدلُّ عليه القرآن: أنَّ الحزبين كليهما من أصحاب الكهف، وخير ما يفسَّر به القرآنُ: القرآنُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩]»[١].

ومن أمثلة ذلك: قوله في حكم تقديم الإحرام بالحج على ميقاته الزماني: «والتَّحقيق الَّذي يدلُّ عليه القرآن هو قول من قال: إنَّ الحجَّ لا يَنعقِد في غير زَمنِه، كما أنَّ الصلاة المكتوبة لا ينعقد إحرامُها قبل وقتها»[٢].

ومن أمثلة ذلك: قوله في الخلاف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] «وأقربُ الأَوجه المذكورة عندَنا، هو: ما يدلُّ عليه القرآن العظيم وهو الوجه الرَّابع، وهو أنَّ معنى الآية: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أيْ: لكلِّ أمَّة نبيٌّ، فلَستَ يا نبيَّ الله بِدعًا من الرُّسل. ووجْهُ دَلالة القرآن على هذا كثرةُ إتيان مثله في الآيات»[٣].

المظهر الخامس: البراعة في استنباط الأدلة من القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم لكونه أصلًا شرعيًّا نعتمد عليه في تقرير الأحكام الشرعية وأحكام الحياة، وتحديد المسلك السليم، والطريق القويم، نحتاج حاجةً ملحَّةً إلى استنباط الأدلة التي نبني عليها الأحكام، فأكثر الأدلة يكون ظاهرًا بالنسبة للعلماء، وهناك نوع من الأدلة لا يبدو للناظر في القرآن إلا بعد طول تأمُّل وتدبُّر فيه، واستنباط هذا النوع من الأدلة هو مما فتح الله به على الشيخ الأمين ﷺ، وإليك أمثلة على ذلك:

قال في تقرير أنَّ الترك يُعتبر فعلًا: «والتحقيق: أن التروك أفعال يزينها الشيطان، يدخل صاحبها بها النار، ويثاب بها فيدخل الجنة بسببها... وقد كان ابن السبكي تاج الدين قال: طالعت كتاب الله فوجدت آية من كتاب الله في سورة الفرقان[٤] يفهم منها أنَّ الترك فعل.

---

(١) أضواء البيان: (٢٠٩/٣).

(٢) مجالس مع الشيخ الأمين: (٤١).

(٣) دفع إيهام الاضطراب: (١٨٠).

(٤) هي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ونحن نقول: إن هذه الآية التي أوردها ابن السبكي لا يظهر لنا وجه الدلالة منها كل الظهور، إلا أنا اطلعنا على آيتين من سورة المائدة كلتيهما صريحة في أن الترك من الأفعال، وأنه من الأعمال التي يؤاخذ بها الإنسان... أما الآيتان اللتان عثرنا عليهما في سورة المائدة، الدالتان على أن الترك فعل من الأفعال:

فإحداهما: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وإنشاء الذم بقوله: «بئس» هنا متوجه إلى ترك الربانيين والأحبار النهيَ، وقوله: «لبئس ما كانوا يصنعون»؛ أي: بئس ما يصنعه الربانيون والأحبار وهو تركهم، فسمى تركهم الأمر بالمعروف صنعًا، والصنع أخص من مطلق الفعل... والآية الأخرى: قوله في المائدة أيضًا: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾...»[1].

ادعى رجل أنَّ التاريخ محفوظ من عهد آدم إلى يومنا هذا، فقال له الشيخ الأمين ﷺ: «لا تقل هذا، التاريخ غير محفوظ»، فقال الرجل: هذا ابن كثير في البداية والنهاية أتى مبينًا وقائع كل سنة فهو محفوظ، فقال الشيخ الأمين ﷺ: إن الله يقول: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

فأجاب الرجل: يمكن أن يكون قَصَّهم عليه في نوع آخر من الوحي غير التنزيل.

فقال الشيخ: أحسنت في جوابك عن هذه، ولكن ما هو جوابك عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]، أفعلمهم ابن كثير حتى يكتب عنهم؟![2].

قال في مسألة الثواب المترتب على النظر إلى الكعبة: «الأثر الوارد بهذا ضعيف لا يصلح للاحتجاج، ولا أتذكر أنَّ في القرآن اعتبارًا للناظرين، بل إن الله تعالى قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦][3].

---

(١) ينظر: العذب النَّمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: (٥/٩٦-٩٧).

(٢) ينظر: مجالس مع الشيخ الأمين:(٤٨).

(٣) ينظر: مجالس مع الشيخ الأمين: (٨٣).

المظهر السادس: بناء الأحكام التفسيرية على الاستقراء.

إنَّ الأحكام المبنية على الاستقراء- في أي علم من العلوم- لا تكون إلا بعد سَبْر ودراسة واستطلاع كامل، فهي عبارة يسيرة- أعني: الاستقراء- ولكن لا يتجاسر أحد عليها إلا بحقها، والأحكام التفسيرية مثل غيرها من الأحكام في الاعتضاد بالاستقراء، وإذا قال المفسر- مثلًا-: هكذا استخدام القرآن بالاستقراء. يدل ذلك على أنه أعمل فكره في كل مواضع القرآن، وبلغ الغاية في التأمُّل والتفكر حتى وصل إلى هذه النتيجة، وهي تقوية الحكم بدليل الاستقراء، والشيخ الأمين ﷺ كثيرًا ما يستدل باستقراء القرآن في المسائل الخلافية، ومن الأمثلة على ذلك:

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، «يعني: إن شئتم، فلا يدلُّ هذا الأمر على إيجاب الاصطياد عند الإحلال، ويدلُّ له الاستقراء في القرآن، فإنَّ كلَّ شيء كان جائزًا، ثمَّ حُرِّم لموجِب، ثمَّ أُمِرَ به بعد زَوال ذلك الموجِبِ، فإنَّ ذلك الأمرَ كلَّه في القرآن للجواز، نحو قوله هنا: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]...»[١].

مثال آخر: قال ﷺ: «أمَّا القول الَّذي يدلُّ استقراء القرآن على رجحانه فهو: أنَّ الحروف المقطَّعة ذُكرت في أوائل السُّور الَّتي ذُكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنَّه مركَّب من هذه الحروف المقطَّعة الَّتي يتخاطبون بها...»[٢].

مثال آخر: قال ﷺ: «قد دلَّ استقراء القرآن العظيم أنَّ الفتنة فيه أطلقت على أربعة معان...»[٣]. والمعاني الأربعة هي: الإحراق بالنار، والاختبار، ونتيجته إذا كانت سيئة، والحجة.

المظهر السابع: عقد المقارنات القائمة على الاستنباط.

إنّ عقد المقارنات بين الأشياء تتطلب استيعابًا وفهمًا كاملًا للأطراف المقارَن بينها، ويحتاج المُقارِن إلى الفهم العميق ودقة الملاحظة، التي يَتوصل بها إلى استنتاج الفروق، والشيخ الأمين ﷺ عقد مقارنات لطيفة في تفسيره، امتازت بدقة الملاحظة، وعمق الفهم للقرآن الكريم، وهي حصيلة تفكير وتدبُّر لكلام الله ﷻ، وهذا مثال على مقارنة من مقارناته:

(١) أضواء البيان: (٣٢٦/١).

(٢) أضواء البيان: (١٦٦/٢).

(٣) أضواء البيان: (٥٥٩/٥)، لزيادة الأمثلة ينظر الأضواء: (١٢٥/٦) و (٣٨/٧) و(٥٣٨/٧).

عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]؛ قال ﷺ: «لا يُعارض قوله تعالى في تَفضيل هذه الأمّة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ لأنَّ المُراد بالعالَمين: عالَمُو زمانهم، بدليل الآيات والأحاديث المصرِّحة بأنَّ هذه الأمّة أفضل منهم، كحديث معاوية بن حَيْدَةَ القُشَيريِّ في المسانيد والسُّنن قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»(١).

ألا ترى أنَّ الله جعل المُقتَصِد منهُم هو أعلاهم مَنزِلةً، حيث قال: ﴿مِنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، وجعل في هذه الأمّة درجةً أعلى من درجة المُقتصِد، وهي: درجة السَّابق بالخيرات، حيث قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۖ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؟»(٢).

وقال أيضًا: «ومما يدل على أفضلية أمة محمد ﷺ على بني إسرائيل: أنَّ الابتلاء الذي يَظهَر به الفضل وعدمه إنما يكون بخوف أو بطمع، وقد ابتلَى أصحابَ محمد ﷺ بخوف وابتلاهم بطمع، وابتلى بني إسرائيل بخوف وابتلاهم بطمع.

أمّا الخوف الذي ابتلى الله به أصحاب محمد ﷺ فهو: أنهم لمَّا غزوا غزاة بدر... بخلاف بني إسرائيل لما امتحنوا بخوف...

وقد امتحن الله ﷻ أصحاب محمد ﷺ في عمرة الحديبية بالصيد وهم محرمون، فهيأ لهم جميع أنواع الصيد، من الوحوش والطير من كبارها وصغارها، ولم يَعْتدِ رجل منهم، ولم يصد في الإحرام، كما بينه ﷻ بقوله: ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، فما مَدَّ منهم رَجُلٌ يَدَه إلى الصيد.

فظهر بهذا أنّ كلتا الأمتين امتُحنت بصيد، وأنَّ هؤلاء اعتدوا على ذلك الصيد، فمُسِخوا قردة، وأنَّ أولئك اتقوا الله. كذلك امتُحنوا بخوف من عدو فصبر هؤلاء وثبتوا، وخاف هؤلاء وجبنوا، فدل هذا على أنهم أفضل منهم...»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١/٢٢٦/٥)، وابن ماجه (٤٢٨٨/١٤٣٣/٢).

(٢) دفع إيهام الاضطراب: (٢٤-٢٥).

(٣) ينظر: مجالس مع الشيخ الأمين: (١٤٩-١٥٣).

المظهر الثامن: ربط آيات القرآن بواقع الناس.

إنَّ من أهم المزايا التي تزيد من قيمة التفسير: إظهار العلاقة بين الآية المفسَّرة وواقع الناس، وربط آيات القرآن بواقع الناس الذي يعيشونه، كأنْ يجلِّيَ المفسِّر خطأ فعل من الأفعال الاجتماعية معتمدًا في ذلك على الاستنباط من القرآن، أو يقوم المفسر بتصحيح بعض القيم أو المفاهيم بناءً على استنباطات قرآنية، أو يقوم بإبراز المواقف السياسية الصحيحة في قضايا الأمة المعاصرة مستدلًّا على ذلك بإشارات القرآن، والشيخ الأمين ﷺ كان كثيرًا ما يربط التفسير بواقع الناس الذي يعيشونه، ويعالج قضايا الأمة من خلال تفسير القرآن، وإليك أمثلة على ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]؛ قال ﷺ: «وهذه الآية الكريمة أجمَلَ الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدي إلى خير الطّرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبَّعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدي إلى خيري الدُّنيا والآخرة، ولكنَّنا إن شاء الله تعالى سنذكر جملًا وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطَّريق الّتي هي أقومُ بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تَنبيهًا ببعضِه على كلِّه من المسائل العظام، والمسائل الَّتي أنكرها الملحدون من الكفَّار، وطعَنُوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة... فمن ذلك: توحيدُ الله جلَّ وعلا... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: جعلُه الطَّلاق بيد الرَّجل... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: إباحتُه تعدُّدَ الزَّوجات إلى أربَع... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: تفضيلُه الذَّكر على الأنثى في الميراث... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: مِلكُ الرَّقيق المُعَبَّرُ عنه في القرآن بملك اليمين في آيات كثيرة... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: القِصاصُ... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: قَطعُ يد السَّارق... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: رجمُ الزَّاني المُحصَنِ ذكرًا كان أو أنثى، وجلدُ الزَّاني البكر مئةَ جلدة ذكرًا كان أو أنثى... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: هديه إلى أنَّ التَّقدُّمَ لا يُنافي التَّمسُّكَ بالدِّين، فما خيَّلَه أعداءُ الدّين لضِعاف العقول ممَّن ينتمي إلى الإسلام: من أنَّ التَّقدُّم لا يمكن إلا بالانسِلاخ من دين الإسلام، باطلٌ لا أساس له، والقرآن الكريم يدعو إلى التَّقدُّم في جميع الميادين الَّتي لها أهمِّيَّةٌ في دنيا أو دينٍ، ولكنَّ ذلك التَّقدُّمَ في حدود الدِّين، والتَّحلِّي بآدابه الكريمة، وتعاليمه السَّماويَّة... ومن هدي القرآن للَّتي هي أقومُ: هديه إلى حَلِّ المشاكل العالميَّة بأقوم الطُّرق وأعدلها، ونحن دائمًا في المناسبات نُبيِّن هَديَ القرآن العظيم إلى حلِّ ثلاث مُشْكِلات، هي من أعظم ما يُعانيه العالَمُ في جميع المعمورة ممَّن ينتمي إلى الإسلام، تَنبِيهًا بها على غيرها: المشكلة الأولى: هي ضعفُ المسلمين في

أقطار الدُّنيا في العَدد والعُدَد عن مُقاومة الكفَّار... المشكلة الثانية: هي تَسلِيطُ الكفَّار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء، مع أنَّ المسلمين على الحقِّ، والكفَّارَ على الباطل... المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الَّذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمَّة الإسلاميَّة...»[1].

فهذه جملة من القضايا التي تتعلق بواقع الناس وما يحتاجونه، استطاع الشيخ ﷺ أن يربطها في تفسيره بآية من آيات القرآن الكريم[2].

المظهر التاسع: التأثر والبكاء عند تفسير القرآن الكريم.

إنَّ الإنسان إذا خالط القرآن بشاشة قلبه، وتدبَّره وتمعَّن في معانيه؛ ازداد إيمانه ولا يملك العبرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، فالتأثر بالقرآن والبكاء عند سماعه دليل على تدبُّره، والشيخ الأمين ﷺ كان يبكي عند تفسيره للقرآن، ومن الأمثلة على ذلك:

عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، في درسه في المسجد النبوي، بعد صلاة المغرب، عندما شرع في تفسير هذه الآية تأثر وغلبته العَبرة، فبكى ولم يستطع التوقف عن البكاء حتى أُذن لصلاة العشاء[3].

فهذا الموقف يدل على شدة تأثر الشيخ ﷺ بالقرآن؛ لأنَّ الإنسان- في الغالب- إذا خلصت نيته لا يبكي في الملأ إلا إذا غلبه البكاء، فبكاء الشيخ الشديد أمام الناس، وعدم القدرة على إكمال الدرس، فيه دلالة على شدة تأثر الشيخ بالقرآن، هذا ما ظهر للناس، فكيف إذا كان في خلوته؟ فلا شك أنَّ العَبرة تكون أقرب وأسرع، هذا ما توحيه الدلائل وما يحكيه عنه تلاميذه وأبناؤه.

المظهر العاشر: ظهور أثر القرآن الكريم في حياة الشيخ.

إنَّ من أهم ثمرات تدبُّر القرآن الكريم: أن يمتثل المسلم ما جاء في القرآن، ويلتزم به، فالتدبُّر الكامل هو الذي يظهر أثره على العبد، وذلك بامتثال أوامر القرآن واجتناب نواهيه، وكل

(١) ينظر: أضواء البيان: (٣/١٧-٥٣).

(٢) وعالج قضايا اقتصادية في تفسيره، ينظر: أضواء البيان: (٦/٧٦).

(٣) هذه القصة ذكر الشيخ صالح المغامسي- الداعية المعروف- أنه حضرها، وسمعتُها منه غير مرة.

من تتلمذ على يدي الشيخ الأمين ﷺ أو جالسه أو رافقه يلحظ تأثره وتعظيمه للقرآن، وأسوق بعض الجوانب التي يظهر فيها أثر القرآن على الشيخ:

الجانب الأول: زهده في الدنيا؛ قال عنه ابنه الدكتور عبدالله حفظه الله: «كان ﷺ لا يريد الدنيا، ولا يهتم بها، ويقول: الذي يفرحنا أن الدنيا لو كانت مَيْتة لأباح الله منها سد الخلة، وكان يقول: لم أقترض قط لأحد، ولم أبع، وترك لي والدي ثروة فكنت أعيش منها، وكان عندي كنز عظيم أرجو الله ألا يضيع مني؛ هو القناعة». وقال أيضًا: «وقد أخبرني أيضًا أنه كان في المدينة، وكان لا يوجد عنده أي مال، وقد وعده أحد جيرانه أن يقترض له مالًا، ولما أراد الشيخ ﷺ أن يأتيه وجده يشتغل، وعليه ملابس مبتذلة، فرجع عنه وكأنه وجد في نفسه قليلًا أنه في عازة، قال: ولم أشعر حتى خررت ساجدًا في الطريق في الغبار، ورفعت رأسي وعندي فرح ونشوة لا يعلمها إلا الله إكرامًا لما أعطاني من العلم، فكيف أريد دنيا وربي أكرمني بالعلم، وبفهم كتاب الله؟! فذهبت إلى البيت وكأن الدنيا كملت لي؛ لاستشعاري نعمة الله عليَّ بما أعطاني من فهم القرآن، وقد سد الله لي تلك الحاجة من غير أن أسأل أحدًا إكرامًا منه وفضلًا». وقال أيضًا: «كان ﷺ يخاف من الدنيا، ويكلمني بقوله: احذر من الدنيا! فإنها كالماء المالح، والشيطان يكذب عليك ويقول: اجمع الأموال لتتصدق بها، وتبني بها المدارس، وتعمل بها الأربطة، وهو يكذب عليك، يريد أن يضيع وقتك، فإذا جمعت المال لا أنت تعطيه للناس، ويشغلك عن عبادة الله، فهذا شيطان يريد أن يصرفك عمَّا هو خير لك، وأنا أَقْدَرُ الناس على أن أكون أغنى الناس، وتركت الدنيا لأني أعلم أنه إذا تلطخ بها العبد لا ينجو منها إلا مَن عصمه الله، ولم يوجب الله عليك أن تجمع الأموال لكي تتصدق بها على الناس، فاحذر يا ولدي من الدنيا! واعلم أنها كالماء المالح، وأن أهل الدنيا في شغل وتعب؛ فصاحِبُ الدنيا في النهار يشتغل في البضاعة والتجارة، وفي الليل يفكر فيها، ويموت عنها، وقد لا يترحم عليه الورثة، يقولون: هذا ماله مات عنه، فاحذر يا بني من الدنيا!»[1].

الجانب الثاني: اجتنابه للغيبة: الغيبة من أكثر الأدواء انتشارًا بين المسلمين، وهي كبيرة من كبائر الذنوب، ومع ذلك استسهلها كثير من الناس، وأطلقوا لألسنتهم العنان، فخسروا أجورهم وتحملوا أوزار غيرهم، ولم يكن الشيخ الأمين ﷺ يغتاب أحدًا، ولا يسمح بغيبة أحد في مجلسه، وكثيرًا ما يقول لإخوانه: «تكايسوا»؛ أي: من الكياسة والتحفظ من خطر الغيبة، ويقول: «إذا

(١) ينظر: جهود الشيخ في تقرير عقيدة السلف: (١/٣٨-٣٩).

كان الإنسان يعلم أنَّ كل ما يتكلم به يأتي في صحيفته، فلا يأتي فيها إلا الشيء الطيب»[1].

قال في رحلته: «ثم جئنا آخر النهار للقرية المسماة: آتية، فالتمسنا عربيًّا نبيت عنده، فدعانا رجل عربي، والله ما سألت عن اسمه ولا اسم أبيه خوفًا من الغيبة، فأنزلنا في مكان يعوي منه الكلب وأغلقه علينا من الخارج....»[2].

وقال عنه ابنه الدكتور عبدالله حفظه الله: «كان يكره الكلام في الناس، أو التكلم في الدنيا، وكان لا يرضى من طلابه ولا من جلسائه أن يغتابوا أحدًا، ويقول لهم: يا أبنائي وإخواني، إن قتل الأولاد وأخذ الأموال يهون، لكن أخذ حسناتي وأنا شايب فهذا لا سكوت عليه، هذا خور وضعف، وأنا رجل مؤمن، وهذه البقعة ملكنيها الله فلا يكون لأحد الغيبة فيها، ولا تأكلوا لي أعراض الناس، والله لو أخذتم مالي لتغاضيت عنكم، ولكن تأخذوا لي حسناتي وأنا شايب، هذا لا صبر لي عليه».

وقال أيضًا: «وقد كنت يومًا أنا وأحد الطلاب، وكان عنده شيخ يصحح عليه تأليفًا له، وكنا في مكة، فقال أحد الجلوس: (ويُكره التأليف من مقصِّر)[3]، فضحكت أنا، فغضب، وقال: يابني، ماذا فعلتُ لك؟ كيف تأكل الغيبة في المسجد الحرام؟»[4].

الجانب الثالث: ورعه عن الفتيا: قال عنه ابنه الدكتور عبدالله حفظه الله: «إنه في آخر حياته أصبح لا يتكلم إلا في كتاب أو سنة، ويقول: كلام الناس لا أضعه في ذمتي، إذا كان عندي على المسألة نص من كتاب أو سنة أقول بها، وإذا لم يكن عندي نص أقول: الله أعلم؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وفي يوم من الأيام جاءه طلبة من الكويت، وسألوه عن مسائل من الأمور المستحدثة، فقال الشيخ: أجيبكم من كتاب الله تعالى. فاشرأبت أعناق الحضور لسماع هذه الإجابة من كتاب الله تعالى، فقال: أقول لكم: الله أعلم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، والله لا أعلم فيها شيئًا من كتاب ولا سنة، وكلام الناس لا أضعه في ذمتي، اذهبوا إلى غيري»[5].

---

(١) ينظر: جهود الشيخ في تقرير عقيدة السلف: (١/٤٠).

(٢) رحلة الحج: (٨٧).

(٣) هو شطر بيت من منظومة سيدي عبدالله الشنقيطي في (طلعة الأنوار)، وتمامُه: كذاكَ إبرازٌ سوى المحرَّر.

(٤) ينظر: جهود الشيخ في تقرير عقيدة السلف: (١/٤٠).

(٥) ينظر: جهود الشيخ في تقرير عقيدة السلف: (١/٤١).



الخاتمة

وهنا وقف البحث على ثنية الوداع، وهَمَّ قِبْلِيُّ مُزْنهِ بالإقلاع، وأسطِّر في هذه الخاتمة شيئًا مما اختزنته الذاكرة من النتائج والوصايا أثناء كتابة البحث:

أولًا: ضرورة الحرص على جمع الاستنباطات التدبُّرية عند المفسرين المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين، وضمها في مؤلف.

ثانيًا: تكثيف المجالس العلميَّة الخاصة بتدبُّر القرآن الكريم، في المعاهد العلميَّة والمدارس القرآنية، والدروس العلميَّة الخاصة والعامة.

ثالثًا: هناك مجموعة من الدراسات يمكن أن تُجرى حول مؤلفات الشيخ الأمين ﷺ التفسيرية، منها:

- استنباطاته التفسيرية والتدبُّرية.
- اختياراته في المسائل التفسيرية الخلافية.
- تطبيقاته للمسائل الأصولية على القرآن الكريم.
- اختياراته اللغوية في تفسيره.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المصادر والمراجع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان.
- جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، للشيخ عبدالعزيز ين صالح بن إبراهيم الطويان، طبعة مكتبة العبيكان.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني، طبعة دار عالم الفوائد.
- رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني، طبعة دار عالم الفوائد.
- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، جمعها: الدكتور خالد السبت، طبعة دار عالم الفوائد.
- مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين، للشيخ أحمد بن محمد الأمين بن أحمد الجكني، طبعة مؤسسة غراس.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن قيم الجوزية، طبعة دار الكتاب العربي.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، طبعة دار الكتب العلميَّة.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرين، طبعة مؤسسة الرسالة.
- مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ﷺ، للشيخ عطية بن محمد سالم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الثالث:١٣٩٤هـ

الورقة الثانية

وقفات مع مجالس القرآن

للشيخ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله

إعداد

د. مولاي عمر بن حماد

جامعة محمد الخامس، الرباط.

السيرة الذاتية

الاسم: مولاي عمر بن حماد.

المؤهل العلمي:

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية (جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، ١٩٨٦م).

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) في تخصص علوم القرآن والتفسير (جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الدراسات الإسلامية، فاس، المغرب، ١٩٨٨م).

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا في تخصص علوم القرآن والتفسير (جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الدراسات الإسلامية، المحمدية، المغرب، ١٩٩١م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في تخصص علوم القرآن والتفسير (جامعة الحسن الثاني - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم الدراسات الإسلامية - المحمدية - المغرب - ٢٠٠٢م).

الخبرة العلمية:

- أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس، شعبة الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

- أشرف وناقش عددًا من رسائل الدكتوراه في مختلف الجامعات المغربية، وشارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية داخل المغرب وخارجه.

- نائب المدير العلمي لمركز المقاصد للدراسات والبحوث.

- عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ورابطة علماء أهل السنة.

مقدمة

هذه وقفات مع «مدارسات في رسالات الهدي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ»، وهو العنوان الفرعي الذي اختاره الدكتور فريد الأنصاري ﷺ لما يسر الله له تحريره ضمن مشروعه الطموح: مجالس القرآن.

فريد الأنصاري ﷺ تعالى سيرة وآثار:

قبل الحديث عن مشروع مجالس القرآن لا بد من تقديم تعريف مختصر بالرجل وبتراثه العلمي، ولقد اعتمدت في هذه الترجمة أساسًا على ما كتبه عنه أخوه عبدالحميد الأنصاري، ونشر بجريدة المحجة في العدد المزدوج ٣٣٠ـ ٣٣١ الذي صدر بعد وفاة الدكتور فريد الأنصاري ﷺ.

ولد فريد الأنصاري ﷺ في التاسع عشر من ربيع الثاني، سنة ثمانين وثلاثمئة وألف هجرية، الموافق لسنة ستين وتسعمئة وألف ميلادية، في قرية النيف، ونشأ بالجرف بإقليم الرشيدية، وكان الأستاذ فريد الأنصاري يرجع نسبه- بناء على بحث قام به بنفسه- إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة ﷺ، وقد تحدث عن نشأته في روايته «كشف المحجوب» فالبيت الموصوف في الرواية بمن فيه يكاد يكون بيت جده.

وبعد أن أكمل تعليمه الابتدائي انتقل إلى أرفود في المرحلة الإعدادية، ثم كلميمة في المرحلة الثانوية، وهناك كانت بداية احتكاكه بفكرة الدعوة الإسلامية، وكل ذلك بالجنوب الشرقي للمغرب.. التحق ﷺ بجامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس سنة ١٩٨١م وانتسب لشعبة الدراسات الإسلامية، بدأ مرحلته الجامعية متشبعًا بالفكر السلفي وبفكر تقي الدين الهلالي ﷺ، وكان في سكنه الجامعي مخالطًا لشباب جماعة الدعوة بفاس، وشباب الجمعية الإسلامية

بالقصر الكبير، وبقيت صلته بالحركة الإسلامية، وكانت آخر مهمة تحملها هي: عضوية المكتب التنفيذي لحركة التوحيد والإصلاح التي أسهم في تأسيسها، ثم ما لبث أن تحمل مسؤولية رئاسة المجلس العلمي لمدينة مكناس، ثم عين عضوًا بالمجلس العلمي الأعلى، ولم يتمكن من الجمع بين المهام الرسمية والعضوية في الحركة.

بعد حصوله على الإجازة سنة ١٩٨٥م حصل على امتياز منحة دراسية لإتمام الدراسة في فرنسا، لكنه آثر البقاء في المغرب، فالتحق بسلك تكوين المكونين فوج ١٩٨٥- ١٩٨٦ و ١٩٨٦ -١٩٨٧، وفي السنة الثانية اختار موضوعًا عن الشاطبي تحت إشراف الدكتور الشاهد البوشيخي، وهو البحث الذي طوره في مستوى دبلوم الدراسات العليا ثم الدكتوراه.

وقد عُين في بدايته بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية بشعبة الدراسات الإسلامية، ثم انتقل إلى شعبة الدراسات الإسلامية بمدينة مكناس سنة ١٩٩٤م، وقد كان أستاذًا زائرًا بدار الحديث الحسنية بالرباط بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٥.

استمر عطاؤه العلمي مدة حياته، وكان من أواخر ما اشتغل به ﷺ: تحقيق كتاب القوانين الفقهية لابن جزي، فقَبْلَ أكثر من سنتين من وفاته كان بلغ منتصف الكتاب تحقيقًا، وكانت نيته ﷺ متجهة إلى تضمين عمله شرحًا للكتاب، وعند مرضه ﷺ أوقف كل مشاريعه العلميَّة وانقطع لتفسير كتاب الله تعالى، وكأنه ﷺ كان يسابق الموت.

بدأ ﷺ مسيرة الكتابة شاعرًا وانتهى مفسرًا، ختم الله له عمله مشتغلًا بتفسير سورة آل عمران بعد أن أتم تفسير سورة البقرة وبعض سور المفصل، وقد توفاه الله ﷻ بعد معاناة مع المرض بمصحة سما بإستانبول بتركيا، وذلك يوم الجمعة ١٨ ذو القعدة ١٤٣٠هـ الموافق ٦ نوفمبر ٢٠٠٩م.

آثاره العلمية

خلّف الراحل ﷺ ثروة علمية غنية ومتنوعة مكتوبة ومرئية ومسموعة، ومن الكتب المنشورة له ﷺ:

- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية.
- أبجديات البحث في العلوم الشرعية، محاولة في التأصيل المنهجي.
- بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق.
- الدين هو الصلاة، والسجود لله باب الفرج.
- البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي.
- سيماء المرآة في الإسلام بين النفس والصورة.
- مجالس القرآن من التلقي إلى التزكية.
- مجالس القرآن، مدارسات في رسالات الهدي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ.
- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب، دراسة في التدافع الاجتماعي.
- مفاتح النور، دراسة في المصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النَّورسي.
- الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب.
- الفطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام.
- ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله.

- مفهوم العالميَّة من الكتاب إلى الربانية.
- كاشف الأحزان ومسالح الأمان.
- المصطلح الأصولي عند الشاطبي.
- هذه رسالات القرآن فمن يتلقاها؟
- قناديل الصلاة، مشاهدات في منازل الجمال، كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة.
- جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح.

ومن الأعمال الأدبية:

- جداول الروح: شعر.
- الوعد: شعر.
- ديوان الإشارات: شعر.
- آخر الفرسان: رواية.
- ديوان القصائد: شعر.
- كشف المحجوب: رواية.
- مشاهدات بديع الزمان النَّورسي: شعر.

كما أشرف الأستاذ ﷺ على مجلة باسم «رسالة القرآن» نشر فيها بحوثًا عديدة متخصصة في الدراسات القرآنية.



مشروع مجالس القرآن عند

الأستاذ فريد الأنصاري ﷺ

مجالس القرآن، هو العنوان الذي اختاره الأنصاري لعمله، ولعل هذا العنوان حكمته البداية، ثم صار علمًا للمشروع؛ أعني: أنه دعا لمجالس القرآن في الرسالة الأولى التي خرجت تحمل هذا العنوان، ثم شرع في تقديم نماذج تطبيقية لها، وكانت نماذج متناثرة، ثم عاد إلى البداية بنية تتبع المصحف من أوله إلى آخره بذات العنوان. ويظهر أن المشروع ظل يتطور وتعاد صياغته إلى أن استقر على العنوان الذي تعرف به هذه السلسلة. وهو: «مجالس القرآن، مدارسات في رسالات الهدي المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ».

المشروع بدأ بورقات قليلة «غايتها بيان منهج الاشتغال بكتاب الله، وكيفية إعادة بناء الأنفس على وزانه ووفق مقاييس تصميمه»[1]، وهي الورقات التي نصح الأنصاري بعدم الانشغال بها، وذلك حين يقول: «إذا وصلت أخي الحبيب إلى الغاية، وحصل لك الإبصار بالآيات مباشرة، وبدأت تكتسب حقائق الإيمان مشاهدة، فدع عنك هذه الوريقات وأمثالها جانبًا!»[2].

ويشرح الأستاذ فريد ﷺ دواعي التأليف بأنه تلبية منه «لرغبة ملحة من بعض محبي القرآن العظيم ورواد مجالسه العامرة، من بعد ما صدر كتيبنا السابق: بلاغ الرسالة القرآنية»[3].

والكتاب في بدايته لم يكن يزيد على أنه دليل عملي للراغبين في الانخراط في المشروع، قال ﷺ- وهو يشرح أنه إنما كتب ما كتب تلبية لطلب بعض المحبين- قال: «فرغبوا مني كتابة ورقات قلائل، تشبه أن تكون دليلًا عمليًّا لمساعدة من لا خبرة له سابقة في تدارس القرآن وتدبُّره»[4].

---

(١) مجالس القرآن ١٠.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

وعلى مستوى الاسم ظل الأستاذ ﷺ يستعمل الصالون والمجلس، ويظهر أن الذي غلب هو اسم المجالس، وهكذا وجدناه يقول: «مشروع صالونات القرآن أو مجالس القرآن، مسلك تربوي مبسط لسلوك طريق النور، قصد التعرف إلى الله تعالى، مشروع ليس لنا فيه من الاجتهاد إلا الجمع والترتيب، ومراعاة التنزيل في واقع جديد نأخذه كما هو من القرآن والسنة النبوية، مشروع لا منة فيه لأحد إلا الله، ولا فضل فيه لمبدع أو مخترع، وإنما هو كلام الله، ولا انتماء فيه لقائد أو رائد، ولا لتنظيم أو جماعة، بل هو انتساب لتعبدي لله»[1].

«مجالس القرآن منهج تربوي، أسسه محمد رسول الله ﷺ وانخرط فيه أصحابه عليهم رضوان الله، واستمروا به بعد موته ﷺ مدرسة تربوية تخرِّج أفواج التابعين»[2].

الخلاصة الكبرى التي ينتهي إليها الأستاذ فريد ﷺ هي: «فـ «مجالس القرآن» مشروع تربوي بسيط، سهل التنفيذ والتطبيق، سلس الانتشار، غايته تجديد الدين، وإعادة بناء مفاهيمه في النفس وفي المجتمع... بعيدًا عن جدل «المتكلمين الجدد»، وبعيدًا عن تعقيدات التنظيمات والهيئات.. وبعيدًا عن الانتماءات السياسية الضيقة والتصنيفات الحزبية المربكة»[3].

ويقترح الأستاذ فريد ﷺ طريقين: وللدخول في فضاء مجالس القرآن طريقتان أو صورتان، يمكن اعتماد إحداهما أو الجمع بينهما معًا، وهو أفضل: أما الأولى فهي صورة مجالس القرآن الأسرية، وتقوم على تأسيس المجلس داخل الأسرة الواحدة»[4].

«وأما الصورة الثانية من صور الدخول إلى فضاء القرآن فهي صورة صالون القرآن، ونقصد بذلك فتح صالون البيت للأحباب والأصحاب من أجل الغاية نفسها، وهي تدارس القرآن الكريم وتدبُّره، والإنصات إلى حقائقه وحكمه»[5].

---

(١) مجالس القرآن ١٤.

(٢) مجالس القرآن ١٥.

(٣) مجالس القرآن ١٦.

(٤) مجالس القرآن ١٦.

(٥) مجالس القرآن ١٩.

ويشرح الأستاذ فريد ﷺ الخطوات العملية، ويجعلها «على الإجمال ثلاث خطوات قابلة للتفصيل وهي: التلاوة بمنهج التلقي، والتعلم والتعليم بمنهج التدارس، ثم التزكية بمنهج التدبُّر»(١).

وهذه الخطوات الثلاث- بنظر الأستاذ- هي المذكورة في القرآن، ولذلك يقول بعدها: «فذلك ما ذكره الله ﷻ بإجمال عند تحديد وظائف النبوة الثلاث، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

ويعنينا من هذه الخطوات التدبُّر، وقد حدد الأستاذ مفهوم التدبُّر عنده بقوله: «التدبُّر في الاصطلاح القرآني، فهو أنك إذ تقرأ الآيات وتتعلم وتدرس، تنظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس والمجتمع»(٢).

ومثله قوله: «فتدبُّر القرآن وآيات القرآن إذن هو كما ذكرنا النظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع»(٣).

وهو بهذا يميز بين التدارس والتدبُّر فيقول: «فالتدارس هو عملية تعليمية ذهنية، تشتغل من داخل النص القرآني لا خارجه، وينتجها العقل في علاقته بنص الخطاب القرآني مباشرة، وفي ارتباطه بلغته وأساليبه على قدر ما تتيحه تلك اللغة من معان وحكم ودلالات. بينما التدبُّر عملية قلبية ذوقية محضة، فهي -وإن صاحَبَتِ التدارسَ- واقعة في النفس لا في النص، إنها حركة وجدانية تجري خارج النص القرآني، إنها تتلقى المعاني والحكم من التدارس، ثم تدخل بها إلى أعماق النفس، أو تخرج بها إلى مطالعة أحوال المجتمع لتراقب النفس والمجتمع على موازينها»(٤).

ثم هذا التدبُّر يقود إلى التفكر وهما معًا يقودان إلى الإبصار(٥).

---

(١) مجالس القرآن ٣٣.

(٢) مجالس القرآن ٤٨.

(٣) مجالس القرآن ٤٩.

(٤) مجالس القرآن ٥٠.

(٥) مجالس القرآن الصفحات ٥٠، ٥١، ٥٢.

وقد وضع الأستاذ تسعة عشر ضابطًا، هي باختصار على الشكل التالي:

الضابط الأول: تجريد القصد.

الضابط الثاني: تَحَيُّن أوقات الانشراح النفسي للقرآن.

الضابط الثالث: مراعاة أدب المجلس.

الضابط الرابع: عدم عقد أكثر من لقاء واحد أو لقاءين اثنين على الأكثر في الأسبوع الواحد، ويتفرع عنه ضابط آخر هو عدم طول وقت المجلس الواحد «في حدود ساعتين».

الضابط الخامس: احترام قواعد تدارس القرآن العظيم بمعنى الخطوات الثلاث.

الضابط السادس: مبادرة أحد الجلساء من أهل العلم أو أهل الحلم لتسيير المجلس.

الضابط السابع: أن يعمد المسير إلى إشراك الجميع.

الضابط الثامن: تجنب الجلساء الدخول في الجدل العقيم.

الضابط التاسع: الإعراض عن اللغو من القول والتنزه عن سفاسف الكلام.

الضابط العاشر: تحديد أهداف المجلس من التدارس والتذكير بذلك من حين لآخر، وههنا لا بد من التنبيه على قاعدة منهجية هامة جدًّا لهذا الأمر، وهي الحذر من استغراق الوقت كله في التفسير وتتبع أقوال المفسرين، فكل ذلك وما في معناه إنما يحتاجه أهل الاختصاص.

أما الغرض مما نحن فيه فإنما هو تحصيل الحكمة من الآية، وإتاحة الفرصة للتدبُّر والتفكر للوصول إلى الهدي المنهاجي؛ أي: ما تضمنته الآية من الهدي الرباني، فلا ينبغي أن ننسى أن غاية مجالس القرآن إنما هي التربية والتزكية؛ أي: تحصيل الربانية لا تحصيل العالميَّة... وإنما هذا برنامج مقصود به سواد الأمة وجمهورها العام»[1].

الضابط الحادي عشر: اعتماد تفسير مختصر- وليس كتفسير الإمام أبي جعفر الطبري- أوفى بالمقصود.

---

(١) مجالس القرآن ٦٣، ٦٤.

الضابط الثاني عشر: يقرأ من القرآن أولًا مما هو مقصود بالتدارس لذلك المجلس.

الضابط الثالث عشر: قراءة خلاصة التفسير قراءة مسموعة هادئة مفصلة.

الضابط الرابع عشر: تناول قدر قليل من الآيات يشكل معنًى يَحْسُن السكوت عليه، سواء كانت آية واحدة أو ثلاث آيات أو خمسًا أو سبعًا، بشرط ألا يتعدى المقدار المدروس من ذلك كله نصف ثمن الحزب.

الضابط الخامس عشر: يتحقق من الفهم العام للمعاني التي وردت بها.

الضابط السادس عشر: إذا اتضح المعنى وجب بعد ذلك مباشرة الدخول في محاولة التعرف على الهدي المنهاجي للآية أو الآيات، وهو عين الحِكَمِ المطلوب تعلمها مما ورد في آيات وظائف النبوة: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

الضابط السابع عشر: وبمعرفة ما تيسر من الحِكَمِ والمقاصد نفتح باب التدبُّر للآيات، والتفكر في خلق الأنفس والأرض والسموات، وذلك لغاية التخلق بأخلاق القرآن الكريم، والاتصاف السلوكي بحكمه العظيمة.

الضابط الثامن عشر: إذا تمت مدارسة سورة بكاملها مجزأة، لا بد من محاولة قطف الثمار الجامعة، وهي القضايا الأساسية التي تعالجها، ثم المحور الرئيس للسورة على الإجمال.

الضابط التاسع عشر: وهو الضابط الجامع كما سماه الأستاذ فريد ﷺ، وهو الضابط الكلي الجامع لضمان سير مجالس القرآن ونجاحها، وهو الحفاظ على ميثاق القرآن العظيم والالتزام به بقوة... وهو عهدان: عهد فعل، وعهد ترك:

عهد الفعل الأول: الحفاظ على الصلوات المفروضة بالمسجد. والثاني: الحفاظ على تلاوة جزء من القرآن. والثالث: الالتزام بضم جليس جديد أو جدد إلى مجالس القرآن. ويرى الأستاذ أن الآية الجامعة الدالة على ذلك كله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف]، تمسيك بالكتاب أولًا، وإقامة الصلاة ثانيًا، ثم الانطلاق إلى الإصلاح والدعوة إلى الخير ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

أما عهد الترك فهو يتلخص في أمور ثلاثة، وهي: ترك المال الحرام، وترك الزنا، وترك الخمر.

هذه هي الضوابط التي وضعها الأستاذ لمجالس القرآن، ولقد جعلها بعد ذلك عشرين ضابطًا، وذلك بعد أن جعل ضابطًا فرعيًّا نص عليه من قبل ضابطًا مستقلًّا.



منهج مجالس القرآن كما تحدث عنه
الأستاذ فريد الأنصاري ﷺ

لقد أعاد الأستاذ ﷺ تضمين الأجزاء التي تلت نص الرسالة الأولى، مجالس القرآن من التلقي إلى التزكية، مع تعديلات طفيفة، فمن أول الكتاب ص٧ إلى قوله: «والله المستعان» ص ١١ هو نفس النص في الكتاب الأول مجالس القرآن، ومثله من ص٤٩ إلى ص ٩٤ هو نفس مجالس القرآن مع تعديلات طفيفة جدًّا، وحذف منه فقط تاريخ كتابته الذي يعود لـ٢٠٠٤م.

وعرض الأستاذ فريد الأنصاري لمنهجه في القسم الثاني الخاص بالمدارسات القرآنية: «فهذا هو القسم الثاني من كتاب مجالس القرآن وهو القسم العملي لمشروعنا الدعوي، إنه محاولة لتلقي ما أذن الله فيه من رسالات القرآن وما يسره من هداها، وذلك من تدارس آياته كلمة كلمة، وهو نموذج تطبيقي لما يمكن أن يكون أرضية للمتدارسين لكتاب الله تعالى بمجالس القرآن، أنجزنا منه ما يسر الله من مجالس سورة الفاتحة، وسورة الفرقان، وسورة يس، ثم سورة الحجرات، وقد قصدنا أن نجعل هذا الكتاب متضمنًا لهذه السور الأربع بالذات، نظرًا للأمور التالية»[1].

وفي ذات الجزء حدد الأستاذ ﷺ المنهج الذي يسير عليه في عرض رسالات القرآن، وهو يتكون من خطوات سبع: تقديم، ثم تحديد للمجالس، ثم كلمات الابتلاء، ثم البيان العام، ثم الهدي المنهاجي، ثم مسلك التخلق، ثم الخاتمة. وتفصيل ذلك على النحو التالي:

أولًا: تقديم، وذلك بتقديم السورة المقصودة بالمدارسة تقديمًا كليًّا يلخص قضيتها ويعرِّف بشخصيتها.

---

(١) مجالس القرآن الجزء ٩٧.

وهنا نلاحظ أنه جعل هذا الأمر ثمرة المدارسة في الكتاب الأول، وهو الذي جعله الضابط الثامن عشر الذي أصبح التاسع عشر بعد التعديل، وفيه أن المطلوب بعد التجزيء هو محاولة قطف الثمرات من ثمار الدراسات، ومنها التعرف على المحور الرئيس للسورة على الإجمال، فلكل سورة من القرآن العظيم شخصيتها المستقلة.

ثانيًا: المجالس، حيث يتم تقسيم السورة إلى مجموعة من المجالس... وجعل كل مجلس مقتصرًا على مجموعة من الآيات.

وهنا نلاحظ أنه يجعل الأمر بين خمس آيات أو سبع، ويستدل له بأنه على نحو ما كان ينزل من الآيات منجمًا. وهذا غير دقيق؛ إذ من المعلوم أن تنجيم القرآن ليس بهذا الحجم دائمًا، بل قد تنزل سور كاملة مثل سورة الأنعام، وما ينزل مفرقًا لم يكن يدور فقط بين خمس وسبع آيات، فالنزول شيء، والاستيعاب والتدبُّر شيء آخر.

وجعل ذلك بحسب قدرة الجلساء أولى، ولذلك قال: «وربما اقتصر المجلس على آية واحدة فقط، إذا تبين أنها تحمل من الرسالات ما يستلزم وقتًا أطول لتلقي حقائقها الإيمانية...»[1].

ثالثًا: كلمات الابتلاء، وهو الاسم الذي اختاره الأستاذ لمجموع الآيات التي هي موضوع الدرس، وبعد شرحه لوجه التسمية ينتهي به القول: «ذلك هو القرآن، وتلك هي كلماته، ومن رام الاشتغال بدعوته خارج هذه الحقيقة المنهاجية فقد رام المحال»[2].

والملاحَظ هنا أيضًا أن الأستاذ اختار أمرًا فيه سعة، وجعله على وجه واحد، وزاد بأن جعل الاشتغال خارجه من المحال، وأظن ذلك من المبالغة التي لا يدعمها الدليل العلمي.

رابعًا: البيان العام، وفيه يورد خلاصة تفسيرية، وهي: «عرض لخلاصة ما قاله المفسرون في الآيات موضوع الدرس، وما مَنَّ الله به إزاءها من معان»[3].

---

(١) مجالس القرآن الجزء ١٠١.

(٢) مجالس القرآن الجزء ١٠٣.

(٣) مجالس القرآن الجزء ١٠٣.

خامسًا: الهدى المنهاجي والمقصود به: «هو ما تحصل للقلب من الكلمات المتلوة أعلاه، بعد التدبُّر من رسالات منهاجية توضح خطوات السير القلبي إلى الله دينًا ودعوةً، تعرُّفًا إليه وتعريفًا به تعالى، وتبين مسلك بناء الشخصية الإسلامية في كل ما يلزمها من معان تعبدية عمرانية مما جاء هذا القرآن لبنائه في الإنسان فردًا وجماعة في طريق إخراج الأمة المسلمة»(١).

ويشير الأستاذ فريد ﷺ إلى أن الهدي المنهاجي من اصطلاح أستاذنا وأستاذ الأجيال الدكتور الشاهد البوشيخي رائد المدرسة القرآنية بالمغرب تعليمًا ودعوة.

ولما كان الأمر كذلك- وهو كذلك فعلًا- فقد صدر لأستاذنا الدكتور الشاهد البوشيخي في هذه السنة كتاب «نظرات في الهدي المنهاجي في القرآن الكريم من خلال السور حسب ترتيب النزول»، وهو من إعداد وتقديم الدكتور محمد البنعيادي، وفيه تحديد لمفهوم الهدي المنهاجي والمقصود به: هو الطريقة المثلى في التفكير وفي التعبير وفي التدبير، وحين نقول: الهدي المنهاجي في القرآن نقصد به: الطريقة المثلى في أداء الخلافة، وفي أداء العبادة، وفي أداء الشهادة(٢).

أما مصادر الهدي المنهاجي فـ«تتلخص في ثلاثة مصادر كبرى هي؛ أولًا: القرآن الكريم فهو الأصل لغيره. ثانيًا: السنة التي هي بيان القرآن، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. ثالثًا: السيرة النبوية»(٣).

ولنا أن نقول بعد هذا وباختصار شديد: بأن المصطلح من الأستاذ، ولكن الدلالة التي أعطاه الأستاذ فريد هي بعض من دلالته التي يقدمه بها الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي حفظه الله تعالى.

سادسًا: مسلك التخلق، ويقصد به بيان المسلك العملي للدخول في تلك الحقائق الإيمانية جميعا(٤).

سابعًا: خاتمة، وفيها يقول ﷺ: «حتى إذا كان المجلس الخاتم جعلنا بعده مباشرة «خاتمة» ترجع على أهم حقائق السورة المدروسة بالتذكير، مع علاقتها بالنفس تحقيقًا وتقويمًا»(٥).

---

(١) مجالس القرآن الجزء ١٠٤.

(٢) نظرات في الهدي المنهاجي ١٣.

(٣) نفسه ١٤.

(٤) مجالس القرآن الجزء الأول ١٠٤.

(٥) نفسه ١٠٤.

السور التي تناولها بالمدارسة:

الوريقات التي كتبها الأستاذ في البداية ودعا إلى إلقائها جانبًا لم يكن مصيرها كذلك، بل احتاجت إلى تطبيق عملي على سور بعينها، والطريف أن ذات النص سيتكرر مع الأجزاء التطبيقيَّة التي تلتها، أعني: قوله إن الذي كتبه إنما هو دليل لا ينبغي أن يحجب عن القرآن. والحقيقة هي: أن التفسير هو في أصله تقريب القرآن، لكن حين ينحرف عن دوره يصير حجابًا. وهكذا وجدنا الأستاذ فريد نفسه يعود لكتب التفسير من أجل الإحاطة بالقرآن.

وقد كان الجزء الأول في التطبيق يتكون من سور الفاتحة والفرقان ويس ثم الحجرات، وقد حاول الأنصاري ﷺ تبرير اختياره لهذه السور، ويمكن القول: إن منطق الانتقاء والتمثيل هو الذي حكم الاختيار، وإلا فما قاله عن السور الأربعة مشترك مع سور أخرى في القرآن الكريم، أما المجالس التي حددها لهذه السورة فكانت كما يلي:

- سورة الفاتحة، وتتضمن خمسة مجالس[1].
- سورة الفرقان، وتتضمن خمسة عشر مجلسًا[2].
- سورة يس، وتتضمن تسعة مجالس[3].
- سورة الحجرات، وتتضمن خمسة مجالس[4].

ويتضح هنا أن الأمر لا يتعلق بعدد الآيات، فهذه الفاتحة مجالسها تقريبًا بعدد آياتها، وهذه سورة يس عدد آياتها ٨٣؛ أي: تزيد على سورة الفرقان بخمس آيات من جهة العد، ولكن المجالس في الفرقان ١٥ وهي في سورة يس لا تزيد على تسع.

(١) مجالس القرآن الجزء الأول١٠٧.

(٢) نفسه ١٥٣.

(٣) نفسه ٢٨٩.

(٤) نفسه ٣٥٩.

ثم كان الجزء الثاني، وهو يتضمن مجالس سورة «ق» وسورة الذاريات، وسورة الطور، ثم سورة النجم، ولم يكن وراء اختيار هذه السورة إلا علة واحدة وهي أنها «السور الأربع الموالية في ترتيب المصحف لسورة الحجرات»[1]. وهذا تعليل دقيق للاختيار عكس ما كان في تفسير السور التي بدأ بها، وهذه أيضًا نقطة خالف فيها الأستاذ فريد ﷺ الدكتور الشاهد البوشيخي كونه لم يراع ترتيب النزول كما يدعو إلى ذلك، بل سار مع ترتيب المصحف بدءًا من سورة الحجرات، ثم جاء الجزء الأخير والذي عاد فيه لأول الترتيب؛ أي: الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، وهي السورة التي لم يتمها ﷺ.

وقد كانت مجالس السور متفاوتة على الشكل التالي:

سورة ق وتتضمن ثلاثة مجالس:

- سورة الذاريات وتتضمن ثلاثة مجالس.
- سورة الطور وتتضمن مجلسين.
- سورة النجم وتتضمن ثلاثة مجالس.

ثم كان الجزء الثالث، وحقه أن يكون الأول مع ضم سورة الفاتحة إليه لمراعاة ترتيب المصحف، وقد تضمن هذا الجزء:

- سورة البقرة، وتتضمن تسعة وثلاثين مجلسًا[2].
- سورة آل عمران، وقد خصها بعبارة فريدة، قال: «وتقع مدارستها في ثلاثة وعشرين مجلسًا»[3].

(١) مجالس القرآن الجزء الثاني ١٤.

(٢) مجالس القرآن الجزء الثالث ٢٩.

(٣) نفسه ٦٤٥.

وكأنه إنما قسمها تقسيمًا افتراضيًّا قابلًا للتعديل، إلا أن المنية وافته عند المجلس الرابع، وآخر ما كتب هو مسلك التخلق ضمن التقسيم الذي سبق عرضه من قبل، وفيه كان الحديث عن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران]؛ فقال ﷺ عن مسلك التخلق: «وهو ههنا في بيان كيفية التحقق بمقام المحبة، الذي هو طريق الربانية ومسلكها القريب»[1].

وقد كان مجموع المجالس التي تدارسها في هذا المشروع الطموح هي ٤٣ مجلسًا في الجزء الأول، و١١ مجلسًا في الجزء الثاني، و٤٣ مجلسًا في الجزء الأخير، فيكون المجموع العام هو٨٨ مجلسًا.

(١) نفسه ٧٤١.



خلاصة الوقفات مع مجالس القرآن

سبقت الإشارة إلى بعض الملاحظات عن المشروع الذي نظر له الأستاذ فريد ﷺ واجتهد في تنزيله، وأحاول في هذه العجالة تجميع بعض الملاحظات الكبرى على المشروع على النحو التالي:

- يمكن لكل متتبع ملاحظة الفرق بين الرسالة الأولى المبشِّرة بالمشروع، وبين الأجزاء التي جاءت بعدها من صور التطبيق، لقد جاءت الرسالة الأولى تنظيرية، لكن الذي جاء بعدها هو ضرب من التفسير لا يلتزم بأصل المشروع كما وضع.

- السور التي تناولها الأستاذ فريد ﷺ، تتجلى فيها محاولة للجمع بين منهج بديع الزمان النَّورسي ﷺ في تناول القرآن، ومحاولة تنزيل ما يدعو إليه الدكتور الشاهد البوشيخي من الهدي المنهاجي، مع مسحة أدبية تربوية بينة للأنصاري ﷺ. وهذا ما يشير إليه ﷺ حين يقول: «هذه المدارسات مدينة- بعد الله تعالى- إلى أستاذنا وأستاذ الأجيال الدكتور الشاهد البوشيخي رائد المدرسة القرآنية بالمغرب تعليمًا ودعوة؛ كما أنني استفدت في ذلك من كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان النَّورسي ﷺ، فقد كان لمنهجيته التربوية الفريدة في التعامل مع القرآن الكريم أثر بارز في توجيه هذه المدارسات»[1].

- في الرسالة الأولى كان التوجيه فيها للعموم، وهكذا جاء المقترح بخصوص كتب التفسير بالاكتفاء بكتابٍ مختصرٍ في التفسير، لكن عند التنزيل نجد الأستاذ ﷺ ينص على أغلب ما كان يعود إليه من كتب التفسير، بدءًا من تفسير ابن جرير الطبري، وابن كثير، ثم الكشاف

(١) مجالس القرآن الجزء الثاني ١٤.



للزمخشري، ومعالم التنزيل للبغوي، والمحرر الوجيز لابن عطية، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ومفاتيح الغيب للرازي، ونظم الدرر للبقاعي، والدر المنثور للسيوطي، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، رحمة الله عليهم جميعًا[1].

ومعلومٌ أن هذه هي أغلب كتب التفسير المتداولة، والذي تيسر له العودة إلى هذه الكتب ثم اختصر أو عبر عن مضمونها بصيغة أخرى أو حاول تنزيل ذات المضمون على العصر الحالي وقضاياه فلا إنكار عليه.

- في مرات عديدة يستدل الأستاذ بالنص على أمر قرره دون أن يكون النص المستدل به يشهد لذلك حقيقة، ومن ذلك ما قاله عند حديثه عن الحاجة إلى مجالس النساء ضمن مجالس القرآن، قال: «ومن أهم الصور الضرورية لمجالس القرآن التي ينبغي أن تبادر الأمة إلى إنتاجها مجالس النساء، وقد كان ذلك موجودًا ومطلوبًا على عهد رسول الله ﷺ، بل هو الذي أسسها عليه الصلاة والسلام بنفسه وأشرف عليها بذاته، فقد ترجم البخاري في صحيحه باب: هل يُجعل للنساء يوم على حدة في العلم؟ ثم أخرج بسنده ﷺ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قالت النساء للنبي ﷺ: غلَبَنا عليك الرجالُ، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن[2][3].

ومعلوم أن هذا الحديث هو كما في ترجمته في الصحيح، وليس تأسيسًا لمجالس القرآن أو صالونات القرآن كما يدعو لها الأستاذ ﷺ.

- ومن ذلك: ما قاله ﷺ عن سورة الفرقان، وهو يبرر اختيارها ضمن السور الأربع، يقول: «وهي تقع بأواسط القرآن، فقد تبين لنا أنها السورة المعرِّفة بالقرآن الكريم وبدعوته بامتياز، كان الداخل إليها ينظر إلى قصر القرآن من وسطه...»[4].

---

(١) مجالس القرآن، الجزء الأول ١٥.

(٢) أخرجه البخاري (١٠١/٣٢/١) ومسلم (٢٦٣٣/٢٠٢٨/٤).

(٣) مجالس القرآن ٧٤.

(٤) مجالس القرآن، الجزء الأول ٩٧.



- يصرح الأستاذ فريد الأنصاري في مشروعه هذا عن تحول شخصي، وعن تجربة ذاتية؛ وذلك في قوله مثلًا: «ولقد تهت زمانًا طويلًا في طريق البحث عن الحق في الشأن الدعوي حتى مَنَّ الله عليَّ بالهُدى، ولقد وجدت الهدى كل الهدى في كتاب الله»[1]. ويخيل إليَّ أن الذي يقوله فيه ضرب من المبالغة؛ لأن المسار الدعوي الذي سلكه الأستاذ الأنصاري ومركزية القرآن فيه أشهر من أن يستدل لها.

- إن الذي ينكره الأستاذ فريد ﷺ في التنظيمات والحركات الإسلامية هو مما يحتاجه أي مشروع دعوي، ولذلك وجدنا الأستاذ يضع عشرين ضابطًا لنجاح مجالس القرآن توقيتًا وعددًا وهيئة ومدة، وتفاصيل أخرى كثيرة تصل إلى الحديث عما يجوز من الأكل والشرب في المجلس، فينصح بعدم إثقال المجلس بالطعام والشراب، ثم يستدرك ويقول: «فإن كان ولا بد فشاي وحلوى قليلة، أو فاكهة أو ما شابه ذلك مما لا مؤنة فيه ولا كلفة»[2].

(١) مجالس القرآن الجزء الثاني ١٥.

(٢) مجالس القرآن ٥٥.

الورقة الثالثة

منهجية التدبُّر عند الشيخ ابن عثيمين ﷺ

إعداد

د. عبدالله بن عبدالعزيز العواجي

عضو هيئة التدريس في قسم الدراسات الإسلامية

بكلية التربية في جامعة المجمعة

السيرة الذاتية

الاسم: عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد العواجي.

المؤهل العلمي:

- بكالوريوس كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بتقدير ممتاز (الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة -١٤١١هـ).

- ماجستير كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بتقدير ممتاز (الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - ١٤١٦هـ).

- دكتوراه كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بتقدير ممتاز (الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - ١٤٢٠هـ).

الخبرة العلمية:

- عضو هيئة التدريس في قسم الدراسات الإسلامية في كلية التربية في جامعة المجمعة.

- أستاذ مساعد في كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية.

- أشرف على عشر رسائل ماجستير، وناقش أكثر من ثلاثين رسالة ماجستير.



مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وقد خلق الله تعالى الخلق، وشرح الشرع لغاية عظيمة، وهي عبادته تعالى وحده، وألا يُعبد إلا بما شرع، وجعل الطريق إلى معرفة ذلك كتابه تعالى، الذي أنزله على رسول ﷺ، وسنة رسوله ﷺ.

وجعل الله كتابه العظيم ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣]، ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وجعل الله ﷻ من أعظم مقاصد إنزال القرآن علينا: الانتفاع به عِلمًا وعملًا، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

إن من أعظم بركات هذا الكتاب الدينية والدنيوية: ما حصل به من الاهتداء، والرحمة، والبشارة، والشفاء، والبصيرة، وجلاء الأحزان، والظفر بأعظم المعارف وأنفعها.

فالعيش في رحاب القرآن العظيم نعمة لا تعدلها نعمة، والبَشَر في ضرورة إليها كضرورتهم إلى الطعام والشراب، بل أشد، «وحاجة الأمة ماسة إلى القرآن»[١].

ولذا عد بعض العلماء تدبُّر القرآن من الواجبات، ومنهم الإمام محمد بن صالح العثيمين[٢].

وقد كانت هذه حال السلف الصالحين من هذه الأمة، وهي تدبُّر القرآن لتحصيل أصح العلوم وأصلح الأعمال والأحوال من القرآن العظيم، وسار على نهجهم علماء المسلمين من مفسرين وغيرهم.

وقد كان من المبهجات في هذا العصر: عودة المسلمين إلى كتاب الله تعالى حفظًا، وفهمًا، وتدبُّرًا، وكان من جملة الأسباب الدافعة إلى ذلك: الجهود التي بذلها بعض علماء العصر في العناية بهدايات القرآن العظيم، وإبرازها للناس، مما تميزت به مدرسة العصر على ما سبقها في درس التفسير.

ومن أبرز أساتذة هذه المدرسة وعلمائها: الإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ثم تلميذه العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمهم الله جميعًا، فقد كان لهما عناية ظاهرة غير مسبوقة بإبراز الفوائد المستخرجة من الآيات، بتحقيق للمعاني، وباستثمار للآيات القرآنية بأسلوب واضح سهل، ومنهجية مطردة سليمة.

وقد صاحب هذه النهضة شيء يسير من الانفلات عن ضوابط التدبُّر الصحيح بمثارات من الغلط، أهمها: الحرص على التجديد والإغراب.

---

(١) مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية، وأصول التفسير، دار القرآن الكريم ببيروت، (ص: ٢)، وشرح الشيخ ابن عثيمين لها، ط دار الوطن ١٤١٥ه، (ص: ١٠).

(٢) تفسير القرآن الكريم لمحمد بن صالح العثيمين (الفاتحة - البقرة)، دار ابن الجوزي، ١٤٢٣(١/٢٨)، انظر: تدبُّر القرآن الكريم، لعبداللطيف التويجري (ص: ٥٩).

وكان ضمن العلاجات لضبط التدبُّر: النظر في مناهج علماء المسلمين فيه لاحتذائها، ولاسيما المكثرين المتقنين، ومنهم الإمام ابن عثيمين ﷺ.

وتأتي هذه الورقة استجابة لطلب بحث حول منهجية الشيخ في تدبُّر القرآن العظيم، تحت عنوان: منهجية التدبُّر عند العلامة محمد بن صالح العثيمين.

أهمية الموضوع:

وتبرز أهمية هذا الموضوع من أهمية مفردات عنوان البحث:

المنهجية «أهمية ضبط المنهج وتصحيحه».

أهمية التدبُّر.

عظمة القرآن العظيم.

تميُّز الإمام ابن عثيمين ﷺ في العلم والعمل، وسبْقُه في التدبُّر خاصة بما لم يلحق ولم يسبق إليه من كَثْرَةِ التدبُّر مع صحته.

خطة البحث:

قد قسمته إلى تمهيد، وثلاثة مباحث.

التمهيد: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف موجز بالشيخ ابن عثيمين، وفيه ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: حياته الشخصية.

المسألة الثانية: حياته العلميَّة.

المسألة الثالثة: أبرز صفاته.

المطلب الثاني: تعريف التدبُّر.

المبحث الأول: صحة التدبُّر، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: صحة منهج التفسير.

المطلب الثاني: صحة دلالة الآية على المعنى.

المطلب الثالث: صحة المعنى في نفسه.

المطلب الرابع: صحة الاعتقاد.

المطلب الخامس: إقامة الأدلة على التدبُّر.

المطلب السادس: مجانبة مثارات الغلط في التدبُّر.

المبحث الثاني: سعة التدبُّر، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: سعة الدلالات.

المطلب الثاني: سعة الموضوعات.

المطلب الثالث: سعة التفسير.

المبحث الثالث: فروع منهجية للتدبُّر عند الشيخ ابن عثيمين، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الربط بالواقع.

المطلب الثاني: الإجابة عن أسئلة التدبُّر.

المطلب الثالث: التفريع على التدبُّر.

المطلب الرابع: ذكر مآخذ التدبُّر.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المراجع.

وبالله أستعين أن يجعل هذا البحث مباركًا عليَّ، وعلى كل من قرأه وانتفع به.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



تمهيد

المطلب الأول: تعريف موجز بالشيخ ابن عثيمين:

المسألة الأولى: حياته الشخصية:

اسمه ونسبه:

هو أبو عبدالله محمد بن صالح بن سليمان بن عبدالرحمن بن عثمان- وهو الذي أُطلق عليه «عثيمين» واشتهرت أسرته به.

من آل مقبل، من آل ريس الوهيبي التميمي[1].

مولده:

ولد الشيخ في مدينة عنيزة من القصيم، في السابع والعشرين من رمضان، عام سبعة وأربعين وثلاثمئة وألف من الهجرة[2].

وفاته:

مرض الشيخ ﷺ في آخر حياته بسرطان القولون، وفي عصر اليوم الخامس عشر من شهر شوال من عام إحدى وعشرين وأربعمئة وألف توفي ﷺ [3].

---

(١) الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين، وليد الحسين، ط مجلة الحكمة، ط١، ١٤٢٢هـ (ص: ١٠) جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن، د/ أحمد البريدي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٦هـ (ص: ٣٠). الشيخ ابن عثيمين جهوده وآراؤه في علوم البلاغة، د/ منير محمد، الدحام، دار ابن حزم، ط١، ١٤٣٤هـ (ص: ٢٨). ابن عثيمين الإمام الزاهد، د/ ناصر بن مسفر الزهراني، ط دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢هـ (ص: ٢٧). الدر الثمين (ص: ١٧)، الشيخ محمد صالح العثيمين من العلماء الربانيين، عبدالمحسن العباد، دار الإمام أحمد، القاهرة، ١٤٢٤هـ (ص: ٥).

(٢) الجامع (ص: ١٠)، جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٢٩)، ابن عثيمين الإمام الزاهد (ص: ٢٧).

(٣) الجامع (ص: ١٧٣)، جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٣١)، ابن عثيمين الإمام الزاهد (٣٠).

المسألة الثانية: حياته العلميَّة

أبرز شيوخه[1]:

العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي ﷺ (ت ١٣٧٦هـ)، لازمه الشيخ ست عشرة سنة تقريبًا.

الإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ﷺ (ت ١٤٢٠هـ).

العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ﷺ (ت ١٣٩٣هـ).

ب) أبرز تلاميذه[2]:

أ.د/ أحمد بن عبدالرحمن القاضي.

أ.د/ أحمد بن محمد الخليل.

أ.د/ خالد بن عبدالله المصلح.

أ.د/ خالد بن علي المشيقح.

أ.د/ سامي بن محمد الصقير.

أ.د/ عبدالرحمن بن صالح الدهش.

أ.د/ عبدالله بن محمد الطيار.

أ.د/ محمد بن صالح البراك.

ج) أهم أعمالـه[3]:

وقف الشيخ حياته في سبيل الله تعالى، وسلك في تلك السبيل طرقًا منها:

- التدريس: في الحرمين، وفي مسجده، وفي المعهد العلمي، وفي الجامعة.
- الدعوة إلى الله تعالى عن طريق المحاضرات، وفي مواسم الحج وغيره.
- الخطابة في الجامع الكبير في عنيزة.
- المشاركة الإعلامية الدعوية والتعليمية.
- التأليف ابتداء، أو مراجعة لما كان أصله دروسًا علمية أو محاضرات.

(١) الجامع (ص: ٤٨-٤٩)، جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٣٠)، الشيخ ابن عثيمين جهوده وآراؤه (ص: ٣١).

(٢) الجامع (ص: ٥٠-٥٧)، جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٣٤)، الشيخ ابن عثيمين جهوده وآراؤه (ص: ٣٤).

(٣) الجامع (ص: ٥٤)، جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٣٧).

د) ذكر أهم مؤلفاتـه[1]:

لقد خلَّف العلامة ابن عثيمين ﷺ تعالى علمًا واسعًا نافعًا، محفوظًا في الكتب، ومسجلًا بصوته ﷺ، وكتبه على نوعين:

- ما ألفه ابتداءً، ومن أبرزها المقررات في المعاهد العلميَّة: الإلمام بتفسير آيات الأحكام، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية، والأصول من الأصول، وأصول التفسير، ومنها: القواعد المثلى في أسماء الله وصفاته الحسنى.

- ما كان أَصْلُه دروسًا ألقاها الشيخ فحفظت ثم كتبت، وراجع بعضها بنفسه، وبعضها لم يراجعه، فبعضها راجعته المؤسسة، وبعضها نشر من غير مراجعة، ومن أبرز هذا النوع:

تفسير القرآن العظيم.

أحكام القرآن الكريم.

فتاوى أركان الإسلام.

مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع فهد بن ناصر السليمان.

الشرح الممتع على زاد المستقنع.

شرح بلوغ المرام.

شرح رياض الصالحين.

فقه العبادات.

شرح العقيدة الواسطية.

القول المفيد على كتاب التوحيد.

المسألة: الثالثة أبرز صفاتـه:

لقد كان الإمام العلامة ابن عثيمين ﷺ مثالًا حيًّا في هذا العصر للالتزام بالسنة النبوية في جميع مجالاتها، ومن أوسع أبوابها: باب الأخلاق والصفات، الذي كان له أثر في الفتح في فهم كلام الله تعالى.

---

(١) الجامع (ص: ١٤٧-١٦٤)، جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٤٠-٥٤).

ومن أبرز ما هو ظاهر في تطبيق الشيخ، منها[1]:

الإخلاص لله تعالى.

الاعتصام بالكتاب والسنة، ونبذ الحزبيات.

التواضع والقرب من عامة الناس.

الصبر والمثابرة.

الصدق.

الزهد في الدنيا.

الورع.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قضاء حوائج الناس، والمشاركة في الأعمال الخيرية.

التزام أدب الخلاف والحوار، وتجنب الجدال والردود.

الدقة والتثبت والتبين.

الحرص على استغلال الوقت بالصالحات.

المشاركة في الدعوة إلى الله ﷻ على بصيرة وبحكمة.

العناية بالطلاب وتربيتهم وتوجيههم.

التأصيل، والمنهجية العلميَّة المنضبطة.

العناية بالشباب والنساء، وأحوال المسلمين في العالم.

---

(١) انظر: الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين (ص: ١٤، ٢٦، ٥٨، ٦٤، ١٣٩، ١٤٦)، ابن عثيمين الإمام الزاهد (ص: ٤٨، ٥٤، ٦١، ٦٥، ٨٥، ٩٥،٩٠، ٩٨، ١٢١، ١٣٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٩، ١٦٧، ١٧٣)، وندوة جهود الشيخ ابن عثيمين العلميَّة، طبعة جامعة القصيم، (٢٦/١-٢٩).

رجاحة العقل، والذكاء، والفطنة، والحكمة.

علو الهمة.

الهيبة.

الرحمة.

النظام.

المطلب الثاني: تعريف التدبُّر:

اختلفت ألفاظ المعرِّفين للتدبُّر من اللغويين والمفسرين وغيرهم، واختلافهم ليس باختلاف حقيقي.

ومن أبرز ما جاء في تعريف التدبُّر عند اللغويين:

قول ابن منظور في اللسان: «تدبُّرُ الكلام: النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة...، فالتدبُّر في الأمر: التفكر فيه»(١).

ومن أحسن ما جاء في تعريفه عند المفسرين: في تفسير آيات التدبُّر:

قول مقاتل بن سليمان: «هو التأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر في مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك»(٢).

وقول الزمخشري: «تدبُّر القرآن: تأمُّل معانيه وتبصر ما فيه»(٣). وبنحوه قال البيضاوي(٤).

وقال القرطبي: «هو التفكر فيه وفي معانيه»(٥).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، ط دار صادر، ط٣، ١٤١٤، (٢٦٨/٤). ١٤١٤ (٢٦٨/٤).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق عبدالله محمود شحاتة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ (٣٣٥/١).

(٣) الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، (٤٣٨/١).

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ

(٥) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وآخرين، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ (٢٩٠/٥).

وقال الطاهر بن عاشور: «التدبُّر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصِبت له، أصله من النظر في دبر الأمر؛ أي: فيما لا يظهر منه للمتأمِّل بادئ ذي بَدْء»[1].

وقال عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: «هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة»[2].

ومن أجمع وأحسن تعريفات التدبُّر: تعريف الشيخ محمد الربيعة:

بأنه الوقوف مع الآيات، والتأمُّل فيها، للانتفاع بها إيمانًا، وعملًا، وعلمًا[3].

والمقصود بالتدبُّر في هذا البحث بعضه لا كله، وهو التدبُّر التعليمي «الاجتماعي» الذي يكون في درس علمي بمحفل من العامة وطلاب العلم، أو وسيلة إعلامية أو كتاب.

ومنه: النظر في بيان معنى الآية حال خفائه، والنظر في الأقوال المختلفة في تفسيرها، وهذا من علم التفسير، كما يدخل فيه: الاستنباط لأنواع المستنبطات من الفوائد الخفية: العقدية، والفقهية، والسلوكية، واللغوية، والأصولية. ويدخل فيه: تنزيل الآيات على الحوادث لأحوال الحياة اليومية[4].

وأما التدبُّر النفسي: «القلبي» «الخاص» الذي منه التأثر بالقرآن والخضوع عنده، وتحصيل العلوم النافعة منه، والأعمال الصالحة على النفس دون تقرير ذلك تعليميًّا، فليس هو المقصود بهذا البحث وإن كان هو معظم التدبُّر[5].

---

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية - تونس، ١٩٨٤م (٧١/١٨).

(٢) قواعد التدبُّر الأمثل، لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ط٤، ١٤٣٠ه، دار القلم بدمشق (ص: ١٠).

(٣) أبحاث مفهوم التدبُّر تحرير وتأصيل، أوراق عمل الملتقى الأول لتدبُّر القرآن الكريم، ط١، ١٤٣٠ه، (ص: ١٧٨).

(٤) مستفاد من بحث للشيخ مساعد الطيار، ضمن أبحاث: مفهوم التدبُّر تحرير وتأصيل (ص: ٨٣).

(٥) انظر: تدبُّر القرآن الكريم، عبداللطيف التويجري، ط١، ١٤٣٦، (ص: ٣١-٦٤).



المبحث الأول

صحّة التدبر

المطلب الأول: صحة منهج التـفسير:

التفسير أشرف العلوم وأجلُّها، فموضوعه كلام الله تعالى، وكل كمال مفتقر إلى العلم بالقرآن.

والتفسير مفتاح الكنوز العظيمة التي حواها القرآن العظيم، وبفهم المسلم للقرآن يتلذذ بتلاوته[1].

والارتباط بين التفسير والتدبُّر ظاهر، فما من تدبُّرٍ إلا وهو مبني على فهمٍ لمعنى الآية، بل قد يكون من بيان معاني الآيات ما هو من قبيل التدبُّر كما سبق في تعريف التدبُّر.

وإذا كان التدبُّر فرعًا عن التفسير، أو بعضًا منه، فينبغي لأجل أن يكون التدبُّر صحيحًا أن يكون منهج التفسير صحيحًا[2].

وقد أصَّل الشيخ المنهج الصحيح للتفسير، واعتمد عليه تطبيقًا، ويقوم هذا المنهج على أربعة طرق:

- تفسير القرآن بالقرآن والقراءات.
- تفسير القرآن بالسنة النبوية، ومنها أسباب النزول.

---

(١) قال الإمام الطبري: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بتلاوته» انظر: معجم الأدباء (٦/ ٢٤٥٣)

(٢) تدبُّر القرآن الكريم/ عبداللطيف التويجري (ص: ٣٨٨-٣٩٢)، منهج الراسخين في تدبُّر وحي رب العالمين، أحمد معاذ حقي، ط١، رابطة العالم الإسلامي (ص: ٤٧-٥١). انظر: إتحاف القاري بوسائل التدبُّر لكلام الباري، عبدالرحمن الدهامي، مدار الوطن، ط١، ١٤٣٥، (ص: ١١٢-١٣٣).

- تفسير القرآن بأقوال السلف من الصحابة والتابعين.
- تفسير القرآن باللغة العربية.

وتفاصيل هذ المنهج ومثالاته من كلام الشيخ تقريرًا وتطبيقًا ظاهرةٌ وكثيرة جدًّا[1].

والمقصود هنا: أن الشيخ ﷺ التزم هذا المنهج، ولا أعلم مخالفته له.

المطلب الثاني: صحة دلالة الآية على المعنى:

من أهم مثارات غلط المتدبِّرين، ولاسيما العامة منهم، أن يُركبوا بعض المعاني الصحيحة على ما لا يدل لها من الأدلة القرآنية، وهذا ما عبر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية بالغلط في الدليل دون المدلول[2].

ولإتقان الشيخ علم أصول التفسير، وعلم أصول الفقه والفهم، وعلوم اللغة العربية[3]، وهي الضوابط لصحة الدلالة، مع ما توافر فيه من أسباب إصابة الحق والفهم: من صحة الاعتقاد والتجنب عن الهوى، وقوة الاستدلال ودقة الفهم، والقدرة على الترجيح والجمع بين الأقوال[4]، فإنه لا يكاد يوجد له من التفسير والتدبُّر، ما لم تدل عليه الآية، هذا مع توسعه في استخراج الهدايات القرآنية المتنوعة، ولكن سيأتي أن بعض الآيات يكون لها وجوه من التفسير صحيحة، أو محتملة، فيستخرج الشيخ ﷺ بعض الفوائد منها، على هذه الأوجه التفسيرية.

المطلب الثالث: صحة المعنى في نفسه:

يجب أن يكون المعنى الذي تفسر به الآية صحيحًا في نفسه، وتُعرَف صحته بدلالة الأدلة عليه، أو بعدم وجود ما يبطله، وقد يكون المعنى المتدبِّر من الآية غير صحيح، وذلك إذا وجد

---

(١) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن (١٧٣-٣١٦)، وشرح الشيخ ابن عثيمين لمقدمة شيخ الإسلام (ص: ١٢٧).

(٢) مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية في أصول التفسير (ص: ٩٢)، شرح الشيخ ابن عثيمين لمقدمة شيخ الإسلام (ص: ١٢٦).

(٣) المفسر شروطه وآدابه ومصادره دراسة تأصيلية، أحمد قشيري سهل، ط الرشد، ط١، ١٤٢٩هـ (ص: ١٤١-١٧٤).

(٤) المفسر شروطه وآدابه ومصادره (ص: ١٠٣-١٢٧، ١٣٠، ١٣٢).

دليل معارض له راجح[1]، أو كان قولاً باطلاً دفع إليه التقديم للهوى والمذهب بين يدي القرآن والسنة، ونحو ذلك.

وقد كان الشيخ ابن عثيمين ﷺ شديد التحري لإصابة المعنى الحق في نفسه، وفي احتمال الآية له، وفي تفسيره من رد الأقوال الباطلة بذاتها شيء كثير.

ومن أمثلة ذلك: في تفسير الفاتحة:

ردُّه على من فسر «الرحمن» بإرادة الإحسان أو الإحسان نفسه[2].

وردُّه على من فسر «الغضب» بالانتقام، أو بإرادة الانتقام[3].

وقد دفع الشيخ في تعليقه على تفسير الجلالين ما وقع فيه من تأويلات[4].

المطلب الرابع: صحة الاعتقاد:

من أهم أسباب إصابة الحق في التفسير وغيره من العلوم والأعمال: صحة الاعتقاد، والتجرد عن الهوى والتعصب[5]؛ لأنَّ فساد الاعتقاد والمنهج يصير بصاحبه إلى تحريف دلالة القرآن إلى ما يعتقد وينهج[6]، ومما يصدق ذلك من كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

والناظر في كلام العلامة محمد بن صالح العثيمين في التفسير والتدبُّر في دروس التفسير خاصة، أو فيما يعرض له منها في العلوم الأخرى، يجد أن الاهتمام الغالب على الشيخ صحة الاعتقاد، تقريرًا وتطبيقًا وردًّا على المخالفين مما لا يكاد يحصى كثرة.

---

(١) انظر: منهج الاستنباط من القرآن، د/ فهد بن مبارك الوهبي، ط معهد الشاطبي، ط١، ١٤٢٨هـ (ص: ١٤٥-١٤٧).

(٢) القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، جمع عبدالكريم المقرن، دار طريق، ط١، ١٤١٥هـ، (ص: ١٦)، وتفسير القرآن الكريم «الفاتحة - البقرة» لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٣هـ (٦/١).

(٣) أحكام من القرآن (ص: ٤٥).

(٤) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين في التفسير (ص: ٧٢-٧٣).

(٥) المفسر شروطه آدابه ومصادره (ص: ١٠٣-١١١).

(٦) المقدمات الأساسية في علوم القرآن/ عبدالله بن موسى الجديع، مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، ط١، ١٤٢٢هـ (ص: ٢٩٣).

المطلب الخامس: إقامة الأدلة على التدبُّر:

اهتم العلامة ابن عثيمين ﷺ بالدليل كثيرًا وعظَّمه، وربَّى طلابه على النظر فيه وطلبه.

وقد جرى على ذلك في الفوائد التي يستخرجها للآيات، فقد يَعْضُدُ دلالة الآيات عليه بأدلة أخرى، ولاسيما إذ كان مأخذها من الآية غير ظاهر.

ومن أمثلة ذلك: أنه ذكر من فوائد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] أن من سلك طريقهم فهو في نعمة وسرور وانشراح، ثم استدل لذلك بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وبقول النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ»[١] الحديثَ[٢].

المطلب السادس: مجانبة مَثَارات الغلط في التدبُّر:

إن المسلم ينبغي له أن يكون حريصًا على الفهم الصحيح لكلام الله تعالى، بطلب ذلك من وجوهه، ويحذر من مداخل الفهم الغالط عليه.

ومن أعظم أبواب الغلط في فهم القرآن العظيم وما يترتب عليه من تدبُّر:

باب الجهل:

وقد كان العلامة ابن عثيمين واسع العلم، «وكتاب الله تعالى لا يُفسَّر إلا بتصريف جميع العلوم فيه»، وكان كثير التحذير من الكلام في الشريعة عمومًا بغير علم.

باب الهوى والتعصب:

إن التفكير الحر النزيه المستقل، البعيد عن المكابرة، الخاضع للدليل، من أهم أسس صحة التدبُّر[٣].

---

(١) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٤/ ٢٢٩٥).

(٢) أحكام من القرآن (ص: ٣٧-٣٨).

(٣) تدبُّر القرآن الكريم/ عبداللطيف التويجري ص: (٣٨٨).



وقد كان العلامة ابن عثيمين منابذًا للأهواء كلها، كما كان مستقلًّا متجردًا في طلب الحق بدليله، لا يدع الحق الذي يَبِينُ له لقول أحد كائنًا من كان.

باب التكلف:

وقد كان العلامة ابن عثيمين ﷺ من أبعد الناس عن كل علم لا ينفع، وكان لا يتكلم فيما استأثر الله تعالى بعلمه، وينهى عن الخوض في المغيَّبات، ولذا كان لا يتكلم في مبهَمات القرآن(١)، ولا يُكْثِر من محتملات وجوه الإعراب والبلاغة في القرآن، ولاسيما إذا كانت معقَّدةً مُتكلَّفة، بل يكتفي بالأوجه الظاهرة(٢).

والذي يميز التدبُّر عن الألفاظ المقاربة له: هو أن العمل من مقاصد القارئ أصلًا(٣)، فما ليس يُبْنَى عليه عمل لا يدخل في التدبُّر، بل للشيخ عناية شديدة بمراتب النفع، ويسعى غالبًا إلى أعلاها.

وكان من معالم منهجه الواضحة أن يقرر الحق ابتداء لا نقدًا، ولذلك فليس له تأليف خاص في النقد، وفي الجدال والخصومات، ولا يحفل الشيخ كثيرًا بمراتب العلم المتوسطة، كتسمية أصحاب الأقوال التفسيرية والفقهية وغيرها، فضلًا عن مراتب العلم الدنيا.

---

(١) القاعدة: أن ما أبهم الله تعالى فلا فائدة من بيانه. قواعد التفسير، خالد السبت، ط دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧ه، (ص: ٢٥).

(٢) القاعدة: يجب حمل كتاب الله على الأوجه الإعرابية القوية والمشهورة، والموافقة لأدلة الشرع، دون الضعيفة والشاذة والغريبة. ينظر: مختصر قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين الحربي، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٩ه، (ص: ٢٣٨، ٢٤٢).

(٣) تدبُّر القرآن الكريم/ عبداللطيف التويجري ص: (٣٨٨).



المبحث الثاني
سعة التدبُّر

المطلب: الأول سعة الدلالات:

من الأسس العامة لمنهج الاستنباط من القرآن والسنة: مراعاة قصد الشارع؛ لاستيعاب جميع قضايا الناس، وهي لا تتناهى مع تناهي النصوص[1].

وتنقسم المعاني إلى قسمين:

معاني أولية «أصلية»، وهي: أصل المعنى، والمفهوم من ظاهر اللفظ، ومنها: دلالة المنطوق بطريق المطابقة أو التضمن أو الالتزام والإشارة.

معاني ثانية «تابعة»، وهي: الدلالة المأخوذة من المعاني الأولى، ومنها:

دلالة المفهوم بنوعيه، ودلالة القرائن، لاسيما السياق الحالي أو المقالي، والدلالات الأصولية، والدلالات النحوية، والدلالات الصرفية، والدلالات البلاغية وغيرها[2].

---

(١) الحكم الشرعي من منهج الاستنباط وفقه التنزيل، رشيد سلهاط، دار النوادر، ط١، ١٤٣٦هـ (ص: ١٠٢).

(٢) انظر: اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، د/ محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، ط١، ١٤٣١هـ. البحث الدلالي في كتب معاني القرآن، د/ عمار الددو، عالم الكتب، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ. منهج المتكلمين في استنباط الأحكام الشرعية، د/ عبدالرؤوف خرابشة، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٦. ودلالات الألفاظ مباحث الأصوليين، د/ يعقوب الباحسين، دار التدمرية، ط١، ١٤٣٤هـ. قواعد استنباط ألفاظ الأدلة عند الحنابلة، د/عبدالمحسن الصويع، دار البشائر الإسلامية. طرق دلالة اللفظة على الحكم في فهم المتكملين، د/ علي حسين، مطبعة الغد ١٤٢٣هـ. الدلالات وطرق الاستنباط، د/ إبراهيم بن أحمد الكندي، دار قتيبة، ط١، ١٤١٩هـ. أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية د/حمدي بخيت عمران، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٢٢هـ. أثر اللغة في اختلاف فهوم المجتهدين، عبدالوهاب، طريق دار السلام، مصر، ط٢، ١٤٢٠هـ. الدلالات اللفظية وأثرها في استنباط الأحكام من القرآن الكريم د/ علي حسن الطويل، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٢٧.

وقد كان الشيخ ابن عثيمين في أعلى مراتب الفهم من النصوص الشرعية، والناس متفاوتون في مراتب الفهم، فمنهم من يفهم حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر، ومنهم من يقتصر على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته، ومنهم من يفهم من النص بمفرده، ومنهم من يضمه إلى نص آخر(١).

وقد استخدم العلامة ابن عثيمين هذه الدلالات بكثرةٍ ملحوظة في استخراج كثير من الفوائد من الآيات القرآنية؛ مما أثمر كثيرًا من المعارف من نصوص محددة.

وقال ﷺ عن أنواع الدلالة الأولية: «المطابقة والتضمن والالتزام» «هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة، إذا استعملها الإنسان استعمالًا جيدًا حصل بها فوائد كثيرة»(٢)، وقال: «يحصل بها العلم الكثير بأدلة قليلة»(٣).

وكان الشيخ ﷺ يقصد ذلك في تفسيره(٤) ويهتم به، ويربي في طلابه ملكة استنباط الفوائد من الآيات القرآنية.

قال في سورة الفاتحة: «فكل معاني القرآن تتضمنها هذه السورة بالإشارة والدلالة التضمنية والالتزامية»(٥).

ولأضرب المثل لهذه الدلالات مما ذكره الشيخ ﷺ في تفسير السورة:

أ) المعاني الأولية:

---

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، تحقيق رائد صبري، دار طيبة، ط١، ١٤٢٧ه (٢٧٦/١).

(٢) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٩-١٠).

(٣) التعليق على القواعد الحسان المتعلق بتفسير القرآن للشيخ السعدي، والتعليق لابن عثيمين دار الجوزي، ط١، ١٤٣١هـ(ص: ٤٥) التعليق على القواعد الحسان المتعلق بتفسير القرآن للشيخ السعدي، والتعليق لابن عثيمين دار الجوزي، ط١، ١٤٣١هـ(ص: ٤٥). وانظر: قواعد التدبُّر الأمثل (ص: ١٢٢ و١٤٩ و١٥١).

(٤) قال في أحكام القرآن (ص: ٨ - ٩): «والمراد من هذا الكتاب: هو استنباط الفوائد من كتاب الله ﷻ؛ ليحصل بذلك خير كثير».

(٥) أحكام القرآن الكريم (ص: ٤٩).

دلالة المطابقة: إثبات الجزاء من ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤][1].

دلالة التضمن: إثبات الرحمة من ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣][2].

دلالة اللزوم: استفادة كمال عدل الله تعالى وحكمته من ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[3]، وكمال حكمته وكمال رحمته من ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦][4].

ب) المعاني التابعة:

١- دلالة القرآن، ولاسيما السياق والمناسبة:

ومنه تفسير ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] بالربوبية المبنية على الرحمة الواسعة الواصلة[5]، و ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ عقب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥][6].

٢ - دلالة مفهوم المخالفة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥][7]، وفي ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[8].

٣ - دلالة الجمع بين القراءات المتواترة، ومن أمثلته: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة: ٤] و«مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ»[9].

٤ - الدلالة النحوية: ومما جاء عنده دلالات حروف المعاني، كدلالة «أل» في {الحمد}

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٩).

(٢) تفسير القرآن الكريم «سورة الفاتحة - البقرة» (١١/١).

(٣) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٠).

(٤) المصدر السابق: (ص: ٣٤).

(٥) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٤٦).

(٦) المصدر السابق (ص: ٩٣).

(٧) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٣).

(٨) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٣٣).

(٩) تفسير سورة الفاتحة (٥٤-٥٥)، أحكام من القرآن الكريم (ص: ١٧)، وتفسير القرآن الكريم سورة الفاتحة والبقرة (١٢/١).

[الفاتحة: ٢] على الاستغراق[١]، ودلالة اللام في ﴿لِلَّهِ﴾ على الاختصاص والاستحقاق[٢].

ومنها دلالة الفعل المضارع ﴿نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] على الاستمرار[٣]، ودلالة اسم المفعول ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧][٤].

٥ - الدلالة الصرفية: ومما ذكر من ذلك: دلالة وزن «فعلان» على السعة في تفسير اسم «الرحمن»[٥]، ووزن «فعيل» على وقوع الفعل في تفسير اسم «الرحيم»[٦].

٦ - الدلالة البلاغية: ولها فيه وجوه كثيرة، منها: تأخير العامل في {بسم الله} للحصر[٧]، ومنها: تقديم المعمول في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥][٨].

ومنها: الالتفات في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] من الغيب إلى الخطاب[٩].

ومنها: التعبير عن المفرد بصيغة الجمع ﴿اهْدِنَا﴾[١٠] ﴿نَعْبُدُ﴾[١١].

ومنها: حذف حرف الجر في ﴿اهْدِنَا﴾[١٢].

٧ - دلالة الفروق اللغوية، كالذي ذكره في الفروق بين الصراط والطريق[١٣].

---

(١) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٣٥)، أحكام من القرآن الكريم (ص: ١٢)، تفسير القرآن الكريم الفاتحة والبقرة (١/٩ و١٠).

(٢) المراجع السابقة.

(٣) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٧٤).

(٤) المصدر السابق: (١١٦)، أحكام من القرآن الكريم (ص: ٤٤).

(٥) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٢٤ و٤٤-٤٦)، أحكام من القرآن (ص: ١٥)، تفسير القرآن الكريم سورة الفاتحة والبقرة (١/٥و١١)

(٦) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٢٤ و٤٦)، تفسير القرآن الكريم سورة الفاتحة والبقرة (١/٥و١١).

(٧) تفسير الفاتحة (ص: ١٥)، تفسير القرآن الكريم الفاتحة البقرة (١/٤).

(٨) تفسير الفاتحة (ص: ٥٨ و٧٤)، أحكام القرآن الكريم (ص: ٢٤)، تفسير القرآن الكريم الفاتحة والبقرة (١/١٣ و١٤).

(٩) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٧٣)، أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٦).

(١٠) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٧٩-٨٠).

(١١) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٦ و٢٧).

(١٢) تفسير القرآن الكريم سورة الفاتحة والبقرة (١/١٦).

(١٣) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٨١)، أحكام من القرآن الكريم (ص: ٣١).

٨ - دلالة المناسبات بأنواعها، ولاسيما مناسبة ختم الآيات بالأسماء الحسنى.

٩ - دلالة الاقتران: كالاقتران بين العبادة والاستقامة[١]، وبين ﴿أَنْعَمْتَ﴾، و﴿الْمَغْضُوبِ﴾[٢].

١٠ - دلالة الاشتقاق: كالذي ذكره في اشتقاق ﴿الْعَالَمِينَ﴾ أنه من العلامة؛ لأنه عَلَم على خالقهم؛ أي: دليل عليه[٣].

١١ - دلالة الترتيب بين المغضوب عليهم والضالين[٤]، وتقديم {لله} على {رب}[٥]. والغالب في هذه التدبُّرات أن يكون فيها دقة وخفاء[٦].

هذه الأمثلة بعض ما ذكره الشيخ في تفسيراته لسورة الفاتحة فحسب، وفي تفسيره لغير هذه السورة مئات التطبيقات لجميع أنواع الدلالات[٧].

ولا شك أن التدبُّر لا بد أن يسبقه إلمام بعلوم العربية[٨]، من أهمها إدراك المعنى اللغوي للمفردات القرآنية، ودلالات حروف المعاني التي تربط بين الكلمات، ودلالات الجمل[٩]، ولا بد أن يسبقه كذلك إلمام بالدلالات الأصولية.

---

(١) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٦٧)، أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٤).

(٢) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٣٩).

(٣) تفسير سورة الفاتحة (ص: ٤٠)، وتفسير القرآن الكريم الفاتحة والبقرة (١٠/١).

(٤) تفسير سورة الفاتحة (ص: ١١٥)، وتفسير القرآن الكريم الفاتحة والبقرة (٢٠/١).

(٥) وتفسير القرآن الكريم الفاتحة والبقرة (١٠/١).

(٦) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٥٦١).

(٧) وما لم يذكر على سبيل التمثيل: دلالة التركيب المأخوذة من مجموع دليلين فأكثر. انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين (ص: ٥٦٦).

(٨) التدبُّر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير، عبدالله عبدالغني سرحان، ط مركز التدبُّر، ١٤٣٠هـ.

(٩) المراحل الثمان لطالب فهم القرآن، د. عصام العويد، مركز تدبُّر، ط١، ١٤٣١هـ(ص: ٤٩-٨٧)، ومنهج الراسخين في تدبُّر وحي رب العالمين (٤١، و٦٢)، وانظر: تدبُّر القرآن، سلمان السنيدي (ص: ٩٢-١٠٢، ١٢٠، ١٢٦).

المطلب الثاني: سعة الموضوعات:

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ففي هذه الآيات شمول القرآن لجميع ما يحتاجه الناس في دينهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «ومن تأمَّل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الإلهية، وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات، وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها، وسعادتها ونجاتها، لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي إلا بعض ما جاء به القرآن»[1].

ولاشتمال القرآن الكريم على جميع العلوم الشرعية صرَّف الشيخ ﷺ في تدبُّراته العلوم الشرعية والعربية، ولاسيما علم العقيدة، والفقه، والدعوة، والتربية، واللغة، والأصول، وغيرها كثير.

وأمثلة ذلك كثيرة جدًّا في تفسيره[2].

وسعة علوم الشيخ وتنوع الفوائد ظاهرة في تفسيره[3].[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٤٥).

(٢) انظر: جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن، الجانب العقدي: (٣١٩-٤٤٦)، الجانب الفقهي: (٤٤٧-٤٦٥)، الجانب الأصولي: (٤٦٦-٤٩٤)، الجانب النحوي (٤٩٧-٥٠٥)، الجانب البلاغي: (٥١٢-٥٢٧)، الجانب التربوي: (٥٢١-٥٢٧).

(٣) ندوة جهود الشيخ ابن عثيمين (٢٠/١)، مجلة البيان عدد (١٦٠) ندوة جهود الشيخ ابن عثيمين (٢٠/١)، مجلة البيان عدد (١٦٠) مقال: منهج ابن عثيمين في التفسير، وعنه: ابن عثيمين الإمام الزاهد (ص: ٧٢٧).

(٤) ندوة جهود الشيخ ابن عثيمين (١٦/١).

المطلب الثالث: سعة التفسير:

تأثر الشيخ ﷺ بمدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، التي وضعت القواعد للجمع بين الأقوال، والأخذ بها جميعًا ما أمكن، واعتبار غالب الاختلاف من اختلاف التنوع[1]، وبه يكون المعنى أوسع وأوضح، ولاسيما في اختلاف التنوع من حيث التفسير بالمثال، والتفسير بجزء المعنى، والتفسير باللازم، والتفسير بالألفاظ المتقاربة، والتفسير بالتفسيرات المحتملة للأقوال[2].

قال الشيخ ابن عثيمين ﷺ: «القاعدة في علم التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين لا تعارض بينهما وجب الأخذ بهما جميعًا؛ لأن الأخذ بالمعنيين جميعًا أوسع للمعنى»[3].

ومن ذلك: أنه حمل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] على القولين، ورجحهما جميعًا، فقال: «تحمل عليهما جميعًا، فموسى ﷺ محبوب الله ومحبوب الناس»[4].

وكثيرًا ما يذكر الشيخ معنى الآية باللفظ الذي يجمع الأقوال الصحيحة منها، دون أن يشير إلى اختلاف أصلًا[5]، وقد يبني التدبُّر على أحد الأقوال، أو أحد الاحتمالات، فيذكر النذير ثم يقول على أحد التفسيرين[6].

---

(١) أصّل الشيخ لذلك في أصول التفسير، دار ابن الجوزي ط١، ١٤٢٣هـ. وانظر: (ص: ٣٤).
في اختلاف التنوع ووجوهه: اختلاف التنوع في التفسير دراسة نظرية تطبيقية، منى المعيذر، دار العاصمة، ط١، ١٤٣٤هـ، قواعد التدبُّر الأمثل/ عبد الرحمن الميداني، ط١، دار القلم، ١٤٠٠هـ.

(٢) أقوال المفسرين، توجيهها ومسائل التدقيق فيها (ص: ٣٠٢، ٣١٧، ٣٢١).

(٣) تفسير جزء عم، للعلامة محمد بن صالح العثيمين، تخريج فهد السليمان، ط١، ١٤٢٣هـ، دار الثريا، الرياض تفسير جزء عم، للعلامة محمد بن صالح العثيمين، تخريج فهد السليمان، ط١، ١٤٢٣هـ، دار الثريا، الرياض (ص: ١٢٠).

(٤) شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الشرح لابن عثيمين، تخريج سعد الصميل، ط٢، ١٤١٥هـ، دار ابن الجوزي (٣١٩/١).

(٥) انظر: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] في تفسير سورة الفاتحة (ص: ٨١)، وتفسير القرآن الكريم (الفاتحة والبقرة) (١٦/١)، وأحكام من القرآن الكريم (ص: ٣١).

(٦) تفسير سورة (الفاتحة والبقرة) (٣٦٦/٢) و(١١/٢)، التحرير في أصول التفسير، د/ مساعد الطيار، معهد الشاطبي، ط١، ١٤٣٥هـ (ص: ٢٤٥-٢٦٦).

المبحث الثاني

فروع منهجية للتدبر عند الشيخ ابن عثيمين

المطلب الأول: الربط بالواقع:

كان العلامة محمد بن صالح العثيمين إمامًا مشاركًا بوعي في ربط أهل العصر بالقرآن، ومن الملامح البارزة لمنهج الشيخ ابن عثيمين في التدبُّر: تنزيل الآيات على الواقع المعاصر[1]؛ لأن القرآن العظيم كتابٌ هدايتُه عامة خالدة إلى قيام الساعة، وأمثلة ذلك في تفسير الشيخ كثيرة جدًّا، منها في تفسير سورة الفاتحة: أنه استنبط من قوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] سعة دين الإسلام لكل أحد من دلالة مفردة «الصراط» في العربية على الطريق الواسع، وبنى على ذلك الرد على من زعم أن دين الإسلام لا علاقة له بالدنيا، ثم استدلَّ على تقرير شمول الإسلام لكل شيء بأدلة أخرى، وكل ذلك رد على العلمانية[2].

كما تحدث عند قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] عن التشبه بهم[3]، وعن وجوب بغضهم، والبراءة منهم ومعاداتهم، وعدم مناصرتهم[4]، وتحدث فيها عن شيوع الجهل البسيط والمركب في هذا العصر[5]، وتحدث عن تفضيل العلم الشرعي على علوم

---

(١) انظر: ندوة جهود الشيخ ابن عثيمين (٢١/١).

(٢) أحكام من القرآن (ص: ٣١-٣٣).

(٣) المصدر السابق (ص: ٣٨-٣٩).

(٤) المصدر السابق (٣٩-٤٠).

(٥) المصدر السابق (ص: ٤١-٤٢).

الدنيا كالصناعة وغيرها[1]، وحذر في موضع آخر من الغزو الفكري والأخلاقي[2]، وأنكر بعض العبارات الشائعة في العصر كقولهم: «الإسلام دين المساواة»[3].

وعند تنزيل الشيخ لبعض الآيات على أحوال معينة؛ فإنه يراعي تحقيق الوقائع، وتحقيق المناط، وتحقيق المآل[4].

المطلب الثاني: الإجابة عن أسئلة التدبُّر:

من الملامح الظاهرة في منهج الشيخ ابن عثيمين في ذكر الفوائد من الآية: أنه يذكر عقب بعض الفوائد ما يمكن أن يَرِد في ذهن بعض الناس حولها من أسئلة، ثم يجيب عنها.

ومن الأمثلة على ذلك في تفسير سورة الفاتحة:

لما ذكر من فوائد {الحمد لله} أن الحمد لا يستحقه إلا الله، أجاب عن سؤال لم يورده؛ فقال: «وأعني بالحمد: المطلقَ الكاملَ، وإلا فقد يحمد الإنسان حمدًا كاملًا على فعل ناقص...»[5].

ولما أثبت الربوبية لله وحده، أجاب عن سؤال لم يورده عن إضافة الخلق، أو التدبير، أو الملك إلى غير الله ﷻ، ثم أجاب عن ذلك بأنها «إضافة ناقصة»[6].

ولما استدل بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] على تخصيص الله بالاستعانة المطلقة، ذكر حكم الاستعانة المقيدة واستدل لجوازها[7].

---

(١) المصدر السابق (ص: ٤٦).

(٢) تفسير سورة الفاتحة (٦٠/٣).

(٣) المصدر السابق (٨٠/٣).

(٤) انظر الحكم الشرعي بين منهج الاستنباط وفقه التنزيل، د/رشيد سلها، دار النوادر، ط١، ١٤٣٣هـ، (ص:١٩٨-٣٠٤).

(٥) أحكام من القرآن الكريم (ص: ١٢).

(٦) المصدر السابق (ص: ١٢-١٣).

(٧) المصدر السابق (ص:٢٥٤).

وقد يصرح بسؤال عقب الفائدة، ومن ذلك أنه ذكر من فوائد ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أنه لا هادي إلا الله، ثم قال: فإن قال قائل: أليس قد قال الله تعالى عن نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]؟ فالجواب... ثم ذكره[١].

المطلب الثالث: التفريع على التدبُّر:

من الملامح الظاهرة في منهج الشيخ ابن عثيمين في ذكر الفوائد من الآية: أنه يبني على الفائدة فروعًا لها، وذلك كثير في تفسيره.

ومن أمثلته في سورة الفاتحة: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] «فائدة: وهي أن الملائكة والرسل والأولياء لا حق لهم في الربوبية»، ثم قال: «ويتفرع من ذلك أنه ليس لأحد أن يدعو هؤلاء...»[٢].

ومن ذلك أنه ذكر من فوائد ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: شمول الإسلام لأمور الدين والدنيا، قال: «ويتفرع من هذه الفائدة: الرد على من زعم أن الدين الإسلامي ينظم العمل فيما يتعلق بين العبد وبين ربه...»[٣].

ولما استنبط من قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧] أنه ينبغي علينا معرفة سيرتهم، قال: «ويتفرع على ذلك: الحث على معرفة سيرة النبي ﷺ...»[٤]، وذكر مثل ذلك عند قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧][٥].

---

(١) المصدر السابق (ص: ٣٥).

(٢) أحكام من القرآن الكريم (ص: ١٣).

(٣) المصدر السابق (: ٣١).

(٤) المصدر السابق (ص: ٣٦).

(٥) المصدر السابق (ص: ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥) كلها يقول فيها: «ويتفرع على ذلك».

المطلب الرابع: ذكر مآخذ التدبُّر:

من الملامح الظاهرة في تدبُّرات الشيخ ﷺ: أنه لا يدع بيان وجه دلالة الآية على الفائدة، لاسيما إذا كان غير ظاهر، ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا، منها في تفسير سورة الفاتحة:

- ذكر من فوائد ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] الرد على منكري الرحمة، واستدل بأنه الأصل والحقيقة[١]، وبين مأخذ دلالة «الرحمن» على السعة، و«الرحيم» على الحصول[٢].

- ذكر من فوائد ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] دليلًا على كمال حكمته؛ حيث جعل لهذا الخلق مآلًا يجازون فيه، وإلا لكان الأمر عبثًا...[٣].

- وذكر من فوائد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إخلاص العبادة لله تعالى، قال: «ووجه ذلك: تقديم المعمول، ولو جاءت على الترتيب لقال: نعبدك، فلما قدم المعمول دل على الإخلاص... لأن من القواعد في اللغة العربية أن تقديم المعمول يفيد الحصر...»[٤]. ومثله ذكر في {إياك نستعين}[٥].

- وذكر من فوائد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ طلب اجتماع الأمة؛ لأنه لم يقل: أعبدك، وبك أستعين[٦].

---

(١) أحكام من القرآن الكريم (ص: ١٦).

(٢) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٠).

(٣) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٣).

(٤) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٤).

(٥) أحكام من القرآن الكريم (ص: ٢٧).

(٦) أحكام من القرآن الكريم (ص: ١٥)، وتفسير سورة الفاتحة (ص: ٢٠).



الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فقد انتهيت من هذا العمل إلى نتائج عظيمة، منها:

تميز العلامة محمد صالح العثيمين بعنايته بالقرآن العظيم، بأوجه من العناية المتعلقة به، ولاسيما تفسيره واستخراج الفوائد منه، وكان من أبرز سمات تميزه:

كثرة عطائه التفسيري والتدبُّري، فقد كانت دروسه الخاصة والعامة لا تخلو من دروس خاصة بالتفسير والتدبُّر، وكانت دروسه في غير التفسير تحظى بإشراك التفسير فيها، وكانت دروسه العلميَّة العامة ومحاضراته وكتبه ولقاءاته العامة وخطبه وبرامجه الإذاعية تحفل بالتفسير وفوائد الآيات كثيرًا.

لقد كان لجمع الشيخ بين النية الصالحة والعلم النافع والعمل الصالح- لاسيما ورعه- أثر بيِّن في توفيق الله سبحانه له لإصابة الحق في تدبُّراته، فقد كانت ثابتة قوية تشهد لها الآيات التي استدل بها عليها، وتشهد لها الدلائل الأخرى من الشريعة.

وقد كان منهج الشيخ هو تعظيمه الدليل، والحرص على الاستشهاد به، والوقوف بالدليل عند حدوده، وقد حصَّل الشيخ ملكة تفسيرية تدبُّرية، منها: جمعه بين الفهم والحفظ، وذكاؤه، ودقة ملاحظاته، واستنباطاته، وصفاء ذهنه، وعلمه بأدلة الشريعة، وقدرته على النظر وتعليل الأحكام، ومناقشة المسائل، وعلمه الواسع بالعربية، وبأصول الفهم، وبمقاصد الشريعة، وبمناقشته لطلابه دائمًا، ومطارحاته لهم، وقد أثمر ذلك كله ثباتًا للمنهج، واطرادًا له، وتحريرًا دقيقًا للمسائل.

سعة تدبُّرات الشيخ ابن عثيمين ﷺ.

سعة طرق الدلالة عليه، وسعة النصوص المستخرجة منها.

سعة التفسير الذي بنيت عليه.

وفي دقة التعليل وإطالة النظر فيها وتتبعها قد يستخرج من الآية القصيرة تدبُّرات كثيرة جدًّا[1].

شمول مآخذها للدقيق الخفي، والواضح الجلي.

سعة وشمول موضوعاتها: العقدية، والفقهية، والتربوية، والدعوية، واللغوية، والأصولية، والدفاع عن الدين وغيرها.

ومن تميزها في هذا الجانب: توازنها بين العلوم والمعارف، وعدم إغراقها في نوع واحد منها.

وفي سعة علمه بالقضايا التي يتكلم فيها.

وفي علمه بمراتب العلوم وأولوياتها.

ومن السمات الأخرى لتدبُّرات الشيخ:

- سلك الشيخ في تدبُّراته مسلك التقرير للحق، والرد بالآيات على المخالف دون تعيين، وبالعدل، وبأدب وحكمة، ونصح.

- حرص الشيخ على تربية ملكة الاستنباط والاستخراج للفوائد من الآيات في نفوس طلابه بطرق مختلفة، منها المناقشة.

---

(١) والأمثلة على ذلك في تفسير آية: {وأتموا الحج والعمرة} [البقرة: ١٩٦]، ذكر الشيخ أربعين فائدة في تفسير سورة الفاتحة والبقرة (٢/٣٩٦-٤١٣).
واستخرج الشيخ من آيات التقوى في القرآن سبع عشرة ومئة فائدة. فوائد التقوى في القرآن لابن عثيمين (ص: ١٠-٣١).

- استوفى الشيخ شروط الفهم الصحيح لاستنباط الفوائد الخفية، وأهمها: حسن المقصد، وسلامة الفهم، وسعة العلم بالعربية، وبأصول الفقه، ومقاصد الشريعة، ومعرفة الواقع.

- يهتم الشيخ بدفع الإشكال، ورفع وهم التعارض عن الأدلة، ويورد الأسئلة كثيرًا على تدبُّراته ثم يجيب عنها.

- ضبط الشيخ منهجيته باطراد؛ لسعة علمه بالقواعد والأصول لمختلف العلوم.

- عني الشيخ بتكامل الوحي بالفطرة، وبتكامل دليل العقل والنقل.

- كشف كثيرًا عن محاسن الشريعة وحِكَمِها وأسرارها.

- رد الشيخ كثيرًا على شبهات أعداء الإسلام، وعلى انحرافات وأخطاء المنتسبين له بالأساليب المناسبة.

- اعتنى الشيخ بالفروق والسبر والتقاسيم والقواعد.

- حرص الشيخ على التفصيل والتوضيح، ورد الجزئيات إلى الكليات، وتخريج الفروع على الأصول، والتحديد الدقيق للمصطلحات.

التوصيات:

- أن يقوم المركز بالدعوة إلى ضبط التدبُّر، ويضع القواعد المنهجية الضابطة له؛ صيانةً لكتاب الله تعالى عن العبث بمعانيه.

- أن يفتح مركز التدبُّر مستودعًا للتدبُّرات؛ لتكون مادة للتقويم، ثم الاستفادة من الصحيح منها.

- أن تقوم الأقسام العلميَّة في الجامعات الإسلامية بدراسات متخصصة حول مناهج علماء المسلمين في التدبُّر؛ للاستفادة منها.

- أن تقوم دراسات عن استثمار الدلالات بأنواعها في تدبُّر القرآن العظيم.

- أن تقوم دراسات في أصل مثارات غلط الغالطين في التدبُّر، من خلال قراءات نقدية للمنشور في الشبكة الحاسوبية أو بعض مواقعها.

وأسأل الله ﷻ أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



قائمة المصادر والمراجع

١. أبحاث مفهوم التدبُّر تحرير وتأصيل، أوراق عمل الملتقى الأول لتدبُّر القرآن الكريم، ط١، ١٤٣٠هـ

٢. ابن عثيمين الإمام الزاهد، د/ ناصر بن مسفر الزهراني، ط دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢.

٣. إتحاف القاري بوسائل التدبُّر لكلام الباري، عبدالرحمن الدهامي، مدار الوطن، ط١، ١٤٣٥هـ

٤. اتساع الدلالة في الخطاب القرآني، د/ محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، ط١، ١٤٣١هـ

٥. أثر اللغة في اختلاف فهوم المجتهدين، عبدالوهاب عبدالسلام طويلة، طريق دار السلام، مصر، ط٢، ١٤٢٠هـ

٦. أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية د/حمدي بخيت عمران، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٢٢هـ

٧. اختلاف التنوع في التفسير دراسة نظرية تطبيقية، منى المعيذر، دار العاصمة، ط١، ١٤٣٤هـ

٨. أصول التفسير، دار ابن الجوزي ط١، ١٤٢٣هـ

٩. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، تحقيق رائد جبري، دار طيبة، ط١، ١٤٢٧هـ

١٠. الحكم الشرعي بين منهج الاستنباط وفقه التنزيل، د/رشيد سلها، دار النوادر، ط١، ١٤٣٣هـ

١١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ

١٢. البحث الدلالي في كتب معاني القرآن، د/ عمار الددو، عالم الكتب، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ

١٣. التحرير في أصول التفسير، د/ مساعد الطيار، معهد الشاطبي، ط١، ١٤٣٥هـ

١٤. التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

١٥. تدبُّر القرآن الكريم، عبداللطيف التويجري، ط١، ١٤٣٦.

١٦. التدبُّر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير، عبدالله عبد الغني سرحان، ط مركز التدبُّر، ١٤٣٠هـ

١٧. التعليق على القواعد الحسان المتعلق بتفسير القرآن للشيخ السعدي، والتعليق لابن عثيمين دار الجوزي، ط١، ١٤٣١هـ

١٨. تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق عبدالله محمود شحاتة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ

١٩. تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة) لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٣هـ

٢٠. تفسير جزء عم، للعلامة محمد بن صالح العثيمين، تخريج فهد السليمان، ط١، ١٤٢٣هـ، دار الثريا، الرياض.

٢١. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وآخرين، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ

٢٢. الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين، وليد الحسين، ط مجلة الحكمة، ط١، ١٤٢٢هـ

٢٣. جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن، د/ أحمد البريدي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٦هـ

٢٤. الحكم الشرعي من منهج الاستنباط وفقه التنزيل، رشيد سلهاط، دار النوادر، ط١، ١٤٣٦هـ

٢٥. دلالات الألفاظ، مباحث الأصوليين، د/ يعقوب الباحسين، دار التدمرية، ط١، ١٤٣٤هـ

٢٦. الدلالات اللفظية وأثرها في استنباط الأحكام من القرآن الكريم د/ علي حسن الطويل، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٢٧هـ

٢٧. الدلالات وطرق الاستنباط، د/ إبراهيم بن أحمد الكندي، دار قتيبة، ط١، ١٤١٩هـ

٢٨. شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الشرح لابن عثيمين، تخريج سعد الصميل، ط٢، ١٤١٥هـ، دار ابن الجوزي.

٢٩. الشيخ ابن عثيمين جهوده وآراؤه في علوم البلاغة، د/ منير محمد، الدحام، دار ابن حزم، ط١، ١٤٣٤هـ

٣٠. الشيخ محمد صالح العثيمين من العلماء الربانيين، عبدالمحسن العباد، دار الإمام أحمد، القاهرة، ١٤٢٤هـ

٣١. صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٢. طرق دلالة اللفظة على الحكم في فهم المتكملين، د/ علي حسين، مطبعة الغد ١٤٢٣هـ

٣٣. القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، جمع عبدالكريم المقرن، دار طريق، ط١، ١٤١٥هـ

٣٤. قواعد استنباط ألفاظ الأدلة عند الحنابلة، د/عبدالمحسن الصوبع، دار البشائر الإسلامية.

٣٥. قواعد التدبُّر الأمثل/ عبدالرحمن الميداني، ط١، دار القلم، ١٤٠٠هـ

٣٦. قواعد التدبُّر الأمثل، لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ط٤، ١٤٣٠هـ، دار القلم بدمشق.

٣٧. الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ

٣٨. لسان العرب، لابن منظور، ط دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ

٣٩. المحرر الوجيز لابن عطية ط٢ وزارة الشؤون الإسلامية، قطر ١٤٢٨هـ

٤٠. المراحل الثمان لطالب فهم القرآن، د. عصام العويد، مركز التدبُّر، ط١، ١٤٣١هـ

٤١. المفسر شروطه وآدابه ومصادره دراسة تأصيلية، أحمد قشيري سهل، ط الرشد، ط١، ١٤٢٩هـ

٤٢. المقدمات الأساسية في علوم القرآن/ عبدالله بن موسى الجديع، مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، ط١، ١٤٢٢هـ

٤٣. منهج الراسخين في تدبُّر وحي رب العالمين، أحمد معاذ حقي، ط١، رابطة العالم الإسلامي.

٤٤. منهج المتكلمين في استنباط الأحكام الشرعية، د/ عبدالرؤوف خرابشة، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٦هـ

٤٤. مجلة البيان عدد (١٦٠).

٤٥. ندوة جهود الشيخ ابن عثيمين العلميَّة، طبعة جامعة القصيم.

الورقة الرابعة

محمد الطاهر بن عاشور
ومنهجه في تدبر القرآن

إعداد

د. جمال محمود أحمد أبو حسان

أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن

بجامعة العلوم الإسلامية العالمية.

السيرة الذاتية

الاسم: جمال محمود أحمد أبو حسان

المؤهل العلمي والخبرة العلمية:

- أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة العلوم الإسلامية العالمية بالأردن.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية داخل الأردن وخارجه، وله العديد من الأبحاث العلمية والكتب، ومن أهمها:

النتاج العلمي: له العديد من الكتب والأبحاث العلمية، ومن أهمها:

- تفسير ابن عاشور دراسة منهجية ونقدية.
- الإمام المفسر محمد الطاهر بن عاشور سيرة ومواقف.
- اعتراضات ابن عاشور على الزمخشري في سورة البقرة.
- الدلالات المعنوية لفواصل الآيات القرآنية.
- دراسة ما روي عن عثمان في شأن لحن القرآن.
- من الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن.
- التجديد في التفسير مادة ومنهاجًا.
- التفسير الموضوعي لسور: الانشقاق والبروج والطارق.
- طلائع الإعجاز الغيبي في طوالع سورة الإسراء.
- العلاقة بين الإنسان والجان كما يصورها القرآن.
- التفسير المنهجي للقرآن، تفسير الأجزاء الستة الثانية من القرآن.
- نحو إصلاح التعليم في برنامج الدراسات العليا في تخصص التفسير وعلوم القرآن.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد تلقيت دعوة كريمة من القائمين على الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم، للكتابة حول التدبُّر عند ابن عاشور، وعلى الرغم من الزحام الشديد في وقتي بسبب الانشغال بطلبة الدراسات العليا في الجامعة، ومع إصرار الإخوة الداعين، فقد قررت التوكل على الله تعالى وتلبية الرغبة، وإني لأرجو أن أكون عند حسن ظن الإخوة الفضلاء.

وقد جعلت بحثي هذا في مباحث:

الأول: في ترجمة موجزة لابن عاشور.

الثاني: في معنى التدبُّر عند ابن عاشور، وكيف فسر الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ.

الثالث: في الإطار النظري للتدبُّر في تفسيره.

الرابع: في الإطار العملي.

الخامس: في ملاحظات عامة.

ثم ختمت بخاتمة بينت فيها ما توصلت إليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.



المبحث الأول

نبذة من حياة ابن عاشور في سيرته الذاتية:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦هـ- ١٣٩٢هـ)، الإمام الضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية، ولد بقصر جده لأمه بالمرسى، وقد نشأ في بيت نبيل مبارك بالعلم، مبارك بالنسب الحَسَني الشريف، وجده لأمه هو الشيخ الوزير محمد العزيز بوعتور، وجده لأبيه هو العلامة الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عاشور، وقد عاصرت الأسرة العاشورية الحضارة الأندلسية، ثم انتقلت إلى سلا بالمغرب، ثم استقرت بتونس في منتصف القرن السابع عشر الميلادي[1].

بدأت حياته العلميَّة في الكُتَّاب، فحفظ القرآن، ثم تعلم ما تيسر من اللغة الفرنسية، والتحق بجامع الزيتونة عام ١٣٠٩هـ، فقرأ على ثلة من الشيوخ حتى حاز شهادة التطويع عام ١٣١٣هـ، ثم اجتاز مناظرة التدريس من الرتبة الثانية عام ١٣١٦هـ، ثم مناظرة التدريس من الرتبة الأولى عام ١٣٢٠هـ، وقد كان بدأ بالتدريس في المدرسة الصادقية عام ١٣١٧هـ، وفي الزيتونة عام ١٣١٩هـ، ورقي في مستويات التدريس حتى أصبح نائبًا للدولة لدى نظارة جامع الزيتونة وذلك في عام ١٣٢١هـ، ثم عضوًا في لجنة تنقيح برامج التعليم، وعضوًا في المجلس المختلط العقاري عام ١٣٢٥هـ، ثم قاضيًا مالكيًّا وعضوًا في هيئة النظارة العلميَّة لجامع الزيتونة عام ١٣٣١هـ، وفي عام ١٣٤١هـ عاد للتدريس في جامع الزيتونة والمدرسة الصادقية، ثم أصبح رئيسًا للمفتين «باش مفتي» عام ١٣٤٥هـ، واستمر كذلك إلى أن أصبح شيخ الإسلام المالكي وشيخ جامع الزيتونة وفروعه عام ١٣٥٠هـ، واقتصر على مشيخة الإسلام حتى نُزعت منه عام ١٣٦٣هـ، وعاد شيخًا لجامع الزيتونة وفروعه حتى عام ١٣٧٠هـ، حيث أصبح عميدًا لجامعة الزيتونة حتى العام ١٣٧٥هـ، ثم خرج من

(١) شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور، ابن الخوجة ج١ص١٤٧- ١٤٨.

رِبْقَةِ المناصب العلميَّة إلى فضاء التصنيف والإبداع، وقد نال الجائزة التقديرية من الرئيس بورقيبة عام ١٣٨٧هـ[١]، إلا أنه استمر عضوًا في مجمعي دمشق والقاهرة حتى وفاته ﷺ.

وكان ﷺ نشيطًا غزير الإنتاج، شغوفًا بالإصلاح والتجديد، لا يحفل بالبالي من التقاليد، فقد قام بإصلاحات مهمة على نظام التعليم في الزيتونة، فأدخل مواد جديدة في الدراسة كالفيزياء والكيمياء والجبر، وألغى من الدراسة الكتب المعقدة في الأسلوب، واستبدلها بما حَسُنَ أسلوبُه وسَهُلَ مأْخذُه، فتسارعت إليه مكايد البعض لأجل ذلك، وتآمروا عليه بشتى الدسائس[٢].

ومن مصادر ترجمته[٣]، كانت هذه أهم المصادر المتوافرة التي اطلعت عليها في ترجمة ابن عاشور ﷺ رحمة واسعة.

---

(١) تراجم المؤلفين التونسيين، ج٣ص٣٠٥ بتصرف.

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين، ج٣ص٣٠٦.

(٣) عيون البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي من ص ٦٢٧- ٦٣٢، شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأعظم لمحمد الحبيب بن الخوجة، تونس وجامع الزيتونة ص ١٢٣-١٢٦، الأعلام للزركلي ١٧٤/٦ ط ٦، تراجم المؤلفين التونسيين ٣/ ٣٠٤ -٣٠٩، الحركة الأدبية والفكرية في تونس في مواضع متعددة منها ص ٨٣،٨٢،٧، ٨٩، ١١٤،١٠٥،٩٤، ١٣، ١٤٣، ١٥٣،١٧٠،١٦٩، ١٧٥، ٢٢٠،٢١٩،٢١٨ وغيرها، مجموعه أبحاث ملتقى الإمام ابن عاشور المنعقد في تونس ١٩٨٥ وصلني منها ما يلي: محمد الطاهر بن عاشور إمام الشريعة والأدب في عصره لمحمد عبد المنعم خفاجي، عائلة ابن عاشور لمحمد الطاهر المعموري.
محمد الطاهر ابن عاشور الحافظ الحجة للقاضي محمود شمام، محمد الطاهر ابن عاشور رائد الفكر الإسلامي لبلقاسم بن حسن، محمد الطاهر ابن عاشور مفتي تونس الأشهر للسويسي، منهج ابن عاشور في التفسير للصحبي بن مسعود، المصادر المعرفية لابن عاشور في تفسيره من خلال سورة آل عمران لخميس زهمول، النشرة العلميَّة للكلية الزيتونية عدد ٢-٣ ص ٢٢٣ -٢٢٧.



المبحث الثاني

في معنى التدبر عند ابن عاشور

وكيف فسر الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ

لا أريد الخوض في المعنى اللغوي لكلمة التدبُّر، فقد أُشْبِعَتْ بحثًا في مؤتمر تدبُّر الأول، ولكن لا بد من أن أقول- بعد قراءة متأنية-: إنه مما لا شك فيه أن التدبُّر معناه: إعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن؛ للوصول إلى معانيها، ثم النظر إلى ما فيها من الأحكام والمعارف والعلوم والعمل(١).

وهذا معناه: أن كل فهم لا ينتج عنه العمل الذي يغير السلوك المعوج أو ينشئ سلوكًا مستقيمًا؛ فهو لا علاقة له بالتدبُّر في فتيل ولا قطمير؛ ذلك لأن التدبُّر ليس عملية آلية للنظر في آيات الله تعالى، وإنما هو انفعال ملازم للفهم الصحيح للآيات الكريمة؛ قال ابن عاشور: «والتدبُّر مشتق من الدُّبُر؛ أي: الظَّهْر، اشتقوا من الدُّبُرِ فعلًا، فقالوا: تدبَّر إذا نظر في دُبُرِ الأمر؛ أي: في غائبِهِ أو في عاقبتِهِ، فهو من الأفعال التي اشتُقَّت من الأسماء الجامدة.

والتدبُّر يتعدى إلى المتأمَّل فيه بنفسه، يقال: تدبَّر الأمر. فمعنى يتدبَّرون القرآن: يتأمَّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين؛ أي: تدبُّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمَّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق.

---

(١) مفهوم تدبُّر القرآن، للدكتور مساعد الطيار، ورقة ضمن أبحاث مؤتمر تدبُّر الأول ص٧٧.

وسياق هذه الآيات يرجح حمل التدبُّر هنا على المعنى الأول؛ أي: لو تأمَّلوا وتدبَّروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام. وكلا المعنيين صالح بحالهم، إلا أن المعنى الأول أشد ارتباطًا بما حكي عنهم من أحوالهم»[1].

وقال في موضع آخر: «إنه يتَعَقَّبُ ظواهرَ الألفاظ ليَعْلَمَ ما يدبر ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة»[2]. وقال في تفسير سورة القمر: «إن التدبُّر فيه يأتي بتجنب الضلال، ويرشد إلى مسالك الاهتداء»[3]. وقال في تفسير سورة التكاثر: «أعيد الزجر ثالث مرة زيادة في إبطال ما هم عليه من اللهو عن التدبُّر في أقوال القرآن، لعلهم يقلعون عن انكبابهم على التكاثر مما هم يتكاثرون فيه، ولهوهم به عن النظر في دعوة الحق والتوحيد»[4].

وقال أيضًا: «والتدبُّر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له. وأصله أنه من النظر في دبر الأمر؛ أي: فيما لا يظهر منه للمتأمِّل بادئ ذي بَدْء»[5].

من هذه النقول يتبين أن ابن عاشور يكاد يحصر التدبُّر في الفهم، ولكنه لا يمنع أن يقود الفهم إلى ما هو أحسن، إلا أنه لم يجعل هذا من شرط التدبُّر، وهذا محل اعتراض على هذا التعريف، ولعله من المناسب أن ننتقل إلى الآيات التي ورد فيها لفظ التدبُّر لننظر كيف فسرها ابن عاشور:

الآية الأولى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]؛ قال ابن عاشور: «الفاء تفريع على الكلام السابق المتعلق بهؤلاء المنافقين أو الكفرة الصرحاء، وبتوليهم المعرض بهم في شأنه بقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]، ثم تدبير العصيان فيما وُعِدوا بالطاعة في شأنه، ولما كان ذلك كله أثرًا من آثار استبطان الكفر، أو الشك، أو اختيار ما هو في نظرهم أولى مما أُمروا به، وكان استمرارهم على ذلك- مع ظهور دلائل الدين- منبئًا بقلة تفهمهم القرآنَ، وضعفِ استفادتهم، كان المقام لتفريع

(١) تفسير ابن عاشور، ج٥/١٣٧.

(٢) المصدر السابق ج٢٣/٢٥٢.

(٣) السابق ج٢٧/٢٠٣.

(٤) السابق ج٣٠/٥٢١.

(٥) السابق ج١٨/٨٧.

الاستفهام عن قلة تفهمهم. فالاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجيب منهم في استمرار جهلهم مع توفر أسباب التدبير لديهم.

تحدى الله تعالى هؤلاء بمعاني القرآن، كما تحداهم بألفاظه لبلاغته؛ إذ كان المنافقون قد شكوا في أن القرآن من عند الله، فلذلك يظهرون الطاعة بما يأمرهم به، فإذا خرجوا من مجلس النبيِّ ﷺ خالفوا ما أمرهم به لعدم ثقتهم، ويشككون ويشكون إذا بدا لهم شيء من التعارض، فأمرهم الله تعالى بتدبير القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] الآية.

والتدبُّر مشتق من الدُّبُر؛ أي: الظهر، اشتقوا من الدُّبُرِ فعلًا، فقالوا: تدبَّر إذا نظر في دُبُرِ الأمر؛ أي: في غائبِهِ أو في عاقبتِهِ، فهو من الأفعال التي اشتقت من الأسماء الجامدة.

والتدبُّر يتعدى إلى المتأمَّل فيه بنفسه، يقال: تدبَّر الأمر. فمعنى يتدبَّرون القرآن: يتأمَّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يتأمَّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين؛ أي: تدبُّر تفاصيله.

وثانيهما: أن يتأمَّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق.

وسياق هذه الآيات يرجح حمل التدبُّر هنا على المعنى الأول؛ أي: لو تأمَّلوا وتدبَّروا هدي القرآن لحصل لهم خير عظيم، ولما بقوا على فتنتهم التي هي سبب إضمارهم الكفر مع إظهارهم الإسلام. وكلا المعنيين صالح بحالهم، إلا أن المعنى الأول أشد ارتباطًا بما حكي عنهم من أحوالهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾... إلخ: يجوز أن يكون عطفًا على الجملة الاستفهامية، فيكونوا أمروا بالتدبُّر في تفاصيله، وأعلموا بما يدل على أنه من عند الله، وذلك انتفاء الاختلاف منه، فيكون الأمر بالتدبُّر عامًّا، وهذا جزئيٌّ من جزئيات التدبُّر، ذُكِر هنا انتهازًا لفرصة المناسبة لغَمْرِهم بالاستدلال على صدق الرسول، فيكونُ زائدًا على الإنكار المسوق له الكلام، تعرَّضَ له؛ لأنه من المهم بالنسبة إليهم إذ كانوا في شك من أمرهم»[1].

(١) تفسير ابن عاشور ج٥/١٢٧.

الآية الثانية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

قال ابن عاشور: «أي: هلَّا تدبَّروا القرآن عوض شغل بالهم في مجلسك بتتبع أحوال المؤمنين. أو تفريع على قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾؛ والمعنى: أن الله خلقهم بعقول غير منفعلة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبَّرون القرآن مع فهمه، أو لا يفهمونه عند تلقيه، وكلا الأمرين عجيب»(١).

الآية الثالثة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون].

قال ابن عاشور: «والمعنى: أنهم لو تدبَّروا قول القرآن لعلموا أنه الحق، بدلالة إعجازه، وبصحة أغراضه، فما كان استمرار عنادهم إلا لأنهم لم يَدَّبَّروا القول. وهذا أحد العلل التي غَمَرَتْ بهم في الكفر»(٢).

الآية الرابعة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

قال ابن عاشور: «والتدبُّر: التفكر والتأمُّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليلِ اللفظ كثيرِ المعاني التي أُودِعَت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبِّر تدبُّرًا انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر»(٣).

مما سبق يتبين بوضوح: أن ابن عاشور فسر التدبُّر في هذه الآيات بالفهم، وهذا التفسير في نظر الباحث قاصر جدًّا، فليس المراد مجرد الفهم، وإنما الفهم المستلزم لسلوك عملي تصحيحًا أو إيجادًا لسلوك إيجابي؛ ليكون المتدبِّر للقرآن صورة عملية لأحكام القرآن المختلفة في سلوكه منفردًا أو على مستوًى أعلى.

أقصد بهذا المبحث: بيان ما أراده ابن عاشور من تفسيره وكيف سلكه، وذلك بذكر الوسائل والطرق المختلفة التي استعملها ابن عاشور حتى وصل إلى ما وصل إليه.

---

(١) السابق ج٢٦/١١٣.

(٢) السابق ج١٨/٨٨.

(٣) السابق ج٢٣/٢٥٢



المبحث الثالث

في الإطار النظري للتدبر في تفسيره

قدم ابن عاشور كتابه بمقدمة بيَّنَ فيها عن الأشياء التي أهمته في التفسير فقال: «وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضًا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأمِّلين لفضل القول تتطلع، أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقًّا على المفسر.

ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها؛ لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورًا على بيان مفرداته ومعاني جمله، كأنها فِقَرٌ متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله.

واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية، بضبطٍ وتحقيقٍ مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة، وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائدَ ونُكَتًا على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هِمَم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير. وسميته: «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»»[1].

(١) تفسير ابن عاشور ج١/٨.



هذا هو الهدف الذي وضعه ابن عاشور لإقامة هذا التفسير، وقد سلك عدة مسالك، واتخذ وسائل متعددة ومتنوعة في سبيل الوصول إلى مبتغاه، ولا شك أن التدبُّر- من حيث معناه الذي وضعه ابن عاشور وهو الفهم- هو من أهم ما عُنِيَ به في تفسيره؛ لذا كانت وسائل الفهم هي وسائل تدبُّر القرآن الكريم عند ابن عاشور، وهي على النحو التالي:

أولًا: الأسس الرئيسة في تدبُّر القرآن عند ابن عاشور كما هي مبثوثة في تفسيره:

من يقرأ تفسير ابن عاشور يجد أنه جعل لتدبُّر القرآن أسسًا لا ينبغي لأحد أن يتجاوزها، وهذه الأسس الرئيسة يمكن إدراكها من خلال النظر في هذا العمل الضخم، وهي:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- التفسير بالمأثور والنقل عن السلف.
- العناية باللغة العربية.

أما تفسير القرآن بالقرآن: فقد عده ابن عاشور من التفسير نفسه لا من مَدَدِه، فقال: «... ولا يعدّ- أيضًا- من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنًى يفسر بعضًا آخر منها؛ لأن ذلك من قَبيل حمل بعض الكلام على بعض؛ كتخصيص العموم، وتقييد المطلق، وبيان المجمل... وغير ذلك»(١).

وهذا النوع من أشرف علوم القرآن وأهمها؛ لأن صاحب الكلام أدرى بما فيه، ولهذا يعد هذا من أصح طرق التفسير عند العلماء قاطبة، وقد اهتم به ابن عاشور كثيرًا في تفسيره وتدبُّره لكتاب الله تعالى، وهو حقيق بالاهتمام، ومن الأمثلة على هذا ما ذكره عند تفسيره قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، حيث قال: «والدم هنا هو: الدم المُهْرَاقُ؛ أي: المسفوح، وهو الذي يمكن سيلانه كما صرَّح به في آية الأنعام، عملًا لمطلق هذه الآية على مقيَّد آية الأنعام»(٢).

---

(١) تفسير ابن عاشور ج١/ ٢٧. ومراده باستمداد العلم: توقفه على معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدوّنيه؛ لتكون عونًا لهم على إتقان تدوين ذلك العلم. ١/ ١٨.

(٢) التفسير ج ٦/ ٨٩، وآية الأنعام هي قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ومنه: ما ذكره عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، حيث قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ﴾ عطف على الرؤيا؛ أي: ما جعلنا ذكر الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس. وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان]، وقوله: ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة]»[1].

وهذا يدل على أن ابن عاشور قد وضع نصب عينيه قواعد التدبُّر الصحيحة[2].

ومما يُحمَد لابن عاشور في هذا الباب: تنبيهه على كثرة ما يقع عند المفسرين من تنظير بعض الآيات ببعض لاشتراكهما في بعض الألفاظ، وأن هذا مما لا يصح حمله على تفسير القرآن بالقرآن، وهذا من ابن عاشور شيء إيجابي في تقويم طريق التدبُّر، ومن الأمثلة على هذا ما ذكره عند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة]، حيث قال: «وينبغي أن يكون المراد بـ«الإنسان»: الكافر، جريًا على سياق الآيات السابقة؛ لأنه المقصود بالكلام، وإن كان كل إنسان ينبَّأ يومئذ بما قدَّم وأخَّر من أهل الخير ومن أهل الشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد؛ فإن في القرآن فنونًا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة، وهذا مما يَغْفُل عن مراعاته بعض المفسرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة»[3].

وأمَّا ما يتعلق بالتفسير المأثور والنقل عن السلف؛ فقد كان محلًّا لاهتمام ابن عاشور في تدبُّره لكتاب الله تعالى، ولا شك أيضًا في أهمية ذلك في الإعانة على تدبُّر القرآن الكريم، وقد اهتم ابن عاشور في تفسيره بالأحاديث اهتمامًا عظيمًا، ولا ريب؛ فإن هذا الاهتمام دليل على أهمية الأحاديث في تفسير القرآن الكريم وتدبُّره.

---

(١) السابق ج١٥/ ١٤٧.

(٢) هناك ملاحظات كثيرة على ابن عاشور في هذا الجانب ليس هنا مجال لذكرها.

(٣) التفسير ج ٢٩/ ٣٤٦.

والاهتمام بالأحاديث في المرتبة الثانية بعد تفسير القرآن بالقرآن، فإن السنة هي شارحة للقرآن وموضحة له[1]، وإنما يكون الموضِّح في ثاني المراتب بعد الموضَّح، وهي أحد العواصم من الوقوع في خطأ الفهم والتدبُّر.

وخير ما ينبغي أن يُتَعلق به في هذا الباب هو أحاديث النبي ﷺ نفسه في التفسير؛ فهي خير ما يستعان به في فهم الآيات وتدبُّرها. هذا، وقد أكثر ابن عاشور من ذكره للأحاديث التي يراها تصلح في تفسير الآيات، وهذا بابٌ الخلاف فيه كبير فلا نطيل في الوقوف عنده هنا.

على أنه ينبغي التنبيه إلى أن ابن عاشور كان ينبه على بعض الأخطاء المتعلقة بالاستشهاد بالحديث في التفسير، ومن هذا تنبيهه على عدم صحة الاستشهاد- مع شهرته- عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص] حيث قال: «والذي يظهر من السياق أن قوله تعالى: {وألقينا على كرسيه جسدًا} إشارة إلى شيء من هذه الفتنة؛ ليرتبط قوله: {ثم أناب} بذلك. ويَحتمِل أنه قصة أخرى غير قصة فتنته. وأظهرُ أقوالِهم أن تكون الآية إشارة إلى ما في «صحيح البخاري»: عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**[2]». وليس في كلام النبي ﷺ أن ذلك تأويل هذه الآية، ولا وَضَعَ البخاري ولا الترمذي الحديث في التفسير من كتابيهما. قال جماعة: فذلك النصف من الإنسان هو الجسد الملقى على كرسيه، جاءت به القابلة فألقته له وهو على كرسيه، فالفتنة على هذا: خيبة أمله ومخالفة ما أبلغه صاحبه.

وإطلاق الجسد على ذلك المولود إما لأنه وُلِدَ ميتًا، كما هو ظاهر قوله: «شِق رجل»، وإما لأنه كان خلقة غير معتادة فكان مجرد جسد. وهذا تفسير بعيد؛ لأن الخبر لم يقتض أن الشِّق الذي ولدته المرأة كان حيًّا، ولا أنه جلس على كرسي سليمان. وتركيب هذه الآية على ذلك الخبر

(١) تفسير ابن كثير ج١/ ٣.

(٢) أخرجه البخاري (٨/١٣٠/٦٦٣٩) ومسلم (٣/١٢٧٦/١٦٥٤).

تكلف»[1]. وهذا الأمر مع شهرته بين المفسرين إلا أن ما ذهب إليه ابن عاشور أقوم مذهبًا وأسد رأيًا.

كما اهتم ابن عاشور بالنقل عن السلف، فغَدَا تفسيره مسرحًا لأقوالهم، ولا شك عندي أن هذا مما يوقف المتدبِّر على الطريق الصحيح، وأقوال السلف رحمهم الله فيها خير كثير، سواء أكان ذلك في التفسير والتدبُّر أم غيره.

وأما ما يتعلق بالاهتمام باللغة والعناية بها، فلعل الباحث الفاضل محمد النذير عبر تعبيرًا يوحي باهتمام ابن عاشور بهذا الجانب فقال: «تشكل اللغة بشتى فروعها أهم مرتكزات ابن عاشور في تفسيره، فهو يستعمل آلاتها بدقة فائقة، مما ينم عن تمكنه منها، ولا يكاد يخط سطرًا في كتابه إلا ويُهْرَع إليها، فإن كانت المسألة لغوية أتى على معاني الكلمة من كل جوانبها، وإن كانت نحوية أحاط من خلالها بكل احتمالاتها، وإذا كانت بلاغية ولج من بابها ولوج من يحسن فتح المغاليق من أسرارها، ليتلمس بعدها بذوقه مواطن البيان والإعجاز في الآية المراد تفسيرها»[2].

وهذا بالطبع يدل على مدى عناية ابن عاشور بهذه اللغة التي وصفها وصفًا دقيقًا بقوله: «إن العرب أمة جبلت على ذكاء القرائح وفطنة الأفهام، فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب كلامهم، وبخاصة كلام بلغائهم، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم؛ لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين؛ كما يقال: لمحة دالة، لأجل ذلك كثر في كلامهم المجاز، والاستعارة، والتمثيل، والكناية، والتعريض، والاشتراك، والتسامح في الاستعمال كالمبالغة، والاستطراد، ومستتبعات التراكيب، والأمثال، والتلميح، والتمليح، واستعمال الجملة الخبرية في غير إفادة النسبة الخبرية، واستعمال الاستفهام في التقرير أو الإنكار، ونحو ذلك. وملاك ذلك كله توفير المعاني، وأداء ما في نفس المتكلم بأوضح عبارة وأخصرها؛ ليسهل اعتلاقها بالأذهان، وإذ قد كان القرآن وحيًا من العلَّام سبحانه، وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله، وتحدَّى بلغاء العرب بمعارضة أقصر سورة منه- كما سيأتي في المقدمة العاشرة- فقد نُسِجَ نظمه نسجًا بالغًا منتهى ما تسمح به اللغة

(١) تفسير ابن عاشور ج٢٣/٢٦٠.

(٢) الاختيارات العلميَّة للعلامة محمد الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره، لمحمد النذير أوسالم، ص١٢٧.

العربية من الدقائق واللطائف لفظًا ومعنًى بما يفي بأقصى ما يراد بلاغة إلى المرسل إليهم، فجاء القرآن على أسلوب أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يسعهم إلا الإذعان، سواء في ذلك من آمن منهم مثل: لبيد بن ربيعة، وكعب بن زهير، والنابغة الجعدي، ومن استمر على كفره عنادًا مثل الوليد بن المغيرة.

فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معانيَ من المعاني المعتادة التي يودِعُها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقًا بأن يودَعَ فيه من المعاني والمقاصد أكثرُ ما تحتمله الألفاظ، في أقلِّ ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها، التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى»[1].

ثم كان اهتمامه بيِّنًا فيما تحتمله الآية من أساليب العرب وكيف يمكن التعامل معها، فقال: «وإنك لتمر بالآية الواحدة فتتأمَّلها وتتدبَّرها فتنهال عليك معانٍ كثيرة يسمح بها التركيب، على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي، وقد تتكاثر عليك، فلا تلك من كثرتِها في حَصْر، ولا تجعَلِ الحملَ على بعضها منافيًا للحمل على البعض الآخر إن كان التركيب سمحًا بذلك.

فمختلِف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن وتراكيبه وإعرابه ودلالته، من اشتراك، وحقيقة، ومجاز، وصريح، وكناية، وبديع، ووصل، ووقف، إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السياق، يجب حمل الكلام على جميعها»[2]. ولذا فإن ابن عاشور في تدبُّره للقرآن قد اهتم باللغة اهتمامًا عظيمًا، وذلك من خلال اللفظ وتركيبه واشتقاقه وأصله، ومن حيث النحو والإعراب، ومن حيث البيان والبلاغة، ومن حيثيات أخرى، لكن يعد ما ذكرته هو الأصول في هذا الباب، والأمثلة على هذا كثيرة ولا حصر لها، لكني سأكتفي بإيراد مثال واحد على كل أصل، والله المستعان.

فمما ذكره مما يخص اللفظ واشتقاقه قوله عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال: ١٦]، حيث قال: «والتحيز: طلب الحيِّز، فَيْعِلٌ من الحَوْزِ، فأصل إحدى ياءيه الواو، فلما اجتمعت الواو والياء، وكانت السابقة ساكنةً قُلبت الواو ياءً

(١) تفسير ابن عاشور، ج١/٩٣.

(٢) تفسير ابن عاشور ١/٩٧.

وأُدغمت الياء في الياء، ثم اشتقوا منه تحيَّزٌ، فوزنه: تَفَيْعُلٌ، وهو مختار صاحب «الكشاف» جريًا على القياس بقدر الإمكان، وجوز التفتازاني أن يكون وزنه تفعُّلٌ بناءً على اعتباره مشتقًّا من الكلمة الواقع فيها الإبدال والإدغام وهي الحيِّزُ، ونَظَّرَه بقولهم: «تَدَيَّرٌ» بمعنى الإقامة في الدار، فإن الدار مشتقة من الدوران؛ ولذلك جُمعت على دُور، إلا أنه لما كثر في جمعها ديار ودِيَرةٌ عوملت معاملة ما عيْنُه ياءٌ، فقالوا من ذلك: تَدَيَّرَ، بمعنى: أقام في الدار، وهو تَفَعَّلَ من الدار، واحتجّ بكلام ابن جني والمرزوقي في «شرح الحماسة». يعني ما قاله ابن جني في «شرح الحماسة» عند قول جابر بن حريش[1]:

إِذْ لَا تَخَافُ حُدُوجُنَا قَذْفَ النَّوَى قَبْلَ الْفَسَادِ إِقَامَةً وَتَدَيُّرَا

«التديُّرُ: تَفَعُّلٌ من الدار، وقياسه: تَدَوُّرٌ، إلا أنه لما كثر استعمالهم ديار أَنِسوا بالياء ووجدوا جانبها أوطأ حسًّا وألين مسًّا، فاجترَوْا عليها فقالوا: تَدَيُّرٌ». وما قال المرزوقي: «الأصل في تَدَيُّرٍ الواو، ولكنهم بنوه على ديار لإلفهم له بكثرة تردده في كلامهم»»[2].

ومن اهتمامه بقضايا النحو: ما ذكره عند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩]، حيث قال: ويُشكِل معنى الآية بأن علّة إرسال الرسول إليهم هو انتفاء أن يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ لا إثباته كما هو واضح، فلماذا لم يقل: ألا تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير؟[3] وقد جاء في القرآن نظائر لهذه الآية، وفي شعر العرب، كقول عمرو بن كلثوم:

فَعَجَّلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتُمُونَا[4]

أراد ألا تشتمونا، فاختلف النحويون في تقدير ما به يتقوّم المعنى في الآيات وغيرها: فذهب البصريون إلى تقدير اسم يناسب أن يكون مفعولًا لأجله لفعل {جَاءَكُمْ}، وقدّروه «كراهية

(١) هو من شعراء الحماسة، وانظر خبر أبياته في شرح التبريزي على الحماسة ٢/ ٧٣.

(٢) التفسير ج٩/ ٢٩٠، «والفرق بين الرأيين: أن الزمخشري نظر إلى الأصل، والتفتازاني جعل النظر إلى الكلمة بعد وقوع الإبدال فيها». انتهى. شيخنا ﷾.

(٣) في الأصل: «نذر».

(٤) البيت من المعلقة، وأوله: نزلتم منزل الأضياف منا. انظر شرح القصائد المشهورات (٢: ١٢٠)، وانظر ترجمته في شرح القصائد العشر للتبريزي ص٣١٨، والخزانة (٣: ١٨٣).

أن تقولوا»، وعليه درج صاحب «الكشاف» ومتابعوه من جمهور المفسرين، وذهب الكوفيون إلى تقدير حرف نفي محذوف بعد «أن» والتقدير: لئلَّا تقولوا، ودرج عليه بعض المفسرين، مثل البغوي، فيكون من إيجاز الحذف اعتمادًا على قرينة السياق والمقام.

وزعم ابن هشام في «مغني اللبيب»: أنه تعسُّف، وذكر أن بعض النحويين زعم أن من معاني «أن» أن تكون بمعنى «لئلا»... ثم عقب بعد ذلك بذكر سبب هذا الخلاف[1].

ومن اهتمامه بالبيان والبلاغة ما ذكره في تفسيره إذ قال: وقد يُختار في القرآن الكريم التعبير لملحظ اجتماعي مهم، وهو الحفاظ على حقوق النساء التي هضمت في الجاهلية، وذلك في قوله تعالى مثلًا ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، فإنه جعل المماثلة بحظ الأنثيين، فكان هو المقاس عليه في بيان الحظوظ، وليس ذلك لغير داع، يقول الشيخ: «جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر، ولم يكن قد تقدم تعيين حظ للأنثيين حتى يقدر به، فعلم أن المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منهم، وقد كان هذا المراد صالحًا لأن يؤدى بنحو: للأنثى نصف حظ ذكر، أو للأنثيين مثل حظ ذكر؛ إذ ليس المقصود إلا بيان المضاعفة، ولكن قد أوثر هذا التعبير لنكتة لطيفة، وهي الإيماء إلى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر؛ إذ كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهلية، فصار الإسلام ينادي بحظها في أول ما يقرع الأسماع قد علم أن قسمة المال تكون باعتبار عدد البنين والبنات»[2].

فيا للهِ لروعةِ هذا الكتاب الخالد! وهكذا سار ابن عاشور مع هذه الأسس التدبُّرية في تفسيره.

ثانيًا: اعتماد ابن عاشور على مصادر كثيرة في تفسيره:

ولقد اعتمد ابن عاشور في تفسيره على مصادر متنوعة في أبحاثه العلميَّة، وأصحابِها مختلفي المشارب، والأهواء الفكرية والعقدية، فكانت مصادره في مجملها تزيد على أربعمئة وخمسين مصدرًا[3]. ولا شك عندي في أن هذا يعد من روافد تقريب التدبُّر؛ فإن الاستعانة بفهوم السابقين توفر وقتًا كثيرًا، وتحفز إلى المزيد من التدبُّر والفهوم، ولست هنا بصدد بيان

(١) التفسير ج١٥٩/٦.

(٢) تفسير ابن عاشور ج ٤/ ٢٥٧.

(٣) تفسير ابن عاشور دراسة منهجية ونقدية، جمال أبو حسان، ج٩٥/١.

الملاحظات التي اكتنفت عمل ابن عاشور في التعامل مع مصادره التي استعملها في التفسير وأفاد منها، على أني سألتزم بإيراد ما أراه من ملاحظات فيما يخص ذات التدبُّر والتأثير عليه، ومع هذا فلا بد من بيان أن ابن عاشور في تدبُّره للقرآن أثناء نقله عن غيره تكون شخصيته ظاهرة؛ إذ إنه لا يسلِّم بكل ما ينقل.

ومما يؤخذ عليه أحيانًا اتهام المفسرين بالحيرة في التفسير[1]، وهذا الوصف قد يدفع الواصف إلى الاعتداد الشديد برأيه ولو في غير محله؛ مما يؤثر سلبًا على نقاء التدبُّر، ومن الجميل بيان موقفه من المفسرين عامة، فها هو يقول: «ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضرر كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذِّبه ونزيده، وحاشا أن ننقصه أو نبيده، عالمًا بأن غمص[2] فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايا سَلفِها ليس من حميد خصال الأمة»[3].

ولذا يرى ابن عاشور أنه لا ينبغي الوقوف عند أقوال السابقين فقط؛ فقال:

«فجعلت حقًا عليَّ أن أبدي في تفسير القرآن نُكَتًا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها، وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المُعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد[4].

ثالثًا: مقدمات التفسير والإبداع العالي في مقدمة تفسير كل سورة:

وضع ابن عاشور عشر مقدمات لتفسيره، أبان فيها عن قضايا كثيرة مما ينبغي للمفسر المتدبِّر أن يُعنَى بها، وفي هذه المقدمات قضايا كثيرة هي موضع جدل واختلاف، وتستحق هذه المقدمات أن تفرد ببحث نقدي مستقل، والذي يهمنا من هذه المقدمة ما له تعلق مباشر بأن

(١) تفسير ابن عاشور ج١٩/١٦٨.

(٢) عالمًا حال من الضمير في «نعمد». و«غمص» مجاز في الستر والتفاؤل كذا يفهم من الأساس باب غمص ص٣٢٩، طبع دار المعرفة بيروت، بتحقيق الأستاذ عبدالرحيم محمود سنة ١٩٧٩م.

(٣) السابق ١/ ٧ والعبارة أصلها: وليس من حميد خصال الأمة جحد مزايا سلفها.

(٤) السابق ١/ ٧.

يكون غرضًا للمفسر أثناء تفسيره وتدبُّره للقرآن الكريم، وما ذكره هو في المقدمة الرابعة فقد قال في طالعة هذه المقدمة: «إن القرآن أنزله الله تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم، لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]؛ فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.

وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولًا من الصلاح الفردي؛ إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبَّر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك؛ إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع»[1].

ثم قفَّى ذلك ببيان المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها، وهي- كما يقول- ثمانية أمور هي: «١-إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح ٢- تهذيب الأخلاق ٣- التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة ٤- سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه: صلاح الأمة وحفظ نظامها؛ كالإرشاد إلى تكوين الجامعة ٥- القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم ٦- التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين ٧- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير ٨- الإعجاز بالقرآن؛ ليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ»[2].

ثم قفَّى ذلك بقوله: «فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ، من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف

(١) تفسير ابن عاشور ج١/٣٨.

(٢) السابق ج١/٤٠.

عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلًا وتفريعًا كما أشرنا إليه في المقدمة الأولى، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ»[1].

هذه المقدمة تبين بوضوح منهج ابن عاشور في التدبُّر، وهو بلا شك ينزع إلى أن التدبُّر قصاراه في الفهم، ولذا لم يتحدث بشكل مباشر عن انعكاسات هذا الفهم على السلوك الفردي أو الجماعي، نعم يمكن أن يفهم هذا من بين السطور، لكن في التصريح به أهمية كبيرة قد تغير مسار التفسير.

ثم أبدع ابن عاشور إبداعًا بوضع مقدمات لكل سورة، حيث يدخل إلى تفسير السورة الكريمة ببعض المعلومات المتعلقة بها، وهذه المعلومات هي من الأهمية بمكان، بل لا غرابة إذا قلت: إن هذه المعلومات هي من أدق وأمتع ما كُتب في هذا التفسير من التحقيق العلمي، ويبدأ ابن عاشور تدبُّره للسورة بتحقيق اسمها الوارد فيها، وقد يطول التحقيق إلى معلومات مكرورة تمتد إلى أكثر من صفحتين، كما فعل في تحقيق اسم سورة السجدة[2]، ثم يقفيِّ بتحقيق ما يتعلق بالمكي والمدني في هذه السورة وتاريخ نزولها، وهذا يوفر على المتدبِّر كثيرًا من العناء الخاص بمثل هذا التحقيق، ويحول بينه وبين الوقوع في الخطأ أثناء تدبُّره للآيات الكريمة، وقد أبدع فيه ابن عاشور أيما إبداع، ثم يتحدث عن ترتيب نزول سور القرآن، وهذا قد يعين المتدبِّر على معرفة ترتيب السورة فيضبط ما فيها من أحكام، ولا يقع فيما يشوش فكره في هذا الجانب.

ثم يعرض لعدد آيات السورة، ويبين الخلاف بين العلماء في ذلك، ثم يعرض ملخَّصًا لأغراض السورة وما اشتملت عليه من موضوعات رئيسة، ثم يحقق ابن عاشور في سبب النزول إن كان لنزول السورة سبب، وأحيانًا يعرض إلى سبب نزول بعض الآيات إن كان ثم خطأ في فهمها من قبل بعض المتدبِّرين، وقد حقق ابن عاشور في هذا الجانب ما هو حقيق بالثناء عليه، وأعان في ضبط فهم الآية على الطريق الصحيح.

ويحسن أن أذكر هنا مثالًا لتصحيح الفهم الذي وقع بين المتدبَّرين، ولا تزال آثاره إلى اليوم في المؤلفات والكتب، فقد حقق ابن عاشور ما يتعلق بسورة التحريم من حيث سبب النزول؛ فقال: «وسبب نزولها حادثتان حدثتا بين أزواج النبي ﷺ:

(١) تفسير ابن عاشور ج١/٤١.

(٢) ج٢١/٢٠١-٢٠٣.

إحداهما: ما ثبت في الصحيح عن عائشة؛ أن النبي ﷺ كان شرب عسلًا عند إحدى نسائه، اختُلف في أنها زينب بنت جحش، أو حفصة، أو أم سلمة، أو سودة بنت زمعة، والأصح أنها زينب، فعلمت بذلك عائشة، فتواطأت هي وحفصة على أنه أيهما دخل عليها تقول له: إني لأجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ والمغافير: صمغ شجر العرفط وله رائحة مختمرة، وكان النبي ﷺ يكره أن توجد منه رائحة، وإنما تواطأتا على ذلك غيرة منهما أن يحتبس عند زينب زمانًا يشرب فيه عسلًا، فدخل على حفصة فقالت له ذلك، فقال: «**بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ فُلَانَةَ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ**». أراد بذلك استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها ألا تخبر عائشة بذلك؛ لأنه يكره غضبها، فأخبرت حفصة عائشة فنزلت الآيات.

هذا أصح ما روي في سبب نزول هذه الآيات. والتحريم هو قوله: «**وَلَنْ أَعُودَ لَهُ**»؛ لأن النبي ﷺ لا يقول إلا صدقًا، وكانت سودة تقول: لقد حرمناه[1].

والثانية: ما رواه ابن القاسم في المدونة، عن مالك، عن زيد بن أسلم، قال: حرم رسول الله ﷺ أم إبراهيم جاريته، فقال: «وَاللهِ لَا أَطَؤُكِ»، ثم قال: «**هِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ**»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم]، وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس، عن عمر، قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها، فقالت حفصة: تدخلها بيتي؟! ما صنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فقال لها: لا تذكري هذا لعائشة، فهي علي حرام إن قربتها. قيل: فقالت له حفصة: كيف تحرم عليك وهي جاريتك؟ فحلف لها ألا يقربها، فذكرته حفصة لعائشة، فآلى ألا يدخل على نسائه شهرًا، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، وهو حديث ضعيف[2].

(١) تفسير ابن عاشور ٢٨/ ٣٤٤ وهذا الحديث رواه البخاري في غير ما موضع من كتابه؛ منها في التفسير ٨/ ٦٥٦ رقم ٤٩٢١ ومنها في الحيل ١٢/ ٣٤٢ رقم ٦٩٧٢. ورجح ابن حجر في مجموع الروايات لهذا الحديث أن الشارب عندها هي زينب ٩/ ٣٧٦ من الفتح، وروى هذا الحديث أيضًا الإمام مسلم في الصحيح ١٠/ ٧٣.

(٢) السابق ٢٨/ ٣٤٤-٣٤٥، وهذا الحديث رواه الدارقطني في سننه ٤/ ٤١-٤٢ والطبري في التفسير بأسانيد عدة ١٨/ ١٠٠-١٠٢ والواحدي في أسباب النزول ٤٦٦. فأما رواية الدارقطني فقال في التعليق المغني: «إن فيها راويًا واهيًا»؛ أي: ذاهب الحديث ٤/ ٤٢ وقد ذكر أيضًا أن هذا الحديث أخرجه الهيثم بن كلب في مسنده بإسناد صحيح،

وفي هذا التحقيق تدفع عادية الظلم ونسبتها إلى رسول الله ﷺ، ثم يذكر ابن عاشور أحاديث في فضائل السور وهو يذكر الروايات الواردة، وأغلبها للأسف روايات ضعيفة، لكنه ينبه على ضعفها.

هذا هو ما يذكره ابن عاشور في طالعة كل سورة، وأنا أرى هنا أن تستخرج هذه المعلومات وتوضع في كتاب خاص ينسب لابن عاشور، ويقرر على طلبة الدراسات الشرعية؛ لأنه يوفر عليهم عناء البحث، ويصرف هممهم إلى تدبُّر القرآن دون إشغال الفكر في تلك المقدمات.

رابعًا: تفسير السورة والإغراق في التفاصيل:

سلك ابن عاشور في تدبُّره وتفسيره للقرآن مسلكًا تبدو معالمه في عشر قضايا[1]، أذكرها على سبيل الإجمال، ثم أذكر ما يستدعيه المقام في هذه العجالة من الملاحظات[2].

أولًا: يسير ابن عاشور مع السورة القرآنية مقسمًا إياها إلى مقاطع، وتتفاوت هذه المقاطع كمًّا من سورة إلى أخرى، بل وفي السورة نفسها، والغالب أن تكون هذه المقاطع متحدة الفكرة الخاصة، وذات إطار موضوعي واحد، غير أن هذا لا يكون دائمًا متيسرًا، بسبب أن الموضوع قد تكون آياته كثيرة، أو قصيرة، لكنها طويلة[3]، فيكون التقطيع بحسبه.

ثانيًا: يبتدئ باللفظة القرآنية، أو الجملة القرآنية، فيعرض لمعانيها واشتقاقها وما يتعلق بها من أمور لغوية، من حيث ورودها في أساليب الفصحاء، والاستشهاد على ذلك بأشعار العرب وأمثالهم، إلى غير ذلك.

واختاره الحافظ المقدسي في كتابه المستخرج ٤/ ٤١ وانظر الفتح ٨/ ٦٥٧ وقال في التعليق: «إن رواية الطبري سندها صحيح عن زيد بن أسلم لكنه مرسل» ٤/ ٤٢-٤٣. وقال الحافظ في الفتح: «إن النسائي أخرج القصة بسند صحيح عن أنس، وقال: إنه أصح طرق هذا السبب». وقال أيضا بعد أن ذكر أن طرق هذا الحديث يشد بعضها بعضًا؛ قال: «ويحتمل أن الآية نزلت في السببين معًا» ٨/ ٦٥٧. ونقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض: «أن الصحيح في سبب نزول الآية أنها في قصة العسل، لا في قصة مارية المروي في غير الصحيحين، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح». انتهى ١٠/ ٧٧، قلت: وهو الصواب إن شاء الله.

(١) تفسير ابن عاشور دراسة منهجية ونقدية ج١/٢٠٣.

(٢) سأجعل للملاحظات على منهجه في التدبُّر مكانًا خاصًّا.

(٣) راجع أيضًا ابن عاشور ومنهجه في التفسير للربس ص٢٩٩، وتفسير ابن عاشور هدفه ومصادره ص١٧ وما بعدها.

ومما ينبغي بيانه أن ابن عاشور أغرق في التفاصيل في هذا الجانب إغراقًا شديدًا، بحيث كان له أثر على سلوكه في التدبُّر الصحيح؛ لأن هذه التفاصيل أصبحت هدفًا في تفسيره.

ثالثًا: يذكر ابن عاشور نظائر الآية القرآنية أو الآيات، وهو ما يسمى بتفسير القرآن بالقرآن.

رابعًا: يستشهد على ما يقول بالأحاديث الشريفة، والآثار المروية عن السلف لتوضيح المعنى المقصود، وهو في ذلك مختار مناقش مرجح.

خامسًا: يعرض لبيان المناسبة بين المقطع المختار أو الآية لما قبلها.

سادسًا: يقوم بدفع الإشكالات التي يمكن أن تبدو من ظاهر النَّظْم في الآيات الكريمة إن وجدت، وقد يبتدئها، وعلى أسلوب «فإن قلت» أحيانًا.

سابعًا: إذا تحدثت الآيات القرآنية ذات المقطع الواحد عن موضوع معين، أو كان ثمة موضوع كثر فيه الكلام من المتقدمين، فإن ابن عاشور يتابعهم فيعرض لتفاصيل تتعلق بذلك، وقد كثر هذا في التفسير، بحيث يمكن اعتباره من معيقات التدبُّر.

ثامنًا: عند مروره بآيات الأحكام، وآيات العقيدة، أو الآيات التي اتخذت لها مواضع خاصة في علوم القرآن وغيرها من المباحث، يعرض ابن عاشور لذكر خلاف العلماء في تلك الآيات، ويفصل في تلك القضايا بما هو مناسب عنده، وهذا أيضًا كثير في التفسير.

تاسعًا: عرض إلى إشارات علمية عند تفسيره لبعض الآيات القرآنية الكريمة.

عاشرًا: استخدم الحاشية لأغراض متعددة في تفسيره.

هذه هي طريقته التي سار عليها في تفسيره سور القرآن الكريم وتدبُّرها، غير أنه لا يلتزم ترتيبًا معينًا لهذه الأسس العشرة المتقدمة، فكثيرًا ما يكون هناك تقديم وتأخير فيها، وذلك بحسب المقطع المفسر.

والحقيقة: أني من خلال قراءتي في هذا التفسير وجدت أن ما صنعه ابن عاشور هو مجرد الفهم المجرد لآيات الله تعالى، ولم يتعد في تفسيره إلى شيء آخر، وبذلك يتضح أن ابن عاشور أبدع في وضع مقدمات التدبُّر؛ ليعين قارئ القرآن على تدبُّره والسير به نحو التغيير إلى الأحسن.

المبحث الرابع

في الإطار العملي

أنا هنا معني بما قدمه ابن عاشور في تفسيره، بمعنى: أني أبحث في التفسير فحسب، وليس لي أي علاقة بكتب ابن عاشور الأخرى سوى ما يصلح شاهدًا لما أقول؛ لأن هذه هي طبيعة هذا البحث، وهكذا أريد أن يكون.

ولذا فإني أقول: لقد مُنِيَت الأمة الإسلامية بالاستعمار وتعطيل الشريعة الإسلامية نظامًا لحياة الناس، وابتلي الناس بالحرام على مختلف جبهات الحياة، وتفرقت البلدان الإسلامية بعد هدم الخلافة شذر مذر، وابتلي المسلمون بحكام هم في الحقيقة صنائع الاستعمار، بحيث صنعوا في المسلمين وإسلامهم ما لم يحلم المستعمرون به، ولذا كان من شغل المفسر مثل هذه القضايا، وكذلك ما انبثق منها من قضايا اجتماعية واقتصادية وسياسية وغير ذلك، شغل بها المفسر الحديث أيما شغل؛ لأنها تمثل بالنسبة إليه حديث الساعة.

ولهذا حاول المفسرون المحدثون أن يسيروا ضمن أطر عامة في التفسير، إضافة إلى تنوع اتجاهات التفسير الحاضر، فكانت هذه الأطر التي ساروا عليها تكاد تكون هي أهم ميزات التفسير المعاصر، وقد أجملها شيخ شيوخنا ﷺ في رسالته بقوله:

١) لقد حاول المفسرون المحدثون أن يعرضوا تفاسيرهم بأسلوب منسجم مع روح العصر وظروف أهله، مستمدين من القدامى الكثير الكثير.

٢) ألقى ظل العصر تساؤلات، ومشكلات إنسانية واجتماعية وعلمية، فتصدى هؤلاء- جزاهم الله خيرًا- لحلها في ضوء هدي القرآن وتفسير آياته.

٣) نقد كتب المتقدمين، وتبيين ما ينبغي أن يؤخذ أو يترك.

٤) تجلية الإعجاز القرآني في شتى نواحيه، مهيبين بالأمة أن تعتصم به[1].

(١) اتجاهات التفسير في مصر وسوريا ٢/٧٠٧.

وقبل المسير، لا بد من ذكر طائفة لأسماء بعض أهم الموضوعات التي كانت تتجاذبها التفاسير المعاصرة في ثناياها:

١) قضية الاجتهاد ونقض التقليد.

٢) قضايا السياسة والوطن.

٣) قضايا العلم والحرية.

٤) قضايا الاقتصاد الإسلامي.

٥) قضايا التشريعات الإسلامية، وخصوصًا المتعلقة بالأسرة، وتعدد الزوجات، والطلاق، والميراث، وحقوق المرأة.

٦) وحدة الأمة وموقف المسلمين من غيرهم.

٧) عرض قضايا الاعتقاد بسهولة، ومحاولة التركيز على أن الإسلام دين العقل، والوقوف الحازم أمام تيارات الإلحاد، وتزييف شُبَه المبطلين وافتراءاتهم[١].

وابن عاشور من المفسرين المعاصرين، فأين كان تفسيره بالنسبة لتفاسير المعاصرين؟ وهل شغل نفسه بما شغل به المفسرون المعاصرون أنفسهم؟

نستطيع نحن بكل هدوء أن نقسم المرحلة الزمنية التي عاشها ابن عاشور من هذه الجهة إلى قسمين[٢]:

القسم الأول: مرحلة الاستعمار الفرنسي المباشر، الذي امتد منذ ولادة الشيخ في عام ١٨٧٩م إلى حدود سنة ١٩٥٦م.

القسم الثاني: مرحلة العهد البورقيبي، وذلك إلى وفاة الشيخ ﷺ في عام ١٩٧٣م.

وهذان القسمان وإن كان لا بد منهما، فإن وقعهما على أمة الإسلام واحد، فالاستعمار بشقيه هو استعمار، وإنما الذي ينبغي ألا نقنع أنفسنا به: هو أن حريتنا باتت بأيدينا، إننا لا زلنا نعاني من آثار الاستعمار، بما خلفه من مآسٍ ودمار، يقود هذه المآسي أبناء أعزة من أبناء جلدتنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٣].

---

(١) راجع اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر لمحمد إبراهيم شريف ص٣٣٢ وما بعدها.

(٢) منهج الإمام ابن عاشور في التفسير للصحبي بن مسعود، بحث على الآلة الكاتبة غير منشور، ص٤.

(٣) تفسير التحرير والتنوير دراسة منهجية نقدية ج١/١٤.

يقول الفاضل ابن عاشور في وصف تلك الفترة: «استقر الاستعمار، وتوطد أمره، واستولى المستعمرون على أجهزة الحكم والإدارة كافة، فلم يبق لأبناء البلاد أميرِهم وحقيرِهم من الأمر شيء، واشتد ساعد الجالية الفرنسية، وتضخم عددها، ونفذ أمرها، وعلت كلمتها، فاعتبرت البلاد التونسية وطنًا لها، ووضعت أبناءها الأصليين ومصالحهم في مدرجه الإهمال، وصارت النظم كلها مبنية على التقاليد الغربية، مستخفة بالديانة الإسلامية والعوائد التونسية، وأصبح جميع المتصرفين الإداريين من الفرنسيين، لا يشاركهم إلا من لم يسهل صرفه من المواطنين القدماء، فبقي على كرسيه جسدًا، وصار ابن البلاد مهينًا ساقط الاعتبار، وأصبحت لغته مهجورة، والحكم حكم غيره، والبلاد لأمة غير أمته[1].

ويصور هذه المرحلة أحد الباحثين بقوله: شهدتْ تمكينًا واضحًا للفكر الغربي، وبدأت بالإجهاز على التعليم الزيتوني، وحل أوقافه، وبدأت تشكل هوية البلاد على أساس المشروع الثقافي الجديد، وقد ارتكز على الأسس التالية:

- التجزئة ومحاولة فصل تونس عن الفضاء الحضاري للأمة الإسلامية.
- العلمانية وبخاصة في مستوى مناهج التفكير وبرامج التعليم.
- تكريس العداء العقدي للدين، والاستخفاف برموزه وشعائره.

وهذه المرحلة شهدت أوج التمكين للمشروع الغربي، بل مشروع الإلحاق الحضاري بالآخر، وكان للزيتونة نصيب أوفر من الهجمة الشرسة على الدين وقلاعه، وكان الصدام واضحًا بين المشروع الثقافي المستند إلى الحضارة الغربية مرجعًا ونموذجًا بتدعيم من السلطة والنفوذ الأجنبي، الممتد بأشكال متعددة، وبين التدين التقليدي، المنتكس إلى الوراء، نتيجة القمع، واستحكام العداء للدين عمومًا[2].

---

(١) الحركة الأدبية والفكرية في تونس للفاضل بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس، ص٥٧-٥٨ وانظر: محمد الفاضل بن عاشور حياته وأثره الفكري للمختار بن أحمد عمار، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٥م، ص١١ وما بعدها. تونس وجامع الزيتونة للخضر حسين، نشر علي رضا التونسي، ١٩٧١م، ص١٣٣- ١٤٥. وقد كان إنشاء الجمعية الخلدونية ما بين ١٨٩٧م ١٩١١م.

(٢) منهج الإمام ابن عاشور للصحبي بن مسعود، ص٥- ٦.

ولنأخذ بعض الأمثلة من الموضوعات أو الآيات التي شغل المفسرون بها أنفسهم؛ لنرى موقع ابن عاشور في تفسيره من كل هذا.

أولًا: في شأن المرأة:

قال ابن عاشور: «ودين الإسلام حري بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف النوع الإنساني، والمربية الأولى، التي تُفيضُ التربية السالكة إلى النفوس قبل غيرها، والتي تصادف عقولًا لم تمسها وسائل الشر، وقلوبًا لم تنفذ إليها خراطيم الشيطان؟ فإذا كانت تلك التربية خيرًا، وصدقًا، وصوابًا، وحقًّا، كانت أول ما ينتقش في تلك الجواهر الكريمة، وأسبق ما يمتزج بتلك الفِطَر السليمة، فهيأت لأمثالها من خواطر الخير منزلًا رحبًا، ولم تغادر لأغيارها من الشرور كرامة ولا حبًّا. ودين الإسلام دين تشريع ونظام، فلذلك جاء بإصلاح حال المرأة، ورفع شأنها؛ لتتهيأ الأمة الداخلة تحت حكم الإسلام إلى الارتقاء وسيادة العالم»[1].

وكان قد تحدث عن شيء من حقوق المرأة حديثًا لا بأس به[2].

هذا ما ذكره ابن عاشور في شأن هذه القضية، مع قسوة العبارة على الإسلام في أول سطر، ولم ينبس ابن عاشور ببنت شفة في التفسير حول قضية تحرير المرأة التي شغلت العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، فسقط فيها ناس كان يُظَن احترامهم، وترك كل القضايا التي عصفت بالمسلمين مما له علاقة بحجاب المرأة المسلمة، والكلام الذي دار في شأن هذه القضية مما شغل الناس في ذلك الوقت، مع أن الكلام الجميل الذي ذكره لم يكن مانعًا له من الخوض في تدبُّر الآيات الكريمة على نحو يدلي فيه بدلوه في حل مشكلاتها، وهو من هو في المنصب في ذلك الوقت.

ثانيًا: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]:

عند هذه الآية كان المفترض في ابن عاشور أن يعرض لحال الأمة التي تفرقت شذر مذر، ومزقها الاستعمار شر ممزق، وأن يدعو إلى الوحدة الإسلامية، ويبين سبل الوصول إليها، لاسيما وهو شيخ الإسلام، ولكنه اقتصر في التفسير على معاني الألفاظ؛ فقال: «وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ ثَنَّى أَمْرَهم بما فيه صلاح أنفسهم لأخراهم، بأمرهم بما فيه صلاح

(١) التحرير والتنوير ج٢/٤٠٠.

(٢) السابق ج٢/٩٩.

حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق؛ ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء. والاعتصام: افتعال من عَصَمَ وهو طلب ما يَعْصِمُ؛ أي: يَمْنَعُ.

والحبل: ما يشد به للارتقاء، أو التدلي، أو للنجاة من غرق، أو نحوه. والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفافهم على دين الله ووصاياه وعهوده، بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقي إليهم من مُنقِذٍ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلى الله قرينةُ هذا التمثيل.

وقوله: «جميعًا» حال، وهو الذي رجح إرادة التمثيل؛ إذ ليس المقصود الأمر باعتصام كل مسلم في حال انفراده اعتصامًا بهذا الدين، بل المقصود الأمر باعتصام الأمة كلها، ويحصل في ضمن ذلك أمر كل واحد بالتمسك بهذا الدين، فالكلام أمر لهم بأن يكونوا على هاته الهيئة، وهذا هو الوجه المناسب لتمام البلاغة لكثرة ما فيه من المعاني، ويجوز أن يستعار الاعتصام للتوثيق بالدين وعهوده، وعدم الانفصال عنه، ويستعار الحبل للدين والعهود؛ كقوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ويكون كل من الاستعارتين ترشيحًا للأخرى؛ لأن مبنى الترشيح على اعتبار تقوية التشبيه في نفس السامع، وذلك يحصل له بمجرد سماع لفظ ما هو من ملائمات المستعار، بقطع النظر عن كون ذلك الملائم معتَبَرَةٌ فيه استعارةٌ أخرى؛ إذ لا يزيده ذلك الاعتبار إلا قوة. وليست الاستعارة بوضع اللفظ في معنى جديد، حتى يتوهم متوهم أن تلك الدلالة الجديدة الحاصلة في الاستعارة الثانية، صارت غير ملائمة لمعنى المستعار في الاستعارة الأخرى، وإنما هي اعتبارات لطيفة تزيد كثرتها الكلام حسنًا.

وقريب من هذا التوريةُ، فإن فيها حسنًا بإيهام أحد المعنيين مع إرادة غيره، ولا شك أنه عند إرادة غيره لا يكون المعنى الآخر مقصودًا، وفي هذا الوجه لا يكون الكلام صريحًا في الأمر بالاجتماع على الدين، بل ظاهره أنه أمر للمؤمنين بالتمسك بالدين، فيؤول إلى أمر كل واحد منهم بذلك على ما هو الأصل في معنى مثل هذه الصيغة، ويصير قوله: «جميعًا» محتمِلًا لتأكيد العموم المستفاد من واو الجماعة. وقوله: «ولا تفرقوا» تأكيد لمضمون «اعتصموا جميعًا» كقولهم: ذُمِمتَ ولم تُحْمَدْ»[1].

(١) التحرير والتنوير ج٤/٢٩.

ثالثًا: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة]

عند تفسيره هذه الآية، وفي بيان التعامل مع الحكام الفسقة قال: «وفي الآية: أن المتصف بالكبيرة ليس مستحقًّا لإسناد الإمامة إليه، أعني: سائر ولايات المسلمين: الخلافة والإمارة والقضاء والفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك. قال فخر الدين: قال الجمهور من الفقهاء والمتكلمين: الفاسق حال فسقه لا يجوز عقد الإمامة له. وفي «تفسير ابن عرفة» تسليم ذلك، ونقل ابن عرفة عن المازري، والقرطبيُّ عن الجمهور: إذا عُقِد للإمام على وجه صحيح ثم فسق وجار؛ فإن كان فسقه بكفر وجب خلعه، وأما بغيره من المعاصي فقال الخوارج والمعتزلة وبعض أهل السنة: يخلع، وقال جمهور أهل السنة: لا يخلع بالفسق والظلم وتعطيل الحدود، ويجب وعظه وترك طاعته فيما لا تجب فيه طاعة. وهذا مع القدرة على خلعه، فإن لم يُقْدَرْ عليه إلا بفتنة وحرب، فاتفقوا على منع القيام عليه، وأن الصبر على جوره أولى من استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء بانطلاق أيدي السفهاء والفساق في الأرض، وهذا حكم كل ولاية في قول علماء السنة.

وما نقل عن أبي حنيفة من جواز كون الفاسق خليفة، وعدم جواز كونه قاضيًا، قال أبو بكر الرازي الجصاص: هو خطأ في النقل»[1].

مثل هذا الكلام الذي ساقه هنا كان من أكبر الحوافز لديه لأنْ يرى ما يُحْدِثُه المستعمر ثم يسكت عنه، وكذا لم يُعرَفْ عن ابن عاشور أنه انتقد أو اعترض على أي عمل قام به الحبيب بورقيبة أيام حكمه، التي كان ابن عاشور يتبوأ فيها منصب شيخ الإسلام، بل إن القراءة في تاريخ ابن عاشور أيام الاستعمار تصيب الحليم برجة عنيفة مما يقرأ.

رابعًا: التعامل بالربا:

قال ابن عاشور: «ولقد قضى المسلمون قرونًا طويلة لم يروا أنفسهم فيها محتاجين إلى التعامل بالربا، ولم تكن ثرواتهم أيامئذٍ قاصرة عن ثروة بقية الأمم في العالم، أزمان كانت سيادة العالم بيدهم، أو أزمان كانوا مستقلين بإدارة شؤونهم، فلما صارت سيادة العالم بيد

(١) التحرير والتنوير ج١/٧٠٦.

أمم غير إسلامية وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثروة العالميَّة على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراباةَ في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين، دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون، وتحريم الربا في الآية صريح، وليس لما حرمه الله مبيح، ولا مَخْلَصَ من هذا المضيق إلا أن تجعل الدول الاسلامية قوانينَ ماليةً تبنى على أصول الشريعة في المصارف، والبيوع، وعقود المعاملات المركبة من رؤوس الأموال، وعمل العمـال، وحوالات الديون ومقاضاتها وبيعها، وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدارس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كل فرقة كما أمر الله تعالى»[1].

ومثل هذا الكلام كان ينبغي أن يملأ ابن عاشور تفسيره به؛ لأنه مما شغل الناس، وهذا هو التدبُّر الحقيقي للقرآن الكريم، ولكن للأسف كان هذا نادرًا جدًّا، ولا بد من التنبيه على جنوح ابن عاشور في مسألة تحريم ربا الفضل إلى خلاف ما عليه جمهور الفقهاء[2].

خامسًا: طبيعة المسائل الفقهية التي عرض لها في تفسيره:

لقد كان الشيخ تقليديًّا في عرضه مسائل الفقه، بحيث لم يتطرق إلى مستجدات العصر، أو المشكلات الفقهية التي يمكن أن تثار من خلال الآيات الكريمة، أو تجد استفسارًا عنها في الواقع المعاصر، ورغم تقليديته- التي طالت التفسير كله تقريبًا- فإنه نادرًا ما يعرج على مسألة فقهية معاصرة في تفسيره، وهاك مثالين على ذلك:

قال عند تفسيره قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧]: «وقد عرض غير مرة سؤال عما إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم قطعًا أو ظنًّا قريبًا من القطع، كمـا شوهد ذلك في مواسم الحج، فما يبقى منها حيًّا يباع وينفق ثمنه في سد خَلَّة المحاويج أجدى من نحره أو ذبحه حين لا يرغب فيه أحد، ولو كانت اللحوم التي فات أن قُطِعت وكانت فاضلة عن حاجة المحاويج يُعمَلُ تَصْبيرُها بما يَمْنع عنها التعفنَ فيُنْتَفع بها في خلال العام أجدى للمحاويج؟

---

(١) التحرير والتنوير ج٤/ ٨٦-٨٧.

(٢) السابق ج٣/ ٨٦ وما بعدها.

وقد ترددتْ في الجواب عن ذلك أنظارُ المتصدين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتفق كلمات من صدرت منهم فتاوى على أن تصبيرها منافٍ للتعبد بهديها.

أما أنا، فالذي أراه أن المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة الناس في أيام الحج؛ لينتفع بها المحتاجون في عامهم، أوفق بمقصد الشارع، تجنبًا لإضاعة ما فضل منها، رعيًا لمقصد الشريعة من نفع المحتاج وحفظ الأموال، مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٧]، جمعًا بين المقاصد الشرعية.

وتعرض صورة أخرى، وهي: توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة، بحيث لا يتعجل نحر جميع الهدايا في اليوم الأول طلبًا لفضيلة المبادرة، فإن التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها. وهذا قياس على أصل حفظ الأموال؛ كما فرضوه في بيع الفرس الحُبُس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع، وفي المعاوضة لِرُبْع الحُبُس إذا خرب. وحكم الهدايا مركب من تعبد وتعليل، ومعنى التعليل فيه أقوى، وعلته انتفاع المسلمين»[1].

ومنه: ما ذكره عن قصة الخصمين اللذين احتكما إلى داود ﷺ؛ حيث قال: «وفي هذا دليل شرعي على جواز وضع القصص التمثيلية التي يقصد منها التربية والموعظة، ولا يتحمل واضعها جرحةَ الكذبِ، خلافًا للذين نبزوا الحريري بالكذب في وضع «المقامات» كما أشار هو إليه في ديباجتها.

وفيها: دليل شرعي لجواز تمثيل تلك القصص بالأجسام والذوات إذا لم تخالف الشريعة.

ومنه: تمثيل الروايات والقصص في ديار التمثيل؛ فإن ما يجري في شرع من قبلنا يصلح دليلًا لنا في شرعنا إذا حكاه القرآن أو سنة النبي ﷺ ولم يرد في شرعنا ما ينسخه»[2].

ولا يخفى أن هذا الاستنباط مبني على أن الخصومة تمثيل، وأن الخصمين ملائكة، وهو لا يستقيم عند جمهرة المفسرين.

هذه بعض النماذج التي كان يمكن لتفسير ابن عاشور أن يزخر بها، ولكن للأسف لم يحدث هذا.

---

(١) التحرير والتنوير ج ١٧/ ٢٦٨.

(٢) السابق ج ٢٣/ ٢٣٨.

المبحث الخامس

ملاحظات عامة

أولًا: الإغراق في تفاصيل الدرس اللغوي:

وقد تنوعت اهتماماته وعناياته اللغوية بتنوع مفردات علم اللغة، فكان اهتمامه بنواحي اللغة والنحو يمكن إجماله في أهم القضايا التالية:

أ) بيان اشتقاق الكلمات.

ب) بيان معاني المفردات.

ج) ذكر وجوه الأعاريب وتوضيح بعض المسائل النحوية.

د) الإكثار من الشواهد الشعرية.

ولكثرة ما عني ابن عاشور بهذا الجانب نرى أحد الباحثين يقول: «إن كتاب التحرير والتنوير يمثل- باعتقادي- نضج الفكر النحوي المتمثل بـ«النحو القرآني»؛ إذ يرى ابن عاشور أن هناك شيئًا وراء قواعد علم النحو، وبه يترجح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن الكريم، فالنحو عنده ضبط سلامة البنية الشكلية في الجملة، وضمها إلى تحليل يحقق الوصول إلى المعنى، وأن أمر الوصول إلى المعنى الدلالي يصبح عنده أمرًا ميسورًا، وهو بهذا المفهوم يكون قد أعطى أفقًا أوسع من حد النحويين للنحو بأنه: علم بأصول يعرف بها أحوال الكلم بناءً وإعرابًا... وقد استطاع ابن عاشور في تفسيره أن يذكر كثيرًا من مسائل النحو واللغة والصرف والبلاغة، فهو بحق كتاب يضج بهذه المسائل ومناقشتها مناقشة واعية مستفيضة»[1].

---

(١) الدرس النحوي في توجيه المعنى في تفسير ابن عاشور للدكتور عاطف فضل، بحث منشور ضمن كتاب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ص٣٤٩-٣٥٢.



وقد طغى الدرس اللغوي على ابن عاشور في تفسيره بصورة كبيرة تكاد تصد عن هداية القرآن، هذا، وإن القارئ في هذا التفسير يستطيع بكل سهولة أن يستخرج منه معجمًا لغويًّا كاملًا، وهذا بالطبع من قَبيل مبالغات ابن عاشور، وقد طغى البحث في اشتقاق الكلمات وشغل ابن عاشور نفسه فيه، حتى كأن الناظر فيه يدور في ذهنه سؤال حول ذلك فحواه: هل نحن معنيون باشتقاق ألفاظ القرآن لنثبت عربيتها؟ وكأن المفسر أجهد نفسه في سبيل أن يصل بالقارئ إلى أن القرآن عربي.

إن الذي صنعه ابن عاشور في تفسيره هو إسقاط القواعد النحوية والبلاغية على القرآن الكريم، وهذا لا ينبغي أن يكون غرضًا للمفسر في تفسيره، بل ينبغي أن يكون من وسائل المفسر في تدبُّر القرآن، والوصول إلى تغيير الواقع حسبما تدعو إليه الآيات الكريمة.

ثانيًا: كثرة النقل عن التوراة والأناجيل:

وهذا من أعجب العجب في هذا التفسير، ولم أر في خلال مسيرتي العلميَّة مفسرًا اهتم بالنقل عن أهل الكتاب كابن عاشور، ومن العجيب وصف أحد الباحثين لهذا بقوله: «هذا يؤكد تفتح ابن عاشور على مختلف المصادر والمراجع دون استثناء، ما لم تفقد ثقة العلماء بها»[1]. والسؤال الملح هنا: هل ما زالت كتب أهل الكتاب لم تفقد الثقة بها عند العلماء؟

ثالثًا: إغفال الموضوعات المعاصرة التي تهم المسلمين:

إذا كانت للتفسير الحاضر ميزته الخاصة به، وقد طرأت عليه موضوعات معينة أصبحت من سمات مدرسة التفسير الحاضر، فإننا- مع كل أسف- لا نجد لهذه السمات أثرًا ولا لتلك الموضوعات وجودًا في هذا التفسير.

رابعًا: إغفاله الحديث عن هموم المسلمين ومحاولة المشاركة في حلولها:

لقد مُنِيَ الإسلام وأهله في هذا العصر بأعتى مشكلتين في التاريخ، هما: مشكلة إلغاء الخلافة الإسلامية، ومشكلة الاستعمار بجناحيه العسكري والفكري، الذي سبب لهذه الأمة كل

(١) المنزع العقلي عند محمد الطاهر ابن عاشور، للصادق كرشيد، بحث منشور ضمن كتاب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ص١٥٨.

ما تعاني منه أجيالها حتى يومنا هذا، ويبدو وكأن الشيخ ابن عاشور لم يكن معاصرًا لشيء من ذلك، فقد كان يكتب تفسيره من وراء الأسوار.

وإني لأقول والألم يعتصرني: إني قرأت هذا التفسير مرتين، ولم أجد فيه كلمة واحدة تدل على تألم الشيخ على ما يحدث لأمة الإسلام، وإذا أغضينا الطرف عن المشكلة العامة وتحدثنا عن الخاصة المتعلقة بالاستعمار الفرنسي لتونس، فإنا لم نجد للشيخ كلمة واحدة فيه، على الرغم مما أحدثه هذا الاستعمار من ويلات على الأمة في جناحها المغربي.

خامسًا: إهماله المفسرين المعاصرين إهمالًا تامًّا:

لم يفد ابن عاشور من المفسرين المعاصرين أي فائدة تذكر؛ لأنه أغفل الحديث عنهم إغفالًا تامًّا، ولم يذكر جهودهم الخيِّرة في معالجة قضايا المسلمين المستجدة من خلال التفسير.

هذا أهم ما يلاحظ على هذا التفسير في مثل هذا البحث، والله تعالى أعلم.



الخاتمة والتوصيات

الحمد لله تعالى الذي وفقني لتمام هذا البحث الذي درست فيه التدبُّر عند ابن عاشور، وكانت نتيجة هذا البحث أن ابن عاشور كان منهجه منهجًا نظريًّا بحتًا في التفسير لم يستثمر ضرورة المنهج العملي الذي هو من أساسات تدبُّر القرآن، فجاء تفسيره تفسيرًا نظريًّا انصبَّ بأكمله على توضيح معنى الآيات فحسب، وهذا بلا شك خلل واضح.

وإني أعتقد أن ابن عاشور بتفسيره هذا لم يحقق المقصد الأسمى من التفسير، وإنما مشى على ساحله.

التوصيات:

من خلال قراءتي في كتب التفسير وجدت خللًا كبيرًا قد حدث في الأمة الإسلامية، ألا وهو: إسقاط هيمنة القرآن أو التغافل عنها في مناهج الحياة، بحيث أصبح القرآن لدى معظم الناس عبارة عن أدلة يستدل بها لدفع استنباطات العقول وتقويتها، ولهذا فإني أرى أن من الضرورات الملحة على هذا المركز التأكيد على إعادة هيمنة القرآن في الحياة برمتها، والتأكيد على أن مصدر العطاء والتلقي هو القرآن الكريم مع سنة النبي ﷺ، وأن الاقتصار على جعل القرآن مصدرًا للاستدلال بآياته ما هو إلا تضييع لهيمنته.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد ﷺ.



قائمة المصادر والمراجع

- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر: للدكتور محمد إبراهيم شريف، القاهرة، دار التراث، ١٩٨٢م.

- اتجاهات التفسير في مصر وسوريا، رسالة دكتوراه، للدكتور فضل حسن عباس، مرقونة على الآلة الكاتبة.

- الأساس، للزمخشري، طبع دار المعرفة بيروت، بتحقيق الأستاذ عبدالرحيم محمود سنة ١٩٧٩م.

- أسباب النزول: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار القبلة، ١٩٨٤ـ السعودية.

- الأعلام: لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين بيروت، ١٩٨٤م.

- تراجم المؤلفين التونسيين: لمحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٨٢ـ ١٩٨٦م.

- تفسير ابن عاشور، طبع الدار التونسية، ١٩٨٤م.

- تفسير ابن عاشور دراسة منهجية ونقدية، جمال أبو حسان، طبع دار الفتح للدراسات.

- تفسير ابن عاشور: هدفه ومصادره، للدكتور عبداللطيف محمود آل محمود ضمن أبحاث ملتقى ابن عاشور، ١٩٨٤م.

- تونس وجامع الزيتونة لمحمد الخضر حسين، نشـر علي رضا التونسي، ١٩٧١م.

- جامع البيان في تفسير القرآن: لابن جرير الطبري، مصر: دار الريان للتراث ودار الحديث، ١٩٨٧م.

- الحركة الأدبية والفكرية في تونس، لمحمد الفاضل بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس.

- الدرس النحوي في توجيه المعنى في تفسير ابن عاشور للدكتور عاطف فضل، بحث منشور ضمن كتاب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، نشر المعهد العلمي للفكر الإسلامي.

- شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، للدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، طبع قطر.

- ابن عاشور ومنهجه في التفسير: لعبدالله الريس، أطروحة ماجستير، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٨هـ، غير منشورة.

- عيون البصائر: لمحمد البشير الإبراهيمي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر ١٩٧٠م.

- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.

- مفهوم تدبُّر القرآن، للدكتور مساعد الطيار، ورقة ضمن أبحاث مؤتمر تدبُّر الأول.

- محمد الفاضل بن عاشور حياته وأثره الفكري، للمختار بن أحمد عمار، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٥م.

- المنزع العقلي عند محمد الطاهر بن عاشور، للصادق كرشيد، بحث منشور ضمن كتاب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر.

منهج الإمام ابن عاشور في التفسير للصحبي بن مسعود، بحث على الآلة الكاتبة غير منشور.

الجلسة الثالثة

مناهج التدبُّر.. قراءة وتقويم

أوراق العمل

الورقة الأولى ٣٣٣

منهج أصحاب القراءة الجديدة للقرآن وأثره على التدبر

د. حسن بن محمد الأسمري

الورقة الثانية ٣٩١

الإعجاز العددي وتدبُّر القرآن الكريم

أ. د. إبراهيم بن صالح الحميضي

الورقة الثالثة ٤٣١

منهج المدرسة الإشارية في التدبر

د. نادر السنوسي العمراني

الورقة الرابعة ٤٥٩

منهج المدرسة الإصلاحية في التفسير

د. محمد السيسي

الورقة الخامسة ٤٨٣

تدبر القرآن عند الاثنى عشرية نظرة في المصطلح

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر

الورقة الأولى

منهج أصحاب القراءة الجديدة للقرآن وأثره على التدبُّر

إعداد

د. حسن بن محمد الأسمري

السيرة الذاتية

الاسم: حسن محمد الأسمري

المؤهل العلمي:

- المرحلة الجامعية في السنة النبوية.
- الماجستير في العقيدة: موقف الاتجاه الفلسفي العربي المعاصر من النص الشرعي، دراسة نقدية.
- الدكتوراه في العقيدة: تأثير النظريات العلمية في الفكر التغريبي العربي، دراسة نقدية.

الخبرة العلمية:

- أستاذ مشارك وعضو هيئة تدريس في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الملك خالد، وعمل وكيلًا للكلية للتطوير والجودة.
- حَكَّم عدة برامج علمية، وحَكَّم عدة بحوث علمية، وناقش مجموعة رسائل في الماجستير والدكتوراه.

النتاج العلمي:

- التحولات الفكرية.
- النظريات العلمية الحديثة: مسيرتها الفكرية.. دراسة تحليلية ونقدية. .
- الفلسفة والنص: الوحي في دراسات الفلسفة العربية المعاصرة.
- العقلانية.. رؤية نقدية.
- العلاقة بين الجمعيات الخيرية والإعلام، تحليل ثقافي.
- تأثير عاملي الزمان والمكان في قوة الاختلاف.
- تأثير العلم الإسلامي في تغيير مناهج التفكير البشرية.



المقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتمَّ علينا النعمة، وجعل أمتنا- ولله الحمد- خير أمة، وبعث فينا رسولًا منا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ (الكهف) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص).

أما بعد:

فإن العلاقة بين أصحاب القراءات الجديدة للقرآن وبين التدبُّر علاقة معقدة؛ لأن التدبُّر ذو بعد إيماني قائم على استقبال رسالة إلهية وقبولها، بينما القراءات المعاصرة قائمة على إهمال هذا البعد الإيماني، حتى إن منهم من يقطع النص عن مصدره الإلهي، ثم يضعه في مرتبة دنيا من مراتب النصوص العلميَّة والأدبية والفنية، بل منهم من يقف أمام لوحة فنية أو أدبية ما لا يفعله مع آية أو سورة من القرآن، واضعًا تلك اللوحة في مرتبة عليا، والسورة في مرتبة دنيا.

وبهذا المعنى فنحن أمام موقف يَعُوق التدبُّر النافع، ولكن الأمر يتطلب منا تحليل منهج أصحاب هذه القراءات لمعرفة حقيقة موقفهم من التدبُّر.

وموضوع القراءات الفكرية والفلسفية للنصوص الشرعية موضوع مهم، وتزداد أهميته في السنوات الأخيرة، وذلك بعد أن ظهرت منهجيات فكرية وفلسفية متخصصة في قراءة النص، ويحاول بعض من تشرَّبها أن يطبقها على نصوص الوحي دون مراعاة لاختلاف النصوص؛ فقد

تكون بعض تلك المنهجيات صحيحة ومناسبة للتطبيق على نصوص أدبية أو لغوية أو تاريخية أو فلسفية أو دينية محرفة، ولكنها غير مناسبة للتطبيق على ما أوحى الله به إلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وما من نصٍّ إلا وهو مكتوب لمن يقرؤه، والقراءة هي محاولة لفهم النص؛ فكيف تكون هذه القراءة؟ هنا تظهر المنهجيات المختلفة باختلاف قرائح العقول، ولكن نصوص الوحي تختلف عن غيرها من النصوص بأن منهج قراءتها لم يُترَك للعقول دون إرشاد رباني وتوجيه نبوي، أخذ به علماء الإسلام ودوّنوه وتناقلوه جيلًا عن جيل، وهذا من دلائل حفظ الله لكتابه الكريم، ودينه القويم، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ (الإسراء)، قال ابن الجوزي: «والمعنى: على تُؤدة وترسُّل؛ ليتدبَّروا معناه»[1].

وفي كل زمن تظهر منهجيات جديدة نتيجة إعمال العقل والبحث والنظر، وهو أمر مهم في تطور الفكر البشري، وما كان صحيحًا منها فهو نافع في المجال الذي يناسبه، ويبقى الإشكال عند نقل هذه المنهجيات من مجالها الذي ارتبطت به إلى مجال الوحي، وبسبب عدم التفريق بين المجالين وقع الغلط الفكري المعاصر.

وقد ظهرت عبر تاريخ الفكر البشري مناهجُ شتى، وما تزال تظهر، ولكن عصرنا هذا قد يكون من أبرز العصور من حيث كثرةُ المنهجياتِ، ومن حيث سعةُ انتشارها، وخاصةً مع اتساع دائرة العلم والمعرفة والبحث، من خلال آلاف الجامعات ومراكزِ الأبحاث ومدارس الأفكار، وهذه ظاهرة فريدة في تاريخ البشرية بمثل هذا الحجم والانتشار.

وقد نتج عن ذلك تطبيقات فوضوية- من قبل بعض المتأثرين بتلك المنهجيات- على نصوص الإسلام، ووقعت جرَّاء ذلك تجاوزاتٌ كثيرة، وانحرافات خطيرة: في أبواب العقيدة والشريعة، وفي التصور والعمل. ويزداد الأمر سوءًا حين تكون طائفة من الذين طبقوا هذه المنهجيات ذوي خلفية علمانية صريحة، تجعلهم يتعاملون مع نصوص الوحي وكأنها نصوص بشرية وفق خلفياتهم العلمانية، أو حين يكون هؤلاء ضعفاء في العلوم الإسلامية، فيقع منهم الغلط والانحراف بغير قصد، ولكن بسبب ضعف حصيلتهم من علوم الشريعة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، أثناء تفسير الآية.

ولهذا الأمر أثره في تفسير الوحي وفهمه وتدبُّره؛ فإن قيام التدبُّر على وجهه الصحيح، وما ينتج عن ذلك من ثمار مرتبط بتلك العدسة التي يضعها المتدبِّر على عينيه، فما أثر هذه القراءات على عدسة المتدبِّر؟

وقد نزل القرآن لجميع الخلق، ومن ثم فهم مطالبون جميعًا بتدبُّره، والناس في موقفهم من القرآن والإسلام ثلاثة أصناف: صنف آمن به، فهو مطالب بالتدبُّر الدائم، وصنف كفر به، وصنف أعلن الإسلام ظاهرًا وكفر به في الباطن، وأيضًا هم مطالبون بالتدبُّر، فقد جاءت آيتان في سياق الحديث عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد)، وجاءت آيتان في سياق الحديث عن الكفار في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ (المؤمنون: ٦٨)، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص)، ولن يقوم هذا التدبُّر إلا بالتخلص من تلك العدسات المشوهة للقراءة، سواء كانت اعتقادية، أو منهجية، أو مسلكية.

وقد وجدتها فرصة من خلال مؤتمر «تدبُّر القرآن الكريم.. أعلام ومناهج» الذي تنفذه «الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم»، أن أشارك في محور: «مناهج التدبُّر.. قراءة وتقويم» بورقة عنوانها: «منهج مدرسة القراءة الجديدة للقرآن وعلاقته بالتدبُّر والفهم»، واجتهدت في عرضها في إطار فكري يوسع من دائرة النظر في منهجية هذه المدرسة، وفق مخطط يذهب للماضي من أجل فهم الواقع، وينظر للظاهرة في شمولية، وذلك وفق طرح أتمنى أن يكون مفيدًا في بابه.

مع العلم بأنه قد سبق لي البحث في موقف الاتجاه الفلسفي المعاصر من النص الشرعي، وتاريخ القراءات الجديدة، وقد اتكأت على تلك الجهود لمعالجة إشكالية جديدة؛ وهي إشكالية التدبُّر في القراءات الجديدة، والله الموفِّق.

أهمية الموضوع:

كثرة الكتابات حول دعوى تطبيق المنهجيات الحديثة على نصوص الإسلام، وأنها أقدر على فهم نصوص الإسلام، كما أنها تمثل تيارًا عريضًا بمدارس متنوعة داخل الفكر المقلد للغرب.

خطورة ما تصنعه تلك المنهجيات من إشكاليات تَعُوق التدبُّر النافع.

أهمية دراسة الموضوع من زاوية الأديان والفرق والمذاهب الفكرية، فهي أشهر دوائر الانتماء البشري، ولكل دائرة طريقتها في النظر للنصوص وفهمها وتدبُّرها، فالمقارنة بين هذه الدوائر تعطي تصورًا أفضل لحقيقة تطبيق هذه المنهجيات وآثارها.

وسيكون البحث بإذن الله وفق المحاور التالية:

المبحث الأول: حقيقة مفهوم القراءات المعاصرة للنص الشرعي «تأصيل منهجي مقارن».

المطلب الأول: دوائر الانتماء وأثرها في صياغة المنهجيات.

الدائرة الأولى: دائرة الأديان ومنهجية التفسير.

الدائرة الثانية: دائرة الفرق ومنهجية التأويل.

الدائرة الثالثة: دائرة الأفكار ومنهجية القراءة.

المطلب الثاني: أصول المنهجيات ومناهج القراءة والتدبُّر.

المبحث الثاني: التاريخ الحديث لمفهوم القراءات المعاصرة للنص الشرعي.

المرحلة الأولى: التفسير «الإصلاح».

المرحلة الثانية: التأويل «التحديات الوافدة».

المرحلة الثالثة: القراءة «دعاوى الحداثة».

المرجعية الاستشراقية «التاريخية واللغوية/ الفلولوجية».

المرجعية الفلسفية «النقد والتأويل».

المرجعية الاجتماعية «الأدوات والمفاهيم».

المبحث الثالث: واقع القراءات المعاصرة

ثم الخاتمة والمراجع والفهرس.



المبحث الأول
مفهوم القراءات المعاصرة للنص الشرعي
«عرض منهجي مقارن» [1]

المطلب الأول: دوائر الانتماء الثلاث وأثرها في بناء المنهجيات:

يُقصد بدوائر الانتماء هنا: ما يعتقده الناس من معتقدات، وما يتصورونه من تصورات، ولذلك أثره في حياة صاحبها، في النظر أو العمل، وأهمها مما له علاقة بالموضوع ثلاث دوائر، وهي: دائرة الأديان، ودائرة الفِرَق، ودائرة الأفكار.

فمنطلَقات الناس تكون مما يعتقدونه ويتصورنه، ومن ذلك: صورة تعاملهم مع النصوص المقدسة عندهم، عن حق أو عن باطل، ومن خلالها تتكون المواقف والمنهجيات وما يتبعها من آثار على النحو الآتي:

الدائرة	المنهجية	العلاقة بالتدبُّر
دائرة الأديان	التفسير	الفهم
دائرة الفِرَق	التأويل	التحويل
دائرة الأفكار	القراءة	اللعب[2]

(١) مبدئيًّا: «القراءة المعاصرة» في هذا البحث يقصد بها: دعوى اكتشاف معاني الوحي بطريقة أفضل مما كان في الماضي من خلال منهجيات جديدة.

(٢) مفهوم اللعب هنا مأخوذ من أشهر المنهجيات المعاصرة، وهي التفكيك، مع إخراجها من ذاك الإطار الخاص إلى إطار عام يصلح لوضع القراءات التغريبية المعاصرة، ينظر حول نظرية اللعب: دليل الناقد الأدبي، البازعي وميجان، ص١١٩، ص٢٧٤.

الدائرة الأولى: دائرة الأديان ومنهجية التفسير:

لا يوجد دين دون كتاب، أو دون قول مقدس، وفي هذه الدائرة تكون الطريقة السائدة في فهم النص أو القول هي التفسير، والمقصود بالتفسير هنا: الكشف عن المعنى بواسطة اللغة والسياق الثقافي السائد، ومن هنا تظهر أهمية اللغة وتخصصاتها في تفسير النصوص وفهمها.

وفي دائرة التفسير يكون المعنى يسيرًا، وغيرَ غامض، ومقصودًا من ظاهر النص، ومعروفًا ضمن سياق تلك الثقافة التي ظهر فيها النص ولغته.

ومن هنا كانت علوم التفسير معروفة في كل أمة، قال ابن خلدون: «وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها، وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك، فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلِّغ لها. وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل؛ لأنها ناسخة لها، وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة، والنظر فيها محظور»[1].

ولا يعني ذلك سهولة كل مستويات التفسير لكل أحد، فقد ذكر ابن عباس ﷺ هذه المستويات فقال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذَر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذِكرُه»[2]، فالتفسير الذي يعلمه العلماء مبني على مناهج وعلوم ليست متأتية إلا لأهل العلم، ويمكن النظر فيها ضمن كتب علوم القرآن.

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس: «"فسر" الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه»[3].

---

(١) المقدمة لابن خلدون، ١٠٢٧/٣.

(٢) تفسير الطبري، ٧٥/١.

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ٥٠٤/٤.

وعند أهل الاصطلاح يعرف: «بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبيِّن لألفاظ القرآن ومفهوماتها»[1].

ويغلب على أهل هذه الدائرة قَبول نصوص الوحي، ومن ثَمَّ فَهُمْ مستعدون للتدبُّر، ويطلبون التفسير لمعرفة المعنى الذي يتحقق به التدبُّر، من أجل ذلك كانت علاقة التفسير بالتدبُّر هي علاقة الفهم.

الدائرة الثانية: دائرة الفِرَق ومنهجيةِ التأويل:

لا يوجد دين دون افتراق، حتى الأديان الضالة الجديدة ظهر فيها الانقسام بعد هلاك مؤسسيها، وفي هذه الدائرة تكون الطريقة السائدة في التعامل مع النص المرتبط بالأصل الذي سبَّب افتراق الفرقة هي التأويل، والتأويل هنا يأتي بمعناه السائد في الثقافات البشرية المختلفة، القائم على اعتقاد وجود معنى غير ظاهر في النص، ومهمة المؤوِّل هي اكتشاف هذا المعنى الخفي أو غير الظاهر.

أما معناه عند سلفنا الصالح فهو بمعنيين: الأول: التفسير، والثاني: الحقيقة التي يَؤُول إليها الكلام[2].

وهنا لا تكفي المعرفة اللغوية والسياق الثقافي، بل لا بد من طرائق إضافية، ومما اشتهر عند الفرق من تلك الطرائق: العقل أو الكشف والشخصيات الوسيطة.

ومن المفاهيم المهمة في هذه الدائرة التي تؤثر في عملية التأويل مفهوم: «المتشابه» وعلاقته بالنصوص[3]. وفي تاريخ الفكر البشري ارتبط التأويل بالمتشابه، وكذا الحال في عصور المسلمين الأخيرة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران).

---

(١) التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، ٥/١، وينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١٤٨/٢، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣٨١/٢، وعند الزرقاني: «علم يُبحَث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية». مناهل العرفان: ٣/٢.

(٢) فتاوى ابن تيمية، ٥٥/٣.

(٣) ينظر التدمرية لابن تيمية، ص١٠٧ وما بعدها.

ومن هنا جاءت عناية العلماء بالتأويل وبيان علاقته بالمتشابه، بداية بتفسير العلماء لآية آل عمران، ثم بالكتب المصنفة في العقيدة وعلوم القرآن وغيرها، حيث خُصِّصت مباحثُ لهذه القضية، مع العلم أن لفظةَ التأويلِ الواردةَ في الآية لم تكن بالمعنى المعروف في الأديان والثقافات القديمة والحديثة، وليس هنا مجالُ الحديثِ عنها(١).

إذنْ التأويل في دائرة الفرق يرتبط بالمتشابه، ومن هنا حظي موضوع المتشابهات بعناية بالغة في الدراسات العقدية، قال الزُّرْقاني: «التأويل عند المتكلمين: ما ذهب إليه الخَلَفُ من صرف نصوص ما تشابه من الكتاب والسنة عن ظاهره إلى معانٍ تتفق وتنزيه الله تعالى عن المشابهة والمماثلة، بخلاف ما ذهب إليه السلف من التفويض والإمساك عن تعيين معنًى خاصٍّ»(٢).

والتأويل في دائرة الفِرَق قد عُرف بمداخل مختلفة، مثل: اتِّساع النص، والمجاز، والظاهر، والمجمل، والمتشابه، وغيرها من المفاهيم التي تُتَّخذ مداخلَ للتأويل.

ومع أن التأويل قد ارتبط بالفِرَق الإسلامية ومواقفها العقدية؛ إلا أنه أيضًا مشهور في المباحث الأصولية، ولكنِ المتأمِّل في التأويل في الحقلين: العقدي والأصولي يجد فرقًا بينهما؛ فالتأويل في الجانب العقدي له بُعدٌ إشكالي، وبسبب ذلك كان التأويل غالبًا موضعَ ذمٍّ، وقد ظهرت كتبٌ لعلماءَ حول ذم التأويل(٣)، بخلاف معناه في الجانب الأصولي الذي قد يُقبَلُ في جوانب، فمن المهم هنا إعادة النظر في التفريق بين التأويل عند الأصوليين والفقهاء المرتبط غالبًا بمباحثَ عمليةٍ تقتضي حلَّ الإشكال في بعض النصوص التي تحتاج للجمع(٤)، وتأويلِ الفِرَق المرتبط غالبًا بالمتشابه من النصوص في باب العقائد.

(١) ينظر: الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد لعثمان علي حسن، ٤٧١/١، جناية التأويل الفاسد للدكتور محمد أحمد لوح، ص١٤٢ وما بعدها.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ٤٧٣/١، والصحيح: أن السلف يفوّضون الكُنْهَ والكيفية، ولا يفوّضون حقيقة المعنى، وينظر أيضًا: مقدمة ابن خلدون، الفصل السادس عشر: في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة، ص١٠٨٤/٣، وحول المتشابه وعلاقته بالتأويل عند أهل الكلام بخاصة ينظر بحث موسع في: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، د. سليمان الغصن، ص٣٦٥ وما بعدها، وص٤٨١ وما بعدها.

(٣) هناك كتب صريحة للعلماء، مثل: إبطال التأويلات لأبي يعلى الفراء، ذم التأويل لابن قدامة المقدسي، ولابن القيم ﷺ كلام مطول عن التأويل في كتابه: الصواعق المرسلة، المجلد الأول والمجلد الثاني، وغيرها.

(٤) ينظر منهج الاستدلال، عثمان حسن، ٥٤٥/٢.

الفَرْق بين التفسير والتأويل:

في الفَرْق بين التفسير والتأويل أقوال، وفي ذلك مباحث، ذكر «الذهبي» المعاصر سبعة أقوال وختمها بالسابع بما يمكن أن يكون عمدة التفريق هنا، حيث قال: «التفسير هو: بيان المعاني التي تُستفاد من وضع العبارة. والتأويل هو: بيان المعاني التي تُستفاد بطريق الإشارة. فالنسبة بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين»(١).

إذنْ، في التفسير قراءة للنص كما هو، دون أن نُحمِّله ما نريد، بل ما يريد هو، بخلاف التأويل ففيه تحميل للنص بما يريد المؤوِّل، وقد يقع الغلوُّ عند المتأول كما هو الحال في الفِرَق الباطنية في جميع الديانات، فيأتي بالأعاجيب، فهذه التأويلات لا علاقة لها بالنص، وإنما هي أهواء المؤوِّل صريحة وواضحة.

ودرجة قَبول نصوص الوحي هنا تختلف عن مستوى التفسير، فهم يشتركون مع مستوى التفسير في غير المتشابه، ثم يقع الاختلاف في النصوص المتشابهة، فبدلَ الرد إلى المحكم من النصوص يقع الرد إلى الأصول التي يعتقدها المؤوِّل، وبدلَ الرد يقومون بالتحويل لمعنًى غيرِ ظاهر يتفق مع أصله الاعتقادي.

يتجه التدبُّر هنا إلى اتجاهين: اتجاه مشترك مع مستوى التفسير، واتجاه يتم فيه تدبُّر النصوص المتشابهة وفق الأصل الاعتقادي للمتدبِّر، من أجل ذلك كانت العلاقة هنا علاقة تحويل.

---

(١) التفسير والمفسرون، ١٧/١، وينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١٤٩/٢، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٤٦٠/٢، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ١/ ٤٩٣ وما بعدها.

الدائرة الثالثة: دائرة الأفكار ومنهجية القراءة:

لا توجد حضارة دون أفكار، حَسَنُها حسَنٌ، وقبيحُها قبيحٌ، والمشْكِلُ منها ما كان معارضًا للحق وللوحي. وطريقةُ نظر صاحب هذه الدائرة للنص هي القراءة القائمة على إيجاد دور للقارئ ذاته، بما يملك من منهجيات وأدوات للقراءة.

عندما يتوجه العقل إلى موضوع ما، ويفكر فيه، وينتج شيئًا متماسكًا حول هذا الموضوع، يسمَّى فكرًا، وقد ينجح العقل في وضع خطوات توصل لأفكار ونتائج حول هذا الموضوع أو ذاك، هنا يكون لدينا مناهج ولدينا أفكار نابعة من هذه المناهج، فإذا كان هذا الإنتاج غير متصل بكتاب ديني فيقال عنها: عقليات، أو العقل مقابل النقل فيما تُرك له، ولكن توجد موضوعات يقع فيها الاشتراك، وهي سبب الإشكال، قال ابن خلدون: «وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان، من حيث إنه ذو فكر؛ فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلِّهم، ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة، وتسمى هذه العلوم: علوم الفلسفة والحكمة»[1].

كانت بداية مفهوم القراءة من مجال اللغويات الحديثة والنقد الأدبي، ثم خرجت إلى ميدان الفكر، وقد كانت هناك نظريات تحاول استيعاب جميع مكوِّنات العملية القرائية، وبحسب هذه النظريات فهناك مرسِلٌ ومستقبِلٌ ورسالة «نص» ومعنًى وفضاءٌ تنتقل فيه الرسالة[2]، ومفهوم القراءة يُركِّز على القارئ ويُهمل مكونات العملية القرائية الأخرى.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ١١١٩/٣.

(٢) هذه النظريَّة لرومان ياكسبون مع اختلاف المترجمين لضبط الاسم ()، انظر مثلاً: دليل الناقد الأدبي، ص٧٣، التواصل اللساني والشعرية.. مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكسبون، الطاهر حسين، ص٢٤، وقد أقامت كلية الآداب بجامعة تونس ندوة أخرجتها في مجلد كبير عن: صناعة المعنى وتأويل النص.. من ٢٤-٢٧/ ١٩٩١م، ويحوي موضوعات مقدَّمة تغطي كثيرًا من جوانب مفهوم القراءة.

يمكن القول إذن أن مفهوم القراءة في الفضاء الفكري المعاصر يُركِّز بصورة أكبر على القارئ، بخلاف القراءات القديمة التي تركز على النص والمعنى الذي يسكن بداخله، يقول «سيشيل أوتان»: «لا يزال من السائد عند كثير من معاصرينا أن المعنى يسكن النص، وكأنه مادة غامضة، وأنه عمق ذلك الكيان العجيب الذي يُسمَّى شكلًا، والذي يقوم فعل القراءة بإزالة الحجاب عنه وكشفه»(١)، فهذه المنهجية تركز على مكوِّنٍ من مكوِّنات العملية الاتصالية وهو النص والمعنى الذي فيه، لكن القراءة الجديدة تركز على مكون آخر وهو القارئ، يقول نفس الكاتب: «يلاحِظ تزيفيتان تودوروف.. أن القارئ هو أكبر المنسيين في نظريات الأدب الكلاسيكية كلها «إن فعل القراءة أمر مفرط في البديهية، حتى يبدوَ في الوهلة الأولى أنّه لا يمكن أن نقول فيه شيئًا».. مع ذلك، فقد دشَّنَتْ- منذ بعض السنين- مجموعةٌ من الأبحاث في اللسانيات والسيميوطيقيا ونظرية الأدب بحثًا منهجيًّا انصب على مظاهر فعل القراءة كلِّها؛ من عمليات القراءة، إلى مشكلات التأويل والتلقي»(٢).

ولأصحاب القراءات المعاصرة رؤية للنص تختلف جذريًّا عن الرؤى المعروفة، «فلم يعد المعنى- أي: معنى النص- يتأسس بوصفه مقصدَ المؤلفِ الذي كَتَبَ كما كانت ترى المدرسة الرومنتيكية، لكن المعنى أصبح عند (ريكور) عالَمًا أستطيع أن أقترحه على نفسي، أو هو بالأحرى وجود جديد يتجلى»(٣).

كما أنه يمكن أخذ صورة كاشفة لحقيقتها، من خلال عرض أفكار أصحاب «نظرية التلقي»(٤)؛ كونها النظريَّة الأخيرة في هذا المجال، وفيها تجتمع المعاني السابقة لها، ومما يذكره أحد المختصين في هذا المجال عنهم: «تأكيد أهمية القراءة باعتبارها عملية بناء المعنى وليس

(١) بحوث في القراءة والتلقي، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٧١.

(٣) دوائر الهرمنيوطيقا عن بول ريكور، من هامش ص١٨.

(٤) ينظر للتعريف بها: النص من القراءة إلى التنظير، د. محمد مفتاح، ص٤٥، دليل الناقد الأدبي، د. الرويلي، د. البازعي، ص٢٨٢.

اكتشافه»[1]، وأن المعاني لا يتم استخلاصها ولكنها تصنع، وأن السلطة قد انتقلت من القائل والكاتب والنص إلى القارئ، أصبح القارئ هو الذي يصنع النص ومعناه[2].

هناك حرية متاحة للقارئ في تشكيل معنى النص[3]، فلا النصُّ يستطيع تثبيت معنى، ولا القارئ يستطيع تحديد معنى، فكل قارئ يقدم تفسيره الخاص، وهو تفسير محكوم بسياقه الثقافي، والقارئ الآخر يقدم تفسيره المتسق مع سياقه الثقافي، فلا بد من فتح الباب لتعددية القراءة، وأن يقبل كل قارئ قراءة غيره، وعليه فقد «آن الأوان لكي يتخلى القارئ عن دوره التقليدي في تقديم معنى للنص»، وأيضًا فلا بد مع النص من هجر «قيد الدلالة التقليدية وفتحه أمام تعددية الدلالة»[4].

هل القائل يريد شيئًا من قوله؟ هل يقصد شيئًا بحيث نبحث عنه؟ أغلب أعضاء نادي التلقي يتفقون «على أنه في اللحظة التي تنتقل فيها سلطة حدوث الدلالة أو المعنى إلى القارئ؛ تخرج قصدية المؤلف من النافذة، سواء كنا نعني بذلك ما أراد المؤلف قوله للمتلقي الأول للنص داخل سياقه الأصلي الأول، أو ما يعنيه النص ذاته»[5].

وقد انساقت طائفة من المفكرين العرب مع هذا البعد الذي يُركِّز على فعل القراءة، بحيث يكون النص قابلًا لتعدد المعنى، وموضعًا للتجريب مع المستجدات المنهجية، ومن أصول هذه المنهجية أن النص لم يكن له أن يعمل لولا القارئُ ذاتُه، وإذا كان الأمر كذلك، فمن الغلط- حسب زعمهم- أن يكون النص هو أهم مكونات العملية الاتصالية!

وعليه؛ فإن المقدَّم هو القارئ وقراءاته، لا النص ومعناه، ويكون النص موضع التجارب وموطن اكتشاف الذات وتطبيق الأدوات، أيضًا فإن قائل النص أو كاتبه كان أثناء قوله للنص

(١) الخروج من التيه، د. عبد العزيز حمودة، ص١١٣، والكاتب له دور بارز في فحص هذه المنهجيات ونقدها، ويفرق د. محمد سالم بين مصطلحين: «نظرية الاستقبال»، و«نظرية التلقي»، فالأولى اشتهرت مع النقد الأنجلو-أمريكي، والثانية منبثقة من الظاهراتية والتأويلية في ألمانيا، الأسس الفلسفية؛ له، ص١١٣.

(٢) المرجع السابق «الخروج من التيه»، ص١١٦.

(٣) ينظر الأسس الفلسفية، د. محمد سالم، ص١١٧.

(٤) المرجع السابق، ص١٢٨.

(٥) المرجع السابق، ص١٣٤، وينظر: العلمانيون والقرآن الكريم، د. أحمد الطعان، ص٤٣١-٤٣٢.

أو كتابته له معنيًّا بالقارئ، إنه كتب وهو يعلم بحال المخاطب وبما في ذهنه، إذن القارئ يُعَدّ مشاركًا للكاتب بصورة غير مباشرة، ومن هنا جاءت فكرة إعادة الاعتبار للقارئ[1].

قد يشعر أصحاب القراءة بحرية أوسع، فهم مع هذا البعد المنهجي المائع والمطاطي يمكنهم قبول التفسير متى ما توافق مع المعنى الذي يقدمونه، ويقبلون تأويل الفرق متى ما دخلوا ميادين المعتقدات وتوافقت تأويلات الفرق مع قراءاتهم، ويتحركون بمنهجيات جديدة إن أرادوا القراءة المفتوحة التي تقدم القارئ على المقروء.

وبما أن «التدبُّر» مطلوب من كل إنسان، فلنا أن نتخيل طبيعة التدبُّر مع هذه المنهجية، وقد يكون أفضل ما يعبر بِهِ عنها هو «اللعب»، وهو مأخوذ من آخر المنهجيات شهرة وهي منهجية التفكيك[2]، إن القارئ هنا يذهب للقرآن ليس لمعرفة معناه الحاوي في نصوصه، وليس للدفاع عن معتقد وتأويل الآيات بما يميل إليه المؤول، وإنَّما ليلعب مع هذه النصوص، كما يفعل الفنان مع عجينة يشكلها وفق قوالب متنوعة، ثم يكسرها ويصنع غيرها، فهو يفكر في تغيير العجينة من شكل لآخر، ومن ثم كانت العلاقة هنا علاقة لعب، وتتكئ القراءة وما نتج عنها من اللعب على مصادر تساعدها في اللعب، ستكون موضوع مبحث لاحق.

والخلاصة: أن هناك ثلاثة مواقف عند قراءة النص في العلاقة بالفهم والتدبُّر: موقف أهل التفسير وعلاقة التدبُّر هي البحث عن المعنى، وموقف أهل التأويل، وعلاقة التدبُّر هي في تحويل المعنى الظاهر، وموقف أهل القراءة، وعلاقة التدبُّر هي باللعب بالمعنى الظاهر، واتضحت علاقة هذه المواقف الثلاثة بدوائر الانتماء الثلاث المشهورة: الدين، والفِرقة، والمذهب الفكري والفلسفي.

---

(١) يوجد بحث على «شبكة التفسير» حول هذا المعنى بعنوان: «مفهوم القراءة عند الحداثيين وعلاقته بالتفسير» للدكتورة فاطمة الزهراء الناصري، على هذا الرابط:
./http://www.tafsir.net/vb/tafsir26544

(٢) ينظر حول هذا المفهوم في علاقته بالقرآن، مقالة د. أحمد الطعان على الشبكة: القرآن الكريم والتأويلية العلمانية: النص واللعب الحر.

المطلب الثاني: أصول المنهجيات ومناهج القراءة والتدبُّر:

التعامل مع النص يحتاج لمنهجية، ويمكن إعادة أغلب المنهجيات في التعامل مع الوحي أو النصوص المقدسة لثلاثة أصول، ومنها تتفرع مناهج تفصيلية.

والأصول الثلاثة هي: العقل، والكشف، والوسيط البشري[1]، وهذه الأصول مؤثرة في حقيقة التدبُّر، فطائفة ترى أن العقل هو المسؤول الوحيد عن تكوين منهجيات القراءة والنظر، وطائفة أخرى ظهر لها زلات العقل ومحدودية قدراته؛ فقالت بمصدر باطني خفي هو الكشف والحدس الوجداني، وطائفة ثالثة وجدت مشكلات نابعة من الأصلين السابقين، ورأت أن سبيل الطمأنينة في هذا الباب لا يكون إلا بوسيط موثوق به وبإمكانياته، قد يكون عند طوائف: ابن الله، كما هو عند الهندوس أو عند البوذيين أو عند النصارى، أو شخص معصوم مطلع على الغيب؛ كما هو عند غُلاة الفِرَق المقدّسة لرموزها في كل دين، ومنهم في الإسلام: مقدّسو الأئمة ومقدّسو الأولياء.

ولو رجعنا لتراثنا الإسلامي فسنجد هذه المنهجيات، وهي أيضًا موجودة في الأمم الأخرى، فالاتجاه العقلي يكوِّن- في ضوء تصوره- منهجياته الخاصة بتفسير النص، كما هو بارز عند المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، والاتجاه الكشفي يكوِّن- في ضوء تصوره- منهجياته الخاصة بتفسير النص، كما هو مشهور عند أصحاب الطرق الصوفية، أما أصحاب الوسيط فهم غالبًا ما يجمعون بين الطريقتين؛ لأنهم في حاجة لتدوين ما أخذوه عن الوسيط وترتيبه، وهذا يستدعي الطرائق العقلية، ومن جهة أخرى تمثل صلتهم بالوسيط عبر الأزمان دافعًا للبحث عن طرائق غير عقلية، وإنما وجدانية خفية.

---

(١) قال ابن القيم: «إن المعارضين للوحي بآرائهم خمس طوائف: طائفة عارضته عقولهم في الخَبَريات، وقدمت عليه العقل، فقالوا لأصحاب الوحي: لنا العقل ولكم النقل. وطائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم، فقالوا لأهل الحديث: لكم الحديث ولنا الرأي والقياس. وطائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم، وقالوا: لكم الشريعة ولنا الحقيقة. وطائفة عارضته بسياساتهم وتدبيرهم، فقالوا: أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة. وطائفة عارضته بالتأويل الباطن، فقالوا: أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن». الصواعق المرسلة، ١٠٥١/٣، مدارج السالكين، ٦٩/٢، و٣٣٤/٢، ويعيد ابن تيمية المعارضات لثلاثة أصول: العقل، والذوق، والسياسة. ينظر مثلًا: الدرء، ٣٦/٣.

وهذه المنهجيات الثلاث موجودة في الفرق بوضوح، وهي الدائرة الثانية للانتماء، فالفِرَق إما مُعظِّمة للعقل، أو مُعظِّمة للكشف، أو مقدِّسة للأشخاص.

ويغلب على أصحاب القراءات المعاصرة تبعيتهم المنهجية للفكر الغربي، ويغلب على الاتجاهات الفكرية الغربية طابع العقلانية الحسية، وهذا الأمر برز جليًّا في منهجيات أصحاب القراءات المعاصرة.

ومن جهة مناهج القراءة فإن الإسلام يقوم على كتاب، هو القرآن الفرقان البرهان الذكر العظيم النور المهيمن الحقُّ النبأ البلاغ الكريم الشفاء البيان المبارك الميسَّر، وقد أوتي النبي ﷺ الكتابَ ومثلَه كما في الحديث، فعن المقدام بن مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ؟ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَمَا حَرَّمَ اللهُ**». هذه رواية الترمذي، وفي رواية أبي داود: قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدتُّمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ؟...**»[1].

وقد تأسست منهجيات ضخمة داخل الأمة الإسلامية من أجل حفظ النص، وأخرى من أجل الكشف عن معناه واستنباط أحكامه، وقد تميَّزت هذه المنهجيات بخصائص تجعلها الأقدر على الوفاء بمتطلبات النص، ويتحقق بها حفظ الدين، وقد «كانت المناهج التراثية في التفسير تحول دومًا دون إقامة تأويل مذهبي علماني يستغرق كامل النص»[2]. وليس هذا الموضعُ مكانَ ذكر تلك الخصائص، وقد بقيت سائدة طيلةَ القرون الماضية، إلى أن أطلَّ العصر الحديث، ووقع التأثر بمنهجيات الفكر الغربي الحديث، المتسم بخصائصَ علمانيةٍ وحسية مادية تُعقِّدُ إمكانيةَ التفاعل الإسلامي معها ما لم يتم تطهيرها من تلك المكوِّنات الخطيرة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٦٤/٣٨/٥)، وأبو داود (٤٦٠٤/٢٠٠/٤)، وابن ماجه (١٢/٦/١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٢٦٤٣)، وحول أسماء القرآن ينظر فتاوى ابن تيمية، ١/١٤.

(٢) القراءات المعاصرة، د. محمد كالو، ص٨٦.

وأخطر صور التأثير ماثلة في أصحاب المنزع القطائعي القائم على دعوى انتهاء صلاحية المنهجيات الإسلامية في التعامل مع النص، وتكلّسُها، وتحوّلها مع الزمن إلى منهجيات تشويه للنص، ومن ثَمَّ أهمية إحداث قطيعة معها، وتبنِّي منهجيات حديثة إبداعية قادرة على تفجير طاقات النص، هكذا يزعمون!

يظهر من خلال هذا المبحث صعوبة الوصول للمعنى، أو لقسم من المعاني، وذلك أن النصوص مستوياتٌ، وقد سبق أثرُ ابنِ عباس ﷺ في تحديد المستويات الأربعة، ومن ثم فهناك مستويات في التدبُّر، فما يتحقق للعالم يختلف عما يتحقق للعامي، ومَن عندَه منهجية جيدة ينتفع أكثر ممن ليست عنده؛ كما أن أمر التدبُّر يتأثر بصدق المتدبِّر من جهة، وبحسن اختياره للمنهجية المعِينة على الفهم والتدبُّر من جهة أخرى.

كما أن التدبُّر يتأثر بالأصل الذي يعتقده المتدبِّر، فمن جعل الأصل هو العقل فهو يضع منهجيته العقلية القديمة أو الحديثة وسيطًا للتدبُّر، وقد تكون نافعة للتدبُّر، وقد تكون معوِّقة له؛ ومن جعل الأصل هو القلب والكشف، فهو يترك الأمر لوِجدانه وعاطفته، وهو أكثر انفلاتًا من صاحب العقل، حتى نقع في اللامعقول من المعاني وما يعبَّر عنه بالشطحات؛ ومَن جعل الأصل هو الوسيط، فأمره أدهى وأمر.



المبحث الثاني

التاريخ الحديث لمفهوم القراءات المعاصرة للنص الشرعي

لكي نفهم عصرنا لا بد من العودة للجذور، ونحن أمة مسلمة أنعم الله علينا بنعمة الإسلام، وبنبينا محمد ﷺ، وبالوحي المحفوظ: كلام الله تعالى وكلام نبيه ﷺ.

وقد كان الصحابة من أشدِّ الناس عناية بأمر هذا الدين العظيم، وكانت المهمة الكبيرة التي قاموا بها صدرَ الإسلام هي إخراج القرآن الكريم مكتوبًا في مصحفٍ واحد.

وأصبحت الأجيال تعرفه من طريقين عظيمين: أخْذُه من حُفَّاظه بالتواتر جيلًا عن جيل، الكبار والصغار، وأخْذُه من المصحف.

ولكن كيف نفهمه؟ هنا جاء دور العلماء ورثةِ الأنبياء، يبيِّنون المعنى ويستخرجون الأحكام ويُظهِرون رسالته، وحتى يستقيم الأمر مع الأجيال المتعاقبة فقد وضع العلماء مناهج دقيقة ومعيارية في فهم نصوص الوحي واستنباط أحكامه، وسار المسلمون على ذلك، وقد خالفهم أصحاب الفِرَق، فقد كان للأهواء أثرها في إحداث معانٍ غير المعاني التي قررها علماء القرون المفضلة في صدر الإسلام، واستنباط أحكام مخالفة للأحكام المستنبطة وفق القواعد المعتبرة؛ كما أن دخول منهجيات جديدة على البيئة الإسلامية بعد ترجمة ثقافات الأمم الأخرى: الفارسية والهندية واليونانية قد كان له أثره من جهة توظيفها في التعامل مع نصوص الوحي من قبل بعض المسلمين.

ثمَّ جاء العصر الحديث الذي ورث الماضي مع ما استَجَدَّ من أمور، وقد مرَّ بمراحل في تعامله مع نصوص الوحي، أهمها ثلاث:

«**الأولى**»: شهرة مرحلة الدعوة الإصلاحية التي قادها الاتجاه السلفي، وترجع جذورها للقرن الثامن الهجري.

و «الثانية»: هي التي عُرفت مع نظريات «العلم الحديث» وبخاصة نظرية التطور وما ارتبط بها من فكر مادي.

و«الثالثة»: هي التي ارتبطت بالفكر الحديث ومدارسه التي دخلت إلى البيئة الإسلامية المعاصرة من خلال الجامعة العصرية.

فمن يرجع لتاريخ الفكر الحديث في العالم الإسلامي يجد هذه المراحل الثلاث: مرحلة ترتبط بالتفسير وهي أقدمها وأعمقها في تاريخنا الإسلامي الحديث، والثانية: ترتبط بالتأويل وهي مرحلة وسيطة، والثالثة: ترتبط بالقراءة وهي مرحلة معاصرة، ولا يعني ذلك اختفاء السابق بظهور اللاحق، فهي جميعًا موجودة في زمننا المعاصر، وقد كان للتدبُّر معها طابعه الخاص، ومن ثم فنحن ننظر في تاريخ المناهج مع النص ومعها تاريخ التدبُّر ومسيرته الحديثة.

وحتى تُفهَم القراءات المعاصرة تاريخيًّا ومنهجيًّا فسيكون بحثها عن طريق المقارنة مع مفهومين آخرين، وهما: التفسير، والتأويل، فهذه المقارنة تكشف حقيقة القراءة وتصبح واضحة بخلاف عرضها وحدها، فقد يقع الالتباس أو التصور الناقص.

وتبقى وجهات النظر مختلفة عن التحديد المناسب لبداية عصرنا الحديث، ولكن الكتابات المعتبرة تربط التحولات بما أنتجه شيخ الإسلام ابن تيمية، وبما كان له من آثار في الاتجاه السلفي المعاصر[1]، وقد ارتبط بهم منهج التفسير النقي من التأويلات والقراءات الذاتية، ثم نشطت عمليات التأويل زمن الاحتكاك بالثقافة الغربية في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، ثم منهجيات القراءة مع ظهور المدارس الفكرية وميلاد الجامعة العصرية، وما فُتِح فيها من أقسام للفلسفة والدراسات الإنسانية والاجتماعية.

المرحلة الأولى: التفسير «الإصلاح»:

يبقى التفسير هو روح المنهجية الإسلامية الأصيلة في تعاملها مع النص، وقد يضعف في زمن ثم يقوى في آخر، ويمكن القول: إن روحًا جديدة انبثَّت في الأمة الإسلامية ما بين القرنين: السابع والتاسع، وما يزال أثرها قويًّا حتى الساعة، وهذه الروح تقوم على أهمية العودة

(١) ينظر مثلاً: الاتجاهات الفكرية عند العرب، علي المحافظة، ص٣٩، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، د. فهمي جدعان، ص١٩٥، حوار المشرق والمغرب، حسن حنفي ومحمد الجابري، ص٩٥ من كلام الجابري.

للنص كما هو، ولهذا نجد كتبهم التأصيلية تبدأ بـ«قال الله» و«قال رسوله»، وتُفسَّر الآيةُ ويُشرَح الحديثُ بدون غموض، إنها دعوة للصفاء والنقاء؛ ولهذا كانت قراءتهم هي قراءة للنص في ضوء عناصره الأصلية، مع مواجهة البدع ومناهجها وتأويلات أهلها، ومواجهة القراءات التي أبعدت النص عن معناه تحت دعاوى مختلفة.

نجد بدايتها مع محدِّث مشهور، ونهايتَها مع محدِّث آخر، وارتبطا- رحمهما الله- بأعظم كتب السنة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، الأول: النووي (٦٧٦هـ)[١] الشارح المشهور لصحيح مسلم، وانتهاءً بابن حجر (٨٥٢هـ)[٢] صاحب الفتح في شرح صحيح البخاري، مرورًا بعصر شيخ الإسلام ابن تيمية، ذاك البحر المتلاطم (٧٢٨هـ)[٣] مع طلابه العلماء المشاهير، مثل: ابن القيم، والذهبي، والمِزِّي، وابن كثير، وابن عبدالهادي، والبَزَّار وغيرِهم، ثم الشاطبيِّ (٧٩٠هـ)[٤]، وابنِ خلدون (٨٠٨هـ)[٥]، وابن الوزير (٨٤٠هـ)، لقد كانت فترة ذهبية بكل معنى الكلمة، وجوهر جهد هؤلاء العلماء ينصبُّ في أهمية التوقف مع المعنى دون تأويلات غامضة أو قراءات ذاتية، يفهمون النص في سياقه وبالاعتماد على المنهجية اللغوية وعلى تفسيرات السلف الأصق بالسياق واللغة.

---

(١) يحي بن شرف الحوراني النووي الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين (٦٣١-٦٧٦) علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوى من قرى حوران بسورية وإليها نسبته. الأعلام للزركلي، ١٤٩/٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر: من أئمة العلم والتاريخ، ومولده ووفاته بالقاهرة، أصبح حافظ الإسلام في عصره. الأعلام للزركلي، ١٧٨/١.

(٣) ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين بن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، ولد في حران، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، مات معتقلًا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته، كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول. الأعلام للزركلي، ١٤٤/١.

(٤) الشاطبي، ٧٩٠هـ، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي: أصولي حافظ. كان من أئمة المالكية. الأعلام للزركلي، ٧٥/١.

(٥) ابن خلدون، (٧٣٢-٨٠٨)، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الاشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. وتوفي فجأة في القاهرة. اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر) في سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) وهي تُعدّ من أصول علم الاجتماع. الأعلام للزركلي، ٣٣٠/٣.

وقد ظهر أثر أعلام تلك المرحلة السابقة في أعلام القرن الثاني عشر وما بعده، في مجموعة من أعلام الاتجاه السلفي الكبار، مثل: محمد بن عبدالوهاب (١٢٠٦هـ) في نجد، والصنعاني (١١٨٢هـ)، والشوكاني (١٢٥٠هـ) في اليمن، والقاسمي (١٣٣٣هـ) في الشام، ومحمود الآلوسي (١٣٤٢هـ) في العراق، وهكذا امتداد هذه المدرسة السلفية في القرن الرابع عشر(١).

ومما يميزهم: اهتمامهم بمعنى النص دون تأويل، ومن هنا كان مجالهم مجالًا علميًّا، ومناهجهم هي مناهج العلماء، وقد ناهضوا الفرق ومناهجها التأويلية، واهتموا بالتفسير، وبوضوح النص، ونبذ التقليد والتعصب والأهواء والتأويل.

وقد أصبح لهم شهرة كبيرة، ولهم تيار عريض في الأمة، وتيار مؤثر بقوة من خلال حملهم دعوات الإصلاح والتجديد، وحتى اليوم فموضعهم في الفكر الإسلامي المعاصر له منزلته ومكانته، فهناك الكتب والمكتبات والدروس والجامعات والمؤسسات العلميَّة المختلفة التي أسهموا فيها إسهامًا واضحًا.

وقد كانت عنايتهم بالتدبُّر عناية كبيرة، حيث ربطوا العلم بالعمل، والقراءة بالخشية، والابتعاد عن التفاسير التي غرقت في اللغة أو الكلام أو غيرها من المعوقات عن التدبُّر النافع.

وهذا نص من تفسير معاصر يجمع بين التفسير والتدبُّر للشيخ السعدي، يقول: «وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يُجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فيُنظَر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابَل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويُعرَف أنه سيق لهداية الخلق كلِّهم، عالِمِهم وجاهِلِهم،

---

(١) محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي (١٢٠٦هـ)، زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة، نهج منهج السلف الصالح، داعيًا إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام، ومن أشهر كتبه: «كتاب التوحيد». ينظر: الأعلام للزركلي، ٢٥٧/٦. والصنعاني هو: محمد بن إسماعيل الصنعاني (١١٨٢هـ)، المعروف- كأسلافه- بالأمير: مجتهد، من بيت الإمامة في اليمن، من أشهر كتبه: «سبل السلام». ينظر: الأعلام للزركلي، ٣٨/٦. والشوكاني هو: محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هـ)، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، نشأ بصنعاء وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ ومات حاكمًا بها. من كتبه المشهورة: «نيل الأوطار». ينظر: الأعلام للزركلي، ٢٩٨/٦. والقاسمي هو: جمال الدين بن محمد القاسمي (١٣٣٢هـ)، إمام الشام في عصره علمًا بالدين، وتضلعًا من فنون الأدب. مولده ووفاته في دمشق، من كتبه المشهورة: «دلائل التوحيد». الأعلام للزركلي، ١٣٥/٢. والآلوسي هو: محمود شكري الآلوسي أبو المعالي (١٣٤٢هـ)، مؤرخ، عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح، ولد في بغداد، وتصدر للتدريس في داره وفي بعض المساجد، وحمل على أهل البدع في الإسلام، من أشهر كتبه: «بلوغ الأرب في أحوال العرب». ينظر: الأعلام للزركلي، ١٧٢/٧.

حَضَريِّهم وبَدَويِّهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصًا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها، فمن وُفِّق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبُّره وتفهمه، وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقًا ومفهومًا، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورًا لا تدخل تحت كسبه»[1].

المرحلة الثانية: التأويل «التحديات الوافدة»:

عُرف التأويل مع الفِرَق، وقد اشتهر في تاريخ الفِرَق الإسلامية، وإذا كان التفسير يرتبط بمعنى النص الظاهر، فإن التأويل هو صرفه إلى معنى غير ظاهر، والصرف يكون بسبب معارضة المعنى الظاهر لأفكار أو مصالح، فإذا تعارض المعنى مع فكرة عقلية أو مصلحة واقعية قام صاحبها بتأويل النص أو الأصل. ومشكلة التعارض مشكلة مشهورة داخل الفِرَق الدينية في كل الأديان، وسبق بيان علاقتها بالمتشابه.

ومن جهة تاريخنا الحديث والمعاصر نجد أشهر صورها حسب التسلسل التاريخي قد ابتدأت من بعض مسلمي الهند، وذلك بعد احتكاكهم بالغرب، فهناك واقع جديد ظهر من خلال الاستعمار الإنجليزي للهند[2]، وبصحبة المستعمر فكر جديد، برز اسم مشهور وهو «السيد أحمد خان: ١٨٩٨م» الذي كان له تأويلات مشهورة لنصوصٍ أو أصولٍ قد تتعارض مع الواقع الجديد المفروض على المسلمين هناك، أو تتعارض مع الفكر الفلسفي الحديث[3]، ثم انقلب الأمر مع فرقة القاديانية «نسبة لمؤسسها: غلام أحمد القادياني: ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م» الذي بدأ داعية إسلاميًّا للتجديد، ثم تدرج في الانحراف فادعى المهدية ثم ادعى النبوة، فخرجت هذه الفرقة عن السياق

---

(١) تفسير السعدي، ص٣٠.

(٢) بدأ الغرب الأوروبي بالتخطيط المبكر لاستعمار الهند، التي كانت- في الغالب- تحت الحكم الإسلامي، وصنعوا غطاءً لذلك تحت مظلّة شركات الهند الشرقية البريطانية والهولندية والفرنسية، ونجحت البريطانية في السيطرة سنة ١٧٦٥م، ثم تحولت الهند إلى مستعمرة بريطانية، وبقيت كذلك حتى الاستقلال سنة ١٩٤٧م. ينظر: الموسوعة العربية العالميّة، مادة «تاريخ الهند».

(٣) حول منهجية السيد خان وتأويلاته ينظر: مفهوم تجديد الدين، ص١٢٣، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الندوي، ص٦٩.

الإسلامي بتأويلاتها الشاذة وتفسيراتها المنحرفة[1].

توجد مشكلات كبيرة واجهها المسلمون، ولكنْ وقَعَ الاستسلام لكثير من الأفكار، وظنّوا أنها حقائق لا يتطرق إليها الاحتمال، عندها استثمروا آلية التأويل مع عدد من نصوص الإسلام وعقائده وأحكامه.

لحق بها تاريخيًّا طائفة أخرى في مصر، في القرن الثالث عشر الهجري، وقد ارتبط ذلك بأسماء لامعة مشهورة، يقودها الشيخان: جمال الدين الأفغاني (١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، ومحمد عبده (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م)، ثم جاءت بارزة ومفصلة في كتابات الشيخ حسين الجسر (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، فقد ظهرت آثار النظريات العلميَّة والمدارس الفلسفية والفكرية في جهودهم الفكرية والعلميَّة، من خلال تأويل نصوصٍ وأصولٍ ومسائلَ تتعارض مع الوافد الجديد[2].

قد تكون الآلية معروفة، ولكن الجديد هو المحتوى والموضوعات الجديدة، فظهرت تأويلات جديدة، ويمكن النظر هنا في نظريتين ارتبط بهما مجالٌ فكريٌّ جديد، وهما: نظرية نيوتن، ونظرية داروين.

(١) بدأت القاديانية تأويلاتها في إطار المعهود من الفرق، ولكنها تحولت سريعًا للغلو والوقع في أمور مناقضة لما هو معلوم من الدين بالضرورة، فالقاديانية: فرقة دينية غالية، ظهرت في الهند سنة ١٩٠٠م بدعم من الإنجليز، أسسها مرزا غلام القادياني، وقد بدأ دعوته أنه مصلح، ثم ادعى النبوة، ولهم عقائد باطلة ودعاوى فاسدة، وما زال لهم وجود إلى اليوم. ينظر: الموسوعة الميسرة، مادة القاديانية، وللشيخ إحسان إلهي ظهير كتاب مهم عن هذه الفرقة «القاديانية.. دراسات وتحليل» عن دار الإمام المجدد بالقاهرة.

(٢) كتب الكثير حول المدرسة العربية، ومن أهم تلك الكتابات كتاب: منهج المدرسة العقلية في التفسير، فهد الرومي. وجمال الدين الأفغاني هو: محمد بن صفدر الحسيني، اختلف الناس حوله كثيرًا، ولكنه دون شك قد لعب دورًا مهمًّا في التحولات الفكرية الحديثة، وتأثر به طائفة من البارزين، وبخاصة الشيخ محمد عبده، ومن أشهر كتبه: «رسالة الرد على الدهريين». ينظر: الأعلام للزركلي، ١٦٨/٦، وقد أثنى عليه ثناء كبيرًا. ومحمد عبده هو: محمد عبده بن حسن خير الله (١٣٢٣هـ)، مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح، تأثر بجمال الدين الأفغاني، تصوف وتفلسف، وعمل في التعليم، وكتب في الصحف، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، من أشهر كتبه: «تفسير القرآن الكريم» ولم يتمه، و«رسالة التوحيد» و«الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية». ينظر: الأعلام للزركلي، ٢٥٢/٦. والجسر هو: حسين بن محمد الجسر (١٣٢٧هـ)، عالم بالفقه والأدب، من بيت علم في طرابلس الشام، وكان رجلها في عصره علمًا ووجاهة، وتوفي فيها، من أشهر كتبه: «الرسالة الحميدية» و«الحصون الحميدية». ينظر: الأعلام للزركلي، ٢٥٨/٢.

ومن أشهر الأمثلة التي دخلها التأويل تحت تأثير النظريتين وفلسفتهما الحديثة، التحفظ عند ذكر المعجزات، ورفض الإقرار بوجود الأمر الخارق، فلا تغيير في قوانين الكون حسب زعمهم، ومن ثَمَّ قام هؤلاء بتأويل المعجزات المختلفة بما يزيل عنها بُعدَها الخارقَ للعادة، وإخراجِها بصورة تتفق مع التفسير الفكري الحتمي، وفي النظريَّة التطورية وقع التأويل لخلق آدم وزوجه بتأويلات شتى، من أجل استبعاد عقيدة الخلق لهما؛ لأن الخلق موضوعٌ غيبي لا يمكن إثباته تجريبيًّا، وهذا من فساد الاستدلال عندهم؛ فإن الأدلة تتعدد وتتنوع، فإن لم يَدلَّ على ذلك الحسُّ، فإن الدليل الخبري الصادق قد دلَّ على ذلك[1].

إذن، نحن أمام محتوًى جديدٍ بمنهجية معهودة، ولكنْ ما أثر هذا المحتوى على التدبُّر؟ بدون شك فإن قارئ القرآن اليوم يختلف عن قارئ الأمس، فقارئ الأمس يتميز بفصاحته، فيصل للمعنى بيسر وسهولة، ولكنَّ قارئَ اليوم قد تلبَّسَ بعائقين؛ الأول: فقده تلك الفصاحةَ المعهودةَ في السابقين، والثاني: حجم المعارف التي تحصَّلَ عليها بفضل المعرفة العلميَّة الحديثة، والتي تزاحم بعض ما يظهر للقارئ، وبخاصة في المخلوقات الكونية في الأرض والسماء، وهذا العائق يؤخر تأثير التدبُّر ويقلق القارئ، مما دفع طائفة من المفكرين المسلمين إلى استحداث تأويلات للجمع بين هذه المعارف العلميَّة والقرآن.

وهي وإن رفعت قلق بعض الناس؛ إلا أنها تفتح مشكلات مع المعترضين، فجهدهم مستمر في توليد التعارضات، وقد تتسع التأويلات حتى تبتعد بالمعنى عن مقصد النص، ويتحول التدبُّر من تدبُّر للآيات إلى تدبُّر لتأويلات المتأولين.

وهنا مقطع يعبر عن هذا المعنى: «.... وقد زاد الفخر الرازي صارفًا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر

(١) هنا ملحوظة: وهي أن مصطلح «التأويل» في الكتابات المعاصرة يختلف عن تأويلات الفِرَق الدينية، فتأويل الفرق الدينية هدفه رفع التعارضات الموجودة عندهم، أما التأويل الفلسفي فهو نوع من القراءة التي لا يعنيها التعارض كثيرًا، بل هي مهمومة بمشروعها الخاص القائم على دعوى امتلاك منهجيات قادرة على التعامل مع النص بشكل غير مسبوق، فتكون من قسم القراءة المعاصرة، ومثلها بعض الكتابات الفكرية المعاصرة التي تذكر مصطلح «التفسير»، فهو أقرب لمعنى القراءات المعاصرة.

وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر- فيما يسميه تفسير الآية- فصولًا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن...»[1].

المرحلة الثالثة: القراءة «دعاوى الحداثة»:

اشتهر مصطلح القراءة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، ويمكن أن نربطه بنشأة الجامعة الحديثة، حيث فُتِح فيها كليات وأقسام مهتمة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والفلسفة بصورتها الغربية الحديثة، وأغلب المدارس الفكرية التي تبنّت منهجية القراءة تنتمي للجامعة العصرية، وبخاصة كليات الآداب وأقسام الفلسفة.

وبما أن «القراءة» هي الجديدُ في التعامل مع نصوص الإسلام، فهي في حاجة لشيء من التوضيح، بحيث يُعرَفُ تاريخ تكوُّنِها، وأسلوبُ عملِها.

عند تحليل هذه المنهجية في ضوء تاريخها نجدها في مجملها ترجع لثلاث مرجعيات: المرجعية الاستشراقية، والمرجعية الفلسفية، ومرجعية العلوم الاجتماعية. وقد أخذوا من كل مرجعية بعض أدواتها المشهورة أو كلَّها، ولِمَا أخذوه أثره في التدبُّر، والجدول التالي يقرب ذلك:

المرجعية	المنهج أو الأداة	الأثر في التدبُّر
(١) الاستشراق	- المنهج التاريخي -المنهج اللغوي/الفللوجي	المعلومة الغلط
(٢) الفلسفة	-النقد - التأويل	الرأي المنحرف
(٣) العلوم الاجتماعية العلوم الإنسانية	- علوم اللغة «اللسانيات»، وعلم الدلالة أو المعنى، والسيمياء أو علم العلامات - علم النفس والاجتماع والإنسان - علم الاقتصاد السياسي - علم التاريخ الحديث «مدرسة الحوليات»	المعنى الضائع

(١) من مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا لتفسير المنار، ٨/١.

وهذه الثلاثة- الاستشراق، والفلسفة، والاجتماعيات- تدخل في إطار ثقافي عام وهو «الحداثة» أو «ما بعد الحداثة»، ونترك الاختلاف الفكري حول الفاصل الزمني، ولكن للتقريب يمكن وضع سنة (١٩٥٠م) نقطة تقريبية للفصل بين المرحلتين، ولا يعني «ما بعد الحداثة» أن تيارات الحداثة غير موجودة، بل بعضها قائم ومتوازٍ مع تيارات «ما بعد الحداثة»، كما أن «ما بعد الحداثة» متأثرة بفلاسفة الحداثة، يضاف لذلك تأثرهم العميق بمدرسة التحليل النفسي وبمؤسِّسها «فرويد»[١].

وهذا الإطار العام له أثره على المدارس والمجالات، وعلى سبيل المثال الرؤية العامة للنص في إطار «الحداثة» نجده يختلف عن رؤية «ما بعد الحداثة»، فالحداثة تَصَوُّرُها عن النص أنه يملك رسالة وهو قادر على توصيلها للمتلقي، ولكن نظريات «ما بعد الحداثة» والمدارس التي تسير بجانبها مثل: التفكيك ونظريات التلقي والنقد النسوي وغيرها، أضعفت هذه القدرة في النص، فأصبح النص دالًّا دون مدلول، وألفاظًا دون معنى، فيكون القارئ حرًّا في التعامل معه[٢]، ويصبح النص عند «الما بعد» مجرد سلسلة فجوات، والمعنى هو ما يملأ به القارئ تلك الفجوات[٣]، و«اتجاهات «ما بعد الحداثة» تجعل القارئ المبدع الحقيقي للنص، وأن النص ليس ثابتًا قارًّا محكم الوَثاقِ، بل هو نصوص متعددة «تناص»، مهاجرة في الزمن لا يمكن الإمساك بها، لذا فهم ينادون بإرجاء الدلالة، وفتح القراءات المتعددة إلى ما لا نهاية»[٤].

أولًا: الاستشراق «التاريخية واللغوية»:

لقد قدّم الاستشراق خدماته المنهجية وتطبيقاته العملية للقارئ الغربي الذي يقرأ عن الفكر الإسلامي أو الإسلام، فهو الوسيط في فهمهم للإسلام، ولكنه وسيط غير محايد، ولذلك

(١) ينظر: الخروج من التيه، د. عبدالعزيز حمودة، ص١٠٢، وحول تحديد الفاصل الزمني ينظر: ما بعد الحداثة، محمد سبيلا، ص٥، وقد جعلها مع بدايات الستينيات الميلادية، ومن أهمِّ الدراسات العربية في تحديد المصطلح وتواريخه وأفكاره دراسة د. محمد سالم «الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية»، وحول «ما بعد الحداثة»، ص٣٣-٤٢، ما بعد الحداثة، د. باسم خريسان، ١٨٢ وما بعدها.

(٢) ينظر: الخروج من التيه، د. عبدالعزيز حمودة، ص١٠١، وليست كلها تميل لذلك، فبعضها يريد إعادة الاعتبار للنصّ كما في المرجع.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص١٣٧.

(٤) إشكالية تأصيل الحداثة، عبدالغني باره، ص٢٧.

أثره على الغربيين الباحثين عن الإسلام، وازداد الأمر سوءًا عندما أصبح الاستشراق وسيطًا لبعض المسلمين الذين يدرسون دينهم، فمشكلة الاستشراق اليوم أنه لم يعد يكتب للغربيين فقط، بل أصبح يكتب للمسلمين(١).

وقد كانت المنهجية الاستشراقية في مجملها متأثرة بروح عامة تقوم على انتقاص الإسلام، ودراسته كنموذج نشأ على هامش الفكر اليهودي والنصراني، إن الإسلام في أحسن صوره- عندهم- نسخة مشوهة لديانة أهل الكتاب، وقد ركّزوا على القرآن-كحال أعداء الإسلام عمومًا- من أجل تحقيق تلك الأهواء الخبيثة، يقول د. بدوي: «لقد تعرض القرآن الكريم- باعتباره الركيزة الأساسية للإسلام- لهجمات كثيرة من الذين كتبوا ضدّ الإسلام»(٢). ومن ذلك كتاب «تاريخ القرآن - نولدكه» الذي يُعدُّ مرجعًا مهمًّا للمستشرقين(٣)، يقول فيه: «إن المصدر الرئيس للوحي الذي نُزِّل على النبي حرفيًّا، بحسب إيمان المسلمين البسيط، وبحسب اعتقاد القرون الوسطى وبعض المعاصرين، هو بدون شك ما تحمله الكتابات اليهودية، وتعاليم محمد في جلها تنطوي في أقدم السور على ما يشير بلا لبس إلى مصدرها، لهذا لا لزوم للتحليل لنكشف أن أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التعاليم والفروض هي ذات أصل يهودي»(٤)، ثم يحلل ذلك تاريخيًّا ولغويًّا بحسب المنهجية الاستشراقية المشهورة. كما أن عنايتهم بالتفسير وعلومه كانت كبيرة للغاية وذلك لنفس المآرب(٥).

---

(١) آليات المنهج الاستشراقي، د. حسن عزوزي، ص٦.

(٢) دفاع عن القرآن، د. عبدالرحمن بدوي، ص١٣، ثم استعرض جهود المستشرقين من اليهود والنصارى في مهاجمتهم للقرآن مع نقده لهم، وهذا الكتاب له أهميته من مفكر مثل د. بدوي؛ لأنه كان من أشدّ المبجلين للمستشرقين، ويسميهم: العلماء، وترجم كثيرًا من كتبهم، وانساق مع دعاواهم، ثم في آخر حياته أخرج هذا الكتاب محاربًا لهم، وفاضحًا عداءهم للإسلام والقرآن والرسول ﷺ.

(٣) ينظر: آليات المنهج الاستشراقي، السابق، ص١٠.

(٤) تاريخ القرآن، نولدكه، ص٧.

(٥) ينظر: آليات المنهج الاستشراقي، السابق، ص٩.

وأبرز المنهجيات المستخدمة لإثبات هذه الفرضية هي المنهجية التاريخية واللغوية[1]، وقد غرِقَ فيها بعض المثقفين العرب، وأصبح يتحدث عن الإسلام ونصوصه وكأنها منقولة عن أهل الديانات السابقة من خلال تلك المنهجية[2].

ليس العيب في المنهجية التاريخية أو اللغوية، فهي منهجية مميزة ومهمة، ولكن الأهواء تؤثر في أسلوب التعامل مع المنهجية، فيصعب تصور منهجية محايدة، وليس من المستغرب ذلك منهم، ولكن المستغرب هذه التبعية العمياء من بعض المثقفين العرب الذين لا يعرفون الإسلام إلا من خلال تطبيقات المستشرقين، وقد أظهر المستشرقون أسلوبًا خداعًا من القرن التاسع عشر الميلادي، فيظهرون العلميَّة والموضوعية والحياد، ويكشف أحدُ من كان يعظِّمهم ذلك فيقول: «حقًّا، فإنه بدايةً من منتصف القرن التاسع عشر يبذل هؤلاء المستشرقون كلَّ ما في وسعهم لِيَبْدوا موضوعيين في كتاباتهم، وفي جعل كتاباتهم أكثر دلالة وأكثر جدية وموضوعية، وأكثر تدقيقًا في المنهج اللغوي، لكن دون فائدة، ذلك لأن الدوافع الداخلية التي تضطرم بالحقد في قلوبهم ضدَّ الإسلام وكِتاب الإسلام المقدس ونبي الإسلام ظلت كما هي، بل ازدادت تأججًا!»[3].

---

(١) المقصود هنا: بيان المنهجية السائدة التي يطبقونها في بحوثهم، ويزعمون من خلالها أنهم أصحاب منهجية علمية وموضوعية، وإلا فإن هناك منهجية أخرى ناتجة عن الأهواء الدينية لبعضهم أو عن العلمانية لآخرين منهم، تصرفهم عن الموضوعية والعلميَّة، وتقوم على المغالطات والادعاءات والتلفيقات، ويمكن تأمُّل بعضها في آراء المستشرقين حول القرآن، د. عمر رضوان، ص٧٧-٩١، و«للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» إصدار كبير عن مناهج المستشرقين، وقد خصص الفصل الأول للقرآن، والثاني للسنة، ص٢١، ص٦٣، وفكرة الكتاب مهمة، وكان سيكتمل لو خصصوا فصلًا عن المنهجيات ذاتها دون ربطها بالتطبيقات، كما أن لمنهجياتهم علاقة بالفكر الفلسفي الغربي، وقليلة الدراسات التي تتحدث عن علاقة المنهجيات الاستشراقية بالفكر الفلسفي، فلا نجد دراسة شافية في تحليل تلك العلاقة، ويمكن أن نجدها مختصرة في ثنايا بحوث، ومنها: موقف المستشرقين من الصحابة، د. سعد الماجد، ص٤٣-٤٩.

(٢) ينظر: القراءات المعاصرة، د. محمد كالو، ص٨١ وما بعدها، دفاع عن القرآن، د. عبدالرحمن بدوي، ص٢٧، وقد توسع الدكتور أحمد الطعان في الدراسة التاريخية بدراسته المهمة «العلمانيون والقرآن الكريم»، الباب الثاني: التاريخية ومداخلها المعلنة، الباب الثالث: الأصول الحقيقية للتاريخية وانعكاساتها، وإذا كانت المسألة الجوهرية في كتاب الطعان هي«التاريخية» فقد جذب إلى بحثه نظرياتٍ ومدارسَ كثيرةً من جهة علاقتها بالتاريخية، وينظر: الإسقاط في مناهج المستشرقين، د. شوقي أبو خليل، من الإسقاط الأول حتى السادس، ص١٩ وما بعدها.

(٣) دفاع عن القرآن، د. عبدالرحمن بدوي، ص١٥.

وقد أساء بعض المفكرين العرب أثناء دراسته للإسلام إساءات عظيمة بسبب تطبيقه لمنهجيات الاستشراق:

فمن خلال المنهجية التاريخية يُرمى بالمعاني- الموجودة في كتب التفسير وفي شروحات الأحاديث والأصول المتفق عليها- في التاريخ، إنهم يرونها صحيحة في وقتها، وهذا أسلوب خطير من قبلهم لتهميش المعنى المنقول إلينا من سلفنا الصالح مع الاعتراف به فقط في الماضي، أو يقضي عمره، ويبذل جهده في إثبات انتحال القرآن لنصوص الأمم السابقة.

ومن خلال المناهج اللغوية يقومون بتعويم المعنى الإسلامي، بحيث يضيع في قائمة كبيرة من الأرشيف الديني لكل الديانات، دون تفريق بين الحق والباطل، أو يقومون بإفساد المعنى من خلال الفصل بينه وبين الحقيقة، فلا توجد حقيقة تعبر عنها الألفاظ، والمعاني التي ترتبط بالألفاظ هي ما تنتجه الثقافة في عصر من العصور، وكل عصر ينتج معنًى غير العصر الذي سبقه[1]، أو من خلال الاستغراق في التشقيقات اللغوية، ويتخذها ذريعة لادعاء وجود تشابهات في الشكل أو النطق بين الكلمات العربية القرآنية مع أخرى موجودة في أديان وثنية أو كتابية.

وبما أن جميع البشر مطالبون بتدبُّر القرآن، فمما يؤسف له أن الغرب والعالم المتغرب ينظر للقرآن من خلال نظارة الاستشراق، وهي تقدم «المعلومة الغلط»، وللمعلومة الخاطئة أثرُها في انحراف مسار التدبُّر. والأمر الأخطر: أن تدبُّر بعض مثقفينا للقرآن أصبح من خلال نافذة الاستشراق، فكيف بغيرهم؟!

ثانيًا: الفلسفة «النقد والتأويل»:

تُعدُّ الفلسفة أشدَّ وطأة على عقول هذه الطائفة المثقفة المتغربة، ومع كثرة مدارسها الحديثة فإن أشهر صور المنهجيات الفلسفية تأثيرًا في العرب المتغربين منهجيتان: النقد والتأويل، وقد يخلط البعض بين الأمرين، فيتحدثون عن النقد وكأنه التأويل أو العكس، مع أن المشهور من حالهم: هو سير المفكر في مسارين: مسار نقدي، وآخر تأويلي، والغالب في الكُتَّاب العرب

(١) ينظر: القراءات المعاصرة، د. محمد كالو، ص١٠٢، مناهج الفكر العربي المعاصر، شاكير أحمد، ص٣١-٣٢.

المتغربين وقت فلسفة الحداثة هو النقد، وقلّةٌ هم الذين سلكوا مسالك التأويل[١]، وقد مرَّ مجموعة من الكتاب المتأثرين بالغرب بمرحلتين: مرحلة الصَلَف الفكري، ومن آثاره: قيامهم بنقد التراث الإسلامي وأصول الإسلام، ثم تقع لهم تحولات، فيتحولون للكتابة عن الإسلام بنوع من الحماس والتعاطف، ولكنهم يتحولون للتأويل، وبعضهم يميل لتأويل الفرق الإسلامية، وقليل منهم قد يميل للتأويل الفلسفي، ومن الأمثلة على ذلك: كتابات «طه حسين» و«محمد حسين هيكل» في مرحلتين من حياتهما، ومن ذلك كتابات «محمد الجابري» التي عرفت بمرحلتين: مرحلة نقدية، وأخرى تأويلية[٢].

فمن جهة النقد تُعدُّ الفلسفة الحديثة فلسفة نقدية في غالبها، فقد أصبح النقد سمة مميِّزة لكثير من مدارسها، سواء صُرِّحَ بذكره أو لم يُصرَّح[٣]، وأهم ما يتناوله النقد هو نقد «الدين» وأصولهِ ونصوصه وَفْقَ منهجياتٍ متنوعة، ولهم أساليبُ في النقد، ويبقى أشهرها المطابقة بين النص والحسّ بسبب إنكارهم للغيب، أما التأويل فهو في المرتبة الثانية، والتحمُّسُ له يَعقُبُ التحمسَ للنقد.

وقد عُرف النقد بخاصة مع اتجاه التنوير الأوربي: فولتير، ديدرو، هولباخ، ومع «اليسار الهيجلي»: فيورباخ، شتراوس، ماركس، ومجموعة معاصرة مثل: نيتشه، وفرويد، ودوركايم، وأصحاب «الوضعية المنطقية» وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين الذين اعتمدوا منهجية نقد الدين منطلقين من موقف إلحادي صريح[٤]، وقد كان نقدهم منصبًّا على الدين الذي في بيئتهم، وبخاصة: اليهودي والنصراني، أو على الدين بمفهومه العامِّ بعيدًا عن أي تمثيل له.

---

(١) ينظر للعلاقة بينهما: فلسفة النقد، كتاب جماعي، ص٢١، ص٢٩٣، والكتاب يشتمل على بحوث متنوعة حول مفهوم النقد.

(٢) ينظر حول الجابري: مقالة للباحث بعنوان: الجابري والجابريون.. أوهام النقد وأهواء الأتباع، موقع تأصيل على هذا الرابط: //taseel.com/display/pub/default.aspx?id=787&ct=6&ax=5:

(٣) ينظر: النظريَّة النقدية، د. حسن محمد، ص٥-٨٣، وقد استعرض المؤلف النقد في العصرين اليوناني والوسيط وتوسع في مدارس العصر الحديث. نقد العقل بين الغزالي وكانط، د. عبدالله الفلاحي، ص١٥-٥٧، وفيها استعراض للمدارس السابقة لكانط.

(٤) ينظر: فلسفة النقد، كتاب جماعي، ص٣٩، ص٦٥، ص٨٧، ص١٨٥، ويُعدّ كانط شخصية مهمة في تحويل النقد إلى فلسفة، نفس المرجع، ص١٤، وحول كانط ودوره في تعزيز مفهوم النقد ينظر: كانط أوالفلسفة النقدية، د. زكريا إبراهيم.

ويتميز النقد الفلسفي هنا بأنه موقف صريح في رفضه للدين، بخلاف التأويل الذي يَدخُله الغموض.

وأما التأويل الفلسفي وإن شابه في الأحرف التأويل الذي ارتبط بالفرق الدينية؛ إلا أنه يختلف عنه، إنه نوع من النشاط الحرِّ المفتوح الذي لا يخضع لقيود، وبهذا فهو الصورة البارزة لمفهوم القراءة الذاتية المفتوحة(١)، وقد ظهرت بدايته الفلسفية الحديثة مع شلايرماخر(٢)، ويصف أحدهم هذا التأويل فيقول: «ولا يريد التأويل أن يضع حدًّا ينتهي عنده الاختلاف وينحلُّ بموجبه الصراع لصالح رؤيةٍ وحيدةِ الجانب؛ على العكس، فمثلما يؤكد ريكور على صراع التأويلات يؤكد على ضرورة بقاء هذه التأويلات في تنافس وتزاحم دائم وأبدي، فلا تظفر بالحقيقة الواحدة الكبرى، وإنما بحقائقَ متعددةٍ متصارعة تتجدد وتتواتر طبقًا لمقتضيات الظرف التاريخي؛ وطبقًا لمقتضيات وجودنا في العالم»(٣).

والبعض يركز على مصطلح «الهرمنيوطيقا» الذي يترجم عادة بالتأويل، كون الهرمنيوطيقا له كثافة فلسفية بحسب المنبع الألماني المعاصر لهذا الاتجاه(٤)، بخلاف التأويل الذي يحمل كثافة دينية بحسب منبعه من داخل الفرق الدينية المختلفة.

---

(١) ينظر: ظاهرة التأويل الحديثة، د. خالد السيف، ص٢٨-٣٠، حصار الزمن، د. حسن حنفي «إشكالية التأويل»، ص١١١ وما بعدها.

(٢) ينظر: الفلسفة والتأويل، نبيه قارة، ص٦، وص٤٣. شلايرماخر (١٨٣٤م) لاهوتي رومانسي ألماني، وقد كان قسًّا، وله دور بارز في تخفيف الادعاءات الوضعية، ولكنه يميل إلى رؤية فلسفية صوفية. ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص٣٩٦.

(٣) من مقدمة ترجمة سمير مندي لكتاب دوائر الهيرمنيوطيقا، ص٩.

(٤) ينظر: اللغة والتأويل، عمارة ناصر، ص٣١، وينظر: عن علاقته بالفلسفة نفس المرجع، ص١٩. والهرمنيوطيقا مصطلح مشهور في الفلسفة المعاصرة، ويعرف بأنه نظرية التأويل وممارسته، يتركز في البحث عن المعنى. ينظر: دليل الناقد الأدبي، ص٨٨، ظاهرة التأويل الحديثة، د. خالد السيف، ص٢٨، وهناك فصل مطول في كتاب «العلمانيون والقرآن الكريم» بعنوان: الهرمينوطيقيا/الغنوصية، ص٦٧٣-٧٤٧. كما أن إحدى مشكلات التأويلية/الهرمنيوطيقا أنها متحكَّم بها من قبل مجموعة ملحدة وجماعات يهودية، ويسميها المفكر المصري البارع عبدالوهاب المسيري بـ«الهرمنيوطيقا المهرطقة» «التي يتسم بها كثير من المفكرين ذوي الأصول اليهودية». موسوعة اليهود، د. المسيري، ١٥٣٢/٥، وقد استوفاها بالدراسة في: ١٨٥٨/٦؛ كما أن ترجمة العرب لها تختلف من مترجم لآخر، وقد أبقيته في النصوص كما هو مع وجود الاختلاف فيما بينهم.

وللتأويل شهرة في الفلسفات المعاصرة: «ويمكن القول: إن معظم المناهج النقدية المعاصرة استخدمت التأويل بوصفه آلية، بدءًا مما بعد البنيوية، مرورًا بالسيميائية، وانتهاءً بالنقد النسوي، ومنهجية فوكو، والتحليل الاجتماعي والسياسي لهابرماس، والطرق المنهجية الأخرى لألتوسير، وجيمسون، ولاكان، وبورديلارد، وليوتار... إلخ.

ومن المهم ذكر أنَّ نظريات الاستقبال والتلقي قد انبثقت بشكل مباشر وأساس من التأويلية بوصفها منهجًا، وحددت رؤيتها في تحليل عملية القراءة من خلال المداخل الفلسفية الظاهراتية، والمداخل المنهجية التأويلية»[1].

يقول عمارة: «نشأت علاقة حميمة بين اللغة والتأويل، قَدَّمت في الفلسفة الغربية المعاصرة مشروعًا لإنقاذ المعاني المحاصرة في دائرة المركزية الأوروبية، والمحروسة بآليات المطابقة والمماثلة، وقد بادرتْ إلى هذا المشروع فلسفاتُ نيتشه، وفرويد، وماركس، موازاةً مع الهرمنيوطيقا المعاصرة من شلايرماخر، دلتاي إلى هيدغر غادمير وريكور»[2]، وغالبًا ما يُربَطُ بين النقد الثلاثي لكل من: «ماركس، نيتشه، فرويد» وبين التحول المعاصر، سواء كان نحو النقد إلى ذروته العدمية، أو التأويل الفلسفي المفتوح[3].

ويوضح عمارة وظيفتها فيقول: «وظيفة الهرمينوطيقا هي «عزل المدلول عن الدال، عن طريق التأويل والتعليق، والقضاء على الكتابة عن طريق الكتابة الأخرى التي هي القراءة». وبذلك هي تعيد إنتاج عالم آخر للمعنى، حيث يشكل النّص مفتاحًا له من خلال رموزه ومعانيه المزدوجة، التي تعطى كنقطة تمفصل بين عالم النص المؤلِّف وعالم النص المؤوِّل، وتغدو كل قراءة تأويلًا؛ لأنّها حسب عبارة دريدا[4] تقضي على الكتابة، لتفتح عالم النصِّ على الذات والوعي»[5].

(١) الأسس الفلسفية، د. محمد سالم، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) اللغة والتأويل، عمارة ناصر، ص٩.

(٣) حول دور الثلاثة، ينظر: الفلسفة والتأويل، نبيه قاره، ص٢٥، ظاهرة التأويل الحديثة، د. خالد السيف، ص٨٥.

(٤) اللغة والتأويل، عمارة ناصر، ص٢١.

(٥) جاك دريدا فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر، صاحب نظرية التفكيك، وهي أهم حركة مابعد بنيويه النقد الأدبي، أهم كتبه هو كتاب: Grammatology (علم الكتابة).

وبحسب هذا التصور فإنه لا يوجد تأويل صحيح، وإنما تأويلات متعددة[١].

وتمر العملية التأويلية/الهرمنيوطيقية بدائرة تسمى: «الدائرة الهرمنيوطيقية»، في قراءة فلسفية تركز على القارئ، ويضيع معها المعنى الأصلي، ويضحَّى من أجل ذلك بكل القواعد المنهجية الموضوعية، ويوضِّحُ ذلك قولُ أحدهم: «نُعدِّل قاعدةً إنْ هي أنتجت استدلالًا لسنا مستعدين لتقبُّله، ونستغني عن استدلال إنْ هو اخترق قاعدة لسنا مستعدين لتعديلها»[٢].

كما أن علاقة الهرمنيوطيقا بعلوم اللغة علاقة غير ودية، فمعلوم أن كل نص هو مكتوب بلغة، واللغة تسير وفق قوانين، وقوانينها هي معيار مهم في تفسير النصوص، ولكن أهل التأويل يَهرُبون من قوانينها، ونجد أن الهرمنيوطيقا تريد التخلص من «الصلابة المنهجية لنحوها وسيميائيتها»، والتحولَ نحو الفن الذي هو أكثر مرونة للقارئ المؤول[٣].

نَخلُصُ من هذا العرض الموجز إلى أن مفهوم التأويل الفلسفي أقرب للفوضوية الممنهجة، وهو في حقيقته عملية هدم للمعنى وللحقيقة؛ كما أنه قد تَلبَّس بتيارات فلسفية مشبوهة، وهذا ما نبّه إليه مفكر بارز- المسيري- حول تحكم اليهود المهرطقون بالهرمنيوطيقا المعاصرة، مع تأثر كُتّابٍ بهم، فيقول: «وترى سوزان هاندلمان أن تقاليد الهرمنيوطيقا المهرطقة لم تَعُد مقصورة على المثقفين اليهود، فهناك في كل أنحاء العالم «مثقفون يهود» بالمعنى المجازي، جعلوا همهم فَتْح النصوص المقدَّسة عن طريق إعلان أن النص المقدَّس صامت يمكن أن يحمل أيَّ معنًى يشاء المفسرُ، ثم قاموا بإعادة تفسيرها وتحميلها معنًى مهرطقًا حتى يسود الظلام وتهيمن العدمية»[٤].

وليس المجال هنا مجالَ استعراض تلك التطبيقات العربية[٥]، وإنما القصد الحديث عن المنهجيات وبيان حقيقتها.

---

(١) ينظر: اللغة والتأويل، عمارة ناصر، ص٣٢.

(٢) ينظر: اللغة والتأويل، عمارة ناصر، ص٤٦.

(٣) ينظر: اللغة والتأويل، عمارة ناصر، ص٩٠.

(٤) موسوعة اليهود، د. عبدالوهاب المسيري، ١٨٦١/٦.

(٥) وحول بعض النماذج من هذه التأويلات للإسلام وتراثه ينظر: ظاهرة التأويل الحديثة، د. خالد السيف، ص٥٠، العلمانيون والقرآن الكريم، د. أحمد الطعان، ص٧١٢ وما بعدها.

والعلاقة بين «النقد والتأويل» في الفكر الغربي الحديث غير متسقة، فالتنافس كبير بين المنهجيتين، وقد يقع بينهما تصالح وتداخل مع بعض المدارس الفلسفية، فقد كانت الماركسية و«الوضعية المنطقية» مدارسَ نقديةً إلحادية، بينما الرومانتيكية والمثالية والتأويلية ذات اتجاه تأويلي، ويقع الدمج بينهما كما هي جهود طائفة معاصرة، ومن ذلك أعمال «إريك فروم» للدمج بين الماركسية والفرويدية مع موضوعات دينية(١).

وعادةً ما يتم الجمع بين النقد والتأويل عند الفلاسفة المعاصرين، ومن ذلك ما نجده عند أحد مشاهير الفكر التأويلي المعاصر- ريكور- فهو يرى أنه لا «عاصم اليوم من آلة الهيرمينوطيقيا «الفاحصة»، ولا حتى الدين يمكنه تجنب ذلك؛ ذلك أن النقد الإلحادي المثابر الذي أقامه أساتذة الشك الثلاثة هو المقوّم الجوهري لإيمان الإنسان الحديث الناضج، فلا بد أن نؤسس نقد الدين، وذلك بافتراض أن الدين قناع للخوف والهيمنة أو الكراهية»(٢).

ختامًا: نجد أثر هاتين المنهجيتين الفلسفيتين: «النقد والتأويل» في قراءات المتغربين؛ فإن قراءات المتغربين العرب تسير غالبًا في مسارين:

الأول: نقدي وإن تشكل بأشكال مختلفة، وذلك أن طبيعة الفكر طبيعة نقدية غالبًا، ويدخل في ذلك استخدامهم لمنهجيات، مثل: العلميَّة والتاريخية والنقدية.

الثاني: تأويلي وله أشكال، مثل: الإبداع والتجديد، وكشف الجماليات، وتطبيق آخر المستجدات المنهجية على نص خام كما يقولون.

ونختم هذا المرجع ببيان علاقته بالتدبُّر، فإذا كان الاستشراق يقدم المعلومة الغلط عن القرآن والإسلام، ولهذا أثره في التدبُّر النافع، فهو يعوق التدبُّر النافع؛ فإن الفلسفة هي فكر، فلا تقدم معلومات عن الدين وإنما تقدم «رأيًا» وفكرًا ومنهجيات.

فأما التدبُّر مع «النقد» الحديث فمفقود، وذلك أن تيارات النقد الكبرى من بعد «هيجل»

---

(١) فروم ١٩٨٠م، جمع بين التحليل النفسي والماركسية، فهو محلل نفسي واجتماعي، مولده في ألمانيا وعاش في أمريكا، وألف الكثير من الكتب. ينظر: الموسوعة العربية العالميَّة، مادة: فروم.

(٢) دوائر الهيرمنيوطيقا عن بول ريكور، ريتشارد كيرني، ص٤٨، والثلاثة هم: ماركس، وفرويد، ونيتشه، ومعلوم أنهم من أشدّ المدافعين عن الإلحاد.

هي تيارات ملحدة، فقد اكتسب النقد المتكئ على الماركسية والفرويدية وغيرها من التيارات الملحدة والمعادية للدين نجاحًا كبيرًا، ومن ثم فمن المستحيل تحقق منفعة التدبُّر لمن تلوّث بالمواقف الأيدلوجية لهذه المنهجيات.

ويبقى الباب محتملًا مع «التأويل»، إلا أن التأويل الفلسفي أصبح تأويلًا تتبناه اتجاهات علمانية أو إلحادية، ولو أخذنا منها ذات الطابع الإنساني، فإنها تقع في غلو خطير، هو حال أهل وحدة الوجود، حيث تضع «القارئ مكان الإله»، وهذه الطائفة الغالية في التأويل هي للأسف الغالبة على الاتجاه التأويلي الحداثي وما بعد الحداثي.

وكان يمكن للفكر أن يفتح آفاقًا للعقل والروح في تدبُّرهما للقرآن والوحي ولما أنزله الله، ولكن ما أنتجته الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة لا يساعد على التدبُّر النافع، بل هو يَحْرِم العقلَ من أعظم ما ينفعه والروحَ مما ينجيها، وهذا الأمر هو مما تلوّثت به عقول عدد من المفكرين المتغربين وأرواحهم.

ثالثًا: العلوم الاجتماعية «الأدوات والمفاهيم»:

تُعدّ الأقسام الاجتماعية والإنسانية الأغنى بالأدوات المنهجية، وبخاصة: علم اللغة الحديث، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم التاريخ الحديث. وهي الأصعب لغير المتخصص، ولكن يوجد بعض المثقفين ممن لديهم قدرة على مطالعة المستجدات فيها، وإخراجها من مجالها إلى مجال الدين، وبخاصة مع جهود بحثية لمستشرقين في هذا المجال، لاسيما وأن هناك أقسامًا فُتحت ضمن تلك العلوم تخص الظاهرة الدينية، مثل: علم النفس الديني، وعلم الاجتماع الديني، وغيرهما.

وقد كوّنت طائفة من المفكرين العرب منهجيتها في القراءة من خلال بعض الأدوات المأخوذة من هذه المرجعية أو تلك، أو من خلال التركيب بين أداتين أو أكثر، فبعضهم قد يكون أحادي المرجعية، ويتعصب لمرجعية واحدة، ويطبقها بحرفية ساذجة؛ وبعضهم يتنقل به الحال من مرجعية لأخرى؛ وبعضهم اطلع على كثير من المنهجيات وركّب منها منهجيته الخاصة، ويسوء الحال إذا كان المفكر منطلقًا في فكره من خلفية علمانية.

تتسع دائرة العلوم الاجتماعية، ولكل علم نظرياته ومنهجياته وأدواته ومدارسه، وهناك ثلاثة علوم ذات شهرة في الفكر العربي الدارس للتراث المتأثر بالفكر الغربي، وهي: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم اللغة الحديث، وقد ظهر فيها أقسام تهتم بالدين، وظهرت نظريات في كل علم، ويجمعها النظر للدين وللموضوعات الدينية على أنها ظواهر يمكن دراستها، ثم كل مدرسة تقدم أدواتٍ ومفاهيمَ لتحليل الظاهرة ودراستها.

ويصعب هنا حصر تلك الأدوات والمفاهيم، فهي كثيرة، بل المفهوم الواحد تختلف حوله الآراء من مدرسة لأخرى، ولكنها بمجموعها شكّلت مخزونًا كبيرًا يغرف منه المفكرون العرب المقلدون للغرب.

ومع ذلك فهناك مفاهيم وأدوات ذات شهرة واستعمال، يمكن التمثيل بها، مثل: الأسطورة، النسبية، اللاشعور، التعصب، الآيدلوجيا، المتخيل، الإبستمولوجيا، التناص، الخطاب، الدوغمائية، التاريخية، التقديس والمقدس، الطوطم والمحرمات، الشفهي والكتابي، البطركية، سلطة النص، سلطة الإجماع، التفكيك، الطبقة، الجندر، الديالكتيك، الإجماع السيولوجي، الحقيقة السيولوجية، وغيرها[1].

فهل يمكن لهذه المنهجيات أن تقدم خدمة للمتدبِّر؟ تدَّعي هذه المنهجيات انتسابها للعلم، ومن ثم حصانتها عن الغلط واللبس، وعليه فهي قادرة على اكتشاف المعنى، ولكن يكفي في إبطال هذه الدعوى ما تقوله كل مدرسة في أختها من دعوى عدم العلميَّة، ومن بين ما يهمنا في هذا المجال ما يدور حول «نظرية المعنى»، حيث تزعم تلك العلوم قدرتها على إيجاد نظرية في المعنى قادرة على التعامل معه.

و«المعنى» هو مقصد المتدبِّر، وهو ما تزعم هذه المنهجيات قدرتها على تحريره، ولكن النتيجة التي وصلت إليها تلك المنهجيات هي نتيجة ضدّ المعنى، وخلاصة ما تقوله تلك المنهجيات: أن المعنى البكر الأول قد ضاع للأبد، ولم يبق معنا سوى القالب، وهو النص، وبما أن النص موجود، فما علينا سوى استثماره واستغلاله في وضع المعنى الذي نريد، ومن هنا جاءت مقولتنا بـ«المعنى الضائع» المعبر عن هذه الظاهرة.

---

(١) يمكن مراجعة أي معجم في العلوم الاجتماعية والإنسانية لمعرفة تكاثر المفاهيم والأدوات.

دور المرجعيات الثلاث في القراءات العربية:

ومن خلال هذه المرجعيات الثلاث: الاستشراق، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية خرج مفهوم القراءة، قد يكون بعضهم متخصصًا في الفلسفة، ولكنه يأخذ الإسلام عن طريق كتابات المستشرقين، ويستفيد من العلوم الاجتماعية، أو قد يكون من أقسام العلوم الاجتماعية فيأخذ الإسلام الذي يريد أن يدرسه عن طريق الاستشراق ويستفيد من الإطار الفلسفي.

وإذا كانت القراءة مخصصة للوحي، فيمكن القول بأنها: استخدام النظريات الحديثة في قراءة القرآن الكريم والسنة النبوية[1]، سواء كانت هذه النظريات من دائرة الاستشراق، أو كانت من دائرة الفلسفة، أو كانت من دائرة العلوم الاجتماعية، أو كانت خليطًا مما سبق.

إذن يشتركون في وضعهم الاستشراقَ وسيطًا بينهم وبين الإسلام، ثم منهم من ينطلق من المدارس الفلسفية، ومنهم من ينطلق من الأقسام الاجتماعية، وقد كان غالبها نشاطاتٍ أكاديميَّةً بحثية، تابعةً للتخصص الذي يدرس فيه صاحب البحث، فهي بحوث ماجستير ودكتوراه وما يتبعها من مشاريع بحثية.

يقول عبدالرحمن الحاج: مصطلح القراءة «يشير إلى مصادر منهجيّة معاصرة هي مناهج النقد الأدبي واللسانيات الحديثة، فنحن هنا إذن أمام استخدام لـ«مناهج» و«أدوات» جديدة في دراسة القرآن، نستطيع أنْ نقدّر بدايته في نهاية السبعينيَّات وبداية الثمانينيات، حيث كانت المناهج الأدبية واللسانية قد أخذت حضورها إلى جانب الدراسات الأخرى في العالم العربي، وبدأت تتسرّب إلى كل شيء، فكان لنا أن نرى عام (١٩٧٩م) «العالميَّة الإسلامية الثانية» لأبي القاسم حاج حمد، التي اعتمد فيها على مزيج من المقولات اللسانية والفلسفية، ربما لأوّل مرّة، وفي الثمانينيّات ظهرت محاولة أركون في «قراءة» التراث الإسلامي، وتأويل النص الديني، ويعتبر أركون أكثر مَن توسَّع في استخدام المناهج الحديثة وخصوصًا اللسانية، وحسن حنفي الذي حاول أن يؤسِّس لتفسير معاصر اعتمادًا على معطيات العصر المنهجية، ثم محمد شحرور في «الكتاب والقرآن: قراءة

(١) ينظر: القراءات المعاصرة، د. محمد كالو، ص٥٦.

معاصرة» الذي اعتمد فيه على خليط من البنيوية والتاريخية، ونصر حامد أبو زيد الذي طرح في «مفهوم النّص» منهجه القائم على التأويلية من خلال نقد تراث علوم القرآن... وغيرُهم»[1].

وبالنظر لتاريخ صدور أغلب الدراسات العربية التي اهتمت بالتراث، وطبّقت منهجيات القراءة والفهم والتحليل الحديثة، نجدها تبدأ بعد ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، وظهر فيها مصطلح مشهور عمّ أغلبها، وهو مصطلح «التراث»، فهناك رابط مشترك لأغلب تلك الدراسات أو القراءات، هو التراث؛ أي: التراث الإسلامي، ثمّ بعضهم يتحايل من خلاله للدخول على نصوص الوحي، وبعضهم يُصرّح دون لفّ أو دوران بتبجح غريب، ويتعامل مع نصوص الوحي بالنقد أو بالتأويل الفوضوي، وهذه بعض النماذج لتلك الدراسات:

النموذج أو المثال	المنهج المتبع فيه	وصف موجز
النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، حسين مروة، من التراث إلى الثورة، النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، د. طيب تيزيني[1].	ماركسي (فلسفي)	استخدام المفاهيم التي سكّها ماركس ومجموعة الماركسيين، وبخاصة التفسير الاقتصادي، فهناك بنية تحتية قوامها الاقتصاد، وبنية فوقية ناتجة عن التحتية، ومن أمثلتها: الثقافة والدين. والنقطة الجوهرية هي تفسيرهم للدين على أنه انعكاس للوضع المادي والاقتصادي.

(١) ظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن وأيديلوجيا الحداثة، عبدالرحمن الحاج، التسامح، ص٢٢٧، مجلة فكرية تصدر عن وزارة الأوقاف العمانية، العدد الأول، شتاء ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ونقل عنه الدكتور محمد كالو أنه يمكن إعادة هذه القراءات إلى سنة ١٩٥٠م عندما كتب المستشرق الياباني «إيزوتسو» دراسته عن بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن. ينظر: القراءات المعاصرة، د. كالو، ص٨٢، وينظر: مناهج الفكر العربي المعاصر، شاكير أحمد، ص٢٤.

النموذج أو المثال	المنهج المتبع فيه	وصف موجز
الثابت والمتحول: بحث في الاتباع والإبداع، أدونيس.	ظاهراتي/ فمونولوجي (فلسفي)	استخدام فلسفة الظواهرية، ومن منهجيتها أن المفكر يدرس الموضوع من خلال ربطه بالوعي الذاتي، فهو على عكس الوضعيين الذين يريدون الفصل بين الذات والموضوع، أمّا تطبيقات أدونيس فهي تقوم على انتقاء وقائع تراثية فكرية للفِرَق الغالية ورفعها، وتهميش موضوعات دينية مجمع عليها عند الأمة وانتقاصها.
المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، د. زكي نجيب محمود.	وضعي/ الوضعية المنطقية (فلسفي)	الوضعية المنطقية في تجربة «محمود» تقوم على تحليل الموضوعات التراثية إلى أصغر وحدة، ثم يبحث لها عن مقابل محسوس، أو يبحث لها عن فائدة محسوسة، فإن وجد المقابل قبِلَ ذلك الموضوع. وهذا له صلة بالوضعية المنطقية والفلسفة الإنجليزية التحليلية التي تأثر بها المؤلف.
من تاريخ الإلحاد في الإسلام، مذاهب الإسلاميين، د. عبدالرحمن بدوي.	وجودي (فلسفي)	التجربة الوجودية عند «بدوي» وفي أوج نشاطه تقوم على تصور يعطي للفرد منزلة مستقلة عن أي شرط خارجي، فالفرد هو من يقرر، ومن ذلك قرار الإلحاد والتمرد على الدين، من هنا جاء عرضه لتجارب إلحادية.

النموذج أو المثال	المنهج المتبع فيه	وصف موجز
التأويل والحقيقة، فلسفة التأويل، د. علي حرب.	تأويلي تفكيكي «فلسفي»	يجمع «حرب» بين التأويلية الفلسفية وبين التفكيكية، والأخيرة مدرسة معاصرة أنشأها الفيلسوف اليهودي «جاك دريدا»، وقد استعرض شيئًا من التأويل في ثنايا البحث، أما التفكيك فلا يستقر له قرار، وهي تسعى لهدم الأفكار من خلال إثبات تناقضها، ومن خلال ما تخفيه من معانٍ تتعارض مع ما تظهره.
إعادة قراءة التراث في ضوء المنهجيات النفسية، د. علي زيعور، الإسلام والتحليل النفسي، د. فتحي سلامة.	مناهج علم النفس	أشهر مدرسة نفسية حضورًا في العرب هي مدرسة «التحليل النفسي»، وما أنتجته من مفاهيم، مثل: الكبت، اللاشعور، العقدة، العصاب. وقد ظهرت مجموعة تنظر للدين على أنه مرض أو عصاب، وتفسر ذلك في ضوء مبادئ مدرسة التحليل النفسي.
بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده، يوسف شُلْحُت.	مناهج علم الاجتماع	ظهرت مدارس مختلفة، ولم تشتهر مدرسة بعينها في الفكر العربي، باستثناء سيطرة النظريَّة الصراعية على الاتجاه الماركسي، بينما الغالب على الآخرين الانتقاء من مفاهيم المدارس الاجتماعية المختلفة، مثل: المِخْيال، الإجماع الاجتماعي/السوسيولوجي.

النموذج أو المثال	المنهج المتبع فيه	وصف موجز
تعدد المعنى في القرآن، ناقصات عقل ودين، الإخبار عن المرأة في القرآن والسنة، حيرة مسلمة في الميراث والزواج والجنسية المثلية، جميعها لـ: ألفة يوسف.	نسوي «فلسفي»	لديهم أدوات ومفاهيم شائعة، مثل: الذكورية، الأبوية، البطركية، القمع، الجندرية. كأن يقال بأهمية صياغة الفقه الإسلامي من منظور نسوي، فيكتبه النساء بحجة تحكم الرجال به كل القرون الماضية وكتابتهم له وفق منظور ذكوري، وكذا التفسير، وهكذا...
مشروع التراث والحداثة «نقد العقل العربي» مجموعة كتب للدكتور محمد الجابري.	مركب : بنيوي لغوي - تاريخي -آيديولوجي	المركب أسلوب جديد، وتحول فكري عند المفكرين العرب المقلدين للغرب، فبعد أن ظهرت أقسام الفلسفة في الجامعة العصرية، جاء الابتعاث للطلاب لدراسة مذاهب معينة، ومن ثمّ يتحول الدارس إلى داعية لهذا المذهب أو ذاك، فنجد الوضعي والوجودي والمثالي واليساري والديكارتي والكانطي والهيجلي، وهذا مستمر لليوم. ولكن هناك طائفة جديدة، ترى إمكانية تركيب منهجية من عدّة مدارس، ومن أمثلتهم أصحاب المناهج التركيبية.
مشروع التراث والتجديد مجموعة كتب للدكتور حسن حنفي	مركب: الفمونولوجيا - اليسار الغربي	
مشروع الإسلاميات التطبيقيَّة «نقد العقل الإسلامي» مجموعة كتب للدكتور محمد أركون	مركب: اللغوي - التاريخي - الأنثروبولوجي - الفلسفي	

هذه النماذج من بين نماذج كثيرة، يجمعها تحولها التاريخي نحو التراث، بما يشكل ظاهرة، ولكن هذه الظاهرة تغطي التراث بمجمله، وأما عندما تقف مع نصوص الوحي فهي نماذج جزئية، ومع ذلك فمن تحول منهم نحو النصوص: فإنه يطبق عليها نفس المنهجية التي طبقها على التراث، وقد يكون سبب تأخر بعضهم هو الخشية من عواقب فعله، يقول محمد الهلالي حول بعض هذه القراءات: «لقد سبق لكثير من الباحثين أن أنجزوا «حوارًا» مع الإسلام من وجهة نظر ماركسية، أو تقدمية اشتراكية، أو إلحادية، أو وجودية، أو دينية يسارية، أو تأويلية موضوعية، ولكن ذلك «الحوار» ظل مطبوعًا بسمة سلبية أساسية وهي: التعصب الناتج عن ردة فعل»[1]، ويقول طه عبدالرحمن حول علاقة هذه القراءات بالقرآن: «إن القراءات الحداثية، ولو أنها تزعم تفسير «النص القرآني» على طريقتها كما فسره المتقدمون على طريقتهم، فإنها، في الحقيقة، لا تتعدى تفسير بعض الآيات المأخوذة من سور مختلفة أو بعض الأجزاء من السور القصيرة، لذلك آثرنا استعمال عبارة «الآيات القرآنية» على عبارة «النص القرآني»»[2].

وهذه النماذج أيضًا تتصف بأنها نماذج آيديولوجية، فصاحبها ينتمي لمدرسة فلسفية، أو ركّب منهجيته من مدارس معينة، وتعصّب لها، وأقحمها على نصوص الوحي، مُدّعيًا فيها الكمال والعلو.

وهذه النماذج تتصف أيضًا بأنها نشأت في إطار علماني غير مستوعب للبعد الإلهي في نصوص الوحي، إنها نماذج تتكيف مع نصوص بشرية بكل أبعادها، ولا تتكيف مع نصوص إلهية، ومن هنا كانت المنهجيات الإسلامية هي الوحيدة المحقِّقة لمتطلبات التعامل مع نصوص الوحي. ومع أن بعضهم ممن ينتمي للعلمانية تجده يعترض على التطبيقات الإسلامية في التفسيرات العصرية، ثم تجده هو بنفسه يقوم بتطبيقات لمنهجيات ذات منحًى وضعي على نصوص الوحي، وهذا من تناقضهم!

---

(١) من تقديمه لكتاب الدين في عالمنا، ص٥.

(٢) روح الحداثة، طه عبدالرحمن، ص١٧٦، هامش٣ في موضوع: القراءات الحداثية للقرآن.

وهذه النماذج كما ظهر تتخذ وسيطًا بينها وبين التراث الإسلامي، وهو الاستشراق، وقد غلب على هذه النماذج حضور الوسيط الاستشراقي، فهو قنطرة بينهم وبين التراث الإسلامي، ومن آثار الجمع بين الإطار العلماني والوسيط الاستشراقي أتت القراءات مشوهةً منحرفة، ومعادية للوحي والإسلام والتراث، ومن يطالع النماذج السابقة يجد حجم المرجعية الاستشراقية في حواشي كتبهم وفي النصوص الأساسية التي كتبوها.

المبحث الثاني

واقع القراءات المعاصرة

في القسم الأول وعبر العرض المنهجي تميزت القراءة عن التفسير والتأويل، بأن القراءة تُركّز على القارئ، بينما التفسير وتأويل الفِرَق يُركّز على معنى النص، وفي القسم الثاني تم إيضاحها من خلال مسيرتها التاريخية الحديثة بالتوازي مع مسيرة التفسير والتأويل الديني، وهنا في القسم الثالث والأخير يُطرَح واقعها المعاصر مع نماذج تُبيّن حقيقتها.

القراءة الحداثية المعاصرة هي إيجاد معنًى للنص من خلال منهجية فلسفية وفكرية، قد تكون ماركسية أو تأويلية «هرمنيوطيقية» أو وجودية أو لسانية أو سيميائية أو من ميدان العلوم الاجتماعية مثل: النفسية أو الاجتماعية؛ كالتحليل النفسي، أو النظريَّة الوضعية الاجتماعية، وهكذا، فهو يقول: إن المعنى الذي يذكره قد توصّل إليه من خلال تلك المنهجية التي سلكها، وغالبهم يزعم في تلك المنهجيات قدرتها على اقتناص المعنى بما يفوق المنهجيات التراثية.

وتشترك المنهجيات الثلاث- التفسير والتأويل والقراءة- في البحث عن المعنى، ولكن الرؤية والمنهجية مختلفة بينها، رؤية القراءة وبخاصة في صورتها العلمانية تقوم على نزع القداسة عن نصوص الوحي، إنها نصوص مفصولة عن قائلها، وإذا كانت كذلك فهي نصوص تقبل القراءة البشرية وفق مناهج البشر، وتبعًا لهذه الرؤية فيمكن تطبيق المناهج البشرية الإنسانية التي تطبق على أي نص.

وأصبح النص وفق هذه الرؤية مكانًا للتجربة، ولم يعد مرجعًا لأخذ الحقائق والتوجيه، يُجرب أحدهم مناهجه التي اقتنع بها، وبخاصة أن الإسلام ونصوصه وتراثه ما زال بعيدًا عن

هذه القراءات، مما يعدّ عندهم أرضًا خصبة لتجريب تلك المنهجيات. وبما أن الورقة محددة بصفحات فإني أكتفي بالإحالة إلى نص جامع يوضح حقيقة القراءة عند أحد المنظِّرين لها[1]:

القارئ لا القائل:

«يكون المرجع الأول والأخير هو شعور الباحث وشعور القارئ والتجربة المشتركة بينهما» ص٥٢٥.

«ليست القراءة مجرد شرح أو تفسير أو تأويل للمقروء، بل هي إعادة بناء له طبقًا لتصور القارئ فردًا أو جماعة» ص٥٢٩.

القراءة تفترض تصورًا للنص يسمح بهذه المساحة من القراءة، ويصبح الفرق بين المؤلف والقارئ معدومًا. ينظر: ص٥٣٠-٥٣١.

«قد يتغير معنى النص حسب الأحوال النفسية للقارئ الواحد، وحسب الفروق بين الأفراد» ص٥٣٩.

«المعنى يأتي من النفس أولًا كحاجة أو رغبة أو أُمنية، ثم تجد ما يقابلها في النص فتتطابق معه وتتشبث به على أنه التفسير الصحيح، في الظاهر يبدو أن المعنى الموضوعي قد انتقل من النص إلى الذهن، وفي الحقيقة ينتقل المعنى الذاتي من الشعور إلى النص» ص٥٤٠.

«كل قراءة تبدأ بمعرفة شيء ما، معرفة ما يحتاجه القارئ أولًا، ماذا يريد أن يقرأ في النص، وهو الذي يعطيه دلالته، والنص يتجاوب معه» ص٥٤٦ [2].

---

(١) الإحالات هنا للدكتور حسن حنفي في كتابه: دراسات فلسفية، وتحت عنوان: قراءة النص، وسبب اختياره: أنه من أشهر المعاصرين في دراسة التراث وفق منهجيات القراءة، ومنها: من العقيدة إلى الثورة، خمسة مجلدات في العقيدة، من النص إلى الواقع، مجلدان، الدين والثورة، ثمانية أجزاء، وهكذا.

(٢) يقول في موطن آخر: «فكل خطاب من الله... هو خطاب عن الله... وأصبح علم التأويل أو الهرمنطيقيا علمًا إنسانيًا وليس علمًا مقدَّسًا بفضل شليرماخر، فالكلام يتكون في وعي الإنسان، وهو الذي يحدد مقاصده» إلى أن قال: «فما تصوره القدماء أنه من وحي الله أعيد اكتشافه على أنه من وضع الإنسان، وقد أدى ذلك إلى تغيير مفهوم الوحي والنبوة». حصار الزمن، د. حسن حنفي، ص١٨.

حقيقة القراءة:

النصوص أربعة: أدبي، وقانوني، وتاريخي، وديني، وأصعبها هو الديني. ينظر: ص٥٢٧.

قراءة النص: القراءة هنا تعني الفهم، والنص هو موضوع الفهم. ينظر: ص٥٢٦.

«وبعد كل تراكم معرفي يأخذ النص أبعادًا جديدة لم تكن مقروءة فيه من قبل، ولا موجودة في النواة الأولى للنص» ص٥٣٠.

«النص صورة بلا مضمون، روح بلا جسد، والقراءة هي التي تعطيه مضمونًا وجسدًا».

«القراءة هي التي تحدد مضمون الخطاب» ص٥٣٥.

النص لا يحتوي على معنى موضوعي، والقراءة هي التي تحيله إلى معنى. ينظر: ص٥٣٦.

«القراءة خلق جديد للنص، واكتشاف لمكونات فيه لم تكن مقصودة في نشأته الأولى» ص٥٣٨.

«فالمحكم هو: الذي يحتوي على معنى واحد، والمتشابه هو: الذي يوحي بمعنيين طبقًا لاختيار الإنسان الذي يحدده وضعه في العالم» ص٥٣٥.

«لا يوجد تفسير صحيح وتفسير خاطئ، بل يوجد تفسير قصدي سواء في انتفاء النص، أو في موضوع تطبيقه، أو ما أسماه القدماء: «المناط»، وليست مناهج التفسير إلا تبريرات للذات أمام النفس وأمام الجماعة وأمام التاريخ» ص٥٣٩.

«أصبح علم التفسير جامعًا لعدة علوم، مثل: علم النفس، وعلم اللغة، وعلم الاجتماع؛ كما أصبح عصبًا لنظريات المعرفة والوجود والقيم على حد سواء» ص٥٤٧.



الخاتمة والنتائج

للأسف نحن أمام تجربة لم تخرج بشكل إيجابي في واقعنا الثقافي المعاصر، نعم هي تجربة كبيرة وضخمة؛ عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والكتاب، كتب ومجلات وكتابات، نشاط واسع، مدارس مختلفة، ومع ذلك فهذه الجهود الكبيرة سقطت فريسة التقليد الأعمى للفكر العلماني الغربي، ومع أن الغرب الحديث قد عرف مدارس غير علمانية؛ إلا أن حضورها في كتابات العرب غير واضح مقارنة بحجم وضوح المدارس العلمانية والإلحادية.

لا بد هنا أن نفرق بين نشاطين لهذه المدارس المتغربة:

نشاط مُميّز يقوم على استيعاب المنهجيات الحديثة، وقد كان من المتوقع ومن المفترض أن يثمر حركة فكرية إيجابية داخل العالم الإسلامي، ولكن للأسف، فبسبب عدم إحسانهم التعامل مع تلك المنهجيات تحوّلوا لأداة هدم في ثقافتنا.

ونشاط فلسفي عقيم، يقوم على التبعية العمياء، والتبجح بعبارات الإلحاد، والطعن في الكتاب والسنة، واتهام الإسلام بكل نقص، وتطبيق أدوات نقدية قصدَ تشويه الإسلام، أو التشكيك فيه، أو هدم ما يستطيعون هدمه، وهي عملية قديمة لأعداء الإسلام، ولكن الجديد مع هؤلاء: دعواهم أنهم يعملون لصالح الأمة العربية والإسلامية.

ومع وجود انعطافات لبعضهم آخرَ حياته، وبخاصة من بعض الرموز الحقيقية، إلا أننا نلاحظ عدم استفادة الأجيال من تلك الدروس، ولهم اعترافات مشهورة تقطر ألمًا وتنضح صراحة في العَمَاية التي كانوا عليها، وكيف كانوا أدواتٍ في يد غيرهم.

ومن هذه العمومية إلى الخاص؛ أي: أسلوب تعاملهم مع الوحي، الوحي الذي يدور حوله الإسلام ويستقي منه ويرجع إليه، نجدهم قد حسموا خيارهم بجعل الوحي مادة مُتهَمة تطبَّق عليها منهجياتُ الفكر الفلسفي والاجتماعي لتأكيد التهمة، يبدؤون من كتابات المستشرقين لجمع الشواهد، ثم يطبِّق كل واحد منهم منهجيته في القراءة، والنتيجة هي الانتقاص للوحي وللتجربة الإسلامية المنبثقة منه ولتراث الأمة.

وهذا المنتج يمنع الروح الإسلامية من التدبُّر الأمثل للوحي، ويحرمها من التبصر فيه، والانتفاع به، فهو نظارة تشوِّه الوحي، أو تُباعِدُ بين المتدبِّر والنص، أو تحوِّل النظر لمكان غير صحيح.

ولهذا فالمصالحة مع هذا الاتجاه ومع إنتاجه الفكري غير ممكنة وغير مفيدة، وهي من قَبِيل ضياع الوقت، والحلّ هو في إحداث قطيعة مع فكرهم، فهي تجربة تاريخية فاشلة يجب أن نرميها خلفنا، أليسوا يتحدثون عن أهمية القطيعة الإبستمولوجية مع تراثنا الإسلامي؟ أليس نشاطهم منصبًّا على تدمير عناصر استمرار التراث في الحاضر من أجل إنجاز القطيعة؟ وعليه فيجب قلب المعادلة، ويتوجه نشاطنا الفكري نحو الشرخ الذي أحدثوه في الفكر الإسلامي، فنقوم بنقده ونقضه من أجل إحداث القطيعة معه، وتصفية البيئة الفكرية الإسلامية منه؛ لكي نعود للوحي فنستقي منه عناصر انطلاقتنا المعاصرة، وهذه المرحلة من أفضل المراحل الزمنية لتكثيف دعوات مقاطعة الفكر العلماني بعد أن فقد الدعم الخارجي، وفشل في تحقيق أي منجَز مفيد للأمة العربية والإسلامية.

إنه انتصار عظيم للفكر الإسلامي، فمع انتشار المدارس الفكرية العلمانية، ومع تولي بعضها قيادة مؤسسات تعليمية وثقافية وفنية، ومع نشرهم كل كتب المستشرقين، وكتابتِهم موضوعاتٍ في نقد الإسلام وتشويهه، وإخراجِهم كتاباتِ الطاعنين في الإسلام، ومع كل ذلك يقول الواقع شيئًا مغايرًا، فإقبال الناس على الكتاب الإسلامي، وعلى المرشح الإسلامي، وعلى المرجعية الإسلامية يمثل حركة اجتماعية كبيرة، ومن المكابرة إعادتها لأسباب مُدّعاة يكررها أقطاب الفكر العلماني.

فيكون من حق الأمة على مفكريها وعلمائها أن يزيلوا تلك المنهجيات المنحرفة في قراءة الوحي، ويقوموا بعملية إحياء للمنهجيات الإسلامية الأصيلة.

وهذا الموقف لا يمنع الاستفادة من منجَزات العقل البشري، بقدر ما فتح الله على الناس من الأمور النافعة، ولا يمنع من فتح النقاش مع الحضارات المختلفة، ووزن ما لديها بميزان العدل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ (النساء: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ (البقرة: ٢١٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (النحل)، فمَعَنا الميزان الذي نزن به الأمور، والذي يقيم العدل فيما اختلف فيه الناس واختلفت فيه الحضارات.

وختامًا فهذه بعض النتائج:

- تعدُّ مناهجُ القراءة مناهجَ مميَّزة، وهي ظاهرة بارزة في تاريخ الفكر الإنساني، ويمكن الاستفادة منها في قراءة ما يناسبها من موضوعات، ويمكن للثقافة الإسلامية أن تتفاعل معها بعد القيام بما يتناسب من التعديلات.

- قد يظن بعض الناس أن التراث الإسلامي كان غُفْلًا من القراءات، ومن المنهجيات، والحقيقة أن الدراسات المقارنة تثبت وجود جهود داخل التراث الإسلامي ومكتشفات منهجية، فهناك أفكار جوهرية موجودة في التراث، ولكن مع ما قد يُعتَرض به على منهجياتنا إلا أنها نشأت في فضاء ديني يمنحها قدرة على إفادة التدبُّر الأمثل، بخلاف المعاصرة فقد نشأت في فضاء علماني يعوق التدبُّر[1].

- مناهج القراءة ليست مناهجَ محايدةً، فهي تتأثر بالأصول الفكرية السائدة، ومعلوم أن الفكر الغربي الحديث قد تحكّمت بمسيرته أصول معارضة للدين، مثل: العلمانية والمادية والعقلانية الحسية القاصرة. وتبعًا لذلك فقد تأثرت مناهج النظر والقراءة والتفسير والنقد بتلك الأصول.

(١) ينظر مثلاً: التلقي والتأويل، محمد مفتاح، قراءة النص، د. عبدالرحيم الكردي.

- تتأثر مناهج القراءة بأهواء المطبِّقين لها وميولهم واختياراتهم، وقد ظهرت تيارات علمانية في فكرنا الحديث، وبسبب هذا المنزع العلماني وُظِّفَت المنهجياتُ الحديثة بما يتفق مع منزعهم واختيارهم، فظهرت تلك المناهج وكأنها علمانية المظهر والمخبر، وهذا التوظيف قد أساء لتلك المنهجيات وأوجد لها نفورًا كبيرًا في العالم الإسلامي.

- يحتاج الفكر الإسلامي لموقف حاسم من الفكر العلماني وتسرباته في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويحتاج لقطيعة من خلال عمليات نقد منهجي وعلمي، والأمر يختلف مع منهجيات القراءة، فهي في مجملها منهجيات مقبولة، وبعضها مفيد، وهي تحتاج لتنقية واستصلاح.

- دوائر الانتماء التصورية توضح الفرق في طريقة التعامل مع نصوص الوحي: فالتفسيرُ يظهر في دائرة الدين، والتأويلُ في دائرة الفِرَق، والقراءةُ في الدائرة الفكرية.

دائرة التفسير وفيّةٌ لمعنى النص، ودائرة التأويل متصلة بالمتشابه، ودائرة القراءة مرتبطة بالقارئ.

- تاريخنا الحديث هو صراع كبير بين ثلاث منهجيات: منهجية التفسير، وأهلها ينشرون دعوات الإصلاح، ومنهجية التأويل، وأهلها يريدون حلّ إشكالات التعارض، ومنهجية القراءة، وأهلها يريدون إبراز ذواتهم من خلال المنهجيات التي اقتنعوا بها والرؤى التي اعتنقوها.

- التدبُّر الأمثل لن يكون إلا بروح متحررة من سلبيات المناهج العلمانية، مستوعبة لموروث السلف، مقبلة بصدق نحو القرآن، عندها تحصل على الشفاء.

قائمة المصادر والمراجع

- إبطال التأويلات لأخبار الصفات، أبو يعلى الفراء، تحقيق: محمد النجدي، إيلاف، الكويت، دون بيانات أخرى.
- الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤، د. علي المحافظة، الأهلية، بيروت، طبعة ١٩٨٧م.
- الإتقان في علوم القرآن، لأبي الفضل عبدالرحمن السيوطي، الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ
- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، د. عمر رضوان، طيبة، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ
- أسس التقدم عند مفكري الإسلام، د. فهمي جدعان، الشروق، عمان-الأردن، ط٣، ١٩٨٨م.
- الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، د. محمد سالم سعدالله، الحوار، اللاذقية، سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
- الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، الفكر، دمشق، طبعة ١٤١٩هـ
- إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، عبدالغني بارة، الهيئة المصرية للكتاب، طبعة ٢٠٠٥م.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٩م.
- الإكليل في المتشابه والتأويل، شيخ الإسلام ابن تيمية، ضمن مجموع الفتاوى، ٢٧٠/١٣.

- آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، د. حسن عزوزي، مطبعة أنفو، فاس، المغرب، سنة ٢٠٠٧م.
- بحوث في القراءة والتلقي، فيرناند هيلين، ترجمة د. محمد البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط١، ١٩٩٨م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد إبراهيم، دار إحياء الكتب، بيروت، ط١، ١٩٥٧م.
- تأثير النظريات العلميَّة في الفكر التغريبي، د. حسن محمد الأسمري، بحث دكتوراه غير منشور، مقدم لقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة الإمام، الرياض، سنة ١٤٢٨هـ.
- تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، تعديل فريديريش شفالي، ترجمة د. جورج تامر، دار جورج ألمز، نيويورك، طبعة ٢٠٠٠م.
- التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا، د. حسن عاصي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، التراث العربي، بيروت، دون بيانات أخرى.
- التلقي والتأويل.. مقاربة نسقية، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤م.
- التواصل اللساني والشعرية.. مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، الطاهر حسين، الاختلاف الجزائرية...، ط١، ٢٠٠٧م.
- الثابت والمتحول، بحث في الاتِّباع والإبداع عند العرب، أدونيس.. علي أحمد سعيد، العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م.
- جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد لوح، دار ابن عفان، الخبر، السعودية، طبعة ١٤٢٨هـ.
- حوار المشرق والمغرب، د. حسن حنفي، د. محمد الجابري، مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.



- الخروج من التيه، د. عبدالعزيز حمودة، عالم المعرفة الكويتية، رقم (٢٩٨)، طبعة ٢٠٠٣م.
- درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، دون بيانات أخرى.

* دراسات فلسفية، د. حسن حنفي، الأنجلو مصرية، القاهرة، دون بيانات أخرى.

* دفاع عن القرآن ضد منتقديه، د. عبدالرحمن بدوي، ترجمة د. كمال جادالله، الجيل للكتب والنشر دون بيانات أخرى.

* دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي، د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م.

* دوائر الهيرمنيوطيقا عن بول ريكور، ريتشارد كيرني، ترجمة: سمير مندي، الأزمنة الأردنية، ط١، ٢٠٠٩م.

* الدين في عالمنا، إشراف جاك دريدا وجياني، ترجمة: محمد الهلالي وحسن العمراني، توبقال، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٤م.

* ذم التأويل، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر البدر، الدار السلفية، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ

* روح الحداثة.. المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م.

* سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت، دون بيانات أخرى.

* سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دون بيانات أخرى.

* صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ



* الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، أبو الحسن الندوي، القلم، الكويت، ط٤، ١٤٠٣هـ.

* صناعة المعنى وتأويل النص، ندوة نظمها قسم العربية من ٢٤-١٩٩١/٢٧، كلية الآداب بمنوبة، جامعة تونس، ١٩٩٢م.

* الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن القيم الجوزية، تحقيق د. علي بن محمد، العاصمة، الرياض، ط٣، ١٤١٨هـ.

* ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، د. خالد السيف، مركز التأصيل، جدة، ط١، ١٤٣١هـ.

* ظاهرة القراءة المعاصرة للقرآن وآيديولوجيا الحداثة، عبدالرحمن الحاج، ضمن مجلة التسامح، مجلة فكرية تصدر عن وزارة الأوقاف العمانية، العدد الأول، شتاء ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٢٧.

* العلمانيون والقرآن الكريم.. تاريخية النص، د. أحمد إدريس الطعان، ابن حزم، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ.

* العلمنة والدين.. الإسلام، المسيحية، الغرب، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، الساقي، لندن، ط١، ١٩٩٠م.

* فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، الندوة الفلسفية الخامسة عشرة للجمعية الفلسفية المصرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

* الفلسفة والتأويل، نبيهة قارة، الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

* القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير، د. محمد كالو، اليمان، حلب، سوريا، ط١، ١٤٣٠هـ.

* قراءات النص.. مقدمة تاريخية، أ.د. عبدالرحيم الكردي، الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ.

* كانط أو الفلسفة النقدية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، مصر، دون بيانات أخرى.

* الكتاب والقرآن.. قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، سينا، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.

* كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، مكتبة لبنان، طبعة ١٩٩٦م.

* اللغة والتأويل.. مقاربة في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، عمارة ناصر، الدار العربية، بيروت،ط١، ٢٠٠٧م.

* ما بعد الحداثة.. تجلياتها وانتقاداتها، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبدالسلام بن عبدالعالي، توبقال، المغرب، ط١، ١٩٩٧م.

* ما بعد الحداثة.. دراسة في المشروع الثقافي الغربي، د. باسم خريسان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٢٥هـ

* مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم، دار عالم الكتب، الرياض، طبعة ١٤١٢هـ

* مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد الفقي، توزيع دار الإرشاد الحديثة.

* معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، طبعة ١٩٧٩م.

* مفهوم القراءة عند الحداثيين وعلاقته بالتفسير، د. فاطمة الزهراء الناصري، شبكة التفسير على هذا الرابط: ://www.tafsir.net/vb/tafsir26544/.

* مفهوم النص.. دراسة في علوم القرآن، د. نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٤م.

* مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد، الدعوة، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.

* مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن محمد بن خلدون، تحقيق: د. علي عبدالواحد وافي، نهضة مصر، القاهرة.

* من فيصل التفرقة إلى فصل المقال.. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ محمد أركون، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، الساقي، بيروت، لندن، ط١، ١٩٩٣م.

* مناهج الفكر العربي المعاصر في دراسة قضايا العقيدة والتراث، شاكير السحمودي، التأصيل، جدة، ط١، ١٤٣١هـ.

* مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مجموعة باحثين، من إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، تونس، طبعة ١٩٨٥م.

* مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بيروت، ط٣، دون تاريخ.

* منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان علي حسن، الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.

* منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد عبدالرحمن الرومي، الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

* الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالميَّة للطباعة، الرياض، ط٤، دون تاريخ.

* موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، سليمان صالح الغصن، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

* موقف المستشرقين من الصحابة ﷺ، د. سعد الماجد، الفضيلة، الرياض، ط١، ١٤٣١هـ.

* النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، طيب تيزيني، الينابيع، دمشق، طبعة ١٩٩٧م.

* النص من القراءة إلى التنظير، د. محمد مفتاح، النشر، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م.

* نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، د. حسن سحلول، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، طبعة ٢٠٠١م.

* النظريَّة النقدية عند هربرت ماركيوز، د. حسن محمد، التنوير، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

* نقد الخطاب الديني، د. نصر حامد أبو زيد، سينا، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.

* نقد العقل بين الغزالي وكانط.. دراسة تحليلية مقارنة، د. عبدالله الفلاحي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

الورقة الثانية

الإعجاز العددي
وتدبُّر القرآن الكريم

إعداد

أ. د. إبراهيم بن صالح بن عبدالله الحميضي

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم، السعودية

السيرة الذاتية

الاسم: إبراهيم بن صالح بن عبدالله الحميضي

المؤهل العلمي:

- حاصل على البكالوريوس في الشريعة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الشريعة وأصول الدين في القصيم.
- حاصل على الماجستير والدكتوراه في القرآن وعلومه من جامعة الإمام بن سعود الإسلامية بالرياض.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن وعلومه في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة القصيم.

الخبرة العلمية:

- أشرف وناقش عددًا من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- يدرِّس في برنامج الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه بجامعة القصيم.
- عضو مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه في الدورة الثانية والثالثة.
- عضو هيئة تحرير مجلة العلوم الشرعية بجامعة القصيم.
- مشرف ملتقى المؤتمرات القرآنية.

النتاج العلمي:

- جمال القراء.
- منهج القرآن في محاربة الشرك.
- اختيارات ابن تيمية في التفسير جمعًا ودراسة.
- تعظيم القول في التفسير وأثره في دفع القراءات المنحرفة المعاصرة للقرآن الكريم.
- نقد دعوى الإعجاز العددي في القرآن الكريم.

النشاط العلمي:

- شارك في عدد من البرامج الإعلامية.



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فلا يخفى أن تدبُّر القرآن الكريم، والاتعاظَ بآياته، والعملَ بما فيه هو الغاية من نزوله؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص:٢٩).

فالواجب على كل مسلم ألا يكتفي بحفظ آياته وتلاوتها فحسب، بل لا بد أن يجمع مع ذلك الفَهمَ والتَّدبرَ والعملَ حسب الاستطاعة، كما هو حال سلفِ الأُمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وتدبُّر القرآن الكريم له مناهج ووسائل ومُعِينات متنوعة، ينبغي الاجتهاد في تحصيلها لكي تتحقّق هذه العبادةُ الشريفة.

وفي هذا العصر الحديث ظهرت لبعض الباحثين وجوهٌ جديدة لإعجاز القرآن الكريم، بعضها متفرع من وجوه أخرى، وبعضها جديد مستقل عن غيره، ومن هذه الوجوه الإعجازية التي ظهرت في هذا العصر، وكان لها رَوَاجٌ عند بعض الناس ما يسمَّى «الإعجاز العددي في القرآن الكريم»؛ حيث اعتنى به بعضُ الناس في هذا العصْر، وكُتبتْ فيه أبحاث ومؤلفات، وعُقدت فيه مؤتمرات وندوات.

وقد زعمَ أصحابُ هذا المنهج أن عملهم من باب تدبُّر القرآن الكريم، واستنباط أسراره ومعانيه، وأن ذلك مما يزيد تعظيم القرآن في النفوس، ويدعو الكفار إلى الإسلام وتصديق القرآن.

والناظر في هذه الكتب والمقالات والأبحاث المكتوبة في هذا المجال يجد أنها مبنيَّةٌ على التكلُّف والتعسُّف، ليس لها قواعدُ ثابتة تُبنَى عليها، ولا أصولٌ صحيحة تستند إليها، على تفاوتٍ بينَها في المناهج والاتجاهات، وأنها ليست من التَّدبُّر المحمود المأمور به.

ولذلك رَغِبَ الإخوة القائمون على هذا المؤتمر القرآني المبارك أن أكتب عن هذا الموضوع وعلاقته بالتَّدَبُّر، فكان هذا البحثُ الموسوم: «الإعجاز العددي وتَدَبُّر القرآن الكريم»، راجيًا أن يُسهم في ضبط المسار المنهجي الصحيح للكتابة في تَدَبُّر القرآن الكريم وما يتّصل به، علمًا بأنه قد نُشر لي بحث سابق بعنوان: «نقد دعوى الإعجاز العددي في القرآن الكريم» وقد ذكرتُ خلاصته، ثم حاولتُ ربطه بموضوع تَدَبُّر القرآن، وما يترتب على توظيفه في هذا المجال من آثار.

خطة البحث:

يشتمل هذا الموضوع على مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة، وهي كما يلي:

المقدمة: وفيها: أهمية الموضوع، وسبب الكتابة فيه، وخطة البحث، ومنهجه.

التمهيد: إعجاز القرآن الكريم: تعريفه ووجوهه.

المبحث الأول: نشأة ما يسمى بالإعجاز العددي في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: أقوال أهل العلم فيما يسمَّى بالإعجاز العددي.

المبحث الثالث: مناهج الباحثين فيما يسمى بالإعجاز العددي ونقدها.

المبحث الرابع: الإعجاز العددي وتَدَبُّر القرآن الكريم.

المبحث الخامس: أثر الاشتغال باللطائف العددية على التدبُّر.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وسلكتُ في هذا البحث المنهج الاستقرائي، والتحليلي النقدي، والتزمتُ بإجراءات البحث العلمي المعروفة؛ حيث عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، وخرَّجت الأحاديث والآثار، وذكرت أحكام الأئمة على ما ليس في الصحيحين من الأحاديث، ووثَّقت النصوص من مصادرها، وضبطت المشكِلَ، وعلَّقت على ما يحتاج إلى تعليق.

وفي الختام، أحمد الله ﷻ على ما منَّ به عليَّ من إتمام هذا البحث، كما أشكر الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم على تنظيم هذا المؤتمر القرآني المبارك، وأسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أهل كتابه العزيز، العاملين به؛ إنه قريب مجيب.



التمهيد

إعجاز القرآن الكريم: تعريفه ووجوهه

تعريف موجز بإعجاز القرآن الكريم:

إعجاز القرآن مركب إضافي من كلمتين «إعجاز» و«قرآن»، فالإعجاز في اللغة: مصدر أَعْجَز، والفعل الثلاثي المجرَّد منه: عَجَزَ أو عَجِزَ، بفتح الجيم وكسرها، والعَجْز: الضَّعْف وعدم القدرة على الإتيان بالشيء، والتأخر عنه، ومعنى الإعجاز: الفَوْتُ والسَّبْقُ، يقال: أَعْجَزَني فلان؛ أي: فاتني[1].

والإعجاز اصطلاحًا: «أن يرتقيَ الكلامُ في بلاغته إلى أن يخرج عن طَوْق البشر، ويُعْجِزَهم عن معارضته»[2].

والمُعجزة: أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالمٌ من المعارضة، يجريه الله تعالى على يد نبيه، شاهدًا على صدقه[3].

ومعجزة النبي ﷺ: ما أَعْجَزَ به الخصمَ عند التحدي، والهاء للمبالغة[4]، وسميت المعجزةُ معجزةً لأن البشر يَعجِزون عن الإتيان بمثلها[5].

---

(١) انظر الصحاح ٢/٨٨٤، ومقاييس اللغة ٢/٢٢١، و المفردات ص ٥٤٧، وبصائر ذوي التمييز١/٦٥، ولسان العرب ٥/٣٦٩، مادة «عجز»، وانظر كذلك: التعريفات للجرجاني ص٢١٩.

(٢) التعريفات ص ٨٣.

(٣) انظر الإتقان ٥/١٨٧٣، ومناهل العرفان ٢/٣٥٤، ومباحث في إعجاز القرآن ص ١٤، ودراسات في علوم القرآن ص ٢٨١.

(٤) القاموس المحيط ٢/٢٩٠ مادة «عجز».

(٥) انظر أبحاث في علوم القرآن ص ٢٤٠.

والقرآن: مصدر قرأ على الصحيح، بمعنى: الجمع والضم[1]، وهو كلام الله تعالى، المنزل على نبيه محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته[2].

والمراد بإعجاز القرآن: عجزُ الناس عن معارضة القرآن أو الإتيان بمثله[3].

وأعظم معجزات النبي محمد ﷺ وأفضلها القرآن الكريم، وهو المعجزة الباقية الدائمة إلى قيام الساعة.

ومصطلح «الإعجاز» ظهر متأخرًا، ويقال: إنه لم يستعمل إلا في أول القرن الثالث، وأول كتاب يحمل هذا العنوان: «إعجاز القرآن»، لمحمد بن زيد الواسطي (ت ٣٠٦) وهو مفقود[4]، وكان يطلق عليها الآيات، كما ورد في القرآن الكريم في آيات عديدة، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت).

وقال ﷺ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[5].

كما أطلق عليها القرآنُ الآيةَ، والبيِّنة، والبرهان، والسلطان، والبصيرة[6]، وهذه الألفاظ القرآنية أدلُّ على المقصود من لفظ المعجزات؛ ولهذا لم يرد لفظ «المعجزة» في الكتاب والسنة[7].

ونظرًا لاشتهار لفظ «المعجزة» عند أهل العلم منذ القرن الثالث، وعدم وجود ما يمنع من استعماله لغةً وشرعًا، فلا بأس في إطلاقه، وإن كانت الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة أولى.

---

(١) انظر مقاييس اللغة ٢/٣٩٦، ولسان العرب ٦/٣٥٦٣ مادة «قرأ».

(٢) انظر دراسات في علوم القرآن للرومي ص ٢٣.

(٣) انظر: محاضرات في علوم القرآن ص ٢٣٧، ودراسات في علوم القرآن ص ٢٨٨، وانظر كذلك: مناهل العرفان ٢/٣٥٤. ويأتي تعريف الإعجاز العددي قريبًا بعد ذكر وجوه الإعجاز، انظر: ص ١٢.

(٤) انظر: مباحث في إعجاز القرآن ص ١٣، ودراسات في علوم القرآن ص ٢٩٢،٢٩١، وإعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء ص ٦٣.

(٥) أخرجه البخاري ٥/٩ ح ٤٩٨١، ومسلم ١/١٣٤ ح ٢٣٩.

(٦) انظر: دراسات في علوم القرآن ص ٢٨٣، وإعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء ص ٤٧.

(٧) الجواب الصحيح ٥/ ٤١٢، وانظر: القائد إلى عين العقائد ص ١٦١.

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في تحديد وجوه إعجاز القرآن الكريم، فمنهم من توسّع في ذلك واستكثر من الوجوه، ومنهم مَن حصرها في عدة وجوه[1]، بل ذهب بعض العلماء إلى أن إعجاز القرآن الكريم منحصر في وجه واحد، وهو: نَظْمُه العجيب البديع الخارج عن معهود العرب في أساليب كلامهم، وقوانين بلاغتهم، وأما ما يذكره العلماء من الوجوه الأخرى فهي دلائل على صدق نبوة الرسول[2].

ومع تعدد وجوه الإعجاز يبقى وجه واحد منها محلَّ اتفاق بين العلماء وهو الإعجاز البياني، على اختلافٍ بينهم في تحديد وجهه الدقيق، وذلك لأنه لا تخلو منه آية من كتاب الله ، بخلاف الوجوه الأخرى فهي مفرَّقة فيه[3]، كما أنه هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن؛ فإنهم قد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة وقتَ نزوله، وقد جرت سنّةُ الله ﷻ أن تكون معجزة كل نبي بما اشتهر به قومه وتفوقوا فيه؛ ولذلك يعتبر هذا الوجه أكبرَ وجوه الإعجاز وأظهرَها[4].

هذا، ويرى عدد من المحققين من أهل العلم أن إعجاز القرآن كائنٌ بجميع الوجوه الإعجازية التي ذكرها العلماء.

يقول ابن تيمية: «وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه، ولا تناقضَ في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له»[5].

ويقول الزركشي: «قول أهل التحقيق: إن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد عن انفراده...»[6].

(١) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٨، وتفسير القرطبي١١٦/١، والبرهان للزركشي ١٠٣/٢ وما بعدها، والإتقان ١٨٧٩/٥ وما بعدها، ومعترك الأقران ٣/١، ومناهل العرفان ٣٥٥/٢، وأبحاث في علوم القرآن ص ٢٤٤ وما بعدها، وإعجاز القرآن لفضل حسن عباس ص ١٥١ وما بعدها، والمدخل الوجيز ص ٨٧ وما بعدها.

(٢) انظر: جمال القراء للسخاوي ١٠٢/١، ومداخل إعجاز القرآن لأحمد شاكر، ص ١٦٢- ١٦٣، ومحاضرات في علوم القرآن لغانم الحمد ص ٣٥٣.

(٣) انظر: إعجاز القرآن الكريم ص ٢٨.

(٤) انظر: دراسات في علوم القرآن ص ٣٠٨.

(٥) الجواب الصحيح ٤٢٩/٥.

(٦) البرهان ١٠٦/٢، وانظر معترك الأقران ٣/١.

وقد حصر بعضُ الباحثين المعاصرين وجوه الإعجاز التي ذكرها المتقدمون والمتأخرون في وجوه أربعة رئيسة، هي:

١- الإعجاز البياني، أو اللغوي.

٢- الإعجاز الغيبي، ويشمل الإخبار عن أنباء الأمم الماضية، وأخبار الحوادث المستقبلة.

٣- الإعجاز التشريعي.

٤- الإعجاز العلمي[١].

وفي هذا العصر توسَّع الناس في هذا الباب وأبرزوا وجوهًا أخرى جديدة، مثل: الإعجاز النفسي، والإعجاز القصصي، والإعجاز التأثيري، والإعجاز الحضاري، والإعجاز الاقتصادي، والإعجاز التربوي، والإعجاز العددي، والإعجاز الرياضي، والإعجاز الجدلي وغيرها[٢]، وهذه الأنواع منها ما هو داخل في وجوه الإعجاز الكبرى المعروفة، ومنها ما هو تكلُّف محض.

وكون القرآن كتابًا مُعجزًا أمر لا جدال فيه، يدرك هذا العالمُ والجاهل، ولا يلزم من ذلك أن يَظهر إعجازُه في كل علم من العلوم الحديثة النظريَّة والتجريبية، بل إن ذلك قد يغضُّ من عظمة القرآن حينما يَعْجِز الكاتب أو المحاضر عن إقناع الناس بإثبات الوجه الإعجازي فيما ادَّعاه.

تعريف الإعجاز العددي:

الإعجاز العددي مصطلح مركب وصفي من كلمتين: «إعجاز»، و«عددي»، وقد تقدم تعريف الإعجاز، وأما العددي: فهو نسبة إلى العدِّ، وهو: الحساب والإحصاء[٣].

وهناك تعريفات عديدة له، ذكرها الباحثون في هذا الموضوع، ومن أوضحها ما يلي:

«بيان إعجاز القرآن الكريم من خلال توافق الأعداد أو المعدودات فيه»[٤].

«وجه من أوجه إعجاز القرآن؛ يتناول ما ورد في القرآن الكريم من إشارات تتعلّق بالرّوابط العدديّة بين حروفه وكلماته وآياته وسوره»[٥].

(١) انظر: النبأ العظيم ص ٩٩، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٢٧٠ وما بعدها، ومباحث في إعجاز القرآن ص ١٢١، ودراسات في علوم القرآن ص ٣٠٨ وما بعدها، وإعجاز القرآن الكريم ص ١٥٢.

(٢) انظر: المدخل الوجيز ص ٢٥٣ وما بعدها.

(٣) انظر: لسان العرب ٢٨١/٣، وتاج العروس ٨ / ٣٠٠ مادة «عدد».

(٤) وهذا تعريف الدكتور فهد الرومي، انظر: ضوابط الإعجاز العددي في القرآن الكريم ص٥.

(٥) التأصيل الشرعي للدراسات العدديّة في القرآن الكريم، لإيمان كامل ص ٧.



المبحث الأول

نشأة ما يسمى: الإعجاز العددي في القرآن الكريم

مع كثرة الوجوه الإعجازية التي ذكرها العلماء السابقون، حيث بلغت عند السيوطي خمسةً وثلاثين وجهًا[1]، لم يشيروا إلى ما يتعلَّق بالأعداد والأرقام من قريب ولا من بعيد، مع أن علم عَدِّ آي وكلمات وحروف القرآن نشأ في صدر الإسلام، حيث ظهر عَدُّ الآي في عصر الصحابة ، وتمَّ عَدُّ الكلمات والحروف في عصر التابعين في القرن الهجري الأول، وألفت فيه مؤلفات عديدة[2].

وإنما وُجد هذا المصطلح في العصر الحاضر، وكان أولَ من أطلق هذا المصطلحَ عبدُالرزاق نوفل (ت: ١٤٠٤هـ) في كتابه: «الإعجاز العددي للقرآن الكريم»، الذي نُشرت طبعته الأولى عام ١٩٧٥م، ثم أعلن رشاد خليفة[3] اكتشاف معجزة القرن العشرين، وهي معجزة الأرقام، في مقال نشره في مجلة روز اليوسف المصرية عام ١٩٧٢م، ثم كتاب «عليها تسعة عشر»، ثم «دلالات جديدة في القرآن»[4].

وقد كان لبديع الزمان النَّورسي (ت: ١٩٦٠م) اهتمام بأسرار الحروف وأعدادها، ولاسيما الحروف المقطعة في أوائل السور[5]، ولكنه لم يطلق عليها مصطلح «الإعجاز العددي»، بل كان كلامه من قَبيل التفسير الإشاري الصوفي.

---

(١) وذكر أن بعضهم أوصلها ثمانين وجهًا. انظر: معترك الأقران ١/١٢، وليس كُلُّ ما ذكره السيوطي من وجوه الإعجاز؛ كما صرح هو بذلك. انظر: نفس المصدر ١/١٢، وانظر إعجاز القرآن للشريف ص ٣٣٩، وأبحاث في علوم القرآن ص ٢٤٩.

(٢) انظر: البيان للداني ص٦٧ ومقدمة محققه: غانم الحمد، وفنون الأفنان ص ٢٥٣.

(٣) انظر: ترجمته ص ٢٠.

(٤) انظر: مقولة الإعجاز العددي ص ٣٢٦.

(٥) انظر: رسائل النور، المكتوبات، لبديع الزمان سعيد النَّورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القسم الثالث من المكتوب التاسع والعشرين، ص: ٥٢٢ وما بعدها، والضوابط الشرعية لدراسة الإعجاز العددي في القرآن الكريم ص ٦٠.

وقد زعم بعض الباحثين أن هذا اللون من الإعجاز ظهر في أول الإسلام، واستدلوا لذلك ببعض المأثورات عن بعض السلف، وما ذكره بعض العلماء المتقدمين من استنباطات تتعلق بهذا النوع من الإعجاز، ومنها:

ما رُوي عن بعض السَّلف في تحديد ليلة القدر بليلة سبع وعشرين، استنباطًا من كون سورة القدر ثلاثين كلمة، وأن كلمة «هي» في السورة هي الكلمةُ السابعة والعشرون من السورة[1].

كذلك استنبط بعضهم من القرآن أنها- أي: ليلة القدر- ليلة سبع وعشرين: من أن الله ﷻ ذكر ليلة القدر في سورة القدر في ثلاثة مواضع منها، وليلة القدر حروفها تسعة حروف، والتسعة إذا ضُربت في ثلاثة فهي سبعة وعشرون[2].

ما ورد عن ابن مسعود ﷺ قال: «من أراد أن ينجِّيَه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنَّةً من كل واحد»[3].

قال القرطبي: «فالبسملة تسعة عشر حرفًا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} (المدثر: ٣٠)، وهم يقولون في كل أفعالهم: «بسم الله الرحمن الرحيم» فمن هناك هي قوَّتهم»[4].

وهذه المأثورات لم تثبت عن الصحابة ﷺ والتابعين بسند صحيح، ثم إن مَتْنَها لا يشبه ما أُثر عنهم من التفاسير، بل فيها نكارة، وعلى تقدير ثبوتها فهي من باب المُلَح واللطائف، وليست من الإعجاز في شيء، وقد ردَّها جمعٌ من أهل العلم وجعلها آخرون من باب المُلَح والنُّكت.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في تفسيره ٢٨٥/٨، والرازي في تفسيره ٣٢ /٣٠، ونسباه لابن عباس ﷺ بصيغة التمريض، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤٤٨/٨ ولم ينسبه لأحد، وحكاه ابن رجب الحنبلي في لطائف المعارف ص ٢٠٣ عن بعض المتأخرين.

(٢) ذكره ابن الجوزي في تفسيره ٢٨٥/٨، وابن رجب في لطائف المعارف ص ٢٠٣ عن بعض المتأخرين.

(٣) ذكره الثعلبي ٩١/١، وانظر تفسير ابن عطية ٦١/١، والدر المنثور ٤٤/١.

(٤) تفسيره ١٤٣/١.

قال ابن عطية: «وهذه من مُلَح التفسير، وليست من متين العلم»[1].

قال ابن رجب تعليقًا على ما ذكره ابن عطية: «وهو كما قال»[2].

وقال الثعالبي: «ولا يخفى عليك لينُ ما بلغ هؤلاء، ولقد أغنى الله تعالى بصحيح الأحاديث وحَسَنِها عن موضوعات الورّاقين، فجزى الله نقاد الأمة عنا خيرًا»[3].

وقد أنكر ابنُ حَزْمٍ هذا الاستنباط من الآية، وعدَّه ضَرْبًا من الوَسْواس؛ يقول ﷺ: «ومن طرائف الوَسْواس: احتجاج ابن بكير المالكي في أنها ليلة سبع وعشرين بقول الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ (القدر)، قال: فلفظة «هي» هي السابعة وعشرون من السورة.

قال أبو محمد: حقُّ من قام هذا في دِماغه أن يعانيَ بما يعاني به سكان المارِستان[4] نعوذ بالله من البلاء، ولو لم يكن له من هذا أكثر من دعواه أنه وقف على ما غاب من ذلك عن رسول الله ﷺ ولم ينس من علم الغيب ما أنساه الله ﷺ نبيه، ومن بلغ إلى هذا الحد فجزاؤه أن يخذله الله تعالى مثل هذا الخِذْلان العاجل، ثم في الآخرة أشد تنكيلًا»[5].

ما ذكره بعض العلماء المتقدمين من استنباطات تتعلق بهذا النوع من الإعجاز، ومن ذلك ما أورده أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) أثناء حديثه عن نظم القرآن، أن الحروف المقطّعة التي افتتحت بها السور تضمّنت نصف حروف المعجم وهي أربعة عشر حرفًا، ونصف الحروف المهموسة، ونصف الحروف الشديدة، ونصف الحروف المُطْبَقة[6].

---

(١) تفسيره ٦١/١.

(٢) لطائف المعارف ص ٢٠٣.

(٣) تفسيره ١٥٧/١.

(٤) المارِسْتَان: المستشفى، انظر: المعجم الوسيط ص ٨٦٣، مادة «مرس».

(٥) انظر: المحلى ٤٥٩/٤.

(٦) إعجاز القرآن ص ٤٤.

وقد تَبِع الباقلانيَّ بعضُ من جاء بعده كالرّاغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، والزّمخشريّ (ت: ٥٣٨هـ)، والرّازيّ (ت: ٦٠٦هـ)[1].

وما ذكره الباقلاني ومَن بعده محلُّ نظر من جهة انضباط تقسيم العدد، ووجود اختلاف في صفات بعض الحروف، ثم إنهم لم يشيروا إلى أنها من الإعجاز، بل هي لطائف متعلِّقة باللغة والنَّظم، أضف إلى ذلك أنهم لم يتوسعوا في هذا الباب كما فعل المتأخرون، وإنما ذكروها عند الحديث عن الحروف المقطعة.

(١) انظر: مقدمة جامع التفاسير للراغب ص ١٤٢، وتفسير الزمخشري ١٧/١، والتأصيل للإعجاز العددي ص ٣٥.



المبحث الثاني

نشأة ما يسمى: الإعجاز العددي في القرآن الكريم

هذا المصطلح حادثٌ بلا شك كما تقدم، ولذلك لم يتعرض له المتقدمون، وأما المعاصرون فقد اختلفوا في قَبوله أو رفضه، ويمكن ردُّ آراء أهل العلم والباحثين فيه إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: الذين أثبتوه وجهًا من أوجه إعجاز القرآن الكريم، وبالغوا في تعظيمه وبيان أهميته، والتكلف في الاستدلال والتمثيل له، وعامة أصحاب هذا القول ليسوا من المتخصصين في العلوم الشرعية، والدراسات القرآنية، وإنما هم في تخصصات أخرى كالهندسة والطب والحاسوب وغيرها[1].

وقد أطلق بعضهم عليه أوصافًا وألقابًا غريبة وموهمة ومثيرة، مثل: سرّ الوجود، الشيفرة القرآنية، الرسالة الخفية للقرآن، لغز فواتح السور، الاكتشاف القرآني الجديد، رياضيات ألفاظ ومعاني القرآن الكريم، أسرار الحروف، وغيرها.

وهؤلاء منهم المجتهد الصادق الحريص على خدمة الكتاب العزيز والدعوة إليه، وهم الغالب ولله الحمد، ومنهم المحرِّف، وصاحب الهوى، الذي يريد تقرير اعتقاداته الباطلة من خلال البحث في هذا الموضوع.

---

(١) لم يهتمَّ المشتغلون بالإعجاز العددي بالتأصيل الشرعي في هذا الباب، وإنما كان عملهم في جانب التطبيق والتمثيل، وبعضهم حاول الاستدلال لثبوت هذا الوجه ولكن بإيجاز شديد في افتتاح الكتاب، ولعل السبب في ذلك كونُهم من غير المتخصصين في العلوم الشرعية، وقد ادَّعى كثير منهم أنهم تجاوزوا مرحلة التأصيل، فليس هناك حاجة إلى البحث فيها وإثارة قضاياها، وقد تولى التأصيلَ لهذا اللون من الإعجاز بعضُ الباحثين الذين يرون صحة هذا النوع في الجملة بشروط وضوابط، وإن لم يكن لهم اشتغال بجانب التطبيق والتمثيل.

يقول عبدالرزاق نوفل مبينًا أهميته: «إن الإعجاز العددي للقرآن الكريم هو الوجه الذي يجب أن ندعوَ إليه، إنه الدليل على وجود المُوحي، ورسالة الموحَى إليه، وإنه لَأُسلوب الجيل بلغة العصر، فنحن في جيل الأرقام، وعصر العدد والإحصاء»(١).

ويقول المهندس عبدالدائم الكحيل: «إن النظام الرقمي المذهل للحروف المقطَّعة هو برهان مادي ورياضي على أن القرآن كتاب معجزات، وليس كتاب أساطير، كما يدعي بعض الملحدين عندما يقولون: إن القرآن يحوي حروفًا لا معنى لها.

ويمكن القول بأن الله تعالى بعلمه المسبق يعلم أنه سيأتي عصر تتطور فيه علوم الرياضيات، ويكثر فيه الملحدون، لذلك فقد أودع في كتابه حروفًا مقطَّعة في أوائل السور، وأخفى إعجازها حتى جاء عصر الرقميات الذي نعيشه اليوم، ليكون التحدي بهذه الحروف أبلغ وأقوى، وهذا شأن المعجزة تأتي بالشكل الذي برع فيه المشكِّكون، لتُعجزهم في اختصاصهم، وتبين لهم أن القرآن هو كلام الله الحقّ»(٢).

وقد استدل أصحاب هذا القول على إثبات هذا الوجه الإعجازي بأدلة، منها:

الآيات التي ذُكر فيها العدُّ والحساب، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس].

ففي هذه الآية الكريمة ونحوها- كما يقولون- إشارة إلى أن الله ﷻ قدّر القمر منازل ليعلمنا عدد السنين ويعلمنا الحساب، وتدل الآية الكريمة على أن الله لم يخلق ذلك إلا بالحق، وقد فصّل الآيات لقوم خصهم بالعلم دون غيرهم، فلا بد أن يُرى أثر الحساب في بيان تفصيل الآيات الكريمة، وهو جانب من جوانب الإعجاز العددي في القرآن الكريم(٣).

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم ص ٢٥٣، وانظر: ص ١٦٦.

(٢) إشراقات الرقم سبعة في القرآن الكريم ص ١٦.

(٣) انظر: تأصيل فكرة الإعجاز العددي في القرآن الكريم، لحسن عبدالجليل عبدالرحيم علي العبادلة ص ٢١.

ولا يسلَّم استدلالهم بهذه الآية على وقوع هذا النوع من الإعجاز، فالعدُّ والحساب في هذه الآية لا يدخل فيه عدُّ وحساب كلمات وآيات القرآن الكريم واستنتاج المعاني والدلالات من عدّها وحسابها، وإنما المراد عدد السنين وابتداؤها وانتهاؤها، وحساب ساعات الليل والنهار وأوقاتها(١).

ما ورد عن بعض السلف من استنباطات تتعلق بهذا النوع من الإعجاز(٢)، ومن ذلك:

ما رُوي عن بعض السَّلف في استنباط تحديد ليلة القدر بليلة سبع وعشرين، أخذًا من كون سورة القدر ثلاثين كلمة، وأن قوله ﷺ: «هي» هي الكلمةُ السابعة والعشرون من السورة(٣).

وما ورد عن ابن مسعود ﷺ قال: «من أراد أن ينجِّيَه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنَّةً من كل واحد»(٤).

وقد تقدم في المبحث السابق أنه على تقدير ثبوتها لا دلالة فيها على ثبوت وجود إعجاز عددي في القرآن الكريم.

ما ذكره بعض العلماء المتقدمين من استنباطات تتعلق بهذا النوع من الإعجاز، ومن ذلك ما أورده أبو بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن»، ومن تبعه ممن جاء بعده كالأصفهاني والزمخشري وغيرهما حول الحروف المقطَّعة أوائل السور وصفاتها الصوتية.

وقد تقدم إيراد كلام الباقلاني ومناقشته، وبيان أنه على تسليم ما ذُكر فيه من أعداد فإنه لم يدَّع هو ومن تبعه الإعجازَ فيها، وإنما هي من باب اللطائف التي يُستدل بها على المعاني اللغوية(٥).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير١٤/٥١٥.

(٢) التأصيل الشرعي للدراسات العدديّة في القرآن الكريم ص ٢٧ وما بعدها.

(٣) تقدم عَزوه.

(٤) تقدم عَزوه.

(٥) انظر: ص ١٦.

القول الثاني: ذهب عدد من الباحثين إلى قَبول هذه اللطائف والموافقات العددية، إذا انضبطت وسَلِمت من التكلُّف والتعسُّف، ولكنهم لم يدخلوها في باب الإعجاز القرآني، بل رأوا أنها من قَبِيل اللطائف والمُلَح، أو التوافق والتناسب[1].

ودليلهم في ذلك: وجود أمثلة صحيحة على وجود هذا النوع من اللطائف، لكن لا ينطبق عليها شروط الإعجاز.

القول الثالث: ردُّ هذا النوع من أنواع الإعجاز بالكلية، وعدم اعتباره في باب الإعجاز ولا في باب اللطائف، وأن ما صحَّ من أمثلته وسلِم من التكلُّف والتَّعَسُّف قليلٌ جدًّا وغير مطَّرد، وبالتالي فهو من باب الموافقة والمصادفة وليس مقصودًا، بل هو حاصل في كثير من الكلام المنظوم والمنثور عند التأمُّل والاستقراء، وهذا هو الراجح، بل الصحيح عندي بعد استقراءٍ لما كُتب فيه وتأمُّل، وحوار ومناقشة للباحثين فيه، ومشاركة في بعض مؤتمراتهم.

وهذا ما يختاره كثير من المتخصصين في العلوم الشرعية والباحثين في الدراسات القرآنية.

يقول الدكتور أشرف عبدالرزاق قطنة: «وصلتُ بنتيجة دراستي إلى أن فكرة الإعجاز العددي-كما عرضتها هذه الكتب-[2] غير صحيحة على الإطلاق، وأن هذه الكتب تقوم باعتماد شروط توجيهية حينًا وانتقائية حينًا آخر، من أجل إثبات صحة وجهة نظر، بشكل يسوق القارئ إلى النتائج المحددة سلفًا، وقد أدت هذه الشروط التوجيهية أحيانًا إلى الخروج على ما هو ثابت بإجماع الأمة، كمخالفة الرسم العثماني للمصاحف، وهذا ما لا يجوز أبدًا، وإلى اعتماد رسم بعض الكلمات كما وردت في أحد المصاحف دون الأخذ بعين الاعتبار رسمها في المصاحف الأخرى، وأدت كذلك إلى مخالفة مبادئ اللغة العربية من حيث تحديد مرادفات الكلمات وأضدادها»[3].

---

(١) انظر: منهج علماء السلف القدامى والمعاصرين في الإعجاز العددي ص ٢٧، مقولة الإعجاز العددي ص ٣٨٦.

(٢) وقد استعرض في كتابه هذا ثلاثةَ كتب وهي: «إعجاز الرقم ١٩ مقدمات تنتظر النتائج» لـبسام جرار، و«الإعجاز العددي في القرآن الكريم» لعبدالرزاق نوفل، و«المعجزة» لـعدنان الرفاعي، قلتُ: لو استعرض غيرها لرأى أعجب وأغرب.

(٣) رسم المصحف والإعجاز العددي، ص: ١٩٧.

ويقول الدكتور خالد السبت: «وهذا النوع من الإعجاز باطل جملة وتفصيلًا؛ إذْ لم يكن معهودًا لدى المخاطبين بالقرآن من أصحاب رسول الله، وهم أعلم الأمة بكتاب الله، وأبرها قلوبًا، وأكثرها صوابًا، فلم يُنقَل عن أحد منهم بإسناد صحيح شيء من هذا القبيل إطلاقًا، ولو كان هذا من العلم المعتبر لكانوا أسبقَ الناس إليه، وأعلمَ الأمة به، وذلك أن هذا الأمر لا يتطلب آلات وتقنيات حتى يتمكن الإنسان من اكتشافه، وإنما هو مجرد إحصاء وعدد، وهذا أمر لا يُعْوِز أحدًا»[1].

ويمكن إجمال أدلتهم على رَدِّه فيما يلي:

- التكلُّف والتَّعَسُّف في إثبات وجوه هذا الإعجاز المزعوم، فالناظر في كتب وأبحاث الإعجاز العددي يجدها مبنيةً على هذا الأساس، وهذا أمر ظاهر جدًّا، حتى إن الإنسان لا يطيق إكمال كثير من هذه الكتب؛ نظرًا لاضطراب مناهجها، وانتقاء أمثلتها، وتكلُّف إيجاد الروابط بين أعدادها، ومحاولة الوصول إلى النتائج المفترضة بطرق لا تمتُّ إلى المنهج العلمي بصلة، بل إنها تسيء إلى القرآن العزيز المنزَّه من التحريف والتبديل.

يقول الإمام الشاطبي: «إن كثيرًا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدَّ، فأضافوا إليه كل علم يُذكَر للمتقدمين أو المتأخرين، من علوم الطبيعيات، والتعاليم[2]، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم[3] لم يصح، وإلى هذا، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرفَ بالقرآن وبعلومه وما أُودِع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدَّعَى»[4].

ويقول الأستاذ فاتح حسني محمود في مقدمة كتابه: «وجدت عند بعضهم انعدام الموضوعية، والنقلَ غيرَ الأمين، والنقل بثقة كبيرة دون التكلف بعناء المتابعة والبحث»[5].

---

(١) انظر: http://www.islammemo.cc/2002/06/24/4772.html

(٢) أي: الرياضيات، أفاده محقق الكتاب.

(٣) أي: إن الشريعة جارية على معهود العرب الْأُمِّيِّين الذين نزلت فيهم.

(٤) الموافقات ٢/٧٩.

(٥) الإعجاز العددي في القرآن الكريم بين الحقيقة والوهم ص ١٠.

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي: «ففي هذه الكتب الجديدة الإحصاء غير دقيق، وطرق البحث فيها اصطفائية غير واقعية»(١).

وقد اعترف بعض مؤيدي هذا الإعجاز بوجود التكلُّف في بعض الأبحاث فيه(٢).

وكل من ينظر في هذه الأبحاث يجد الاختيارات الانتقائية للكلمات؛ لكي يستقيم له التوازن العددي، وتحصل لهم النتيجة المطلوبة(٣).

- أنه يكثُر في أبحاث هذا الإعجاز القول على الله ﷻ بغير علم؛ حيث يتولى البحث في دلالات الآيات من لا عِلْمَ له بالتفسير وأصوله وقواعده(٤).

وتفسير القرآن الكريم بغير علم محرَّمٌ ومذموم، وقد دلت على ذلك النصوصُ الكثيرة من الكتاب والسنة، وأقوال السلف.

ولقد تورَّع الصحابة والتابعون ﷺ عن القول في التفسير بغير علم، وهابوا الكلام فيه، خوفًا من الخطأ، وحملِ كلام الله ﷻ على غير مراده، وهذا أمر مستفيض عنهم ومشهور، والآثار عنهم في ذلك كثيرة(٥).

- أن التفسير بالأرقام والعدِّ والحساب منهج باطني يهودي قديم(٦)، واليهود أول من حاول التفسير بالأرقام، فقد ورد أنهم جاؤوا رسولَ الله ﷺ وهو يقرأ فاتحة سورة البقرة، فحاولوا أن يستخرجوا من الحروف المقطَّعة في فواتح السُّوَر مدةَ بقاء الإسلام من خلال حساب الجُمَّل(٧)(٨).

---

(١) انظر: تقديمه لكتاب رسم المصحف والإعجاز العددي، وانظر كذلك: مقالات في علوم القرآن ص٢٦٤.

(٢) انظر: ضوابط الإعجاز، لمحمد زكي محمد خضر ص ١١، ومنهج علماء السلف القدامى والمعاصرين في الإعجاز العددي ص ٣٦.

(٣) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ٢/٢٩٩.

(٤) انظر: مقالات في علوم القرآن ص ٢٦٤، منهج علماء السلف القدامى والمعاصرين في الإعجاز العددي ص ٣٤، وما يسمى الإعجاز العددي في القرآن ص ٢٤.

(٥) انظر: تعظيم القول في التفسير وأثره في دفع القراءات المنحرفة المعاصرة للقرآن الكريم، للكاتب.

(٦) انظر: المعجزة القرآنية ص٢٨٩، و ما يسمى الإعجاز العددي في القرآن ص ٦٥.

(٧) حساب الجُمَّل: هو وضعُ قِيمٍ عددية للحروف الأبجدية.

(٨) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١/٢٢١، وضعفه ابن كثير في تفسيره ١/١٦١.

وقد ورد عن ابن عباس أنه قال: «إن قومًا ينظرون في النجوم، وفي حروف «أبي جاد» قال: أرى أولئك قومًا لا خلاق لهم»[1].

قال ابن حجر معلقًا على هذا الأثر: «وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عدِّ أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد؛ فإنه لا أصل له في الشريعة»[2].

وقد تبِعَ اليهودَ في حساب الحروف والاستدلال بها بعضُ الفِرق الباطنية المنسوبة للإسلام[3].

- أنه لم يكن معهودًا عند المفسرين، ولم يقل به أحد من السلف، مع أنهم عدُّوا آيات القرآن وكلماته وحروفَه كما تقدم، وهذا أمر مقدور لديهم لو أرادوا.

- عدم مراعاة الاختلاف في علم القراءات ورسم المصحف وعدِّ الآي[4]، مع أن لها أثرًا كبيرًا في ضبط العد والحساب.

ولا شك أن الاختلاف في وجوه القراءة والعدِّ وكيفية الرَّسم ينقض ما يتوصلون إليه من نتائج[5]، وقد مال أكثُر الباحثين في الفترة الأخيرة إلى الأخذ برواية حفص عن عاصم، واعتماد مرسوم المصحف المكتوب وفق هذه الرواية، وعدِّه الكوفي، وأن يكون العدُّ للحروف المرسومة وليس الملفوظة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٥/٢٤٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٢/ ٢٦، وانظر منهج السلف المعاصرين ص ٤٩.

(٣) انظر: أسرار الحروف وحساب الجُمَّل ص ١٠٥ وما بعدها.

(٤) انظر: مقولة الإعجاز العددي ص ٣٣٠.

(٥) وكان بعض مَن كتب في الإعجاز العددي لا يعرف أن هناك اختلافًا في هذه الأمور، ويظن أن عدد الآيات متفق عليه، والقراءات لا أثر لها في زيادة الحروف ونقصانها، وأن رسم المصحف واحد على جميع القراءات! وكثير منهم يقطع بأن رسم المصحف توقيفي، ويخطِّئ من يقول: إنه اجتهادي، مع العلم بأن القول بأنه اجتهادي قول عامة أهلم العلم. انظر: رسم المصحف ص ١٦٩، وكتابة القرآن الكريم بغير الرسم العثماني ص ١٩٣ وما بعدها.

ولكن هذا الضابط لا يرفع الإشكال؛ فإن رواية حفص عن عاصم ليست أقوى الروايات وأثبتها، بل هي من جملة ما ثبت وتواتر من قراءات القرآن الكريم، ولكنها شاعت في العالم الإسلامي في العصور المتأخرة، وهكذا العدُّ الكوفي لا نستطيع أن نقول: إنه أصح من غيره[1].

ولا يقاس هذا على وجوه الإعجاز الأخرى؛ فإنها ثابتة في جميع وجوه القراءات، وأنواع العدِّ.

- وقوع المشتغلين به في مخالفات شرعية متعددة، مثل: محاولة التنبؤ ببعض المغيبات التي لم تأت بعد، والأخذ بالتقويم الميلادي والحساب الشمسي، دون الهجري القمري الشرعي، والاستدلال ببعض الإسرائيليات والأقوال الضعيفة، وحساب الجمَّل، وغيرها[2].

هذه أبرز أدلة أصحاب هذا القول، وأحسب أنها كافية لردِّ هذا الوجه الإعجازي الحادث بالكلية، فضلًا عن نفي صفة الإعجاز عن هذه الموافقات العددية على فَرض صحتها، وسيأتي تقرير ذلك في المبحثين الرابع والخامس.

---

(١) انظر: مقولة الإعجاز العددي ص ٣٤٢.

(٢) انظر: ما يسمى الإعجاز العددي ٥١، ومقولة الإعجاز العددي ص ٣٤٤ وما بعدها، ومقالات في علوم القرآن ص ٢٦٤، ومقالة الدكتور خالد السبت: //www.islammemo.cc/2002/06/24/4772.html.



المبحث الثالث

مناهج الباحثين فيما يسمى: الإعجاز العددي، ونقدها

والمشتغلون بما يسمى الإعجاز العددي لهم عدة مسالك في تحديد وجوه الإعجاز في هذا النوع، ويمكن إجمال أبرزها فيما يلي:

اكتشاف التوافق العددي بين عدد مرات ورود ألفاظ معينة في القرآن الكريم، كما هو منهج عبدالرزاق نوفل، حيث أورد في كتابه جملة من الأمثلة على ذلك، منها ما يلي:

- تَكرَّر ورود «الدنيا» في القرآن الكريم ١١٥ مرة، و«الآخرة» كذلك.
- تكررت كلمة «الملائكة» ٨٨ مرة، كذلك تكرر ذكر «الشياطين».
- وهكذا «الحياة» و«الموت» حيث تكرر لفظ كل منهما مع مشتقاته ١٤٥ مرة.

وتقدم أنه ﷺ لم يَسلَمْ من التكلُّف في العدِّ لكي يتوصل إلى هذه النتائج، ويضافُ إلى ذلك أنه ذكر توافقًا عدديًّا بين ألفاظ ليس بينها ارتباط واضح، ومن ذلك: تكرار ورود الألفاظ التالية بنفس العدد:

- «الفاحشة والغضب».
- «النطفة، والطين، والشقاء».
- «الأصنام، والخمر[1]، والخنزير، والبغضاء، والحَصَب، والتنكيل، والجسد، والرُّعب، والخيبة».
- «القليل والشكور»[2].

اكتشاف سرٍّ عددي في رقم معين، مثل: رقم تسعة عشر، أو سبعة، أو ثمانية، أو تسعة وعشرين، أو مئة وأربعة عشر، أو غير ذلك.

(١) واستثنى الخمر، فقد زاد موضعًا واحدًا، لكن المراد به: خمَر الجنة فلا يدخل!

(٢) انظر: الإعجاز العددي للقرآن الكريم، ص ٧، ٨، ١٩، ٢٥، ١٠، ٢١١، ٢٠٠، ٤١، ٣٩، ٣١، ٢٢٨.

وقد بالغوا وتكلَّفوا إيجادَ علاقاتٍ عدديةٍ متنوعة مع هذه الأرقام التي يختارونها، مدَّعين أنهم كشفوا وجهًا إعجازيًّا جديدًا في القرآن الكريم.

مثال ذلك: ما ذكره المهندس عبدالدائم الكحيل:

عدد آيات القرآن: (٦٢٣٦)، وعدد سوره: (١١٤).

وعند صفِّ العددين يكون ٦٢٣٦ ١١٤، فهو يتألف من سبع مراتب، وهو من مضاعفات الرقم سبعة.

وعندما نعكس اتجاه قراءة الأرقام من اليمين إلى اليسار تصبح قيمة هذا العدد هي ٦٣٢٦٤١١، وهي كذلك من مضاعفات الرقم سبعة[١].

ولا يخفى التكلف في هذا المثال، باستعمال طريقة صفِّ الأرقام، فضلًا عن الخلاف في عدد آيات القرآن الكريم.

وليته اقتصر على نحو هذا المثال الذي قد يكون مفهومًا للقارئ، بل زاد تكلُّفًا وإغرابًا عندما توصل إلى نتيجة لا تستطيع قراءتها؛ كما في المثال التالي:

كتب المؤلف كلمات آية الكُرسي، ثم كتب تحت كل كلمة عدد ما تحويه من حروف البسملة، ثم صفَّ الأعداد في سطر واحد مبتدئًا من آخر الآية وليس من أولها، فكان العددُ المصفوفُ كما يلي:

(٤٤١٠٤٢٢٠٤٠٤٤١١٣٣٣٢٢٤٢٠٣٢٠٥٣٢٣٤٣٢١٣١٢٤١٢٠٤١٢٢٢٢٠٣٢٢٤٤١٣٣٢٤) وهذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة![٢].

فهل ترى أن هذا المثال والعدد الهائل «٥٧ خانة»، من إعجاز الكتاب المبين الذي نزل على أمَّة أُميَّة لا تكتب ولا تحسب؟! ثم لماذا التحكُّم ببدء العدِّ من آخر الآية، واختيار حروف البسملة وآية الكرسي دون غيرها؟!

اكتشاف علاقات رقمية بين ترتيب آيات وسور القرآن الكريم، أو اسم السورة وعدد آياتها، أو بين عدد كلمات أو حروف السورة أو الآية وورود لفظة معينة فيها، ونحو ذلك.

---

(١) إشراقات الرقم سبعة في القرآن الكريم ص٨٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٤٤.

والناظر في الأبحاث المكتوبة في هذا المسار يجد أنها مبنيَّة على الانتقاء والتحكّم كما مضى، وهذا المنهج إذا سلكه الإنسان في أي نصٍّ بشري فإنه لا يُعوزه أن يجد الإشارةَ إلى النتيجة التي أرادها سلفًا، ومن أمثلة هذا النوع: ما ذكره أحد الباحثين من وجود إعجاز عددي ترتيبي في سورة الشعراء، حيث يقول:

«في سورة الشعراء آية ١٢٣ تتحدث عن قوم هود «قبيلة عاد»: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، فإذا عرفتَ أن سورة الشعراء هي أطول سورة بعد البقرة من حيث عدد الآيات (٢٢٧)، أفلا يبلغ منك العجبُ ذُروته حين تعلم أن عدد آيات سورة هود هو ١٢٣؟ إذ كيف اتفق أن يكون الرقم الذي يتحدث عن قوم هود من بين ٢٢٧ رقمًا هو الرقم المطابق لعدد آيات سورة هود؟ فسبّح بحمد ربك»[١].

وليس في ترتيب هذه الآية إعجاز ولا عجب، فموافقة رقم الآية التي تتحدث عن قوم هود لعدد آيات سورة هود - بغض النظر عن الخلاف في عدّ الآيات- ليس إعجازًا لا يقدر عليه البشر، ثم إنه وقع مصادفةً، بدليل: أن الآيات التي تتحدث عن نبينا نوح إبراهيم ﷺ في سورة الشعراء لم توافق عدد آيات سورة نوح وسورة إبراهيم، ثمَّ لمَ ترك الآية التي ذُكر فيها هود ﷺ صراحةً وهي الآية التي بعدها.

إن الناظر في هذه الكتب يصاب بالغثاء حينما يرى الأعداد الكبيرة، بعد مرورها بعمليات حسابية مُعقدّة ملفَّقة متكلَّفة.

إن الإعجاز الصحيح أيًا كان وجهه يتذوَّقُه الإنسان ويطرب له ويبتهج، ويسبِّح بحمد الذي أنزل القرآن الكريم ، ولو كان المتأمِّلُ فيه من عوام الناس، أما هذه الأرقام والأعداد الحسابية، ولا سيما المعقدة فإن كثيرًا من الناس لا يتذوقها ولا يتأثر بها.

نظرية تسعة عشر

مبتدع هذه النظريَّة الشهيرة رشاد خليفة[٢]؛ حيث كَتب حولها عدة مقالات جمُعت

---

(١) الإعجاز في ترقيم الآيات ص ٦٧.

(٢) هو محمد رشاد خليفة، ولد في كَفْرِ الزيَّات بمصر عام ١٩٣٥م، وتخرج في كلية الزراعة بجامعة عين شمس، ثم ذهب إلى أمريكا وحصل فيها على درجة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة كاليفورنيا عام ١٩٦٤م، وبعد ذلك عاد إلى مصر وعمل فترة، ثم رجع إلى أمريكا واستقر هناك، وتزوج امرأة أمريكية، وحصل على الجنسية الأمريكية، وعين أستاذًا في جامعة أريزونا، ثم خبيرًا للتنمية الصناعية الأمم المتحدة، تولى الإمامة في مسجد

وطبعت بعد ذلك، وألقي فيها بعض المحاضرات في عدد من البلدان العربية، وقد استخدم الحاسب الآلي في عمليات العدِّ والإحصاء[١].

ويمكن تلخيص فكرته فيما يلي:

أن للحروف المقطعة أوائل السور أسرارًا بديعة، وأن عدد مرات وروده في السورة يقبل القسمة على ١٩، كما استنتج منها تاريخ قيام الساعة عن طريق حساب الجمَّل.

أن هذا الرقم ١٩ رقم مقدَّس في القرآن، وهو القاسم المشترك الذي تنبني عليه مظاهر العد والإحصاء في القرآن، وأنه مطَّرد في الحروف النورانية، وهي المذكورة في فواتح السور.

أن المراد بقوله تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ (المدثر) البسملة؛ حيث إن عدد حروف البسملة تسعةَ عشرَ، وأن في ذلك دلالة على أن البسملة حِرز من النار، وأن كل كلمة من كلمات البسملة تتكرر في القرآن كله عددًا من المرات هو دائمًا من مضاعفات العدد١٩.

وهو في حساباته هذه غير دقيق، بل هو غير صادق، فقد كان يحرِّف ويعبث بها لتوافق هواه في تقديس الرقم ١٩.

ويقال: إن الدافع له لتقديس هذا الرقم اعتناقه لعقيدة الفرقة البهائية الضالة التي تعظِّم هذا الرقم، وقد تولى عددٌ من الباحثين الرد عليه وكشف أباطيله[٢]، وفي المقابل وافقه ودافع عنه آخرون[٣].

وقد ظهرت دراسات أخرى حول إعجاز ١٩، نهجت نهجًا آخر[٤]، ولم ينطلق أصحابها من أفكار فاسدة كما فعل رشاد خليفة، لكنها من حيث التأصيل والمنهج ضعيفة مضطربة.

مدينة توسان في ولاية أريزونا، فلما أظهر أفكاره الشاذة طُرد من المسجد، حيث اتَّهم باعتناق نحلة البهائية الضالة التي تقدِّس الرقم ١٩، وقد وقع في ضلالات وانحرافات عظيمة انتهت به إلى ادِّعاء النبوة. وفي عام ١٩٩٠م وجد مقتولًا في منزله بمدينة توسان في ولاية أريزونا. انظر: دراسات في الإعجاز العددي ١٥١، معجزة القرآن العددية ص ٤٨، البيان في إعجاز القرآن ص ٣٦٨، و الإعجاز العددي في القرآن بين الحقيقة والوهم ص٧٣.

(١) انظر: معجزة القرآن العددية ص ٤٨.

(٢) انظر: فتنة القرن العشرين ص ١٩، وتسعة عشر ملكاً بيان أن فِرية الإعجاز العددي خدعة بهائية، والبيان في إعجاز القرآن ص ٣٦٨، وأبحاث في علوم القرآن ص ٢٦٩، وإعجاز القرآن لفضل عباس ص ٣٣٩.

(٣) انظر: المعجزة العددية ص ٦٥.

(٤) ومن ذلك: كمال الإعجاز في القرآن الكريم وتطبيق نظرية العدد (١٩) على الفواصل القرآنية، لعادل كمال جميل، وسرّ العدد ١٩ لعبد الله جلغوم، ومعجزة العدد، ١٩ لعبيد سليمان، وإعجاز الرقم ١٩ في القرآن الكريم مقدمات تنتظر النتائج، لبسام جرار، وانظر كتابه: إرهاصات الإعجاز العددي في القرآن الكريم ص ٢١.

المبحث الرابع

الإعجاز العددي وتَدَبُّر القرآن الكريم

تَدَبُّر القرآن الكريم، والتفكر فيه، واستنباط معانيه، والعمل بما فيه، من أفضل العبادات، وأجلّ القُربات فقد حثَّ الله ﷻ على تدبُّر[1] كتابه العزيز، وذمَّ المعرضين عن التفكّر في آياته، فقال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء)، وقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والخطاب في هذه الآيات الكريمة عام لجميع الناس مسلمهم وكافرهم؛ فكلهم مأمورون بتدبُّر القرآن حسب استطاعتهم، منهيون عن الإعراض عن التفكر فيه، والاهتداء بهديه، والعمل به وعدم مخالفته.

وأصحاب الإعجاز العددي يرون أن عملهم وحساباتهم واستنباطاتهم العددية هي من باب التدبُّر المأمور به، وأن لهم الحقَّ أَنْ يتأمَّلوا ويجتهدوا في اكتشاف هذه الأعداد، وينكرون على مَن مَنعَهم من ذلك أو ردَّ ما يتوصلون به من نتائج من خلال تأمُّلهم وتدبُّرهم لآيات القرآن الكريم، ويقولون: لمَ تمنعوننا وتنكرون علينا ما أُمرنا به ورُغِّبنا فيه؟

---

(١) التدبُّر في اللغة: النظر في عاقبة الشيء، انظر: معاني القرآن للزجاج ٨٢/٢، وقال الجرجاني: «عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكرَ تصرُّفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبُّر تصرُّفه بالنظر في العواقب » التعريفات ص ١٧، وتدبُّر القرآن: «التفكر في الآيات، والتأمُّل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء» تفسير أبي حيان ٣٣٨/٩.

والجواب عن ذلك أن يقال: إن كان التدبُّر فيما دلت عليه الآيات من المعاني الواضحة التي يتوصل إليها من يعرف اللسان العربي، وتشهد لها نصوص الشريعة ومقاصدها وقواعدها، ولا تخالف ما ثبت عن السلف فيها[1] فهو أمر مشروع، بل واجب.

وإن كان التدبُّر فيما خفي عليهم معناه من الآيات، أو نتج عنه استنباطُ معانٍ باطلةٍ لا تدل عليها اللغة، ولا يشهد لها ظاهر السياق، أو تُناقِضُ ما ثبت عن الصحابة والتابعين، أو كان من قَبيل التّكلف والتَّعسف في التوصل إلى نتائج ودلائل غير مرادة؛ فهو غير مشروع، بل هو من القول على الله بغير علم، وذلك من أعظم الذنوب كما تقدم؛ فإن للتدبُّر شروطًا وقواعدَ وضوابطَ يجب الالتزام بها، وعدم الخروج عنها، وليس هذا مقامَ تفصيلها[2].

قال الشاطبي: «فإن ظواهر الأدلة إذا اعتُبرت من غير اعتماد على الأولين فيها مؤدية إلى التعارض والاختلاف، وهو مشاهَد معنًى، ولأن تعارض الظواهر كثير مع القطع بأن الشريعة لا اختلاف فيها.

ولذلك لا تجد فرقة من الفرق الضالة، ولا أحدًا من المختلفين في الأحكام- لا الفروعية ولا الأصولية- يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة، وقد مرَّ من ذلك أمثلة، بل قد شاهدنا ورأينا من الفساق من يستدل على مسائل الفسق بأدلة يَنسُبُها إلى الشريعة المنزهة، وفي كتب التواريخ والأخبار من ذلك أطراف ما أشنعها في الافتئات على الشريعة!»[3].

وقال الزركشي: «واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى، أو حب الدنيا، أو يكون غيرَ متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعًا إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض»[4].

---

(١) ومن المعلوم أن التدبُّر أمر نسبي يتفاوت بحسب قدر المُتَدَبِّر في العلم والفهم.

(٢) انظر: شروط التدبُّر للدكتور خالد السبت، بحث مقدم لملتقى التدبُّر الثاني في الرياض.

(٣) الموافقات٣/٧٦، وانظر شرح مقدمة تفسير ابن تيمية لابن عثيمين ص ١٤٠.

(٤) البرهان ٢/١٨١، وانظر تفسير ابن جرير ١/٧٦.

ثم إن هناك فرقًا بين أن يتدبَّر الإنسان ويتفكر في بعض الآيات، ويراجع كلام المفسرين حولها، ويسأل أهل العلم عنها، وبين من يسارع إلى إشاعة آرائه وتأمُّلاته، ويجادل عنها، ويخطِّئ من يخالفها ولو كان من السلف أو كبار المفسرين.

وقد وضع العلماء لمن أراد أن يفسر كتاب الله ﷻ شروطًا يجب أن تتوافر فيه قبل أن يقدم على هذه المهمة العظيمة، وقد تقدم في المبحث الأول التأكيد على حرمة الإقدام على التفسير من غير معرفة بأصوله وقواعده وتحصيل لأدواته.

قال النووي: «ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، والإجماع منعقد عليه، فمن كان أهلًا للتفسير جامعًا للأدوات التي يعرف بها معناه، وغلب على ظنه المرادُ فسَّره إن كان مما يدرَك بالاجتهاد كالمعاني، والأحكام الجلية والخفية، والعموم والخصوص، والإعراب، وغير ذلك، وإن كان مما لا يدرَك بالاجتهاد كالأمور التي طريقها النقل، وتفسيرِ الألفاظ اللغوية فلا يجوز الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله، وأما من كان ليس من أهله لكونه غيرَ جامع لأدواته فحرام عليه التفسير، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله»[1].

ولو أن المشتغلين بهذه الاستنباطات العَددية جعلوها من اللطائف، أو المُلَح، أو النُّكَت، كما يطلِق ذلك المفسرون على بعض ما يُستنبط من الآيات من أسرار بلاغية ونحوها، ولم يبالغوا في إثباتها، والتوسع فيها لهان الأمر، فإن باب اللطائف والنُّكت أوسع من غيره؛ إذ هي في الغالب استنباطات اجتهادية قد تصيب وقد تخطئ، ولا تُبنَى عليها قواعد وأحكام، وقد تكون ظاهرةً بيِّنة، وقد تكون خفيَّةً، وقد يستملحها أحدٌ، ويستغربها آخر، ولا يُقال ذلك في علم إعجاز القرآن فإنه أصل مقطوع به.

---

(١) التبيان ٦٥/١، وانظر الإتقان في علوم القرآن ٢٢٧٤/٦، دراسات في علوم القرآن الكريم، ص١٦٦، المفسر شروطه وآدابه، لأحمد قشيري سهيل.

أما إطلاق مصطلح الإعجاز على اللطائف العددية فهو غير صحيح، فإننا حينما نتأمَّل تعريف المعجزة وشروطها نجد أنها لا تنطبق على ما يسمى الإعجازَ العددي، ذلك أن من شروط المعجزة[1]: أن تكون من الأمور الخارقة للعادة؛ أي: أن تكون في أمر لم يعتَدْه الناس ويألفوه قولًا كان ذلك أو فعلًا، وأن تكون سليمة من المعارضة؛ أي: لا يستطيع أحدٌ من الجنِّ أو الإنس أن يأتي بمثلها، فإن استطاع أحدٌ أن يأتي بمثلها لم تكن معجزةً.

وإذا نظرنا في تطبيقات وأمثلة ما يسمى الإعجاز العددي نجد أن هذين الشرطين لم يتحققا فيه، فهو ليس خارقًا للعادة، فقد اعتاد الناس وعرفوا أمثلة للتناسق العددي قد تكون أضبط وأوضح مما اكتشفوه، لاسيما في هذا العصر الذي ظهرت فيه الحوسبة الآلية.

ثم إنها ليست سالمةً من المعارضة؛ حيث يستطيع كلُّ من لديه عِلم بالحساب أن يأتي بأمثلة وتطبيقات من قوله أو قول غيره مماثلةٍ لما ذكره الباحثون في هذا المجال، فيمكن للإنسان مثلًا أن يؤلف قصيدةً أو قطعةً نثريه يذكر فيها عددًا من الكلمات بأعداد محددة، ويستخدم فيها حساب الجمَّل-كما هو واقع في بعض المنظومات- كما يستطيع أن يُوجِد علاقةً عددية بين عنوان النصِّ وعدد كلماته وحروفه، كما يستطيع أيضًا أن يحدد كلمة معينة في النصِّ يكون بين ترتيبها أو عدد حروفها ومعناها علاقة معينة.

(١) انظر: تفسير القرطبي١/١١٢، ومباحث في إعجاز القرآن ص ١٠٧، وإعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء ص ٣٩، والمدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز ص ٢٨.



المبحث الخامس

أثر الاشتغال باللطائف العددية على التدبُّر

قد يُقال: لماذا التشدُّد في عدم قبول هذا النوع من الإعجاز، وصرف الناس عن التدبُّر فيه واستنباط أسراره ومراميه؟ أليس مجالُ التَّدبُّر واسعًا ومعاني القرآن وأسراره كثيرةً؟

والجواب عن ذلك: أن الانشغال بذلك وصرف الجهد والوقت فيه[1] له آثار ومآلات غير محمودة، ومن ذلك ما يلي:

قد تكون بعضُ هذه الاكتشاف والوجوه الرقمية والعددية غيرَ معجزة حقيقةً، بل هي في مقدور البشر -كما تقدم بيانه-، وفي هذا مدخلٌ للطاعنين في القرآن الكريم، والجاحدين لنزوله من عند الله ﷻ، وقد كُتبت بعض الأبحاث حول الإعجاز العددي في التوراة والإنجيل مع أنها محرفة قطعًا.

من المعلوم قطعًا أن وجوه الإعجاز الأخرى التي نص عليها عامة أهل العلم كالإعجاز البياني، والغيبي، والتشريعي؛ أظهر وأعظم من هذا النوع، فتعظيم باب اللطائف أو الموافقات العددية وجعلها وجهًا من وجوه الإعجاز قد يُسْهِم في صَرْف بعض الناس عن معرفة تلك الوجوه وتأمُّلها والانتفاع بها.

يقول سيد قطب: «وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يَحْمِلوا عليه ما لم يَقْصِد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في

---

(١) ذكر عدد من المشتغلين بذلك أنه أمضى سنوات عديدة وسهر الليالي الطوال في استخراج هذه الوجوه العددية، وهذا ظاهر في بعض مؤلفاتهم وأبحاثهم المبنية على التكلُّف والتعقيد، ولو كان الأمرُ مقتصرًا على لطيفة عابرة أو موافقة ظاهرة ما كان عليهم من تثريب. كما تقدم في المبحث السابق.

علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها؛ كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه! إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها»[1].

ويقول نَعيم الحمصي: «تُرى أيهما أهمُّ وأولى لترغيب غير المسلمين في الإسلام، أن نعرض سموَّ معانيه وعظمة تشريعاته وصحة مقولاته العلميَّة التي توافق العلم الحديث؟ أم هذا العدد الحرفي الجاف؟»[2].

إن اكتشافَ أمثلةِ ووجوه الإعجاز العددي مقدورةٌ لكثير من الناس صغارًا وكبارًا، عوامَّ ومتعلمين، ولذلك تجرأ بعضهم في الخوض في غِمار هذا البحث وخرجوا بنتائج غريبة، مخالِفة لظاهر القرآن، وأقوال الصحابة والتابعين، وأئمة المفسرين[3].

وهذا الأمر- الخوض في استنباط الإعجاز- لا يحصل في الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن الكريم، كالإعجاز البياني، والغيبي، والتشريعي؛ فإنه لا يُقْدِم على ذلك في الغالب إلا أهل العلم المتخصصون.

إن الأعداد والحسابات ليس لها أثر إيماني روحي يجده المسلم في قلبه ونفسِه، فيتأثر بذلك وينتفع، بل هو نظر ظاهري جاف، ومَن يقرأ الكتب والأبحاث والمقالات المكتوبة في هذا المجال أو يسمع المحاضرات والحوارات حوله يجد ذلك جليًّا، بل إن الإنسان لا يطيق إكمال بعض الأبحاث المؤلفة فيه، بخلاف التدبُّر والتأمُّل في الأحكام الشرعية والهدايات الإيمانية والمواعظ القرآنية والقصص النبوية وما تشتمل عليه من تعظيم للخالق وتذكير بالآخرة، وتسلية للمؤمنين.

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٨١.

(٢) فكرة إعجاز القرآن ص ٢٩٢، وانظر في ظلال القرآن ١/١٨١.

(٣) انظر أمثلةً لذلك في كتابي نقد دعوى الإعجاز العددي في القرآن الكريم.



الخاتمة والنتائج

وفي الختام، وبعد أن منَّ الله تعالى بكتابة هذا البحث الموجز، هذه بعض النتائج التي ظهرت لي من خلاله، وهي كما يلي:

- علم إعجاز القرآن الكريم من العلوم المهمة الشريفة؛ لتعلقه بكتاب الله تعالى، وكونِه مظهرًا لعظمة القرآن الكريم، وأنه تنزيل من العزيز العليم.

- اختلف العلماء في تحديد وجوه إعجاز القرآن الكريم، والأظهر أنه يعمّ ما ذكره العلماء الأجلَّاء من وجوه مختلفة يَصْدُق عليها حَدُّ المعجزة، وأن أعظم هذه الوجوه وأظهرها الإعجاز البياني.

- ما يسمَّى «الإعجاز العددي» مصطلح حادث، لم يُعرفْ إلا في هذا العصر، وهو تَـخَـرُّصات مبنية على التكلُّف والتَّعَسُّف الذي ينزَّه عنه القرآنُ الكريم.

- تدبُّر القرآن الكريم، واستنباط أحكامه وهداياته، وتنزيلُ آياته على الواقع أمر مشروع ومندوب إليه، ولكن ذلك محكوم بضوابط وأصول وقواعد تجب مراعاتها.

وبناءً على ما تقدم، أوصي بما يلي:

- صَرف النظر عن هذا الوجه الإعجازي الحادث، والاشتغال بألوان الإعجاز الأخرى التي هي أظهر وضوحًا، وأسلم منهجًا، وأكثر نفعًا.

- أُوصي مَن وفَّقه الله تعالى لتدبُّر كتابه أن يلتزم بضوابط التدبُّر، ويَتَجَنَّبَ الخوض فيما لا يعلم، والتَّكلف في استنباط معانٍ ولطائفَ مخالفةٍ لظاهر السياق ودلالة اللغة وفهم السلف.

- أُوصي مَنْ لم يكن من المتخصصين في الدراسات القرآنية، بعَرْضِ ما يتوصل إليه من معان واستنباطات على أهل العلم المتخصصين، لمراجعتها وتحكيمها قبل نشرها.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





قائمة المصادر والمراجع

- أبحاث في علوم القرآن، لغانم الحمد، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلميَّة والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

- أسرار الحروف وحساب الجُمَّل، لطارق القحطاني، رسالة ماجستير مقدمة في قسم العقيدة، بجامعة أم القرى بمكة.

- إشراقات الرقم سبعة في القرآن الكريم، لعبدالدائم الكحيل، نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

- إعجاز الرقم ١٩ مقدمات تنتظر النتائج، لـبسام جرار، المؤسسة الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٩٤م.

- الإعجاز العددي في القرآن الكريم بين الحقيقة والوهم، لفاتح حسني محمود، دار جهينة، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

- الإعجاز العددي في القرآن الكريم دراسة نقدية تأصيلية، لصالح يحي صواب، بحث



مقدم لمؤتمر إعجاز القرآن الكريم، المنعقد بكلية الشريعة في جامعة الزرقاء الأهلية، في المملكة الأردنية.

- الإعجاز العددي للقرآن الكريم، لعبدالرزاق نوفل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ.
- الإعجاز في ترقيم الآيات، لعبدالوهاب أبو صفية، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.
- إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء: دراسة نقدية، لمحمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.
- إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة ١٩٨١هـ.
- إعجاز القرآن، لفضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، دار النفائس، عمان، الطبعة السابعة ١٤٢٩هـ.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المكتبة العلميَّة بيروت.
- البيان في عدّ آي القرآن، لأبي عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات، الكويت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، دار الهداية.



- التّأصيل الشّرعيّ للدّراسات العدديّة في القرآن الكريم، لإيمان كامل، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني للإعجاز العددي الذي نظمته الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، في الرباط.

- تأصيل فكرة الإعجاز العددي في القرآن الكريم، لحسن عبدالجليل عبدالرحيم علي العبادلة، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني للإعجاز العددي الذي نظمته الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، في الرباط.

- التبيان، للنووي، تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

- تسعة عشر ملكًا بيان أن فِرية الإعجاز العددي خدعة بهائية، لحسين ناجي محيي الدين، دار الزهراء، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

- التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

- تعظيم القول في التفسير وأثره في دفع القراءات المنحرفة المعاصرة للقرآن الكريم، بحث منشور في مجلة تبيان للدراسات القرآنية، العدد الثاني عشر، ١٤٣٤هـ.

- تفسير ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبدالله التركي، دار هجر القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

- تفسير ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

- تفسير الرازي، التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.



- تفسير الزمخشري، الكشاف عن حقائق التَّنْزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود الزمخشري، دار المعرفة.

- تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله الأنصاري وزملائه، وزارة الأوقاف، قطر، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ

- تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبدالموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ

- تفسير الثعلبي، الكشف والبيان، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبدالله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ

- تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

- الجامع الصحيح، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، توزيع دار الباز، مكة.

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وزميليه، دار العاصمة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ

- دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٢٥هـ

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، طبعة دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ

• رسائل النور، المكتوبات لبديع الزمان سعيد النَّورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، تركيا، الطبعة الثانية،١٩٦٠م.

• رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، لغانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

• رسم المصحف والإعجاز العددي، لأشرف عبدالرزاق قطنة، منار للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

• سنن أبي داود، للحافظ أبي داود السجستاني، إعداد وتعليق: عزت الدعاس، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.

• الصحاح، للجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧.

• صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المطبعة الإسلامية، إستانبول.

• ضوابط الإعجاز العددي في القرآن الكريم، لفهد الرومي، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني للإعجاز العددي الذي نظمته الهيئة المغربية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، في الرباط.

• ضوابط الإعجاز، لمحمد زكي محمد خضر، بحث منشور على موقعه في شبكة المعلومات الإنترنت.

• فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

• فنون الأفنان، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

- القائد إلى عين العقائد، لحميد الدين الفراهي.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ
- كتابة القرآن الكريم بغير الرسم العثماني، دراسة تاريخية وموضوعية، لمها بنت عبدالله الهدب، دار كنوز إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ
- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير وزملائه، دار المعارف.
- لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ
- ما يسمى الإعجاز العددي في القرآن تكلف واضح وتعسُّف بيِّن، لعمر عبدالله الحلبي، دار النهضة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ
- مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، دار المنارة جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ
- مباحث في علوم القرآن، لمناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ
- محاضرات في علوم القرآن، لغانم الحمد، دار عمار، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ
- المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز، لمحمود غازي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ
- مسند الإمام أحمد، دار الفكر.
- المصنف، لابن أبي شيبة، اعتنى به محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ

- معترك الأقران، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- معجزة الترتيب القرآني ترتيب سور القرآن وآياته، لعبدالله إبراهيم جلغوم، نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
- المعجزة القرآنية، لمحمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.
- المعجم الوسيط، لإبراهيم أنيس وزملائه، مكتبة الشروق، إستانبول، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار العلم دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢.
- المحلى لابن حزم، تحقيق: أحمد شاكر، دار التراث، القاهرة.
- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، اعتنى به: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- مقدمة جامع التفاسير، للراغب الأصفهاني، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.
- مقالات في علوم القرآن، لمساعد بن سليمان الطيار، دار المحدث، وشبكة التفسير، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
- المقتطف من بينات الإعجاز العددي، لبسام نهاد جرار، نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

• مقولة الإعجاز العددي دراسة نقدية، لأحمد خالد شكري، «ضمن أبحاث الندوة الثانية للإعجاز العددي»، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ

• الموافقات، للشاطبي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

• منهج علماء السلف القدامى والمعاصرين في الإعجاز العددي، لسارة العقلاء، بحث مقدم لمؤتمر الإعجاز العددي الثالث، المنعقد بجامعة ملايا بماليزيا.

• النبأ العظيم، لمحمد عبدالله دراز، اعتنى به عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ

• نقد دعوى الإعجاز العددي في القرآن الكريم، لإبراهيم بن صالح الحميضي، الناشر: دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ

الورقة الثالثة

منهج المدرسة الإشارية في التدبر

إعداد

د. نادر السنوسي العمراني

أستاذ الحديث وعلومه، بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب، جامعة طرابلس

السيرة الذاتية

الاسم: نادر السنوسي علي العمراني

تاريخ الميلاد: ١/ ١٠/ ١٣٩٢ هـ طرابلس

البريد الإلكتروني: ELNADERSENUSSI@YAHOO.COM

المؤهل العلمي:

- شهادة الليسانس في الحديث وعلومه بتقدير عام ممتاز، بنسبة ٩٦,٥٪ «الجامعة الإسلامية، كلية الحديث الشريف، المدينة المنورة ١٩٩٧م».

- دبلوم الدراسات العليا في الحديث وعلومه بنسبة ٩٧,٨٪ «الجامعة الإسلامية، كلية الحديث الشريف، قسم الحديث وعلومه، المدينة المنورة ١٩٩٨م».

- الشهادة العالية «الماجستير» في الحديث وعلومه بتقدير ممتاز «الجامعة الإسلامية، كلية الحديث الشريف، قسم الحديث وعلومه، المدينة المنورة ٢٠٠٢م».

- الدكتوراه من قسم الدراسات الإسلامية بجامعة طرابلس ٢٠١٠م بإشراف: أ.د. الصادق بن عبدالرحمن الغرياني، مع التوصية بالطبع والتداول بين الجامعات.

الخبرة العلمية:

- أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة طرابلس.

- وكيل الشؤون العلمية بالمعهد العالي للعلوم الشرعية التابع لدار الإفتاء الليبية.

- عضو هيئة الرقابة الشرعية بعدة مؤسسات مالية إسلامية.

- نائب رئيس لجنة مراجعة القوانين والتشريعات وتعديلها بما يتوافق مع أحكام الشريعة.

- عضو مجلس البحوث والدراسات الشرعية بدار الإفتاء الليبية ٢٠١٣م.

- الأمين العام لهيئة علماء ليبيا، ونائب رئيس رابطة علماء المغرب العربي، وعضو رابطة علماء المسلمين.



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أمر الله سبحانه عبادَه بتدبُّر كتابه الكريم، فقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، كما نَعى سبحانه على الذين لا يتدبَّرون القرآن، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقد تعدَّدت مناهجُ المنسوبين للعلم في تدبُّر كتاب الله سبحانه بين غالٍ ومُفرِّط، وبين سائر على طريق هُدًى وبين مفتتحٍ بابَ ضلالة كانت سببًا في كثير من التحريف الذي تعرَّض له كتاب ربِّنا.

ومن بين هذه المناهج منهج المدرسة الإشارية، الذي أَشْكَلَ حكمُه على الكثيرين، فمِن مُنكِر لهذه الطريقة، مُشنِّعٍ على أهلها، رافضٍ لكلِّ ما يَصدر عنها وعنهم. وبين مادح لها، واصفٍ لأهلها بالأولياء المحقِّقين الناظرين بنور الله، داعٍ للتمسك بكلِّ ما يصدر عنها.

فوجب النظر في هذه الطريقة نظرةَ إنصاف، بعيدًا عن التعصب لها أو عليها، للخروج بحكم مناسب، يبيِّن ما فيها من صواب أو خطأ، مبينًا إمكانية الاستفادة منها في تدبُّر كلام الله واستخراج حِكَمِه.

وقد جعلت هذا البحث في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأصل الذي قام عليه المنهج الإشاري في التدبُّر.

المبحث الثاني: تعريف التفسير الإشاري، وشروط قبوله.

المبحث الثالث: أمثلة تطبيقية للتدبُّر على المنهج الإشاري.



المبحث الأول

الأصل الذي قام عليه المنهج الإشاري في التدبر

لقد قام أصل المنهج الإشاري في التدبُّر علَى أنَّ الله سبحانه قد اختصَّ عبادَه المتَّقين وأولياءَه الصالحين بفهْم كتابه، وإدراكِ بعض معانيه الخفية التي لا يُدركها غيرُهم، ولا يَفتَحُ بها إلاَّ علَيهم، كلُّ ذلك بسبب اتباعهم لأمره سبحانه، وانتهائهم عن نواهيه، فأورثهم ذلك صفاءً ونقاءً كُشِف لهم به عن أسرار كتاب ربِّهم، وفَقِهوا معانيَه وإشاراتِه.

ولا شك أنَّ طاعة الله سبحانه من أعظم الوسائل المعينة على العلم والفهم، فإنَّ الله يُوفِّق العبدَ التقيَ لِمَا لا يُوفَّق له غيرُه، وقد دلَّت على هذا المعنى آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، فذكر سبحانه أنَّ من ثمرات الالتزام بأمره الهدايةَ إلى الصراط المستقيم، وقوله سبحانه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

وفي المقابل، فقد يَحْجب الله سبحانه المعرفةَ عن قلب امرئ بسبب معصيته وتَرْكِه أمرَه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف]، وقال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف]، قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبِّرين عن طاعتي»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٧٤-٤٧٥).

لكن هذا لا يعني أن يُترك سبيلُ الأخذِ بالأسباب، وأن يُهمَلَ طلبُ العلم من مظانِّه، فلا يمكن الادعاء بأنَّ تقوى الله ﷻ وحدها موصلة إلى فهم مراد الله سبحانه، بل على من أراد فهم كلام الله أن يُراعيَ أصولَ أهل العلم في التدبُّر، ويستعينَ على ذلك بطاعة الله سبحانه واتباع أمره؛ ليوفقه في فهمه ويسدِّده في تدبُّره.

قال ابن تيمية (ت٧٢٨هـ): «والناس في هذا البابِ على ثلاثة أقسامٍ: طرفان، ووسط؛ فقوم يزعمون أنَّ مجرَّد الزهد وتصفية القلب ورياضة النفس تُوجب حصولَ العلم بلا سبب آخر، وقومٌ يقولون: لا أثرَ لذلك، بل الموجب للعلم العلمُ بالأدلة الشرعية أو العقلية.

وأمَّا الوسَط فهو: أنَّ ذلك من أعظم الأسباب معاوَنةً على نيل العلم، بل هو شرطٌ في حصول كثير من العلم، وليس هو وحده كافيًا، بل لا بد من أمر آخر؛ إما العلم بالدليل فيما لا يُعلم إلاَّ به، وإمَّا التصور الصحيح لطرفي القضية في العلوم الضرورية»[١].

وهذه بعض نصوص أهل العلم في الدلالة على أهمية البعد عن المعاصي والمداومة على الطاعة في تحصيل العلم والمحافظة عليه.

قال يحيى بن يحيى: سأل رجل مالكَ بن أنس (ت١٧٩هـ): «يا أبا عبدالله، هل يَصلح لهذا الحفظ شيءٌ؟ قال: إنْ كان يَصلح له شيءٌ فترك المعاصي»[٢].

وقال بشر بن الحارث (ت٢٢٧هـ): «إن أردت أن تُلقَّن العلمَ فلا تعْصِ»[٣].

وقال المرُّوذي: «سمعت أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) يقول: عبدالوهاب الورَّاق رجل صالحٌ، مِثلُه يُوفَّق لإصابة الحق»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٢٤٦-٢٤٧).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (رقم١٧٨٣).

(٣) المصدر نفسه (رقم١٧٨٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٣/٣١١).



وقال ابن القيم (ت٧٥١هـ): «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها: حرمان العلم؛ فإنَّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، ولَمَّا جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقُّد ذكائه وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية. وقال الشافعي:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي
فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي
وَقَالَ: اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ
وَفَضْلُ اللهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي»[1].

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص٣٤-٣٥).



المبحث الثاني

تعريف التفسير الإشاري وشروط قبوله

لقد عُرِّف التفسير الإشاري بعدَّة تعريفات متقاربة، فقد عرَّفه الشيخ عبدالعظيم محمد الزرقاني (ت١٣٦٧هـ) بقوله: «هو تأويل القرآن بغير ظاهره؛ لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد»[١].

ووافقه الشيخ محمد حسين الذهبي فقال: «هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة»[٢].

وعرَّفه الصابوني بقوله: «هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس؛ ممَّن نوَّر الله بصائرهم فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة بواسطة الإلهام الإلهي أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة»[٣].

والملاحظ في هذه التعاريف أنها اتفقت على أنَّ التفسير الإشاري هو «تأويل للقرآن بغير ظاهره»؛ أي: بغير ما تقتضيه ألفاظ الآيات بحسب اللغة العربية التي هي لسان القرآن؛ كما قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) مناهل العرفان (٦٧/٢).

(٢) التفسير والمفسرون (٢٤٥/٢).

(٣) التبيان في علوم القرآن (ص١٩١).

«الإشارات خفية» هذا هو الدليل الموجب للعدول عن ظاهر اللفظ، ووُصِفت بالخفاء لأنَّها لا تظهر لكل أحد، بل «تظهر لأرباب السلوك والتصوف»؛ أي: أنَّها يختص بإدراكها الحريصون على الالتزام بأمر الله وطاعته، وذكْر التصوف ليس على سبيل الحصر في أهله، وإنَّما هو لاشتهارهم به، ولهذا فإنَّ تعبير الصابوني أولى حيث قال: «تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس ممَّن نوَّر الله بصائرهم».

«ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد»، وهذا هو الفارق بين التفسير الإشاري وتفسير الباطنية القائم على إنكار المعاني الظاهرة للقرآن، وادعاء معانٍ أخرى مخالفةٍ له.

ولَمَّا كان الأصل في فهم كتاب الله التزامَ ظواهر ألفاظه، وعدمَ تعدِّيها إلى غيرِها إلاَّ لدليلٍ يجب المصير إليه[1]، وجَب النظر في حقيقة هذه الإشارات التي أوجبت العدول عن الظاهر إلى غيره، هل هي معتبرة شرعًا أم لا؟

وللجواب عن هذا السؤال أقول: المراد بالإشارات المذكورة في هذه التعريفات: حالات وجدانية يمر بها المفسر أو المتدبِّر حالَ قراءته للقرآن، فتذهبُ نفسُه إلى معنًى يذكرُه عند قراءة الآية، ليس هو المعنى الذي دلَّت عليه ألفاظ الآية بمقتضى معناها اللغوي.

قال الزركشي (ت٧٩٤هـ): «فأمَّا كلام الصوفية في تفسير القرآن، فقيل: ليس تفسيرًا، وإنَّما هي معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة؛ كقول بعضهم في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]: إنَّ المراد النفسُ، فأُمِرنا بقتال من يلينا؛ لأنها أقرب شيء إلينا، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه»[2].

وقد قسَّم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور هذه المواجيد والإشارات ثلاثة أقسام؛ فقال: «وعندي أنَّ هذه الإشارات لا تعدو واحدًا من ثلاثة أنحاء:

---

(١) قال ابن جرير في تفسيره ٤١/٧: «فمن ادعى في التنزيل ما ليس في ظاهره؛ كلِّف البرهان على دعواه من الوجه الذي يجب التسليم له».

(٢) البرهان في علوم القرآن (١٨٧/٢).

الأول: ما كان يَجري فيه معنى الآية مَجرى التمثيل لحالٍ شبيهٍ بذلك المعنى، كما يقولون مثلًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]: إنه إشارة للقلوب؛ لأنَّها مواضع الخضوع لله تعالى؛ إذ بها يُعرف، فتسجد له القلوب بفنَاء النفوس. ومنعُها من ذكره هو الحيلولة بَيْنها وبين المعارف اللدنية، ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] بتكديرها بالتعصبات وغلبة الهوى، فهذا يُشبه ضربَ المثل لحال من لا يُزكِّي نفسه بالمعرفة، ويمنع قلبَه أن تدخله صفاتُ الكمال الناشئة عنها، بحالِ مانعِ المساجدِ أن يُذكرَ فيها اسم الله، وذِكْرُ الآية عند تلك الحالة كالنطق بلفظ المَثَل.

الثاني: ما كان من نحو التفاؤل، فقد يكون للكلمة معنًى يَسبق من صورتها إلى السمع، هو غير معناها المراد، وذلك من باب انصراف ذهن السامع إلى ما هو المهم عنده، والذي يجول في خاطره، وهذا كمن قال في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] «من ذلَّ ذي» إشارة للنفس، يصير من المقربين الشفعاء، فهذا يأخذ صدى موقع الكلام في السمع، ويتأوله على ما شُغِل به قلبه. ورأيت الشيخ محيي الدين يُسمِّي هذا النوع: سماعًا، ولقد أبدع.

الثالث: عِبَرٌ ومواعظُ، وشأنُ أهل النفوس اليقظى أن ينتفعوا من كل شيء، ويأخذوا الحكمةَ حيث وجدوها، فما ظنُّك بهم إذا قرؤوا القرآن وتدبَّروه فاتَّعظوا بمواعظه؟ فإذا أخذوا من قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦] اقتبسوا أنَّ القلبَ الذي لم يَمتثلْ رسولَ المعارف العليا تكون عاقبته وبالًا. ومن حكاياتهم في غير باب التفسير: أنَّ بعضهم مرَّ برجل يقول لآخر: هذا العودُ لا ثمرةَ فيه، فلم يعُد صالحًا إلاَّ للنار. فجعل يبكي ويقول: إذن فالقلب غير المثمر لا يصلح إلا للنار»[1].

وهناك قسمٌ رابعٌ شبيهٌ بالقسم الثاني: وهو ما أُخِذ من شَكْل حروف بعض الكلمات الواردة في القرآن لا من أصواتها، فاستلهموا منها معاني ودلالات؛ كقولهم: «بِسْمِ اللهِ»: ابْتُدِئَ الكلامُ بحرف الباء، ونُقِطَتْ من تحت إشارة إلى توحيد الله ﷻ.

---

(١) التحرير والتنوير (١/٣٥-٣٦).

والمتأمِّل في هذه الإشارات يجد أنَّها لا تخرج عن إحدى حالتين:

الأولى: أن يكون المفسر أو المتدبِّر قد ذكرها على أنَّها المرادُ من كلام الله، وأنَّ الآياتِ إنَّما سِيقتْ للدلالة على هذا المعنى. وهذا لاَ شكَ باطلٌ؛ إذ لو كان المعنى المذكور صحيحًا، لأقام الله سبحانه عليه من الأدلة من خلال اللفظ ما يرشدنا إليه، ولم يقتصر ذلك على أمزجة أهل الإشارة أو وجدانهم.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عقب كلامه السابق: «فنسبة الإشارة إلى لفظ القرآن مجازية؛ لأنَّها إنَّما تشير لمن استعدت عقولهم وتدبُّرهم في حال من الأحوال الثلاثة، ولا ينتفع بها غير أولئك، فلمَّا كانت آياتُ القرآن قد أنارت تدبُّرَهم، وأثارتْ اعتبارهم، نسبوا تلك الإشارة للآية، فليست تلك الإشارةُ هي حقَّ الدلالة اللفظية والاستعمالية حتى تكون من لوازم اللفظ وتوابعه كما قدْ تبيَّن، وكلُّ إشارة خرجت عن حدِّ هذه الثلاثة الأحوال إلى ما عداها فهي تقترب إلى قول الباطنية رويدًا رويدًا، إلى أن تبلغ عين مقالاتهم، وقد بصَّرْناكم بالحد الفارق بينهما، فإذا رأيتم اختلاطَهْ، فحقِّقوا مناطَهْ، وفي أيديكم فَيْصَلُ الحقِّ فدونكم اختراطَهْ»[1].

الثانية: أن يكون ذكرهم لهذه الإشارات على سبيل الاعتبار والقياس، والانتقال من معنى مقصود إلى آخر شبيه به؛ إمَّا من حيث المعنى، أو الصوت، أو الصورة.

وغالبًا ما يكون السبب في هذا الانتقال هو تحريك القلوب، وشحذ الهمم؛ استجابة للحالة الوجدانية التي يمر بها المتدبِّر.

قال ابن تيمية (ت٧٢٨هـ): «وهذان قسمان؛ أحدهما: أن يُقال: إنَّ ذلك المعنى مرادٌ باللفظ، فهذا افتراءٌ على الله، فمن قال: المراد بقوله: ﴿تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] هي النفسُ، وبقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤] هو القلب، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]: أبو بكر، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]: عمر، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]: عثمان، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]: علي. فقد كذب على الله، إمَّا متعمدًا وإما مخطئًا.

---

(١) المصدر نفسه (٣٦/١).

والقسم الثاني: أن يُجعل ذلك من باب الاعتبار والقياس، لا من باب دلالة اللفظ، فهذا من نوع القياس، فالذي تسمِّيه الفقهاء قياسًا هو الذي تُسمِّيه الصوفية إشارةً، وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل، كانقسام القياس إلى ذلك، فمَن سمِع قول الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة]، وقال: إنَّه اللوح المحفوظ أو المصحف؛ فقال: كما أنَّ اللوحَ المحفوظَ الذي كُتب فيه حروفُ القرآنِ لا يمسه إلاَّ بدنٌ طاهرٌ، فمعاني القرآن لا يَذوقها إلاَّ القلوبُ الطاهرةُ وهي قلوب المتَّقين، كان هذا معنًى صحيحًا، واعتبارًا صحيحًا، ولهذا يُروَى هذا عن طائفة من السلف؛ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] وأمثال ذلك.

وكذلك من قال: «**لَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ**»[1] فاعتبر بذلك أنَّ القلبَ لا يدخله حقائقُ الإيمان إذا كان فيه ما يُنجِّسه من الكِبر والحسد فقد أصاب؛ قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف]، وأمثال ذلك، فكلُّ معنى يخالف الكتاب والسنة فهو باطل، وحجته داحضة، وكلُّ ما وافق الكتاب والسنة والمرادُ بالخطابِ غيرُه إذا فُسِّر به الخطاب فهو خطأ، وإن ذُكِر على سبيل الإشارةِ والاعتبارِ والقياسِ فقد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا»[2].

---

(١) أخرجه البخاري «كتاب بدء الخلق/باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه/رقم٣٢٢٥»، ومسلم «كتاب اللباس والزينة/باب تحريم تصوير الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا كلب/رقم٥٤٨١» من حديث أبي طلحة ولفظه: «**لَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**».

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٤١-٢٤٣). ونحوه في الموافقات للشاطبي (٤/٢٣٢).

شروط قبول التفسير الإشاري:

من خلال الاستعراض السابق لمعنى التفسير الإشاري، يظهر بأنَّه ليس كلُّه مقبولًا، بل منه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود. وقد وضع أهل العلم شروطًا للمقبول منه، هي:

أولًا: أنْ يكون المعنى المذكور صحيحًا في نفسه؛ بأن يكون له شاهدٌ شرعيٌّ يشهد له، ولا يوجد في الكتاب أو السنة ما يعارضه أو ينفيه، فكلُّ معنًى يدَّعيه صاحبُه، ويحاول أنْ يَحملَ كلامَ الله عليه مع معارضته له معارضة صريحة لا شك في بطلانه(١).

قال ابن تيمية (ت٧٢٨هـ): «وجُمَّاعُ القول في ذلك: أنَّ هذا الباب نوعان:

أحدهما: أن يكون المعنى المذكور باطلًا؛ لكونه مخالفًا لما عُلِمَ، فهذا هو في نفسه باطلٌ، فلا يكون الدليل عليه إلَّا باطلًا؛ لأنَّ الباطلَ لا يكون عليه دليل يقتضي أنَّه حقٌّ.

والثاني: ما كان في نفسِه حقًّا، لكن يستدلُّون عليه من القرآن والحديث بألفاظ لم يُرَدْ بها ذلك، فهذا الذي يسمونه «إشارات»، وحقائق التفسير لأبي عبدالرحمن فيه من هذا الباب شيءٌ كثير.

وأمَّا النوع الأوَّل، فيوجد كثيرًا في كلام القرامطة والفلاسفة المخالفين للمسلمين في أصول دينهم؛ فإنَّ من عَلِم أنَّ السابقين الأولين قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، عَلِم أنَّ كلَّ ما يذكرونه على خلاف ذلك فهو باطل(٢). ومن أقرَّ بوجوب الصلوات الخمس على كل أحد ما دام عقله حاضرًا؛ عَلِم أنَّ من تأوَّل نصًّا على سقوط ذلك عن بعضهم فقد افترى، ومن علِم أنَّ الخمر والفواحش محرمةٌ على كل أحد ما دام عقله حاضرًا؛ عَلِم أنَّ من تأَوَّل نصًّا يقتضي تحليل ذلك لبعض الناس أنه مُفْتَرٍ»(٣).

---

(١) ينظر: الموافقات (٤/٢٣٢).

(٢) من ذلك تفسير الباطنية قوله تعالى: ﴿تبت يد أبي لهب وتب﴾ [المسد: ١] بأنهما أبو بكر وعمر، وقوله: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ [التوبة: ١٢] أنهم طلحة والزبير، ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ [الإسراء: ٦٠] بأنها بنو أمية، وقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ [البقرة: ٦٧] أنَّها عائشة. ينظر: مجموع الفتاوى (١٣/٢٣٧-٢٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٢٤٠-٢٤١).

ثانيًا: أنْ يكون المعنى المذكور موافقًا لنظم القرآن على ما تقتضيه اللغة، وفي لفظ الآية إشعارٌ به؛ فقد يكون المعنى صحيحًا لدلالة الكتاب والسنة عليه، ولكن هذه الآية بخصوصها لا علاقة لها به.

فالواجب أن يكون فكْرُ المتدبِّر ونظرُه تبعًا للقرآن، وأن يكون أصل انفجار المعنى الذي يذكره من الآية لا العكس(١).

قال أبو حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ) -وهو يتكلم عن منهجه في تفسيره-: «وربَّما أَلْمَمت بشيء من كلام الصوفية ممَّا فيه بعضُ مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنَّبتُ كثيرًا من أقاويلهم ومعانيهم التي يحمِّلونها الألفاظَ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرِجين الألفاظ القريبة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى، وعلى علي كرم الله وجهه وعلى ذريته، ويسمونه علم التأويل. وقد وقفت على تفسير لبعض رؤوسهم وهو تفسير عجيب، يذكر فيه أقاويل السلف مزدريًا عليهم وذاكرًا أنه ما جهل مقالاتهم، ثم يفسر هو الآية على شيء لا يكاد يخطر في ذهن عاقل، ويزعم أنه ذلك هو المراد من هذه الآية، وهذه الطائفة لا يلتفت إليها»(٢).

ثالثًا: ألاَّ يُدَّعى أنَّه المعنى المراد من الآية دون ظاهرها، وهذا هو الفرق بين تفسير الصوفية المسمَّى بالتفسير الإشاري، وتفسير الباطنية الملاحدة؛ فإنهم يقولون: إنَّ الظاهر غير مراد أصلًا، ويحمِلون الآية على المعنى الباطن الذي يدَّعونه، وقصدُهم بذلك نفي الشريعة.

قال ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ): «وجدتُّ عن الإمام أبي الحسن الواحدي أنه قال: صنَّف أبو عبدالرحمن السلمي «حقائق التفسير»، فإنْ كان قد اعتقد أنَّ ذلك تفسير فقد كفر. وأنا أقول: الظن بمن يوثَقُ به منهم، أنه إذا قال شيئًا من أمثال ذلك، أنه لم يذكره تفسيرًا ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنَّه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسالك الباطنية، وإنما ذلك ذَكْرٌ منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإنَّ النظير يُذكر بالنظير»(٣).

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٤١/١٣)، والموافقات (٢٥٣/٤-٢٥٤).

(٢) البحر المحيط (١٣/١).

(٣) فتاوى ابن الصلاح (ص١٩٦-١٩٧).

وقال التفتازاني: «سُمِّيت الملاحدة باطنيةً لادعائهم أنَّ النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معانٍ لا يَعرفها إلاَّ المُعلَّم، وقَصْدُهم بذلك نفي الشريعة بالكلية»[1].

رابعًا: ألَّا يكون وراء ذكر هذا المعنى تشويشًا على المفسَّرِ له؛ فإنَّ كثيرًا ممَّا ذُكِر من تفسير الآيات إشاريًّا قد فُهم على أنَّه المراد باللفظ، وسبَّب إشكالًا للسامع؛ إمَّا بظنِّه صحَّةَ هذا التفسير واعتمادِه له على أنَّه المعنى المقصود من الآية، أو بمعرفته ببطلانه وظنِّه أنَّ المفسِّر قد ذكَره على أنه المراد فيسيء الظنَّ به؛ لذا تمنَّى ابن الصلاح أن لو لم يَذكر المفسرون هذه المعاني، ولم يُشوِّشوا بها، واعتَبر ذلك تساهلًا ممَّن فعله، فقال عقب كلامه السابق: «فيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك؛ لما فيه من الإيهام والالتباس، والله أعلم»[2].

وقد ذكر ابن القيم (ت٧٥١هـ) ﷺ شيئًا من هذه الشروط فقال: «وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس، وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: ألا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بيْنَه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة؛ كان استنباطًا حسنًا»[3].

ومعنى كونه مقبولًا: عدم رفضه، لا وجوب الأخذ به؛ أمَّا عدم رفضه؛ فلعدم وجود ما يعارضه أو يقتضي بطلانه، مع احتمال لفظ الآية له في الجملة، وأمَّا عدم وجوب الأخذ به؛ فلكونه من قبيل الوجدانيات التي لا تستند على برهان، وإنما هو معنى يجده المتدبِّر في نفسه لرابط- قياس، أو إلهام، أو حالة نفسية- يقع بينه وبين الآية، قد يخالفه فيه غيره، أو لا يستطيع إقامة الدليل عليه[4].

---

(١) شرح العقائد النسفية (ص١٤٢).

(٢) فتاوى ابن الصلاح (ص١٩٧).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص٤٩).

(٤) ينظر: التفسير والمفسرون (٢٦٣/٢)، ومناهل العرفان (٧٠/٢).



المبحث الثالث

أمثلة تطبيقية للتدبر على المنهج الإشاري

بعد أن تَمَّ بيان شروط قَبول التفسير الإشاري، نعرض فيما يلي أمثلة تطبيقية، منها ما توافرت فيه تلك الشروط فاستحقَّ القَبولَ، ومنها ما اختلَّ فيه بعضُها فاستحق الرد.

أولًا: روى البخاري[1] عن ابن عباس ﷺ، قال: «كان عمر ﷺ يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضَهم وجَد في نفسه، فقال: لمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟ فقال عمر ﷺ: إنَّه مَن حيث علمتم. فدعاه ذات يوم، فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلاَّ ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر]؟ فقال بعضهم: أُمِرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجَل رسول الله ﷺ أعلمه له؛ قال: فإذا جاء نصر الله والفتح- وذلك علامة أجلك- فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا. فقال عمر ﷺ: ما أعلم منها إلا ما تقول».

فقد أثبت ابن عباس ﷺ معنى الآية الظاهرَ، وهو أمر النبي ﷺ بالتسبيح والاستغفار[2]، وفَهِم من وراء ذلك قُرْبَ أجلِ النبي ﷺ، وهو معنًى يمكن استنباطه من الآية بوضوح؛ فإنَّ مهمة الرسول ﷺ بلاغ رسالة ربه، وإذا أتم الله دينه، وفتح على رسوله ﷺ، فقد انتهت مُهِمَّته، وكان ذلك إيذانًا بقرب أجله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه «كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾، رقم٤٩٧٠».

(٢) أخرج البخاري في صحيحه «كتاب التفسير/باب/رقم٤٩٦٨» عن عائشة ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يتأوَّلُ القرآن.

وعليه فهو تفسير واستنباط مقبول، وإن لم يكن هو المراد بلفظ الآية ابتداءً؛ لذا قال الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ): «وفيه جواز تأويل القرآن بما يُفهم من الإشارات، وإنَّما يتمكن من ذلك من رسَخت قدمه في العلم؛ ولهذا قال علي ﷺ: «أو فهمًا يؤتيه الله رجلًا في القرآن»[١]»[٢].

ثانيًا: قول سهل بن عبدالله التُّسْتَري (ت٢٨٣هـ) في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]؛ قال: «أي: أضدادًا، فأكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء؛ المتطلعة إلى حظوظها ومُناها بغير هدًى من الله»[٣].

وهذا المعنى الذي ذكره في نفسه معنى صحيح، ويمكن فهمه من لفظ الآية، ومع ذلك لم يذكره على أنه هو المقصود، بل ذكره من ضمن الأنداد التي يمكن أن تُلحق بالأصنام بما بينهما من جامع.

قال أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ): «يشير إلى أنَّ النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد، حتى لو فُصِّل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أندادًا، لا صنمًا، ولا شيطانًا، ولا النفس، ولا كذا، وهذا مُشْكِلُ الظاهرِ جدًّا؛ إذ كان مساق الآية ومحصول القرائن فيها يدل على أنَّ الأنداد الأصنام أو غيرها مما كانوا يعبدون، ولم يكونوا يعبدون أنفسهم ولا يتخذونها أربابًا، ولكن له وجه جارٍ على الصحة، وذلك أنَّه لم يقل: إنَّ هذا هو تفسير الآية، ولكن أتى بما هو ندٌّ في الاعتبار الشرعي الذي شهد له القرآن من جهتين؛ إحداهما: أنَّ الناظر قد يأخذ من الآية معنى من باب الاعتبار؛ فيُجريه فيما لم تنزل فيه؛ لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه؛ لأنَّ حقيقة الند أنَّه المضاد لنِدِّه، الجاري على مناقضته، والنفسُ الأمَّارة هذا شأنُها؛ لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهيةً أو صادَّةً عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذي عُنِي به الند في نِدِّه؛ لأن الأصنام نصبوها لهذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسير/ باب فكاك الأسير/ رقم٣٠٤٧) عن أبي جحيفة ﷺ قال: قلت لعلي ﷺ: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النَّسَمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفَكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر.

(٢) فتح الباري (٨/٦٠٨-٦٠٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم للتُّسْتَرِي (ص١٤).

المعنى بعينه، وشاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وهم لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حَرَّموا عليهم حَرَّموه، وما أباحوا لهم حَلَّلوه»[1].

ثالثًا: قول نجم الدين داية (ت٦٥٤هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ قال: «والإشارة فيها: أنَّ الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا، وماء زينتها، وما زُيِّن للخلق فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِ ﴾ [آل عمران: ١٤] ليظهر المحسن من المسيء، وليميز الخبيث من الطيب، والمقبول من المردود، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ ﴾ [الكهف]، ثم امتحنهم وقال تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي ﴾ [البقرة: ٢٤٩] يعني: من أوليائي ومحبيَّ وطلابي، وله اختصاص بقربي وقبولي، والتخلق بأخلاقي، ونيل الكرامة مني. كان النبي ﷺ يقول: «أَنَا مِنَ اللهِ، وَالمُؤْمِنُونَ مِنِّي»[2]. ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ ﴾ يعني: من قَنِعَ من متاع الدنيا على ما لا بد منه من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن وصحبة الخلق على حد الاضطرار، كما كان النبي ﷺ وأصحابه».

وهذا المعنى الذي ذكره صحيح في نفسه؛ فإنَّ الله قد ابتلى الخلق بأنواع من الابتلاءات؛ كما قال سبحانه: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فمن نجح كانت له النجاة والنعيم، ومن كان غير ذلك فله الأخرى.

لكنَّ الشأن في ربط هذا المعنى بالآيات المذكورة؛ فإنَّ سياق الآيات في حكاية قصة حقيقية وقعت لطالوت ومن معه، وليست في الابتلاء العام، لكن لَمَّا كانت هذه القصة من

---

(١) الموافقات (٤/٢٤٢-٢٤٤).

(٢) قال العجلوني في كشف الخفا (١/٢٣٣): «هو كذب مختلق كما قاله الحافظ ابن حجر، وقال بعض الحفاظ: لا يعرف بهذا اللفظ مرفوعًا، بل الذي ثبت في الكتاب والسنة أن المؤمنين بعضهم من بعض، أما الكتاب ففي قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ [آل عمران: ٥٩١] وأما السنة ففي قوله ﷺ في حي الأشعريين: «هُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ». وقوله لعلي ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ». وقوله للحسن: «هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ». وكله صحيح».

الوقائع التي ابتلى الله فيها طالوت ومن معه، ونجح من نجح منهم، حسُن للمتدبِّر أن يأخذ منها العبرة، ويتذكَّر بها حاله مع فتن الدنيا، حتى تنفطم نفسه عن طلبها إلَّا بالحلال.

ومع هذا، فقد نَقل أبو عبدالله القرطبي (ت٦٧١هـ) نحوًا من كلام داية في تفسيره، ونسبه إلى بعض من يتعاطى غوامض المعاني، فقال: «وقال بعض من يتعاطى غوامض المعاني: هذه الآية مَثَل ضربه الله للدنيا، فشبهها الله بالنهر، والشارب منه بالمائل إليها والمستكثر منها، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها، والمغترف بيده غرفة بالآخذ منها قدر الحاجة، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة».

ثم ردَّه بقوله: «ما أحسنَ هذا، لولا ما فيه من التحريف في التأويل، والخروج عن الظاهر، لكن معناه صحيح من غير هذا»[1].

قلتُ: لم يدَّعِ نجم الدين داية أنَّ ما ذكره تفسيرٌ للآية، ولو ذَكر ذلك لكان تحريفًا كما قال القرطبي، لكنه ذكره على سبيل الاعتبار والقياس، ولا شك أنَّ أمر التدبُّر أوسع من التفسير، فيكون ما ذكره مقبولًا، والله أعلم.

رابعًا: قول أبي عبدالرحمن السُّلَمي (ت٤١٢هـ) في تفسير قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] في فاتحة سورة البقرة، قال: «قيل: إنَّ الألف ألفُ الوحدانية، واللام لامُ اللطف، والميم ميمُ الملك، معناه: من وجدني على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطَّفت له، فأخرجته من رقِّ العبودية إلى الملك الأعلى، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشيء من الملك»[2].

فهذا المعنى المذكور وإن كان صحيحًا في نفسه؛ فإنَّ الله سبحانه واحدٌ لا شريك له، لطيفٌ بعباده، مالكٌ للخلق أجمعين، غير أنَّ ربط هذا المعنى بألفاظ الآية بعيدٌ، ولا يعدو كونَه أحاسيسَ معينةً خطرت على قلب المتكلِّم بهذا الكلام فتحدَّث بها، وإذا جاز أن يُعتَبَر هذا تفسيرًا أو استنباطًا من الآية، فإنه يجوز لغيره أن تَخطُر له خواطر أخرى في الآية أيضًا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٢٠).

(٢) حقائق التفسير (ص٩).

قال أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ): «فمن ذلك فواتح السور، نحو: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓمٓصٓ﴾، و﴿حمٓ﴾، ونحوها، فُسِّرت بأشياء، منها ما يَظهر جَريانه على مفهوم صحيح، ومنها ما ليس كذلك، فينقلون عن ابن عباس في ﴿الٓمٓ﴾ أنَّ «ألف» الله، و«لام» جبريل، و«ميم» محمد ﷺ. وهذا إنْ صَحَّ في النقل[1] فمشكِـلٌ؛ لأنَّ هذا النمط من التصرف لم يثبت في كلام العرب هكذا مطلقًا، وإنما أتى مثله إذا دلَّ عليه الدليل اللفظي أو الحالي، وأيضًا، فلا دليل من خارج يدل عليه؛ إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله؛ لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعي على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه، ولما لم يثبت شيء من ذلك؛ دل على أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل يدل عليه صِيرَ إليه»[2].

وعليه: فَسدُّ باب مثل هذه الإشارات هو الواجب، حتَّى لا يُحَمَّل كتابُ الله ما لا يحتمله.

خامسًا: قول سهل التستري (ت٢٨٣هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران] قال: «أوَّل بيت وُضع للناس بيت الله ﷻ بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها: الرسول يؤمن به من أثْبت الله في قلبِه التوحيدَ من الناس»[3].

وهذا أيضًا معنى صحيح مقرَّرٌ في الكتاب والسنة، وأنَّ الله سبحانه قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ هدى للناس يهدي به من الظلمات إلى النور، لكن هل في الآية ما يدل على ذلك؟ أم أنَّها مجردُ أحاسيس شعر بها المتكلِّم عند تلاوتها للآية يريد أن يَحمِلَها عليها؟ وإذا كان كذلك، فلا يحسن أن تُذكر عند الآية إلَّا إذا كان هناك ما يدل عليها من خلال اللفظ، وهذا غير موجود.

قال أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ): «وهذا التفسير يحتاج إلى بيان؛ فإنَّ هذا المعنى لا تَعرفه العرب، ولا فيه من جهتها وضع مجازي مناسب، ولا يلائمه مساق بحال، فكيف هذا؟ والعذر عنه: أنه لم يقع فيه ما يدل على أنه تفسير للقرآن، فزال الإشكال إذن، وبقي النظر في هذه الدعوى، ولا بد إن شاء الله من بيانها»[4].

---

(١) قال المناوي في الفتح السماوي ١/١٢٦: «هذا لا يعرف عن ابن عباس ولا غيره من السلف».

(٢) الموافقات (٤/٢٣٥-٢٣٧).

(٣) تفسير التستري (ص٤١).

(٤) الموافقات (٤/٢٤٧).

سادسًا: قول أبي محمد الشيرازي (ت٦٦٦هـ) في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة]، قال: «وصَفَ الله زمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين في المشاهدات، والمستغرقين في بحار الأزليات، الذين أَنْحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر، وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية، بمشاهدته الباقية؛ بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان، وأبقاهم في مجالس الأنس ورياض الإيقان، وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ يعني: الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الذين أمرضهم مرارة الصبابات، ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد، وحقائق التغريد، ﴿حَرَجٌ﴾ عتاب من جهة العبودية والمجاهدة؛ لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون حول باب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقرهم من حسن الرضا»[1].

ولا شك أنَّ ما ذكره بعيدٌ كلَّ البعد عن معنى الآية، بل هو تحميلٌ لها بما لا تحتمله، وهو من قبيل تطويع الآية لاعتقاده؛ إذ الآية تتحدث عن أهل الأعذار في الجهاد الذين يحبون الله ورسوله ويتمنون أنْ لو تمكنوا من المشاركة، وهم على صنفين؛ صنف عُذرهم لازم كالأعمى والأعرج، وصنف عذرهم طارئ عارض بسبب مرض ألمَّ بهم أو فقر.

قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «بيَّن تعالى الأعذار التي لا حرَج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجِلَاد في الجهاد، ومنه العَمَى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرجٌ إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة]»[2].

---

(١) عرائس البيان في حقائق القرآن (٣٣٩/١).

(٢) تفسير ابن كثير (١٩٨/٤).

سابعًا: ما قاله صاحب جواهر المعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] قال: «وحملها الإنسان الكامل الذي يحفظ الله به نظام الوجود، وبه يَرحم جميع الوجود، وبه صلاح جميع الوجود، وهو حياة جميع الوجود، وبه قيام جميع الوجود، ولو زال عن الوجود طرفة عين واحدة لصار الوجود كله عدمًا في أسرع من طرفة عين، وهو المعبر عنه بلسان العامة: قطب الأقطاب، والغوث الجامع»(١).

وهذا لا شك تفسير باطل، يظهر أنه من الاستدلال بالقرآن على المذهب الباطل؛ بأنَّ للأولياء قدرةً على التحكم في الكون وحفظه من الدمار، وهو مخالف لما تواتر من النصوص بأنَّ الله سبحانه وحده خالقُ الكونِ، ومدبرُ أموره، والمتصرفُ في شؤونه، لا يملك أحدٌ -كائنًا من كان- رد أمره، لا مَلَك مقربٌ ولا نبي مرسلٌ؛ قال تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الجن]، ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجن].

ثامنًا: قول بعضهم في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة: ٢]؛ قال: «لأنَّهم- يعني الشيوخ- أبواب رحمة الله تعالى دنيا وأخرى، وعلى أيديهم تنزل الرحمة من الرحمن إلى كل مرحوم، وهم الوسائل، ولولاهم لهلك الكل، كما قيل: لولا الواسطة لذهب الموسوط. وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢] هو طاعة الأكابر من السادات والمشايخ»(٢).

وهو أيضًا معنى باطل؛ إذ طاعة المشايخ والكبراء ليست مطلقة، بل منوطة بموافقة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) جواهر المعاني (١٠٦/٢) نقلاً عن كتاب أسباب الخطأ في التفسير (٧٥٧/٢-٧٥٨).

(٢) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، لعمر بن سعيد الفوتي (١٧/١) نقلاً عن أسباب الخطأ في التفسير (٧٥٨/٢).



النتائج والتوصيات

النتائج:

أولًا: أنَّ طاعة الله سبحانه وتقواه من أعظم الوسائل المعينة على العلم والفهم.

ثانيًا: أنَّ الإشارات التي يذكرها المفسرون ليست من باب التفسير، وإنَّما هي حالة وجدانية يمر بها المتدبِّر حالَ قراءته للقرآن، فتذهبُ نفسُه إلى معنى يذكرُه عند قراءة الآية، ليس هو المعنى الذي دلَّت عليه ألفاظ الآية بمقتضى معناها اللغوي.

ثالثًا: أنَّ الإشارات التي يذكرها المفسرون هي من باب ذكر الشبيه بشبيهه، والمثيل بمثيله، وسبب التشابه راجع إلى تشابه في المعنى، أو في وقعها على الأسماع، أو في شكل حروفها.

رابعًا: أنَّ الإشارات التي يذكرها المفسرون ليست مقبولة على الإطلاق، بل منْها ما هو مقبول، ومنها ما هو مردود، ويشترط لقبول هذه الإشارات ما يلي:

- أنْ يكون المعنى المذكور صحيحًا في نفسه؛ بأن يكون له شاهدٌ شرعيٌّ يشهد له، ولا يوجد في الكتاب أو السنة ما يعارضه أو ينفيه.
- أنْ يكون المعنى المذكور موافقًا لنظم القرآن على ما تقتضيه اللغة.
- ألَّا يُدَّعى أنَّه المعنى المراد من الآية، دون ظاهرها. وهذا هو الفرق بينه وبين تفسير الباطنية الملاحدة.
- ألَّا يكون وراء ذكر هذا المعنى تشويش على المفسَّرِ له.

خامسًا: معنى كون التفسير الإشاري مقبولًا عدم رفضه، لا وجوب الأخذ به.

التوصيات:

يوصي الباحث بتتبع نصوص المفسرين من السلف- الصحابة والتابعين وأتباعهم- التي يمكن أن تكون أصلًا للتدبُّر الإشاري.



قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- أسباب الخطأ في التفسير دراسة تأصيلية، لطاهر محمود محمد يعقوب، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط الأولى، ١٤٢٥هـ.
- البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ)، مكتبة الإيمان، بريدة، السعودية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، خرج أحاديثه وقدم له وعلق عليه مصطفى عبدالقادر عطا، دار القلم، بيروت، لبنان.
- التبيان في أقسام القرآن، لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار الفكر.
- تفسير القرآن العظيم، لسهل بن عبدالله التُّسْتَري (ت٢٨٣هـ)، دار الكتب العلميَّة الكبرى (البابي الحلبي)، مصر.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، قام بضبط نصوصه وخرَّج آياته وأحاديثه ووضع فهارسه: أحمد الزعبي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت لبنان.
- جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، دار المعرفة، بيروت لبنان، ١٤٠٩هـ١٩٨٩م.

- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر.
- الجامع لأخلاق الراوي، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت.
- صحيح البخاري محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ) مع الفتح، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط الثانية ١٤٠٩هـ.
- صحيح مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ) مع شرح النووي، حقق أصوله وخرج أحاديثه على الكتب الستة: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط١٥، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- فتاوى ومسائل ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه، لأبي عمرو بن الصلاح (ت٦٤٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. عبدالمعطي أمين قلعجي، دار المعرفة، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر (ت٨٥٢هـ)، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط الثانية ١٤٠٩هـ.
- الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، لزين الدين عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (ت١٠٣١هـ)، تحقيق: أحمد مجتبى، دار العاصمة، الرياض.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت١١٦٢هـ)، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن عبدالحليم (ت٧٢٨هـ) لابن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبدالعظيم الزرقاني (ت١٣٦٧هـ)، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

الورقة الرابعة

منهج المدرسة الإصلاحية في التفسير

إعداد

د. محمد السيسي

أستاذ الحديث وعلومه، بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب، جامعة طرابلس

السيرة الذاتية

الاسم: محمد السيسي

المملكة المغربية، إقليم مكناس، ١٩٤٩/٠٨/٢٧م.

المهنة: أستاذ التعليم العالي

الشهادات العلمية:

- الإجازة في الشريعة «الجامعة الإسلامية المدينة المنورة».
- دبلوم الدراسات العليا المعمقة «جامعة محمد الخامس، الرباط».
- شهادة الدراسات الجامعية العليا «جامعة مولاي إسماعيل- مكناس».
- دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية «جامعة مولاي إسماعيل-مكناس».

الخبرة العلمية:

- رئيس شعبة الدراسات الإسلامية في كلية الآداب بـمكناس سابقًا.
- رئيس وحدة التكوين وبحث الدرس القرآني والعمران البشري في كلية الآداب بـمكناس.
- رئيس الجمعية المغربية للدراسات القرآنية في المملكة المغربية.
- رئيس المجلس العلمي لعمالة مكناس في المملكة المغربية حاليًا.
- شارك في عدد من الندوات الوطنية والدولية.



المقدمة

عرف العالم عدة تحولات معرفية، ومتغيرات معيارية في أعقاب الثورة الصناعية، التي عرفتها البشرية في العصر الحديث، وعاشت مخاضًا عَسيرًا لتلد الثورة الصناعية التي قلبت كثيرًا من المفاهيم والموازين في العالم الأوروبي، ومنه إلى بلدان أخرى عبر قنوات متعددة ومتجددة، ومنها العالم الإسلامي؛ الذي كان يعيش ضعفًا معرفيًّا واجتماعيًّا خلال القرون الهجرية: التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر، في هذا الجو المشحون نشأت حركات علمية وسياسية وقومية في العالم الإسلامي، بعضها تأثر بالفكر الإسلامي انطلاقًا من القرآن الكريم، وبعضها الآخر تأثر بالثقافة الغربية حاملةً شعارات مذهبية، ومؤسِّسَةً منطلقاتٍ فكريةً ومتَّخِذةً مرجعياتٍ عقديةً عليها تبني فلسَفتها ومنهجها في نُصرة المذهب وبناء منهج الاستمداد، وطرائق الخطاب، استنطاقًا للمصادر، واستجابة لضرورات العصر، ومن هذه الحركات: الحركة الإسلامية في العصر الحديث التي اتخذت من «الإصلاح» شعارًا لها، انطلاقًا من مفهومه القرآني بما هو مفهوم جامع، يميزه الاتصال المباشر بالوحي كتابًا وسنة، وبهدي السلف الصالح، سعْيًا إلى فتح باب الاجتهاد، وتجديد أَمر الدين بإحياء، وتجديد مناهج فهم الكتاب العزيز، تأطيرًا بالقولة المشهورة في أدبيات الأئمة الأعلام: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها» بنسبتها إلى الإمام مالك[1]، وقد مثلها ثلة من العلماء المصلحين والمفسِّرين المجَدِّدين، مثل: محمد بن علي الشوكاني[2]، ومحمد عبده[3]،

(١) انظر: مشكلات القرآن الكريم للإمام حسن البنا ص٥.

(٢) أبو علي بدر الدين محمد بن علي الشوكاني، نشأ في بيت علم وفضل وتأثر بجهابذة العلماء، من أشهر مؤلفاته في التفسير: فتح القَدير الجامع بين فني الدراية والرواية ت ١٢٥٠ هـ، ترجمته في البدر الطالع للشوكاني نفسه.

(٣) محمد عبده بن حسن خير الله، من كبار رجال الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، سيرته مليئة بالأحداث والمغامرات، وعليه مدار «تفسير المنار» الشهير، ولد ونشأ وتعلم بمصر ورحل إلى أقطار شتى ت ١٩٠٥ انظر: تاريخ الأستاذ الإمام الرشيد رضا.

ورشيد رضا[1]، والقاسمي[2]، ومحمد بن عبدالوهاب[3]، وابن باديس[4]، وأبي شعيب الدكالي[5]، ومحمد بن العربي العلوي[6]، وغيرهم ممن ربطوا الإصلاح بالاجتماعي والسياسي والمنهجي، تنزيلاً للمفهوم الصحيح للدين والتدين، بدءًا بإصلاح الاعتقاد، وتصحيح مفاهيمه وتصوراته، ومنه إلى الجوانب العملية في حياة الأمة، مؤسسة بذلك مدرسة فكرية بنت قواعدها ومنهجها في الاستمداد من الوحي على طبيعة الوحي ذاته الذي هو منهاج؛ كما عبر عنه قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ([المائدة: ٤٨]، مصطحبة معها معالم منهج السلف الصالح في تدبُّر القرآن الكريم وفهمه وبيان معانيه، ومكونة بذلك تيارًا فكريًّا فاعلًا في العالم الإسلامي بأسره، له خصائصه ومميزاته وأدواته المنهجية في سياق ما وصل إليه الفكر المتاح من مناهج الصدر الأول للإسلام؛ ليتخذ هذا التيار الفكري المتميز المشروعية البنائية والدلالية للتسمية بهذا المولود المسْتحدث- المدرسة- الذي تُعرِّفه شهادة الميلاد في المعاجم الفكرية والفلسفية قائلة: «المدرسة أو المذهب: اتجاه فكري له قواعده ومقوماته، ينتمي إليه أَنصار وأتباع يحددون قواعده ويتبنون مقوماته ويسعون إلى تحقيقها»[7]. ومن هنا قالوا: من مدرسة فلان؛ أي: على منهجه ورأيه، كما قالوا: مدرسة أدبية، أو فقهية، أو حديثية، أو تفسيرية؛ كما قالوا: مذهب فلسفي، أو أدبي، أو فقهي،

---

(١) ولد محمد رشيد رضا بطرابلس الشام وتعلم بها وتعلق برواد حركة الإصلاح في العصر الحديث: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وأنشأ مجلة المنار، ومِنْ رحمها ولد «تفسير المنار» الشهير ت ١٣٥٤هـ بمصر.انظر سيرته في: «رشيد رضا صاحب المنار» لأحمد الشرباصي.

(٢) هو جمال الدين بن محمد بن سعيد بن قاسم، إمام الشام في عصره، اشتهر بتفسيره: محاسن التأويل ت ١٣٣٢هـ. انظر ترجمته في كتاب: شيخ الإسلام جمال الدين القاسمي لمحمد مهدي الإستانبولي.

(٣) محمد بن عبدالوهاب من المصلحين المجددين، ولد بالعيينة وسط نجد، وتعلم على يد أبيه أول الأمر، ثم رحل إلى أقطار من العالم الإسلامي ت ١٢٠٦، انظر: ترجمته في موسوعة عباقرة الإسلام ١٣٣ لمحمد أمين فروخ.

(٤) عبدالحميد بن حميد بن المصطفى، أحد رجال الإصلاح والتجديد بالجزائر، له في التفسير: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: على منهَج المقالة الأدبية ت ١٣٥٩ هـ، انظر: الموسوعة الحركية ١/ ١٣٤.

(٥) هو أبو شعيب بن عبدالرحمن الدكالي الصديقي، الفقيه المحدث، أسهم في حركة الإصلاح الحديثة ت ١٣٥٦هـ، انظر: سيرته في كتاب: المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي، لعبدالله الجراري.

(٦) العلامة أبو مصطفى محمد بن العربي المدغري الفلالي العلوي، له أدوار طلائعية في الإصلاح والتربية ت ١٣٨٤ هـ ودفن بمولده.

(٧) المعجم الفلسفي.د.مراد وهبة: ٤٠٠ بتصرف.

أو تفسيري، تصْنيفًا للاتجاه المعرفي ذي الطابع المشترك في المنهج والمجال العلمي، واستعمال أدوات الفهم والتحليل والتنزيل لقضاياه ومباحثه.

معالم منهج المدرسة الإصلاحية:

الأصل الأساس للإسلام هو القرآن الكريم، يسَّره الله ﷻ بلسان الرسول محمد ﷺ؛ ليبين للناس ما نزل إليهم بالبيان القولي والتطبيق العملي، والرسول ﷺ في كل ذلك متلقٍّ عن ربه ومبلِّغٌ عنه، ومن ثم كان ما صدر منه ﷺ في مجال التشريع والتكليف أول ما تلمس فيه معالم المنهج الإصلاحي في تدبُّر القرآن الكريم وبيانه، رُوَّادُهُ الأوائل في التطبيق العملي، وتلاميذ المدرسة النموذج وأتباعها المخلصون الصحابة رضوان الله عليهم، بما وعته قلوبهم وعقولهم.

وعليه فإن أول ما يُتلَمَّس فيه معالمُ منهج المدرسة في التفسير ما صدر عنه ﷺ، مضافًا إليه الإطار الزمني الذي تُلقيَ فيه البيان النبوي وتمت فيه الممارسات الأولى للتفسير، وبرزت فيه المعايير الضابطة لبيان الخطاب التشريعي وقت أن دعت الحاجة إلى ذلك، ومن تلك الأوليات تُتَلَمَّس المعالم الأولى لمناهج التفسير عند المدرسة، وحَصْرها في ثلاثة مناهج:

١- منهج البيان النَّبوي للكتاب المبين، من حيث إن البيان النبوي هو الوظيفة الأساسية للنبوة والرسالة ومن حيث كونه ﷺ قد عالج قضية البيان والتفسير قولًا وعملًا في إطار القيام بمهمة البلاغ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

٢- منهج الصحابة رضوان الله عليهم في هذا البيان لمباشرتهم عملية البيان والتبليغ، إما بتكليف من الرسول ﷺ كإرساله البعثات التعليمية إلى مختلف الجهات، يقومون بإقراء الناس وتفقيههم في القرآن الكريم[1]، أو استجابة لنداء القرآن بالتدبُّر والتفكر، واستعمال الأدوات المعرفيَّة التي حددها لهذا الغرض في مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

(١) انظر: صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب رضا الله عن الشهداء ورضاهم عنه.

٣- توظيف منهج القرآن نفسه في البيان وفق سنن الله في كتابه، واقتداءً برسول الله ﷺ في منهج بيان القرآن بالقرآن.

تلك هي أهم معالم منهج المدرسة الإصلاحية في التفسير، مستقاة من الواقع العملي لمناهج رجالات المدرسة في التفسير عمليًّا، أو في مقدمات تفاسيرهم، أو في مصنفاتهم المنهجية في علوم القرآن وأصول التفسير وقواعده(١)، توجب علينا طبيعة الموضوع المبحوث تصنيف أصول المنهج وترتيبها أخذًا من أدبيات المدرسة، وهي تمارس عملية الإصلاح في بيئة سياسية واجتماعية ومعرفية، عَشَّشَتْ وفرَّخت فيها انحرافات وأمراض عقدية واجتماعية، وهيمنت فيها على العالم الإسلامي ثقافات وافدة، أحدثت غربة في الدين والتَّدين، ما كانت لترفع وتصلح إلا بالعودة إلى المنهج الذي صلح به أمر الأولين، بل وبتطوير المنهج وفق مبدأ التجديد والإحياء أحد الخصائص الكبرى لهذا الدين، بما هي عليه طبيعته الربانية المستوعِبة للإنسان والزمان والمكان والأحداث الكامنة في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

معالم التجديد المنهجي لدى المدرسة

نعلم من دراسة الوضع العلمي للأمة الإسلامية عامة مطلع العصر الحديث، أن علم التفسير- كباقي العلوم- كان خاضعًا في أغلب ما ألف فيه إلى وَسْم الحقبة الزمنية قبله، حيث تُجْمِعُ الدراسات الاجتماعية والأدبية والتاريخية على أن الحقبة كانت حقبة جمود وضعف علمي، وإن كانت جذوة العلم في الأمة لم تنطفئ انطفاءً كاملًا(٢)، بحيث لم يخل عصر من عصور الانحطاط والتخلف من قائمين بالأمر يذودون عن الحقيقة العلميَّة واستمراريتها؛ تحقيقًا لقوله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»(٣). وتلك الأيام يداولها الله ﷻ بين الناس، حسب سننه في الخلق؛ إذ بمجرد تخلي الإنسان عن السنة البانية في حياته العملية يكون قد وقع عمليًّا في قبضة سنن الهدم الحضاري.

(١) انظر: مقدمة تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ومقدمة تفسير القاسمي.

(٢) انظر: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر، إبراهيم شريف، دار التراث القاهرة ص:٢٦ إبراهيم شريف ط / ١٤٠٢م.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١١/١٠١/٩)، ومسلم (١٩٢١/١٥٢٣/٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

ولما كانت سنة الابتلاء والتدافع سنةً ملازمة للوجود جعل الله ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد] هو في الرسالة الخاتمة العلماء الوارثون للنبوة[1]، الذين يقومون بمهمة الإصلاح والتجديد بتصحيح المفاهيم والتَّصَورات والمناهج؛ لتبقى ظاهرة التجديد في الإسلام وَجْهًا من وجوه الإعجاز المصدق للرسالة الخاتمة، يتجلى في جهد بشري تمثلت مظاهرُه لدى المدرسة في إعادة النظر في مناهج التفسير؛ قناعةً من روادها بأن الاكتفاء بما هو قائم في هذا المجال، أو النَّسْج على منواله يصبح عملًا مستهلكًا لا يساير الخطاب القرآني الموجه إلى كل جيل بعينه، وإلى توعية العقول والأفكار والقَضَايا الرائجة فيه؛ لأن ما وصل إليه المفسِّرون في العصور الماضية- رغم أهميته وضرورة الاطلاع عليه- لم يعد كافيًا وحده للاستنتاج واستخلاص المفاهيم والمعاني المؤيدة لصلاحية القرآن لكل زمان ومكان، في إطار التحوُّلات الهائلة التي عرفتها مناهج البحث العلمي، والتحولات التي حصلت في الحياة العقلية والفكرية والاجتماعية.

من هذا المنطلق حاول أقطاب المدرسة إعادة النظر في مناهج التفسير، في ظل معالم المنهج الأصلية؛ لتتبلور هذه المعالم أول ما تبلورت في منهج عرض المادة المفسرة عمليًّا، استصحابًا للمنهج الأصيل لدى علماء الإسلام، إحياءً له، وتأثرًا بعرض المادة الأدبية والفكرية عامة في العصر الحديث، تذرعًا إلى ذلك بمبدأ الاجتهاد، باعتباره أصلًا من أصول المنهج العام، وقاعدةً أساسية من قواعد التشريع، وباعتباره عمليةَ تأمُّل تسْتدعِيها الأحداث والمشكلات، وباعتبَاره المستجدة يستفرغ من توفرت فيه شروط الاجتهاد جهده بتنوير ما يجب تنويره من مصادر تشريعية، مُتَوخِّيًا مقاصد الإسلام وروح التشريع[2].

وعمل المدرسة هذا جاء على خلفية رواج فكرة إغلاق باب الاجتهاد وما تولد عنها من تقلص النشاط العلمي والانحسار الفكري وتولي الأدبار في مواجهة غزو العالم الإسلامي بِكل أشكال الغزوِ لا تحرفًا لقتال ولا تحيزًا إلى فئة، وإنما توقفًا بالفكر والعقل تحرفًا عما هو من وظيفته وغفلةً عن طبيعة القرآن ووظيفته في حياة الأمة.

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني ١٩٣/١ ط ١٤٠٧/٣ هـ القاهرة.

(٢) انظر: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: ٢/ ٤٦٠ للحجوى محمد بن الحسن، دار التراث القاهرة ط١: ١٣٩٦هـ.

يشهد شاهد من أهل فجر التاريخ الحديث قائلًا[1]: «ولقد طفت من أقصى المغرب ومن أقصى السودان إلى الحرمين الشريفين، فلم ألق أحدًا يسأل عن نازلة فيرجع إلى كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين وآثار الصحابة والتابعين إلا ثلاثة رجال، وكل منهم مقموع محسود من المتفقهين والعوام والمتَّسمين بسِيَم الصالحين»[2].

ولما حاجج الإمام الشوكاني أهل عصره في ترك الاجتهاد قالوا: هذا هو الأمر القديم، وعليه أدركنا الشيوخ، ومن عجب أن التقليد إنما حدث بعد مئتي سنة من الهجرة، وبعد فناء القرون التي أثنى عليها رسول الله ﷺ [3].

وقد تبدى أول ما تبدى مبدأ الاجتهاد في قوالب مناهج عرض المادة التفسيرية في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، رائدها بلا منازع الشيخ محمد عبده بدروسه في الأزهر، التي طارت بها مجلة المنار إلى آفاق شتى من العالم لتتحول إلى كتاب: «تفْسير المنار» الرائد في المنهج وقواعده وضوابطه، داعيًا المهتمين بأمر البيان من علماء الإسلام إلى «فهم الكتاب- القرآن- من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة»[4].

التجديد المنهجي في عرض المادة المفَسِّرة:

من مقومات المنهج عرض المادة العلميَّة من حيث البناء الشكلي والموضوعي؛ اجتهادًا في تيسير وتقريب الخطاب من متلقيه إنجازًا للإصلاح المنشود، بأقل مجهود، وأجْدَى مردود؛ لذا عمدت المدرسة إلى ما سجلته أدبياتها في التفسير على النحو الآتي:

---

(١) هو الإمام صالح بن محمد بن نوح، الشهير بالفلاني، سوداني الأصل، توفي بالمدينة المنورة عام: ١٢١٨هـ. انظر: فهرس الفهارس ٢/٢٦٤ لعبدالحي الكتاني ط١/ ٣٤٧.

(٢) إيقاظ همم أولي الأبصار: ٢٨ صالح الفلاني ط١/ ١٣٩٨ هـ بيروت.

(٣) الكلمة لمحمد عبده نقلها عنه التلميذ الملازم رشيد رضا، وأثبتها في أوائل أجزاء تفسير المنار، وعنه القاسمي في محاسن التأويل.

(٤) الكلمة لمحمد عبده، نقلها عنه تلميذه رشيد رضا، وأثبتها في أوائل أجزاء تفسير المنار، وعنه أخذت بعد ذلك في عدد من مقدمات التفاسير كالقاسمي في المحاسن.

التفسير بالمقالة: وقد ظهر هذا المنهج أول ما ظهر في جريدة العروة الوثقى[1]، وهو أسلوب في البلاغ لم يكن قد عرف قبل في تاريخ التفسير، على هيئة المقال الصحفي مصبوغًا بالأحداث والتقلبات السياسية والقضايا الاجتماعية، ومعالجًا بأدوات منهجية تجمع بين التاريخ والجغرافيا وعلم الأديان وعلم الاجتماع، ونظم العمران، وعلم المناهج في محاولة من المدرسة لتنزيل القرآن على واقع المسلمين، ومعالجة مشكلاتهم في ضوء كلياته الكبرى، ومثله العليا وسننه في الاجتماع البشري[2].

التفسير بالموضوع: وهو من التجديد المنهجي الذي اصْطُلِحَ عليه بالتفسير الموضوعي[3]، المنبثق أصلًا عن التفسير بالمقالة، ثم استقل منهجًا وشكلًا آخر في التفسير، يؤطر قضايا المجتمع في صورة إشكالات عقدية واجتماعية وسياسية، جعلت أنظار كثير من المفَسرين تتوجه نحو القرآن الكريم بحثًا عن نظرة القرآن إلى هذه المشكلات وغيرها مما أفرزته الوضعية الاجتماعية والثورة الصناعية والطفرة الفكرية في الغرب، وانعكاساتها على العالم الإسلامي[4].

الاهتمام بمقاصد القرآن: عناية من المفَسِّر بهداية القرآن على الوجه الذي يتفق وما أُنزل لأجله من الهداية والإنذار والتبشير والإصلاح، وهذه الوجهة هي ما جعلها صاحب «التَّحْرِير والتنوير» مُنْطويةً في المقدمة الرابعة تحت عنوان: «ما يجب أن يكون غرض المفَسِّر»[5]، وقبله أدار عليها محمد رشيد رضا كتابه: الوحي المحمدي في مباحثه وقضاياه الأساسِيَّة؛ عنايةً بالمجتمع وإصلاحه، وتقريرًا لحقيقة العبودية لله وتحقيقها على أرض الواقع؛ لأن إقامة المجتمع من أوامر الدين الواجبة التطبيق.

---

(١) ما نصَّت عليه الجريدة مقاصد لإنشائها: العمل على إيجاد الجامعة الإسلامية التي تعْنى بها «إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الإسلام الأولى ووحدته وسيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين في إقامته وسيرة حكومته. انظر: تاريخ الأستاذ الإمام ٣٠٦/١.

(٢) انظر: مقالات مجلة العروة الوثقى، ومقالات مجلة المنار، وإن كان وجودها نادرًا في المكتبات العامة.

(٣) ظهر المصطلح أواخر القرن الرابع عشر الهجري عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسْم التفسير بكلية أصول الدين بالأزهر. انظر «مباحث في التفسير الموضوعي» لمصطفى مسلم ص:١٧ دار القلم، ط / ١٤١٠هـ.

(٤) انظر: قصة التفسير للشرباصي، ص: ١١٤ ط / ١٩٧٨ بيروت.

(٥) انظر: تفسير التحرير والتنوير ١٨/١.

ومن هنا نجد أن محمد عبده قد بنى منهجه في تفسير القرآن على إخضاع حوادث الحياة والمجتمع القائمة في عصره لنُصوص القرآن ومقاصده، إما بالتوسيع في المعنى أو بحمل الشبيه على الشبيه، واعتبار القرآن كله وحدة متماسكة، لا يصح الإيمان ببعضه دون بعض[1].

العناية بالإعجاز: في عقب القومة التي قامها علماء الإصلاح في تاريخ الأمة الحديث يبتغون رفع التحدي المذهبي والحضاري، وإعادة الاعتبار والهوية إلى الأمة، لم يجدوا أقوم لعملهم الإصلاحي من العودة إلى القرآن الكريم؛ لما فيه من عناصر التحدي المستمرة ومن خصوصيات الإحياء والتجديد، فعادوا إليه على هدي السلف الصالح، لَمَّا وجدوا أنفسهم أمام مشكلتين خطيرتين:

الأولى: التطور الثقافي والتقني نتيجة التقدم الصناعي الذي أثر في العقل الإسلامي سلبًا؛ بما أحدث من شبهاتٍ عقدية واتجاهات فكرية غريبة، وإيجابًا؛ بما أسهم في توسيع الأفق وإثارة الانتباه إلى ما يجري حولهم ويهددهم.

الثانية: ما كتبه المستشرقون عن الإسلام، مستغلين كل أدوات النشر، وخاصة ما كتب حول القرآن والسنة وشخصية الرسول ﷺ، وعموم ما كتبه المستشرقون في هذه الجوانب تطبعه روح التشكيك في النص القرآني، وفي ربانية مصدره، وحول رسول الإسلام، زعزعةً للإيمان ونشرًا للإلحاد: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ ليصبح من أسئلة منهج الإصلاح الكبرى: ما هو السلاح الأنجع لرد هجمة الاستشراق ودحض شبهاته؟ وما هو الأسلوب المقنع للعقل الذي يفكر به العالم الإسلامي؟ والحال أن الإعجاز البياني للقرآن الكريم- وإن كان قائمًا إلى يوم القيامة وله دور الزعامة والريادة في باب الإعجاز- أصبح غير كافٍ وحده لأجيالٍ بعدت صلَتُها باللغة العربية، وضَمُرَتْ ملكتها البيانية، بل وأصابها الاستيلاء الغربي انبهارًا بما وصل إليه التقدم الصناعي والتقني.

واستجابة لهذه التحديات أظهر علماء الإسلام المصلحون- توظيفًا لمناهج البحث- وجوهًا أخرى للإعجاز القرآني في عملية كنس العقلية الإسلامية من لوثات الجاهلية الحديثة، متخذين

(١) انظر: اليقظة الإسلامية ١٣٣ لأنور الجندي ط / ١٣٩٨ هـ مصر.

من الدراسات القرآنية ومن علوم القرآن والتفسير وسائلهم موضوعًا ومنهجًا لما حددوه من أهداف إصلاحية، وأذَّنوا في عصرهم أن: انظروا في القرآن الكريم من أَيِّ النواحي شئتم: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغيَّر به وجه التاريخ، هل تجِدون فيه إلا قوةً شادَّة تغلب كل مغالِب، ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي ما فيه من عجائب[1]؟ استيفاءً لحاجات البشر في العقائد والاجتماع والتشريع والأخلاق والسياسة[2]. بعد تقريرهم أن التحدي تبعًا للمنهج الأصيل في البيان والتفسير إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه، وما عداه من وجوه الإعجاز الأخرى هو تابع له، وأن أول من قُصد بهذا التحدي هم العرب على ما كانوا عليه من فصاحة وبيانٍ، وأن الإعجاز البياني مصاحب للقرآن، مستمر قائم فيه إلى يوم الدين[3]. وأن هذا التعدد في وجوه الإعجاز يمكن حصره في مجالات ثلاثة:

الأول: الإعجاز اللغوي المتجلي بالذات في الخصَائص العليا التي تميز بها أسلوب القرآن ولغته ونظمه وبيانه، وأعيا بها مقاوِيل البلغاء، وفحول البيان من أهل صناعة اللسان[4]، ولذلك ألحَّ منهاج المدرسة الإصلاحية في التفسير على تعلم العربية، والتعمق في معانيها، واستكناه خصوصيتها، وأكدوا أن من قواعد التفسير: العلم باللغة العربية[5].

الثاني: الإعجاز العلمي، فالقرآن الكريم وإن كان كتابَ هداية وإعجاز بياني؛ فإنَّهُ قد اشتمل أيضًا على علوم ومعارف لهداية الخلق إلى الحق؛ بما فيه من المعاني والإشارات إلى الحقائق العلميَّة والعقلية، ما لم تبلغ إليه العقول عصر نزول القرآن وفي عصور بعده، مع اشتراط منهج المدرسة عدم تجاوز حدود الهداية والإعجاز؛ لأن القرآن لم يَأْت لشرح أو تفصيل الحقائق

(١) انظر: النبأ العظيم: ٧٩ لعبدالله دراز ط/ ١٣٩٠هـ، دار القلم، الكويت.

(٢) انظر: مناهل العرفان ٣٣١/٢ لعبدالعظيم الزرقاني، مطبعة البابي الحلبي.

(٣) الظاهرة القرآنية: ٣١ مالك بن نبي، ترجمة: عبدالصبور شاهين ١٤٠٢هـ، دمشق.

(٤) مناهل العرفان للزرقاني ٢٢٨/٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٠٢/١.

العلميَّة في الهيئة أو الفلك أو الطبيعة أو الكيمياء[1]. ليقرر منهج المدرسة بذلك إطارًا نظريًّا في صورة ضوابط تعصم مقتَحِمَ ميدان التفسير من التقول على الله في كلامه، وليسخر له ما أشار إليه القرآن من حقائق علمية وعقلية في عملية الهداية والإصلاح.

الثالث: الإعجاز التشريعي، وذلك بناءً على أن من مقاصد القرآن الحكيم تنظيمَ حياة الناس تنظيمًا تكون به خاضعة لأمر الخالق تصورًا وسلوكًا، وهذا يتطلب بالضرورة قواعد وقوانين ضابطة مِعْيارية لا تتحكم فيها الشهوات والنزعات، وإلا ضاعت إنسانية الإنسان بشريعةِ البشر القاصرة.

وإبرازًا لحقيقة ارتباط المصالح العليا للتشريع القرآني المعجز، عمل منهج المدرسة على إظهار خصائص التشريع الرباني في إطار رفع التحدي وإظهاره، لإصلاح إنسان المرحلة، ولاسيما وقد عَرَفت المرحلة ظهور نظريات قانونية في التشريعات المدنية والجِنائية والأسرية والدولية، انبهرت بها الأمة الإسلامية أيما انبهار، وانفصلت بها عن أصول هويتها، واستمسكت بشريعة الغزاة ولغتهم وفكرهم[2] في كثير من مظاهر حياتها.

ولم تكتف المدرسة ببيان وجوه الإعجاز التشريعي في أدبيات التفسير، وإنما ألَّفت مؤلفات صاغت فيها نظرية القرآن في النُّظم التشريعية؛ إظهارًا للإعجاز القرآني، وتكريسًا لإيجاد البديل للنظم المستوردة مقرونة بالتحدي: ومن ذلك «أسُسُ الاقتصاد في الإسلام» لأبي الأعلى المودودي، وكتاب: دراسات إسلامية لعبدالله دراز، وخَصائص التصور الإسلامي لسيد قطب، والإسلام وأوضاعنا القانونية لعبدالقادر عودة... إلخ.

وفي تفسير المنار والظلال والتحرير والتنوير ما يمكن تصنيفه في التفسير الموضوعي، في إطار التفسير التحليلي العام، اهتمامًا بهذا النوع من الإعجاز، وطلبًا لإحداث عملية الإصلاح بهذا المنهج من البيان للقرآن الكريم.

---

(١) انظر: تفسير الظلال لسيد قطب ٢٥٩/١ ط٧، ١٩٧١م دار إحياء التراث، بيروت.

(٢) دفاع عن الشريعة ١٦ لعلال الفاسي، منشورات العصر الحديث، بيروت ط ١٩٧٢م.

الاهتمام بالسنن الاجتماعية في القرآن:

إن من أهم مميزات المدرسة الإصلاحية في التفسير؛ اهتمامَها بقضايا المجتمع الإسلامي، والنظرَ إليه بمنظار القرآن الكريم؛ ليكتشفوا بهذا الاهتمام أن أمر المجتمع تحكمه سنن وقوانين صاغها القرآن الكريم من خلال أحداث تاريخ الأمم الغابرة مع أنبيائهم ومع المصلحين. قواعد وكليات ومبادئ أساسية تهدي الإنسان إلى التي هي أقوم بقدر العلم بها، والكشف عن منهجها والعمل على توظيفها في واقعه، تسخيرًا لها بحسب ما يطلبه واقعه، وفق منهجية القرآن الكريم في حديثه عن المجتمعات والأمم الغابرة، وأثناء ظهور الإسلام؛ يرصد الأحداث، ويصف الأعمال والأفعال البشرية الجماعية، ويحدد الوقائع، ثم يعقب عليها بما يؤكد ربط الأعمال والسلوك البشري بالنتائج والأحوال التي يحول إليها وضع المجتمع، فلاحًا أو بوارًا، وأن هذه السنن هي قوانين مُطَّردة وثابتَة، تشكل ميكانيكية الحركة الاجتماعية، وتعين على فَهْمها[1] وأنها لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته وقدره وقضائه، عبر عنها القرآن الكريم بتعابير إن اختلفت في تركيبها اتَّحَدَتْ في دلالتها، مثل قول الله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥]، وقوله ﷻ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣]، والمدرسة بهذا الكشف المنهجي الذي صاغته التفاسير قَبْلُ تفسيرًا لغويًّا محدود الأثر في المتلقي، قد حققت فتحًا عظيمًا في حربها على المفاهيم المثبِّطة والتصوُّرات الباردة والسلوكيات المنحرفة في المجتمع الإسلامي، مصنفة هذه السنن إلى:

- سنن التأسيس والبناء: ومنها سنة الابتلاء إظهارًا لصدق الإيمان وإخلاص العمل[2]، أخذًا من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت]، ومنها سنة التدافع الحضاري أو سنة تنازع البقاء[3]، أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة].

---

(١) انظر: تفسير المنار: ١١/١ و١٩/١ و٨٤/٤. وقد أخذها تفسير المنار من مقالات العروة الوثقى التي عنونت بعض مقالاتها بـ: سنن الله في الأمم وتطبيقاتها على المسلمين. انظر: المقالة ٣، والمقالة ١٠ من المجلة. وانظر: الظلال: ٨٢/٢. والتحرير والتنوير ٩٥/٤.

(٢) انظر: العروة الوثقى: ٥٣، ٥٤.

(٣) انظر: تفسير المنار: ٤٩١/٩.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥، ٦][1].

قال ابن باديس في تفسيرها: «السر المتجلي مِنْ هذه الآية هو: أن الله أراد بما صنع من بني إسرائيل، وبما قال لهم، أن يعلم الإنسان من سنن الله في كونه ما لم يكن يعلم، وهو إخراج الضد من الضد، وإنقاذ الأمة الضعيفة من استعباد الأقوياء المتألهين».

- سنن التحصين والتحذير: وذلك اهتمامًا من القرآن الكريم بتربية المجتمع الإسلامي على صيانة المكتسبات الحضارية وتحصينها، حفظًا له من الآفات والأمراض الاجتماعيَّة التي قد تصيبه وهو في أزهى أحواله، إذا هو غفل عن هذه السنن، واقترف من الأعمال النفسية والفعلية ما يكون سببًا في أفوله وموته الاجتماعي، ومما يدل على هذه السنن في أدبيات المدرسة التَّفسِيرية ما جاء في بيان قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ﴾ [سبأ: ١٥] «ولكن فات القومَ أن يحصِّنوا هذه المدنية الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة والعدل، فالقرآن الكريم يذكر لنا كثيرًا من مصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها، وحتى نعْلم أن سنة الله لا تتخلف في الآخِرين كما لم تتخلف في الأَولين»[2]. ومن هنا وجب الاعتبار بما أخبر به القرآن وأثبته سننًا وقوانين اجتماعية تسري على المجتمعات الإنسانية، بما في ذلك المجتمع الإسلامي إن لم نقل هو المقصود الأول بهذا البيان الرباني الذي تفننت مناهج المدرسة في إخراجه من القرآن الكريم واعتماده في إعادة بناء الأمة، وإقامة هيكلها من جديد، ولتوصف أعمالها التفسيرية بمرحلة التفسير التطبيقي لمواجهته قضايا العصر الاجتماعية والثقافية والحضارية بما أودع الله في القرآن الكريم من تعاليم وسنن وقوانين وهدايات، تستوعب كل أحوال الإنسان بما هو القضية الأم في هذا الخطاب الرباني الجامع.

---

(١) القصص: ٤٩/٤،٥، مجالس التذكير ٦٦٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٩/١، والوحي المحمدي ١.

قواعد منهج البيان عند المدرسة:

مما يعلم من الثروة الكبيرة لعلم التفسير؛ أن هناك مناهجَ متعددةً وطرائقَ مختلفةً لفَهْم كتاب الله تعالى وتدبُّره وبيانه، وقد شكلت هذه المناهج مدارس واتجاهاتٍ ممتدةً تاريخيًّا في علم التفسير بما اعتمدته من قواعد وضوابط لعملية البيان والتفسير، ألفاظًا ومعانيَ ومضامينَ ومقاصدَ وقضايا، وإن الدراسة التاريخية والتحليلية لتؤكد لنا أن النشاط التفسيري آل في أمره إلى حالة من الركودِ أواخر القرن العاشر الهجري، أصبح معها واقع الأمة الاجتماعي والعلمي يطالب بإلحاح شديد بإيجاد طرائق ومناهج تهدي إلى أقوم السبل وأنجح الحلول لهذا الواقع من خلال القرآن الكريم[1]، وإن الاكتفاء بما أنتج في مجال علم التفسير أو النسج على منواله أصبح عملًا مستهلكًا لا يستجيب لحاجات الأمة، ومن ثم عدم مسايرة الخطاب القرآني الموجه إلى كل مصر بعينه، أو على الأقل لم يعد كافيًا وحده لاستخلاص واستنباط ما تدعو إليه ضرورة الإصلاح الذي تدعو إليه حالة الأمة في عصر عَرَف تحولات هائلة في الحياة العقلية والفكرية، وتطوراتٍ باهرةً في مناهج البحث العلمي وأساليبه[2].

ولقد انتبهت المدرسة إلى أن القرآن الكريم فيه من الهداية ما يفي بالحاجة البشرية وفاءً لا تحتاج معه إلى أي مبدأ آخر، إلا أن توظف مناهج البحث المستحدثة مقارنة بالمنهج الأصيل في قراءة الخطاب القرآني، توظيفًا للنهضة العلميَّة الحديثة لبيان ما تناوله القرآن وأشار إليه من أصول العلوم الكونية ونواميسها وسنن الكون والاجتماع، والاستفادة منها وأساليب الهداية الربانية والاهتداء بها[3]، تنزيلاً للهدى في حياة الناس شريعة للحياة.

ولما استقام لتلاميذ المدرسة الإصلاحية المنهج في التدبُّر والبيان، ضمنوا مقدمات ما ألفوه في التفسير مقومات المنهج ومصادره وطرائق إعماله وضوابط تنزيله، وتَوَّجوها بإرشادات وتنبيهات منهجية مكملة داخل النص التفسيري العملي، وألفوا في ذلك مؤلفات مستقلة فيما لا بد منه

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ١٥٩ لأبي الحسن الندوي، ط ١٠، الدوحة.

(٢) انظر: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر: ١٨٢، إبراهيم محمد شريف، ط / القاهرة.

(٣) انظر: مقاصد القرآن الكريم: ١٢، للإمام حسن البنا.

من قواعد وأدوات؛ كصنيع الأستاذ أبي الأعلى المودودي[1] في كتابه: «كيف نفهم القرآن؟»، ومقدمة تفسير القاسمي، ومقدمة تفسير الطاهر بن عاشور: «التحرير والتنوير» تأطيرًا للعمل التفسيري بحقائق الوحي وطبيعته الربانية وكونه المصدر الأساس للمعرفة وموضوعها، وهي في كل ذلك لم تنفصل عن الأصول الأصيلة التي بناها المختصون الأوائل، بل رجعت إليها لصياغة منهج متجدد يتلاءم وعقلية العصر الذي كيفته الاختراعات العلميَّة، والمذاهب الاجتماعية، ومعطيات العلوم الطبيعية.

قواعد المنهج المصدرية:

وأعني بها القواعد التي تنظم منهجية الرجوع إلى المادة الأساسية للتفسير، والتي تُعتَمدُ مصدرًا لاستمداد المادة العلميَّة للتفسير، وبهذا يصف تفسير المنار منهجه قائلًا: «وذلك شأننا في فهم كتاب الله ﷻ، نستعين عليه ببيان سنة رسول الله ﷺ، وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه[2]»، وبتحديد الطاهر بن عاشور: «المعلومات السابق وجودها على علم التفسير؛ لتكون عونًا على إتقان التدوين بما تمدُّه من مَدَدٍ يتوقف عليه تقومه»[3]. وتلك نصوص تجَمع لنا أركان المنهج في الاستمداد المصدري لدى الاتجاه الإصلاحي في التفسير في أربعة أركان:

الأول: علم العربية، والمراد: معرفة لغة القرآن الكريم، حتى تصير ملكة وذوقًا بمعرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدبهم ولغتهم وأساليبهم وتراكيب بلغائهم، وكل ما وظفه بناة أصول البيان في فهم معاني الآيات على قوانين استعمالهم للغة. وهذا الركن في منهج المدرسة مما لا يتم

---

(١) أبو الأعلى المودودي، ولد بإقليم حيدرآباد بالهند، اشتهر برئاسة وتأسيس الجماعة الإسلامية بالهند، من أعماله في التفسير: تفسير سورة النور، وتفهيم القرآن، ت ١٩٧٩م. انظر: أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته لعبدالحميد إبراهيم.

(٢) تفسير المنار: ١٩٦/٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٨/١.

التفسير إلا به[1]؛ إذ لا يتم إصلاح الأمة إلا بالرجوع إلى هداية القرآن، ولا تتم هذه الهداية إلا بالاتفاق على إحياء اللغة العربية[2].

الثاني: الآثار، والمعني بها في منهج المدرسة: ما نقل عن الرسول ﷺ في مواضع الإشكال والإجمال، وما نقل عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي في كل ما الطريق فيه الرواية عن الرسول ﷺ، بما في ذلك ما تعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصر الصحابة[3].

الثالث: أصول الدين العقدية والفقهية:

فالعقدية ما تعلق بالسمعيات والغيبيات؛ مما لا يدخل في حدود نواميس المادة ولا في قوانين عللها؛ إذ عقل الإنسان عاجز قاصر عن إدراك كنهها بما ركب عليه، والإيمان يقتضي عدم التكلف في تصور حقيقتها، وأن ما يدخل في هذا المجال المرجع فيه القرآن الكريم والنقل الصحيح عن المعصوم ﷺ[4].

وأما أصول الفقه، فمن جهة أن كثيرًا من مسائلها هي قواعد لضبط الاستنباط وقواعد الإفصاح عن المعاني والأحكام الشرعية من الآيات[5].

الرابع: علم أحوال البشر؛ ذلك أن الله بين في القرآن كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر، ومن ثم «فلا بد للناظر في القرآن من النظر في أحوال البشر وأطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم؛ من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل»[6]؛ لفهم ما أوجزه القرآن الكريم من أخبار الأمم، للموعظة والاعتبار، من حيث العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن؛ اكتسابًا للبرهان ومنهج البيان، وما يتبعهما من التشريع والتفريع المنهجي

---

(١) انظر: مشكلات القرآن الكريم، لمحمد عبده، ط: ١٩٧٩، بيروت.

(٢) انظر: تفسير المنار ٢٩/١.

(٣) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ١٨/١ لصديق حسن خان، ط/ بيروت.

(٤) انظر: مقاصد القرآن الكريم ٢٣، ٢٤.

(٥) انظر: تفسير المنار: ٢٠/١.

(٦) نفس المصدر ٢٣/١.

والهدي القرآني[1]، إعمالاً لسنن الاجتماع في القرآن الكريم، وهذا الركن المصدري يذكرنا بما اشترطه الفقهاء من معرفة بالواقع عند تنزيل الأحكام وفهم القضايا في ضوئه، وهي في علم التفسير: ما تعلق بالأحداث والملابسات والظروف المصاحبة لتنزلات القرآن[2]، توصلاً بها إلى معرفة أمراض الأمة الحاضرة، ومنابع ما تفشّى فيها من بدع وانحرافات؛ لأن خطاب القرآن لمن كان في زمن التنزيل لا لخصوصية في أشخاصه، وإنما لأنهم أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايته[3].

الخامس: العناية بمقاصد القرآن الكريم، والمراد: أن يوجِّه المفسر عنايته بالدرجة الأولى إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير، والهداية والإصلاح، وقد أفصح عنه صاحب «التحرير والتنوير» في المقدمة الرابعة بعنوان: «ما يجب أن يكون غرض المفسر»؛ إعمالًا للمقصد الأعلى من الكتاب المنزل الذي هو إرشاد الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، بصلاح أحوالهم الفردية والاجتماعية والعمرانية، وجعل ذلك غاية للمفسرين من التفسير[4].

ذلك أن مُتدبِّر مواضع القرآن وقضاياه يجد الأحكام العملية التي جرى الإصطلاح على تسميتها فقهًا هي أقل ما جاء في القرآن، وأن ما فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ورفعها وإرشادها إلى طريق الحياة الاجتماعية، ما لا يُستَغنَى عنه بحال، وما هو أجدر بالدخول في الفقه الحقيقي الذي لا يكون إلا بكمال العقل وحسن استعماله في الفهم والبحث عن فوائد الأحكام وعللها، ودلائل المسائل وبراهينها[5]؛ تحقيقًا لمقاصد القرآن في البشر، التي منها: إصلاح الاعتقاد، وإصلاح التشريع، وسياسة الأمة، والتعليم بما يناسب حالة العصر وما يؤهل لتلقي الشريعة ونشرها. ردمًا للهوة السحيقة التي حدثت بين القرآن الكريم- المنهج

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/٢٥.

(٢) انظر: مبادئ أساسية لفهم القرآن ١١ لأبي الأعلى المودودي، ط/الكويت.

(٣) انظر: تفسير المنار ١/٢٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ١/٣٨.

(٥) انظر: تفسير المنار ١/١٠-١٧.

الشامل[1] لكل أبعاد الحياة البشرية- وبين واقع الأمة في كل مكوناته الاجتماعية والعقدية، ليضيفوا ما أضافوا من مبادئ وقواعد وضوابط ومصادر للتفسير، صارت في الدراسات القرآنية الحديثة من أهم ما أضيف إلى علوم القرآن ومناهج التفسير في العصر الحديث[2].

قواعد منهج الفهم والتدبُّر:

إن الحاجة إلى بيان القرآن حاجة مستمرة ومتطورة بتطور الظروف ومدارك البشر وما تتسع له عقولهم وأفهامهم؛ لتحقيق ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]؛ فالقرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، ولا يستقل بتفسيره إلا الزمن بما يحدث فيه من قضايا تحتاج إلى أجوبة، وإن كثيرًا من متونه الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تُفهَم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة، وظهور ما يصدقها من الكتاب المسطور انطباقًا على الكتاب المنظور[3]؛ ليظهر للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، ومن هنا توجهت عناية المصلحين إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع ما أنزل إليه القرآن؛ من الإنذار والتبشير، والهداية والإصلاح، تجديدًا لِمَا طال عليه الأمد، وبحثًا عن السياسة الرشيدة لدراسة النسق القرآني بما يحقق حاجة العصر بالكيفية المنهجية التي تمكن من قراءة ودراسة الكتاب الكريم قراءة باعثة لروح الأمة، ولقد كانت هذه الكيفية هي القضية المحورية- على المستوى المنهجي- التي شغلت بال مفسري المدرسة، وحددت أحد الأغراض الكبرى من التفسير، فتوسلوا إلى ذلك بجملة من المبادئ والضوابط، كانت في البدءِ نظريةً توَجَّسَ منها الدرس التفسيري التربوي ابتداءً، ثم صاغها قواعد منهجية مُعِينةً على الفهم والتدبُّر، ويمكن تقسيمها من خلال أدبيات المدرسة العملية في التفسير ومقدماتها إلى قواعد منهجية للدراسة العامة، وقواعد منهجية للدراسة التفصيلية.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١/٤٠-٤٢.

(٢) انظر: مقدمة: تفهيم القرآن ٧ لأبي الأعلى المودودي، ط / الكويت.

(٣) انظر: مجالس التذكير ٦٣٦.

القواعد المنهجية للدراسة العامة:

- فهم طبيعة القرآن وأصله، سواء كان الدارس يؤمن به أو لا يؤمن به كتابًا منزلًا من عند الله[١]، وذلك باعتماد ما نطق به القرآن نفسه، وما نطق به مبلغه ﷺ؛ لأننا نقرأ في الكتاب نفسه تحديد مصدره وطبيعته، وطبيعة خطابه والقصد من إنزاله[٢]، وأن دراسته تستوجب دراسة مصدره قبل دراسة محتواه خلافًا لأي كتابٍ آخر[٣].

- معرفة موضوعه وبحثه الرئيس، فلكي تتحقق دراسة جادة لأي كتاب على وجه سليم لا بد من أن يكون الدارس على علم مسبق بموضوع الكتاب ومباحثه الرئيسة، مع التنبيه على أن القرآن طراز مختلف تمام الاختلاف عن أي كتاب أسلوبًا وموضوعًا وتفردًا بالمنهج، وإن كان موضوع القرآن هو الإنسان من حيث أنماطه وأنواع حياته وما يقوده إليه النجاح والبوار[٤].

- التخلي عما استقر في فهم الدارس من تصورات ونظريات ورغبات موالية أو مناوئة، والانكباب على دراسته بعقل متفتح وقصد نزيه، فإن الذين يدرسونه في ضوءِ مقاصدهم الشخصية المسبقة، لن يجدوا فيه غير أفكارهم المسبقة[٥].

- العلم بكيفية النزول ومراحله، وذلك فضلًا عن أسباب النزول، فللقرآن خصائص في البيان والترتيب والقلة والكثرة في النازل والانقطاع والاسترسال[٦]، فهو لم ينزل كاملاً، ولم يُلق إلى الرسول ﷺ نسخة واحدة، وإنما اتخذ سياقًا يتناسَبُ ومنهجيةَ البلاغ وتطورَ الدعوة وسيْرَها؛ إذ القرآن كتاب هداية ودعوة، ومنهاج حركة، وبناء أمة[٧].

---

(١) انظر: النبأ العظيم ٢٠ لمحمد دراز، ط / الكويت.

(٢) انظر: المدخل للقرآن الكريم ١٢٦ لنفس المؤلف، ط / الكويت.

(٣) انظر: مبادئ أساسية لفهم القرآن: ١١.

(٤) انظر: مقدمة تفهيم القرآن لأبي الأعلى المودودي ١٢.

(٥) نفس المصدر: ٢٧.

(٦) انظر: المدخل إلى القرآن الكريم ٦٩.

(٧) انظر: مقدمة تفهيم القرآن: ١٨.

القواعد المنهجية للدراسة التفصيلية:

من القضايا التي شغلت بال علماء الإسلام والدولة الإسلامية، وصالتْ صولتها قضية السفر بالمصحف خارج دار الإسلام، أما في العصر الحديث فقد اختلف الأمر، وأضحت الفتوى بحلِّيَّته أو حرمته لا موضوع لها؛ إذ الحدود أصبحت لا معنى لها فيما يتعلق بالأفكار والتصورات، يحدثنا كتاب الوحي المحمدي عن عصره قائلًا: «إن من العلم اليقيني: أن علوم الكون المادية تَثِبُ في هذا العصر وثوبًا يشبه الطفور، وتؤتي من الثمار اليانعة بتسخير الطبيعة للإنسان ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة، وكأن شعوبها أُسَرٌ لأمة واحدة[1]، وإن نسخ القرآن قد عمت الآفاق، وترجمتَه إلى لغات عالمية قد صارت من الكثرة بمكان، وأصبح الاهتمام بالقرآن ودراسته غرض عدد هائل من الدارسين، ومع ذلك يقترح أبو الأعلى المودودي اقتراحات منهجية لمن يريد فهم حقيقة القرآن والبحث عن الهدي الذي يحل مشكلات الإنسانية؛ لأن الخلل كامن في عملية تلقي القرآن، وفي منهج التعامل معه، فوجب رفع العجز عن فقه القرآن بإصلاح منهج التلقي وإعادة بناء العقل على منهج علمي محايد.

ومن قواعد هذه الدراسة:

قراءة القرآن الكريم على الأقل مرتين، بهدفِ فَهم نظام الحياة الذي يقدمه لنا القرآن في إطار الاعتقاد والمنهج العام الذي يفاصل عليه الدنيا، ومعرفة الأسباب التي يقوم عليها النظام من القرآن نفسه[2].

أن يَدرُس القرآن كله مرة واحدة على الأقل، من الوجهة التي يتوجه إليها القصد من الدراسة تحت عناوين محددة في هذا الشأن: العقيدة، الأخلاق، الحقوق الواجبات، الحضارة، الاقتصاد، السياسة، النظام الاجتماعي، السلام والحرب، وسائر المشكلات الأخرى[3].

---

(١) الوحي المحمدي: ١.

(٢) انظر: مبادئ أساسية لفهم القرآن: ٤٩.

(٣) انظر: مقدمة في تفهيم القرآن: ٢٨.

ألا يستعجل البتَّ في أي مُشكِل استَشْكَلَ عليه، وإنما يواصل المطالعة والصبر والتأمُّل، ويستعين على تبيان وجهة النظر القرآنية في المسألة بـ:

تحديد المسألة وتصنيفها معرفيًّا.

مطالعة ما كتب في المسألة بتمعن وتأمُّل.

التعرف على ما وصل إليه الفكر الإنساني في المسألة عبر التاريخ.

وبعد ذلك يتحول إلى القرآن ليدرسه بقصد إيجادِ الأجوبة[1].

تدبُّر النظم القرآني؛ فإن للتنجيم القرآني في التنزيل والترتيب أكبرَ العبر، فمع أن كل نجم رهين بنزول حاجة ملمَّة، أو بسبب عام أو خاص، وحُدِّد له مكان معين داخل السياج الجامع؛ فإن هناك خُطةً تفصيلية كاملة قد رسمت فيها المواقع كلها قبل نزولها[2]، ويقترح عليك النبأ العظيم منهجية عملية لدراسة النظم القرآني سماها: «السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني، وتتمثل في إحكام النظر في السورة كلها إحصاءً لأجزائها، وضبط مقاصدها على وجه تتبين به الصلات الموضوعية ومطالعها ومقاصدها[3].

نزع فكرة القداسة عن فُهوم البشر، خارج دائرة النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة، واعتبارها فهومًا بشرية يستعان بها على تقوية وتعضيد وتوسيع البيان والتفسير[4].

الخبرة الحية التي يشعر بها ويكتسبها المفسر من حياته الفردية والأُسْرية والجماعية؛ فإن تعدد الخبرات، مع استحضار التوجيه القرآني يُحدِث تواصلًا جديدًا مع المعاني القرآنية في إطار شروط الوعي المتجددة المستوحاة من الواقع الممارس، فالقرآن يفتح أسراره للذي يتحرك به لتحقيق مدلوله في العالم الواقعي، وما نزل إلا ليكون مادة حركة وتوجيهٍ للإنسان في كل مجالات

(١) انظر: مبادئ أساسية لفهم القرآن: ٤٢.

(٢) انظر: النبأ العظيم ١٥٠.

(٣) انظر: النبأ العظيم ١٥٠.

(٤) انظر: تفسير المنار ١٠/١١.

حياته[1]، وهذا الانفتاح المنهجي على القرآن الكريم هو ما جعل صاحب التفسير الحديث يقرر فيما قرر من قواعد منهجية في التفسير: تجلية ما تحتويه الجملة القرآنية من أحكام ومبادئ وتوجيهات أخلاقية واجتماعية وروحية، بالاعتماد على النظر، وملاحظة تطور الحياة والمفاهيم البشرية، ويجعل ذلك نقطة أساسية في تفسيره[2].

التطبيق العملي لتعاليم القرآن الكريم: فالمرء لا يستطيع أن يسبر غور القرآن ويصل إلى لب روحه ما لم ينخرط في تطبيق رسالته تطبيقًا عمليًّا، فالقرآن ليس كتاب أفكار ونظريات مجردة، وإنما هو كتاب لدعوة الناس لأن يبدؤوا حركة إيمانية ثورية، وليقود أتباعه إلى إنجاز رسالته بالنزول إلى ميدان معركة الحياة ومجال التدافع[3]، شرط توفر الآليات المنهجية والقواعد العملية التي تمكننا من الفهم السليم للقرآن الكريم، لترجمة المدلولات القرآنية إلى واقع عملي في حياة البشر[4].

وبعد:

فإن الاطلاع على الدرس القرآني، وعلى ما استجد من أنماط التفسير والبيان عند المدرسة الإصلاحية في العصر الحديث، وعلى الجهود التي بذلتها من خلال الدرس التفسيري؛ تنبئك أن المدرسة جاهدت جهادًا كبيرًا في مجال ربط الصلة بين النص القرآني وبين إنسان العصر، إسهامًا في إيجاد النموذج البشري الصالح عمليًّا ونظريًّا، بالبيان من القرآن، وبناء منهج البيان لإنسان الزمان عمليًّا وتنظيريًّا.

عمليًّا: بالجهود التي بذلتها لإصلاح المجتمع انطلاقًا من القرآن الكريم، فأدت بذلك مهمة واجب العصر في واقعها الاجتماعي.

---

(١) انظر: الظلال ٦٥٨/٤.

(٢) انظر: التفسير الحديث ٦/١.

(٣) انظر: مبادئ أساسية لفهم القرآن: ٥٣،٥٤، وانظر: مجالس التذكير: ٧٠٠.

(٤) انظر: موسوعة العقاد الإسلامية: ٤٦٤/٥ ط / بيروت.

تنظيريًّا: بما سطرته من ضوابط ومبادئ منهجية لفهم القرآن وتفسيره في ضوءِ الأصول الأصيلة الثابتة ثبات الوحي، وفي ضوءِ مستجدات العصر؛ لتخرج لنا تركيبًا ثقافيًّا في الدراسات القرآنية يجمع بين المعرفة والمنهج والإصلاح، نجمله في الآتي:

- إن أقرب طرائق الفهم والتدبُّر هي قراءة القرآن بتدبُّر وخضوع، واستلهام الرشد من الله سبحانه، مع جمع شوارد الفكر حين التلاوة[1] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

- فهم القرآن الكريم في ظل القرآن نفسه والسنة الصحيحة، ومن خلال أعمال الصدر الأول ومدلولات اللغة العربية وأصول الدين القطعية.

- فهم القرآن متوقف على فهمه من الداخل؛ باعتبار مصدره الإلهي، وتفرد نظامه البياني، وتناسب سوره وآياته، ووحدته الموضوعية.

- الاستفادة في الفهم من الواقع الاجتماعي، ومن علوم العصر الذي نعيش فيه، ولاسيما العلوم الإنسانية، قصد تجديد الإيمان، وصياغة الحلول العملية للمشكلات والنوازل، دون إغفال المسلمات المنهجية الأصلية في تفسير الوحي؛ فإن القرآن ما دام المفَسِّر يسأله وهو على الصراط المستقيم والمنهج السليم؛ فإنه يجيبه بما يستجيب للحياة المتجددة، ويملأ ما فيها من فراغ تربوي أو تشريعي أو منهجي تنظيري، فمن معاني خلود القرآن الكريم كونه قادرًا على الاستجابة لكل التحولات والحالات والظروف والملابسات البشرية[2]؛ لإنتاج تعليم صحيح للإسلام، وتفسير حكيم للقرآن الكريم، وطريق ناهج لقواعد الفهم والتدبُّر والبيان، وبناء إنسان القرآن.

- وإن أهم ما يُوصَى به ختامًا: العمل على جمع ما أنتجته المدرسة على مستوى مناهج التدبُّر والبيان؛ إسهامًا في القيام بواجب العصر في بناء علم أصول التفسير وقواعده، وضبطًا للقول في كتاب الله، في عصر اشتدت فيه الحاجة، واختلطت فيه المناهج وتنوعت؛ إبرازًا للأسس المعرفية للتدبُّر كما حددته ورقة المؤتمر، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) انظر: في التاريخ فكرة ومنهاج: ٣٦ لسيد قطب، ط٥ بيروت.

(٢) انظر: النظريَّة القرآنية لتفسير حركة التاريخ ٤٧ لحسن سليمان، ط بيروت.

الورقة الخامسة

تدبُّر القرآن الكريم عند الاثني عشرية
نظرة في المصطلح

إعداد

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر

أستاذ الدراسات القرآنية المساعد في كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية في الأحساء

السيرة الذاتية

الاسم: عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن عبدالله الضامر

من مواليد ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م في مدينة الأحساء من المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: dabdalaziz@hotmail.com

المؤهل العلمي:

ـ بكالوريوس أصول الدين «جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فرع الأحساء، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م»

ـ ماجستير في الدراسات القرآنية «جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م».

ـ دكتوراه في القرآن وعلومه «جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، الرياض، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م».

الخبرة العلمية:

ـ عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء، التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ـ عضو مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه في دورتها الخامسة.

ـ عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ومدير لجنتها الفرعية في الأحساء.

ـ مستشار إعلامي في مركز تفسير للدراسات القرآنية في الرياض.

ـ حاصل على جائزة التميز البحثي في الدراسات القرآنية سنة (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م)، التي تمنحها سنويًّا الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه «تبيان».



المقدمة

في الربع الثاني من القرن الخامس عشر الهجري حظي موضوع التدبُّر القرآني بأهمية كبيرة على مستوى العلماء والمثقفين والمؤسسات العلميَّة، فكُتِبت حوله المؤلفات والرسائل، وأُقيمت المؤتمرات والندوات، كما أُنشئت من أجله هيئة عالمية متخصصة.

وقد شرفني الإخوة في الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم بالمشاركة معهم ضمن مؤتمر تدبُّر الثاني «تدبُّر القرآن.. مناهج وأعلام»، المنعقد في الدار البيضاء من السنة (١٤٣٧هـ-٢٠١٥م)، وذلك في الكتابة حول «منهج الاثني عشرية في تدبُّر القرآن الكريم».

ومن خلال تأمُّلي في الموضوع، اتضح أنه طويل، ويستحق أن يُفرد برسالة علمية؛ لذا رأيت أن أتناول في هذا البحث مصطلح التدبُّر القرآني عند الاثني عشرية؛ لأنَّ الحديث عن المصطلح يُعدُّ الانطلاقة الأولى للموضوع، وهو الأساس الذي تُبنَى عليه بقية المسائل والقضايا.

وتكمن أهمية البحث في التعرف على مصطلح التدبُّر عندهم، والفرق بينه وبين التفسير.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: تدبُّر القرآن بين الأخبارية والأصولية:

المبحث الثاني: مصطلح «تدبُّر القرآن» من خلال أشهر تفاسير الاثني عشرية.

المبحث الثالث: مصطلح «تدبُّر القرآن» من خلال كتب مفردة للاثني عشرية.

المبحث الرابع: الفرق بين التفسير والتدبُّر.

الخاتمة: وقد بيَّنت فيها أبرز النتائج والتوصيات.

وقبل الختام: فإني أُحب أن أشير إلى قضية مهمة تتعلق بمنهج البحث، وذلك بشأن الأعلام الواردين فيه؛ حيث ترجمت لأعلام الاثني عشرية- المتقدمين والمعاصرين- من خلال كتبهم، وبيان منزلتهم ومكانتهم العلميَّة عند علماء التراجم لديهم قدر الإمكان؛ لأُبين أنَّ آراءهم الواردة في البحث صادرة عن علماء كبار عندهم، كما قمت بتجريد الأعلام- السنة والاثني عشرية- من ألقابهم العلميَّة نحو: آية الله، حجة الله، العلامة، شيخ الإسلام، الأستاذ، الدكتور، شيخ ونحو ذلك، ما لم يكن اللقب موجودًا داخل نص منقول، وذلك حرصًا على الاختصار، وحتى يكون البحث أكثر إنصافًا، فلا يُقَدَّرُ طرف على حساب آخر.



المبحث الأول

تدبُّر القرآن بين الأخبارية والأصولية

تدبُّر القرآن بين الأخبارية[1] والأصولية[2].

(١) الأخبارية، والنسبة إليه: أخباري، وهي امتداد لمدرسة المحدثين المتقدمة، الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، علي بن الحُسَيْن القُمِّي (ت: ٣٢٩هـ)، والصَّدُوق (ت: ٣٨١هـ) ويرون منع الاجتهاد، والعمل بالأخبار، وأنَّ ما في كتب الأخبار الأربعة عند الاثني عشرية «الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والتهذيب، والاستبصار» كلها صحيحة قطعية الصدور عن الأئمة، ويقتصرون على الكتاب والخبر، ولذلك عُرفوا بالأخبارية نسبة إلى الأخبار، ويُنكرون الإجماع، ودليل العقل، ولا يرون حاجة إلى تعلم أصول الفقه، ولا يرون صحته. ومن أبرز شخصياتهم عبر التاريخ: مُحَمَّد أمِين الأسْتَرَابَادي (ت: ١٠٣٣هـ)، والفَيْض الكَاشَاني (ت: ١٠٩١هـ)، والقُمِّي الشِّيرَازي (ت: ١٠٩٨هـ)، وهَاشِم البَحْرَاني (ت: ١١٠٧هـ)، ومُحَمَّد بَاقِر المَجْلِسي (ت: ١١١٠هـ)، ونِعْمَة الله الجزَائِري (ت: ١١١٢هـ)، وعَبْدالله السَّمَاهيجي (ت: ١١٣٥هـ)، ويُوسُف البَحْرَاني (ت: ١١٨٦هـ)، والنُّوري الطَّبْرسي (ت: ١٣٢٠هـ) وغيرهم. ويتمركز الأخباريون حاليًّا في البحرين تحت مظلة أسرة آل عصفور، وقليل منهم في القطيف، وشيخهم محمد أبو المكارم الذي جاء خلفًا لوالده عبدالمجيد (ت: ١٤٢٣هـ)، وأفراد منتشرة في العالم.

(٢) الأصولية، والنسبة إليه: أصولي، وهي امتداد لمدرسة المجتهدين المتقدمة، الحَسَن بن أبي عَقيل العُمَاني (ت: ٣٦٩هـ)، وابن الجُنَيد الإسْكَافي (ت: ٣٨١هـ)، حيث يرون فتح باب الاجتهاد، وأن أدلة الأحكام هي: الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل، ولا يحكمون بصحة كل ما في الكتب الأربعة «الكافي، والتهذيب، والاستبصار، وما لا يحضره الفقيه»، كما فتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه، حتى تطور الأمر إلى القول بولاية الفقيه التي ساهم في نشرها الخُمَيْني (ت: ١٤٠٩هـ) مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

ومن أبرز شخصياتهم عبر التاريخ: زَيْن الدِّين العَامِلي (ت: ٩٦٦هـ)، والوحيد البهْبَهَاني (ت: ١٢٠٥هـ)، ومُحَمَّد مَهْدي بَحْر العلوم (ت: ١٢١٢هـ)، وجَعْفَر كَاشِف الغِطَاء (ت: ١٢٢٨هـ)، وعبدالله شُبَّر (ت: ١٢٤٢هـ)، والبَلَاغي (ت: ١٣٥٢هـ)، والزَّنْجَاني (ت: ١٣٦٠هـ)، ومُحَمَّد حُسَيْن المُظَفَّر (ت: ١٣٨١هـ)، ومُحَمَّد بَاقِر الصَّدْر (ت: ١٤٠٠هـ)، ومُحَمَّد هَادِي مَعْرِفَة (ت: ١٤٢٧هـ)، وجَعْفَر السُّبْحَاني، والكَوْرَاني وغيرهم. وتشكل الأصولية حاليًّا الأكثرية في العالم الاثني عشري، وما يوجد من مراجع في العالم هي تبع للأصولية مع التباين في مناهجهم. وقد حصلت صراعات عنيفة، ونزاعات قوية بين المدرستين «الأخبارية والأصولية»، وذلك عبر التاريخ، وصلت نتائجها إلى الإقصاء والقتل والاتهام بالفساد والتكفير، حتى إنَّ بعضهم كان يفتي بتحريم الصلاة خلف البعض الآخر، وورد عن بعض شيوخ الأخبارية أنه كان لا يلمس مؤلفات الأصوليين بيده تحاشيًا من نجاستها، وإنما يقبضها من وراء ملابسه. للاستزادة حول أخبار الصراع بين المدرستين ينظر: العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية محمد حسين كاشف الغطاء (ص:٨٦، ١٨٣، ٢٨٤).

من الصعب جدًّا أن نوجد حكمًا قاطعًا للاثني عشرية في موضوع التدبُّر القرآني بشكل عام، بل ينبغي التنبه إلى قضية اختلاف مدارسهم تجاه النصوص القرآنية وغيرها.

والذي يظهر: أنَّ التدبُّر القرآني غير حاضر عند المدرسة الأخبارية؛ لكونها ترى أنه لا يحق لأحد تفسير القرآن إلا عن طريق المعصوم، فإذا كان هذا في التفسير فإنَّ التدبُّر من باب أولى.

وقد ناقشوا هذه الفكرة تحت مسألة: «حُجيَّة ظواهر القرآن»، فذهبوا إلى القول بأنَّ ظواهر القرآن غير حجة، وأنه لا يجوز استنباط الأحكام والفوائد منها إلا بعد معرفة تفسيرها من كلام الأئمة[1].

قال مُحَمَّد أمِين الاسْتَرابَادي[2] (ت: ١٠٣٣هـ) الذي يُعد من علماء الأخبارية: «القرآن في الأكثر ورد على وجه التعمية بالنسبة إلى أذهان الرعية، وكذلك كثير من السُنن النبوية، وأنه لا سبيل لنا فيما لا نعلمه من الأحكام الشرعية النظريَّة أصلية كانت أو فرعية إلا السَمَاع من الصادقين، وأنه لا يجوز استنباط الأحكام النظريَّة من ظواهر كتاب الله، ولا من ظواهر السُنَن النبوية ما لم يُعلم أحوالهما من جهة أهل الذكر»[3].

كما نقل عَبْدالله السَمَاهيجي[4] (ت: ١١٣٥هـ)- الذي يُعد من علماء الأخبارية- موقفَهم تُجاه هذه المسألة فقال: «الأخباريون لا يجوِّزون الأخذ بظواهر القرآن إلا بما ورد في تفسيره عنهم عليهم السلام، أو ما وافق حديثهم؛ لأنه لا يَعرف القرآن إلا من خوطب به، ولأنَّ القرآن

(١) ينظر: وسائل الشيعة للحر العاملي (١٧٨/٢٧)، الحدائق الناظرة، يوسف البحراني (٦٤/١-٦٥)، الإسلام ومتطلبات العصر، مرتضى مطهري (ص:١٠٣)، مصادر الاستنباط بين الأصوليين والأخباريين، محمد عبدالمحسن الغراوي (ص١٠٦).

(٢) مُحَمَّد أمِين الأسْتَرَابَادي: محمد أمين بن محمد شريف، وهو أول من فتح باب الطعن على الأصوليين وجعلهم في قبال الأخباريين، من أهم كتبه: «الفوائد المدنية في الرد على من قال بالاجتهاد والتقليد في الأحكام»، قال عنه الحر العاملي في أمل الآمل (٢٤٦/٢): «فاضل محقق، ماهر متكلم، فقيه محدث، ثقة جليل، له كتب منها: الفوائد المدنية، وذكر فيها أنه شرع في شرح أصول الكافي، وشرح تهذيب الاستبصار»، جاور مكة، وتوفي بها سنة (١٠٣٣هـ). ينظر: معجم المؤلفين (١٤٧/٣)، أعيان الشيعة للأمين (١٣٧/٩).

(٣) الفوائد المدنية (ص١٠٤).

(٤) عَبْدالله السَمَاهيجي: البحراني، من علماء الشيعة وفقهائهم، من مؤلفاته الكثيرة: البلغة الصافية والتحفة الوافية، منظومة تحفة الرجال وزبدة المقال في علم الرجال، جواهر البحرين في أحكام الثقلين في الفقه وغيرها، قال عنه البَرُوْجِرْدي في طرائف المقال (٦٩/١): «هذا الشيخ كان أخباريًّا صرفًا كثير الطعن على المجتهدين»، توفي في بهبهان سنة (١١٣٥هـ). ينظر: أنوار البدرين للبلادي (ص:١٧٠)، الذريعة (٢١٠/٢٣)، معجم المؤلفين (٢٤٧/٢).

فيه محكم ومتشابه، والمُحكم بيّن لا شك فيه، وما عداه متشابه، والمتشابه لا يعلمه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة عليهم السلام»[1].

ولست هنا بصدد مناقشة هذا الرأي؛ فقد نُوقِشَ من قبل عدد من الأصوليين[2]، وكذلك بعض الدارسين من أهل السنة والجماعة[3]، ويكفيني في ذلك نصَّان لأحد المعصومين- كما يعتقدون، الذين يأخذون التفسير منه- يدعو إلى التدبُّر ويحث عليه، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبُّر»[4]، وقال جعفر الصادق ﷺ: «لو تدبَّر القرآنَ شيعتُنا لمَا شكُّوا في فضلنا»[5].

وقد أردت أن أُبيّن في هذا المبحث أنَّ ثمَّة فرقًا بين المدرستين: الأخبارية والأصولية فيما يتعلق بتدبُّر القرآن الكريم، فالأولى ترده، والأخرى تدعو إليه.

ومن ذلك نجد أبا جعفر الطُّوسي[6] (ت: ٤٦٠هـ) عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] يُفَسِّر الآية ثم يرد على المدرسة الأخبارية بقوله: «معناه: أفلا

---

(١) الفروق الأربعون بين الأخباريين والأصوليين من كتاب منية الممارسين (ص٢٩).

(٢) ينظر: حجية ظواهر الكتاب العزيز، وقفان خضير محسن الكعبي، البيان في تفسير القرآن للخوئي (ص٢٦١)، التفسير والمفسرون، محمد هادي معرفة (٧٤/١)، أصول التفسير والتأويل، كمال الحيدري (ص١١١).

(٣) ينظر: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ناصر بن عبدالله القفاري (١٤٢/١)، مصادر التلقي وأصول الاستدلال العقدية عند الإمامية الاثني عشرية، إيمان صالح العلواني (٢٧١/١)، الصراع بين الأخباريين والأصوليين، أحمد قوشتي عبدالرحيم (ص٧٣).

(٤) معاني الأخبار للصدوق (ص٦٧)، الكافي للكليني (٣٦/١)، وسائل الشيعة للحر العاملي (١٧٣/٦)، بحار الأنوار للمجلسي (٢١١/٨٩).

(٥) الهداية الكبرى للخصيبي (ص٤١٩)، بحار الأنوار (٦٢٨/٣١).

(٦) الطُّوسي: محمد بن الحسن بن علي، أبو جعفر، ولد في خراسان سنة (٣٨٥هـ)، ثم انتقل إلى بغداد سنة (٤٠٨هـ)، يعد من فقهاء الشيعة في وقته، قال عنه النجاشي في رجال ص:٤٠٣ «شيخ الإمامية، وتلميذ المفيد والمرتضى، وهو جليل من أصحابنا ثقة عين»، وقال عنه الحلي في خلاصة الأقوال ص٢٤٩: «ثقة عين صدوق عارف بالأخبار، والرجال، والفقه، والأصول، والكلام، والأدب، وجميع الفضائل تنسب إليه، صنف في كل فنون الإسلام»، من مؤلفاته: الاستبصار، تهذيب الأحكام، التبيان في تفسير القرآن، الفهرست وغيرها، توفي سنة (٤٦٠هـ). ينظر: نقد الرجال للتفرشي (١٨٠/٤)، طرائف المقال للبروجردي (ص:١٢٧)، الأعلام (٨٤/٦).

يتدبَّرون القرآن بأن يتفكروا فيه ويعتبروا به؟ أم على قلوبهم قُفْل يمنعهم من ذلك تنبيهًا لهم على أنَّ الأمر بخلافه، وليس عليها ما يمنع من التدبُّر والتفكر، والتدبُّر في النظر في موجب الأمر وعاقبته، وعلى هذا دعاهم إلى تدبُّر القرآن.

وفي ذلك حجة على بطلان قول من يقول: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع»[1].

(١) التبيان في تفسير القرآن (٣٠٣/٩).



المبحث الثاني

مصطلح «تدبر القرآن» من خلال أشهر تفاسير الاثني عشرية

بعد الحديث في المبحث الأول حول عدم حضور التدبُّر القرآني عند المدرسة الأخبارية، فهذا يعني أنه ليس ثمة حاجة لتسليط الضوء والبحث في تفاسيرهم؛ لأنها تقوم على الرواية عن المعصومين- كما يعتقدون- بالدرجة الأولى، نحو تفسير عَلي بن إبْرَاهيم القُمِّي (ت: ق٣هـ)[1]، الذي عدل عن تفسير آيات التدبُّر الأربع الواردة في القرآن الكريم[2]، حيث نجده قفز عن تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء]، وذهب إلى الآية التي بعدها فقال: «وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون] ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي: أخبروا به ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ يعني: أمير المؤمنين ﷺ ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] أي: الذين يعلمون منهم»[3].

وكذلك فُرَات بن إبْرَاهيم الكُوْفي[4] (ت: ٣٥٢هـ) الذي لم يتطرق على الإطلاق إلى تفسير آيات التدبُّر الأربع من خلال تفسيره.

---

(١) القُميّ: علي بن إبراهيم، قال عنه النَّجَاشي في رجاله (ص٢٦٠): ثقة في الحديث ثبت معتمد، صحيح المذهب، له كتاب التفسير، وفي الذريعة (٣٠٢/٤): شيخ الكليني، وقد أكثر الرواية عنه في الكافي، كان في عصر الإمام الحسن العسكري، وبقي إلى (٣٠٧هـ)، وجل ما رواه عن والده عن مشايخه، والغالب عن ابن أبي عمير بسنده أو مرسلًا عن الإمام الصادق، أو عن صفوان عن عبدالصمد عن أبي الجارود عن الإمام الباقر.

(٢) ورد لفظ التدبُّر في القرآن الكريم من خلال أربع آيات:

١- قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

٢- قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

٣- قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

٤- قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

(٣) تفسير القمي (١٥٣/١).

(٤) فُرَات بن إبْرَاهيم الكُوفي: صاحب التفسير الشيعي المعروف، توفي سنة (٣٥٢هـ). ينظر: الذريعة (٢٩٨/٤)، معجم رجال الحديث (٢٧١/١٤).

كما جعل الفيض الكاشاني[1] (ت: ١٠٩١هـ) المقدمة الثانية في تفسيره بعنوان: «في نبذة مما جاء في أنَّ علم القرآن كله إنما هو عند أهل البيت عليهم السلام»[2].

وفي المقدمة الخامسة جعلها بعنوان: «في نبذة مما جاء في المنع من تفسير القرآن بالرأي والسر فيه»[3].

قال مُرْتَضى مُطَهَّري[4] (ت: ١٤٠٠هـ) الذي يعتبر من الأصوليين: «الأخباريون لا يُجَوِّزون تفسير القرآن وفهمه إلا بعد مراجعة الأخبار والأحاديث، وربما تعجبتم إذا علمتم أنَّ بعض التفاسير التي كُتبت من قبل هؤلاء، إذا رأوا حديثًا في ذيل آية ذكروها، وإن لم يجدوا حديثًا امتنعوا حتى من ذكر الآية، وكأنَّ تلك الآية ليست من القرآن»[5].

ويبدو لي أنَّ من أوائل من تناول مصطلح التدبُّر من الاثني عشرية هو أبو جعفر الطُّوسي (ت: ٤٦٠هـ)، الذي يعتبر شيخ الطائفة، وذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]؛ حيث قال: «والتدبُّر: هو النظر في عواقب الأمور، وأصله: الدبر.

---

(١) الفَيْض الكَاشَاني: محمد محسن بن مرتضى بن محمود، الشهير بالفيض الكاشاني، من أهم مؤلفاته: الصافي في كلام الله، الوافي في التفسير، والوافي في شرح الكافي، قال عنه الحر العاملي في أمل الآمل (٣٠٥/٢): «كان فاضلًا، عالمًا، ماهرًا، حكيمًا، متكلمًا، محدثًا، فقيهًا، محققًا، شاعرًا، أديبًا، حسن التصنيف»، توفي سنة (١٠٩١هـ). ينظر: معجم المؤلفين (٦١٧/٣)، معجم رجال الحديث للخوئي (٢٢٦/١٨).

(٢) تفسير الصافي (١٩/١).

(٣) المصدر السابق (٣٥/١).

(٤) مُرْتَضى مُطَهَّري: ولد في خراسان الإيرانية سنة (١٣٣٨هـ)، عالم دين وفيلسوف شيعي، عضو مؤسس في شورى الثورة الإيرانية، من أبرز تلاميذ محمد حسين الطباطبائي، من مؤلفاته: العدل الإلهي، الإنسان في القرآن، الوحي والنبوة، التعرف على القرآن، في رحاب نهج البلاغة وغيرها، قال عنه الحسيني في تراجم الرجال (٨١٦/٢-٨١٨): «كان الأستاذ المطهري يمتاز بالأخلاق الفاضلة، والتواضع العلمي، والنشاط الدائب في مجال العلم والسياسة والتنظيم المتناهي في أعماله التحقيقية والتأليفية، وكانت نتيجة هذه الصفات أن استفاد من مطالعاته ودراساته أكبر فائدة، وخلَّف ثروة كبيرة من المؤلفات التي لقيت نجاحًا زائدًا عند القراء بمختلف مستوياتهم العلميَّة»، اغتيل سنة (١٣٩٩هـ). ينظر: مستدركات أعيان الشيعة لحسن الأمين (٢٥٢/١).

(٥) التعرف على القرآن (٢٧/١).

والتدابر: التقاطع؛ لأنَّ كل واحد يُولِّي الآخر دُبُرَه بعداوته له.

ودَبَر القومُ يَدْبُرون دَبارًا: إذا هلكوا؛ لأنهم يذهبون في جهة الإدبار عن الغرض. وأَدْبَرَ القوم: إذا وَلَّى أمرهم عن الرشد.

والدَّبْر: النَّحْل.

والدِّبْرُ: المال الكثير.

والتدبير: إصلاح الأمر لعاقبة.

وفي الحديث: «**لَا تَدَابَرُوا**»(١)؛ أي: لا تكونوا أعداء.

والفرق بين التدبُّر والتفكر: أنَّ التدبُّر تصرُّف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل»(٢).

ومن خلال هذا النص يُلاحظ أنه قد عرَّف التدبُّر من الناحية اللغوية، وهو المعروف لديهم في تلك الفترة؛ إذ لم يحتاجوا إلى إيجاد تعريف اصطلاحي للتدبُّر القرآني.

كما يُلاحظ أنه فرَّق بين التدبُّر والتفكر، وهو تفريق سبقه إليه أبو هِلَال العَسْكَري(٣) (ت نحو:٣٩٥هـ) في الفروق اللغوية(٤).

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: ما يُنهى عن التحاسد والتدابر (١٩/٨)، حديث رقم: (٦٠٦٥)، ومسلم في باب: النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر (١٩٨٣/٤)، حديث (٢٥٥٨)، عن أنس بن مالك ﷺ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**».

(٢) التبيان في تفسير القرآن (٢٧١/٣).

(٣) أبو هِلَال العَسْكَري: الحسن بن عبدالله بن سهل بن مهران العَسْكَري، عالم بالأدب، له شعر، من مؤلفاته: التلخيص في اللغة، جمهرة الأمثال، الفروق في اللغة، توفي بعد سنة (٣٩٥هـ). ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (٩١٨/٢)، والأعلام للزركلي (١٩٦/٢).

(٤) الفروق اللغوية (ص٧٥).

وقد قام الطَّبْرسي[1] (ت: ٥٤٨هـ) في تفسيره بنقل كلام الطُّوسي[2] (ت: ٤٦٠هـ) السابق دون الإشارة إلى مصدر النقل.

ونجد الطَّبَاطبَائي[3] (ت: ١٤٠٢هـ)- الذي يُعدُّ تفسيره من أشهر تفاسير الاثني عشرية في العصر الحديث- يُعرِّف التدبُّر عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] بقوله: «هو أخذ الشيء بعد الشيء، وهو في مورد الآية التأمُّل في الآية عقيب الآية، أو التأمُّل بعد التأمُّل في الآية، لكن لما كان الغرض بيانَ أنَّ القرآن لا اختلاف فيه، وذلك إنما يكون بين أزيد من آية واحدة، كان المعنى الأول- أعني التأمُّل في الآية عقيب الآية- هو العمدة، وإن كان ذلك لا ينفي المعنى الثاني أيضًا»[4].

يُلاحظ على تعريف الطَّبَاطبَائي (ت: ١٤٠٢هـ) أنه لم يُعرِّف التدبُّر بالمعنى العام، إنما تناول التدبُّر المراد بالآية، لكن يُفهم منه أنه عرَّف التدبُّر بأحد معانيه المقاربة له في اللغة وهو التأمُّل.

كما نجد نَاصِر مكَارِم الشِّيرَازي[5] يُعرِّف التدبُّر بتعريفه اللغوي، فيقول: «التدبُّر من مادة دبر، وهو تحقيق وبحث نتائج الشيء وعواقبه»[6].

ومن خلال عرض أبرز تعريفات التدبُّر الواردة في كتب أشهر تفاسير الاثني عشرية، يُلاحظ أنهم اعتمدوا التعريف اللغوي أو أحد معانيه الواردة عند أهل السنة والجماعة.

---

(١) الطَّبْرسي: الفضل بن الحسن بن الفضل أمين الدين، أبو علي الطبرسي، من علماء الشيعة الكبار، من مؤلفاته: مجمع البيان في تفسير القرآن، والوسيط في التفسير، والوجيز وغيرها، قال عنه التفرشي في نقد الرجال (١٩/٤): «ثقة، فاضل، دين، عين، من أجلاء هذه الطائفة، له تصانيف حسنة»، توفي سنة (٥٤٨هـ). ينظر: أمل الآمل (٢١٦/٢)، معجم المؤلفين (٦٦/٨).

(٢) ينظر: مجمع البيان (١٤١/٣).

(٣) الطَّبَاطبَائي: محمد حسين الطباطبائي، ولد في تبريز سنة (١٣٢١هـ)، هاجر إلى النجف سنة (١٣٤٤هـ) وتتلمذ على علمائها وحصل على درجة الاجتهاد، يعتبر من أعلام المذهب الشيعي في أواخر القرن الرابع عشر الهجري، من مؤلفاته: الميزان في تفسير القرآن، أصول الفلسفة، نهاية الحكمة وغيرها، قال عنه الحسيني في تراجم الرجال ٦٦٥/٢: «مدحه ميرزا حشمت بقصائد فارسية كثيرة مثبتة في ديوانه المخطوط، وهي تدل على جلالة شأن الممدوح، وعظيم مكانته العلميَّة، وقد وصفه بسيد الموحدين»، توفي في قم سنة (١٤٠٢هـ). ينظر: تذكرة الأعيان، جعفر السبحاني (٤٣١/٢).

(٤) الميزان في تفسير القرآن (١٩/٥).

(٥) نَاصِر مكَارِم الشيرازي: ولد في شيراز من إيران سنة (١٣٤٥هـ)، ويعتبر حاليًا من أشهر المراجع الشيعية في العالم، من مؤلفاته: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، آيات الولاية في القرآن، أمثال القرآن وغيرها. ينظر: موقعه الإلكتروني الخاص به: www.arabic.makarem.ir.

(٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (٣٧٨/١٦).



المبحث الثالث

مصطلح «تدبر القرآن» من خلال كتب مفردة للاثني عشرية

من الواضح جدًّا أنَّ موضوع التدبُّر القرآني ظهر متزامنًا من ناحية تأصيله والتنظير له بين أهل السنة والجماعة[1] والاثني عشرية، وذلك في وقت واحد، وبالتحديد في بداية القرن الخامس عشر الهجري[2].

وقد وقفت على ثلاثة كتب للاثني عشرية تناولت مصطلح التدبُّر وأبرز موضوعاته؛ وهي كالآتي:

الأول: التدبُّر في القرآن، لمحمد رضا الشيرازي[3] (ت: ١٤٢٩هـ): وهو كتاب يشرح كيفية فهم القرآن الكريم مع تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران.

وقال في مقدمة كتابه: «فهذه محاضرات مبسطة، تعبر عن تصورات أولية في التفسير، ألقيت على مجموعة من المؤمنين الكرام، مشفوعة بإضافات وتنقيحات، وقد أدرجتُ في مقدمتها كتاب: «كيف نفهم القرآن؟» الذي ألفته في غابر الزمان».

وبهذا يتضح أنَّ الكتاب عبارة عن تفسير للقرآن الكريم بالدرجة الأولى، إلا أنه عقد فصلًا من الكتاب- وهو الفصل الأول- حول أهمية تدبُّر القرآن الكريم، والمنهج في ذلك.

---

(١) ينظر: قواعد التدبُّر الأمثل، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، مفهوم التفسير والتأويل والتدبُّر، مساعد الطيار، تدبُّر القرآن الكريم: مفهومه، أساليبه، أسبابه، آثاره، فهد الوهبي، أبحاث الملتقى العلمي الأول والثاني للتدبُّر القرآني.

(٢) كتبت مقدمة الطبعة الأولى لكتاب قواعد التدبُّر الأمثل لعبدالرحمن الميداني في الثاني من شهر رمضان سنة (١٣٩٩هـ)، كما كتبت مقدمة الطبعة الأولى لكتاب: التدبُّر في القرآن لمحمد رضا الشيرازي في الثاني من شهر شوال سنة (١٣٩٩هـ).

(٣) محمد رضا بن محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي، النَّجْل الأكبر للمجدد الشيرازي الثاني، من أسرة قادت الزعامة والمرجعية في كربلاء، ولد ونشأ في كربلاء سنة (١٩٥٩م)، تتلمذ على والده وعمه صادق الشيرازي، كما سافر إلى إيران سنة (١٩٨٠م) فأكمل تعليمه في الحوزة العلميَّة بقم حتى أصبح مرجعًا، من مؤلفاته: التدبُّر في القرآن، الرسول الأعظم، أبحاث أصولية وغيرها، توفي في قم سنة (١٤٢٩هـ). ينظر: الموقع الإلكتروني الخاص به.

ولم أجده ذكر تعريفًا واضحًا لمصطلح التدبُّر في القرآن سوى أنه يُفرِّق بينه وبين التفسير[1]، فيرى أنَّ معرفة معنى الكلمة القرآنية هو من منهج التدبُّر القرآني، ومن ذلك قوله: «يتكون القرآن الكريم من كلمات، تمامًا كما يتكون البناء من لبنات، ولذلك فمن الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى لفهم القرآن الكريم هي التدبُّر في الكلمات القرآنية، ومع الأسف، فإنَّ بعضًا ممن يقرؤون القرآن لا يقومون بهذه المهمة، ولذلك فهم إمَّا ألا يفهموا معانيَ الكلمات، أو يفهموها بشكل مغلوط، أو بشكل باهت لا يعكس المدلول الدقيق للكلمة»[2].

ثم قام بذكر بعض الأمثلة منها عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف]؛ حيث قال: «قد يبدو للنظرة العابرة أنَّ كلمة «الملأ» في هذه الآية تعني: «الجماهير»، وعلى هذا الأساس فإنَّ الذين كفروا بـ«نوح» وغيره من الأنبياء كانوا عامة الناس، وهنا قد يُثار السؤال التالي: لماذا كفرت الجماهير برسالات الأنبياء؟ ألم تكن رسالات الأنبياء تدعو إلى فطرتهم وضمائرهم؟!

والحقيقة: أننا لو فتشنا حول مدلول كلمة «الملأ» لوجدنا أنها تعني: أشراف القوم الذين يملؤون العيون والصدور هيبة، كما تؤكده معاجم اللغة وكتب التفسير.

ومن هنا نستنتج: أنَّ الذين كفروا برسالات الأنبياء لم يكونوا «الجماهير»، وإنما كانوا «الأشراف» و«الوجهاء».

كما نستنتج من ذلك أنَّ رفضهم لرسالات الأنبياء لم يكن من أجل عدم اقتناعهم بها، وإنما من أجل الحفاظ على مصالحهم الشخصية»[3].

الثاني: التدبُّر في القرآن الكريم؛ لماذا؟ وكيف؟ محمد العوامي[4]: رسالة صغيرة تقع في (١١٦) صفحة، أجاب من خلالها عن سؤالين:

لماذا التدبُّر؟ وكيف تتم عملية التدبُّر؟

(١) التدبُّر في القرآن (ص٣٥، ٤٧).

(٢) المصدر السابق (ص٦٠).

(٣) المصدر السابق (ص ٦٥).

(٤) محمد العوامي: لم أجد له ترجمة وافية سوى أنه من مشايخ الاثني عشرية المعاصرين في مدينة سيهات شرقي السعودية، وله اهتمام بالموضوعات القرآنية، من مؤلفاته: التدبُّر في القرآن الكريم.

وبعد التمهيد للموضوع تناول تعريف كلمة «تدبُّر»؛ حيث نقل كلامًا عزاه إلى الطَّبْرسي (ت: ٥٤٨هـ)-الذي هو تعريف الطُّوسي (ت: ٤٦٠هـ) السابق في التدبُّر[١]- وكذلك نقل تعريف الرَّاغِب الأَصْفَهَاني[٢] (ت بعد: ٤٠٠هـ تقريبًا): «التدبير: التفكير في دبر الأمور»[٣]، كما نقل تعريف الطَّبَاطبَائي (ت: ١٤٠٢هـ) السابق[٤]، ثم علَّق بقوله: «وأظن أنَّ معنى التدبُّر أصبح واضحًا بتعريف العلماء الأعلام المتقدم، ولمزيدٍ من التوضيح أقول: إنَّ التدبُّر يعني التفكر والتأمُّل، واستخلاص العبرة، ووعي الفكرة، وعدم الاقتصار على الفهم السطحي لظاهر الآية وباطنها، واكتشاف الإشارات واللطائف، وإدراك المعاني واستيعاب الحقائق»[٥].

ثم ذكر مثالين يوضحان معنى التدبُّر لديه؛ منها قوله: «وإليك مثال توضيحي للتدبُّر في آيات الكتاب، والمثال عن هؤلاء المحرومين- أعني المنافقين- يقول الله تعالى عنهم: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] ما معنى ذلك؟ إننا نمر على هذا التشبيه للمنافقين بالأخشاب المسندة مرورًا عابرًا، ولا نفهم من ذلك سوى ظاهر العبارة، وهو أنَّ المنافقين كالأخشاب المُسَنَّدة، ولكن لا يكفي هذا الفهم العابر والسطحي.

فلنتدبَّر ولنتأمَّل، ماذا يعني هذا التشبيه؟ وإلى ماذا يُشير؟ ولنتوقف عند هذا الوصف طويلًا لأخذ العبرة.

أي: كأنهم أشباح بلا أرواح، شبههم الله في خلوهم من العقول والأفهام بالخُشُب المُسَنَّدة إلى شيء لا أرواح فيها، وقيل: إنه شبههم بخُشُب نخرة متآكلة لا خير فيها، ويحسب من رآها أنها صحيحة سليمة من حيث إنَّ ظاهرها يروق وباطنها لا يُفيد، فكذلك المنافق ظاهره مُعجِب رائع، وباطنه عن الخير زائغ، هكذا قال العلامة الطَّبْرسي في تفسيره.

---

(١) ينظر: مجمع البيان (١٤١/٣).

(٢) الرَّاغِب الأَصْفَهَاني: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم، أديب، من الحكماء العلماء، من أهل أصفهان، سكن بغداد واشتهر، من مؤلفاته: جامع التفاسير، المفردات في غريب القرآن، الذريعة إلى مكارم الشريعة وغيرها، توفي بعد سنة (٤٠٠هـ). ينظر: الأعلام للزركلي (٢٥٥/٢)، معجم المفسرين لنويهض (١٥٨/١).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص٣٠٧).

(٤) الميزان في تفسير القرآن (١٩/٥).

(٥) التدبُّر في القرآن الكريم: لماذا؟وكيف؟ (ص٤٢).

وبما ذكرنا يتبين أنَّ هذا الوصف هو وصف لباطن المنافقين، فهم في باطنهم كالخُشُب المُسَنَّدة، وفي ظاهرهم ما ذكره رب العالمين قبل ذلك في نفس الآية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وبعد، فهل نحن استفدنا عبرةً من ذلك؟ وهل استخلصنا فائدة؟ هل هذا التشبيه يصدق علينا أم لا؟ أم أنه يصدق علينا شيئًا ما؟

وهكذا نقف عند عبارات القرآن متأمِّلين متدبُّرين، لنفهم ونعي ونتحصل العبرة والفائدة»[١].

الثالث: التدبُّر الموضوعي في القرآن الكريم: وهو عبارة عن دروس ألقاها علي آل موسى[٢]، ثم جُمِعت في كتاب يقع في (٧٤٩) صفحة، قُسِّم إلى خمسة فصول.

ومن خلال اطلاعي على هذا الكتاب يتضح أنه ليس فيه من التدبُّر إلا اسمه، وغالب صفحاته تتأرجح بين قضايا التفسير لا التدبُّر، خاصة ما يُسمى بالتفسير الموضوعي.

بالرغم من أنه جاء في بداية الكتاب نقله لمعنى التدبُّر من خلال كتب اللغة، ثم قال: «وعلى هذا التوضيح يكون معنى التدبُّر في القرآن: معرفة عواقب الأمور؛ من لزوم العمل بمفاد الآيات ونتائجها»[٣].

وقال أيضًا: «فالتدبُّر: إعمال عميق للعقل في القرآن للحصول على الهدي الإلهي، واستخراج الأفكار، وبناء المواقف»[٤].

وواضح من خلال تعريفه أنه فرَّق بين التدبُّر بوصفه عملية عقلية، وما ينتج عن ذلك من ثمرة لهذه العملية، وهو تفريق جيد في نظري.

---

(١) التدبُّر في القرآن الكريم: لماذا؟وكيف؟ (ص٤٣-٤٥).

(٢) علي بن علي آل موسى: لم أجد له ترجمة وافية سوى أنه من مشايخ الاثني عشرية المعاصرين في مدينة سيهات شرقي السعودية، وله اهتمام بالموضوعات القرآنية، حاصل على درجة الماجستير حول «شعرية القلق في شعر بدر شاكر السيَّاب»، من مؤلفاته: التدبُّر الموضوعي في القرآن الكريم، القرآن والاستبداد السياسي، تأمُّلات في النماذج القرآنية.

(٣) التدبُّر الموضوعي في القرآن الكريم (ص ٢٣).

(٤) المصدر السابق ص ٢٣.



المبحث الرابع

الفرق بين التفسير والتدبر

انتبه بعض علماء الاثني عشرية إلى أهمية التفريق بين التفسير والتدبُّر، حيث يرى الخُمَيْني[1] (ت: ١٤٠٩هـ) أنَّ عدم التفريق بين مصطلح التفسير والتدبُّر أحال الناس عن الانفتاح على كتاب الله، واعتبر ذلك من الحجب المانعة من الاستفادة منه؛ فقال: «ومن الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النُّورانية: الاعتقاد بأنه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الشريف إلَّا بما كتبه المفسرون أو فهموه.

وقد اشتبه على الناس التفكر والتدبُّر في الآيات الشريفة بالتفسير بالرأي الممنوع، وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عاريًا من جميع فنون الاستفادة، واتخذوه مهجورًا بالكلية، في حال أنَّ الاستفادات الأخلاقية والإيمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي؟»[2].

ثم يضرب على ذلك أمثلة، منها قوله: «فمثلًا: إذا استفاد أحد من كيفية مذاكرات موسى مع الخضر، وكيفية معاشرتهما وشدِّ موسى رحاله إليه مع ما له من عظمة مقام النبوّة؛ لأَخْذِ العلم الذي ليس موجودًا عنده، وكيفية عرض حاجته على الخضر؛ كما ذُكرت في الآية الكريمة

---

(١) الخُمَيْني: مصطفى بن أحمد، ولد في خُـمَيْن بإيران سنة (١٣٢٠هـ)، درس في النَّجَف وسَامَرَّاء، وعاد إلى خُمَين، ومن ثمَّ انتقل إلى قم بعد نقل الحوزة العلميَّة إليها، وبدأ في تدريس الفلسفة والعلوم العقلية، وانتقلت إليه المرجعية الدينية بعد وفاة البرُوجِرْدي، سجن لمدة ثمانية أشهر في سجون إيران، مما أدى إلى قيام ثورة شعبية، فاضطرت الحكومة أن تطلق سراحه، فما إن خرج حتى أخذ في تحريض الشعب ضد حكومة البهلوي إلى أن أطاح بها، وقامت الجمهورية في إيران، من مؤلفاته: كشف الأسرار، رسالة الاجتهاد والتقليد، وكتاب الأربعين وغيرها، توفي في طَهْرَان سنة (١٤٠٩هـ). ينظر: مستدركات أعيان الشيعة (٣/٨٠-٨٣)، موقع ويكيبيديا الإلكتروني.

(٢) الآداب المعنوية للصلاة (ص٣٤٣).

الشريفة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف]، وكيفية جواب الخضر والاعتذارات التي وقعت من موسى؛ عظَمَة مقام العلم وآداب سلوك المتعلم مع المعلِّم، ولعلها تبلغ من الآيات المذكورة إلى عشرين أدبًا، فأي ربط لهذه الاستفادات بالتفسير فضلًا عن أن تكون تفسيرًا بالرأي، والاستفادة من هذا القبيل في القرآن كثيرة»[1].

ومن خلال فهمي لهذا النص؛ فإنه لا غبار عليه ما لم يكن التدبُّر منفصلًا عن التفسير[2]، بل ينبغي أن يكون الأول مبنيًّا على الآخر، ومنطلقًا من خلاله.

كما عقد علي آل موسى فقرة في كتابه «التدبُّر الموضوعي» تبيّن الفرق بين التفسير والتدبُّر، ولم يُظهر الفرق الجوهري بين المصطلحين، بل فرَّق بينهما بقوله:

(١) إنَّ التفسير مقصور على فئة خاصة، بينما حثت الآيات على التدبُّر للجميع.

(٢) يأتي التفسير شاملًا للقرآن المجيد، بينما يقتصر التدبُّر على سورة أو مقطع أو عدة مقاطع، أو موضوع من المصحف الشريف.

ثم قال: «ومن ثَمَّ فالعمل الذي نستهدف نحن القيام به هو التدبُّر، ومحاولة التأمُّل في آيات الله، واجتناء شيء من ذخائرها الوفيرة، وليس محاولة كتابة تفسير قرآني»[3].

---

(١) المصدر السابق (ص٣٤٣).

(٢) يرى الخميني أنَّ مصطلح التفسير «ما كان شارحًا لمقاصد الكتاب المُفَسِّر، والمُفَسِّر إذا فهم لنا المقصد من النزول، فهو مُفَسِّر سبب النزول كما هو في التفاسير». الآداب المعنوية للصلاة (ص٣٣٣).

(٣) التدبُّر الموضوعي في القرآن الكريم ص ٢٤.

النتائج والتوصيات

بعد الانتهاء من الحديث حول موضوع مصطلح «تدبُّر القرآن عند الاثني عشرية»؛ فإنه يجدر بي أن أذكر أبرز النتائج والتوصيات التي خرجت بها؛ وهي كالآتي:

أبرز النتائج:

- تدبُّر القرآن ممنوع عند المدرسة الأخبارية، بخلاف المدرسة الأصولية التي تجيزه وتدعو إليه.

- غالب مفسري الاثني عشرية اعتمدوا في تعريفهم للتدبُّر القرآني على تعريف الطُّوسي (ت: ٤٦٠هـ) في تفسيره التبيان، وهو التعريف اللُّغوي الذي كان معروفًا ومتداولًا عند السابقين، أو أحد معانيه الواردة عند أهل السنة والجماعة.

- تتزامن الكتابة حول تنظير موضوع التدبُّر القرآني بين أهل السنة والجماعة والاثني عشرية في وقت واحد؛ وهو بداية القرن الخامس عشر الهجري.

- وقفت على ثلاثة كتب للاثني عشرية تناولت مصطلح التدبُّر وأبرز موضوعاته.

- يُلاحَظ حماس بعض المعاصرين من علماء الاثني عشرية نحو أهمية التدبُّر القرآني والدعوة إلية[1].

---

(١) ينظر: التدبُّر في القرآن الكريم للشيرازي (ص٢٦)، الآداب المعنوية للصلاة (ص: ٣٣٩)، الأمثل في كتاب الله المنزل (٣٧٨/١٦)، التدبُّر الموضوعي في القرآن الكريم (ص٢٥)، التدبُّر في القرآن الكريم للعوامي (ص:١٨).

وهذا أمر في غاية الروعة، ولكن السؤال:

هل هذا التدبُّر سيوصلهم إلى استنطاق بعض آيات القرآن الكريم التي يحاولون الفرار منها؟!

فعندما يتلون قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، هل تدبُّرهم سيوصلهم إلى بيان فضل أبي بكر الصديق[1] ﷺ؟!

وعندما يتلون قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح] هل تدبُّرهم سيوصلهم إلى بيان منزلة الصحابة ﷺ عند الله تعالى؟!

أبرز التوصيات:

- الدعوة إلى الكتابة حول موضوع: «منهج الاثني عشرية في تدبُّر القرآن الكريم».
- دعوة الحكومات السُنّية إلى الاهتمام بإنشاء حلقات لتلاوة القرآن الكريم في أوساط مناطق الاثني عشرية التابعة لهم؛ لما في ذلك من أثر عظيم عليهم نحو معرفة الحقيقة.

(١) تنظر: مناقشة أهل السنة والجماعة للاثني عشرية حول هذا الموضوع من خلال: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١١٣/٤)، غرائب التفسير للنيسابوري (٤٧١/٣)، منهاج السنة لابن تيمية (٢٩٧/٨، ٣٧٢)، تفسير المنار لرشيد رضا (١٤٥/١٠، ٣٨٦).



ثبت المراجع والمصادر

- أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ناصر بن عبدالله القفاري، ط١، ١٤١٤هـ
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٧، ٢٠٠٧م.
- تدبُّر القرآن الكريم: أساليبه، أسبابه، آثاره، فهد بن مبارك الوهبي، الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم، السعودية، ط١، (١٤٣٥هـ-٢٠١٤م).
- تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»، محمد رشيد بن علي رضا (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٠م).
- الصراع بين الأخباريين والأصوليين داخل المذهب الشيعي الاثني عشري: أصوله وأبعاده، أحمد قوشتي عبدالرحيم، تكوين للدراسات والأبحاث، لندن، ط٢، (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ)، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، (١٤١٦هـ).
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت نحو: ٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- الفِصَل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- مصادر التلقي وأصول الاستدلال العقدية عند الإمامية الاثني عشرية، إيمان صالح العلواني، دار التدمرية، الرياض، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.



- معجم الأدباء «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»، ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (توفي بعد: ٤٠٠هـ)، تحقيق: صفوان داودي، ط١، ١٤١٢هـ



ثبت المراجع والمصادر الاثنى عشرية

- الآداب المعنوية للصلاة، الخميني (ت: ١٤٠٩هـ)، تعريب: أحمد الفهري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).
- أصول التفسير والتأويل، كمال الحيدري، دار فرقد، إيران، (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م).
- أعيان الشيعة، محسن الأمين (ت: ١٣٧١هـ)، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٦هـ
- الأمثل في تفسير كلام الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ط٢.
- أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، علي بن حسن البلادي (ت: ١٣٤٠هـ)، مراجعة: محمد علي محمد رضا الطبسي، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٧٧هـ
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (ت: ١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، (١٤٠٣هـ).
- البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت: ١٤١٣هـ)، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، ط٣، (١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م).
- التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، قم، ط١، ١٤٠٩هـ
- التدبُّر في القرآن، محمد رضا الشيرازي (ت: ١٤٢٩هـ)، دار العلوم، بيروت، ط٣، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- التدبُّر في القرآن الكريم، لماذا؟ وكيف؟ محمد العوامي، مؤسسة القرآن نور، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.



- تذكرة الأعيان، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق، ط١، ١٤٢٩هـ.
- التعرف على القرآن، مرتضى مطهري (ت: ١٤٠٠هـ)، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفة (ت: ١٤٢٧هـ)، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، مشهد، ط٢، ١٤٢٥هـ.
- حجية ظواهر الكتاب العزيز، وقفان خضير محسن الكعبي.
- الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، يوسف البحراني (ت: ١١٨٦هـ) نشره: علي الآخوندي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، أغا بزرك الطهرني (ت: ١٣٨٩هـ)، دار الأضواء، بيروت، ط٣، (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).
- العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية، محمد حسين آل كاشف الغطاء (ت: ١٣٧٣هـ)، تحقيق: جودت القزويني، بيسان، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- فهم القرآن: دراسة على ضوء المدرسة العرفانية، جواد علي كسّار، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط٢، ٢٠١٠م.
- الفوائد المدنية، الأسترابادي، تحقيق: رحمة الله الرحمتي الأراكي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤٢٤هـ.
- الكافي، محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر غفاري، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.

مجمع البحرين، الطريحي (ت: ١٠٨٥هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مكتب النشر الثقافة الإسلامية، ط٢، (١٤٠٨هـ).

- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ)، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط١، (١٤١٨هـ).

• معاني الأخبار، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق (ت: ٣٨١هـ)، تحقيق: علي أكبر غضاري، انتشارات إسلامي، إيران، (١٣٦١هـ).

• معجم رجال الحديث، أبو القاسم الخوئي (١٤١٣هـ)، مركز المعجم الفقهي في الحوزة العلميَّة، قم، ط، (١٤١٣هـ).

• الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي (ت: ١٤٠٢هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

الهداية الكبرى، الحسين بن حمدان الخصيبي (ت: ٣٣٤هـ)، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، (١٤١١هـ-١٩٩١م).

• وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت: ١١٠٤هـ)، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ط٢، ١٤١٤هـ.

الجلسة الرابعة

المؤلفات في التدبُّر قراءة وتحليل (الكتب النظرية)

أوراق العمل

الورقة الأولى ٥١١

مفهوم وضوابط التدبُّر في كتاب معارج التفكر ودقائق التدبُّر

د. مجد بن أحمد بن سعيد مكي

الورقة الثانية ٥٤١

كتب المفاتيح والأسباب والموانع (دراسة وصفية تحليلية)

د.أبو بكر بن محمد فوزي البخيت

الورقة الثالثة ٥٧٥

تحليل المؤلفات في تدبُّر القرآن (المقررات والمناهج)

د. فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي

الورقة الرابعة ٦١١

المؤلفات في التدبُّر قراءة وتحليل (الكتب النظرية)

د. محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي

الورقة الأولى

مفهوم وضوابط التدبُّر في كتاب معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر

للعلامة: عبدالرحمن حبنكة الميداني

إعداد

مجد بن أحمد بن سعيد مكي

السيرة الذاتية

الاسم: محمد بن أحمد بن سعيد مكي

ولد في مدينة حلب في شهر رمضان (١٣٧٦) الموافق ١٩٥٧/٤/١٠م.

المؤهل العلمي:

- الماجستير في قسم الكتاب والسنة (جامعة أم القرى، كلية أصول الدين، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ).

- يحضر الدكتوراه في جامعة الملك محمد الخامس بالرباط في التفسير والحديث الشريف.

النتاج العلمي والخبرة العلمية:

- أقوال الحافظ الذهبي النقدية في علوم الحديث من كتابه سير أعلام النبلاء، رسالة ماجستير.

- مقدمات الشيخ علي الطنطاوي (جمع وتقديم).

- فتاوى مصطفى الزرقا (جمع وعناية).

- البيان في أركان الإيمان (تأليف).

- الجمان في أصول الإيمان (تأليف).

- العقيدة الإسلامية، للمكي بن عزُّوز (شرح ودراسة).

- الإنصاف في أحكام الاعتكاف، للكنوي (تحقيق).

- جياد المسلسلات في علوم الحديث، للسيوطي (تحقيق).

- من ذخائر السنة، للعلامة الشيخ طه الساكت، (جمع وترتيب وتحقيق وتقديم) في مجلدين كبيرين.

- التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، للميداني (تأليف).

المقدمة

دعتني الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم للمشاركة في مؤتمرها الثاني الذي سيعقَدُ- بمشيئة الله تعالى- في المملكة المغربيَّة، وطلبتْ مني المشاركة في محور المؤلفات في التدبُّر (كتب المفهوم والضوابط)، ثم تكرَّمتْ بإرسال قائمة كبيرة متنوعة بأسماء الكتب المقترحة والبحوث والدراسات والرسائل العلميَّة للقراءة والتحليل.

واستحسنتُ أن أكتب كلماتٍ موجَزاتٍ عن كتاب شيخنا عبدالرحمن حبنكة الميداني (معارج التفكُّر)، الذي أقامه على أسس علمية دقيقة، وضوابطَ معرفيَّةٍ صارمة.

ولي صلة بهذا الكتاب وبمؤلِّفه، فهو يعَدُّ شيخي الأول في علم التدبُّر، مع انتفاعي واستفادتي من علماءَ كثيرين سابقين ولاحقين.

وأقدِّم في هذه الصفحات تعريفًا بجهده، وبيانًا للمفاهيم التي أوضحها، والضوابط التي التزمها في تدبُّره لكتاب الله سبحانه.

قدّم العلَّامة المفكر المفسر فضيلة الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني للمكتبة الإسلامية الكثير المبارك من المؤلفات، التي تقارب الثلاثين مجلدًا في عدة سلاسل علمية: في الدراسات القرآنية، وفي طريق الإسلام، وسلسلة أعداء الإسلام، ومن أدب الدعوة الإسلامية. فضلًا عن غيرها من الكتب والدراسات المتنوعة، ويبلغ عددُ صفحات ما كتبه ٢٣٦٤٠ صفحة مطبوعة، وكلُّها من بدائع الأفكار، وروائع الحكم، وأصيل العلم، ودقيق الفهم.

ويأتي في قمة إنتاجه العلمي كتابه الأخير «معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر»، وهو تفسيرٌ تدبُّري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النُّزول، وَفْقَ منهجِ كتابِ «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب

الله ﷻ»، وقبل إلقاء بعض الأضواء على منهجه في هذا الكتاب، نشير إلى لمحات موجزة من حياة العالم الرباني القرآني الشيخ عبدالرحمن حبنكة- رحمه الله تعالى.

وأشير- قبل ذكر هذه اللمحات في ترجمته- إلى أنَّ زوجته ورفيقة دربه العلميِّ والدعويِّ الطويل، السيدة عائدة راغب الجراح، التي توفيت قبله بعامين في مكة المكرمة ١٤٢٣/٥/١٤هـ، رحمها الله تعالى، الأستاذة بجامعة أم القرى سابقًا، كتبت دراسةً موجزة عن زوجها، بعنوان: «عبدالرحمن حبنكة الميداني العالم المفكِّر المفسِّر، أو: زوجي كما عرفته»، وهي سابقة نادرة في فنِّ التراجم؛ إذ عرفنا الكثير من التلاميذ الذين يترجمون لشيوخهم، والأبناء الذين يترجمون لآبائهم، وأما ترجمة الأزواج لأزواجهم فهو نادر جدًّا، وهو دليلُ تأثرها بمنهج زوجها، وعنوان صدق مودَّتها له، وخاصَّةً أنها كانت نِعْمَتِ الزوجةُ، التي هيّأت لزوجها ظروف العمل العلمي الكبير الذي قام به، ولذلك كان يثني عليها في الكثير من كتبه، ومن ذلك قوله في ختام كتابه «الأخلاق الإسلامية» ٢/ ٦٦٧: «واللهَ أسألُ أن ينفع به، ويكتبَ له القَبُول في الأرض، ويضاعفَ به الأجرَ لي ولزوجتي التي هيّأت لي الجوَّ الملائمَ لكتابته، وكانت خيرَ حاثٍّ لي على إتمامه...».



ترجمة مختصرة

سيرة حافلة:

وُلد الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن مرزوق -رحمه الله- في عام ١٣٤٥هـ الموافق لعام ١٩٢٧م في حيِّ الميدان من مدينة دمشق، لأبٍ من كبار علماء دمشق، هو فضيلة العلامة المجاهد المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني.

وقد قام فضيلة الشيخ عبدالرحمن بالتعريف بوالده الداعية الحكيم المعلم المربي المجاهد في كتابٍ حافلٍ واسع، يُعدُّ وثيقةً علمية وتاريخيةً، وصدر في دار القلم بدمشق سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م في أكثر من ٤٠٠ صفحة.

نشأة مباركة:

نشأ الشيخ في بيت العلم والدعوة في كنف والده الإمام، الذي كان له فضل تربيته وتأديبه وتعليمِه علومَ الإسلام، وانتظامِه في سلك طلَّاب علومِ الشريعة الإسلاميةِ في مدرسة والده (معهد التوجيه الإسلامي) التي أسَّسها ورعاها، وربَّى طلابها، وعلَّمهم بنفسه حتى آتت أكلَها طيبةً مباركة.

معهد التوجيه الإسلامي مؤسسة علمية جامعة:

وكان التعليم في تلك المؤسسة العلميَّة الجامعة على طريقة الأقدمين، في حلقات علميَّة يتعلم فيها الطلاب ويعلِّمون، ويستفيد بعضهم من بعض، وكانوا يتدرَّجون في دراسة المواد

العلميَّة، بدءًا من جذورها، وانتهاء إلى فروعها، من الرسائل العلميَّة الصغيرة في كلِّ فنٍّ من فنون العلم تدرُّجًا في المستويات، وارتقاءً في التحصيل إلى الكتب العلميَّة الكبرى، وهذا منهج علميٌّ أصيل دَرَجَ عليه السلف الصالح بتعلُّمِ المسائل الصِّغار قبلَ الكبار، والتدرُّج في طلب العلم مرحلةً تلوَ مرحلةٍ، مع العمل بالعلم، والتحلِّي بأخلاق العلماء الربَّانيين.

وكان الشيخ الوالد العلَّامة المجاهد حسن حبنكة الميداني ﷺ يتعهّد طلابه بالتربية العلميَّة الدعوية، حيث يكلِّفُ طلاب المعهد بإعداد الدروس والخطب، وكتابةِ المحاضراتِ وإلقائِها في المساجد، مما جعلهم يتمرَّسون على مواجهة الناس وتعليمِهم وتربيتهم.

أبرزُ خريجي المعهد:

وقد تخرَّج في هذه المدرسة نخبة من كبار العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ صادق حبنكة شقيق الشيخ حسن، وحامل لواء مدرسته في دمشق بعد وفاة أخيه رحمهما الله تعالى، والعالم القارئ الخطيب الشيخ حسين خطاب شيخ قراء دمشق ﷺ، والشيخ الدكتور مصطفى الخن ﷺ، والشيخ كريِّم راجح حفظه الله تعالى شيخ قراء دمشق بعد وفاة الشيخ حسين خطاب ﷺ، وغيرُهم من العلماء.

متابعة الدراسة والتحصيل:

تخرَّج الشيخ عبدالرحمن في هذا الصَّرح العلميِّ الكبير سنة ١٣٦٧هـ، وأُسنِدَ إليه تدريسُ موادَّ مختلفةٍ في الفقه والأصول والتوحيد والمنطق والبلاغة، حتى سنة ١٣٧٤هـ؛ إذ انتسب إلى كلية الشريعة في الأزهر حتى حاز الشهادةَ العالية مع إجازةٍ في التدريس.

وبعد تخرُّجه في الأزهر درَّس في ثانويات دمشق العلوم الشرعية، وعُيِّن مديرًا للتعليم الشرعي في وزارة الأوقاف، وانتقل إلى العمل في المملكة العربية السعودية بعد عام ١٣٨٧هـ=



١٩٦٧م، وعمل أستاذًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض لمدة سنتين، ثم انتقل عمله إلى مكة المكرمة، فعمل أستاذًا في جامعة أم القرى قرابة ثلاثين عامًا، وأُسند إليه تدريس موادَّ مختلفةٍ في الثقافة الإسلامية، والغزو الفكري، والمذاهب الفكرية المعاصرة.

ولمَّا بلغ عمره المبارك سبعين عامًا، أُعْفِيَ من العمل الرسمي، واختير في هذه الأثناء عضوًا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، كما اختير عضوًا في مجلس هيئة الإغاثة الإسلامية العالميَّة.

وبعد تفرغه من العمل الوظيفي الرسمي في الجامعة، اتَّجه بكلِّ ما يملك من صحة ووقت وقوة وجهد لتدبُّر كتاب الله الذي سنُلِمُّ بأطراف يسيرة منه في هذه الصفحات.

مع كتاب الله ﷻ:

من الجدير بالذكر أن جهود الشيخ العلميَّة ومؤلفاتِه الموسوعيةَ، أكثرها يدور حول كتاب الله ﷻ، جمعًا للآيات المتعلقة بموضوع كتابه، وترتيبًا لها حسب منهج الشيخ في تتبُّع مراحل النُّزول، وتحليلًا لألفاظ الكلمة القرآنية، واستقراءً لها، وانتهاءً بالنظريَّة العلميَّة الشاملة، والوحدة الموضوعية الجامعة.

وهذا الاهتمام الكبير، والحفاوة العظيمة بكتاب الله ﷻ، يجده المطالع لكتبه واضحًا في أكثر مؤلفاته، كما في كتاب «العقيدة الإسلامية»، و«الأخلاق الإسلامية»، و«الحضارة الإسلامية»، و«فقه الدعوة إلى الله ﷻ»، و«بصائر للمسلم المعاصر»، و«ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين»، التي تعدُّ جميعُها نوعًا فريدًا متميِّزًا في التفسير الموضوعي لكتاب الله ﷻ.

ويأتي في مقدِّمة ثمار جهوده العلميَّة خلال أربعين عامًا- التي بدأ ظهورها منذ سنة ١٣٨٥هـ حتى يومنا هذا- كتابُه الفذُّ الفريد: «معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر»، فهو نتيجة دراسات طويلة متأنية، وبحوث قرآنية متنوعة، وتأمُّلات فكرية عميقة.

مقدِّمة وافية وخطة شاملة:

وإذا كانت عادة الكثير من المؤلفين أن يكتبوا مقدِّمةَ كتبِهم بعد الانتهاء من تأليفها، ووضع خططها ومعالمها؛ ليَذْكُروا ما توصَّلوا إليه من نتائج، وما قدَّموه من أفكار؛ فإنَّ الشيخ كالمهندس الخبير، والبنَّاء القدير، قد خطَّط لكتابه، ورسم منهجه فيه، وكتب مقدمته الوافية قبل البدء بتدبُّره العميق لكتاب الله ﷻ، وذلك في كتابه الرائع: «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ»، وهو كتاب مُتميِّز فريد في ميدانه، جمع فيه ما استخرجه من قواعدَ لتدبُّرِ كتاب الله، وكان يشتمل في طبعته الأولى سنة ١٤٠٠هـ على سبع وعشرين قاعدة من قواعد التدبُّر، ثم استخرج قواعد أخرى، فأضافها حتى أصبحت أربعين قاعدةً، وأضاف إليها أمثلةً أخرى استخرجها للقواعد السابقة واللاحقة، وصدرت طبعته الثانية ذات الأربعين قاعدة سنة ١٤٠٩هـ، وكان الشيخ ﷺ يهيِّئ لطبعة جديدة فيها زيادة من الأمثلة والشواهد بعد تدبُّره العميق للكثير من السور القرآنية.



قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ

وهذه القواعد في تدبُّر كتاب الله لم يسبقه إلى استخراج معظمها باحثٌ قبله، وهي نتيجةٌ لدراسة دائبة، وبحوثٍ متواصلةٍ، وتأمُّلاتٍ واسعةٍ، وصُحبةٍ مستمرةٍ لكتاب الله ﷻ.

ويُعَـدُّ الشيخ بحقٍّ رائدَ علمِ التدبُّر لكتاب الله سبحانه في هذا العصر.

بين التفسير والتدبير:

وهو ﷺ لا يرى استخدام كلمة التفسير، التي لا تتعدَّى بيان المعنى وإيضاحه دون الغوص في دلالات الألفاظ وسَبْر المعاني، وبيانَ ارتباطِ الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطِها الموضوعيِّ بما تفرَّق في القرآن المجيد.

وقد استغرقت مقدِّمة التفسير «قواعد التدبُّر الأمثل» أكثر من ٨٠٠ صفحة، بعد أن ظهرت نَوَاتُهُ في طبعتها الأولى في ١٧٤ صفحة من القطع الصغير، وهي مقدمة مهمة هادية لمن أراد أن يتدبَّر كلام الله بصورة مثلى، وهي ذات نفع عظيم للمتدبِّر، وتصلح أن تكون منهجًا يستفيد منه المتدبِّرون لكتاب الله تعالى، ويضيفون إليه ما يفتح الله به عليهم.

وقد مهَّدت الدراسات السابقة الواسعة، والنشأة العلميَّة الصالحة، والذكاء الفطري، والنبوغ المبكِّر، والعمل المتواصل الدؤوب، والمؤهِّلات العلميَّة المتنوّعة- من إلمام واسع باللغة العربية نحوِها وصرفِها وبلاغتِها- لإظهار تفسيره التدبُّري النافع.

ومن نظر في كتاب الشيخ «البلاغة العربية» في مجلديه الكبيرين، شهد على إمامته في علم البلاغة الذي لا بد منه لمتدبِّر كتاب الله، وساعَدَه على تميُّزِ كتابِه التدبُّريِّ أيضًا تمكُّنُه من

العلوم العقلية، ويشهد له مناقشاته العلميَّة الرائعة، ومناظراته الفكرية المدحضة لشبهات المغْرِضين والمشكِّكين، كما تجد ذلك في «سلسلة أعداء الإسلام»، ابتداءً بصراعه مع الملاحدة حتى العظم، وانتهاءً بكشف تحريفات شحرور وتضليله المتعمَّد في نصوص القرآن والسنة في كتابه «التحريف المعاصر في الدين»، وقبله «أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجَّهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية»، وقد وفَّقه الله تعالى- بما حَبَاه من فكرٍ نيِّر، وعقلية ناضجة- إلى صياغة علم المنطق وأصول البحث صياغة متماشية مع الفكر الإسلامي في كتابه «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة».

هذه العوامل المتعدِّدة هيَّأت الشيخ- بفضل الله وتوفيقه- للسموِّ صعودًا في «معارج التفكر»، وعمقًا في «دقائق التدبُّر».

وجاء هذا العطاء العلمي الكبير في اكتمال نضج الشيخ، بعد دراسات كثيرة، وبحوث مستفيضة، ولقد سُئل الشيخ ﷾ عن سبب تأخره في كتابة تفسيره وتدبُّره لكتاب الله، وهو في السبعين من عمره المبارك، وقد يقطع الأجل عن تحقيق الأمل! فأجاب قائلًا: «لو شرعت في التدبُّر قبل ذلك لما استطعت أن أكتبه بهذا المنهج». وإنه جواب سديد، وحكمة بالغة، فما أكثرَ المتعجِّلين الذين يقدِّمون للمكتبة القرآنية دراساتٍ فجَّة، وأعمالًا قاصرة! وما أكثر الذين يخوضون في كتاب الله دون مؤهِّلات تؤهِّلهم، ودون دراسات واسعة توجِّههم! ولكنَّه حُبُّ التكثُّرِ والظهور، وتسويدِ الأوراق.

تدبُّر سورة الفرقان:

أصدر الشيخ بعد ثلاث سنوات من صدور كتابه «قواعد التدبُّر الأمثل» أنموذجًا علميًّا يطبِّق فيه هذه القواعدَ التي رسمها، وخطَّط لها، ودعا إلى العمل بها في كتابه «تدبُّر سورة الفرقان في وحدة موضوع السورة»، وكان إصداره عام ١٤١٢هـ، وتبلغ صفحاته ٤٥٠ صفحة، بيَّن فيه المؤلف الموضوع الذي تدور عليه آيات السورة، وقد اكتشف بعد الدراسة المتأنية أن موضوع سورة الفرقان تُعبِّر عنه الآية الأولى منها: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١]، فموضوعها يدور حول أربعة خطوط: «الله، القرآن، الرسول، المرسل إليهم».

نظام السورة الشجري:

ويرى الشيخ- بعد دراسته الطويلة المتأنية- أنَّ منهج وحدة موضوع السورة القرآنية منهج شَجريٌّ، لا يُشترَطُ فيه أن تكون كلُّ آية مرتبطةً بالتي قبلها ارتباطَ حلقات السلسلة بعضِها ببعضٍ، بل إنَّ الارتباط يكون بفرع من فروعها، فقد تكون آية أو اثنتان أو ثلاثة أو أكثر وحدةً مرتبطةً بفرع أو أكثر من فروع الشجرة، ثم تأتي وحدة أخرى لها ارتباط آخر، وتأتي وحدة ثالثة لها ارتباط ثالث، ثم قد يتكرَّر ارتباط الوحدات الجديدات بواحد أو بأكثر من الفروع الأربعة الأصول.

وهذه النظريَّة في وحدة السورة بالنظام الشجريِّ ممَّا فتح الله به عليه، لم يَسبِقْ أحد إلى تأصيله قبل المؤلف ﷺ إذ إنَّ الكثير من المؤلفين يتعاملون مع السورة على طريقة ترابط حلقات السلسلة، وكما هو الشأن في المؤلفات التي تعتمد على الأبواب والفصول والمباحث، وبذلك وقعوا في واحدٍ من خطأين: إما خطأُ انتزاعِ ارتباطٍ متكلَّفٍ مَمْجوجٍ لا يقبله البليغ، وإما خطأُ تصوُّرِ أنَّ السورة مُفكَّكةُ الموضوعاتِ، ليس لها وحدة موضوعية.

والمتأمِّل فيما قدَّمه الشيخ ﷺ من تدبُّر سورة الفرقان، يجد أنه قدَّم تدبُّرًا نافعًا فريدًا، وعملًا رائدًا مبتكرًا، وقد تطلَّع طلاب العلم وعلماء التفسير إلى أن يقدِّم لهم المزيد من هذه الدراسات القرآنية، فتوجَّه الشيخ لكتابة تفسيره التدبُّري الذي سنُلِمُّ بلمحاتٍ موجزات حوله.



معارج التفكر ودقائق التدبُّر

تعريف عامٌّ:

يقول الشيخ ﷺ في مقدِّمة السِّفر الأول من «معارجه» ١-٥: «وبعد، فقد فتح الله ﷻ عليَّ خلال تدبُّري الطويل لكتابه المجيد، باستخراج أربعين قاعدة من قواعد التدبُّر الأمثل لكتابه، قابلة للزيادة عليها، وهذه القواعد تقِّدم للمتدبِّرين أصول التفسير الأقوم للقرآن، ولم أجد في المفسِّرين من اهتمَّ بالتزام مضمونها، ولا بالتزام كثير منها.

وقد رأيتُ من الواجب عليَّ أن أقدِّم ما أستطيع تقديمه من تدبُّر لسور هذا الكتاب العزيز المعجز، ملتزمًا- على مقدار استطاعتي- بمضمون القواعد التي فتح الله بها عليَّ، مع الاعتراف بأنَّ التزامها التزامًا دقيقًا وشاملًا عسيرٌ جدًّا، بل قد يكون بالنسبة إلى متدبِّر واحد متعذِّرًا».

ويقول ﷺ: «وإذا لم تُسعف القدرات، ولم يسعف العمر باستكمال هذا التدبُّر لكلِّ القرآن المجيد، فإنَّ من المفيد جدًّا أن أقدِّم ما يفتح الله الوهَّاب لي فيه، عسى أن يُتمَّ العملَ متدبِّرون لاحقون مُحتذين أو مضيفين أو معدِّلين».

ترتيب النُّزول:

أقام الشيخ تدبُّرَه على وَفْق ترتيب نزول سور القرآن، الذي جعله من أهمِّ قواعد التدبُّر لكتاب الله ﷻ كما في القاعدة التاسعة من كتابه «قواعد التدبُّر الأمثل»- في تتبُّع مراحل التَّنزيل، معتمدًا على ما أثبت علماء القراءات والتفسير منها في الجدول الذي ذكر فيه أسماء السور المكيةِ والمدنيةِ وترتيبَها حسب النُّزول.



يقول ﷺ مُبيِّنًا سبب اختياره هذا المنهج في مقدِّمة السِّفْر الأول من «معارج التفكّر» ١- ٦: «وقد رأيت بالتدبُّر الميداني للسور أنَّ ما ذكره المختصُّون بعلوم القرآن الكريم من ترتيب النُّزول، هو في معظمه حق، أخذًا من تسلسل البناء المعرفي التكاملي، وتسلسل التكامل التربوي، واكتشفت في هذا التدبُّر أمورًا جليلة تتعلَّق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين، وحركة المعالجات التربوية الربَّانية الشاملة للرسول ﷺ، وللذين آمنوا به واتَّبعوه، وللذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول مترددِّين، أو مكذِّبين كافرين».

وقد سبق الشيخَ لتتبع مراحل النُّزول في التفسير عالمان معاصران، أحدهما: محمد عزة دروزة (١٣٠٥- ١٤٠٤هـ) في «تفسيره الحديث»[1]، وثانيهما: الشيخ عبدالقادر ملا حويش (١٨٨٨- ١٩٧٨) في تفسيره «بيان المعاني»[2] على ما في عملهما من إعوازٍ وقصور، وعَثَرات وسقطات.

المحافظة على ترتيب سور القرآن:

وقد ظنَّ بعض المتعجِّلين في إصدار الأحكام، أنَّ الشيخ يدعو في تطبيقه هذا المنهج إلى تغيير ما توارثه المسلمون من ترتيب سور القرآن!

والحق أن هذا الظن عارٍ عن البرهان، فالشيخ يؤكِّد على ضرورة المحافظة على ترتيب سور القرآن، التي أجمع عليها الصحابة ﷺ، سواء أكانت بتوقيف من الرسول ﷺ، أو باجتهاد من الصحابة ﷺ، ويرى أن الخروج عن هذا المنهج بدعة في الدين.

ولكن الترتيب الذي أجمع عليه المسلمون، والذي يجب المحافظة عليه في طباعة المصحف وتلاوته التعبديَّة، لا يمنع من تدبُّر القرآن بتتبُّع مراحل نزوله.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى سنة: ١٣٨١هـ=١٩٦١م في دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، وصدرت الطبعة الثانية المزيدة سنة ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م، في دار الغرب الإسلامي. وللدكتور فريد مصطفى سليمان المتوفى سنة ١٤٢٤هـ ﷺ دراسة نقدية للتفسير بعنوان: «محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم»، وللأخ الكريم الدكتور عبدالحكيم أنيس رسالة ماجستير حول هذا التفسير أيضًا.

(٢) طبع في مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٨٢هـ=١٩٦٣م، في ستة أجزاء في ٢٦٠٠ صفحة، وينظر نقد مختصر له ضمن كتاب الدكتور فريد سليمان السابق ذكره، ص ١٣٠-١٣٢.

وقد يقول قائل: إنَّ ترتيب نزول سور القرآن يُعتمَدُ فيه على الأحاديث المرويَّة، لا على كتب التفسير والقراءات، كما أنَّ الاختلاف وقع في بعض السور: هل هي مكية أم مدنية؟

والجواب عن ذلك: أنَّ ترتيب السور التي في المصحف الذي أجمع المسلمون عليه، والذي وزِّعت نسخٌ منه على معظم أمصار المسلمين في عهد عثمان ﷺ، لم يلتزم مراحل النُّزول، ومن الثابت قطعًا أن كثيرًا من السور مثل: «البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة»، هي من التنزيل المدني، وأنَّ كثيرًا من السور هي من التنزيل المكي قطعًا، مثل: سورة العلق، وبعضها مختلف فيه، ويُعتمَدُ فيها على روايات ظنيَّة، مثل: سورة الرعد والحج، فإذا اعتمد الشيخ في تتبُّع مراحل النُّزول، وهي في بعضها روايات ظنيَّة احتماليَّة تُعينه على تسلسل البناء المعرفي، والتكامل التربوي، واكتشف من خلال التدبُّر الميداني أن ترتيب مراحله في معظمه حق، فالأخذ بما يفيد الظن في مراحل النُّزول لتدبُّر القرآن ومحاولة فهمه أَوْلى من الاعتماد في تدبُّره على الترتيب الثابت قطعًا بأنه لم يُراع مراحل التَّنْزيل، مع التأكيد على احترام هذا الترتيب وضرورة المحافظة عليه في طباعة المصحف الشريف وتلاوته والتعبُّد به[1].

ولو أنَّ مفسِّرًا انتقى بعض السور وفسَّرها دون مراعاةٍ لترتيبها التوقيفي في المصحف، فابتدأ بجزء «عمَّ» مثلًا، ثم «تبارك»، فلا يُنكَرُ عليه اختيارُه، فَمِنْ باب أَوْلى ألا يُنكَرَ على الشيخ اختياره لترتيب السور حسب النُّزول، وخاصَّة أن التطبيق العمليَّ لدراساته العميقة كشف عن الكثير من الحقائق والمفاهيم العلميَّة والتربوية والتشريعية التي غابت عن كثير من المفسرين الذين لم يراعوا في تفسيرهم جوَّ السورة الذي نزلت فيه، وتسلسل ترتيبها في النُّزول.

---

(١) وقد سُئل فضيلة الشيخ أبو اليسر عابدين ﷺ مفتي سورية عن حكم تفسير القرآن حسب النزُّول؟ فأجاب ﷺ: «إنَّ التأليف والتصنيف تابع لأغراض المؤلفين حسبما يعرض لهم من إشكال؛ لإظهار الفوائد التي يطلعون عليها، وليس التفسير بقرآن يتلى حتى يراعى فيه ترتيب الآيات والسور، فقد يعنُّ للمفسر أن يفسر آية، ثم يترك ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسِّر سورة، ثم يترك ما بعدها اعتمادًا على فهم التالي، ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور» انتهى.
ولأستاذنا العلامة المحدّث المحقق الشيخ عبدالفتاح أبو غدَّة ﷺ فتوى محرَّرة في جواز تفسير القرآن حسب نزوله، أوردها الأستاذ محمد عزة دروزة، في مقدّمة تفسيره، ولولا خشية الإطالة لنقلتها بتمامها، فلتُنظر في «التفسير الحديث» ١: ١٠-١٢.

مصادر التفسير:

يتساءل الكثيرون عن مصادر الشيخ في تفسيره، ويظنُّ بعضهم أنَّ قيمة الكتاب العلميَّة هي بكثرة مصادره ومراجعه، ومنهم من يمرُّ ببصره على حواشي الكتاب، وكلما رآها مثقلة بالإحالات والتخريجات الطويلة، والمصادر المتعدِّدة، ظن أنَّ العمل متقن وجدير بالتقدير والاهتمام، ومنهم من ينظر في فهارس الكتاب لينظر في أسماء المصادر والمراجع، وكلما رأى القائمة أكثر عددًا حسب أن الكتاب متميِّز ومتفرِّد!

والشيخ ﷺ على صلة وثيقة بكتب التفسير القديمة والمعاصرة على اختلاف مناهجها، وتنوُّع اهتماماتها، وقد هضم هذه الكتب بحثًا ودراسة، ولكنه لا يحبُّ التقليد والمحاكاة، وهو يرى أن حشد الأقوال الكثيرةِ تُصعِّبُ على المتدبِّر لكتاب الله الوصول إلى مبتغاه.

ويشبِّه من يكثر النقول دون بصيرة، ودراسة متأنية، واختيار مناسب، ونقد وتحقيق؛ كمتسوِّق دخل إلى محل تجاري كبير، جمع فيه أنواع المشتريات المختلفة، ورَكَم بعضها فوق بعض.

ويُعَدُّ أستاذنا العلامة الميداني ﷺ من أعلى طبقات المؤلِّفين؛ إذْ هم -كما يقول أستاذنا الطنطاوي ﷺ-: «طبقات، فمن المؤلِّفين من يعرض سلعًا مصفوفة، لا يميِّز جيدها من رديئها، كمستودَع فيه البضائع مركومة رَكْمًا من كل نوع وكل صنف.

ومن المؤلِّفين طبقة أعلى من هذه الطبقة، جمع أصحابها قدرًا أقلَّ من المعلومات، فرتَّبوها وصنَّفوها، وميَّزوا الأصيل منها من المقلَّد، وفرَّقوا بين المؤتلِفِ والمختلِفِ.

ودرجةٌ أعلى من المصنِّفين، وهم الذين يأخذون هذه المعلومات، وهذه المرويات، فيدخلها أحدهم ذهنه كما تدخل إِبَالَاتُ القطنِ (الْبَالاتُ) إلى مصنع النسيج، فتخرُجُ منه قُماشًا عليه شارة المصنع، وذلك مثل الإمام الغزالي»[1].

---

(١) مقدمات الشيخ علي الطنطاوي: ص ١٣٢، جمع وترتيب مُجَد مكي.

والشيخ عبدالرحمن من هذه الطبقة العالية من المؤلفين، وتدبُّره من أنفع كتب التدبُّر؛ لأن مؤلِّفَه أعمل فيه فكرَه هو، لم يُفكِّرْ بعقل غيره، وكَتَبَه بأسلوبه، ولم يستعِرْ أسلوب غيره، ولم يملأه بالنصوص المنقولة عن المفسرين جمعًا أو اختصارًا أو حشوًا للأقوال، فتجيء كتبهم- كما يقول أستاذنا الطنطاوي- كمرقَّعات أدعياء الزهد: رُقْعةُ كتَّانٍ، ورُقْعةُ صوفٍ، ورُقْعة بَزٍّ، بل أخذ نصوص الكتاب والسنة الثابتة، ففهمهما، ثم كتب ما فهمه، وأتى بالمفيد الجديد المبتكر.

وأهم المصادر التي يرجع إليها الشيخ في تفسيره في المأثور: «تفسير الطبري»، و«ابن كثير»، و«فتح القدير» للشوكاني.

وفي التفسير بالدراية والرأي: «الكشاف» للزمخشري، و«البحر المحيط» لأبي حيان، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي، و«روح المعاني» للآلوسي.

ومن المعاصرين: تفسير «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور، و«في ظلال القرآن» لسيد قطب، ولكنه- مع استفادته من هذه المصادر- لا يقلِّد ولا يحاكي، ولا يحشد الأقوال، بل يقتطف من كل الثمرات، ويُخرِجُ منها عسلًا مُصفًّى فيه شفاء للنفوس، وغذاء للعقول.

وللشيخ الميداني ﷺ اختيارات صائبة، وآراء موفَّقة، واجتهادات مُسدَّدة، وإنَّ المقارنة بين ما يكتبه ويقدمه، وبين كتب التفسير المتقدِّمة، تُظهِرُ بوضوحٍ اختياراتِه الراجحةَ، وإضافاتِه الكثيرةَ، وتأمُّلاتِه الدقيقةَ[1].

المنهج السلفي في مسائل العقيدة:

والشيخ في مسائل العقيدة يتبع منهج السلف الصالح، ويكره التوسُّع في التأويل البعيد عن منهجهم، ويقرِّر في كتابه مذهب السلف الصالح لاسيما في باب الأسماء والصفات.

يقول -رحمه الله- في «معارج التفكر» ٤/ ٢٨٧ عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: «وقد وَصَفَ الله ﷻ نفسه بأنه استوى على العرش، وقد كان الله قبل أن يَخلق الخلق، ولم يكن شيءٌ معه،

(١) موضوع اختيارات الشيخ وترجيحاته ومقارنتها بكتب التفسير، جدير برسالة علميّة ضخمة، نسأل الله سبحانه أن يوفق لدراستها بعض طلبة العلم النابهين المجدّين.

ووصف نفسه أنه استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سموات، استواءً وصف الله به نفسه، فنحن نثبتهُ ضمن حدود ما أثبت لنفسه، جلَّ جلاله، وعظُمَ سلطانه، ونقول: هو استواءٌ يليق بذاته، سبحانه عمَّا وصفه الواصفون، ضمن مدركاتهم الضئيلات التي لا تصل إلى إدراك ذاته؛ إذ لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

وأحسنُ بيانٍ حول الاستواء الذي وصف الله ﷻ به نفسه، ما قاله الإمام مالك ﷺ: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

ويؤكد المعنى نفسه في الآية (٥٩) من سورة الفرقان في «تفسيره» ٦/٥٩٠، والآية (٥) من سورة طه في «تفسيره» ٨/ ٣٤، والآية (٤) من سورة «السجدة» في «تفسيره».

ويقول- رحمه الله وأثابه رضاه- في «معارج التفكر» ٦/ ٢٠٧ عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس]: «ذكر الله ﷻ في هذا النص عبارة ﴿أَيْدِينَا﴾ مبيِّنًا أنه خلق الأنعام بها، وأبان جلَّ جلاله أنه خلق آدم بيديه، فقال تعالى في سورة «ص» في حكاية خطابه لإبليس: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص].

وأبان جلَّ جلاله أنَّ الذين كانوا يبايعون الرسول ﷺ قد كانت يد الله فوق أيديهم، فقال تعالى في سورة الفتح خطابًا لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وأبان ﷻ أن يديه مبسوطتان يُنفق كيف يشاء؛ ردًّا على اليهود الذين قالوا: يد الله مغلولة، فقال تعالى في سورة «المائدة»: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

فنسب الله ﷻ إلى نفسه في هذه النصوص الأيدي، واليدين، واليد، ورأيُ السلف في مثل هذه الصفات المنسوبة إلى الله ﷻ قد لخّصه الإمام مالك ﷺ بقوله بالنسبة إلى الاستواء: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» انتهى.

وانظر كلامه في تفسير قوله تعالى في سورة «القلم» ١/ ٢٥٤: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم] واستدلاله بالحديث المتفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري الطويل عن النبي ﷺ. وكل هذه الأمثلة وعشرات أمثالها تبيِّن منهجه حول هذه القضية.

وأما مباحثه الأخرى في العقيدة، ولاسيما مباحث القضاء والقدر، فهي على منهج أهل السنة والجماعة، الذين يمثِّلون المنهج الوسط بين الجَبْرية والقَدَرية، وقد استطاع في تفسيره لآيات الهداية والضلال والزيغ أن يخرج بنظرية علمية متكاملة، ولا تتَّسع هذه الإلمامة اليسيرة لعرض نماذج تبين ثاقب رأيه، ودقّة نظره، وحُسْنِ تدبُّره لبعض الآيات التي يُفهَمُ منها الجَبْرُ، والتي دَرَجَ بعض المفسرين على تفسيرها بما يوهم الجبر وسَلْبَ الاختيار والإرادةِ الحرَّةِ التي منحها الله للإنسان لابتلاء إرادته وامتحانه في رحلة الحياة الدنيا.

المنهج العامُّ:

يبدأ الشيخ تفسيره لكلِّ سورة بذكر نصِّ السورة من المصحف، ويذكر ما فيها من فَرْش القراءات معتمدًا على كتب القراءات، مثل: البدور الزاهرة، والميسَّر في القراءات العشر. ثم يذكر ما وَرَدَ في السنة بشأن السورة، ثم موضوع السورة، ثم يقسِّمها إلى دروس متسلسلة مترابطة بالنظام الشجري، ثم التدبُّر التَّحليلي.

معالم وضوابط هذا التفسير التدبُّري:

وجَّه الشيخ العلامة المفسِّر عبدالرحمن الميداني عنايته العظمى لاكتشاف وحدة موضوع السورة القرآنية، وبيان ارتباط آياتها بهذا الموضوع.

ومن مزايا هذا التفسير التدبُّري: تقسيم السورة القرآنية إلى دروس متماسكة الوحدات ضمن وحدة موضوع السورة العام، وإتباعه كل درس بنظرة إجمالية عامة.

ومن مزاياه أيضًا: اهتمامه الكبير في إيضاح المفردات القرآنية، فهو لا يكتفي بنقل ما ذكره المفسِّرون، بل يُنقِّب في أمهات المعاجم العربية تنقيبًا دقيقًا ليختار من معاني المفردات ما هو الملائم أو الأكثر ملائمةً للسباق والسياق، وفي كثير من الأحيان يلجأ إلى استقراء تامٍّ للكلمة القرآنية ليحدد مدلولها العميق بدقة.

ومن أهم مزاياه: عنايته البالغة بالقراءات القرآنية، يكشف من خلال ذكر القراءات ما فيها من تكاملٍ فكريٍّ، وتكامل في الأداء البياني، وما فيها من تنويع في الأداء الفني الجمالي، وإثبات وجوه عربية متكافئة.

ومن مزاياه: عنايته الكبرى بالجانب المعرفي والتربوي والسلوكي، وإبراز تسلسل البناء الفكري التكاملي للموضوعات التي تشتمل عليها كل سورة، وكذلك التدرُّج التعليمي والتربوي.

الاهتمام بالنظرات التفصيليَّة للمعلومات والقضايا والأفكار الواردة في كلِّ سورة صراحةً أو في مطويَّات النص وهو يعدُّ (المثاني) التي وصف بها القرآن الكريم، هي المطويات التي تستخرج من كثير من الآيات القرآنية الكريمة.

من معالم هذا التفسير التدبُّري: عنايته الفائقة باستخراج البلاغيات من السُّور التي درسها دراسة تدبُّرية، وجعلها في ملحق خاص من ملحقات السُّورة، ولا تكاد تخلو سورة من السُّور التي تدبَّرها من هذه المستخرجات البلاغية الرائعة التي تزيد متدبِّر القرآن فهمًا وتذوُّقًا لبلاغته وتمرُّسًا بمعرفة أسلوبه.

ملاحق التفسير التدبُّري:

اعتنى فضيلة الشيخ- لاسيما في المراحل الأولى من تفسيره- بجمع الآيات التي تدور في فَلَك موضوع واحد من القرآن كلِّه، ودرسها دراسةً تكامليَّة، وجعلها في ملاحق لتدبُّر السور، وبلغ مجموع هذه الملحقات التدبُّرية أكثر من خمسين ملحقًا، وكثيرٌ منها يمكن إفراده في كتاب مستقلٍّ، وتعدُّ هذه الملاحق لونًا من ألوان التفسير الموضوعي، الذي يعتمد فيه الشيخ على التسلسل الزمني لنزول الآيات المكية والمدنية، وهو ما غفل عنه الكثير ممن كتب في التفسير الموضوعي وقعَّد له نظريًّا، أو كتب فيه عمليًّا.

وإليك عناوين هذه الملاحق المهمة حسب منهجه في مراعاة ترتيب النُّزول في تدبُّره لكتاب الله تعالى:

في سورة الفاتحة أربعة ملاحق مهمة، أبرزها: نظرات تدبُّرية حول الآيات التي جاء فيها لفظ: سبيل، طريق، منهاج، صراط ١: ٣١٩ - ٣٧٣.

في سورة الأعلى: التسبيح في القرآن ١: ٤٦٧-٤٨٠.

في سورة الضحى: إسناد فعل «وَجَد، يَجِد» إلى «الله» في القـرآن ١: ٥٧٦-٥٧٩.

في سورة الشرح: فيما يستفاد للدعوة والدعاة من سورتي الضحى والشرح ١: ٥٩٧-٦٠٠.

في سورة العصر: الإنسان مملكة ١: ٦٢٠-٦٢٥.

في سورة الفلق والناس أربعة ملاحق:

الأول: نظرة عامة حول ما جاء في السورتين ٢: ٤٣-٤٤.

الثاني: فلسفة التمكين من فعل الشر ٢: ٤٥-٥٠.

الثالث: الاستعاذة بالله في القرآن والسنة ٢: ٥١-٦٢.

الرابع: حول السحر ٢: ٦٧-٧٣.

في سورة النجم ملحقان:

الأول: معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة ٢: ١٧٢-١٩٢.

الثاني: سياسة الداعي في أحوال المدعوِّ الذي لم يستجب ٢: ١٩٣-٢٠٦.

في سورة عبس: وظيفة القرآن والرسول، وظيفة بيان وتذكير ٢: ٢٦١-٢٨٠.

في سورة الشمس: الشمس والقمر والأرض والليل والنهار في القرآن ٢:٣٣٢-٣٤٦.

في سورة التين: الأمن بمكة البلد الحرام ٢: ٤٢١-٤٣٠.

في سورة المرسلات: الرياح في القرآن المجيد ٢:٤٢١-٤٣٠.

في سورة «ق»: الوصف بالبركة في القرآن المجيد ٣: ١٤٧-١٧٠.

في سورة البلـد: أصحـاب اليمين وأصحاب الشمال في القرآن ٣:٢٢٠ - ٢٤٨.

في سورة الطارق ثلاثة ملاحق:

الأول: بيان بعض أطوار خلق الإنسان في القرآن ٣: ٢٨٧-٢٩٩.

الثاني: كون الإنسان مُراقَبٌ في حياته ومحفوظًا من المخاطر ٣: ٣٠٠-٣٠٣.

الثالث: كلمة «يوم» في القرآن مرادًا بها: يوم الحياة الأخرى ٣: ٣٠٤-٣١٢.

في سورة القمر ملحقان:

الأول: إعراض الكافرين عن آيات الله ٣: ٤٤٥-٤٥٢.

الثاني: الحكمة في القرآن المجيد ٣: ٤٥٣-٤٦٢.

في سورة «ص» ملحقان:

الأول: ما جاء في القرآن المجيد عن داود ٣: ٦٤٧-٦٦٧.

الثاني: قصة خلق آدم في القرآن وما رافق خلقه من أحداث ٣: ٦٦٨-٧٢٩.

في سورة الأعراف سبعة ملاحق:

الأول: السؤال في محكمة العدل الربانية ٥: ١٤٧-١٨٠.

الثاني: الوزن في محكمة العدل الربانية ٥: ١٨١-٢٠٤.

الثالث: حول اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا وهزوًا، والاغترار بالحياة الدنيا ٥: ٢٢٤-٢٧٨.

الرابع: دراسة تكاملية للنصوص بشأن لوطٍ ﷺ وقومِه ٥: ٢٧٩-٣٥٠.

الخامس: دراسة تكامليَّة للنصوص بشأن شعيبٍ ﷺ وقومِه ٥: ٣٥١-٤٢٩.

السادس: ما جاء في القرآن بشأن سنن الله في الأمم حتى استحقاق هلاكها الشامل ٥: ٤٣٠ - ٤٨٧.

السابع: رغبة الكافر أن يقضي الله له باستئناف رحلة امتحانه حتى تمنيه أن يكون ترابًا ٥: ٤٨٨-٥١٦.

في سورة الجن ملحقان:

الأول: نظرة إجمالية عامة إلى وحدة موضوع سورة الجن ٥: ٦٤٧-٦٥٤.

الثاني: نصوص الابتلاء والفتنة في القرآن المجيد ٥: ٦٦٤-٧٠٦.

في سورة يس ثلاثة ملاحق:

الأول: اللوح المحفوظ في القرآن وبعض السنة ٦: ٢٢٨ - ٢٤٧.

الثاني: بيان اعتراض الأمم على بشرية الرسل في القرآن ٦: ٢٦٣-٢٨٠.

الثالث: امتنان الله على العباد بالأنعام في نصوص القرآن ٦: ٢٨١-٢٩٤.

في سورة الفرقان خمسة ملاحق:

الأول: شجرة موضوع السورة ٦: ٦٩١ - ٧١٠.

الثاني: البيان المقرون بالحجة والبرهان، والتفسيرات الموضِّحات للحكمة من الاختيار الرباني في السورة ٦: ٧٣٣-٧٣٥.

الثالث: منهاج الدعوة ووسائل التربية ٦: ٧٣٦ - ٧٣٩.

الرابع: ما ينبغي أن يتحلَّى به حامل الرسالة ٦: ٧٤٠-٧٤١.

الخامس: من أدب الرسول مع ربه، وكيف جاء التعقيب الرباني ٦: ٦٤٢.

في سورة فاطر ملحقان:

الأول: الدعوة في القرآن إلى السير في الأرض والنظر في الآثار للاعتبار ٧: ٢٦٥-٢٩٠.

الثاني: توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية في الدلالات القرآنية ٧: ٢٩١-٣٥٦.

في سورة مريم ثلاثة ملاحق:

الأول: تدبُّر ما جاء في سائر القرآن بشأن زكريا ويحيى ٧: ٣٩٨-٤١١.

الثاني: التدبُّر التأمُّلي للنصوص القرآنية بشأن مريم ٧: ٤٢٠-٥٤١، وهذان الملحقان ضمن السورة.

الثالث: جنات عدن ومستحِقُّوها في دلالات النصوص القرآنية ٧: ٦٧٩-٦٩٠.

في سورة «طه» ملحق: الشفاعة يوم الدين وأنواعها ٨: ٣٩٢-٤٢٢.

في سورة الواقعة ملحق: شجرة الزقوم في القرآن ٨: ٥٢٥-٥٤٢.

في سورة الشعراء ملحق: الشعر والشعراء في القرآن والسنة ٨: ٧٥٠-٧٧٥.

في سورة النمل: ملحقان:

الأول: تَعِلَّة المشركين بالتكذيب بيوم الدين هي توجيه الاستفهام التعجُّبي ٩: ٢٢٦- ٢٤٤.

الثاني: دراسة تكامليَّة للنصوص بشأن صالح وقومه ٩: ٢٤٥-٣٢٠.

واقتصر الشيخ ﷺ من سورة القصص وما بعدها -سوى سورة هود- على ملحق المستخرجات البلاغية، وعاد في المجلد الرابع عشر ليلحق ملحقًا واسعًا حول إبراهيم ﷺ في القرآن والسنة من ١٠٠٢٥-١٠١٦٩ في ١٤٤ صفحة حسب ترقيم المخطوط بيده، وإنما أفرد هذا الملحق- بعد توقفه عن إتباع السور بملحقات- حرصًا على إتمام عمله، والإسراع في إنجازه، ولأنه تكلم عن أكثر الأنبياء والمرسلين خلال تدبُّره للسور السابقة في بعض ملاحقها، فاتجهت همَّته لكتابة هذا الملحق التدبُّري الواسع النافع حول إبراهيم ﷺ.

أقسام الكتاب المطبوعة:

صَدَر من الكتاب اثنا عشر مجلدًا في أربع مجموعات، كل مجموعة في ثلاثة مجلدات، وقد صدرت المجلدات الثلاثة الأولى (١-٣) من هذا التفسير التدبُّري عام ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م، وقد اشتملت على تفسير ٢٨ سورة من السور المكية ابتداء من سورة العلق، وانتهاء بسورة «ص»، وكان فراغُه من كتابة هذه المجلدات في ١٣ من رمضان ١٤١٩هـ.

وصدرت المجلدات الثلاثة (٤-٦) من المجموعة الثانية عام ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.

وقد اشتمل المجلدان الرابع والخامس من المجموعة الثانية على تفسير سورة الأعراف والجنِّ، وكان فراغه من كتابتهما يوم الجمعة ٢٧ من رجب ١٤٢٠هـ.



وأما المجلد السادس فقد اشتمل على تفسير سوَرَتَيْ يس والفرقان، التي سبق له إفرادها في التدبُّر، وهي ذات الرقم ٤٢ من السور المكية حسب النُّزول، وكان فراغه من إعداد المجلد السادس يوم الخميس من شهر ذي القعدة ١٤٢٠هـ.

وصَدَرت المجلدات الثلاثة (٧-٩) من المجموعة الثالثة عام ١٤٢٣ = ٢٠٠٢م، وقد اشتمل المجلد السابع على تفسير سورتي فاطر ومريم، وكان انتهاؤه من تحبير المجلد السابع في غُرَّة جُمادى الأولى ١٤٢١هـ، وقد ابتدأ انتشار المرض في جسم الشيخ -رحمه الله تعالى وأعلى مقامه لديه- وقام بإجراء عملية لإزالة بداية تورُّم.

وقال في ختام المجلد السادس ص ٦٩١: «بمعونةٍ من ربي الجليل الوهَّاب، وبحوله وتوفيق منه جلَّ جلاله، وعظُمَ سلطانُه، ووسعت رحمته كل شيء، أتمَّ ربي لي بأسبابه وألطافه الخفيّة هذا المجلد السابع، وأنا على سرير المرض، أُعاني من آثار عملية جراحية كبيرة وخطيرة ومُوجعة مع شيخوختي، وكبر سني، وضعف جسمي، لقد كنت ألتقط الساعات التي أستطيع أن أعمل فيها التقاطًا من الزمن الذي أكون فيه طريحًا على فراشي أو على البساط، في توجُّع أو سُبات.

وكنت ألجأ إلى الله بالدعاء أن يعينني ويمدّني بمدده، فأجد نفسي معانًا إعانةً عجيبة، أعمل في الساعة ما يعمل الصحيح السليم في الساعات ذوات العدد».

وأما المجلد الثامن، فقد اشتمل على تدبُّر السور الثلاث: طه، والواقعة، والشعراء، وكان فراغه من كتابة هذا المجلد في ٢٢ من شهر رمضان ١٤٢١هـ.

وقال في خاتمة هذا المجلد ٨: ٧٧٦: «كتبت هذا المجلد، وأنا مُنبطح على السَّرير، أرتقي سُلَّم العافية درجةً فدرجة، بعناية ربي وألطافه الخفيَّة، ولساني وقلبي يسألانه تمام العافية، وتمام الشفاء، وأن يمدني بالمعونة، ويهبني القوة والبصيرة النفَّاذة، والفهم السديد على مراده من آيات كتابه، حتى يهيئ لي بفيض عطائه، تدبُّر سائر سوره...».

وأما المجلد التاسع، فقد اشتمل على تدبُّر السُّور الثلاث: النمل، والقصص، والإسراء، وكان فراغه من كتابة هذا المجلد في ٢٥ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ.

وصدرت المجلدات الثلاثة (١٠-١٢) من المجموعة الرابعة عام ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، وقد اشتمل المجلد العاشر على تدبُّر السور الثلاث: يونس، وهود، ويوسف، وكان انتهاؤه من تسطير هذا المجلد في اليوم الأخير من شهر رمضان، لسنة ١٤٢٢هـ.

وأما المجلد الحادي عشر، فقد اشتمل على تدبُّر السور الأربع التالية: الحجر، والأنعام، والصَّافَّات، ولقمان.

وقد انتهى من تسطير هذا المجلد في يوم الخميس ٢ / ربيع الآخر / ١٤٢٣هـ.

وأما المجلد الثاني عشر، فقد اشتمل على تدبُّر السور التالية: سبأ، والزمر، وغافر، وفصِّلت، والشورى، والزخرف، وكان فراغه من كتابة هذا المجلد يوم السبت، ١١/ رمضان/ ١٤٢٣هـ = ١٦ /١١ / ٢٠٠٢م.

وأما المجلدات الثلاث (١٣-١٥) من المجموعة الخامسة، فقد اشتمل المجلد الثالث عشر على تدبُّر السور الثمانية التالية؛ حيث ختم الدخان، والجاثية، والأحقاف، والذاريات، والغاشية، والكهف، والنحل، ونوح.

وكان فراغه من كتابة هذا المجلد في يوم الاثنين ٣٠ من رمضان سنة ١٤٢٤هـ، وقال في خاتمته: «مع وخزات الإبر بكرةً وعشيًّا، وكثرة انطراحي على الأرض أو على السرير، قضى الله ﷻ بفضله ومنَّته أن ينهي لي كتابة هذا المجلد الرابع عشر المشتمل على تدبُّر السور التالية: إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون، السجدة، الملك، الحاقة، المعارج».

وأما المجلد الخامس عشر فقد أتمَّ فيه التنزيل المكي حسب مراحل النُّزول.

وبتمام هذا المجلد الخامس عشر الذي بدأ فيه من سورة النبأ ٨٠ نزولًا، وانتهى بسورة المطففين ٨٦ نزولًا، يكون الشيخ قد انتهى من ثُلثي التفسير؛ لِمَا في هذه المرحلة المكيَّة من التنزيل من حجاج وجدال للمشركين، وإقامة للحجج والبراهين، وإيراد الكثير من قصص السابقين، ثم بدأ في أول التنزيل المدني بتفسير سورة البقرة، وقد حال الأجل دون تحقيق الأمل.



وهذا التفسير التدبُّري من خير ما قدِّم للمكتبة القرآنية، ويُعد من الكنوز المدَّخَرة، ويتبوأ الشيخ بحق طليعة أئمة التفسير في بداية هذا القرن الخامس عشر.

وبعد؛ فهذه لمحات موجزات، وقَبَسات مضيئات، وضوابط هاديات، ومعالم منيرات، تُعرِّف بهذا التفسير التدبُّري، الذي وفَّق الله الأستاذ الشيخ عبدالرحمن لكتابته، والذي تابع- رغم أمراضه وشيخوخته- الكتابة فيه، وهو كما تبين كتاب يرتكز على أسس منهجية، وقواعد دقيقة، وضوابط هادية لتدبُّر كتاب الله، توصَّل إليها، ووضحت في فكره، فكانت هاديةً له في تفسيره، ومنهجًا متميزًا في تدبُّره، كشف من خلاله عن كنوزٍ عظيمةٍ من كنوز هذا التنزيل الرباني العظيم.

والمُطالِع الجادُّ الدَّؤوب في تدبُّره لكتاب الله، سيردِّد قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٩] بما يتجدّد من فهم وبيان لمعاني القرآن الذي لا ينضب عطاؤه، ولا تنتهي عجائبه.

وسيقول كل منصف بعد الاطلاع على تفسير الشيخ ودراسة قواعده وضوابطه: «كم ترك الأول للآخر».

وما أصدقَ كلمةَ الإمامِ ابن مالك النحوي في أول كتابه «التسهيل»؛ إذ يقول ﷺ: «وإذا كانت العلوم مِنَحًا إلهيهْ، ومواهب اختصاصيهْ، فغير مُسْتبعد أن يُدَّخر لبعض المتأخرينْ، ما عَسُر على كثير من المتقدمينْ، نعوذ بالله من حَسَدٍ يسُدُّ باب الإنصافْ، ويصدُّ عن جميل الأوصافْ».



توصِيَاتٌ ومقترحاتٌ عمليَّةٌ

- الاستفادة من هذا الكتاب، وقيام بعض تلاميذ الشيخ المتمكنين في التفسير من إتمام كتابه في المرحلة المدنية، مع الاستفادة مما كتبه في كتبه الأخرى، وإلحاقها في تتمة التفسير.

- دراسة مستقلة عن منهج الشيخ في نظام السورة القرآنية.

- دراسة نقدية موضوعية لتفسير القرآن وتدبُّره حسب ترتيب النزول مقارنة بالكتب الأخرى التي ألفت على هذا المنهج.

- دراسة ترجيحات الشيخ وما انفرد به عن المفسرين.

- إبراز المفردات القرآنية التي استقرأها الشيخ ورجحها وخالف فيها ما توارد عليه كثير من المفسرين.

- إبراز نظرية الشيخ في المطويات والمحذوفات المقدَّرة في النص القرآني (علم المثاني).

- إظهار إضافات الشيخ النوعية الجديدة التي لم يسبق إليها في جميع كتب التفسير.

- تقديم كتاب منهجي مختصر فيه أهم معالم: «معارج التفكر» يقدم لعموم المثقفين.

- تقديم موضوعات متنوعة في التفسير الموضوعي يستفاد فيها من: «معارج التفكر».

الورقة الثانية

كتب المفاتيح والأسباب والموانع

دراسة وصفية تحليلية

إعداد

د. أبو بكر بن محمد فوزي البخيت

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم

السيرة الذاتية

الاسم: أبو بكر بن محمد فوزي البخيت

- **الجنسية: مصري**

- **بلد الإقامة: المدينة المنورة**

- **البريد الإلكتروني:** madani62@gmail.com

المؤهل العلمي:

- إجازة بقراءة عاصم من الشيخ المسنِد في المسجد النبوي بشير صديق سنة ١٤٢٣هـ.

- الماجستير في قسم التفسير وعلوم القرآن بتقدير ممتاز (الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة).

- الدكتوراه في قسم التفسير وعلوم القرآن بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بالطبع والتداول (الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ١٤٣٥هـ).

الخبرة العلمية:

- تدريس مقررات التفسير، وإعجاز القرآن، والقرآن الكريم في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية منذ عام ١٤٢٩هـ.

- تدريس مادة التفسير في مركز التأهيل النسوي بالمدينة المنورة، فصلين دراسيين.

- المشاركة في تحكيم بحوث المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم عام ١٤٣٤هـ.

- إدارة الملتقى العلمي الأول لطلاب الدراسات العليا بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية.

- الإشراف على ملتقى أهل التفسير على الشبكة العنكبوتية، سنة واحدة.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فقد شهدت الساحة العلميَّة في هذا الوقت كثيرًا من البرامج والمؤسسات والرسائل التي تعتني بالقرآن الكريم، خدمة وحفظًا وتفسيرًا وتدبُّرًا، وهذا شاهد على رجوع كثير من الناس في مختلف الأقطار إلى القرآن أو الرغبة الصادقة في ذلك، والناس في ورودها لهذا المنهل العظيم، ومن خلال تدبُّر القرآن على وجه الخصوص تحتاج إلى تلمُّس الطريق الصحيح والمنهجية السليمة الموثوقة، حتى يسلموا من الزلل، ويردوا المنهل عذبًا فراتًا دون شائبة تشوبه أو تكدِّر صفوه، فأول ما تبحث عنه أعلام هذا الطريق ومناهجهم فيه حتى يسيروا على نهجهم، وقد وفَّق الله تعالى اللجنة المنظمة للمؤتمر لأن يكون عنوانه: «تدبُّر القرآن الكريم، مناهج وأعلام»، وتأتي كتب مفاتيح تدبُّر القرآن الكريم وأسبابِه وموانعِه كورقة ضمن أحد محاور هذا المؤتمر المبارك وهو: «المؤلفات في التدبُّر قراءة وتحليل»، حيث أعرض لستة كتب من كتب تدبُّر القرآن؛ أربعة يدور عليها صلب البحث، واثنان ضمن الدراسة، عرضًا ووصفًا وتحليلًا.

وقد انتظم البحث في المحاور التالية:

التمهيد: وفيه ذكر مصطلحات البحث.

الفصل الأول: الدراسة التفصيلية لكتب المفاتيح والأسباب والموانع، وينتظمه أربعة مباحث:

المبحث الأول: كتاب مفاتيح للتعامل مع القرآن الكريم، للدكتور صلاح بن عبدالفتاح الخالدي.

المبحث الثاني: كتاب تدبُّر القرآن الكريم، للشيخ سلمان بن عمر السنيدي.

المبحث الثالث: كتاب مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة، للدكتور خالد اللاحم.

المبحث الرابع: كتاب مدارج الحفظ والتدبُّر، للأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر.

وقد تم ترتيب الكتب بناء على تاريخ إصدار الكتاب.

الفصل الثاني: تحليل كتب المفاتيح والأسباب والموانع، نحو رؤية جامعة، وينتظمه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أسباب ومفاتيح تدبُّر القرآن.

المبحث الثاني: موانع تدبُّر القرآن.

المبحث الثالث: مقاييس التدبُّر ومؤشراته.

الفصل الثالث: ماذا بعد حصول الأسباب وانتفاء الموانع؟

الخاتمة: وذكرتُ فيها أبرز التوصيات والنتائج.

أسأل الله تعالى أن يُسهِم هذا البحث في بناء منهجية شاملة لتدبُّر القرآن؛ إنه على كل شيء قدير.



المقدمة

يحسن قبل البدء في دراسة الكتب، بيان المراد بمصطلحات البحث، التي هي مضامين الكتب المستهدفة بالدراسة.

أولًا: المفاتيح.

جمعُ مِفْتاح، الَّذِي يُفتح بِهِ المِغْلَاق، وَيُقَال للَّذي يُفْتَح بِهِ المِغْلاَق: مِفْتَح- بِكَسْر الْمِيم- ومِفتاح وجمْعُهما: مَفَاتح ومفَاتيح[1].

ثانيًا: السبب.

هو: ما يتوصل به المرء إلى مقصودٍ ما، قال الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج]، والسبب أيضًا: كل شيء يتوصل به إلى غيره.

وبهذا نلاحظ أن المفاتيح والأسباب في تدبُّر القرآن تؤدي إلى معنى واحد؛ وهي الأمور التي يتوصل بها إلى تدبُّر القرآن الكريم.

---

(١) تهذيب اللغة (٤/ ٢٥٨).

ثالثًا: الموانع.

جمع: مانع، وهو: ما يمنع من حُصول الشيء، أو: ما يعترض سيرَ العمل وما يحول دون تحقيق شيء أو بلوغه.

وعليه فالموانع في التدبُّر هي الأمور التي تعوق عملية التدبُّر أو تؤثر سلبًا في تحقيق مقصوده.

الفصل الأول

الدراسة التفصيلية لكتب المفاتيح والأسباب والموانع



المبحث الأول: كتاب مفاتيح التعامل مع القرآن الكريم

مؤلف الكتاب:

هو الدكتور صلاح بن عبدالفتاح الخالدي، أحد أعلام الدراسات القرآنية في المملكة الأردنية الهاشمية.

وصف الكتاب:

هو عبارة عن كتاب متوسط الحجم، يبلغ عدد صفحاته ١٧٠ صفحة، ذكر فيها المؤلف سبعة وعشرين مفتاحًا للتعامل مع القرآن الكريم.

وقد اشتمل على ما يلي:

قدَّم بمقدِّمة بيَّن فيها أهمية هذه المفاتيح في التعامل مع القرآن، لاستخراج كنوزه والاهتداء به، ويُفهم من هذه المقدمة أن تدبُّر القرآن هو أول ما يدخل في مفهوم التعامل مع القرآن، حيث كرر وأكد على استخراج كنوزه والاهتداء به ومعايشته.

عقد فصلًا في الحديث عن أسماء القرآن وأوصافه، ذكر منها عشرة؛ وهي: «القرآن، والكتاب، والذكر، والروح، والنور، والفرقان، والبرهان، والموعظة، والشفاء، والبصائر»، وقد قصد المؤلف من خلال عرضه لهذه الأسماء أهمية استحضار القارئ لها؛ ليجد أثرها على نفسه.

عقد فصلًا في وصف الرسول ﷺ للقرآن، وكذلك الصحابة والتابعون في وصفهم للقرآن، وأراد المؤلف بيان نماذج عملية لمن تدبَّر القرآن وعايشه، وما النتيجة التي وجدها في نفسه،

كما يبيّن منهج السلف في طريقة تعاملهم مع القرآن بين الإفراط والتفريط، فذكر قول عائشة ﵂: «القرآن أكرم من أن يزيل عقول الرجال»، وقد ركز في هذه النقول على علاج مفاهيم مهمة ينبغي تصحيحها، أو التأكيد عليها في التعامل مع القرآن، ويمكن تلخيص أبرز هذه المفاهيم التي قصد بها عقد هذا الفصل فيما يلي: «تعاهد القرآن باستمرار وعدم هجرانه، شرف أهل القرآن، تدارس القرآن، أهمية العمل به، أنه المخرج من الفتن، أهمية تثويره واستخراج كنوزه، حقيقة الانتفاع والتأثر دون إفراط أو تفريط، تعظيم القرآن وتعظيم حملته، الاعتزاز بالقرآن، أخلاق حملة القرآن، ثمرة ولذة تدبُّر القرآن».

ثم عقد جملة من المباحث؛ وهي:

الأول: آداب تلاوة القرآن، وذكر فيها ثمانية عشر أدبًا، أُجملها فيما يلي: «اختيار الوقت والمكان، والتهيئة النفسية والجسدية، والطهارة والتطهير، واستحضار النية، والاستعاذة والبسملة، وتفريغ النفس عن شواغلها، وحصر الفكر على الانتفاع بالقرآن، واستحضار الخشوع، والبكاء، والوقوف أمام الآيات وتدبُّرها والتأثر بها، واستشعار أنه مخاطب بالآيات، والتخلي عن موانع الفهم».

والمتأمِّل لهذه الآداب يلاحظ أن عددًا منها هي من مفاتيح وأسباب تدبُّر القرآن الكريم.

الثاني: نحو نظرة حركية لتدبُّر القرآن والحياة به، وقد اعتمد في هذا المبحث على ما استفاده من دراسته للأستاذ سيد قطب من خلال كتبه وتفسيره، وأهم ما خلص إليه في هذا المبحث: أن قارئ القرآن حتى يكون منتفعًا به لابد أن يستحضر أبعادًا رئيسية؛ وهي:

البعد الأول: البعد التاريخي؛ أي: استحضار الجو الذي نزل فيه القرآن، وكيف كان الصحابة يتعاملون مع القرآن الكريم.

البعد الثاني: استدعاء الجو العملي للقرآن بالدعوة والجهاد والعلم والعمل، فمتى ما كان القارئ عاملًا داعيًا مجاهدًا فسيجد في آيات القرآن وهداياته وتوجيهاته ما لا يجده القاعد الخامل.

البعد الثالث: البعد الواقعي في تنزيل هذه النصوص على واقع قارئ القرآن في المقام الأول، فآيات الوعد لكي يرجوَ هو، وآيات الوعيد لكي يَحْذَرَ هو، والآيات التي تبين حال من حاد وتنكَّبَ الطريق من الكفار والمنافقين وما عاقبهم الله به، لكي يَحْذَرَ هو.

الخطوات المتدرجة لفهم القرآن والتعامل معه: ذكر فيها سبع خطوات؛ وهي: «استحضار آداب التلاوة، القراءة بتأنٍّ وخشوع، الوقوف أمام الآية وقفة متأنية فاحصة، النظرة التفصيلية في سياق الآية وتركيبها، ملاحظة البعد الواقعي للآية، العودة لفهم السلف، الاطلاع على بعض آراء المفسرين»، ثم ختم هذا المبحث بـــ«أوراد القرآن اليومية»، وهي: ورد التلاوة، وورد الحفظ، وورد التدبُّر.

وقصد إلى أمر مهم، وهو: أن كل ورد له مقصده، فمن قصد مثلًا ورد التدبُّر في الحفظ، فلن ينتفع الانتفاع الأمثل، أو قد يؤثر التدبُّر على الحفظ، أو الحفظ على التدبُّر وهكذا.

ثم عقد الفصل المقصود بالتأليف؛ وهو: مفاتيح التعامل مع القرآن الكريم، وقد ذكر سبعة وعشرين مِفتاحًا؛ وهي:

١- النظرة الكلية الشاملة للقرآن.

٢- الالتفات للأهداف الأساسية للقرآن.

٣- ملاحظة المهمة العملية للقرآن.

٤- المحافظة على جو النص القرآني.

٥- استبعاد المطولات التي تحجب نور القرآن.

٦- تنزيه القرآن عن الإسرائيليات وعدم تعيين المبهمات.

٧- دخول عالم القرآن دون مقرات سابقة.

٨- الثقة المطلقة بالنص القرآني وإخضاع الواقع المخالف له.

٩- معايشة إيحاءات النص وظلاله ولطائفه.

١٠- غنى النصوص بالمعاني والدلالات.

١١- الاعتناء بمعاني القرآن التي عاشها الصحابة عمليًّا.

١٢- تحرير النصوص من قيود الزمان والمكان.

١٣- ملاحظة البعد الواقعي للنصوص القرآنية.

١٤- الوقوف في وجه المادية الجاهلية.

١٥- توسيع التفسير ليشمل سيرة الصحابة والتابعين.

١٦- الشعور بأن الآية موجهة له.

١٧- حسن التلقي عن القرآن.

١٨- تسجيل الخواطر والمعاني لحظة ورودها.

١٩- التمكن من أساسيات علوم التفسير.

٢٠- الاستعانة بالمعارف والثقافات الحديثة.

٢١- العودة المتجددة للآيات.

٢٢- ملاحظة الشخصية المستقلة للسورة.

٢٣- متابعة المصطلح القرآني للمصطلح الواحد.

٢٤- تجاوز الخلافات بين المفسرين والعودة إلى معين القرآن.

٢٥- معرفة الرجال بالحق.

٢٦- ترتيب الخطوات في التعامل مع القرآن.

٢٧- جني الثمار العملية للتعامل مع القرآن.

ما امتاز به منهج المؤلف:

أن هذا المنهج بني من خلال المعايشة والتجربة والعرض والإلقاء المتتابع، فجاء نتاج تجربة حياة عاشها المؤلف، ولا شك أن مثل هذه الطريقة في التأليف يظهر أثرها في الكتاب.

المقدمات التي قدَّمها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمقصود الكتاب، وتعتبر مدخلًا مهمًّا للحديث عن هذه المفاتيح.

حاول أن يعالج أهم القضايا الفكرية والمنهجية في التعامل مع القرآن في سياق حديثه عن المفاتيح دون إفراد مباحث خاصة بها.

عامة هذه المفاتيح واقعية ومهمة.

مرئيات حول الكتاب:

تكرار كثير من النقاط وتداخل بعضها في بعضٍ، فبعض النقاط التي ذكرها في آداب التلاوة والخطوات المتدرجة، والنظرة الحركية لتدبُّر القرآن، أعادها في المفاتيح مرة أخرى.

إن هذه المفاتيح وإن قصد بها الاستقصاء؛ إلا أن بعض المفاتيح فيها من التكرار أو الارتباط ما يمكن دمجه.

بعض هذه المفاتيح يعتبر كالمفاهيم العامة، ولا أرى دخولها في مفاتيح التدبُّر من وجهة نظري، وذلك مثل: «الوقوف في وجه المادية الحديثة، معرفة الرجال بالحق».

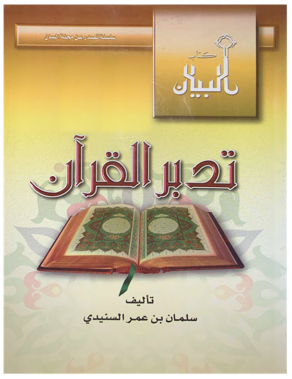
وبعضها قد يتعدى المفاتيح ليكون طريقة من طرق تدبُّر القرآن، مثل: «ملاحظة الشخصية المستقلة للسورة، متابعة استعمال القرآن للمصطلح الواحد».

ذكر من المفاتيح: « تنزيه القرآن عن الإسرائيليات وعدم تعيين المبهمات»، وهذا المفتاح لا يُسلَّمُ على إطلاقه، فهو إن أراد ما يحجب عن التدبُّر فهو داخل في المفتاح الذي قبله، وهو المحافظة على جو النص القرآني، ثم إننا قد نجد في بعض الإسرائيليات ما يحصل به التدبُّر، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود ﷺ، قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَبَلَغَكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَضَعُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالأَرْضَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أُصْبُعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ وَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ؟! قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر][1].

أقترح أن يتم تهذيب الكتاب ووضع المكرر في المكان الأقرب له من جهة التعلق، وضم بعض المفاتيح إلى بعض، و تقسيم المفاتيح حسب متعلقاتها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/١٢٦/٤٨١١) ومسلم (٤/٢١٤٧/٢٧٨٦).



المبحث الثاني: كتاب تدبُّر القرآن الكريم

مؤلف الكتاب:

الشيخ سلمان بن عمر السنيدي حفظه الله.

وصف الكتاب:

هو كتاب متوسط الحجم، عدد صفحاته ١٥٥ صفحة.

وقد اشتمل الكتاب على ثمانية مباحث مرتبة كما يلي:

المبحث الأول: أهمية تدبُّر القرآن

تكلّم فيه عن: «بركة القرآن، حاجة القلب إلى تدبُّر القرآن، الثناء على من تدبُّر القرآن وتأثر به، ذم من ترك تدبُّر القرآن ولم يتأثر به، التدبُّر من النصح لكتاب الله».

المبحث الثاني: أمور شُرِعتْ من أجل تدبُّر القرآن:

حيث جعل التدبُّر غاية، وجميع ما جاء الأمر به في القرآن إنما هو لرعاية هذا المقصد، وهذه الأمور هي:

- إنزال القرآن والتعبد بقراءته.
- الترتيل والتغني بالقراءة وتحسينها.
- صلاة الليل والقراءة فيه.
- سلامة التلاوة وإتقان التجويد.
- الاستعاذة.
- الإنصات عند سماع القرآن.
- الجهر بالتلاوة.
- حسن الابتداء والوقف.

المبحث الثالث: أمور متوقفة على تدبُّر القرآن وفهم معانيه، وذكر فيها:

- عظم أجر التلاوة.
- حصول بركة القرآن وانتفاع القلب به.
- التفضيل بين القراءة من المصحف أو القراءة عن ظهر قلب.
- التفضيل بين القراءة في الصلاة والقراءة خارجها.
- التفضيل بين الجهر بالقراءة والإسرار بها.
- ترتيب أولويات طلب العلوم.
- قِصَر المدة التي يختم فيها القرآن.

المبحث الرابع: صوارف تحول دون التدبُّر، وذكر فيها:

- أمراض القلوب والإصرار على الذنوب.
- انشغال القلب وشرود الذهن.
- قَصْر الخشوع على أحوال وآيات معينة.
- ترك التدبُّر تورعًا عن القول في كلام الله بغير علم.
- قَصْر الهمة على كثرة القراءة فقط.
- قصر الهمة على تحقيق القراءة وحسن التلاوة، مع هجر تدبُّره وضعف الهمة على العمل به.
- تقديم ما دون التدبُّر من العلم والعمل والاشتغال به عن التدبُّر.
- قَصْر معاني الآيات على قوم مَضَوا وأحوال خاصة قد انتهت.
- الانشغال بالمبهمات.
- النظر في القرآن من خلال مفهومات قاصرة.
- قَصْر قراءة القرآن على أحوال خاصة.

المبحث الخامس: من درجات التدبُّر، وذكر فيها:

- التفكر والنظر والاعتبار.
- التأثر وخشوع القلب.
- الاستجابة والخضوع.
- استخراج الحكم واستنباط الأحكام.

المبحث السادس: علاقة القارئ بالقرآن:

ويقصد بها: الأمور التي تقوي علاقة القارئ بالقرآن، وتسهِّل له أمر التدبُّر والفهم، وذكر منها: «بُعد المعايشة، وبُعد اللغة».

المبحث السابع: من سبل تدبُّر القرآن الكريم، وذكر فيها:

- معايشة معاني الآيات.
- تصور حال الدعوة عند نزول الآيات.
- فهم المعاني ودلائل الألفاظ.
- الوقوف اللفظي عند الآيات.
- الوقوف عند المعاني.
- معرفة أساليب القرآن.
- تدارس القرآن.

المبحث الثامن: صور من تدبُّر القرآن:

وعقد فيه جملة من الصور والنماذج التي تُوقِف القارئَ على طريقة السلف في تدبُّر القرآن، ومن أهم هذه الطرق:

- الالتزام بالأمر.
- تذكر الآية عند وجود المقتضي.
- التأمُّل في مقصد السورة وموضوعها وما احتفَّ بها من قرائن.
- النظر في المناسبات بين الآيات.
- التأمُّل في أسماء الله وصفاته.
- التأمُّل في الدلالات والتراكيب ومقاصدها.
- الخوف من العقوبة ورجاء الرحمة.

ما امتاز به منهج المؤلف:

- طريقة المؤلف في العرض والتأليف طريقة منطقية روعي فيها التسلسل.
- الشمول في معالجة المسائل دون إسهاب، مع الجمع بين التأصيل والتمثيل.
- التفريع والتقسيم عند الحاجة لذلك.
- عالج أهم المسائل التي يكثر سؤال الناس فيها عن التفضيل بين الأمور المتعلقة بقراءة القرآن.
- الواقعية في عرض المسائل التي تحصل لدى عامة الناس، وخصوصًا في موانع التدبُّر وصوارفه، كقَصْر الخشوع على أحوال وآيات معيَّنة، وتركِ التدبُّر تورعًا ونحوِ ذلك.
- عالج في مبحث: درجات التدبُّر بعض المسائل التي يكثر الجدل حولها، هل هي من التدبُّر أم خارجة عنه؟ وهل هي بعد التدبُّر أم قبله؟ بأسلوب ذكي بعيد عن الخلاف، حيث جعلها متعلقة به، وكل مرحلة تقود للأخرى.

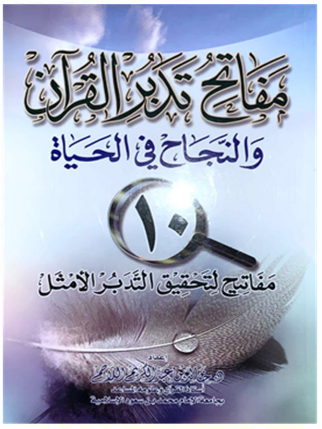
مرئيات حول الكتاب:

بعض المسائل بحاجة إلى التحرير، والجزم بها فيه نظر، من ذلك:

في المبحث الثاني: أمور شرعت من أجل تدبُّر القرآن والتأثر به، ذكر مثلًا: صلاة الليل والقراءة فيه، ثم ذكر في البحث الثالث: أمور متوقفة على تدبُّر القرآن، التفضيلُ بين القراءة في الصلاة والقراءة خارجها، فقَصْر التشريع على ذلك فيه تكلف، والله وأعلم، وقل مثل ذلك في الاستعاذة وحسن الابتداء والوقف، فلا شك أن ذلك مما يعين على التدبُّر، لكن قصر مشروعيته على التدبُّر يوقع في إشكالات.

في المبحث الثالث: أمور متوقفة على تدبُّر القرآن وفهم معانيه، وذكر منها: عظم أجر التلاوة، وقد ذكر في ذلك نقولات، ولكن لو زاد المسألة تحريرًا، وذكر حال السلف، وتنوُّعَ أحوالهم في ختم القرآن، ومقصدَهم حال ختم القرآن في مدة وجيزة، وحالَ ختمهم له في مدة طويلة، وأنهم تارة ينظرون إلى أجر الأداء، وأن في كل حرف عشْرَ حسنات، وخصوصًا في المواسم والأوقات الفاضلة كرمضان والعشر الأواخر منه، وتارة ينظرون لأجر التدبُّر والنظر في المعاني، وبهذا تكتمل صورة المسألة، والله أعلم.





المبحث الثالث: كتاب مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة (مفاتيح لتحقيق التدبُّر الأمثل)

مؤلف الكتاب:

هو الدكتور خالد بن عبدالكريم اللاحم، أستاذ القرآن وعلومه المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وصف الكتاب:

عبارة عن رسالة صغيرة الحجم، تتضمن عشرة مفاتيح توصل القارئ إلى تدبُّر القرآن، وقد جاءت الرسالة في ٨٠ صفحة.

وقد اشتملت على ما يلي:

المقدمة: وتحدث فيها عن مقصوده من تأليف الكتاب، وأنه قصد إلى خطوات عملية تصل بالقارئ إلى نتيجة عملية في تدبُّر كلام الله.

كما بين سبب المشكلة التي أراد برسالته معالجتها؛ وهي: طريقة وصول المؤثر وهو كلام الله، وطريقة تلقي المتأثر، وهو التالي أو الحافظ أو المستمع.

التمهيد، وذكر فيه تعريف التدبُّر وعلاماته، وذكر فيه سبع علامات للتدبُّر؛ وهي:

١- اجتماع القلب والفكر.

٢- البكاء من خشية الله.

٣- زيادة الخشوع.

٤- زيادة الإيمان.

٥- الفرح والاستبشار.

٦- القشعريرة خوفًا من الله.

٧- السجود تعظيمًا لله.

وختم التمهيد بمفهوم خاطئ عن التدبُّر؛ وهو: اعتقاد صعوبة فهم القرآن، وأجاب عنه.

صلب الرسالة، وهي المفاتيح العشرة، وتتلخص فيما يلي:

١- حب القرآن.

٢- أهداف قراءة القرآن.

٣- القيام بالقرآن.

٤- أن تكون القراءة في ليلٍ.

٥- التكرار الأسبوعي للقرآن أو بعضه.

٦- أن تكون القراءة حفظًا.

٧- تكرار الآيات.

٨- ربط الألفاظ بالمعاني.

٩- الترتيل.

١٠- الجهر بالقراءة.

ثم ختم البحث بملاحق ثلاثة، الملحق الأول: عن رحلته في التنقل في دروب المعرفة على تنوعها حتى وصل إلى هذه المفاتح؛ حيث وجد فيها ضالته وبغيته، والملحق الثاني: في أهمية التربية على هذه المفاتيح من الأب لأبنائه والمعلم لطلابه، ثم ختم الملاحق بعلاقة القرآن بالصيام وعلاقته بالتدبُّر.

ما امتاز به منهج المؤلف:

اجتهد المؤلف في الاختصار قدر الإمكان، فجاءت رسالة لطيفة الحجم مع ما حوته من الفوائد.

بيّن المؤلف عند كل مفتاح أهميته، وكيفية تطبيقه، وما يتضمنه من تفريعات وجزئيات إن وُجدت، مع الاستدلال لذلك بنص من الكتاب والسنة أو أحدهما، وأثر لأحد السلف قدر الإمكان.



بنى الكتاب وقسّمه تقسيمًا معاصرًا يظهر فيه تأثره واستفادته مما كُتب في تطوير الذات، قصد به تقريب التدبُّر والإشارة إلى ما يتضمنه من تطوير الذات والنجاح في الحياة وزيادة.

اهتمامه بالاختصارات والترميزات التي تسهل الحفظ، فجمع المفاتيح العشرة في جملة: «لإصلاح ترتجي»، وجمع أهداف قراءة القرآن في: «ثمَّ شعَّ».

مرئيات حول الكتاب:

لما كان عنوان الكتاب: مفاتح تدبُّر القرآن الكريم والنجاح في الحياة، فلو أنه أفرد مبحثًا حول أثر هذه المفاتيح في النجاح في الحياة لكان أولى، وهذا وإن كان نتيجة للكتاب كاملًا؛ لكن إفراده مهم في إبراز هذا الجانب والاهتمام به، وخصوصًا أنه يعالج مفهومًا عند عامة الناس.

لو تم تقسيم المفاتيح حسب متعلقاتها، فبالنظر للمفاتيح نجد أن هناك مفاتيحَ تتعلق بما قبل القراءة، ومفاتيحَ تتعلق بطريقة الأداء، ومفاتيحَ بالأمور المصاحبة.

لو وصف الكتاب: مفاتيح للوصول إلى التدبُّر الأمثل لكان أدق من تحقيق التدبُّر.

لما كانت طريقة الكتاب تشابه طريقة الدورات، فلو أضاف للكتاب بعض الشرائح البيانية، فلا شك أنها ستقرِّب المعلومة بشكل أكبر للقارئ.



المبحث الرابع: كتاب مدارج الحفظ والتدبُّر (أيسر الوسائل لحفظ القرآن الكريم وتدبُّره)

مؤلف الكتاب:

أ.د. ناصر بن سليمان العمر المشرف العام على موقع المسلم، رئيس الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن.

وصف الكتاب:

عبارة عن رسالة لطيفة يبلغ عدد صفحاتها ١٢٠ صفحة

وقد اشتمل الكتاب على ما يلي:

مدخل، ويتضمن أربع مقدمات، وهي:

المقدمة الأولى: حقيقة الإيمان، وأنه هو الحياة الحقيقية للعبد.

المقدمة الثانية: حقيقة القرآن، وأنه كلام الله الذي أنزله إلينا نورًا وهدى.

المقدمة الثالثة: العلاقة بين الإيمان والقرآن، وأن الإيمان إذا كان هو الحياة فالقرآن هو روح هذه الحياة، وشتان بين مؤمن يقرأ القرآن، فهو كالأُترجَّة ذات الريح الطيب والطعم الطيب، وبين المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، فهو كالتمرة التي لا ريح لها وطعمها حلو.

المقدمة الرابعة: فيما يجب على المؤمن تجاه القرآن، وجمعها في ثلاث تاءات: «التعظيم، التدبُّر، التطبيق».

ثم شرع في الشِّق الأول من صُلبِ الكتاب وهو: حفظ القرآن الكريم، تكلم فيه عن فضله، والخطوات العملية التي تُيَسِّرُ حفظه، وذكر فيه سبع عشرة وسيلة؛ وهي:

١- تعاهد النية ومجاهدة النفس في تصحيحها.

٢- الاجتهاد في سلوك سبيل الطاعة والابتعاد عن سبل المعصية.

٣- الدافع الذاتي والعزيمة الصادقة.

٤- اغتنام الشباب وسنوات الصغر.

٥- اغتنام أوقات النشاط والفراغ.

٦-اختيار المكان المناسب عند الحفظ.

٧-الواقعية في مقدار الحفظ اليومي.

٨-مشاركة الحواسِّ عند الحفظ.

٩- تحديد طبعة واحدة للمصحف.

١٠- ضبط النطق.

١١- الحفظ المترابط.

١٢- فهم المعاني.

١٣- الحفظ المتقن.

١٤- التدقيق في الآيات المتشابهات.

١٥- الحفظ الجماعي أدعى للمداومة.

١٦- تعاهد القرآن.

١٧- الحفاظ على الرتبة العالية الشريفة واستحضار عاقبة التفريط.

ثم ختم هذا الفصل بلفتة عن حقيقة الحفظ والبعد عما يشين حامل القرآن من الأخلاق والصفات، وأن الحفظ يراد للعمل به والتدبُّر.

ثم انتقل للحديث عن الشِّق الثاني من الكتاب وهو التدبُّر، وعالج فيه جملة من المسائل؛ وهي:

من مدارس التحفيظ إلى مدارج التدبُّر، ومدى تأثير التدبُّر على الحفظ.

ما الذي لا يجعلنا نتأثر بالقرآن؟ وخلص إلى عدم استحضار أهداف قراءة القرآن والانشغال بالتلاوة عن حقيقة التلاوة.

أهمية تدبُّر القرآن وذكر فيها ست نقاط؛ وهي:

- أنه الغاية المقصودة من تدبُّر القرآن.
- أنه منهج النبي ﷺ.
- أنه منهج سلف الأمة.
- كل مسلم مطالب بالتدبُّر.
- أنه العاصم من الشبهات.
- أن القرآن مستودع للعلوم والمعارف، والتدبُّر مفتاحه.
- العلاقة بين تدبُّر القرآن وتفسيره، وأن التدبُّر أعم من حيث حصوله لكل مسلم، والتفسير أخص لمن يملك الأهلية، وأشار إلى الحذر من أن يكون التدبُّر مدخلًا إلى التفسير بالرأي المذموم والهوى.

العلاقة بين تدبُّر القرآن وفقه السنة.

هل التدبُّر خاص بالعلماء؟

الفرق بين التدبُّر، والتعقل، والتفكر، ومعرفة المعنى.

ضوابط التدبُّر، وذكر منها:

- البعد عن المعاني التي تخالف العقيدة الصحيحة؛ كما يفعل المبتدعة وأصحاب المدرسة العقلية.
- موافقة ما توصل إليه للغة العربية الصحيحة؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين.
- البعد عن الإغراب والتقعر في الاستنباط.
- الحذر من التفسيرات الباطنية التي لا يحتملها ظاهر الآية كما هو منهج الرافضة.
- الحذر من ليِّ النصوص والتعسف في الاستدلال.
- ألا يخالف -ما توصل إليه من معانٍ- المعتبَرَ من أقوال أهل التفسير.

مقاييس قرآنية للتدبُّر، وذكر فيها سبع نقاط:

- اجتماع القلب والفكر حين القراءة.
- البكاء من خشية الله.
- القشعريرة خوفًا من الله.
- زيادة الإيمان والفرح والاستبشار.
- الإعجاب بما في القرآن من الفصاحة والبلاغة.
- استخلاص العبر والحكم من القراءة.
- العمل بما في هذا الكتاب من أعظم الأدلة على تدبُّر القارئ.

أسباب تدبُّر القرآن:

- تحقيق الإخلاص، وتحقيق التوحيد.
- البعد عن المعاصي.
- اختيار الوقت والمكان المناسبين للتدبُّر.
- استغلال الأوقات السانحة في القراءة والتدبُّر.
- تلاوته يوميًّا ومصاحبته.
- مراعاة أحكام التجويد والوقف والابتداء.
- تكرار الآيات المقروءة والتفكر في دلالاتها وسياقاتها.
- الاستناد في فهم المعاني على أحد التفاسير.
- دعاء الله ﷻ والتضرع له.
- التدرج والتدريب على التدبُّر.
- التدارس مع زملائه.
- تسجيل ما يتوصل إليه من معانٍ تدبُّرية.

موانع التدبُّر:

- أمراض القلوب.
- الإعراض عن تلاوة القرآن.
- الانشغال بالتلاوة أو الحفظ عن التدبُّر.
- الاستسلام للشبهات الحائلة دون التدبُّر.

ثمرات التدبُّر:

- تدبُّر القرآن طريق العمل به.
- أثر تدبُّر القرآن في بناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة.
- أثر تدبُّر القرآن على قلب المسلم.
- أثر تدبُّر القرآن على خلق المسلم.
- أثر تدبُّر الإيمان في زيادة الإيمان واليقين.
- شحذ إرادة المسلم وهمته إلى الاجتهاد في العمل الصالح.
- الثبات عند الفتن.
- حسن الظن بالله تعالى والثقة بوعده في التمكين.

ما امتاز به منهج المؤلف:

أنه اختصر وهذب كثيرًا من المسائل التي عرضها في كتابه «أفلا يتدبَّرون القرآن؟» مع ما أضافه من مسائل جديدة.

جاءت مقدمة الكتاب لإيصال رسالة مهمة؛ وهي: أن العبرة الحقيقية من الحفظ والتدبُّر هو حصول الإيمان وزيادته في قلب المؤمن، وهذه هي حياة روح الإنسان، وأن القرآن روح هذه الحياة الإيمانية، فاستحضار هذا التلازم مهم جدًّا في الحفظ والتدبُّر.

فكرة الجمع بين الحفظ والتدبُّر توصل رسالة مهمة: أن الحفظ أول المدارج، فلا يتوقف الحافظ الذي يريد الرقي عند ذلك، بل ينتقل إلى المنزلة العليا والغاية العظمى من الحفظ ألا وهو التدبُّر، كما أن بالتدبُّر تثبيت القرآن في الصدور.

جزء كبير من الكتاب قام على المعايشة والتجربة وسؤال أهل الخبرة والاختصاص، فجاء الكتاب كدراسة علمية عملية استشارية في كتاب واحد.

احتوى الكتاب على مسائل كثيرة متعلقة بتدبُّر القرآن، إضافة إلى الأسباب والموانع.

مرئيات حول الكتاب:

الكتاب وإن كان اختصارًا وتهذيبًا، فأرى أنه بحاجة كذلك إلى الترتيب التسلسلي والمنطقي، وخصوصًا في مسائل التدبُّر التي سبقت الأسباب والموانع، فقد جعلت مسائله المتناثرة بحاجة إلى رابط يجمع هذه الدرر المتناثرة.

مسألة علاقة التدبُّر بفقه السنة، أرى أنها بحاجة إلى معالجة تدبُّرية أكثر من جهة بيان العلاقة، وخصوصًا في مسائل أسباب النزول، أو الأحداث والمواقف النبوية، وكذلك المثال الذي ضُرب في فقه السنة وهو حديث: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»[1] وهو وإن قصد به كثرة استخراج الفوائد من السنة، إلا أن المثال لا علاقة له بالتدبُّر، والله أعلم.

الضوابط أغلبها محاذير، وبعضها يمكن أن يندرج تحت موانع تدبُّر القرآن.

تمنيت لو أضيف إلى مقاييس التدبُّر: الرجوع إليه عند حصول المصائب والمهمات.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٩/٣٠/٨) ومسلم (٢١٥٠/١٦٢٩/٣) من حديث أنس بن مالك.



الفصل الثاني

تحليل كتب المفاتيح والأسباب والموانع، نحو رؤية جامعة

تم حصر جميع الأسباب والموانع التي ذُكرت في الكتب المستهدفة بالبحث، وفرزها ودمج المكرر، وحذف ما ليس له تعلق بالأسباب والموانع من وجهة نظر الباحث، ثم تم فرزها وتقسيمها حسب متعلق كل سبب، وحسب متعلق كل مانع، إضافة إلى بعض النقاط المهمة التي يجب إكمالها:

المبحث الأول: أسباب ومفاتيح تدبُّر القرآن الكريم.

أولًا: أسباب متعلقة بالتهيئة القلبية والنفسية، وهي:

- تحقيق الإخلاص، واستحضار أجر تلاوة القرآن وتدبُّره.
- حب القرآن الكريم وتعظيمه.
- شعور القارئ للقرآن بأن الآية موجهة له.
- البعد عن المعاصي والذنوب.

ثانيًا: أسباب متعلقة بالمفاهيم المرتبطة بالقرآن الكريم:

- النظرة الكلية الشاملة للقرآن الكريم.
- ملاحظة المهمة العملية للقرآن الكريم، وأنه كتاب عمل وتطبيق.
- الثقة المطلقة بالنص القرآني وإخضاع الواقع المخالف له.
- ملاحظة البعد الواقعي للنصوص القرآنية.



ثالثًا: أسباب إجرائية وسلوكية، وهي:

- مراعاة أحكام التجويد والوقف والابتداء.
- الترتيل.
- الالتفات إلى الأهداف الأساسية للقرآن.
- البعد عن الاستطرادات التي تشغل عن التدبُّر.
- معايشة إيحاءات النص وظلاله ولطائفه من خلال تلاوته يوميًّا ومصاحبته، والتكرار الأسبوعي للقرآن أو بعضه.
- تسجيل الخواطر والمعاني لحظة ورودها.
- قراءته ليلًا.
- قراءته حفظًا.
- تدارس القرآن.

رابعًا: أسباب معرفية، وهي:

- الاعتناء بمعاني القرآن التي عاشها الصحابة عمليًّا، وتصور حال الدعوة عند نزول الآيات أثناء القراءة.
- الوقوف على معاني الآيات.
- الاستعانة بالمعارف والثقافات الحديثة عند الحاجة.
- معرفة أساليب القرآن.

المبحث الثاني: موانع تدبُّر القرآن الكريم.

أولًا: موانع قلبية، وهي:

- أمراض القلوب والإصرار على الذنوب.
- انشغال القلب وشرود الذهن.

ثانيًا: موانع سلوكية:

- الإعراض عن تلاوة القرآن.
- الانشغال بالتلاوة أو الحفظ عن التدبُّر.

ثالثًا: موانع تتعلق بالمفاهيم.

- ترك التدبُّر تورعًا عن القول في كلام الله بغير علم.
- قَصْر معاني الآيات على قوم مَضَوا وأحوال خاصة قد انتهت.
- قصر قراءة القرآن على أحوال خاصة.
- النظر في القرآن من خلال مفهومات قاصرة أو مقررات سابقة.
- إحاطة القرآن بالقيود الزمانية والمكانية.

المبحث الثالث: مقاييس لنجاح عملية التدبُّر.

- اجتماع القلب والفكر،
- البكاء من خشية الله.
- زيادة الخشوع.
- زيادة الإيمان.
- الفرح والاستبشار.

- القُشَعْرِيرة خوفًا من الله.
- السجود تعظيمًا لله.
- الإعجاب بما في القرآن من الفصاحة والبلاغة وما حواه من الحكمة.
- استخلاص العِبَر والحِكَم من القراءة.
- العمل بما في هذا الكتاب.
- استحضار آياته عند الفتن والمصائب.



الفصل الثالث

ماذا بعد حصول الأسباب وانتفاء الموانع؟

لا شك أن من اجتهد في تحصيل الأسباب وانتفاء الموانع سيحصل له من الانتفاع بالقرآن والتأثر به شيء كثير، ولكنه قد يشعر بعد الاجتهاد في تحصيل هذه الأسباب أنه لا يتدبَّر بالشكل المطلوب، أو أنه لا يستطيع التدبُّر، وقد يحصل له الزهد في تحصيل هذه الأسباب، أو يظن أنه ليس من أهل التدبُّر، وهذه نقطة مهمة يجب التنبّه إليها.

ذلك لأن ما ذكر من المفاتيح والأسباب والموانع، ثمرتها أن تفتح لقارئ القرآن المجال، وتهيِّئ له الجو المعين على التدبُّر، وتبعده عن صوارفه، ولكن بقي عليه نقطة مهمة يجب تحصيلها، وهي: كيف يتدبَّر؟ أو ما هي الطرق المعِينة على التدبُّر؟

وذلك كرجل أراد أن يدخل بستانًا، ففكَّ الأقفالَ وفتح الأبواب، فرأى من جمال الثمار وطيب الرائحة وبهجة المنظر ما يؤنسه ويسرُّه، ولكنه لا يستطيع الوصول إلى الثمار وأكلها إلا بطرق وأدوات، حينها يجتمع له الحسنيان.

ولما كان كتاب الله مخاطبًا به الجميع، وكان من موانع التدبُّر قَصْرُ التدبُّر على العلماء تورعًا عن القول في كلام الله بغير علم، كان لزامًا عند الحديث عن طرق التدبُّر استحضار هذا الجانب، وذلك أن الناظر فيما كتب في طرق تدبُّر القرآن يرى أنها صالحة لطلبة العلم أو الخواص منهم، فأنى لقارئ غير متخصص أن يدرك ما تدل عليه حروف المعاني أو دلائل التراكيب مثلًا حتى يصل إلى تدبُّر القرآن، ثم بعد ذلك نأمره بتدبُّر القرآن؟!

لكننا نستطيع أن ندلَّه على طرق يسيرة يستطيع التمرن عليها وممارستها، فيتحصل له التدبُّر المقصود بإذن الله، وإذا كان التفسير على أربعة أوجه كما ورد عن ابن عباس ﷺ: «التفسير

على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذَرُ أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[1]، فيمكن أن ننطلق من ذلك في تدبُّر القرآن، فيكون هناك تدبُّر للعامة، وتدبُّر تعرفه العرب، وتدبُّر العلماء، ونجعل لكل وجه من الأوجه الثلاثة جملة من الطرق التي تعين على تدبُّر القرآن.

ولعلي أضرب أمثلة لبعض طرق التدبُّر الأولية التي يمكن تطبيقها على ما تفهمه العامة حال قراءتهم للقرآن وتدبُّرهم.

ومن ذلك:

- التفكر في الآيات القرآنية وظواهرها في الكون، كآيات خلق الإنسان والآيات الكونية، والأمثلة القرآنية التي جاء ضرب المثل فيها بما يشاهده الناس من ماء وشجر ورياح ونحوها.

- ربط الأسباب بالمسببات التي دل عليها ظاهر القرآن، كأسباب هلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين، والأعمال التي تقود إلى الطمأنينة، ونحو ذلك مما يستطيع القارئ أن يلتمسه من خلال القراءة المجردة للقرآن.

- الامتثال المباشر عند قراءة الآيات التي تتضمن ذلك، أو التفاعل مع الآيات التي تتضمن سؤال أو بيان مغفرة الله ورحمته أو شدة عقابه.

- التفكر في عموم الآيات التي تتضمن حثًّا أو نهيًا، وتطبيقها على النفس بما يناسب حالها وقدرتها، فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة]، فيمكن للمتدبِّر أن يختار من الأعمال التي تناسبه ويستطيع بها المسابقة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝١٣١﴾ [آل عمران]، فيتأمَّل في نفسه، ما هي المحاذير والمعاصي التي ينبغي أن يجتنبها حتى يتقي النار، سلمنا الله وإياكم منها.

هذه بعض الأمثلة التي قصدت الاستشهاد بها، وفَتْحَ الآفاق على أهمية تقريب التدبُّر لعامة الأمة بطرق يستطيعون التعامل معها واكتسابها.

---

(١) جامع البيان ط هجر (١/ ٧٠).



وتبقى الطرق الأخرى: من فهم دلالات الألفاظ، والتأمُّل في خصائص التراكيب، وغيرها من طرق التدبُّر كمرحلة لاحقة لأهل التخصص كل حسب تخصصه، فيستخرجون بهذه الطرق من التدبُّرات على قدر ما تحمّلوه من نفع لأنفسهم ونفع للأمة، ومن الكتب التي عالجت هذه الطرق المتخصصة كتاب: المراحل الثمان لطالب فهم القرآن، للشيخ الفاضل الدكتور عصام بن صالح العويد، فقد ذكر ثمانيَ طرق للتدبُّر؛ وهي:

١- الوقوف على الآثار الواردة عن رسول الله ثم الصحابة ثم التابعين.

٢- إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية ومقارنتها بما جاء عن السلف.

٣- معرفة دلالات الحروف التي تربط بين الكلمات.

٤- معرفة دلالات الجملة وما يتعلق بها.

٥- فهم دلالة السياق.

٦- فهم مقصود السورة وما يتعلق بها.

٧- جمع الآيات التي تتكلم عن موضوع واحد في موضع واحد.

٨- العناية بتدوين أخبار الأئمة سلفًا وخلفًا مع القرآن، ثم الاستشهاد بها في محلها من التفسير.

والملاحظ على هذا الكتاب: أن معالجة الكتاب جاءت معالجة تفسيرية، فبعد أن يذكر النقطة وما يندرج تحتها من أقسام وفروع؛ يبيّن أثرها في التفسير، ثم يورد الأمثلة عليها، ولو أنه بيَّن كيفية التدبُّر عند كل مرحلة، أو التعقيب على الأمثلة لبيان كيفية استخراج الهدايات أو الاستنباطات أو التدبُّرات لكان ذلك أقرب للتدبُّر، هذا إذا اعتبرنا أن المؤلف قصد بكتابه التدبُّر، فإن كان مؤلفه قصد التفسير- وهو ما يدل عليه العنوان- فلا إشكال.

ومن الكتب التي أشارت إلى طرق التدبُّر، وهي أقرب للمتخصصين كذلك، كتاب «أول تدبُّر»، وهو رسالة مختصرة لطيفة للزميل العزيز الشيخ الدكتور نايف بن سعيد الزهراني، حيث لخَّص طرق التدبُّر في نقاط أربعة؛ وهي:

١- التفسير ومعرفة المعاني.

٢- القياس على المعنى.

٣- دلالات الألفاظ.

٤- خصائص التراكيب.

إضافة إلى ما ذكر من السوابق واللواحق لعملية التدبُّر من وسائل وأسباب وضوابط.

وفي ختام هذه الدراسة، يجدر الإشارة إلى أن كل رسالة من هذه الرسائل لها طابعها الخاص، وجَوُّها الذي يميّزها، وداعيها الذي دعا صاحبَها للتأليف، وقد اجتهدتُّ في مراعاة ذلك حتى لا أحمِّلَ أي مؤلف ما لا يقصده، وأن تكون المرئيات والملاحظات على قدر الحاجة دون تكلف أو تعسُّف.

فجزاهم الله خيرًا على ما بَنَوْه وأسسوه وأضافوه في خدمة كتاب الله وتقريبه للأمة.



الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى من والاه... أما بعد:

بعد الجولة الماتعة في هذه الكتب والرسائل، أوصي بما يلي:

تيسير ما كتب في التنظير لتدبُّر القرآن، من خلال الجمع والاختصار والتقسيم، وإخراج ما فيه استطراد وما كتب في مرحلة معينة، فكثرة المراحل وعدم تنظيمها يُشتِّت المتدبِّر.

رسم مراحل التدبُّر رسمًا واقعيًّا؛ حتى يعرف المتدبَّر من أين يبدأ؟ وإلى أين ينتهي؟

أقترح وضع معايير لقياس أثر التدبُّر، وقد أشار لذلك كل من أ.د. ناصر العمر، ود. خالد اللاحم في مقاييس وعلامات التدبُّر، وأستدل لذلك بما ذكره ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] حيث قال: «فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينًا»[1]. هذا في أثر التدبُّر على المتدبِّر، أمَّا قياس أثر التدبُّر من ناحية صحة المعنى فالأمر فيه جلي، وهو مطلب من المطالب في وضع معايير لقياس صحة التدبُّر.

مراعاة شرائح المجتمع عند التأليف أو العرض لطرق التدبُّر على وجه الخصوص، فحين نأمر الناس بالتدبُّر يجب أن نضع لكل شريحة ما يناسبها، حتى لا نشُقَّ عليهم أو نوقِعَهم في الزلل والتكلُّف، فشريحة العامة غير شريحة المتخصصين، وشريحة المتخصصين في مجالات العلوم الدنيوية غير شريحة المتخصصين في مجالات العلم الشرعي والدراسات القرآنية على وجه الخصوص.

(١) تفسير القرآن العظيم، دار طيبة (٨/ ٩٣).

الانتقال من التنظير إلى التطبيق بإشاعة ثقافة التدبُّر من خلال جلسات المدارسة القرآنية، والدورات التدريبية في التدبُّر، واستخدام وسائل التقنية التفاعلية في ذلك.

أسأل الله تعالى أن يستخدمنا في طاعته والنصح لكتابه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الورقة الثالثة

تحليل المؤلفات في تدبر القرآن

«المقررات والمناهج»

إعداد

د. فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي

أستاذ الدراسات القرآنية المساعد في كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة طيبة في المدينة المنورة

السيرة الذاتية

الاسم: فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي

مكان الميلاد: المدينة المنورة

الموقع الإلكتروني: www.alwahbi.net

البريد الإلكتروني: Dr.alwahbi@Gmail.com

صندوق البريد: المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة: ٢٠٢٩٤

الرمز البريدي: ٤١٤٥٥

الدراسة والمؤهلات:

- البكالوريوس في الشريعة بتقدير ممتاز (٤,٩٠) «الجامعة الإسلامية، كلية الشريعة، المدينة المنورة، ١٤١٨/١٤١٩هـ»

- دبلوم تربوي من قسم التربية «الجامعة الإسلامية، كلية الدعوة، المدينة المنورة، ١٤١٨/١٤١٩هـ»

- الماجستير من قسم القرآن وعلومه بتقدير ممتاز «جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، الرياض،١٤٢٧هـ».

- الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من قسم الكتاب والسنة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة، «جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، مكة المكرمة ١٤٣١هـ».

الخبرة العلمية:

- عميد عمادة التعليم عن بعد من ١٤٣٥/١٢/١هـ وحتى الآن.

- المشاركة في تحكيم البحوث المقدمة لندوة «دور الجامعات العربية في تعزيز مبدأ الوسطية لدى الشباب العربي» المقامة في جامعة طيبة ١٤٣٢هـ

- باحث متعاون مع معهد خادم الحرمين الشريفين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٢٨هـ



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ من المواضيع الحَرِيَّةِ بالدراسة والبحث والتأصيل؛ موضوعَ تدبُّر القرآن الكريم، ولقد أحسن القائمون على الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن في العناية بهذا الموضوع، وعقد المؤتمرات العلميَّة للمتخصصين في الدراسات القرآنية، وما يزال الموضوع بحاجة لمزيد من الأبحاث والدراسات التي يمكن أن تؤسس ذلك المنهج الصحيح لتدبُّر القرآن الكريم.

وتدبُّر القرآن واجب على الأمتين: أمةِ الدعوة، وأمةِ الاستجابة، وقد وردت الأدلة العامة الدالة على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[محمد]، وقال ﷻ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص]، وقال ﷻ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

وفي هذه الدراسة حاولتُ الوقوف مع توصيفات المقررات والمؤلفات التي قُررت في تدريس تدبُّر القرآن في الجهات العلميَّة والأكاديميَّة، وتحليلَها، وإبداءَ الرأي حولها، أسأل الله تعالى أن تكون متقبَّلة لديه، خالصةً لوجهه، إنه جواد كريم.

أهمية البحث:

- الاطّلاع على جهود المؤسسات العلميَّة في تدريس مقرر تدبُّر القرآن الكريم.

- معرفة الآلية المعتمدة لدى الجهات العلميَّة في تدريس المقرر، ومدى موافقة ذلك لطبيعة المقرر.

- الاطلاع على مفردات المقررات والمناهج العلميَّة وصياغتها، وتحليلها.

- معرفة الأهداف المرسومة للمقررات والمناهج، ومدى مواءمتها للمفردات.

- الوقوف على مصادر المقررات والمناهج التي يرجع إليها الطلبة عند دراستهم للمقرر، ومدى كفايتها للمفردات.

أهداف البحث:

- معرفة المعايير العلميَّة لكتابة وتوصيف مقرر دراسي في تدبُّر القرآن.

- مقارنة المناهج والمقررات في تدبُّر القرآن الكريم ببطاقة توصيف المقرر المعتمد من الهيئات المختصة بالجودة.

خطة البحث:

المبحث الأول: معايير توصيف المقرر الدراسي.

المبحث الثاني: عرض للمقررات وتحليلها،وفيه مطالب:

١- أصول التدبُّر وطرق الاستنباط «أكاديميَّة تفسير للدراسات القرآنية».

٢- تدبُّر القرآن الكريم «معهد أمهات المؤمنين بالأحساء».

٣- مقرر التدبُّر «معهد معلمات القرآن الكريم بمحافظة الزلفي».

٤- مقرر تدبُّر القرآن الكريم للتعليم العالي.

٥- مخطط عام للتدبُّر.

المبحث الثالث: التجربة في تدريس مقرر أصول تدبُّر القرآن الكريم.

المبحث الأول

معايير توصيف وبناء المقرر الدراسي

إن بناء المقررات الدراسية وتوصيفها لا بد أن يشتمل على عدد من المعايير والأسس المنهجية؛ ليكون المقرر محقِّقًا للأهداف المنشودة منه، ومعرفة تلك المعايير أمر مهم في بناء مقرر تدبُّر القرآن الكريم، ليكون المقرر منسجمًا مع الآليات العلميَّة التي تُصاغ بها المقررات الدراسية، وبهذه الآليات يتحقق عددٌ من الأهداف العلميَّة من بناء المقرر، ومنها:

- مراقبة جودة تدريس المقرر وضبطها.

- التزام أستاذ المقرر بمنهج محدد شامل لعناصر المقرر وآليات تدريسه، والمراجع والمصادر التي يُلزم بها الطلبة.

- إمكانية تحسين المقرر وتطويره وفق المستجدات العلميَّة.

- ربط أهداف المقرر ونواتجه بأهداف المؤسسة العلميَّة، بحيث يكون المقرر محقِّقًا لأهداف الجهة العلميَّة.

لذلك ينبغي أن تشتمل بطاقة المقرر والمنهج الدراسي على عدد من الأسس؛ ليتكون المقرر بشكل علمي صحيح، ومن تلك الأسس ما يأتي[1]:

---

(١) ينظر: نماذج الهيئة الوطنية للتقويم والاعتماد الأكاديمي، منشورة في عدد من المواقع الرسمية؛ منها: http://goo.gl/68E5f1

أولًا: التعريف بالمقرر الدراسي ومعلومات عامة عنه:

واشتمال توصيف المقرر على هذه المعلومات أمر مهم للتعريف به، حيث يشتمل التعريف به على عدد من النقاط:

- اسم المقرر ورمزه.
- عدد الساعات المعتمدة للمقرر.
- المستوى الدراسي الذي يُقدَّم فيه المقرر.
- المتطلبات الدراسية السابقة والآتية لهذا المقرر.

ثانيًا: أهداف المقرر الدراسي:

وينبغي أن يشتمل المقرر الدراسي على أهداف محددة، وأن تكون صياغة هذه الأهداف صياغة صحيحة، بحيث يمكن قياس هذه الأهداف، ومن تلك الأهداف:

أولًا: مجال المعرفة

يراعى فى صياغة نواتج تعلم مجال المعرفة «الأهداف السلوكية في مجال المعرفة» أن تستخدم الأفعال التي تعبر عن مستويين فقط من مستويات المعرفة؛ وهما: المعرفة، والفهم، ولكل مستوى أفعال تعبر عنه.

المعرفة أو الحفظ:

يذكُر	يعرِّف	يصف	يسمِّي
يتعرف	يقابل/يزاوج	يختار	يرتب
يعطي	يكتب	يردد	يسرد
يسمع	يسترجع	يعدد	يحدد

الفهم «الاستيعاب أو الإدراك»:

يفسر	يستنتج	يميِّز	يترجم
يصنف	يناقش	يوضح	يشرح
يعين	يختصر	يشير	يحوِّل
يتنبأ	يتوقع	يعلل	يستنبط
يستخلص	يشتق	يلخص	يعبر
يفسِّر	يكتب	يعمِّم	يحول
يجد	يؤيد	يفرق	يعطي أمثلة

ثانيًا: مجال المهارات الإدراكيَّة

يراعَى فى صياغة نواتج تعلم مجال المهارات الإدراكية؛ أن تستخدم الأفعال التي تعبر عن مستويات المعرفة الآتية: التطبيق، التحليل، التركيب، التقويم، ولكل مستوى أفعال تعبر عنه.

التطبيق:

يبرهن	يستخرج	يحسب	يستخدم
يطبق	يوظف	يستعمل	يضرب
يشغل	يحلُّ	يوجد	يصف
يكتشف	يرسم	يطور	ينظم
يحضّر	يمثل	يُجري	يعمم
يصنّف	يعدِّل	يتنبأ	ينتج
يعالج	يغير	يوضح	يبيِّن

التحليل:

يحلل	يقارن	يفرق	يفصل
يوازن	يقسّم	يفكّك	يربط
يخطط	يجزّئ	يميّز	يفحص
يعزل	يصنّف	يبيّن	يشير
يبرهن	يحدد	يوضح	يستخرج
يضبط	يتعرف	يختار	يفسر

التركيب:

يقترح	يؤلف	يكوّن	يربط
يصوغ	يكتب	يناقش	يتحدث
يضع	يركب	يصمم	يشتق
يكتشف	يبتكر	يخطط	يعدّل
يصنّف	ينقح	يرتب	يجمع
يشكّل	يستخلص	ينتج	يلخص

التقويم:

يفند	يحكم	يصدر «حكمًا»	يبدي «رأيه»
ينقد	يدافع	يعرب «عن رأيه»	يختار
يجادل	يقوّم	يبيِّن	يفاضل
يرتب	يحاور	يدحض	يناظر



يقرر	يقدِّر	يصف	يدعم
يقيّم	يحاجج	يناقش	يوازن
يستخلص	يقارن	يعلل	يبرهن
يميز	يشرح	يبرر	يفسر

الابتكار:

كما تم إضافة مجال آخر لمجالات الأهداف السلوكية في الآونة الأخيرة، وهو مجال الابتكار؛ والأفعال التي تعبر عنه هي ما يلي:

يؤلف	يصمم	يكتب موضوعًا	يستحدث
يبتكر	يعدل	يقترح	يخترع

ثالثًا: مجال مهارات التعامل مع الآخرين، والقدرة على تحمُّل المسؤوليّة:

يسهم	يبادر	يتحمّل	يستخدم
يمارس	يتعامل	يتعاون	يتصرف

كما حُدِّدتْ نواتج تعلُّم محددة في هذا المجال، والتي تمثلت في الأهداف السلوكية الآتية لمرحلة البكالوريوس:

- يسهم في الحلول البنَّاءة للقضايا في المواقف الجماعية، سواءٌ أكان في مركز قيادي أم كان عضوًا في جماعة.

- يمارس قيادة الجماعة في مواقف متنوعة تتطلب استجابات مبتكرة.

- يبادر في تحديد القضايا التي تتطلب عناية خاصة والتصدي بشكل مناسب لها، سواءٌ أكان ذلك بشكل انفرادي أم من خلال العمل الجماعي.

- يتحمَّل مسؤولية تعلمه الذاتي.

- يحدد وسائل إيجاد المعلومات الجديدة أو أساليب التحليل اللازمة لإنجاز المهام المسندة إليه.

- يتعامل مع القضايا الأخلاقية والمهنية التي لها علاقة بالقيم والأحكام الأخلاقية بطرق متوافقة مع القيم الأساسية والأخلاقيات المهنية المتعارف عليها.

رابعًا: مجال مهارات الاتصال و المعلومات والمهارات العدديَّة:

يحدد	يتواصل	يعيِّن	يداوم
يطبق	يستخدم	يزاول	يستعمل

حُدِّدتْ نواتج تعلم محددة في هذا المجال، والتي تمثلت في الأهداف السلوكية الآتية لمرحلة البكالوريوس:

- يحدد الأساليب الإحصائية والرياضية ذات العلاقة عند دراسة القضايا والمشكلات.

- يطبِّق الأساليب الإحصائية والرياضية بشكل إبداعي في تفسير المعلومات واقتراح الحلول.

- يتواصل بفاعلية شفهيًّا وكتابيًّا.

يستخدم أشكال العرض المناسبة للقضايا المختلفة وللمتلقين المختلفين.

يستخدم بشكل معتاد «روتيني» تقنيات المعلومات والاتصالات في جمع، وتفسير، وإيصال المعلومات والأفكار.

خامسًا: مجال المهارات الحركيَّة النفسيَّة «إن وجدت»:

يؤدي	يثبت	يعمل	يقوم
يصنع	يرسم	يستخدم	يقيس
يمثل	يحرك	يصنع	يبني
يصلح	يركب	يمدد	يركض
يعمل	يمسك	ينظم	ينسق
يطبق	ينفذ	يعزف	يستخدم
يصوب	يرتب	يطبق	يضبط
يقلد	يحضِّر	يجسِّد	يجري
ينفذ	يفحص	يزن	يشيد
يرتب	يجمع	يؤلف	ينشئ
يُوجد	يصمم	يبدع	يخطط
يبتكر	يركب	يجزئ	يصوغ

ملاحظة:

هناك أفعال ينبغي تجنبها عند صياغة الأهداف السلوكية؛ وهي:

يفهم	يعرف	يعتقد	يؤمن
يدرك	يستوعب	يتعلم	يعي

ثالثًا: توصيف المقرر الدراسي:

وهنا تُذْكَر الموضوعات التي يتناولها المقرر موزعة بحسب الأسابيع الدراسية، والساعات التدريسية لكل لقاء أو محاضرة، مع ذكر تفصيل ما يُذْكَر في كل محاضرة، ويجب أن يكون المقرر أو الكتاب الدراسي موزعًا بهذه الطريقة، كما يتضمن التوصيف إستراتيجية التدريس للمقرر، وطرق التقويم.

رابعًا: مصادر التعلم للمقرر:

وتشتمل على الكتب والمراجع الورقية والإلكترونية والمواد التعليمية التي يتم تدريس المقرر من خلالها.

المبحث الثاني

عرض للمقررات وتحليلها

سيتم في هذا المبحث عرضُ أهمِّ ما اطُّلِعَ عليه من المقررات التي تم اعتماد تدريسها في المؤسسات العلميَّة، مع مراعاة أن «تدبُّر القرآن» مقررًا دراسيًّا لم يعتمد في غالب الجامعات الحكومية، وكثيرٍ من المؤسسات التعليمية الخيرية.

وقد دُرِسَ عدد من المقررات وحُلِّلتْ للاطلاع على أهم القضايا التي يجب ملاحظتها في تلك المقررات، كما سيأتي:

المطلب الأول: مقرر «أصول التدبُّر وطرق الاستنباط» في أكاديميَّة تفسير للدراسات القرآنية

يُدرس هذا المقرر في المستوى الثاني ضمن برنامج السعدي كأحد البرامج الذي تقدمه الأكاديميَّة، ويمكن تحليل المقرر كالآتي[1]:

أهداف المقرر:

أولًا: اتساق أهداف المقرر ضمن أهداف البرنامج:

لم أجد أهداف برنامج السعدي منشورة ضمن الموقع الخاص بالبرنامج، حتى تُحَلَّلَ أهدافُ المقرر وتُقارَنَ بأهداف البرنامج، إلا أن أهداف المقرر تدخل ضمن هدف الأكاديميَّة العام: «تأهيل مختصين يملكون كفاءة عالية في التفسير وعلوم القرآن الكريم».

(١) ينظر موقع أكاديميَّة تفسير على الرابط: http://tafsiracademy.com/enrol/index.php?id=17

ثانيًا: صياغة الأهداف:

بالنظر إلى أهداف المقرر نجد أن الأهداف هي:

- أن يعرف الطالب معنى مصطلح التدبُّر والاستنباط.
- أن يعرف الطالب طرق التدبُّر وأساليب الاستنباط.
- أن يتدرب الطالب على ممارسة التدبُّر من خلال تطبيق شروط التدبُّر.
- أن يتدرب الطالب على استنباط المعاني والدلالات من الآيات القرآنية.
- أن يتعرف الطالب على الأمور المعينة على التدبُّر.
- أن يعرف الطالب طرق الاستنباط من القرآن الكريم.
- أن يكتسب الطالب القدرة على التدبُّر والاستنباط.

وبتحليل الأهداف نخرج بما يأتي:

اشتمال الأهداف على ما لا يمكن قياسه، مثل: «يَعرِف»، ويمكن الاستعاضة عنه بـ«يُعَرِّف»، فيكون الهدف: «أن يُعَرِّف الطالب مصطلح التدبُّر والاستنباط»، فالهدف المشتمل على «يُعَرِّف» يمكن قياسه، ويمكن سؤال الطالب: «عَرِّف»، أما «يَعرِف» فلا يمكن السؤال عنه إلا بـ(عَرِّف، عدِّدْ، اذكر) مثلًا. فإذا أردنا أن نقيس إمكانية تحقيق الهدف فإننا نصوغ عليه سؤالًا ثم نجيب، فإذا كان الجواب هو ما تم تحديده في الهدف الإجرائي فإن الهدف صحيح.

اشتملت الأهداف على قياس الفهم والاستيعاب، كما في الهدف الثالث والرابع، ويمكن صياغة الهدف مباشرة «أن يطبق شروط التدبُّر»، «أن يستنبط المعاني والدلالات من الآيات القرآنية».

الهدف السادس هدف معرفي، ويمكن جعله هدفًا مهاريًّا، فيعبر عنه بـ«يطبق» أو «يبين» طرق الاستنباط.

لم تشتمل الأهداف على ما يخص موضوع الانحراف من الاستنباط، ويمكن إدراج أهداف مهمة في هذا الموضوع؛ لقياس مهارة التقويم والنقد وغيرها، مثل أن يقال: «أن يناقش»، أو «أن يفنِّد»، أو «أن ينقد» أسباب الخطأ والانحراف في الاستنباط.

توصيف المقرر:

جاء توصيف المقرر بحسب الجدول الآتي:

الموضوع
- تعريف التدبُّر والاستنباط والتفسير لغة واصطلاحًا، وهل هناك فارق بين هذه المصطلحات؟ - أهم الكتب المؤلفة في التدبُّر والاستنباط. - أهمية التدبُّر، فضله، موضوعه، مقاصده، أركانه.
- هل للتدبُّر والاستنباط شروط خاصة؟ - وسائل التدبُّر والاستنباط المعينة عليه. - موانع التدبُّر والاستنباط.
- مظاهر التدبُّر وعلاماته. - ثمراته ونتائجه. - نماذج من أحوال المتدبِّرين.
أقسام الاستنباط: - بالنظر إلى الإفراد والتركيب في النص. - بالنظر إلى المعنى المستنبَط. - بالنظر إلى ظهور المعنى وغموضه.

طرق الاستنباط: - الاستنباط بدلالة الإشارة. - الاستنباط بدلالة النص. - الاستنباط بدلالة المفهوم. - الاستنباط بدلالة الاقتران. - الاستنباط بالمطَّرِد من أساليب القرآن.
أسباب الانحراف في الاستنباط، مع ضرب الأمثلة عليها: - اعتقاد المعاني ثم حمل الألفاظ عليها. - الخطأ في فهم معنى باطن القرآن. - تقديم العقل على النقل.

تحليل الموضوعات:

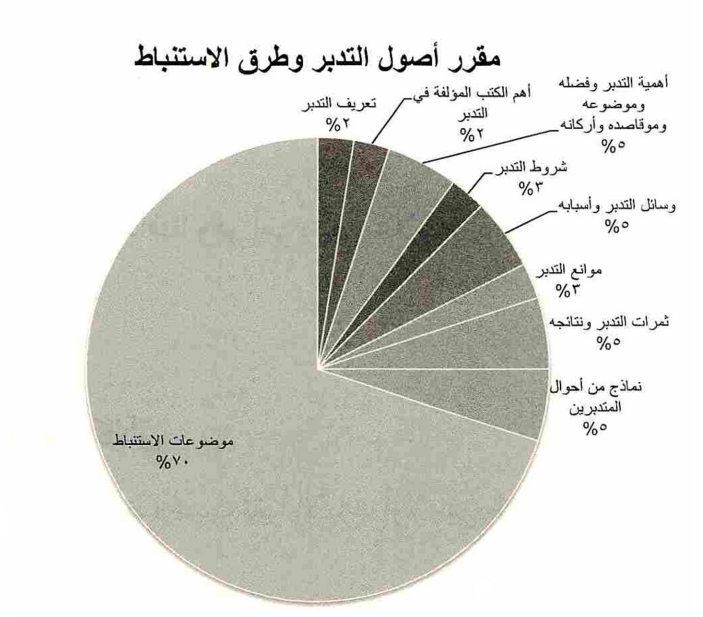
اشتملت الموضوعات على مفردات مهمة لموضوع التدبُّر، بحيث احتوى المقرر على أهم عناصر موضوع التدبُّر، ويمكن ملاحظة ما يأتي:

انقسام موضوعات المقرر إلى: «التدبُّر» و«الاستنباط»، وهو موافق لاسم المقرر: «أصول التدبُّر وطرق الاستنباط».

اشتمال الموضوعات على موضوعات تبدأ بصيغة الاستفهام «هل»، والأولى كتابة الموضوع مباشرة، حيث ستقدم المادة العلميَّة المعدة في هذا الموضوع للطلبة، كبقية عناصر المقرر.

نَصِيب موضوع التدبُّر من المقرر هو النصف تقريبًا، بينما يكون النصف الآخر للاستنباط، وهو ذو علاقة قوية بالتدبُّر.

الموضوعات المطروحة في التدبُّر هي:



وبهذا يظهر أن موضوعات التدبُّر للمقرر تشكل تقريبًا (٣٠ ٪) من المقرر، وباقي الموضوعات هو لموضوع الاستنباط.

كما يلاحظ خلو المقرر من التدريب على التدبُّر، وهو أمر مهم جدًّا في التدريب على التدبُّر، بحيث يخصص لقاءات للاستماع على نماذج التدبُّر المعدة من قبل الطلبة، وتقويمها؛ لنتأكد من إدارك الطلبة للموضوع.

ويلاحظ أن حجم المادة العلميَّة المقدمة لا يتناسب مع عدد اللقاءات المقررة، فلو استقل موضوع التدبُّر بمقرر لكان أولى.

مصادر التعلم للمقرر:

لم يُنص على المصادر التي يتم استقاء موضوعات المقرر منها، سواءٌ من المراجع الورقية أو الإلكترونية.

المطلب الثاني: مقرر «تدبُّر القرآن الكريم» معهد أمهات المؤمنين بالأحساء

يُدرَّسُ هذا المقررُ ضمن مقررات معهد أمهات المؤمنين بالأحساء، ويقبل المعهد خريجات الثانوي والكليات، ويعطي شهادة دبلوم، ومدة الدراسة في المعهد سنتان.

ويمكن تحليل المقرر كالآتي[1]:

أهداف المقرر:

لم يُذكر للمقرر أي أهداف! وهو أمر ينبغي علاجه؛ إذ لا يمكن أن يقوم التوصيف إلا بناء على أهداف صحيحة.

توصيف المقرر:

جاء توصيف المقرر كالآتي:

مقرر التدبُّر يسبق الحفظ، بحيث تُقرَأ الآيات أولًا عن طريق القارئ الصوتي، ثم بعد ذلك يُتَدبَّرُ الربعُ بالطريقة التالية:

مقرر التدبُّر ليس تفسيرًا يُرجَعُ فيه لأقوال المفسرين، وإنما هو تفعيل للآيات لنقل معانيها للواقع العملي، فكتب التفسير مساعدة وليست أساسًا في التدبُّر.

مقرر التدبُّر يراعَى فيه المعنى العام السهل اليسير الذي يظهر عند التأمُّل والتفكر.

تشجيع الدارسة على تدبُّر القرآن الكريم، بتفعيل مشاركتها في استنباط الفوائد، والمشاركة الجماعية في فهم الآيات وإدراك مقاصد السور.

لتفعيل درس التدبُّر بطريقة إيجابية قُسِّمت الدارسات إلى مجموعات صغيرة، بلغ عددها اثنتي عشْرة مجموعة، في كل قاعة أربع مجموعات.

يُطلَبُ من كل مجموعة المشاركة في درس التدبُّر بفوائد، تشارك المجموعة في كتابتها وعرضها في درس التدبُّر.

لا يُطلَب من الدارسات الرجوع لشيء من كتب التفسير، بل يُطلَبُ فَهْمهنَّ وإدراكهنَّ السهل لمعاني الآيات.

---

(١) منشور على موقع المعهد في الإنترنت على الراوبط:

http://www.omhat.net/ma3hd/play.php?catsmktba=61

http://www.omhat.net/ma3hd/play.php?catsmktba=60

الرجوع لكتب التفسير لفهم بيان الكلمات الغريبة، ولمعرفة أسباب النزول، وللتعمق أكثر في فهم الآيات، ويكون ذلك بعد درس التدبُّر وليس قبله.

يثار في مقرر التدبُّر عدد من الأسئلة المحفِّزة على قوة التدبُّر، ويُطلَبُ من المجموعات التفكير الجماعي في الإجابة عنها.

يُعرَض على الشاشة أمام الدارسات فوائد عامة من الآيات قبل حفظها؛ لربط الدارسات بالتدبُّر الحقيقي البعيد عن تعقيدات بعض كتب التفسير والبحوث المطوَّلة البعيدة عن التدبُّر.

تقويم مقرر التدبُّر يعتمد على إجراء بحوث مختصرة، تجيب فيها الدارسة عن الأسئلة التي تثار أثناء مقرر التدبُّر بالرجوع إلى الكتب الآتية[1]:

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

المفردات في غريب القرآن الكريم.

تفسير ابن سعدي، أو غيره من التفاسير المختصرة الميسرة.

---

(١) جاء التعريف بطريقة هذه الأبحاث كما يأتي:

١- اختيار موضوعات مختصرة وميسرة.

٢- يعتمد منهج البحث على الاستنباط والفهم والتأمُّل في الآيات.

٣- تدريب الدارسة على جمع الآيات المتشابهة ودراستها.

٤- جمع الكلمات المتكررة ومعرفة الفرق بينها في المعنى من خلال السياق.

٥- لما كان هدف بحوث مقرر التدبُّر تكوين ملكة التدبُّر لدى الدارسة؛ اقتصر في المراجع العلميَّة على ثلاثة مراجع فقط؛ هي: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المفردات في غريب القرآن الكريم، تفسير ابن سعدي، أو غيره من التفاسير المختصرة الميسرة».

٦- تكون مراجعة الكتب السابقة للاستعانة بها في جمع الآيات، ومراجعة ما تُوُصِّلَ إليه من فهم الغريب من خلال السياق، ولتقويم ما تم إدراكه وتحصيله.

٧- التركيز على معرفة سياق الآيات من حيث مناسبة الآية لما قبلها، ومناسبتها لموضوع السورة، مع مراعاة السياق العام للآيات؛ وهو هداية الخلق.

٨- تدريب الدارسة على استنباط الفوائد ومعرفة السياق من خلال النظر في الآيات قبل مراجعة أي كتاب من كتب التفسير.

٩- الابتعاد عن الإكثار من النقل عن كتب التفاسير بما لا يحقق الفائدة المرجوة من البحث. انظر الرابط: http://www.omhat.net/marhd/play.php?catsmktba=٦٠

تحليل التوصيف:

بعد النظر في توصيف المقرر يمكن تحليله كما يأتي:

ليس فيما ذُكِرَ توصيفٌ حقيقي للمقرر، وإنما هو ذكر لآلية التدريس في المقرر، وبيان الطريقة التي يتم فيها تناول المقرر بين الطلبة.

لم يتعرض التوصيف لأي مفردة نظرية في بيان التدبُّر ومفهومه وأنواعه وغير ذلك من المقدمات النظريَّة التي تسبق عملية التطبيقِ والأبحاثِ من قبل الداراسات.

يتميز المحتوى بالتطبيق والمشاركة والتدريب، فجميع ما ذُكِرَ عبارة عن تدريب للداراسات وأبحاث يُكلف بها للداراسات، وهو أمر مهم في تعليم التدبُّر ونشره، إلا أنه يجب أن يسبق ذلك المحتوى النظري للتدبُّر، الذي يُبنى عليه ذلكم التطبيق والتدريب.

مصادر التعلم للمقرر:

ذُكِرت مراجع للأبحاث ولجمع المادة التفسيرية وتقويمها أثناء عملية التدبُّر، وهي:

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

المفردات في غريب القرآن الكريم.

تفسير ابن سعدي، أو غيره من التفاسير المختصرة الميسرة.

وهي مراجع عامة وليست في موضوع التدبُّر.

المطلب الثالث: مقرر «التدبُّر» معهد معلمات القرآن الكريم بمحافظة الزلفي

يُدرَس هذا المقرر ضمن مقررات معهد معلمات القرآن الكريم بمحافظة الزلفي.

ويمكن تحليل المقرر كالآتي[1]:

(١) منشور على الموقع: http://www.m3ahed.net/Pages/CenterMethodology/

أهداف المقرر:

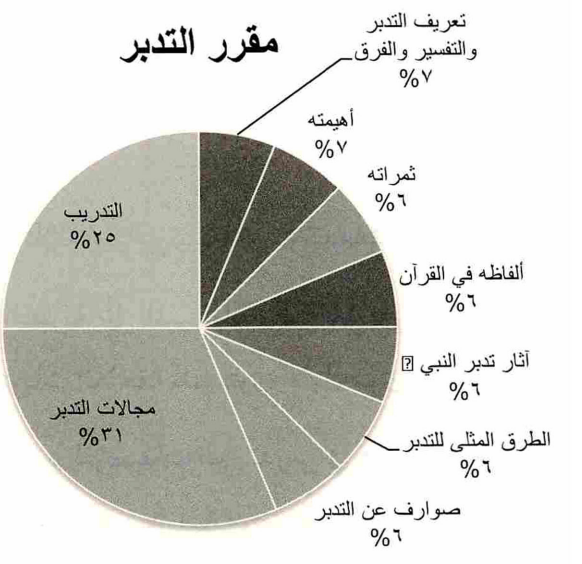
- إدراك أهمية تدبُّر كلام الله ﷻ.
- الوقوف على ثمرات التدبُّر.
- ربط الفوائد والدلالات المستنبطة من الآيات بواقع الدارسات.
- ربط تدبُّر الآيات بمنهج حفظ القرآن.
- إطلاع الدارسة على أساليب التدبُّر.

تحليل الأهداف:

اشتملت الأهداف على ما لا يمكن قياسه، كمثل «إدراك»، «الوقوف»، ولو وُزِّعتِ الأهداف على جميع المجالات المعرفية والمهارية وغيرها لكان أولى، خاصة أن موضوع التدبُّر بحاجة لعدد من المهارات المتنوعة.

توصيف المقرر:

جاء توصيف المقرر كالآتي:



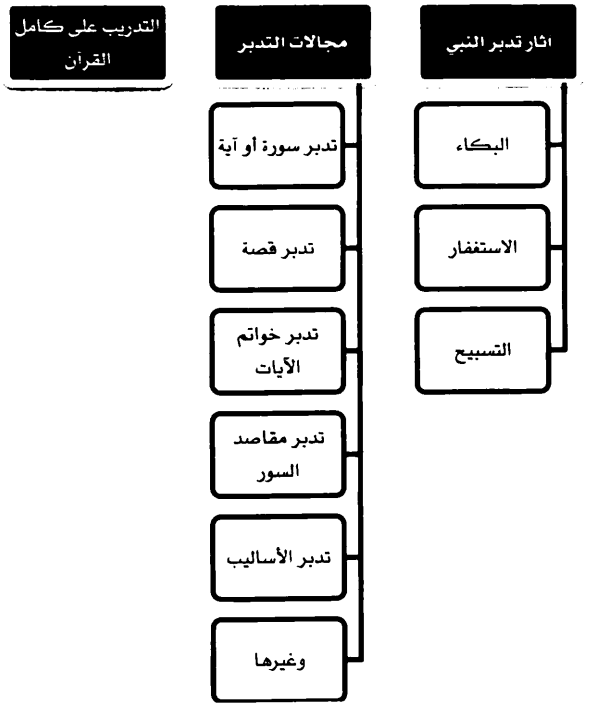
مقدمات في التدبُّر	مجالات التدبُّر منها	التدريب
التدبُّر، والتفسير، والفرق بينهما. أهمية تدبُّر القرآن. ثمرات تدبُّر القرآن. ألفاظ التدبُّر في القرآن. آثار تدبُّر النبي ﷺ للقرآن: «بكاؤه، استغفاره، التسبيح،...» الطرق المثلى للتدبُّر؛ ومنها: التكرار، واستجماع الخواطر، والفراغ من الشواغل، واستحضار عظمة منزِّل القرآن. صوارفُ تَحول دون تدبُّر القرآن.	تدبُّر السورة كاملة، والآية الواحدة أو أكثر، والموضوع الواحد في السورة الواحدة أو في القرآن كله. تدبُّر القصة القرآنية في سورة واحدة أو في القرآن كله، والأمثال القرآنية، أقسام القرآن، الحوار القرآني. تدبُّر مواطن الوقف والابتداء، وخواتم الآيات. تدبُّر مقاصد السور. تدبُّر أساليب القرآن.	- المستوى الأول: التدبُّر للآيات من بداية سورة البقرة إلى نهاية سورة الأنعام. - المستوى الثاني: التدبُّر للآيات من بداية سورة الأعراف إلى نهاية سورة الإسراء. - المستوى الثالث: التدبُّر للآيات من بداية سورة الكهف إلى نهاية سورة يس. - المستوى الرابع: التدبُّر للآيات من بداية سورة الصافات إلى نهاية سورة الناس.

تحليل التوصيف:

ينقسم التوصيف إلى ثلاثة أجزاء رئيسة؛ هي: «مقدمات التدبُّر، ومجالاته، والتدريب عليه».

لم تُوزَّع الجوانب النظريَّة على المستويات كما فُعل في الجانب التطبيقي، فلا يُعلم ماذا ستدرس الطالبة في المستويات اللاحقة للمستوى الأول سوى التطبيق.

يُعد التوصيف من أجود التوصيفات التي تُدرس في هيئة علمية، وقد اشتمل على الجانبين: النظري والتطبيقي، وتميز التوصيف بدراسة موضوعات لم تُذكَر في توصيفات أخرى، ومنها:



مصادر التعلم للمقرر:

مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبُّر والمفسر.

من أجل تدبُّر القرآن.

مفاتيح تدبُّر القرآن.

قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ.

ختم الآيات بأسماء الله الحسنى ودلالتها.

والمصادر مفيدة في موضوع التدبُّر، ولكنها غير مستوفية لجميع المفردات.

المطلب الرابع: مقرر تدبُّر القرآن الكريم للتعليم العالي (أ. د. محمد العواجي)

ويمكن تحليل المقرر كالآتي[1]:

أهداف المقرر:

- أن يتعرف على مفهوم التدبُّر وعلاقته بالمصطلحات القرآنية الأخرى.
- أن يتعرف على التدبُّر الصحيح في القرآن الكريم وثمراته، وعوائق التدبُّر.
- أن يكون قادرًا على البحث والكتابة، وإنتاج مادة في التدبُّر بأسلوب علميٍّ.
- أن يستطيع استنتاج مناهج وأساليب العلماء في التدبُّر، ونقد الخاطئ.
- أن يتعرف على أساليب القرآن المعِينة على التدبُّر.
- أن يتقن مهارات التدبُّر والمدارسة وأنواعها.
- أن يكون قادرًا على ممارسة التربية من خلال المنهج القرآني.
- أن يمارس تدبُّر القرآن ويتدارسه مع غيره على بعض السور والآيات.
- تنمية ملكته وقدرته على التدبُّر وربط الحياة بمعاني الآيات المباشرة.

توصيف المقرر:

جاء التوصيف مقسَّمًا على ثلاثة أجزاء، مشتملًا على كم كبير من الموضوعات في مجال التدبُّر، ويمكن بيان التوصيف في الجدول الآتي[2]:

---

(١) منشور على الموقع:

http://www.m3ahed.net/Pages/CenterMethodology/

(٢) وضعت أمام كل معيار رقمًا يدل على عدد الموضوعات المندرجة تحته.

مفهوم التدبّر (٨) معايير	منهجية التدبّر (٩) معايير	تقويم منهج التدبّر (١١) معياراً
١. مفهوم التدبُّر في اللغة والاصطلاح (٢) ٢. مقارنة المفهوم والعلاقة بين المصطلحات والمفاهيم القريبة من معنى (التدبُّر). (٨) ٣. حقيقة تدبّر القرآن الكريم (٥) ٤. فضل التدبُّر (٣) ٥. حكم تدبُّر القرآن الكريم (١) ٦. أهمية التدبُّر (١٢) ٧. مقاصد التدبُّر (٦) ٨. أثر تدبُّر القرآن (٥)	١. المخاطبون بالتدبُّر (٣) ٢. أنواع تدبُّر القرآن الكريم (١) ٣. واجبات تدبُّر القرآن الكريم (١) ٤. مراحل التدبُّر (٤) ٥. درجات التدبُّر (٣) ٦. وسائل التدبُّر: أولاً: وسائل التدبُّر؛ تهيئة القلب قبل البدء في التلاوة والتدبُّر (١٥) ثانياً : وسائل التدبُّر الإجرائية (٨) ثالثاً : وسائل التدبُّر المنهجية (١٠) رابعاً: طرق التدبُّر المعينة على تجدد المعاني (٦) خامساً: تفعيل وسائل التدبُّر الإدراكية في النفس (٤) سادساً: وسائل الحفاظ وتنمية التدبُّر. (٥) ١. الأسباب المعينة على التدبُّر (٧) ٢. مجالات تدبُّر القرآن. (٣) ٣. انضباط التدبُّر من خلال سمات مقاصد القرآن الكريم الأساسية. (٤)	١. المنهج النبوي في تدبُّر القرآن. (٦) ٢. منهج السلف الصالح في تلقّي القرآن وتدبّره(٩). ٣. من وسائل تدبُّر القرآن الكريم عند السلف الصالح. (٤) ٤. من آثار تدبُّر القرآن الكريم عند السلف الصالح(٥) ٥. نماذج من تدبُّر النبي ﷺ والسلف الصالح. (٣) ٦. نماذج عامة للتدبُّر (٤) ٧. موانع التدبُّر: أ ـ موانع شخصية. (١٠) ب ـ موانع أسرية واجتماعية. (٦) ج ـ موانع منهجية (٥) ١. أَسْبَابُ الفَهْمِ الخَاطِئِ فِي تَدَبُرِ القُرآنِ. (١١) ٢. نتاج الفَهْمِ الخَاطِئِ فِي تَدَبُرِ القُرْآنِ. (٦) ٣. أَمْثِلَةٌ للفَهْمِ الخَاطِئِ فِي تَدَبُرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ. (٥) ٤. سُبُلُ الوِقَايَةِ والعِلَاجِ مِنَ الفَهْمِ الخَاطِئِ فِي التَّدبُرِ (٨)
عدد الموضوعات = ٤٢	عدد الموضوعات = ٧٤	عدد الموضوعات = ٨٢
مجموع عدد العناصر التي ستُدرس = ١٩٨ موضوعاً		

تحليل التوصيف:

يشتمل التوصيف على كمٍّ كبير من الموضوعات المهمة التي وُضعت لتيسير مفهوم التدبُّر وبيانه، وإيضاح المنهج الصحيح فيه، وتقويمه، وقد بلغ عدد هذه المفردات: (١٩٨) مفردة يدرسها الطالب، موزعة على (١٣) أسبوعًا دراسيًّا بمعدل (٣) ساعات في كل أسبوع؛ أي: أن على الطالب دراسة (١٥) مفردة من مفردات المقرر في كل أسبوع دراسي، وهو كم كبير يتلقاه الطالب بمعدل (٥) موضوعات جديدة في كل ساعة، وعلى سبيل المثال يدرس الطالب موضوع: «المنهج النبوي في تدبُّر القرآن» في ساعة واحدة، ويشتمل الموضوع على:

أهمية المنهج النبوي في التدبُّر.	ترتيل القرآن.
الترسل في القراءة.	تحسين الصوت بالقرآن.
الجهر بالقراءة.	إطالة القراءة.

وبالنظر إلى طرق التدريس المذكورة في وثيقة المقرر التي تشتمل على عدد من الطرق منها: الحوار والمناقشة، والتدريس عن طريق مجموعات، وعرض بعض التقارير والبحوث، والتعلم الذاتي، والتعلم التعاوني؛ نجد أنه لا يمكن استعراض هذه الموضوعات في لقاء واحد، إلا بالتخلي عن هذه الطرق في التدريس.

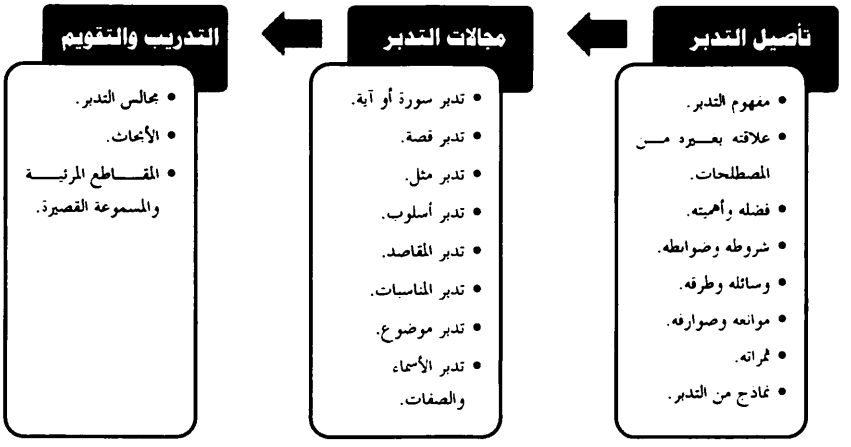
أقترح أن يتم توزيع المقرر على مقررين؛ لتُدْرَسَ الموضوعاتُ بحسب طرق التدريس المذكورة.

مصادر تعلم المقرر:

تنوعت مصادر المقرر في عدد كبير من المراجع ليتناسب مع طبيعة المرحلة التي يتم الدراسة فيها، وهي مرحلة الدراسات العليا.

المطلب الخامس: «مخطط عام لمقررات التدبُّر»

بعد تأمُّل ما سبق من المقررات والمناهج المصوغة في عدد من المؤسسات التعليمية؛ فإنه يمكن الخروج بمخطط عام لأهم ما يمكن دراسته في موضوع التدبُّر، بعيدًا عن التفصيلات الداخلية لكل مفردة.



وهذه الأجزاء الثلاثة تجيب عن أسئلة مهمة ثلاثة؛ هي:



وعليه؛ فإن المتعلم بحاجة ليتعرف على التدبُّر وماهيته ومفهومه وكيفيته، ثم ينطلق بعد ذلك ليعرف ماذا يتدبَّر؟ قصةً أو موضوعًا أو آيةً أو سورةً، أو غير ذلك؟ ثم يطبق بنفسه ليُقَوِّمَ تدبُّرُه وتوجيهه والتأكد من كونه قد نجح في فهم كيف يتدبَّر القرآن الكريم.

المبحث الثالث

تجربة تدريس مقرر أصول التدبر

وفيما يأتي تجربة تدريس مقرر أصول تدبُّر القرآن الكريم، وهو أول مقرر يُدرس في الجامعات- بحسب علمي- يختص بهذا الموضوع، وبهذا العنوان، حيث تم إقراره ضمن مواد مرحلة الماجستير في قسم الدراسات القرآنية بجامعة طيبة، وأُسْنِدَ إليَّ تدريسه أولَ مُدَرِّسٍ له، مما دعاني إلى بذل الجُهد في ابتكار تدريسه بطريقة تحقق الغاية منه، وتُبعده عن كونه مجرد مقرر يُحفَظُ ويُمتَحَنُ فيه.

وقد كانت الحاجة ماسةً لتأصيل علم تدبُّر القرآن الكريم، والعناية به مع وجود المؤسسات التي أُسِّست لأجل بثِّ مفهوم التدبُّر، ولفت أنظار الناس للعناية به، وإجراء الأبحاث العلميَّة لتأصيل مفهومه وتحديده، والتفرقة بينه وبين غيره من المصطلحات كالتفسير والاستنباط والتأويل وغيرها.

وقد رأى قسم الدراسات القرآنية بجامعة طيبة ضرورة مشاركة المتخصصين في الأقسام الأكاديميَّة، في العناية بهذا الموضوع، ودراسته دراسة علمية من خلال القاعات الدراسية في مرحلة الماجستير التي تتسم بالنقاش والتشاور العلمي، وقد وافق ذلك توجه الجامعة إلى إعادة صياغة مقررات الأقسام الأكاديميَّة، فتم اقتراح مادة «أصول التدبُّر» ضمن مقررات مرحلة.

مفردات المقرر ومواضيعه:

الجوانب النظريّة	التطبيق	نماذج لآيات يتم التطبيق عليها
١ - تعريف التدبُّر. ٢ - الفرق بين التدبُّر والتفكر والنظر والاستنباط. ٣ - الفرق بين التدبُّر والتفسير بالرأي. ٤ - فضل هذا العلم وامتداح الله ورسوله لأهله، فهم أهل التأويل وهم الذين يعقلون الأمثال ويفهمون دقائقها فسماهم العالمون. ٥ - الآيات والأحاديث الواردة في التدبُّر والتفكر. ٦ - أنواع المعاني في القرآن من حيث الخفاء والوضوح والحكمة في ذلك. ٧ - طريقة السلف في التدبُّر والتفهم وتعلم القرآن. وقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث تعلم سورة البقرة في عشر سنين، نموذجًا، وعبد الله ابنه في ثماني سنين. ٨ - الركائز التي يقوم عليها التدبُّر: - معرفة الوارد عن السلف في التفسير. - فهم لغة العرب والأصول التي يتركب منها كلامهم، وتراكيب الجمل، والأدوات التي يستخدمها القرآن ومعانيها. - الإدراك الكامل للقواعد الأصولية والترجيحية التفسيرية. المعرفة بمقاصد الشريعة وكلياتها، وما تقتضيه عمومات الأدلة. - معرفة المناسبات وترابط الآيات والسور ومواضيع السور وأثر ذلك في التفسير. تحديد المواضيع الرئيسية للقرآن.	يتم التطبيق على آيات مختارة من كتاب الله تعالى بحيث يتناول الأستاذ مع طلابه تحليل هذه الآيات وتدبُّرها واستخراج ما فيها من حكم وأحكام وعبر وعظات من خلال المحاور التالية: - تفسير الآية بالمأثور ويشمل. - تفسير الآية بالمنقول عن الصحابة والتابعين. - معنى المفردات التي تتكون منها الآية في لغة العرب والرجوع إلى أصل اشتقاق هذه المفردات وأثر العلاقة من حيث المعنى بين الألفاظ المشتقة من هذا الأصل، وأثر ذلك في التفسير، والخروج بطيف واسع من المعاني التي تحتملها الآية، ثم يبدأ الأستاذ مع طلابه بتحرير هذه المعاني المحتملة، وتمييز ما يصلح منها وما لا يصلح حسب الضوابط المعتبرة. على ضوء ما اشترطه أهل العلم للتفسير بالرأي. - ما يؤخذ من الآيات من أحكام فقهية. - ما يؤخذ من توجيهات وآداب وسلوك وأخلاق وقيم. - ما يؤخذ من بلاغة وتركيب. - ما يؤخذ من دلائل الإعجاز. - ما يؤخذ من حكم وأمثال وعظات. - ما يؤخذ من تعظيم وإجلال وصفات أو رغبة أو رهبة لله ﷻ.	- التأمُّل في سورة الفاتحة، وعلاقتها بالكتب السابقة وبالقرآن الكريم وكونها أول سورة في القرآن، وما تضمنته من معان عظيمة مهما تأمَّل العبد فيها فإنه يعجز عن إدراك بعضها. ويسترشد في ذلك بما كتبه ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين. - التأمُّل في سورة المائدة. - التأمُّل في سورة محمد. - التأمُّل في سورة الممتحنة. - التأمُّل في سورة التغابن. - التأمُّل في سورة المطففين. - التأمُّل في سورة الليل. - التأمُّل في سورة الإخلاص. - التأمُّل في آيات المنافقين في أول البقرة والنساء والمائدة والتوبة والحشر والمنافقون.

الطريقة في تدريسه وعمل الامتحان الخاص به:

كان من أهم التنبيهات التي ذكرتُها للطلاب والطالبات في أولى محاضرات هذا المقرر: الخوف من أن يتحول المقرر من كونه جانبًا تطبيقيًّا قلبيًّا يثمر العمل والاتباع، إلى كونه مادة يتم حفظها واستظهارها لأجل الاختبار بها.

ولأجل البعد عن هذا المحذور تم تقسيم طريقة التدريس فيه بالمشاركة مع الطلاب والطالبات، بحيث تكون طريقة التدريس كالآتي:

تُقَدَّمُ المواد النظريَّة التأصيلية الأولى من قبل أستاذ المقرر، ويشارك الطلاب والطالبات في تحرير ما يُلقَى وإبداء وجهة النظر حوله.

يُتَوَسَّعُ في ضرب الأمثلة لكل جانب نظري من عدد من آيات القرآن الكريم.

يُكلَّفُ الطلاب والطالبات بإعداد مواد تدبُّرية لآيات يختارونها، ولا يُشترط عدد معين من الآيات، فقد يقتصر طالب على ثلاث آيات، بينما يتناول آخر ما يزيد على عشر آيات.

تُلقَى المواد التدبُّرية أثناء المحاضرات، وإعطاء كل مادة (٢٠) دقيقة، ثم يُعلَّقُ عليها أولًا من قِبَل أستاذ المادة ببيان أبرز الجوانب التدبُّرية المذكورة في المادة، وأهم ميزاتها، والملحوظات العلميَّة حولها، ثم يُعلَّقُ عليها من قِبَل الطلبة لبيان الأمور السابق ذكرها.

وُجِّهَ الطلاب والطالبات للاستعانة بالمواد المرئية والمسموعة، وعمل العروض الفلاشية؛ للمساعدة في عملية تدبُّر الآيات، وعرضها ضمن المادة التي كُلِّفوا بها.

وُجِّهَ الطلبة لضرورة أن تكون صياغة المادة التدبُّرية من قِبَلهم كاملةً وبأسلوبهم الخاص، للتدريب على التدبُّر، واكتشاف قدراتهم في هذا الموضوع.

وقد تم الحفاظ على روح التدبُّر أثناء المحاضرات، والبعد عن التلقي فقط، مما أثر على الطلاب والطالبات أثناء المحاضرات، وظهر ذلك في التأثر أثناء إلقائهم لموادهم أو الاستماع لمواد زملائهم، وإبداء ذلك في نهاية المحاضرات.

وأما طريقة الاختبار التي رأيت أنها تحقق المقصود منه:

فقد قسمت الاختبار في المادة إلى قسمين:

الأول: وضع أسئلة عن الجوانب النظريَّة في أصول التدبُّر؛ كتعريفه، وشروطه، والأسباب المعينة عليه.

الثاني: عمل تطبيق مباشر لآيات لم يتم تحضير تدبُّرها من قبل الطلاب والطالبات، بحيث يُكتب للطلبة آيات معينة، ويُطلب من الجميع كتابة تدبُّراتهم لهذه الآيات، ويتم تقويم ذلك في ضوء ما درسوه من المقرر، ومدى استيعابهم للفرق بين التدبُّر والتفسير.

علاقة المقرر بمقررات التخصص الأخرى:

لا شك أن تدبُّر القرآن الكريم ذو علاقة وثيقة بمواد التخصص في الدراسات القرآنية.

ويمكن الإشارة إلى العلاقة كما يأتي:

علاقته بالتفسير: فالتدبُّر الصحيح لا يكون إلا بعد معرفة التفسير.

علاقته بعلوم القرآن: فالتدبُّر هو ثمرة دراسة علوم القرآن وتطبيقها على كتاب الله ﷻ.

علاقته بالاستنباط: لا يكون الاستنباط إلا بعد التدبُّر والتأمُّل للقرآن الكريم، فالاستنباط مبني على التدبُّر.

محاذير عند تدريس المقرر:

إن موضوع تدبُّر القرآن ينبغي أن يُعنى به طلاب العلم تحقيقًا للغرض الذي أُنزل لأجله القرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]؛ إذ هو بوابة الإيمان وسبيل الاتباع لشرع الله ﷻ، ولأجل ذلك فإنه ينبغي التنبه والحذر مما يأتي أثناء تدريس المقرر:

- الحذر من تحويل المقرر إلى مادة جافة يُقصد بها مجرد الحفظ لأجل الاجتياز فقط، وذلك بأن تكون المحاضرات لمجرد تحرير المصطلحات والأقسام وذكر الخلافات بينها.

- الحذر من التنظير فقط دون ضرب الأمثلة؛ فإن مجرد التحليل النظري لهذا المقرر لا يكفي، بل لابد من ذكر الأمثلة، سواءٌ كانت منقولة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء ﷺ ورحمهم، أو كانت أمثلة تُضرَبُ من قبل الطلاب والطالبات من باب التدريب على تدبُّر القرآن الكريم.

- ينبغي ألا يفهم دارسو المقرر أن ما يقومون به من أبحاث؛ هو عبارة عن مسائل تُحرَّرُ من كتب التفسير، بل المقصود أن يقف الدارس مع الآيات وقفات تدبُّرية يصوغها هو بأسلوبه، فتكون نتيجة تأمُّلاته لآيات القرآن الكريم، ثم يقوم بإلقائها أمام زملائه، مستشعرًا ضرورة نقل المستمعين بالأساليب المختلفة لتذوق حلاوة تدبُّر القرآن الكريم، بحيث يستخدم المواد المسموعة والمرئية المناسبة أثناء إلقائه للمادة المحضرة.

- ينبغي ألا يُدَرِّس المقرر إلا من له عناية بالوقوف مع آيات القرآن الكريم، واستلهام العبر والعظات منها، وله القدرة في إيصال روح التدبُّر إلى الدارسين.



الخاتمة

وفي ختام هذه الورقة المختصرة في هذا الموضوع، أشكر الله ﷻ الذي يسر لي تدريس هذا المقرر والعناية به، وكتابة بعض الأبحاث النظريَّة فيه؛ إذ هو تحقيق لغاية إنزال كتاب الله ﷻ على خلقه، وأوصي بهذه الوصاية العلميَّة:

- عدم الإغراق في الجوانب النظريَّة في موضوع تدبُّر القرآن الكريم، فالهدف منه العمل والاتباع، وزيادة الإيمان، وهو المطلوب في كل محاضرة تُلقَى على الدارسين له.

- الاستفادة من كتب السير والطبقات في استخراج الأمثلة التطبيقيَّة لهذا الموضوع.

- عدم إرهاق الدارسين بالأبحاث الكثيرة أثناء تدريسه، بل المقصود أن يركز الباحث جهده على صياغة مادة تدبُّرية لآيات هو يختارها، ويحقق معنى التدبُّر فيها.

- تأخير تكليف الدارسين بالأبحاث إلى ما بعد تحقق التصور الصحيح لديهم لمفهوم التدبُّر، والفرق بينه وبين التفسير، حتى لا يتم الخلط بينهما أثناء كتابة الأبحاث التدبُّرية.

والله ﷻ أعلم، وهو الموفق لكل خير.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الورقة الرابعة

المؤلفات في التدبُّر قراءة وتحليل
(الكتب النظرية)
نماذج من كتب الإصلاح والتصحيح عرضًا ونقدًا

إعداد

د. محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي

السيرة الذاتية

الاسم: د. محمد بن عبدالجواد بن محمد الصاوي

الجنسية: سعودي

البريد الإلكتروني: Sawi40@hotmail.com

المؤهل العلمي:

- بكالوريوس «كلية الشريعة، فرع جامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم ١٤٢١هـ».
- ماجستير في التفسير وعلوم القرآن «جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٩هـ».
- دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن «الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ١٤٣٦هـ».

الخبرة العملية:

- باحث علمي ومعد مواد علمية، مؤسسة بينات للإنتاج بالقصيم ١٤٢١-١٤٢٣هـ
- باحث علمي، مؤسسة دار الهداة للنشر والإنتاج ١٤٢٣-١٤٢٥هـ
- مشرف تربوي، جمعية القرآن الكريم بجدة ١٤٢٣-١٤٢٥هـ
- مستشار، مجموعة السنيدي للاستشارات والمحاماة ١٤٣٠-١٤٣٢هـ
- مستشار، حكمة المعرفة للاستشارات ١٤٣٣-١٤٣٦هـ

النتاج العلمي:

- أقوال عطاء الخراساني في التفسير جمعًا ودراسة مقارنة من الكهف إلى الناس «رسالة ماجستير».
- تدبر القرآن الكريم، دراسة تأصيلية «رسالة دكتوراه».
- تحقيق كتاب: بهجة قلوب الأبرار للشيخ عبدالرحمن السعدي ﷺ.
- انج بنفسك «٣٠ وسيلة للنجاة من الفتن» قيد النشر.



المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين، نبيِّنا وقدوتنا وإمامنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ من تأمَّل بعين البصيرة في أحوال العرب قبل بعثة سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ، وما كانوا عليه من الجهل والقتل والظلم والعدوان، وما عاشوه من انحراف عن الفطرة السليمة، وعبودية غير الله، ثمَّ أرجَع بصره متأمِّلًا في أحوال أولئك العرب أنفسهم بعد برهة زمنية قصيرة حين تنوَّروا بنور الإسلام، وتخلَّقوا بأخلاق القرآن، عرف البَوْن الشاسع، والفرق الهائل الذي أحدثه هذا الكتاب العظيم في نفوسهم، حتى صاروا قادة الأمم، وأئمة الدنيا.

ولما كان التدبُّر عبادة عظيمة الأثر، جليلة القدر؛ رتَّب الله سبحانه عليه الانتفاع بالقرآن، والتذكُّر به في نحو قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

وما زال أهل العلم والفضل من لدن رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا يكتبون عن التدبُّر في كتبهم ومؤلفاتهم في التفسير وغيره، وقد اعتنى المعاصرون بإفراد موضوع التدبُّر في دراسات مستقلة، وكتبوا فيه كتبًا ورسائل نظرية متنوعة، تناولوه من جوانب عديدة، منها: العناية بالتدبُّر في الإصلاح وتصحيح المسار، وربما وقع في هذه المصنفات شيء من التكلُّف أو عدم وضوح المقصود، أو دخل عليها بعض الدخيل؛ مما جعل لزامًا على الباحثين والمعتنين بالتدبُّر دراسة هذا الأمر، والعناية به، وتقويمه، وتصحيح مساره.

وسأتناول في هذه الورقة عرض كتب يسيرة منتقاة من كتب الإصلاح والتصحيح، ببيان أبرز الإيجابيات والسلبيات، وملاحظاتي على كلِّ كتاب، من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: أهمية كتب التدبُّر والدراسات فيه.

المبحث الثاني: عرض لأبرز كتب الإصلاح والتصحيح.

المبحث الثالث: توصيات في توجيه التدبُّر للإصلاح والتصحيح.

أسأل الله أن ينفع بهذا العمل كاتبه وقارئه، وأن يجعله خالصًا صوابًا يسرني يوم القيامة أن أراه في صحيفة عملي.

والحمد لله رب العالمين.



المبحث الأول

أهمية كتب التدبُّر والدراسات فيه

التدبُّر هو: التأمُّل الدَّؤوب، والنظر الثاقب، والتفكُّر في الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه علمًا وعملًا، والارتقاء بذلك[1].

وتبرز أهمية التأليف في التدبُّر من أهمية الموضوع نفسه.

فلمَّا كان القرآن الكريم هو هادي البشرية ومرشدَها، ونورَ الحياة ودستورَها، ولم يترك شيئًا يحتاجه البشـر، وفيه علاج لقلوبهم وأبدانهم إلا وبيَّنه الله فيه نصًّا أو إشارة أو إيماءً، عَلِمَه مَنْ عَلِمه، وجَهِله من جَهِله؛ كانت الكتابة في تدبُّره سبيلًا موصلًا إلى ذلك، وفتحًا لآفاق الفهم والتطبيق والعمل.

ومع ضعف الأمة وتأخُّرها؛ تراجع الاهتمام بالقرآن وتدبُّره وانحسر، واقتصر الأمر عند غالب المسلمين على حفظه وتجويده وتلاوته فقط، دون تدبُّر ولا فهم لمعانيه ومراداته، وترتَّب على ذلك ترك العمل به أو التقصير في ذلك، فمرِضَت القلوب واعتلَّتْ، وظهرت الأمراض النفسية والجسدية التي لم تُعرَف من قبل، مما جعل الكتابة والتأليف في الإصلاح والتصحيح من خلال تدبُّر القرآن أمرًا في غاية الأهمية، ونبراسًا يضيء الطريق للبشرية.

وإنَّ الهدف من تصنيف أي كتاب يتوقَّف على موضوعه، وإنَّ موضوع القرآن الأساس هو هداية البشرية إلى منهج الله تعالى الذي اختاره لها، وكانت قراءته من أهم ما حرَصَ المسلمون على تعلُّمه وتعليمه والمداومة عليه.

---

(١) سبق أن اخترت هذا التعريف في أطروحة الدكتوراه: «تدبُّر القرآن الكريم دراسة تأصيلية».

ومما يبرز أهمية الكتابة في التدبُّر والتأليف فيه:

أنه سبيل وطريق للتفكُّر والتذكُّر بالقرآن الكريم وبأخباره، قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

فحثَّنا على التفكُّر فيه، وحرَّضنا على الاستنباط والتدبُّر، وأمرنا بالاعتبار لنتسابق إلى إدراك أحكامه، وننال درجة المستنبطين والعلماء الناظرين[1].

تحصيل الخيرية التي أخبر عنها النبي ﷺ:

فالتأليف في التدبُّر داخل في حديث عُثْمَانَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[2].

والكتابة في التدبُّر سبيل لإصلاح القلوب والأبدان، ووسيلة لأخذ القرآن بحقِّه، وربط العالِم به علْمًا وعمَلًا وسلوكًا.

تحصيل العلم النافع والعمل الصالح: فهذا مقصد مهمٌّ، وهو من مقاصد إنزال القرآن، والأمر بقراءته، بل ومن ترتيب الثواب على القراءة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧].

قال ابن مسعود ﷺ: «إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن؛ فإنَّ فيه خبرَ الأولين والآخرين»[3].

وتحقيق قراءة القرآن للفقه والعمل يحصل بالكتابة فيه ونشر ثقافته؛ فالهدف الأساس من قراءة القرآن: التفهُّم للمعاني التي تضمَّنتها الآيات الكريمة، وتطبيق ما فيها من أحكام.

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٤/٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦/١٩٢/٥٠٢٧) من حديث عثمان بن عفان ﷺ.

(٣) أخرجه عنه ابن المبارك في الزهد (٢٨٠)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (٩٦)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٧٣)، والفريابي في فضائل القرآن (١٨١).

وقد كان رسول الله ﷺ إذا أسلم الرجل أمره بقراءة القرآن قبل كل شيء[1]، وقال للصحابة: «فَقِّهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ، وَأَقْرِئُوهُ الْقُرْآنَ»[2]؛ لأنَّ القرآن الكريم هو الأصل الأول لتصحيح العقيدة ومعرفة الأحكام والآداب، والسنّة مبيِّنة لما تضمَّنه القرآن.

أثر التدبُّر الواضح في إصلاح الفرد، وتصحيح مساره في الحياة:

فكم أثَّر القرآن تأثيرًا عظيمًا في نفوس مستمعيه، وأخذ بنواصي المتدبِّرين إلى النور والهداية وسلوك الطريق القويم، ومن ذلك:

- حين سمعَته الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١-٢].

- ولمَّا خرج عمر بن الخطاب ﷺ يريد قتل رسول الله ﷺ، سار إلى دار أخته وهي تقرأُ سورة طه، فلمَّا وقع في سمعه القرآن لم يلبث أَن آمن، قال ﷺ: «فلما سمعْتُ القرآن رقَّ له قلبي فبكيت، ودخلني الإسلام»[3].

- وبعث الملأُ من قريش عتبةَ بنَ ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليوافقوه على أمور أرسلوه بها، فقرأَ عليه رسول الله ﷺ آيات من حم السجدة، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به[4].

وكلُّ من طالع القرآن الكريم قد أحسَّ بشيء من هذا التأثير والسلطان الآسر لكلام الله ﷻ، وهو سرٌّ من أسرار القرآن باقٍ ما بقيت السموات والأرض.

---

(١) انظر: الوسيلة إلى كشف العقيلة للسخاوي (٣٢)، ولم أقف عليه عند غيره.

(٢) حسنٌ، أخرجه ابن هشام في السيرة (٦٦٢/١)، والطبري في تاريخ الرسل والملوك (٤٧٤/٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٥٨/١٧)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٤٧٩/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٦/٨): «رواه الطبراني مرسلًا، وإسناده جيد».

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٤٧/١)، فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل (٢٨٣/١).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢٩٤/١)، دلائل النبوة للبيهقي (٢٠٥/٢)، السيرة النبوية لابن كثير (٥٠٤/١).

قال السعدي ﷺ (١٣٧٦هـ): «فإنَّ تدبُّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنتَج كلُّ خير، وتُستخرَج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسَخُ شجرته، فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأمُّلًا فيه ازداد علمًا وعملًا وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحثَّ عليه، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]»[1].

إنَّ تدبُّر القرآن الكريم حاجز للإنسان عن أمراض الشبهات والشكوك، وعن مقارفة الشهوات والذنوب والكبائر والموبقات والفواحش، وخير حادٍ للإنسان أن يفطِم نفسه عنها، ولو وقع فيها ألا يستمرئَها؛ بل يسرعُ النهوض والانفكاك إلى الله؛ لأنَّ الله تعالى وعده على ذلك بأن يُعْقِبَه لذَّةً دائمة في الدنيا والآخرة: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٦].

وتدبُّر القرآن حاجز مهم عن النفاق، وفاضح لفساد المنافقين وإفسادهم، ومانع للحسد والحقد والغلِّ والكراهية، وسبيل لطهارة القلوب من الضغائن والأحقاد، ومانع من العُجْب والغرور والكبر، ومن التعلُّق بغير الله، ومن ضعف الهمة والإرادة.

كلُّ ذلك وغيره يبرز أهمية الكتابة والتأليف فيه، ويجعلها من الأمور المهمة المؤثرة في تصحيح المسار، وتقويم الطريق.

والمقصود بكتب الإصلاح والتصحيح هنا: ما اعتُني في تأليفه في التدبُّر بما يتعلَّق بإصلاح الأمة أو المجتمعات، أو تصحيح مسارها ومنهجها من خلال التدبُّر، وهي كتب متخصصة، ظاهر مقصدها التوجيه والإصلاح، وسأتناول بالتفصيل ثلاثة منها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٩).

المبحث الثاني

عرض نماذج من كتب الإصلاح والتصحيح

الكتاب الأول:

١-**أفلا يتدبَّرون القرآن، معالم منهجية في التدبُّر والتدبير**، أ. د. طه جابر العلواني.

لمحة فنية:

يقع الكتاب في ٢٣٦ صفحة من القطع الصغير (١٩,٥ سم - ١٢سم)، ونشرته: دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

قال عنه مؤلفه: «دعوة إلى العودة للنبع الصافي والـمَعين الأول، القرآن الكريم، واستلهام معانيه وهديه في حلِّ مشكلات النفس والمجتمع والعالم، عبر مداخل مقترحة؛ تثوِّر آياته، وتكشف وحدته، لمداومة النظر والتفكُّر والتدبُّر والتبصُّر، ليكون آياتٍ لأولي النهى والألباب».

عرض الكتاب:

قسَّم المؤلِّف رسالته إلى مقدمة، وفصلين.

ابتدأ بمقدمة بيَّن فيها الجهود المبذولة في خدمة القرآن الكريم ونشره، والعناية بتدبُّره، وعرَّج تاريخيًّا باختصار على تاريخ العناية بذلك، وخَلَصَ إلى ضرورة التدبُّر لقارئ القرآن، وأنه ليس أمرًا يعطي للتلاوة حقها فحسب؛ بل لا تعدُّ التلاوة تلاوة أُعطيت حقها إلا إذا اقترنت بالتدبُّر الواجب، ولا يكون التدبُّر حقيقيًّا إلا إذا كان وفق المنهج الذي حاول في الكتاب الكشف عنه، وتوضيح معالمه.

وربط في ختام مقدمته بين التدبُّر والتدبير، فلا تدبير بدون تدبُّر، وقد جعل المؤلف التدبير جزءًا من عنوان هذه الدراسة؛ للتنبيه على أهم مقاصد التدبُّر؛ وهو تدبير شؤون الحياة، ومعرفة كيف تدار أزماتها من خلال القرآن الكريم.

ثمَّ عرض في الفصل الأول المقدمات والمعوقات، والفصل الثاني مداخل التدبُّر.

وقد تضمَّن الفصل الأول الفوائد التالية:

«القرآن بين التحدِّي والتيسير»، ذكر فيه الإعجازَ في تحدي القرآنِ جميعَ العقلاء أن يأتوا بمثله، وبين تيسيره للذِّكر، وكيف أنَّ هذا القرآن يقرؤه أقوام فيشرح صدورهم ويؤثِّر فيهم؛ وهذه حيوية القرآن وفاعليته المتجددة التي لا تستطيع قوى الوعي الإنساني أن تتجاهل تأثيرها.

«دعوة القرآن لتدبُّر آياته» عرَّج فيه على آيات التدبُّر وخطاباتها وسياقاتها.

«التدبُّر والخشوع» بيَّن فيه كيف أنَّ التدبُّر علاج مهم يوصل للخشوع والإخبات.

«التدبُّر والزمن وشفاء الأمراض» وكيف عالج القرآن أمراضًا مزمنة، ويضاعف طاقات الإنسان العقلية والنفسية، ثمَّ أشار إلى الزمان في القرآن، وأنه زمان مفتوح لا تتميز فيه نقطة عن أخرى.

«التدبُّر وقوى الوعي الإنساني» بيَّن فيه أنَّ التدبُّر يشحذ قوى الوعي الإنساني، ويجعلها قادرة على التفتح بالقرآن على الكون، ويكشف مكنون القرآن الذي يتكشَّف عبر الزمن، والتدبُّر مفهوم قرآني محوري يستمدُّ أهميته من إضافته للقرآن المجيد، وأنه كتاب كوني يستوعب الكون وحركته.

«التدبُّر بين الفهم والمفهوم» وصل فيه إلى أنَّ التدبُّر يمكن إدراكه، وتعلُّم ممارسته من غير حاجة إلى تعريفه بالحدِّ أو بالرسم؛ لأنَّ التدبُّر فيه من المعاني ما يجمع بين مفاهيم التفكُّر والنظر والتذكُّر والتعقل والعلم، والنظر في مآلات الأمور وعواقبها، وما يستلزمه ذلك من تدبير الأمور في بداياتها بقدر أكبر من العناية والاهتمام لتحسُنَ مآلاتها، وتستقيم خواتيمها.

* التدبُّر قد يبدأ بمستوى واحد من المستويات المذكورة «التفكُّر والنظر والتذكر... إلخ»،

ثمَّ يتدرج إلى مستويات أعلى، كأن يبدأ بالفهم مطلقًا؛ فإذا ارتقى إلى مستوى فهم الأمور الدقيقة صار فقهًا، وقد يبدأ بالتفكُّر والتأمُّل، فإذا ارتقى إلى مستوى الفكرة المتكاملة التي يمكن عرضها والاستدلال لها صار نظرًا.

* إنَّ تدبُّر القرآن هو الوسيلة الأساسية لتلاوته حقَّ التلاوة؛ التي تزيد إيمان المؤمن، وتجعل من القرآن مصدر شفاء وعلاج للصدور والعقول والقلوب، وللأسر والمجتمعات، والدول والأوطان، وفاعلية القرآن وتأثيره في تحقيق سائر جوانب الإصلاح لا تظهر ولا تتكشَّف بدون التدبُّر، وفقًا لقواعده وأصوله.

* تدبُّر القرآن فريضة محتمة، وواجب لازم، والعناية به يجب أن تكون عناية بلفظه ومعناه، ثمَّ اتباعه والعمل به، والذين لا يتدبَّرون القرآن من المؤمنين قد تنغلق قلوبهم عن معاني القرآن واتباعه بعد قطعهم العلاقة بمعانيه، وهناك تلازم لا ينفكُّ بين القراءة والتدبُّر.

«مناهج قراءة القرآن» ذكر فيه شيئًا من مقتضيات التلاوة ومراعاتها، من استحضار اسم الله ومعيته، ثمَّ القراءة المتأنية دون عجلة، واستحضار التلقِّي النبوي للقرآن، ومداومة الصلاة به، والتزوُّد بالعلم والمعرفة وعرضها عليه، واستحضار أسماء الله وصفاته، ورصد مداخله قدر المستطاع.

ثمَّ ذكر بعض مناهج القراءة، وهي:

أ- قراءة يَعْمِد إليها المتعبِّدون يرجون ثواب الله بها.

ب- قراءة البحث عن العلم فيه، ومعرفة الحلال والحرام.

ج - قراءة أولئك الذين يريدون أن يعرفوا تاريخ البشرية وتطورها.

د- هناك من يستشرف المستقبل من قراءة القرآن الكريم.

وهذه القراءات المنوَّعة هي التي بدأ بها تكوين الفكر الإسلامي في بداياته، وتكوَّنت العلوم الشرعية في دوائر تلك القراءات المتعددة.

«الزمكان والقراءة» القراءة ذات علاقة وثيقة بالزمان والمكان، ولكلٍّ منهما أثره في عملية القراءة، واختيار نوعها وكيفيتها، والحصول على النتائج المتوخاة منها.

«حضارة الكلمة وحضارة الصورة» حضارة القرآن كانت حضارة الكلمة مقابل حضارة الصورة والتمثال والصنم، ولحضارة الكلمة خصائصها التي لا يمكن معها توثينها، والكلمة القرآنية ترتقي لمستوى المفهوم، والمفاهيم دعائم تقوم عليها الحقول المعرفية، والقرآن هو مصدر التعريف بكلمات القرآن.

«امتياز لسان القرآن وتفوقه» فهو لا يخضع لأحكام الألسنيات المعاصرة التي تنطلق من دراسة النصوص وتفكيكها، ثمَّ تحليلها.

«التدبُّر وأسماء القرآن» لأسماء القرآن وصفاته أثر في حسن القراءة والفهم والتدبُّر، ولها أهمية في تهيئة قوى الوعي الإنساني.

«الاستماع للقرآن وآدابه» التلاوة يجب أن تكون حقَّ التلاوة دون ليٍّ بالألسن، ولا طعن في الدين، ودون جعل القرآن عضين.

«التدبُّر وتنزيل القرآن على القلوب» التنزيل على القلب هو القراءة الدقيقة السليمة التي تؤدِّي الثمرات التي ورد القرآن المجيد بها، والتنزيل على القلب يحتاج إلى كثير من الاستعداد والمكابدة، مع التوفيق الإلهي، ويستلزم تطهير القلب وتنقيته وتحديد هدفه من القراءة بنية صادقة، والأمة اليوم قدمت خدمات كثيرة في كتابة القرآن وقراءته وتجويده وزخرفة أوراقه، وفي طرق تناقله، وفي إحصاء كثير من الأمور الدقيقة الدائرة حوله، ولكن من المؤسف أنها لم تستطع رغم ذلك كله؛ أن تقدِّم للبشرية القرآن كما ينبغي أن يقدَّم، باعتباره كتاب خلافة ودليل عمران، ومصدر تحقيق للشهود الحضاري في هذه الحياة الدنيا، ومعالجة لمشكلات البشرية، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

«مفاهيم تدور حول التدبُّر» مثل: الفكر، والنظر، والبصيرة؛ فإنَّ الفكر يطلق على تردُّد القوة العاقلة في الإنسان بالنظر والتفكر والتعقل والتدبُّر؛ للوصول إلى معانٍ مجهولة من مقدمات معلومة، وللتفكير مناهجُه وقواعدُه التي تضبط ممارستَه، وتتضح علاقة التفكُّر بالتدبُّر حين ندرك أنَّ التدبُّر يبدأ تفكُّرًا يؤدي إلى تبصُّر، ويسبقه النظر، حيث يدور القلب بالنَّظر ليجعل القلوب تفقه، والأعين تبصر، والآذان تسمع، ثمَّ تبدأ القوى الواعية بالتفكُّر والتعقل، والقيام بسائر العمليات الإدراكية.

وهكذا تقود هذه المفاهيم بعضها إلى بعض لتحقق حالة التدبُّر، فالتفكر يؤدي إلى النظر المستبصر، والنظر المستبصر يقود إلى البصيرة، والبصائر والتبصُّر ثمارها المعارف الناتجة عن التدبُّر المحاط بكل هذه المفاهيم، وبه تصبح آيات الكتاب بصائر تؤدي إلى مزيد من المعارف الدقيقة الصحيحة، وتجعل المتدبِّر قادرًا على النفاذ إلى البصائر التي تكمن وراء المعاني الظاهرة أو المتبادرة إلى الأذهان البسيطة.

«عقبات تحول دون التدبُّر» منها:

١- الذنوب والمعاصي.

٢- الأحكام المسبقة من خارج القرآن قبل القراءة بإسقاط فهمه السابق على القرآن دون النظر في مصادر تلك الأحكام والمفاهيم ودون تمحيص وتدقيق.

٣- إشكالية الناسخ والمنسوخ، «ردَّ فيها المؤلف أحاديث صحيحة، وحكم عليها بأنها مرويات منحولة، ودعا إلى تجديد التراث، ومقاومة الحرب على الإسلام بمثل ذلك».

٤- الاختلاف.

٥- غموض الغاية عند قارئ القرآن، وعدم معرفة ماذا يريد من قراءته.

ثمَّ تناول في الفصل الثاني «مداخل التدبُّر»، ذكر فيه مداخل التدبُّر لدى السلف الصالح، وبيَّن أجيال ذلك؛ الأول: جيل التلقي، والثاني: جيل الرواية والنقل، والثالث: جيل الفقه.

فجيل التلقي؛ وهو جيل الصحابة، تلقى مباشرة عن رسول الله ﷺ وتعلَّم منه كيف يتدبَّرون القرآن، فكان نزول القرآن مفرَّقًا، ومعرفتهم بارتباطه بقضايا عصرهم ووسطهم، وحسن مشاهدتهم للرسول ﷺ أثناء نزوله عليه، وسؤالهم له ﷺ عن الإشكالات أو الأزمات التي تَعْرِضُ لهم، ونزول القرآن جوابًا عن كثير من تلك الحوادث والإشكالات؛ كلُّ ذلك كان من العوامل المساعدة لهم على حسن التدبُّر.

الجيل الثاني: جيل الرواية والنقل؛ وهو جيل صغار الصحابة الذين كَبِروا بعد رسول الله ﷺ، وكبار التابعين، وذا الجيل بدأ يأخذ ما تركه له جيل التلقي، ويحاول استيعابَه وتداوله، ومعالجةَ مستجداته به، ونقلَه إلى الأجيال الأخرى.

وقد حاول هذا الجيل جمع كل ما استطاع من السنن والآثار والمرويات عن رسول الله ﷺ، والصحابة الذين عايشوه، ليتبعوه ويعملوا به، وكان هذا هو الوسيلة البديلة لهم عن وجوده ﷺ بينهم، فجعلوا من سنته ﷺ سببًا لبناء منهج يقوم بالمهمة.

الجيل الثالث: جيل الفقه، وفي هذا الجيل التفت العلماء إلى عمليات ضبط الحياة بضوابط التشريع، وأسسوا الفقه، واستطاع هذا الجيل أن يغطيَ متطلَّبات الحياة بفقه النص، وكان مدخل الفهم والتدبُّر هو مدخل الأحكام والبحث عنها فقط؛ فجعل النظر والتدبُّر في القرآن يتَّجه إلى آيات الأحكام فقط، والنظر إلى ما عداها على أنها آيات جاءت مسوقة للعبرة والاتعاظ، وهذا نظر قاصر؛ فإنَّ القرآن المجيد أعظم من هذا وأوسع، ولو خرج ذلك الجيل عن هذا الحصر لأدرك أنَّ القرآن منشئٌ بكلِّيته والسنة منهجًا ضابطًا، يعصم الذهن عن الخطأ في فهم القرآن.

ثمَّ تناول بعد ذلك التدبُّر ومداخله المعاصرة، وذكر فيه من هذه المداخل:

مدخل التعبُّد: بأن يقصد القارئ بالتدبُّر والتلاوة الأجر والثواب.

مدخل القيم: ويُعنَى به القيم التالية: «التوحيد + التزكية + العمران»، وهذه القيم الثلاث بعد استيعابها وفهمها، تجعل المتدبِّر متزودًا بما يعينه على فهم ما يقرأ، وعلى القدرة على التدبُّر الذي يجعله قادرًا على الوصول إلى كثير من معانيه، في حدود السقف المعرفي الذي يعيشه.

مدخل الوحدة البنائية للقرآن: بمعرفة أن القرآن كتاب بمثابة الجملة الواحدة، أو الكلمة الواحدة، وليس كتابًا مجزَّءًا، تمثل كل آية أو كلمة منه وحدة مستقلة عن الوحدات الأخرى، وهذا مهم في مجال التدبُّر.

مدخل عمود السورة: فلكل سورة عمود، وهو محورها وموضوعها الأهم، وتحيط به موضوعات فرعية، هي بمثابة دعامات أو أوتاد تحيط بهذا العمود الأساس لتتضافر معه في تشكيل بنية السورة.

مدخل التصنيف الموضوعي: باستقراء موضوعات القرآن، وتتبعها، ومعرفة سياقاتها، ولهذا علاقته بالوحدة البنائية ووحدة السورة.

مدخل البحث في المناسبات، ومقصوده: علم المناسبات وارتباط آيات القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة.

مدخل عالم الغيب وعالم الشهادة: بأن يستحضر ذلك المتدبِّر وهو يتدبَّر القرآن.

مدخل العلاقة بين الله تعالى وبين الإنسان والكون: بتدبُّر ذلك، ومعرفة الآيات في إطار هذه المداخل.

مدخل الإلهية والعبودية: بمعرفة ما يتعلَّق بالإلهية والربوبية، من آيات كريمة، وأساليب القرآن في الاستدلال على الإلهية أو الربوبية.

مدخل عوالم الأمر والإرادة والمشيئة: ومما ذكره من الغيب المطلق الحروف المقطعة أوائل السور، وآية الاستواء، وبعض آيات الصفات، وأن هذه تندرج تحت عالم الأمر، وأما عالم الإرادة فيظهر في مثل آيات العهد والاستخلاف والأمانة، وإعمار الأرض ونحو ذلك، وأما عالم المشيئة فهو عالم الخلق والجعل والتحول والتشيؤ.

مدخل التدافع بين الحق والباطل: من خلال معرفة سنن التدافع بين الحق والباطل، وبين أهل كل منهما، فيكون للمتدبِّر وعي بمعرفة حقيقة الحق والباطل.

مدخل تصنيف البشر بحسب مواقفهم من رسالات الأنبياء: فالقرآن صنَّف البشر وفقًا لثوابت العلاقة بينهم وبين الله «الإيمان، الكفر».

مدخل اللغة والسياق وإدراك التناسب: وهذا يقتضي أن يدرك المتدبِّر الفروق بين اللغة العربية بمستوياتها المتنوعة في الفصاحة والبلاغة، وبين لسان القرآن الأعلى في نظمه وفصاحته وبلاغته، وكذلك معرفة السياق تعين المتدبِّر على فهم عادات القرآن في التعبير عن مقاصده، وتفتح آفاقًا واسعة للفهم والتعقُّل والتفكر.

مدخل قيام الحضارات وتراجعها: بمعرفة عوامل وقواعد وسنن قيام الأمم وتراجعها، بدراسة التاريخ وآثار الأمم بحثًا عن الدروس والعبر.

مدخل تنزيل القرآن على القلب: فإن ما ينزل على القلب ينزل بالفهم، فيعرف ما يقرأ وإن كان بغير لسانه، ويعرف المعانيَ والألفاظ.

مدخل تثوير القرآن: فالقرآن كنز مكنون، مفتاحه التدبُّر، وبابه النظر والتفكر، ومدخله التذكر والتعقل، وغراسه العلم، وشجره المعرفة، وبقدر تثويره يجد المتدبِّر قصده ونفعه وفائدته منه.

مدخل الأزمة: وذكر فيها نماذج من الأزمات العالميَّة المعاصرة، منها: «تفكك الأسرة، تلوث البيئة، الحروب والصراعات، الصراع العربي الإسرائيلي، الانحراف في تسخير العلم والمعرفة، أزمة المنهج العلمي التجريبي، المرض والجهل والفقر وارتفاع معدلات الجريمة، الأزمة المالية المعاصرة».

أبرز ملاحظات الكتاب:

أفكار الكتاب واضحة مركزة، غير أنه لم يراع في ترتيبها الترتيب الذهني المترابط، فلا يخرج القارئ منه بركيزة واضحة، وحصيلة مركَّزة، وفق معطيات متسلسلة ذهنيًا؛ وإنما هي معلومات عامة مفرَّقة فيها العديد من المسائل النافعة.

تضمَّن الكتاب مباحث فلسفية عقلانية وإن كانت يسيرة إلا أنها واضحة.

ربط الكتاب بين التفكر والنظر والتدبُّر ربطًا جيدًا فيه جمع بين المعاني المتنوعة.

أدخل الخطأ في الصواب، حين تكلَّم عن عقبات تحول دون التدبُّر، وذكر منها الذنوب، ثم ذكر منها: إشكالية الناسخ والمنسوخ، ووقع في ذنب واضح حين اعتبر الناسخ والمنسوخ من العقبات التي تحول دون التدبُّر، فأنكر الأحاديث الصحيحة المتواترة في النسخ، وهاجمها بشدة، ولا يخفى ما في ذلك من خلل وزلل، ويظهر في ذلك تأثُّره بفكر المعتزلة في إنكار النسخ في القرآن وبعض الحقائق الثابتة، وقد بالغ في ردِّها، والتنقيص منها، وممن قال بالنسخ في القرآن، وهذا باطل واضح البطلان.

أدخل خلال البحث الوسائل في المقاصد، والعقبات في المداخل، في شيء من الخلط الذي لا يوضِّح المقصود بجلاء.

جعل الأحرف المقطعة وبعض آيات الصفات من قبيل المتشابه، وهذا يؤخذ عليه ويلتحق بمنهج المفوضة، ويفتح الباب للتفويض في آيات القرآن.

الأزمات المعاصرة التي أدخلها في نهاية المداخل؛ تناولها بشيء من البعد عن موضوع التدبُّر، وفي ظني هي إدخال لمسائل تفصيلية في نوازل مستجدة، في غير موضعها ومكانها الصحيح، فكان يمكنه الدخول من مدخل الأزمة بذكر نماذج من الأزمات على سبيل الإجمال، دون تفصيل يبعده عن موضوع الكتاب، ويتكلَّف من أجله الربط بين المشكلة والعلاج.

الكتاب الثاني:

٢-القرآن الكريم والأصول في تدبُّره «تمعنات في تعاليمه وخصائصه» أ.د/ محمد حسين صفوري.

لمحة فنية:

يقع الكتاب في ٦٠٨ صفحات، من القطع العادي (٢٤سم - ١٧سم)، ونشرته: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

قال عنه مؤلفه: «يسعى لتدبُّر بعض تعاليم القرآن وخصائصه، وهو ينطلق إلى ذلك من منطلقات رئيسة ثلاثة: يستند المنطلق الأول إلى ما يردده القرآن مرارًا وتكرارًا من أنه لن يتدبَّره إلا العاقلون المتفكِّرون العالمون: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف]، وهكذا فهو يستند في تدبُّره للقرآن إلى العقل وإلى التفكر وإلى العلم، وعلى وجه الخصوص فهو يرفض الأخذ بمبدأ التأويل الذي أرسى قواعده الطبري؛ إذ إنَّ حكم القرآن قد أجملته الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧].

أما المنطلق الثاني: فهو يستند إلى آيات عديدة في القرآن يجملها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧]، فتدبُّر القرآن يجب أن يستند إذن إلى المعرفة العلميَّة الصحيحة للبيئة العربية التي نزل فيها القرآن، والتي نَمَا فيها رسول الله، وهذا ما يأخذ به هذا الكتاب.

أما المنطلق الثالث: فهو يستند إلى المبدأ الذي أقرَّه علماء هذه الأمة عبر تاريخها الطويل، والقائل: إنَّ تدبُّر القرآن لا يصحُّ إلا عبر المعرفة الصحيحة لترتيب نزول آياته وسوره، فمجمل القول إذن: أنَّ هذا كتاب علمي يهتدي في منهجه بهدي هذه المنطلقات الرئيسة الثلاثة، وبهدي منطلقات إضافية أخرى تدخل ضمن معالجة المواضيع التي يتطرَّق إليها الكتاب».

عرض الكتاب:

قسَّم المؤلِّف رسالته إلى اثني عشر فصلًا.

الفصل الأول: القرآن وتسميته، وتضمَّن المحاور التالية: أمر الرسول بتلاوة الوحي، أمر الرسول بالتبليغ تلاوة، كلمة قرآن تعني «قراءة»، القرآن هو: اسم الكتاب الذي نزل على محمد، القرآن واشتقاق اسمه، القرآن يمحو ما سبقه، القرآن والأمة والإمام.

الفصل الثاني: القرآن حكم عربي، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن والأمة وأهل البيت، القرآن مهيمن على ما سبقه، القرآن حكم عربي، القرآن يثبِّت قلب الرسول، القرآن دعوة عربية لقريش، القرآن دعوة للعرب.

الفصل الثالث: القرآن والأزمات الثلاث الأولى في السيرة، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن والأزمات الثلاث الأولى في السيرة، القرآن والأزمة الثانية، القرآن وعزة العرب.

الفصل الرابع: القرآن وشرعة التوراة، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن وخرافة اللغة المباركة من الربِّ، القرآن ومؤشِّرات النبوة لدى أهل الكتاب، القرآن وعقدة الشَّعب المختار، القرآن وأسطورة برج بابل، القرآن وتعدد الأجناس والحضارات، القرآن وشرعة التوراة، القرآن وشرعة الحِرِم في التوراة.

الفصل الخامس: القرآن وبدايات تكوين الأمة، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن وتعدد الأمم، القرآن وبداية تكون الأمة، القرآن ودور الرسول في تعليمه، القرآن ومجانيَّة مدرسة الرسول.

الفصل السادس: القرآن والأمة والحكم العربي، وتضمن المحاور التالية: القرآن والاحتكام

إلى الطواغيت، القرآن والأمة وتدبُّرها له، القرآن في تفسيره مغاير للتوراة في تفسيرها، القرآن وتسمية أهل الكتاب.

الفصل السابع: نزل القرآن ليُدرَس، وتضمَّن المحاور التالية: نزل القرآن ليدرَس، القرآن والصحابة، القرآن وسورة قريش، القرآن وقصص الأنبياء، القرآن وسورة الإخلاص.

الفصل الثامن: القرآن والإيمان، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن وبدايات الوحي، القرآن والمعوذتان، القرآن وإجارة الرسول في قريش، القرآن الإيمان.

الفصل التاسع: القرآن والشعراء، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن والعرب وأهل الكتاب، القرآن والنَّبْذ من العشيرة، القرآن ومفهوم الرهط عند العرب، القرآن والشعراء، القرآن وصلة الرحم.

الفصل العاشر: القرآن وأمة المصلِّين، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن والقَسَم، القرآن وسورة التين، القرآن وأمة المصلين.

الفصل الحادي عشر: القرآن وبيت المقدس، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن وبيت المَقْدِس، القرآن والرسول والفرقان، القرآن وموقعة أحد، القرآن ومعركة الخندق.

الفصل الثاني عشر: القرآن والرسول والإسرائيليات، وتضمَّن المحاور التالية: القرآن وقصة بني قريظة، القرآن وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة، القرآن وحرمة الأسرى، القرآن والرسول والإسرائيليات.

ثمَّ ختم الكتاب بقسم الملاحق، وضمَّنه سبعة ملاحق، ومنها: أصول تدبُّر القرآن الواردة في الكتاب، وذكر فيها ثلاث عشرة قاعدة.

أبرز الملاحظات على الكتاب:

أفكار الكتاب بعيدة عن التدبُّر الصحيح، وأصولِ تدبُّره التي عنون المؤلف لها.

بنى المؤلف أصول التدبُّر من خلال ترتيب النزول وضبط أحداث السيرة، والتمعُّن في التعاليم والخصائص التي جاء بها القرآن؛ لما لها من انعكاسات لفهمه وتدبُّره، لذلك فهو تركيز على

بيئة نزول القرآن، والأحداث التي وقعت فيها ونزل بسببها القرآن، وقد اعتمد ترتيب النزول أصلًا رغم الخلاف الكبير الواقع في ترتيب النزول، وما نزل أولًا، وحصْر القرآن في حوادث التاريخ، والنزول قصْر غير صحيح له تبعاته الكثيرة، ومعلوم أنَّ من القواعد العامة في التفسير: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

القواعد التي جعلها أصولًا للتدبُّر أكثرها قواعد عامة، وخطوط شرعية عريضة في فهم القرآن، وليست قواعد خاصة بالتدبُّر، ومن هذه القواعد قاعدة: القرآن دليل القرآن؛ أي: أن القرآن يفسِّر بعضه بعضًا. وأيضًا قاعدة: تمام القرآن؛ أي: أنَّ القرآن تمَّ نصًّا وهيئة في حياة الرسول ﷺ، وأنه تركه لنا تامًّا في مبادئه وشريعته، فاكتمل الدين به ﷺ.

لم يذكر المؤلف خلال كتابه الصلاة على الرسول ﷺ بعد ذكر اسمه، وعلل ذلك في مقدمته بأنَّه يعتبر أنه أمر يجب أن يبقى مضمرًا في صدر القارئ، وأنَّ تكريم الرسول لا يكون بكلمات هي حبر على ورق، وتركِ أمته في حمأة الذلِّ التي أسقطت فيها في القرنين الأخيرين، وكذلك الحال في الترضي عن الصحابة ﷺ بعبارة: ﷺ، بحجَّة أن تكريم الصحابة يكون بطرد اليهود من فلسطين التي أورثنا إياها الصحابة، وهذا اجتهاد من المؤلف لا يوافق عليه، وخلط واضح بين الواجب والواقع.

نظر المؤلف أثناء بحثه إلى القرآن باعتبار تاريخ القرآن، وهو ممتع في سرده وقراءته التاريخية، ويؤخذ عليه في ذلك عدم توثيق أكثر النصوص والنقول والوقائع التاريخية والعلميَّة على منهج البحث العلمي الرصين، وتضمينها الغثَّ والسَّمين.

من معايير تحقيق المؤلف للنصوص قَبُوله العقليُّ لها، ومن أمثلة ذلك: ما وقع منه بعد نقله قول أبي بكر الصديق ﷺ [1]: «أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسبًا ودارًا...».

ولم يذكر تخريجه وسنده، وقال بعد نقل القول: «هذا قول ساذَج ينمُّ عن جهل مطبِقٍ بالعرف العربي، فهو يقول: إنَّ العرب ما كانت لتتخلى عن سيادة أممها وتنصهر في أمة واحدة،

(١) صفحة ٤١.

وتخضع لحكم مركزي واحد لهذه الأمة إلا إذا كان هذا الحكم في قريش...»[1].

وظلَّ يناقشه ويرده باعتباره من كلام ابن هشام، وليس قول أبي بكر الصديق ﷺ.

فانظر كيف ردَّه وحكم عليه بالسذاجة لمجرَّد عدم قَبول عقله له؟! غفر الله له وهداه.

وكثر مثل ذلك في قلب حقائق تاريخية ثابتة، والعبث بمسلَّمات تاريخية دون تحقيق وتمحيص.

المؤلف ضمَّن كتابه باطلًا كثيرًا استشهد له بالقرآن في غير موضعه، وأراد أن يمرر ما تأثر به من ثقافات دخيلة، وأحداث سياسية؛ ليصحح بها الوقائع التاريخية غير الصحيحة من وجهة نظره، وقد أبعد النُّجْعة في ذلك.

ضمَّن المؤلف كتابه استشهادات بكثير من الإسرائيليات، ونقولات من كتب تفاسير باللغة الإنجليزية لبعض المستشرقين، مثل: تفسير آرثَر آربري أستاذ الدراسات العربية في جامعة كامبردج، وتفسير ريتشرد بِل، مدرس اللغة العربية في جامعة إدنبِره، وغيرهما، وفي هذا خلل لا يخفى على ذي لبٍّ، فهي مراجع لا يصحُّ الاعتماد عليها في التفسير، مع وجود الثروة العلميَّة الهائلة التي خلَّفها علماء الإسلام في تفسير كتاب الله تعالى، وقد أوقعه ذلك في طوام في التفسير لا يسع المجال لذكرها تفصيلًا.

ضمَّن المؤلف كتابه استشهادات من الإنجيل على وجه التقرير والإثبات، نحو استشهاده بأنه ورد في الإنجيل أنَّ المسيح اتُّهم بالجنون[2]، ويؤكِّد المعنى بالاستشهاد بقوله تعالى: {ليثبتوك} [الأنفال:٣٠]، وفي هذا خلل وخلط واضح، وتنقيص من قدر القرآن أن يقاس بغيره من الكتب السماوية المحرَّفة. ومثله: استشهاده بالتوراة عن غيض ماء الطوفان[3]، وقد أكثر من المقارنات بين الكتب المقدسة المحرفة وبين القرآن الكريم[4].

---

(١) الأثر صحيح الإسناد على شرط الشيخين، أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٤٣٩/٥)، وابن حبان في صحيحه (١٥٦/٢).

(٢) صفحة (٨٤).

(٣) صفحة (١١١).

(٤) كما في الصفحات (١٣٣، ١٤٦).

وفي تقديري أن ذلك نتيجة البقاء في ديار غير ديار الإسلام، والاختلاط بثقافات الأمم، وتحكيم العقل دون فهم النقل، ولا يخفى موقف الرسول ﷺ من وجود التوراة بيد عمر ﷺ، وكذلك لا يخفى أثر الترجمة في العصر العباسي على العلوم الإسلامية، وخاصة علم الكلام والفلسفة وأثره في العقائد وعلم الأصول، وما زلنا إلى اليوم يتجرع الناس مرارة المعتزلة والأشاعرة، نسأل الله السلامة والعافية.

قارَن المؤلف كثيرًا بين مكة وأثينا، وادعى أنَّ سقراط رسول أرسله الله إلى أثينا ليتمم أخلاق أهلها، ولكنهم أعدموه بتهمة إفساد دينهم، ومثل هذه الأساطير التي لا دليل عليها، وقد أكثر من المقارنة بين مكة محمد، وأثينا سقراط، وما كتبه تلميذه أفلاطون، فهو متأثر بالمدرسة الفلسفية، ويقارنها كثيرًا بالدين والقرآن، بل وقع في طوامَّ مثل استشهاده[1] على دعوة سقراط بأنها تُجْمِلُها خاتمة سورة الفجر، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

أنكر بعض أحداث السيرة الصحيحة، مثل: دعوة الرسول ﷺ في الأندية وتغشيه مجالس القوم، وردَّه عقلًا لأدلة فكرية واهية[2].

خلاصة الأمر: هذا الكتاب كتاب فكري سياسي تاريخي، أراد مؤلفه أن يدخل منه إلى تدبُّر القرآن بما اعتقده سابقًا، وما ظنَّ به أنَّ هذا هو الحق الذي يجب أن يكون، وقد تضمَّن الكتاب مسائل لطيفة، وإشارات لطيفة، غير أنَّ خلفية مؤلفه غير الشرعية، ودراساته الأجنبية كان لها أثر واضح على روح الكتاب، وما يرتبط به.

---

(١) صفحة (١٧٠).

(٢) صفحة (١٧٨).

الكتاب الثالث:

٣- تدبُّر القرآن، ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية، د/فؤاد عبدالرحمن البنا «الأستاذ المشارك للفكر السياسي الإسلامي بجامعة تعز».

لمحة فنية:

يقع الكتاب في ٤٠٠ صفحة، من القطع العادي (٢٤ سم - ١٧سم)، ونشرته: نفت للخدمات العامة، اليمن، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

عرض الكتاب:

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة بيَّن فيها ما وصل إليه حال المسلمين من الضعف والذلة والفقر، وتكالب الأعداء على الأمة، وأشار إلى كيف صنع القرآنُ الجيلَ الأول من هذه الأمة من حطام الأمم، واليوم توجد أعداد كبيرة من مدارس تحفيظ القرآن في بلاد المسلمين تشير إلى عودة الاهتمام بالقرآن، لكن الواقع الذي تعانيه المجتمعات يسفر عن خطل المنهج الذي يُتعامَل فيه مع القرآن.

ويرى المؤلف أنَّ أزمة المسلمين اليوم أزمة فكرية في أساسها، وأنَّ كل الأزمات فرعٌ عنها، وأن منبع الضخِّ الأساسي لهذه الأزمة هو عدم قراءة القرآن، أو قراءته على غير المنهج النبوي.

ثم ذكر مشكلة الدراسة: وأنها وصول الأمة إلى قاع الانحطاط والتخلف، وعيش كثير من مكوناتها في دائرة انتقام القرآن.

وبيَّن دوافع الدراسة وبواعثها في خمسة أمور:

ديني: من واجب النصيحة لله ورسوله، فالنصيحة للقرآن داخلة في ذلك أساسًا.

فكري: فالأمم السابقة ضلَّت بسبب سوء فهم كتبها، والاستفادة المثلى من القرآن لا تتمُّ إلا بتدبُّره وفهمه، فالانحراف قد يظهر في طريقة فهم القرآن.

علمي: وهو انشغال كثير من الدراسات القرآنية عن المقصد الأساسي للقرآن وهو الهداية، وهذا يقتضي إعادة النظر في منهج قراءة القرآن.

واقعي: كثرة الجهود والطاقات المصروفة في اتجاه التعامل مع القرآن، لكن المخرجات ما تزال دون حجم المدخلات بكثير، فما تزال الأُمَّة القرآنية واضحة.

سياسي: تعرض الإسلام والقرآن لهجمة شرسة من خصومه وشانئيه، ومن عوامل هذا العداء أنَّ الأعداء لا يقرؤون القرآن إلا من خلال سلوك بعض المسلمين الذين ضلَّ سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

بعد ذلك ذكر المؤلف منهج الدراسة، وهيكلها، وكونها من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: القرآن صانع النهضة الإسلامية الأولى، وتضمَّن ثلاثة مباحث:

الأول: جاذبية القرآن وتأثيره على الناس، «وفيه مطلبان: الأول: تأثيره على أوائل العرب، والثاني: تأثيره على أواخر الغربيين».

الثاني: التفاعل مع القرآن في المجتمع الإسلامي الأول، «وفيه ثلاثة مطالب: الأول: دور العقل في قراءة القرآن، الثاني: دور القلب في قبول القرآن، الثالث: اتباع طريقة التلقي للتطبيق».

الثالث: انتقال مركز الاهتمام بالقرآن من المعنى إلى المبنى «وفيه ثلاثة مطالب: الأول: الاهتمام العاطفي بالقرآن، الثاني: توسع مساحات الحفظ على حساب الفهم، الثالث: مفتاح الشخصية العربية «فقه القرآن»».

الفصل الثاني: انتقام القرآن من غير الملتزمين بمنهج تلقيه الأول، وفيه ثلاثة مباحث:

الأول: القراءات المنقوصة، وفيه ثلاثة مطالب:

الأول: القراءة الجزئية:

١- النظر إلى الحقائق من وجه واحد.

٢- نشأة الفرق العوراء في الفكر الإسلامي.

المطلب الثاني: القراءة الحرفية الظاهرية:

١- تضييق كثير من الدوائر الإسلامية الواسعة.

٢-التقلُّب مع ظواهر النصوص وإهمال المقاصد.

٣-بروز ظاهرة التشدد والتنطع.

المطلب الثالث: القراءة الباطنية المتكلَّفة.

المبحث الثاني: مبررات التفسير المكتظَّة بالإسرائيليات:

١- قنابل إسرائيلية في كتب التفسير.

٢- انتقاص المرأة.

المبحث الثالث: توسع المباني على حساب المعاني:

١-توسع الحفظ على حساب الفقه.

٢-الخلط بين التدبُّر والتكلُّف.

٣-تحول العلوم الخادمة للقرآن إلى غاية.

الفصل الثالث: التدبُّر القرآني والنهوض الإسلامي المنشود، وفيه ثلاثة مباحث:

الأول: التدبُّر فريضة نقلية وضرورة عقلية؛ وفيه ثلاثة مطالب:

الأول: التدبُّر فريضة نقلية.

الثاني: التدبُّر ضرورة عقلية.

الثالث: أسماء القرآن وصفاته تحتمان تدبُّره.

الثاني: ثمار التدبُّر بين الإعراض والإقبال؛ وفيه مطلبان:

الأول: ثمار الإعراض عن التدبُّر.

الثاني: ثمار الإقبال على التدبُّر.

الثالث: منهج التدبُّر بين الأقفال والمفاتيح؛ وفيه مطلبان:

الأول: أقفال التدبُّر.

الثاني: مفاتيح التدبُّر.

أبرز الملاحظات على الكتاب:

- وضع المؤلف عناوين كبيرة، وتحت هذه العناوين نجد كلامًا إنشائيًّا كثيرًا بعيدًا عن الموضوع.

- طباعة البحث وإخراجه غير مرتبة، تضمَّنت أخطاء في ترقيم الصفحات.

- جعل المؤلف الهوامش آخر الكتاب، وقسمها على الفصول، في طريقة بعيدة عن أساليب كتابة البحث العلمي، فلم يجعلها على ترقيم متواصل.

- أكثَرَ المؤلفُ من التفريعات التي لا داعي لها، والتي تشتت القارئ وتبعده عن العنوان والموضوع.

- لغة الكتاب غير واضحة، أو ليست لغة بحث علمي مرتب، بل ربما تجاوز المؤلف ببعض العبارات الإنشائية التي لا تصلح في سياقاتها، ومن أمثلة ذلك: وصفه الرسول ﷺ وصحابته بأنهم «لعبوا دورًا كبيرًا في الدعوة إلى الإسلام»[1]، وقوله: «ومن تدابير القدر»[2]، ونحو ذلك.

- لم يتناول الكتاب موضوع التدبُّر بطريقة منهجية تأصيلية، ولم يؤصل الباحث العلاقة بين التدبُّر ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية، بل اعتمد كثيرًا في بحثه على موضوعات إنشائية عامة في أثر القرآن وبركته على الناس.

- اعتمد المؤلف في معلومات متخصصة على مصادر غير متخصصة، مثل: جمعه لأعداد الكتب القرآنية المتخصصة من كتاب الأعلام للزركلي، وهو ليس كتابًا متخصصًا في علوم القرآن أو نحوها[3].

---

(١) صفحة (١٥).

(٢) صفحة (٨٣)، (١١٤).

(٣) صفحة (٨٧).

- تضمَّن الكتاب تداخلًا وتكرارًا في العديد من المسائل والمباحث، ومن أمثلة ذلك: تكراره الكلام عن: الانشغال بالحفظ عن فهم القرآن وتدبُّره، وأعاد الكلام عنه بأساليب مختلفة متكررة في ثنايا الكتاب، والفكرة والموضوع واحد(١).

- المبالغة في أساليب الكتاب، واعتماده كثيرًا على أقوال المعاصرين المتأخرين والنقل عنهم في مسائل كثيرة، لهم فيها سلف من أهل العلم الأوائل.

- الكتاب في مجمَله كتاب نافع، تضمَّن نقولات ومسائل مفيدة، غير أنَّ سوء ترتيبه يشتت أفكار القارئ، وضعف لغته العلميَّة ومنهجه البحثي ربما أضعفت فائدته، وقد اعتنى إجمالًا بعقبات التدبُّر وموانعه، وأفاد في الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبُّر، وفي الأسباب المعينة على التدبُّر.

وبعد هذا العرض الموجز، أبيِّن أنَّ ثمةَ كتبًا أخرى لم يكفِ البحث لاستعراضها، وأشير إليها إجمالًا، وعامتها كتب جيدة في طرحها، سهلة في أسلوبها، ومن ذلك:

- **تدبُّر القرآن الكريم بين النظريَّة والتطبيق**، د/رقية طه العلواني، من إصدارات جمعية النور للبر، مملكة البحرين، ٢٠٠٢م.

- **مدارج الحفظ والتدبُّر**، أ.د/ناصر العمر، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

- **مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة**، د.خالد بن عبدالكريم اللاحم، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

- **تدبُّر القرآن الكريم وقفات ولفتات**، أ.د/عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

---

(١) انظر: صفحة (٥٤)، (٨١)، (٨٦)، (١٥٦).

- **دعوة إلى تدبُّر القرآن الكريم «كيف ولماذا؟»**، مختار شاكر كمال، دار البشير، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

- **حتى نتدبَّر منهاج الله**، د/عدنان بن علي رضا النحوي، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

وهذه الكتب تناولت في غالبها جزئيات تُعنَى بالتدبُّر، ووسائله، وموانعه، وطرقه، وفيها نفع وفائدة في الإصلاح والتصحيح، والمآخذ عليها يسيرة.



المبحث الثالث

توصيات في توجيه التدبُّر للإصلاح والتصحيح

لعلَّ من أبرز الوصايا التي أوصي بها في ختام هذا البحث، ما يلي:

- الكلام عن باب التدبُّر في الإصلاح والتصحيح باب طرقه الجميع، وربما اجتمع حوله مع أهل السنة جماعة من أهل البدع وغيرهم، فأدخلوا الغثَّ في السمين، مما جعل لزامًا على الباحثين والمحققين أن يدققوا ويحققوا في المكتوب في التدبُّر، ويقوموا بتصفيته من الشوائب والزلل.

- لا يمكن الوقوف على كنوز القرآن إلا بسلوك طريق التدبُّر؛ فبقدر ما يمنُّ الله عليه من تدبُّر كتابه يكون الوقوف على كنوزه، وأي كنوز أحقُّ من أن يُبذَل في نيلها نفيس أوقات العمر من كنوز القرآن، وصلاح الأمة وإصلاح مسيرها مرتبط بالتدبُّر؟!

- إنَّ الكتابة الإصلاحية التصحيحية في تدبُّر القرآن الكريم سبب للنهوض الحضاري بها، ورجوعها إلى مركزها ومكانها الحقيقي بين الأمم، والارتقاء بها في كافة ميادين الحياة، وجدير بالباحثين أن يعتنوا بهذا الموضوع، ويولوه اهتمامًا وعناية كبيرة، ليتحقق الانتفاع بالقرآن، والعمل به، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

- يجدر بالعلماء وطلبة العلم المعتنين بالتدبُّر المشاركة في القنوات الفضائية، ومواقع التواصل، ومجلات الدراسات القرآنية لمزيد نشر لمشروع التدبُّر، ونقله من المعرفة والتنظير، إلى العمل والسلوك القويم، لتحقيق الإصلاح والتصحيح.

- ضرورة وضع مناهج تدبُّرية ميسَّرة للقرآن في حلقات تحفيظ القرآن، والمدارس النظامية، والنهوض بهذه المناهج لتشمل الحفظ والتدبُّر، وتواكب التلاوة والحفظ.

- ضرورة إقامة المؤتمرات والملتقيات القرآنية عن التدبُّر وتأصيله وتيسيره لجميع فئات الناس، ودعم وتشجيع المتطوعين في دعم ذلك.

وبعد، فهذا جهد المقلِّ، وهو عمل يحتاج الكثير من التهذيب والتنقيح، وإعادة النظر والسبك، ولا يزال الموضوع- من وجهة نظري- بحاجة إلى دراسات تتناوله بمزيد من التفصيل والبيان، والسبر والتقسيم والتوضيح.

اللَّهُمَّ كما مننت على من شئت من عبادك بلذة مناجاتك بتلاوة كتابك، فامنن علينا بمنك وكرمك، واجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهلك وخاصتك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارِكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



قائمة المصادر والمراجع

المصدر الأول: القرآن الكريم.

الكتب المطبوعة:

أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ

أفلا يتدبَّرون القرآن، أ.د/طه العلواني، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ

تدبُّر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية، د/فؤاد عبدالرحمن البنا «الأستاذ المشارك للفكر السياسي الإسلامي بجامعة تعز»، نفت للخدمات العامة، اليمن، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ٤٥٨هـ، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: د/ عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ



الزهد، عبدالله بن المبارك بن واضح المروزي ١٨١هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

السيرة النبوية، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين ٢١٣هـ، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

السيرة النبوية «من البداية والنهاية لابن كثير»، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ٧٧٤هـ، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦م.

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري ٢٥٦هـ، اعتنى به: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة «مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي»، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

فضائل الصحابة، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ٢٤١هـ، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.

فضائل القرآن، أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي ٣٠١هـ، تحقيق وتخريج ودراسة: يوسف عثمان فضل الله جبريل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.

فضائل القرآن، أبو عُبيد القاسم بن سلام بن عبدالله الهروي البغدادي ٢٢٤هـ، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير «دمشق، بيروت» الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥م.

القرآن الكريم والأصول في تدبُّره «تمعنات في تعاليمه وخصائصه»، أ.د/ محمد حسين

صفوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي ٨٠٧هـ، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

مختصر «قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر»، أبو عبدالله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي ٢٩٤هـ، اختصرها: العلامة أحمد بن علي المقريزي، حديث أكاديمي، فيصل أباد، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

مصنف عبدالرزاق، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني ٢١١هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ٣٦٠هـ، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ.

الوسيلة إلى كشف العقيلة، لأبي الحسن علي بن محمد السخاوي، تحقيق: د/مولاي محمد الإدريسي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

الجلسة الخامسة

المؤلفات في التدبُّر قراءة وتحليل (الكتب التطبيقية)

أوراق العمل

الورقة الأولى ٦٤٧

قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عز وجل

د. يحي ضاحي علي شطناوي

الورقة الثانية ٦٦٣

معالم التدبر في كتاب المعين على تدبُّر الكتاب المبين

د. محمد بن عبد الله بن جابر القحطاني

الورقة الثالثة ٧٠١

التدبُّر في المناهج التعليمية

أ. د. صالح يحي صواب

الورقة الأولى

قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ

لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

إعداد

د. يحيى ضاحي علي شطناوي

أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن، قسم أصول الدين،

كلية الشريعة، جامعة اليرموك

السيرة الذاتية

الاسم: د. يحيى ضاحي علي شطناوي.

الرتبة: أستاذ مشارك.

مكان وتاريخ الميلاد: حوارة ٢٥/٥/ ١٩٦٤م.

البريد الإلكتروني: shatnawi@yu.edu.jo

المؤهلات العلمية:

- بكالوريوس أصول الدين «السنة وعلومها»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، عام ١٩٨٨ بتقدير ممتاز.

- ماجستير أصول الدين «القرآن وعلومه»، جامعة الإمام، عام ١٩٩٣م بتقدير ممتاز، عنوان الرسالة: «تفسير عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، جمع وتحقيق ودراسة».

- أصول الدين «القرآن وعلومه»، جامعة الإمام، عام ٢٠٠٠م بتقدير ممتاز، عنوان الرسالة: «الانحراف الفكري في التفسير المعاصر.. دوافعه ومجالاته وآثاره».

البحوث العلمية:

- تثبيت النبي ﷺ في ضوء سورة القلم، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، عمان، «منشور» ٢٠٠٣م.

- التجديد في التفسير، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، إربد، «منشور» ٢٠٠٤م.

- انفراد القرآن الكريم بالتنـزيل المنجم، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، المفرق، بحث مشترك «منشور» ٢٠٠٦م.

- المجاملات وأثرها على العلاقات بين الناس في ضوء الكتاب والسنة، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، «منشور» ٢٠٠٨م.

- المقومات المعنوية للمجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، الرياض، السعودية، «منشور» ٢٠٠٩م.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فما أجمل الاشتغال بعلم التفسير؛ لكونه يتعلق بكلام الله سبحانه! ومن هذه الأمور القواعد المعينة على فهم ذلك الكلام، والكتب في قواعد التفسير كثيرة في القديم والحديث، ولكن برز كتاب يمكن إدخاله ضمن هذه السلسلة، وهو قواعد التدبُّر للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ﷺ، فكانت هذه الدراسة المختصرة أملًا في تقديم صورة تقريبية للكتاب الذي يقع في ٨٣٩ صفحة، وبيان قيمته العلميَّة[1]، ذكر من خلالها المؤلف أربعين (٤٠) قاعدة من قواعد التدبُّر.

ويمكن تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث:

المطلب الأول: وصف عام للكتاب.

المطلب الثاني: نماذج مختارة وافق فيها العلماء.

المطلب الثالث: نماذج مختارة قابلة للنقاش.

(١) اعتمد الباحث على طبعة الكتاب الثانية سنة ١٤٠٩/١٩٨٩، دار القلم، دمشق.



المطلب الأول

وصف عام للكتاب

هذه القواعد استخرجها المؤلف من خلال ممارسته الطويلة للتدبُّر في كتاب الله، ويراها تصلح منهجًا يحتذيه المتدبِّرون للقرآن[١].

لم يستوعب جميع قواعد التدبُّر، وهذا ما أشار إليه المؤلف بنفسه[٢].

بعض هذه القواعد مسبوق إليها من مؤلفين آخرين، وهو شيء طبيعي، وقد ذكرذلك المؤلف[٣].

صياغة القواعد جاءت على شكل شرح مطول، بعيدٍ عن القاعدة المسبوكة المختصرة؛ فهي ليست قواعد تفسيرية محكمة الصياغة في الغالب[٤].

اختلاط القواعد مع بعضها، وحصول التداخل والتَّكْرار[٥]، ولعل هذا ما جعل المؤلفَ يضيف لعنوان كتابه: تأمُّلات.

غالب الأمثلة من المتشابه اللفظي، ولا تَتْبَعُ قاعدةً معينة.

لا يذكر مراجع في كتابه إلا نادرًا، وإذا ذكر فلا يشير إلى المرجع والصفحة. «ذكر على سبيل المثال: الطبري والزمخشري وابن كثير والزركشي وكتاب لسان العرب مرات قليلة»[٦].

---

(١) انظر: الميداني، قواعد التدبُّر ص١٢.

(٢) انظر: الميداني، قواعد التدبُّر ص١٢.

(٣) انظر: الميداني، قواعد التفسير ص١٢.

(٤) انظر على سبيل المثال: القاعدة الثامنة ص١٣٩.

(٥) انظر: مثلا ص٥٤٠ حيث تكرر التمثيل بقوله تعالى (كونوا قوامين بالقسط)، وقوله (كونوا قوامين لله).

(٦) انظر: على سبيل المثال ص٢٩٦، ٣٥٢، ٣١٨.

لا يخرّج الأحاديث النبوية على قلّتها.

يعتمد ترتيب السور حسب تاريخ نزولها، وهذا مخالف لفتوى العلماء في هذا الشأن(١)، من اعتبار ترتيب المصحف.

تحدث عن القراءات العشر وجعلها من ضمن قواعد التدبُّر(٢).

عدم التناسق، فأحيانًا يتحدث عن قاعدة بعشرات الصفحات، ويحشد لها الأمثلة الكثيرة، وقاعدة أخرى يتحدث عنها بشكل مقتضب(٣).

بعض الفوائد من فهمه وتدبُّره لكلام الله تعالى أقرب ما تكون للخواطر(٤).

التطويل في الأمثلة، بحيث ينسى القارئ القاعدة، مثل ما ذكره عند القاعدة السادسة، فقد مثَّل عليها بتسعة أمثلة بإسهاب، جاءت في أكثر من ستين صفحة(٥).

وكذلك ما كتبه حول القضاء والقدر بحوالي سبع وستين صفحة، مما جعل الأمر يتشعب على القارئ، ولم يخرج بفائدة، أو حتى معرفة الفرق بين هذه المصطلحات.

وكذا التطويل في التفريق بين الفقير والمسكين، وقد قام بسبر الآيات، وهذا شيء طيب، لكن بعد تلك الأمثلة توصل إلى أن بين اللفظين عمومًا وخصوصًا(٦).

سلامة لغة الكتاب، وقوة العبارة مع قربها للقارئ، بحيث لا يجد القارئ صعوبة في استيعابها، أو فهم مكنوناتها.

---

(١) انظر: ترتيب السور في الجدول ص١٧٨-١٨٤.

(٢) انظر: ص٧٠٩.

(٣) انظر على سبيل المثال: القاعدة السادسة والعشرين ص٥٥١.

(٤) انظر على سبيل المثال: ص٢١٦.

(٥) انظر: ص٦٧-١٣١.

(٦) انظر: ٢٢٦-٣٤٨.

المطلب الأول

نماذج مختارة وافق فيها العلماء

كثيرة هي الأمثلة التي وافق فيها غيره من العلماء السابقين، ويقره عليها اللاحقون، ونذكر نماذج من ذلك:

القاعدة الثامنة: حول تكافؤ النصوص القرآنية، ووجوب الجمع بينها في نسق فكري متكامل، وعدم اللجوء إلى الحكم بالنسخ إلا فيما ثبت نسخه بدليل صحيح صريح»[1]. وهذا صحيح نوافقه عليه، ولكن حبذا لو جاء بأمثلة على آيات منسوخة ثبتت بدليل صحيح صريح.

وجدير بالذكر أن التوسع بالنسخ كان نتيجة توسع المفهوم عند السابقين، واختلاف مفهومه عند المتأخرين.

القاعدة الحادية عشرة: «حول النظر فيما ورد من أسباب النزول»[2]، قال: «وكثير مما يذكره المفسرون على أنه سبب لنزول آية من الآيات، ليس له سند صحيح يثبته، كما أنه قد يكون غير صالح لإلقاء الضوء على المعنى المراد، بل قد يحوِّل فكرَ المتدبِّر لكلام الله عن الفهم الصحيح المتسق مع جملةِ ما جاء في كتاب الله، وقد يصادف المطالع في كتب التفسير حادثة مكية ذكر بعض المفسرين أنها سبب لآية مدنية، أو العكس؛ لذلك لا يصح اعتماد جميع ما ذكره المفسرون على أنه من أسباب النزول، واعتباره أساسًا لتحديد معاني النصوص، إلا أن يثبت بسند صحيح، ولا يتنافى مع تاريخ نزول النص، أو يكون منسجمًا مع دلالات النص الواضحة، دون أن يكون فيه ما يخدش اعتباره سببًا لنزول النص الموضوع للتدبُّر»[3].

(١) ص١٣٩.

(٢) ص٢٠٣.

(٣) ص٢٠٥.

وهذا كلام سليم، فينبغي الحذر من خلط أسباب النزول بغيرها، إذ قد يقول القائل: نزلت هذه الآية في كذا، ويكون المراد بيان موضوع الآية، أو ما دلت عليه من الحكم(١).

قال الزركشي: «وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها»(٢).

القاعدة الثانية عشرة: «حول لزوم فهم الآية وفق ترتيب نظمها»(٣) وجاء بأمثلة على ذلك، وهذا صحيح فينبغي مراعاة السياق الذي جاءت فيه الآية، وذلك يساعد على تفسيرها.

ولا ننسى أن السياق القرآني من أهم دعائم التفسير؛ فهو يساعد على سلوك السبيل القويم في التفسير، وهو حجة قوية في الرد على كل من فهم الآية حسب فهمه الخاص ويقطعها عن سياقها.

وللسياق أهمية لا تخفى في فهم الكلام، وهو قرينة واضحة تدل على مراد المتكلم من كلامه، فقد يدل على معنى في كلام، وعلى معنى مغاير في سياق كلام آخر، وكذلك الآية القرآنية، لكي نفهمها الفهم السليم لابد من ربطها بسياقها وسباقها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الآية هي كلام الله سبحانه الذي يختلف عن كلام البشر(٤).

قال ابن تيمية: «فمن تدبَّر القرآن، وتدبَّر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن؛ تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج»(٥).

وقال الزركشي عن دلالة السياق: «فمن أهمله غلط في تنظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان]، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير»(٦).

---

(١) انظر: عتر: نور الدين، علوم القرآن الكريم، ص٤٩، ط٦، ١٤١٦/١٩٩٦ مطبعة الصلاح، دمشق.

(٢) الزركشي: البرهان ٣١/١-٣٢.

(٣) ص٢٠٧.

(٤) انظر: الحسين: عبدالقادر، معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، ص٧١٠-٧١١، دار الغوثاني، دمشق، ط١، ١٤٢٨/٢٠٠٨.

(٥) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوى ٩٤/١٥، إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.

(٦) الزركشي: البرهان ٢٠٠/٢-٢٠١ الزركشي: محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١/١٩٧٢.



فتجد من يستدل بالآية أو بجزء منها على أمر معين لتعضيد أمر مقرر في الذهن، دون الالتفات لمكان تلك الآية في السياق، ودون النظر إلى ما يسبقها وما يلحقها، مما يجعل الاستدلال بها بهذا الشكل غير سليم.

القاعدة الرابعة عشرة: حول اقتضاءات النص، ولوازمه، وروابطه الفكرية، ومحاذيفه التي حذفت منه للإيجاز، والتضمينات التي يُضَمَّنها[١]، تطرَّق لآيات كريمة من قبيل أساليب البيان في القرآن، مثل: مبحث المحاذيف[٢]، وهذا توسع في قواعد التدبُّر.

القاعدة الخامسة عشرة: حول التكرير وأغراضه[٣]، تكلم عن التكرير الحرفي لبعض الآيات، مثل: آيتي الصف ٨-٩، وآية التوبة ٣٣، وهذا ينطبق عليه الآيات المتشابهة، وقد سبق أن تعرَّض لهذا الموضوع فكان بالإمكان ضمه للسابق.

القاعدة السادسة عشرة: «حول ضرورة البحث في معاني الكلمات القرآنية بحثًا علميًّا لغويًّا»[٤]، أشار في معرض حديثه إلى ضرورة اعتماد دلالات الكلمات القرآنية في عصر نزول القرآن، لا وفق ما تطورت إليه الكلمة بعد ذلك في العصور الإسلامية، ولا وفق المصطلحات التي تمت بعد عصر التنزيل، كمصطلحات الفقهاء[٥].

وقد مثل على القاعدة بأمثلة منها: ليس كُلُّ ظن بمعنى اليقين، وهنا استدرك على بعض المفسرين، وهذا صحيح[٦].

---

(١) ص٢٣٩.

(٢) انظر: ص٢٣٩-٣٠٦.

(٣) ص٣٠٧.

(٤) ص٣١٧.

(٥) ص٣١٩.

(٦) انظر: ص٣٢٤.

وفي معرض شرحه لمادة «قضى»، استشهد بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الزمر: ٤٢]، فذكر المعنى العام للآية: «الله يتوفى الأنفس حين موتها وحين نومها، فيمسك التي سبق إمضاء إرادته بموتها في ذلك الأجل، فتموت، ويرسل التي لم يَحِنْ أجلُ موتها لتعود إلى حياة اليقظة، ويظل أمرها كذلك منامًا ويقظة حتى يحين الأجل المسمى لموتها، فيمسكها عنده، فالتوفي شيء غير الموت، يحدث عند النوم، ويحدث عند الموت، والذي حدث لعيسى ﷺ شيء غير الموت، وبهذا تنحلُّ إشكالات كثيرة»[١].

وبالفعل فهذا يساعد في تفهم قضية توَفِّي عيسى ﷺ، التي حصل فيها لَغَط كبير بين المفسرين، فالجمهور على أن عيسى ﷺ رفع ولم يقع عليه الموت، وسينزل في آخر الزمان[٢]، بخلاف من أخرج الحادثة عن كونها معجزة، ففسروا التوفية بالإماتة، والرفع برفع المكانة، لا رفع الجسد، مثل: الشيخ محمد عبده[٣]، وعبدالجليل عيسى[٤].

القاعدة الثامنة والعشرون: حول استعمال الكلام في أكثر من معنى معًا[٥] استشهد بأقوال العلماء من الفقهاء والأصوليين، ثم انتهى إلى القول: «فانتهيت إلى أن من الأمثل والأفضل في تدبُّر كلام الله ﷻ؛ حملَ النص على كل المعاني التي يؤيدها الواقع أو العقل، تمشيًا مع عطاء القرآن الثرِّ، الذي لا تنضب معانيه، ولا تفنى عجائبه»[٦].

---

(١) ص٣٦٦.

(٢) انظر: الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان ٣٨٦/٩، تحقيق: محمود وأحمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، وانظر: ابن كثير: إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥٩٠/١، ط٢، ١٤٠٧/١٩٨٧، دار المعرفة، بيروت. وانظر: ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن، زاد المسير ٢٤٧/٢، ط١، ١٣٨٧/١٩٦٧.

(٣) انظر: رضا: محمد رشيد، تفسير المنار ٣١٦/٣ (تفسير القرآن الحكيم) ط٢، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) انظر: عبدالجليل عيسى: المصحف الميسر، ص١٣٠، ط٧، ١٤٠٧/١٩٨٧، دار الكتاب المصري.

(٥) انظر: ص٥٦٧.

(٦) الميداني ص٥٧٠.

المطلب الثالث

نماذج مختارة قابلة للنقاش

هناك أمثلة ذكرها المؤلف، وكونها من تأمُّلاته، فهي قابلة للنقاش، يذكر الباحث نماذج مختارة.

القاعدة الأولى: حول ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة[1]، ذكر أن قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة] جملة اعتراضية تربوية، ليس لها مناسبة فكرية بينها وبين ما سبقها من آيات وما تبعها [2].

وأعاد ذكر ذلك في القاعدة الثانية: حول وحدة موضوع السورة القرآنية، وعد ذلك درسًا اعتراضيًّا خاصًّا بالرسول ﷺ، لا صلة له بموضوع السورة[3].

ويظهر هذا من أول نظرة، لكن المتأمِّل في السورة وما حوت وما ذكره جهابذة المفسرين يجد الصلة واضحة، وليست مجرد جملة معترضة، ومن المفسرين الذين ردوا على ذلك وأثبتوا وجود المناسبة: الإمام الرازي، حيث ذكر ستة وجوه للمناسبة[4]، وكذلك الإمام الآلوسي[5].

القاعدة الثالثة: حول أوجه النص التي يهدف إليها[6]، ذكر أمثلة ينطبق عليها قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهي قاعدة أصولية ذكرها جل العلماء[7].

---

(١) انظر: ص١٣.

(٢) انظر: ص١٦.

(٣) انظر: ص٤٣.

(٤) انظر: الرازي: فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير ١٩٦/٢٩-١٩٧ ط١، ١٤١١/١٩٩٠م، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

(٥) انظر: الآلوسي، روح المعاني ١٤٣/٢٩، ط٤، ١٤٠٥/١٩٨٥ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٦) انظر: الميداني ص٤٥.

(٧) انظر: السيوطي: عبدالرحمن، الإتقان في علوم القرآن ١٣٣/١ وما بعدها، ط١، ١٤٢٤/٢٠٠٣، مؤسسة النداء-

القاعدة السادسة: حول تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، واستبعاد احتمال التكرير لمجرد التأكيد ما أمكن[1].

وهذه ينطبق عليها قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد.

ومن ضمن الآيات التي ذكرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] للدلالة على أن من اتقى الله فتح الله له أبواب المعرفة[2].

وللباحث وقفة مع هذا الجزء من الآية التي يستشهد بها البعض على أن فيها وعدًا لمن اتقى الله تعالى أن يعلمه[3]، حتى أصبح كالتعليل، فالتقوى سبب للعلم، وعليه، فكل متقٍ لله سيحظى بالعلوم الإلهية ولو بدون تعلم، وهذا ليس بلازم كما هو معلوم، ولا يلائم سياق الآية وارتباط ذيلها بصدرها، لكن الله تعالى يهيئ للمتقين أسباب انشراح الصدر وصفاء النفس فيسهل عليهم تعلم العلوم، فالكلام على عمومه وإجماله قد يقبل، إلا أن جعله لازمًا وتعليلًا غير مقبول نحويًا وواقعيًا، وقد رد صاحب المنار على ذلك الاستدلال من وجهين:

الأول: من جهة النحو فقال: «لأن عطف «يعلمكم» على «اتقوا الله» ينافي أن يكون جزاءً له ومرتَّبًا عليه؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، ولو قال «يعلمكم» بالجزم لكان مفيدًا لما قالوه، وكذلك لو كان العطف بالفاء أو اتصل بالفعل لام التعليل.

والثاني: أن قولهم هذا عبارة عن جعل المسبَّبِ سببًا، والفرع أصلًا، والنتيجةِ مقدمةً، فإن المعروف المعقول أن العلم هو الذي يثمر التقوى، فلا تقوى بلا علم، فالعلم هو الأصل الأول وعليه المعول»[4].

وقال ابن عاشور: «وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل؛ أي: ليعلمكم، وجعله بعضهم من معاني الواو، وليس بصحيح»[5].

الإمارات، وانظر: الحسين: د. عبدالقادر محمد، معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، ص٤٨٩، ط١، ١٤٢٨/٢٠٠٨، دار الغوثاني، دمشق.

(١) انظر: ص٦٧.

(٢) انظر: ص٧٢.

(٣) انظر: الشوكاني: فتح القدير ٣٠٣/١.

(٤) رضا: محمد رشيد، تفسير المنار ١٢٩/١.

(٥) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١١٨/٣.



فالأولى أن تكون الجملتان مستقلتين، فاتقوا الله في جميع أوامره ونواهيه، ويعلمكم ما يكون إرشادًا واحتياطًا في أمر الدنيا وأمر الدين[1]، ويؤيد هذا تكرار لفظ الجلالة، فإنه لولا كون قوله: «ويعلمكم الله» كلامًا مستأنفًا كان مقتضى السياق أن يقال: يعلمكم بإضمار الفاعل[2].

وقال الكازروني: «قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ هذه الواو ليست عاطفة، وإلا لزم عطف الإخبار على الإنشاء، بل واو الاستئناف كما صرح ابن هشام، حيث قال: الثاني من أقسام الواو؛ وهو أن يرفع ما بعدها، وهو الواو الاستئنافي، نحو: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [الحج: ٥]، ونحو: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]»[3].

وقال الدكتور سمير استيتية: «هذا الجزء من الآية من عجائب القرآن الكريم، فهو مكون من ثلاث جمل، فالجملتان الأوليان تبدآن بفعلية، فهما متشابهتان بهذا الاعتبار، لكن هذا التشابه هو سبب التخالف، والتخالف هو الذي جعل كل واحدة من الجملتين مستقلة استقلالًا تامًّا عن الأخرى، ولو كانت الجملة الثانية اسمية هكذا: اتقوا الله والله يعلمكم؛ أي: أن المعنى سيظهر فيه أن جملة: الله يعلمكم، دالة على أن الله يعلمكم التقوى، وليس هذا المراد، ولكن المقصود أن الله يعلمكم أحكام دِينكم، كما علمكم أحكام الدَّيْن في هذه الآية، وإنما عرفنا ذلك من كون الجملتين: اتقوا الله، ويعلمكم الله، على فصال تامٍّ، وما كان ذلك ليكون إلا بسبب أن الجملتين مختلفتان في الوجهة، فليست ثانيتهما تفريعًا لأولاهما»[4].

ويمكن الاستدلال على المراد بآيات أخرى أكثر صراحة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾

(١) انظر: الرازي: التفسير الكبير ١٠٤/٧.

(٢) انظر: الطباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ٤٣٥/٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٩٧٣/١٣٩٣.

(٣) الكازروني: حاشية الكازروني على البيضاوي ٢٧١/١.

(٤) استيتية: رياض القرآن ٨٠٧/١.

[الطلاق].

القاعدة الثامنة: حول وحدة موضوع السورة القرآنية، ذكر أنه نظر نظرة عامة في سورة البقرة فوجدها كذلك، لكنه لم يكتب دراسة حولها[١]، وكان المأمول لو أنه أشار لدراسة الدكتور محمد عبدالله دراز حول السورة، تحت عنوان: نظام عقد المعاني في سورة البقرة، في كتابه القيم: النبأ العظيم[٢]، ليخدم القاعدة التي أشار لها.

القاعدة العاشرة: حول الحكمة من وضع آيات مدنية التنزيل في سور مكية، ووضع آيات مكية التنزيل في سور مدنية[٣].

فإذا جعلنا الهجرة النبوية هي الحد الفاصل، فهل يستقيم مثل هذا؟

فالآيات المكية في السور المدنية أمر نادر- كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر-[٤] بل إن الباحث يؤيد ما ذكره الدكتور فضل عباس بأن ذلك لا وجود له «فلا يعقل أن تنزل الآية في مكة المكرمة، وأن تبقى سنين طويلة لا مكان لها إلى أن تنزل السورة في المدينة المنورة، ثم توضع تلك الآيات أو الآية أو الآيتان في تلك السورة»[٥].

القاعدة السادسة والعشرون: حول ضرورة ملاحظة قواعد اللغة العربية، ومفاهيم الصيغ الصرفية، ولزوم البحث عن سر مخالفة الإعراب لمقتضى الظاهر[٦]، ولم يمثل لذلك إلا بمثال واحد، وكان بالإمكان التمثيل بآيات جرى كلام في إعرابها، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ [النساء: ١]، وقوله ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣][٧].

القاعدة السابعة والعشرون: حول رعاية فواصل الآيات اهتمامًا بالنسق اللفظي[٨]، وهذه

(١) انظر: ص٣٠.

(٢) انظر: دراز، النبأ العظيم ص١٥٨.

(٣) انظر: ص١٨٥.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٥١/٩-٥٢ ط١، ١٩٩٧، دار السلام، الرياض.

(٥) عباس: فضل، إتقان البرهان في علوم القرآن ٣٨٠/١ ط١، ١٩٩٧ دار الفرقان، عمان.

(٦) انظر: ص٥٥١.

(٧) انظر على سبيل المثال: عباس: فضل، التفسير أساسياته واتجاهاته ص٣٦٠-٣٧٦، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.

(٨) انظر: ص٥٥٧.



قائمة المصادر والمراجع

مسألة جرى كلام طويل عليها.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، زاد المسير، ط١، ١٣٨٧/١٩٦٧.

- ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوى، إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، بدون تاريخ.

- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ط١، ١٩٩٧، دار السلام، الرياض.

- ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، طبعة مصورة، بدون تاريخ.

- ابن كثير: إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، ط٢، ١٤٠٧/١٩٨٧، دار المعرفة، بيروت.

- استيتية: سمير شريف، رياض القرآن «تفسير في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي» جدار للكتاب العالمي، عمان، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥.

- الآلوسي: روح المعاني، ط٤، ١٤٠٥/١٩٨٥ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- الحسين: عبدالقادر، معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، دار الغوثاني، دمشق، ط١، ١٤٢٨/٢٠٠٨.

- دراز: محمد عبدالله، النبأ العظيم، ط٢، ١٣٩٠/١٩٧٠.

- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير، ط١، ١٤١١/١٩٩٠، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

- رضا: محمد رشيد، تفسير المنار «تفسير القرآن الحكيم» ط٢، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

- الزركشي: محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١/١٩٧٢.

- السيوطي: عبدالرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ط١، ١٤٢٤/٢٠٠٣، مؤسسة النداء، الإمارات.

- الشوكاني: محمد علي، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣/١٩٨٣.

- الطباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٣٩٣/١٩٧٣.

- الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان، تحقيق: محمود وأحمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

- عباس: فضل، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط١، ١٩٩٧، دار الفرقان، عمان.

- عباس: فضل، التفسير أساسياته واتجاهاته، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥، مكتبة دنديس، عمان.

- عبدالجليل: عيسى، المصحف الميسر، ط٧، ١٤٠٧/١٩٨٧، دار الكتاب المصري.

- عتر: نور الدين، علوم القرآن الكريم، ط٦، ١٤١٦/١٩٩٦ مطبعة الصلاح، دمشق.

- الكازروني: أبو الفضل القرشي الصديقي الخطيب، حاشية الكازروني علي البيضاوي، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت، بدون.

- الميداني: عبدالرحمن حسن حبنكة، قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ، ط٢، ١٤٠٩/١٩٨٩ دار القلم، دمشق.

الورقة الثانية

معالم التدبُّر في كتاب

المعين على تدبُّر الكتاب المبين

إعداد

د. محمد بن عبدالله بن جابر القحطاني

عضو هيئة التدريس بقسم القرآن وعلومه

كلية الشريعة وأصول الدين، جامعة الملك خالد

السيرة الذاتية

» **الاسم: د. محمد بن عبدالله بن جابر آل مسفر القحطاني.**

» **تاريخ الولادة: ١٣٩١هـ**

» **الدراسة: خريج كلية الشريعة وأصول الدين، فرع جامعة الإمام بأبها، قسم القرآن وعلومه عام ١٤١٤هـ**

» **العمل الوظيفي:**

- أستاذ مساعد في قسم القرآن وعلومه، بكلية الشريعة وأصول الدين، بجامعة الملك خالد.

» **المؤهلات العلمية:**

- ماجستير في القرآن وعلومه، في كلية أصول الدين بالرياض ١٤٢٠هـ، وعنوان البحث: جهود الإمام ابن عبدالبر في علوم القرآن.. دراسة وموازنة.

- دكتوراه في القرآن وعلومه من نفس الكلية عام ١٤٢٧هـ، وعنوان البحث: ترجيحات الإمام ابن القيم واختياراته في التفسير، من أول القرآن إلى آخر سورة الإسراء، دراسة وموازنة.

» **المشاركات والخبرات:**

- حاصل على عدد من الدورات التدريبة في مجال التعليم الجامعي والتعليم الإلكتروني.
- عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه، ورئيس فرعها في أبها.
- مستشار في ملتقى أهل التفسير.
- معيد في كلية الشريعة وأصول الدين بأبها، بتاريخ: ١ / ١٢ / ١٤١٤هـ



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى الصادق الأمين، ﷺ تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، ورضي الله عن آله الطيبين، وصحابته أجمعين؛ أما بعد:

فإن تدبُّر القرآن الكريم من أهم مقاصد إنزاله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، ولا سبيل إلى الاهتداء بالقرآن والانتفاع بآياته إلا بتحقيق هذا المقصد الجليل؛ ولذا كان تدبُّر القرآن من الواجبات المحتمات على كل مسلم ومسلمة، كل بحسب قدرته واستطاعته.

ودليل وجوب تدبُّر القرآن الصريح: أن الله تعالى أنكر على الذين لا يتدبَّرونه في مواضع متعددة من كتابه، فقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤] في موضعين، وقال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، إضافة إلى أدلة أخرى من الكتاب والسنة، تدل على أن تدبُّر القرآن الكريم فريضة من فرائض الدين، ليس هذا محل عرضها وتفصيلها.

ولمّا كان تدبُّر القرآن بهذه الأهمية والمكانة، ولمَّا كان كثير من الناس لا يحسنون تدبُّر القرآن، ولا يملكون مفاتحه؛ حرَصَ أهل العلم على القيام بواجبهم في هذا المجال، واجتهدوا في إعانة الناس على القيام بما أوجبه الله عليهم بطرائق مختلفة، أداءً للأمانة، ونصحًا لكتاب الله ولعامة المسلمين.

ومن الطرائق المسلوكة في هذه الجادة: التصنيف والتأليف والكتابة؛ فهي من خير الطرائق نفعًا، وأدومها تأثيرًا، وأحسنها تأويلًا.

ومن الكتب المتميزة في هذا المجال: كتاب «المعين على تدبُّر الكتاب المبين»، تأليف: الأستاذ مجد بن أحمد مكي.

وحول هذا الكتاب سيكون هذا البحث، الذي كتبته تلبية للدعوة الكريمة التي وُجهت إلي من اللجنة المنظمة لمؤتمر «تدبُّر القرآن الكريم: أعلام ومناهج»، ضمن محور: «المؤلفات في التدبُّر: قراءة وتحليل».

وقد رأيت أن يكون عنوان هذا البحث: «**معالم التدبُّر في كتاب: المعين على تدبُّر الكتاب المبين**».

ونظرًا لطبيعة البحث، وضرورة الاختصار في كتابته؛ فقد ركزت فيه على الإجابة عن التساؤلات التالية:

ما قيمة هذا الكتاب في مجال تدبُّر القرآن الكريم؟

ما أبرز معالم تدبُّر القرآن الكريم التي اشتمل عليها هذا الكتاب؟

ما مدى تطبيق المؤلف للقواعد التي ألزم بها نفسه في تأليف هذا التفسير التدبُّري؟

أهداف البحث:

كُتب هذا البحث لتحقيق الأهداف التالية:

- التعريف بكتاب «المعين على تدبُّر الكتاب المبين».
- إبراز نموذج متميز من جهود العلماء المعاصرين في تدبُّر القرآن الكريم.
- تقويم الجهد المبذول في تأليف هذا الكتاب.

خطة البحث:

ينتظم هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، مع ملحق بالمصادر والفهارس، وتفصيل ذلك كالتالي:

المقدمة، وفيها تساؤلات البحث، وأهدافه، وخطته، ومنهج كتابته.

التمهيد، وفيه التعريف بالكتاب ومؤلفه.

المبحث الأول: معالم التدبُّر النظري في كتاب «المعين على تدبُّر الكتاب المبين».

المبحث الثاني: معالم التدبُّر التطبيقي في كتاب «المعين على تدبُّر الكتاب المبين».

الخاتمة، وفيها النتائج والتوصيات.

ثبت المراجع.

وقد التزمت في كتابة هذا البحث بالطريقة المتبعة المسلوكة في إعداد مثل هذه البحوث العلميَّة، من عزو للآيات، وتخريج للأحاديث، وتوثيق للمعلومات من مصادرها، مع العناية بحسن الأسلوب، وجودة العرض قدر الإمكان.

ولا شك أن هذا البحث جهد بشري، لن يسلم من الأخطاء، ولن يخلو من النقص، ولكن حسبي أني بذلت في كتابته وإعداده جهدي حسب الوقت المتاح، والقدر المطلوب.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا البحث، وأن يجعله من العلم النافع، الذي أنتفع به في حياتي وبعد مماتي، كما أسأله ﷻ أن يوفقني للسداد في القول والعمل.



التمهيد

أولاً: التعريف بمؤلف الكتاب[1]:

اسمه، ومولده:

محمد بن أحمد بن سعيد مكّي، أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة، ومن المتخصّصين في علوم الحديث النبوي، ولد في مدينة حلب في سوريا، في شهر رمضان سنة ١٣٧٦ هـ

تحصيله العلمي:

انتسب إلى كلية الشريعة بجامعة أم القرى، وتخرج فيها عام ١٤٠٤ هـ، وحصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين، في جامعة أم القرى، في مكة المكرمة، قسم الكتاب والسنة، وكان موضوع رسالته: «أقوال الحافظ الذهبي النقدية في علوم الحديث من كتابه سير أعلام النبلاء»، ونوقشت عام ١٤٠٩ هـ

أقام في مكة المكرمة منذ عام ١٤٠٠هـ، وتعرف على كثير من علمائها واستفاد منهم.

جهوده:

انتقل إلى جدة في بداية سنة ١٤١٠ هـ، وتولى الإمامة والخطابة في جامع الرضا بحيّ النعيم، وعمل مدرسًا لمادة التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية، ثم مشرفًا تربويًّا بمدرسة جدة الخاصة منذ سنة ١٤١٠ هـ حتى سنة ١٤١٤ هـ

---

(١) هذا التعريف منقول باختصار يسير من موقع رابطة العلماء السوريين، التعريف بالمشرف على الموقع:
http://www.islamsyria.com/portal/page/show/9
ومنه أخذت ترجمة المؤلف في موقع الموسوعة الحرة «ويكيبيديا»: https://ar.wikipedia.org/wik



عمل مصححًا ومراجعًا ومشرفًا على إصدار عشرات الكتب العلميَّة لمجموعة من دور النشر.

عمل مع الهيئة العالميَّة لتحفيظ القرآن الكريم بجدة في قسم المناهج منذ سنة ١٤١٦هـ حتى سنة ١٤٢٧ هـ، وقد كتب لهم عدة مناهج دراسية معتمدة في العقيدة والتفسير والحديث.

يشرف حاليًّا على موقع رابطة علماء سوريا.

يعمل الآن باحثًا في كلية الدراسات الإسلامية في مؤسسة قطر في الدوحة منذ عام ١٤٢٩هـ وإلى الآن.

مؤلفاته:

وقد صدرت له عدة مؤلفات وتحقيقات؛ منها:

مقدمات الشيخ علي الطنطاوي «جمع وتقديم».

فتاوى مصطفى الزرقا «جمع وعناية».

البيان في أركان الإيمان «تأليف».

الجمان في أصول الإيمان «تأليف».

العقيدة الإسلامية للمكي بن عزُّوز «شرح ودراسة».

ردع الإخوان من محدثات آخر جمعة رمضان للكنوي «تحقيق».

الإنصاف في أحكام الاعتكاف للكنوي «تحقيق».

جياد المسلسلات في علوم الحديث للسيوطي «تحقيق».

من ذخائر السنة، للعلامة الشيخ طه الساكت، «جمع وترتيب وتحقيق وتقديم» في مجلدين كبيرين.

التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبُّر للميداني «تأليف».

المعين على تدبُّر الكتاب المبين، وهو تفسير تدبُّري مختصر محرر، على حاشية المصحف «تأليف».

ياقوتة الصراط في غريب القرآن، لغلام ثعلب «تحقيق وترتيب»، في مجلد على حاشية المصحف.

- **ومن الأعمال العلميَّة التي ستصدر قريبًا بعون الله تعالى:**

الندوات القرآنية «جمع وترتيب وتحقيق»، في أربعة مجلدات.

الندوات الفقهية، وهي مجموع الندوات التي كانت تعقد في مجلة «لواء الإسلام» المصرية، في ثلاثة مجلدات.

جمهرة فتاوى محمد أبو زهرة «جمع وترتيب ودراسة»، في ثلاث مجلدات.

زهرة التفاسير «تهذيب وترتيب»، وأصل الكتاب للخطاط محمد الطاهر الكردي المكي، في خمسة مجلدات.

التفسير المكي لمحمد طاهر الكردي أيضًا، «تصحيح وعناية»، في عشرة مجلدات.

ثانيًا: التعريف بكتاب «المعين على تدبُّر الكتاب المبين»:

لا شك أن مؤلف الكتاب هو أعلم الناس به، وأقدرهم على التعريف به؛ فتأليف الرجل كأحد أبنائه، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة].

وقد كفانا المؤلف مؤونة التعريف بكتابه، فذكر في مقدمته ما يُغني ويكفي في هذا الصدد، كما سيأتي تفصيله بعد تعريف مجمل بهذا التفسير.

تعريف مجمل بهذا الكتاب:

«المعين على تدبُّر الكتاب المبين»، تفسيرٌ مختصرٌ للقرآن، مطبوع على حاشية المصحف الشريف، كتبه مؤلفه «بأسلوب عصريٍّ سهل ميسر، واضح العبارة، وجيز لا يُخِل ولا يُمِل، حتى يكون قريبًا من القارئ، ويكون كذلك صالحًا لترجمته إلى اللغات الأجنبيَّة ترجمةً دقيقةً صحيحة»[1].

(١) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ك».

وقد كتب المؤلف مقدمة نافعة لهذا الكتاب، جاءت في ست عشرة صفحة من الحجم الكبير، وهذه المقدمة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تكلم فيه عن تدبُّر القرآن الكريم: أهميته، وتعريفه في اللغة والاصطلاح، والآيات التي تؤكد أهمية تدبُّر القرآن الكريم.

القسم الثاني: ذكر فيه المؤلف قصته مع هذا الكتاب، ابتداء بتوجهه إلى تأليف كتاب في التفسير، ومرورًا بمراحل كتابته والمصادر التي اعتمد عليها فيه، وانتهاء بالقواعد التي التزم بها في هذا التفسير، والضوابط التي راعاها في كتابته وصياغته، وذكر في ثنايا ذلك بعض التنبيهات والنقولات المفيدة.

القسم الثالث: ملحق بالمقدمة بعنوان: «من أجل قراءة مؤثرة للقرآن الكريم»، ذكر فيه اثني عشر توجيها لمن أراد أن يتأثر بالقرآن، بدأها بالحث على استحضار عظمة القرآن، وعظمة المتكلم به ﷻ، وختمها بالتأكيد على أهمية حمل رسالة القرآن، وتحقيق أهدافه ومقاصده؛ لأن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يعمل به، ويجتهد في تحصيل الزاد العلمي الذي يعينه على فهمه وتدبُّره، ثم ختم هذا الملحق بقوله: «ولا تنسَ هذه القاعدة الصَّادقة: إنَّ القرآن لا يُعطيك بعضه إلا إذا أعطَيْتَه كلك، فإن أعطيته بعضك لن يعطيك شيئًا. ومعنى أن تُعطي القرآن «كلك»: أن تَقْصُر هدفك وغايتك عليه، وتُوجِّه همَّك واهتمامك له، وتملأ أوقاتك به، وتعيشَ مع القرآن في حياتك».

الهدف من تأليف هذا التفسير:

ذكر المؤلف في مقدمة هذا التفسير أن عطاء القرآن مستمر لا ينفد، ومعانيَهُ كثيرة لا تنضب، وأنه- مع كثرة ما ألف في تفسيره وبيان معانيه واستنباط أحكامه- إلا أن الحاجة لا تزال قائمة لكتابة تفسير يناسب زماننا، ويلبي احتياجات أهله، مع مراعاة صياغته بأسلوب ملائم لأساليب عصرنا وثقافتنا.

وقد اجتهد في القيام بهذه المهمة الجليلة عدد من العلماء والهيئات والمؤسسات العلميَّة؛ فأراد المؤلف أن يدلي بدلوه في هذا المضمار، وذلك لأمور أربعة:

الأول: القيام بالواجب نحو القرآن؛ لئلا تقام علينا الحجة.

الثاني: شدة حاجة المؤلف لتدبُّر كتاب الله تعالى.

الثالث: الأمل في أن يكون من أهل الله وخاصته.

الرابع: الرغبة في اللحاق بالقافلة المباركة التي خدمت كتاب الله تعالى عبر الأجيال، والانضمام إلى ركبهم(١).

مصادر هذا التفسير:

ذكر المؤلف الشيخ مجد مكي أنه اعتمد على كتاب شيخه العلامة الجليل عبدالرحمن حبنكة الميداني (ت: ١٤٢٥) ﷺ: «معارج التفكر ودقائق التدبُّر»(٢).

قال الشيخ مجد وفقه الله: «ونظرًا لطول الكتاب، وكثرة مباحثه، وسَعَة موضوعاته أولًا، ولاقتصاره على مرحلة التنزيل المكي ثانيًا، أحببتُ أن أقدِّم للقارئ المعاصر خلاصة وافية مركَّزة لما كتبه الشيخ في «تفسيره التدبُّري»... وقد التمست خُطَا الشيخ فيما كتبه في تدبُّر السور المدنيَّة مستنيرًا ببعض «قواعد التدبُّر الأمثل»(٣)، ومُستفيدًا ممَّا دوَّنه في بعض كتبه الأخرى مثل: «ظاهرة النفاق»، و «فقه الدعوة»، و «أمثال القرآن»، و«الأخلاق الإسلامية»(٤)...»(٥).

---

(١) ينظر المرجع السابق «المقدمة: د - و».

(٢) قال الشيخ مجد: «انتهى الشيخ من تفسير القسم المكي حسب النزول، وصدر في (١٥) مجلَّدا، ثم شرع بتدبُّر سورة البقرة من أول التنزيل المدني، وتكلَّم عن موضوع السورة، ودروسها، وحال الأجل دون تحقيق الأمل، وقد كتبت كلمات في التعريف بتفسيره التدبُّري في مجلة «هدى القرآن» التي تصدرها الهيئة العالميَّة لتحفيظ القرآن في العدد الثاني، سنة (١٤٢٥)، ثم صدر سنة (١٤٢٧) عن دار القلم بدمشق بعنوان: «التعريف بكتاب معارج التفكُّر»».

(٣) كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ»، كتاب كبير للشيخ عبدالرحمن بن حبنكة الميداني، يقع في ٨٣٩ صفحة، قال مؤلفه عنه: «وخلال ممارستي الطويلة للتدبُّر في القرآن العظيم، ومطالعتي لتفاسير المفسرين على اختلاف مناهجهم، تكشَّف لي جملة قواعد هادية لمن أراد أن يتدبَّر كلام الله بصورة فضلى، فأنا أكتبها لمن شاء أن ينتفع بها، فقد وجدت- بالممارسة- أنها ذات نفع عظيم للمتدبِّر، وتصلح منهجًا يحتذيه المتدبِّرون للقرآن».

(٤) ينظر في ترجمة الشيخ الميداني كتاب: «عبدالرحمن حبنكة الميداني: العالم المفكر المسلم» بقلم زوجته: عائدة راغب الجراح، ضمن سلسلة «علماء ومفكرون معاصرون» التي تصدرها دار القلم بدمشق. ولمعرفة أهم مؤلفاته ينظر هذا الرابط: http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=246646

(٥) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ز باختصار».

ثم ذكر المؤلف أنه رجع في تفسيره إلى مصادر كثيرة أُخرى، على سبيل الاستئناس والاسترشاد[1].

وخلاصة القول في مصادر هذا التفسير: أنه اعتمد في تفسير السور المكية على كتاب شيخه الميداني «معارج التفكر»، مع الحرص على الاختصار في اللفظ والاستيفاء للمعاني، وأما السور المدنية فقد استفاد مما كتبه الشيخ الميداني في كتبه الأخرى، التي اشتملت على تفسير لبعض هذه السور، وسار في البقية على نفس المنهج الذي سار عليه في السور المكية، مع الرجوع في كل ذلك إلى مصادر أخرى على سبيل الاستئناس والاسترشاد.

طريقة كتابة هذا التفسير:

ذكر المؤلف طريقة كتابته لهذا التفسير في المقدمة تحت عنوان: «أهم الضوابط التي راعيتها في كتابة هذا التفسير»، وقد أورد تحت هذا العنوان سبعة أمور تبين طريقته التي سلكها في الكتابة والصياغة، وهي مع الاختصار والتصرف:

١- تفسير كل آية على حدة، وعدم إعادة ألفاظ النص القرآني في التفسير إلا نادرًا.

٢- الإشارة إلى رقم الآية في بداية تفسيرها.

٣- تجنَّبت ذكر القراءات ومسائل النحو والإعراب.

٤- تفسير الآية وفق رواية حفص عن عاصم.

٥- التفسير بالقدر الذي تتَّسع له حاشية «مصحف المدينة النبوية المنورة».

٦- الحرص على أن يكون التفسير في مجلد واحد؛ حتى يسهل الوقوف على معنى الآية أثناء التلاوة دون البحث في عدة مجلدات، ويسهلَ حمله واقتناؤه كذلك.

٧- كتابة التفسير بأسلوب صالح لجميع القراء على اختلاف مستوياتهم الثقافية وَفق الأسلوب السهل الممتنع، مع مراعاة صلاحيته للترجمة إلى اللغات الأجنبيَّة[2].

---

(١) ينظر لمعرفة هذه المصادر: المرجع السابق «المقدمة: ز».

(٢) ينظر المرجع السابق «المقدمة: ي - ك».

المطلب الأول

معالم التدبر النظري في كتاب «المعين»

لمّا كان الغرض من تأليف هذا التفسير هو: أن يكون معينًا لقارئه على تدبُّر القرآن الكريم- كما هو واضح من عنوانه- وكما يظهر من صنيع مؤلفه في مقدمته؛ إذ وصفه بـ«التفسير التدبُّري»[1]، وخصص القسم الأول من مقدمته للحديث عن تدبُّر القرآن الكريم من حيث: أهميته، وتعريفه، والآيات التي تؤكد على أهميته؛ لما كان الأمر كذلك رأيت أن تكون دراسة منهج هذا الكتاب متعلقة بمعالم تدبُّر القرآن الكريم فيه، فجاء هذا المبحث للحديث على الجانب النظري لتدبُّر القرآن الكريم، وسيكون الحديث عن الجانب التطبيقي في المبحث الثاني إن شاء الله.

وهذا بيان لأبرز معالم الجانب النظري في هذا الكتاب:

أولًا: أهمية التدبُّر:

لم يتوسع المؤلف في هذا المعلم رغم أهميته، وإنما اقتصر فيه على قوله:

«وتدبُّر القرآن أوْلى وأوَّل ما يُشمِّر له أصحاب الهمم العالية؛ إذ هو مفتاح سائر علوم الإسلام، ولا يحسن بطالب العلم أن يقدم عليها سواها.

قال ابن القيم (ت: ٧٥١) رحمه الله تعالى: «فليس شيءٌ أنفعَ للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبُّر القرآن، وإطالة التأمُّل فيه، وجمع الفكر في معاني آياته[2]»[3].

---

(١) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ح».

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٣٥ «ط: دار طيبة بتحقيق عبدالعزيز الجليل».

(٣) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: أ».

وواضح أن ما ذكره هنا غير كافٍ في بيان أهمية التدبُّر، ولعل المؤلف اكتفى بهذا البيان الموجز؛ لأنه أشار إلى بعض الأمور التي تدل على أهمية التدبُّر في ثنايا مقدمته، وخاصة عند حديثه عن الآيات التي تدل على تدبُّر القرآن وأهميته، كما أن المقام ليس مقام تفصيل في هذه القضايا النظريَّة؛ لأنها إنما وردت في مقدمة لكتابِ تفسير؛ فاقتضى المقام الاختصار.

وقد اعتنى المؤلفون في التدبُّر من المتأخرين بهذه المسألة، وأفردوا لأهمية التدبُّر فصولًا ومباحث خاصة[1].

ثانيًا: تعريف التدبُّر في اللغة والاصطلاح:

أورد المؤلف تحت هذا العنوان ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: التدبُّر في اللغة:

خلاصة ما أورده المؤلف في هذه المسألة أن «التدبُّر مأخوذ من مادة «د ب ر»، وهي آخر الشيء وخلفه، يقال: دبَّر الأمر وتدبَّره: نظر في عاقبته. واستدبَره: رأى في عاقبته ما لم يَرَ في صدره. والتَّدبُّر في الأمر: التفكُّر فيه»[2].

وتعريف التدبُّر في اللغة واضح، لا يحتاج إلى إطالة، لكن يحسن أن يضاف إلى قوله: «والتدبُّر في الأمر: التفكر فيه» ما يدل على التفريق بين التدبُّر والتفكر، فيقال مثلًا: التدبُّر في الأمر: التفكر في عواقبه ومآلاته وما يترتب عليه.

المسألة الثانية: التدبُّر في الاصطلاح:

عرَّف المؤلف التدبُّر بتعريفين منقولين عن ابن القيم، وعن عبدالرحمن الميداني.

وتعريف ابن القيم الذي نقله هو: «تحديق ناظر القلب إلى معاني القرآن، وجمع الفكر على تأمُّله وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّدُ تلاوته بلا فَهْم ولا تدبُّر»[3].

---

(١) وممن أفرد «أهمية التدبُّر» بمبحث مستقل: سلمان السنيدي في كتابه «تدبُّر القرآن» ص١٣ - ٢٥، والدكتور ناصر العمر في كتابه «مدارج الحفظ والتدبُّر» ص٥٧ - ٦٣، والدكتور هاشم الأهدل في كتابه «تعليم تدبُّر القرآن الكريم» ص١٩-٢٤.

(٢) المعين في تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: أ».

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٣٤ «ط: دار طيبة بتحقيق عبدالعزيز الجليل».

وهذا التعريف لم يعرِّف به الإمام ابن القيم التدبُّر، وإنما عرَّف به «التأمُّل»، وبينهما فرق كما نبّه المؤلف نفسه عليه؛ كما سيأتي في المسألة الثالثة.

ولابن القيم تعريف جيد للتدبُّر، وهو ما عبّر عنه بقوله:

«وتدبُّرُ الْكَلَامِ: أن يَنظر فِي أوله وَآخره، ثمَّ يُعِيدَ نظره مرة بعد مرّة؛ وَلِهَذَا جَاءَ على بِنَاء التفعُّلِ، كالتجرع والتفهم والتبيّن»[1].

وأما تعريف الشيخ عبدالرحمن بن حبنكة الميداني الذي ذكره المؤلف فهو: «التفكُّر الشامل، الواصل إلى أواخر دلالات الألفاظ والكلمات، والآيات والسور القرآنية، ومراميها البعيدة»[2].

وتعليقًا على ما أورده المؤلف في هذه المسألة أقول: إنه لا يوجد ما يوجب التفريق بين تعريف التدبُّر في اللغة وفي الاصطلاح، بل ليس هناك اصطلاح للتدبُّر يخالف تعريفَه في اللغة، سوى أن التعريف اللغوي يُنظَر فيه إلى تعريف اللفظ مطلقًا، ثم عند تعريف «تدبُّر القرآن» يقيَّدُ التعريف بما يتعلق بالقرآن فقط.

ولم يأت في التعريفين اللذين نقلهما عن ابن القيم والميداني ما يشير إلى تعريف اصطلاحي للتدبُّر، بل التعريف الذي نقله عن الميداني جاء في سياق تعريفه اللغوي للتدبُّر، حيث قال: «والتدبُّر عند أهل اللغة: التفكر، ولكن مادة الكلمة تدور حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها؛ فالتدبُّر هو: النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، ومن هذا نستطيع أن نفهم أن التدبُّر هو التفكُّر الشامل، الواصل إلى أواخر دلالات الألفاظ والكلمات والآيات والسور القرآنية، ومراميها البعيدة»[3].

كما أن تعريف ابن القيم جاء موافقًا لمعنى التدبُّر في اللغة.

والخلاصة: أنه لا يوجد تعريف للتدبُّر في الشرع ولا في الاصطلاح غير التعريف الذي جاء في لغة العرب لهذا اللفظ، والله أعلم.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم ١/ ٥٤٥«طبعة دار ابن عفان بتحقيق علي بن حسن عبد الحميد».

(٢) قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ ص ١٠ «طبعة دار القلم».

(٣) المرجع السابق ص ١٠.

ثم رأيت في كتاب «مفهوم التدبُّر: تحرير وتأصيل»[1] ما يؤيد ما ذكرت، حيث قال الدكتور فهد الوهبي في ورقته التي كتبها حول تحرير معنى التدبُّر عند المفسرين: «إن التدبُّر حقيقةٌ لغويةٌ متفقٌ على معناها، ولم ينتقل إلى حقيقة شرعية، وإنما يفسر عند الإضافة بما يناسب المضاف إليه»[2].

ومما يؤخذ على المؤلف في هذه المسألة: أنه اقتصر على النقل، ولم يبيّن رأيه وموقفه مما نقله، ولم يذكر تعريفًا واضحًا للتدبُّر، خاصة أن كتابه أُلف لهذا الغرض؛ فكان من المهم من الناحية المنهجية أن يُبنَى الكتاب على أساس واضح في مفهوم التدبُّر.

كما أن من الإحسان في النقل أن يختار من الأقوال في المسألة أحسنها وأوفاها، وهذا يحتاج إلى توسيع دائرة البحث، والرجوع إلى مصادر كثيرة، وقد لا يتمكن منه الباحث في كثير من الحالات، لسبب أو لآخر[3].

ومن أحسن ما وجدته في بيان معنى التدبُّر الشرعي: قول الزمخشري: «وتدبُّر الآيات: التفكر فيها، والتأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة، والمعاني الحسنة»[4].

المسألة الثالثة: الفرق بين التدبُّر والتفكر والتأمُّل:

قال المؤلف بعد أن عرَّف التدبُّر في اللغة والاصطلاح: «ومن الكلمات التي بينها وبين التدبُّر تقارب وتداخل في المعاني: التفكُّر والتأمُّل»[5].

ثم بيَّن المراد بكل كلمة منها؛ فقال: «فالتدبُّر يعني: النظر العقليَّ إلى عواقب الأمور؛ أي: أنه يتجاوز الحاضر إلى المستقبل. والتفكُّر: جولان الفكر في الأمر الذي تكون له صورة عقليَّة

---

(١) وهو كتاب أصدره مركز تدبُّر، جمع فيه أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم، الذي عقد يوم الخميس ١ / ٦ / ١٤٣٩هـ، في مدينة الرياض.

(٢) كتاب «مفهوم التدبُّر: تحرير وتأصيل» ص ٨٩.

(٣) من المبررات التي لها حظ من النظر في هذه القضية: أن الحرص على تكميل البحث وإتقانه من معوقات الإنجاز، وصدق الأستاذ عبدالفتاح أبوغدة ﷺ عندما قال في مقدمة كتابه «الرسول المعلم» ص ٦: «وكم أماتت رغبة الكمالْ، إنجاز كثير من جليل الأعمالْ، كما أمات التراخي والتسويفْ، كثيرًا من فريد التآليفْ».

(٤) الكشاف للزمخشري ٣ / ٣٢٧.

(٥) المعين إلى تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ب».

عن طريق الدليل. وأما التأمُّل: فقد رُوعي فيه إدامة النظر والتثبُّت، ومن ثمَّ فلا تكون النظرة الواحدة تأمُّلًا، وإن كان يمكن أن تكون من قبيل التفكُّر.

فهذه المعاني الثلاثة- وإن كانت متقاربة- إلا أنَّها ليست واحدةً، وإذا ذكر بعض أهل العلم أنها مترادفةٌ، فإنما يقصد فقط الترادف الجزئي، الذي قد يُوجد في بعض الأحيان دون بعضها الآخر»[1].

ويلاحَظ أن المؤلف هنا انطلق في التفريق بين هذه الكلمات من المعنى اللغوي، وهذا صحيح من حيث المبدأ، ولكنه لا يكفي في الحكم النهائي، حتى ينظر في الآيات التي ورد فيها كل من كلمتي «التدبُّر والتفكر»، وأما «التأمُّل» فإنه لم يذكر في القرآن الكريم.

ولو أنه نظر في الآيات التي استعملت فيها الكلمتان لأمكن أن يتوصل إلى نتيجة أدق في التفريق بين الكلمتين.

ثالثًا: الآيات التي تؤكد على أهمية تدبُّر القرآن الكريم:

ذكر الأستاذ مجد مكي- وفقه الله- في مقدمته لكتابه المعين الآياتِ الأربعَ التي تحث على تدبُّر القرآن الكريم، وتنكر على الذين لا يتدبَّرونه، وهي الآيات الأربع المعروفة في سور: ص، والمؤمنون، والنساء، ومحمد.

وقد ذكرها حسب ترتيب نزولها، فذكر آية سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، ثم آية سورة المؤمنون: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون]، ثم آية سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، ثم ختم بآية سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

وقد أفاد في التعليق على هذه الآيات مما ذكره الشيخ عبدالرحمن الميداني في مقدمة كتابه: «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ»[2]، مع بعض الزيادات والتنبيهات.

---

(١) المرجع السابق. وللإمام ابن القيم كلام جيد في التفريق بين هذه الكلمات الثلاث، إضافة إلى كلمات أخرى مقاربة، أورده في كتاب «مفتاح دار السعادة» ١ / ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٢) ينظر كتاب «التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ» ص ٩ - ١١.

ومن الفوائد التي يمكن التنويه بها من تعليقاته على الآيات السابقة:

مرحلة التدبُّر تأتي بعد مرحلة الفهم؛ إذ لا يمكن أن يُطلب التدبُّر لكلام لا يُفهم. وهذا يدل على أنه لا يوجد في القرآن ما لا يفهم معناه مطلقًا، وأن التدبُّر يكون فيما يتعلق بالمعنى المعلوم(١).

آية سورة النساء تدل على أن من تدبَّر القرآن فسوف يتبين له الحق، ويعلم أن القرآن منزّل من عند الله ﷻ (٢). وأقول: وهذا من أعظم مقاصد تدبُّر القرآن.

نفي وجود الاختلاف في الكلام المنزّل من عند الله من ثمرات تدبُّر القرآن، ونفي الاختلاف لا يعني عدم وجود التناقض بين آيات القرآن فقط، بل نفي الاختلاف أوسع من نفي التناقض(٣).

ثالثًا: أنواع التدبُّر:

هذا الموضوع أورده المؤلف في الحاشية تعليقًا على فائدة سبق ذكرها في المعلم السابق، وهي: أن التدبُّر يكون فيما يتعلق بالمعنى المعلوم(٤).

وقد أفردتها بمَعْلَمٍ؛ لأهميتها، ولحاجتها إلى تفصيل وبيان.

وخلاصة ما أورده المؤلف حول هذه المسألة: أن التدبُّر نوعان:

---

(١) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ب».

(٢) ينظر المرجع السابق «المقدمة: ج».

(٣) ينظر: المرجع السابق «المقدمة: ج-د»، وقد أطال المؤلف في بيان هذا الأمر، وجعل له عنوانًا مستقلاً: «الاختلاف أوسع من التناقض»، واستطرد ليقرر أن من وجوه إعجاز القرآن الجديدة: «تناول القرآن الكريم كل ميادين التربية الرئيسة في حياة الإنسان على مستوى واحد من توجيه الاهتمام، وعلى مستوى واحد من الإتقان والإحكام...بلا اختلاف!». ثم قال: «وهكذا، في أيِّ مجال، وعلى أي مستوى تدبَّرت هذا القرآن، وجدت أنه يحوي توجيهًا موحَّدًا بلا اختلاف! وعلى درجة معجزة في كلِّ جانب، ثم على درجة أشد إعجازًا في اجتماع كل الجوانب، وبلا اختلاف فيما بين توجيه لجانب وتوجيه لجانب آخر.
وهذا الكتاب ما يملك أحد أن يتدبَّره دون أن يرى لونًا من الإعجاز فيه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾». قلت: ولم يتبين لي وجه الجدة في هذا الإعجاز إن صحت تسميته إعجازًا.

(٤) ينظر: كتاب المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ب حاشية رقم ٤».

النوع الأول: التدبُّر الأولي، الذي يتعلق بـ«المتدبِّر السطحي»[1]، وهو التدبُّر الذي يتجه إلى آيات القرآن الكريم التي لا يعذر أحد بجهالة معناها.

النوع الثاني: التدبُّر العميق، الذي يتعلق بأهل العلم، وهو التدبُّر الذي يتجه إلى الآيات التي لا يعلم معناها إلا العلماء، وإلى ما تشتمل عليه الآيات عمومًا من المعاني العميقة، والدلالات الدقيقة.

وهذا التقسيم يؤخذ من قول المؤلف: «وأما التفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته، فالمراد به: ما هو بيِّنٌ بنفسه، يفهمه التالي، وهذا هو الأصل؛ لأن أكثر القرآن يعود إليه، ولأجله جاء الأمر بالتدبُّر، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

وأما التفسير الذي يعلمه العلماء، فهو الذي يدركه أهل التدبُّر العميق، والنظر الدقيق، والبصيرة النافذة الكاشفة، ولا يقتصر على القدر الذي يفهمه المتدبِّر السطحي، بل يصل إلى ما تشتمل عليه الآيات من معانٍ عميقة، ودلالات دقيقة»[2].

ومعرفة هذا التقسيم تحلُّ الإشكال الذي يقع عند الحديث عن المُخَاطَبِين بتدبُّر القرآن الكريم، حيث يرى فريق من أهل العلم أن تدبُّر القرآن الكريم واجب على كل مكلّف يفهم الخطاب العربي، بينما يرى بعضهم أن التدبُّر لا يصح إلا من أهل العلم[3].

فالتدبُّر من حيث العموم واجب على المكلفين، ولكن وجوبه يختلف من مكلف لآخر بناء على تفاوت مراتبهم في العلم بالقرآن الكريم.

---

(١) «المتدبِّر السطحي» هكذا عبارة المؤلف، و«التدبُّر الأولي» تعبير من عندي، حسب فهمي لكلام المؤلف وفقه الله.

(٢) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ب حاشية رقم ٤».

(٣) ينظر في بيان هذا الإشكال تفسير أضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٤٥٨ - ٤٦٠، وتدبُّر القرآن للسنيدي ٤٧ - ٤٩.

ثالثًا: موانع التدبُّر:

في القسم الثالث من مقدمة كتاب المعين، المعنون له بـ«من أجل قراءة مؤثرة للقرآن الكريم»؛ أوصى المؤلف قارئ القرآن بأن يجتنب موانع التدبُّر والفهم لمعاني القرآن، ثم نبّه على أن هذه الموانع كثيرة، وذكر منها أربعة موانع، وهي مع التصرف والاختصار:

١- الانصراف عند القراءة إلى تحقيق الحروف، دون الوصول إلى فهم المعاني، فمَثَل من يفعل ذلك مَثَل من اشتغل بالوسائل، وأعرض عن المقاصد.

٢- التقليد والتعصب لمذهب من المذاهب، والجمود عليه.

٣- الإصرار على ذنب، أو الاتصاف بِكِبرٍ وعُجب، أو الاتباع لهَوًى في الدنيا تميل إليه النفس؛ فإنَّ ذلك سبب ظُلمة القلب وصدؤه.

وكُلَّما كانت الشَّهوات أشدَّ تراكمًا، وأكْثَرَ تَوَاردًا، كانت معاني الكلام أشدَّ احتجابًا، وأكثر استِتارًا، وكلَّما خَفَّت عن القلب أثقالُ الدنيا، قَرُب تجلِّي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة المجلوَّة، والشَّهواتُ عليه مثل الصَّدأ على المرآة، ومعاني القرآن مثلُ الصُّورة التي تتراءى في المرآة، فما دام صدأ الشَّهوات عليها لا تتجلَّى الصُّور على حقيقتها.

وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكُّر، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، والذي آثر غُرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألبابْ، فلذلك لا تنكشف له أسرار الكتابْ، ولا يُفتح له في تدبُّرها بابْ.

٤- أن يكون قد قرأ تفسيرًا ظاهرًا، فاعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن، إلا ما تناوله النقل عن بعض السَّلف، وأنَّ ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأي، وأنَّ من فسَّر القرآن برأيه فقد تبوَّأ مقعده من النار، فلا طريق لفهم القرآن وتدبُّره إلا بما نُقل عن هؤلاء الأئمة، فهذا أيضًا من الحُجُبِ المانعة عن فهم القلب للمعاني[1].

---

(١) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ن - س» باختصار وتصرف.

وهذه الموانع الأربعة نقلها المؤلف من كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي[1]، دون أن ينبّه على ذلك ويحيل.

والموانع الثلاثة الأولى لا إشكال فيها؛ إذ صرفها عن التدبُّر والفهم مما لا يخفى.

وأما الرابع؛ ففيه نظر، ويحتاج إلى بيان وتعقيب.

فأما البيان، فقد ذكره المؤلف في الحاشية، حيث نقل تتمة كلام الغزالي التي فيها زيادة شرح وبيان لمضمون هذا المانع، حيث قال تعليقًا على هذا المانع: «قال الغزاليُّ في «الإحياء» ١: ٢٩٠: «وليس معنى فهم القرآن: حفظَ تفسيرِه، فإنَّ في معاني القرآن مُتَّسعًا بالغًا ومجالًا رحْبًا لأرباب الفهم، وإنَّ المنقول من ظاهر التفسير ليس مُنتهى الإدراك فيه». ثم وجَّه معنى النهي عن تفسير القرآن بالرأي بأنه يُنزَّل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء غرض، وإليه مَيل من طبعه وهواه، فيتأوَّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه، ليحتجَّ به على تصحيح غرضه، فيكون المراد بالرأي: الرأي الفاسد الموافق للهوى، دون الاجتهاد الصحيح.

والوجه الثاني: أن يُسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسَّماع والنَّقل، فيما يتعلَّق بغرائب القرآن، وما فيها من الألفاظ المبهمة والمجملة والمُبدَلة، وما فيها من الإيجاز والاختصار، والحذف والإضمار، والتقديم والتأخير، وغير ذلك.

فَمن لم يُحكِم ظاهرَ التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرَّد فهم العربية كثُر غَلَطُهُ، ودَخَل في زُمْرة من يفسِّر القرآن بالرأي وهوى النفس». انتهى.

وقد نقل هذا التوجيه لأحاديث النهي عن التفسير بالرأي ابن الأثير في «جامع الأصول» ٢: ٤، والقرطبي في مقدمة تفسيره ص ٩٢ - ٩٣ دون أن يعزواهُ إلى الغزالي» انتهى[2].

---

(١) ينظر: كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي ١ / ٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: س حاشية رقم ١».

وأما التعقيب؛ فالقول بأن الوقوف على المعاني التي قالها السلف وأئمة التفسير السابقون يمنع من تدبُّر القرآن، وأن الاعتقادَ بأنه لا طريق لفهمِ القرآن وتدبُّرِه إلا بما نُقل عن هؤلاء الأئمة من الحُجُبِ المانعة عن فهم القلب للمعاني: ليس على إطلاقه، بل يحتاج إلى تفصيل.

فما ورد عن السلف في التفسير نوعان:

أحدهما: يتعلق ببيان المعنى، سواء كان هذا البيان من جهة اللغة، أم من جهة الشرع، أم جهة العرف، فهذا لا سبيل للخروج عنه، ولا تصح مخالفته؛ لأن القول في التفسير- الذي هو بيان المعنى- متوقف على السماع، وقد صرّح السيوطي بالإجماع على ذلك، فقال: «وعلم التفسير إنما هو يُتَلقَّى من الأخبارْ، ويُسْلَك فيه مسالك الآثارْ، وانحصار التفسير في السماعْ، كلمة إجماعْ، والنهي عن القول في القرآن بالرأي مَلأ الأسماعْ»[1].

والثاني: يتعلق بما وراء المعنى، وما يدل عليه اللفظ، من استنباط حكم، أو تنزيل للآية على ما يشمله معناها؛ فهذا الذي لا ينحصر القول فيه على السماع، وهو المقصود بقول علي بن أبي طالب ﷺ لما سأله أبو جُحيفة السُّوائي ﷺ: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ فقال علي: «لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ»[2].

قال ابن الجوزي: «وَقَوله: إِلَّا فهما. يَعْنِي: مَا يفهم من فحوى الْكَلَام، وَيُدْرك من بواطن الْمعَانِي»[3].

وقال ابن المنيِّر: «فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ أَشْيَاءُ مَكْتُوبَةٌ مِنَ الْفِقْهِ الْمُسْتَنْبَطِ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَهِيَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رجل»[4].

---

(١) باختصار من مقدمة حاشية السيوطي على البيضاوي المسماة: «نواهد الأبكار وشوارد الأفكار» ١ / ٧، وينظر كلامه في اقتصار التفسير على النقل في مقدمة كتابه «قطف الأزهار وكشف الأزهار» ١ / ٨٩ - ٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم ٣٠٥٩ «طبعة دار التأصيل».

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١ / ١٩٦).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١ / ٢٠٤).

المطلب الثاني

معالم التدبر التطبيقي في كتاب «المعين»

هذا المبحث يتناول الجوانب التطبيقيَّة لتدبُّر القرآن الكريم في كتاب «المعين»، من خلال النظر في التطبيقات التفسيرية التي تعين على تدبُّر القرآن الكريم، بناء على القواعد التي أوردها المؤلف في مقدمة كتابه، وذكر أنه التزم بها في هذا التفسير التدبُّري.

وهذا بيان لأبرز المعالم المتعلقة بالجانب التطبيقي للتدبُّر في هذا الكتاب:

أولًا: حمل النصوص القرآنية على كل المعاني المحتملة:

من المعلوم عند أهل التفسير، أنه يرد في القرآن الكريم نصوص وألفاظ تحتمل أكثر من معنى، ويُنقل في تفسيرها عن السلف أقوال يختلف معناها، دون أن يكون بينها تناقض.

وقد قعّد علماء التفسير قاعدة من أهم قواعد التفسير وأوسعها تطبيقًا، وهي: «إذا احتمل اللفظ معانيَ عدةً ولم يمتنع إرادة الجمع، حمل عليها»[1].

قال المؤلف في مقدمة كتابه تحت ما عنون له بـ«أهم القواعد التي التزمت بها في هذا التفسير»: «حمل النص على كل المعاني إذا كانت الكلمات أو الجمل القرآنية تدل على أكثر من معنى، وعدم قصر النصِّ على واحد منها دون غيره، تمشيًا مع عطاء القرآن الثَّرِّ، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنضب معانيه»[2].

ومن التطبيقات التفسيرية على هذا المعلم:

التطبيق الأول: تفسير قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

(١) ينظر: تفصيل هذه القاعدة وتطبيقاتها في كتاب قواعد الترجيح للدكتور خالد السبت ٢ / ٣٧٧ - ٤٠٣.

(٢) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ط».

قال المؤلف في تفسيره المعين: «ذلك الكتاب الكامل في الهداية والحكمة، لا شك في أنه من عند الله، وأنه الحق والصدق»[1].

فقول الله تعالى: ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾ يحتمل معنيين؛ أحدهما: لا شك في أنه منزل من عند الله. والثاني: لا يوجد فيه ريب ولا شك، بل كل ما فيه حق وصدق. وقد جمع المؤلف بين هذين المعنيين في تفسيره للآية.

التطبيق الثاني: تفسير: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء].

قال المؤلف: «ولا يقتل الإنسان نفسه، ولا يقتل بعضكم بعضًا؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، وقتلُ واحد منكم للآخر قتل لأنفسكم»[2].

فحمل هذا النهي على المعنيين اللذين يحتملهما.

التطبيق الثالث: تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج].

قال المؤلف: «وما علموا فيهم عيبًا، ولا كرهوا منهم إلا إيمانهم بالله القوي الغالب القاهر، الذي لا يُغالَب ولا يُدافَع، المحمود الذي يستحق أن يحمد ويثنى عليه، وهو أهل لذلك، والحامد الذي يحمد عباده على ما يكون منهم مما يستحق الحمد»[3].

وقد اجتمع في هذا التفسير ثلاثة تطبيقات لهذا المَعْلَم، وهي:

الأول: تفسير «نقموا»، حيث فسرها بمعنيين يحتملهما الفعل «نقم»، وهما: علم، وكره. فأتى بالمعنيين في تفسيره للآية.

---

(١) المرجع السابق ص ٢.

(٢) المرجع السابق ص٨٣.

(٣) المرجع السابق ص ٥٩٠.

الثاني: تفسير «العزيز»، حيث يجمع هذا اللفظ عدة معانٍ صحيحة، وهي: القوة والغلبة والقهر؛ فأتى بها كلها، وفسر هذا الاسم بما يقتضيه من المعاني.

الثالث: تفسير «الحميد»، فهو يحتمل أن يكون بمعنى: المحمود، وبمعنى: الحامد؛ فأتى بالمعنيين جميعًا.

وتطبيقات هذا المعلم كثيرة جدًّا، ولا شك أن مراعاته مما يعين على تدبُّر القرآن الكريم على الوجه الأكمل والأحسن.

ثانيًا: تكثير معاني النصوص بحمل ما يحتمل التأسيس والتوكيد على التأسيس:

إذا دار المعنى في لفظ أو آية بين التوكيد والتأسيس؛ فحمله على التأسيس أولى؛ لأن في ذلك إضافةً لمعنى جديد، وتوسيعًا لدلالات الآية.

قال المؤلف مبينًا ما التزم به في تفسيره من القواعد: «استبعاد احتمال التكرير لمجرد التأكيد ما أمكن؛ لتكامل النصوص القرآنية، ولأن التأسيس في كل نص منها مقدّم على التأكيد»[1].

وهذا المعلم لم يطّرد تطبيق المؤلف له في تفسيره هذا، بل طبّقه في مواضع وأهمله في مواضع أخرى، فمن التطبيقات التي التزم فيها بهذا المعلم:

التطبيق الأول: تفسير قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

قال المؤلف في تفسير هذه الآية: «من عمل صالحًا ابتغاء مرضاة الله، ذكرًا كان أو أنثى، وهو مؤمن إيمانًا صحيحًا صادقًا، فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة، وحلاوة الطاعة، والرزق الحلال، والرضا بما قدّر الله له، ولنجزينّهم في الجنة بأحسن ما كانوا يعملون في الدنيا من عمل صالح»[2].

---

(١) المرجع السابق «المقدمة: ط».

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٨.

فقد حمل المؤلف الحياة الطيبة في الآية على ما يكون في الدنيا، مع حملها على جميع المعاني التي يحتملها لفظ الحياة الطيبة، وذلك لأنها لو حملت على نعيم الجنة لكان ما بعدها تأكيدًا لها؛ والتأسيس أولى من التوكيد[1].

التطبيق الثاني: تفسير قول الله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة].

قال المؤلف: «قاربَك ما تكره من أنواع العذاب، فيتبعها نوع آخر، ثم يتبعه نوع ثالث من العذاب، فيتبعه نوع رابع في عذاب أبدي في جهنم»[2].

وهذا الذي قرره المؤلف في تفسير هاتين الآيتين قلَّ من نبَّه عليه وذكره بهذا التفصيل من المفسرين، وأكثرهم يقول: وعيد بعد وعيد، وتهديد بعد تهديد.

وفي تفسير القرطبي أن هاتين الآيتين اشتملتا على أربعة أنواع من الوعيد، مقابل أربعة أنواع من أعمال أبي جهل المنكرة؛ فقد أخبر الله قبلها عنه بقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة]؛ «فَتَرْكُ التَّصْدِيقِ خَصْلَةٌ، وَالتَّكْذِيبُ خَصْلَةٌ، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ خَصْلَةٌ، وَالتَّوَلِّي عَنِ اللهِ تَعَالَى خَصْلَةٌ، فَجَاءَ الْوَعِيدُ أَرْبَعَةً مُقَابِلَةً لِتِلك الْخِصَالِ الْأَرْبَعَةِ»[3].

التطبيق الثالث: تفسير قول الله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ].

قال المؤلف في تفسير هاتين الآيتين: «سيعلمون عند نزع أرواحهم عاقبة تكذيبهم، حين تنكشف لهم مقاعدهم في جهنم دار العذاب، ثم عند البعث سيعلمون أن ما كانوا يكذبون به من أحوال الآخرة حق لا ريب فيه»[4].

فمن المفسرين من جعل ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ مؤكدة لـ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، والراجح ما قرره المؤلف من حمل الآية الثانية على معنى غير المعنى الذي دلت عليه الآية الأولى.

---

(١) ينظر تقرير هذا القاعدة وتطبيقها على هذا المثال في أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٤٢٣ - ٤٢٧.

(٢) المعين على تدبُّر الكتاب المبين ص٥٧٨.

(٣) تفسير القرطبي (١٩ / ١١٤).

(٤) المعين على تدبُّر الكتاب المبين ص ٥٨٢.

ويؤيد حمل الآية الثانية على التأسيس أنها عطفت على الثانية بـ«ثم» التي تفيد التراخي، فوقت علمهم الثاني بعد وقت علمهم الأول.

وقريب من هذا ما أورده المؤلف في تفسير قول الله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر][1].

ومن المواضع التي لم يطبق عليها هذا المعلم مع وضوحها:

الموضع الأول: في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج].

جاء في تفسيره لآخر الآية: «وطهّر بيتي من كل رجس مادي أو معنوي، للطائفين الذين يطوفون حول بيتي، والذين يعبدونني بالصلاة فيه أو عنده، القائمين والراكعين الساجدين»[2].

فقد فسّر «القائمين» في الآية بالمصلين، مع أن هذا المعنى هو المراد بـ«الركع السجود» بالإجماع، و«القائمين» هنا يمكن تفسيرها بالعاكفين؛ كما دلت على ذلك آية سورة البقرة، ويمكن تفسيرها بالقائمين للدعاء؛ فلو فسرها بأحد هذين المعنيين لكان أولى، وأنسب للقاعدة المذكورة: التأسيس أولى من التوكيد.

الموضع الثاني: في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور].

قال في بيان معنى قوله سبحانه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾: «كل مصلٍّ ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون، لا يعزب عن علمه شيء»[3]؛ فجعل مرجع الضمير في «قد علم» إلى الله ﷻ، مع أنه يحتمل أن يعود إلى «كل»، ويكون المعنى: كل من المصلين قد علم صلاة نفسه، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه.

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٥.

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٥.

وهذا المعنى أولى؛ لأنه قد ذُكرَ علمُ الله لما يفعلون في خاتمة الآية؛ فيكون الإخبار عن علم الله بكل ما تفعل هذا المخلوقات تأسيسًا لا توكيدًا[1].

ثالثًا: الاهتمام بما يهدف إليه النص القرآني من أغراض تربوية وتعليمية:

وهذا المعلم من أهم معالم تدبُّر القرآن الكريم؛ لأنه يتفق مع مفهوم التدبُّر وأهدافه؛ فالتدبُّر هو التفكر في الآية، وإعادة النظر فيها؛ لاستخراج أغراضها ومقاصدها.

قال المؤلف في بيان القواعد التي التزم بها عند كتابة هذا التفسير التدبُّري: «بيان بعض ما يشتمل عليه النص القرآني من أوجه، وما يهدف إليه من أغراض تربوية وتعليمية»[2].

ومن التطبيقات على هذا المعلم:

التطبيق الأول: بعد تفسيره لقول الله تعالى، في سياق ذكر خصال اليهود السيئة وأفعالهم القبيحة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة] قال:

«فطمعكم- أيها المؤمنون- في إيمان جمهور اليهود... في غير محلّه؛ لأن الظاهرات الاجتماعية تدلّ على أن هداية جمهورهم أمر ميؤوس منه، ولا مطمع فيه، فوَجِّهوا جهودكم الدعوية لمجتمعات أخرى، يكون بذل المجهود فيها أنفع وأجدى»[3].

وهذا البيان والتنبيه من المؤلف له أهمية كبيرة للدعاة والمصلحين والمربين، وهو مما يدخل تحت ما يسمى اليوم بـ«فقه الأولويات»، الذي يعدُّ من أعلى صور الفقه وأهمها.

وقد جاء التنبيه على هذا التوجيه في صدر سورة «عبس» كما هو معلوم.

التطبيق الثاني: في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء] قال:

---

(١) ينظر: تفصيل ذلك وتقريره في أضواء البيان للشنقيطي ٦/ ٢٧١-٢٧٢.

(٢) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ط».

(٣) المرجع السابق باختصار ص ١٢.

«ولم يذكر موسى في هذه الآية؛ لأن الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة.

والمقصود بذكر من ذكر من الأنبياء في الآية: أنه لم يُنزل على أحد منهم كتابًا جملة واحدة، فلما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدةً قادحًا في نبوتهم، فكذلك لم يكن إنزال القرآن على محمد ﷺ مفرقًا قادحًا في نبوته، بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم»(١).

وهذا تنبيه لطيف المأخذ في بيان المقصود بالآية، وفيه تقرير مخالف لما اشتهر من كون الكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة(٢).

والعجيب أن المؤلف- وفقه الله- لم يتنبه لما قرره هنا لمّا فسّر قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، بل ذكر ما يفيد نزول الكتب السابقة دفعة واحدة، حيث قال في تفسيره لهذه الآية: «وقال الذين كفروا: هلا أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة مجتمع الآيات والسور، كما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود؟! قال الله تعالى: أنزلنا ما نزل من القرآن منجمًا، وسننزل ما بقي من القرآن منجمًا، كذلك التنزيلِ الذي اعترضوا عليه واقترحوا خلافه؛ لثلاث حكم»(٣).

التطبيق الثالث: في تفسير قول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ۖ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف]، نبّه المؤلف على أمور مهمة تهدف إليها هذه الآية، فقال:

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٤.

(٢) وقد بحث هذه المسألة كل من الباحثين: عايش علي محمد لبابنة ويحيى ضاحي شطناوي، في بحث بعنوان: «انفراد القرآن الكريم بالتنزيل المنجم.. دراسة وتحقيق» نشر في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية ١٤٢٨هـ، وانتهى الباحثان إلى أن الكتب السماوية السابقة قد نزلت منجمة كالقرآن الكريم، وأن منهج التنجيم هو المنهج العام في تنزيل الكتب السماوية؛ لحِكَم كثيرة مشتركة بين جميع الرسالات والرسل.

تنبيه: وممن قرر ما توصل إليه الباحثان: العلامة ابن عاشور، حيث قال: «وأزيد: أن التوراة والإنجيل نزلا مفرقين كشأن كل ما ينزل على الرسل في مدة الرسالة، وهو الحق؛ إذ لا يعرف أن كتابًا نزل على رسول دفعة واحدة». انتهى من تفسيره التحرير والتنوير، في تفسيره للآية ٣ من سورة آل عمران.

(٣) المعين على تدبُّر الكتاب المبين ص ٣٦٢.

«فعلى المؤمن أن يحذر من الاعتماد على الظنون والرجم بالغيب دون تحقيق، ولا يركن إلا إلى علم صحيح يأتيه من طريق صحيح، وأن يعرض عن المماراة والمجادلة فيما لا ينفع، إلا جدالًا هيّنًا يسيرًا لا يوغر صدرًا، ولا تترتب عليه عداوة، ولا يضيع وقتًا. ودلّ النهي عن استفتاء غير المسلمين -في شأن أصحاب الكهف وما في معناه- ألا يلجأ المؤمن في معرفة الحقائق والمعارف إلى مصدر غير موثوق به، وذلك أن المعارف التي يصلح عليها حال المؤمنين مكفولة بكتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ ففيهما ما يغنيهم عمّن سواهم»[1].

التطبيق الرابع: في تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۙ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ]، قال المؤلف بعد أن بيّن معنى الآية:

«وفي هذا التعليم الرباني إلزام للداعي إلى الله أن يعلن- عند حواره لغير المؤمنين- تجرده عن سوابق أفكاره حول ما يؤمن به، وأن يقدم قضايا موضوعِه الذي يدعو إليه للبحث المتجرد على مائدةٍ سواءٍ بين الفريقين؛ فعلى كل منهما أن ينظر بتجرد نظرًا فكريًّا عقليًّا علميًّا، ثم على كل منهما أن يقبل ما يوصل إليه البحث العلمي المتجرد، ويذعن له، ويؤمن به»[2].

رابعًا: العناية بخواتم الآيات ومراميها، وما تشتمل عليه من القضايا الكلية:

من الأمور المهمة في التعامل مع آيات القرآن الكريم، والتي لها صلة قوية بالتدبُّر: الوقوف مع خواتم الآيات وإعادة النظر فيها مرة بعد أخرى.

ووجه صلة الوقوف مع أواخر الآيات بالتدبُّر: أن آخر كل آية هي دبرها؛ لأن دبر الشيء يطلق على آخره كما يطلق على ما بعده.

فأواخر الآيات، وأواخر السور، وأواخر القرآن من الأهمية بمكان، ولها تعلق كبير بالتدبُّر من جهة المعنى اللغوي.

قال المؤلف في سياق تعداده للقواعد التي التزم بها في كتابة هذا التفسير: «عُنيت بخواتم الآيات ومراميها، وما تشتمل عليه من قضايا كلية ترتبط بما جاء قبلها بمضمون الآية»[3].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٦.

(٢) المرجع السابق ٤٣١.

(٣) المرجع السابق «المقدمة: ط».

ومع هذا؛ فإني لم أجد في هذا التفسير عناية تتناسب مع أهمية هذا المعلم، وغالب ما أورده من تفسيره لخواتم الآيات لم يخرج عند دائرة التفسير والبيان المعتاد.

وسأكتفي بتطبيقين على هذا المعلم:

التطبيق الأول: قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء].

قال المؤلف في بيانه لمعنى الاسمين اللذين ختمت الآية بهما: «إن الله كان من الأزل إلى الأبد عليًّا كبيرًا، له كمال العلو وكل غاياته، والكبير الذي ليس في الوجود كله مثل وصفه بالكبر؛ فهو سبحانه أعلى منكم سلطانًا، وأكبر قدرة، فإذا تجاوزتم حدودكم فيمن جعل الله تحت أيديكم، فإن الله أقدر على عقوبتكم، وسلطانه أعلى من سلطانكم»[1].

وقد ذكر الرازي أن ختم الآية بهاتين الصفتين في غاية الحسن، وذكر خمسة وجوه في مناسبة ذكر هذين الاسمين في هذا الموضع[2].

التطبيق الثاني: ما أورده المؤلف في تعليقه على خاتمة قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة]، حيث قال عن هذه الآية وما قبلها:

«وهذه الآيات وإن نزلت في أهل التوراة والإنجيل، كما تدل على ذلك أسباب النزول، والسياقُ نفسه، لكن خواتيم الآيات: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم﴾ جاءت بصيغة العموم؛ فالعبرة بعموم اللفظ، ولا يجوز قصر أحكامها على غير المسلمين من أهل الكتاب»[3].

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤.

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٠ / ٧٣).

(٣) المعين على تدبُّر الكتاب المبين ص ١١٥.

خامسًا: التنبيه على المعاني العميقة والدلالات الدقيقة للنصوص القرآنية:

وهذا المَعْلَم يتعلق بالتدبُّر العميق الذي سبق التعريف به في أنواع التدبُّر.

قال المؤلف عند ذكره للقواعد التي التزم بها في كتابة هذا التفسير التدبُّري:

«ملاحظة العمق القرآني، والتنبيه إلى كثيرٍ من المعاني العميقة والدلالات الدقيقة التي لم يرد في النص ألفاظ صريحة تدل عليها دلالة واضحة، كالمحاذيف التي تحذف للإيجاز، ويقتضيها معنى النص، واللوازم الفكرية والكنايات البعيدة، وقد أمعنتُ النظر في استنباط المضامين الفكرية التي تستفاد من النَّص عن طريق اللزوم الفكري، أو الإشارات الضمنيَّة للكلام، بما فيها من تلويح، أو تلميح، أو تعريض، أو كناية، أو غير ذلك؛ إذ إنَّ الكثير من المعاني تُستفاد من النص لزومًا، أو يقتضيها النصُّ اقتضاءً، كسؤال ذُكر جوابه بدون أن يُذكر، وجوابٍ ذكر سؤاله دون أن يذكر، واعتراض ردَّ النص عليه دون أن يُذكر في اللفظ، لكنه ملاحَظٌ ذهنًا، وتَتِمَّات يستدعيها اللزوم العقلي، وقد سكت النصُّ عنها، كما راعيتُ ظاهرة التضمين، وهو أن تذكر كلمة ذات معنى، وتُضمَّن مع معناها كلمة أخرى، ثم يبنى عليها كلامٌ على أساس معنى الكلمة الأخرى»[1].

وهذا المعلم اعتنى به المؤلف كثيرًا، وأجاد في تطبيقه، وذكر من الدلالات والاستنباطات ما يستحق الإشادة.

وسأكتفي بذكر نماذج تطبيقية مختارة لهذا المعلم، وأحيل الراغب في الاستزادة إلى الكتاب، فسيجد بغيته في ثنايا تفسيره لكثير من الآيات الكريمات.

---

(١) المعين على تدبُّر الكتاب المبين «المقدمة: ط».

التطبيق الأول: قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة].

استنبط المؤلف من هذه الآية حكمين؛ أحدهما: دلالة الآية عليه ظاهرةٌ، والثاني في دلالة الآية عليه نوع خفاء.

قال: «وفي الآية دليل على أن من وقف على جور في الوصية- من جهة العمد أو الخطأ، سواء كان وصيًّا أو حاكمًا أو وارثًا- أن يردها إلى العدل. «وهذا الحكم ظاهر»، وفيها دلالة على جواز الاجتهاد والعمل بغالب الظن؛ لأن الخوف من الميل يكون في غالب ظن الخائف»[1].

التطبيق الثاني: تعليقه على قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة]؛ حيث قال، وما أحسن ما قال:

«ويدل توجيه هذا الخطاب إلى المؤمنين عامة: على أن الجيش في الإسلام هو كل الأمة، ولا يُعفى من الجندية سوى الضعفاء لعجز أو شيخوخة أو مرض. وهذا الإنكار على جماعة المؤمنين في إخلادهم إلى الأرض حين دعوتهم إلى الجهاد: تعليمٌ عام، وإرشاد شامل لجميع المسلمين في كل مكان وفي كل عصر، في وجوب مسارعتهم لدعوة الجهاد، وعدم الإخلاد إلى الأرض. على أن خطاب المؤمنين في ذلك الوقت، وفيهم من لبّى الدعوة، وبذل المال دون أن يتثاقل، دليل واضح على التضامن الذي يجب أن يكون بين المؤمنين، وعلى أن تثاقل نفر منهم محسوب على الجميع، وأن جماعتهم مسؤولة عن أفرادهم، وهذا هو الشأن العام في التكاليف الإلهية.

ومقتضى هذا وجوب تعهد الجماعة لمن يبدو عليه من أفرادها شيء من أمارات الضعف والتخاذل بما يقويه ويرفع من معنوياته»[2].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٣.

التطبيق الثالث: لمَّا فرغ المؤلف من تفسير قول الله تعالى، في سياق قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف]، قال: «لم يشغل السجنُ وضيقُه يوسفَ عن الدعوة إلى الله تعالى، وهكذا يجب أن يكون الداعي مهتمًّا بدعوته، لا يفكر إلا بها، ولا يبخل عليها بشيء من وقته وجهده، ولا يشغله عنها شاغل حتى في أحرج الساعات، وأضيق الحالات، وحتى عند ابتلائه بالمصائب والنكبات»[1].

وهكذا نرى المؤلف- وفقه الله- يحرص على التنبيه على هذه الدلالات النافعة، التي تؤخذ من وراء النص، وتعين المتدبِّرين على الانتفاع بالقرآن والاهتداء به على الوجه الأكمل والأمثل.

(١) المرجع السابق ص ٢٣٩.



الخاتمة

وبعد هذه الرحلة العلميَّة البحثية مع كتاب «المعين على تدبُّر الكتاب المبين»، للأستاذ مجد بن أحمد مكي- وفقه الله- تأتي هذه الخاتمة، التي رأيت أن تكون تتمة للبحث، لا خلاصة له، وسأذكر فيها «تغريدات» سريعة كنت قد كتبتها عن هذا الكتاب قبل كتابة هذا البحث، وازدادت قناعتي بها بعد الفراغ من كتابته، إضافة إلى تزكيةٍ لهذا الكتاب من أحد المتخصصين، ثم توصية واحدة للدعاة والأئمة والمربين.

أما التغريدات، فهذا ما يناسب المقام منها:

أولًا: أراد المؤلف أن يكون تفسيره هذا خلاصةً وافيةً مركزة لما كتبه شيخه عبدالرحمن حبنكة الميداني في تفسيره التدبُّري الكبير «معارج التفكر ودقائق التدبُّر».

ثانيًا: هذا التفسير مليء بالفوائد والاستنباطات اللطيفة المفيدة، التي يذكرها المؤلف بعد تفسيره للآية بعبارات موجزة، وهذه الفوائد من خير ما يعين على تدبُّر القرآن المبين.

ثالثًا: حرَص المؤلف على أن يربط الآيات بالواقع، ويستثمرَ توجيهات القرآن في إصلاح الأمة وتربية أفرادها على الاهتداء بالقرآن.

رابعًا: وفي هذا التفسير لفتات بديعة في ربط الآيات ببعضها، وذكر المناسبات بينها، ومنها ما ذكره في تفسير الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

خامسًا: في هذا التفسير عناية باختيار القول المناسب في تفسير الآيات التي تحتمل أكثر من معنى، خاصة الآيات المشكلة، ومن ذلك- على سبيل المثال- تفسيره لقول الله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ حيث فسر الكتاب هنا: بالكتاب الذي تكتب فيه الأعمال.

سادسًا: في هذا التفسير عناية جيدة بالإيضاح لمضامين الآيات عن طريق ذكر التقاسيم والأنواع في فقرات مرتبة، وترقيمات متسلسلة لما يرد في الآيات من أوصاف أو شروط أو أقسام، وهذا من خير ما يعين المتدبِّر على التفاعل مع معطيات الآيات وتوجيهاتها.

وأما تزكية هذا الكتاب والثناء عليه؛ فقد جاءت في مقال كتبه الشيخ الأستاذ الدكتور صلاح بن عبدالفتاح الخالدي، ونشر في صحيفة السبيل الأردنية، وهذا نصها:

«وأقولها شهادة صادقة إن شاء الله: إن تفسير «المعين على تدبُّر الكتاب المبين» هو أهم تفسير معاصر مختصر للقرآن، وإنه لا يستغني عنه أي مسلم مهما كانت ثقافته وكان تخصصه، وإنه يقدم خلاصة نافعة لمعاني القرآن وحقائقه، ولا مجال للمقارنة بينه وبين كل التفاسير المعاصرة المختصرة.

أنصح كل مسلم معاصر بأن يستصحب معه هذا التفسير المعين وهو يتلو آيات القرآن يوميًّا»[1].

وأما التوصية؛ فهي تتمة للتوصية السابقة التي نصح بها الدكتور صلاح الخالدي كل مسلم، وهي التذكير بأن هذا التفسير مناسب جدًّا للقراءة على الناس؛ فأسلوبه جيد، وطريقة عرضه للمعلومات ممتعة، وعباراته سهلة؛ فأوصي الأئمة والدعاة والمربين بالإفادة من هذا التفسير، وقراءته على الناس في المساجد والمدارس والمعاهد.

(١) من مقال بعنوان: «المعين: التفسير الأحدث للقرآن»، وهو منقول في ملتقى أهل التفسير على هذا الرابط:
http://vb.tafsir.net/tafsir11925/#.VdjvOKBViko



قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- صحيح الإمام البخاري، طبعة دار تأصيل الأولى.
- المعين على تدبُّر الكتاب المبين، تأليف مجد بن أحمد مكي، دار نور المكتبات للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ
- الكشاف؛ لأبي القاسم محمود الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
- التفسير الكبير «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ
- تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط: دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثالثة.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد.
- معارج التفكر ودقائق التدبُّر لعبدالرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ
- قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ، عبدالرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ
- كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي، دار الوطن، الرياض.
- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، طبعة دار المعرفة، بيروت.



- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق عبدالعزيز بن ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق علي بن حسن الحلبي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ

- تدبُّر القرآن، تأليف سلمان السنيدي، طبعة المنتدى الإسلامي الأولى.

- مدارج الحفظ والتدبُّر، تأليف الأستاذ الدكتور ناصر العمر، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

الورقة الثانية

التدبُّر في المناهج التعليمية

إعداد

أ. د. صالح يحيى صواب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة صنعاء

السيرة الذاتية

الاسم: أ. د. صالح يحي عيضة صواب.

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة صنعاء.

من مواليد محافظة الجوف، بالجمهورية اليمنية، عام ١٩٦٢م.

البريد الإلكتروني: drsawab@hotmail.com

المؤهلات العلمية:

- حاصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين بالرياض، قسم القرآن وعلومه، في ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
- رئيس الجمعية الخيرية لتعليم القرآن الكريم بالجمهورية اليمنية.
- عضو مجلس الأمناء لجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بصنعاء.
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدراسات الإسلامية، جامعة الملك سعود بالرياض.
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة تطوير الدراسات القرآنية، كرسي القرآن وعلومه.

المشاركات والخبرات:

- مؤتمر «الإعجاز في القرآن الكريم» في جامعة الزرقاء، بالمملكة الأردنية، عام ٢٠٠٥م.
- مؤتمر «العسكرية الإسلامية في ضوء القرآن الكريم» في مدينة الرياض، عام ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- مؤتمر النصرة العالمي، المقام بدولة الكويت عام ٢٠٠٨م.



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله تعالى قد مَنَّ على هذه الأمة بإنزال الكتاب المبين، وجعل التدبُّر مقصدًا من مقاصد نزول القرآن، قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

وقد حقق هذا المقصدَ سلفُ هذه الأمة، ابتداء بسيد الأمة وقائدها محمد ﷺ وصحابته الكرام وتابعيهم بإحسان.

والمؤمن بحاجة إلى من يذَكِّرُه بالقرآن، ويحرِّكُ به قلبه، ويكشفُ عن أبعاده وخفاياه، فيزيد بذلك إيمانًا وتقوى.

ولقد كان السلف يتأثرون بالقرآن ويتفاعلون معه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، بل إن التأثر بسماع القرآن قد تعدى إلى المشركين حال سماعهم لكتاب الله تعالى.

وهذا يدل على أثر القرآن في القلوب.

وقد بقي الصالحون من هذه الأمة يتلون كتاب الله ويتدبَّرونه منذ نزوله وإلى يومنا هذا، لكن ذلك لم يدون لكونه أمرًا شخصيًّا من جهة، ولكون محله القلب ثانيًا، ولهذا لم يتم تدوين تدبُّر القرآن الكريم.

وفي هذا العصر قيض الله من أحيا فكرة التدبُّر لكتاب الله تعالى؛ لتكون تجارب يستفيد منها الآخرون، وكانت هناك دراسات وكتابات ومؤتمرات وندوات تهتم بتدبُّر القرآن الكريم، ومنها الجهود التي قامت بها الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم.

ولم تكن هذه الجهود ضمن منهج دراسي، بل كانت كتابات متفرقة، إلا أنه قد كتبت في بعض المقررات في بعض المؤسسات العلميَّة.

وقد طلبت مني الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم المشاركة في المؤتمر الثاني ببحث عن: «التدبُّر في المناهج التعليمية».

وتم اختيار كتابين للدراسة، هما:

الأول: مقرر تدبُّر القرآن الكريم للتعليم العالي.

الثاني: مقرر تدبُّر القرآن الكريم للمراكز والمعاهد القرآنية.

وكلاهما من إعداد فريق برئاسة الأستاذ الدكتور/ محمد بن عبدالعزيز العواجي.

وقد قمت بقراءة الكتابين، ودراسة جوانب القوة والضعف فيهما، وبعد قراءة الكتابين والنظر فيهما، رأيت أن يكون هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

التمهيد، وفيه: أهمية التدبُّر في المناهج التعليمية.

المبحث الأول: وصف المقررات ومحتواها.

المطلب الأول: وصف عام للمقررين.

المطلب الثاني: دراسة محتوى المقررين.

المبحث الثاني: القضايا المنهجية والعلميَّة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: القضايا المنهجية.

المطلب الثاني: القضايا العلميَّة.

المبحث الثالث: الصياغة والترتيب، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: صياغة المقرر.

المطلب الثاني: الترتيب والتنسيق.

الخاتمة:

ومن المهم هنا الإشارة إلى أمرين:

الأول: أن طبيعة البحث دراسة نقدية، فلم أتعرض للجوانب الإيجابية لصعوبة إحصائها، ولأن الهدف هو تقويم المقررات.

الثاني: أن التشابه الكبير في المقررين جعلني أركز الكتابة في هذا البحث حول مقرر التعليم العالي؛ لكونه أوسع؛ ولكون محتوى مقرر المراكز والمعاهد القرآنية مدرجًا فيه، فكان هو المنطلق في القراءة والنقد.

واللهَ أسألُ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه سبحانه، وأن ينفع به، وأن يعفو عنا ويتجاوز عن الخطأ والزلل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



التمهيد

أنزل الله تعالى القرآن الكريم هاديًا للبشرية؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فاهتدت الأمة بهذا النور الإلهي، واهتدوا إلى الصراط المستقيم.

وكان لسماع القرآن أثر يهز القلوب والمشاعر، نتج عنه إسلام جماعة من المشركين بعد سماعهم لكتاب الله تعالى وتأثيره عليهم، ومع ذلك فإن طائفة من المشركين والمنافقين لم يتأثروا بالقرآن، ولم يهتدوا بهديه، مع قوة الحجة ووضوح البرهان، ومع سماعهم له من النبي ﷺ مباشرة، وما ذاك إلا لأنهم لم يفتحوا قلوبهم للقرآن، ولم يقفوا عند آياته ومواعظه، ولم يتدبَّروه، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون].

ولئن كان الأوائل يفهمون القرآن ويصل إلى قلوبهم بمجرد سماعه؛ لمعرفتهم بلغة القرآن، وصفاء أذهانهم، فإن الأمة تمر بمرحلة لا يكاد كثير من المسلمين يفهمون غريب القرآن الكريم، فضلًا عن أن يتدبَّروه، وهذا يجعل الحاجة قائمة إلى الاهتمام بعلم تدبُّر القرآن الكريم.

لكن تبدو المشكلة في أن التدبُّر ليس علمًا يمكن دراسته والإلمام به، وإنما هو إعمال فكر وعقل وقلب، وهذا لا يتأتى بمجرد القراءة والفهم، ولا بالتعليم والتدريس، وإنما يكون بجهد ذاتي من المتدبِّر.

ومع ذلك فلا ينبغي إغفال موضوع التدبُّر في المناهج التعليمية، وإن كان مختلفًا عن سائر المناهج والمقررات الأخرى، فما يمكن أن يقدمه المنهج هو فتح آفاق التدبُّر، وآلياته والعوامل المعينة عليه، وليس ثمة ما يمنع من إدراجه مقررًا في مرحلة تعليمية.

وأجزم بأن الطالب بحاجة إلى من يرشده في هذا المجال، ويذكره ويعظه، لكن الوقت لا يزال مبكرًا لاعتماد التدبُّر مقررًا في مناهج التعليم، ويجب أن يعطى عناية خاصة، وأن يتم اختيار نخبة من العلماء والمتخصصين لدراسة الآلية المناسبة لاختيار المنهج وآلياته، والنظر فيما إذا كان في مقرر منفرد، أم يضاف إلى مقرر آخر كالتفسير أو علوم القرآن، أو يكون مصاحبًا لمادة حفظ القرآن الكريم، أو غير ذلك.

وبهذا يمكن تحقيق الهدف بصورة فاعلة، تضمن حصول الفائدة المرجوة من هذا العلم.



المبحث الأول

وصف المقررات ومحتواها

المطلب الأول: وصف عام للمقررين:

المقررات التي سيتناولها هذا البحث بالدراسة مقرران في كتابين.

الكتاب الأول: مقرر تدبُّر القرآن الكريم للتعليم العالي.

أعده فريق برئاسة أ. د. محمد بن عبدالعزيز العواجي، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية.

تم نشر الكتاب في ١٤٣٦/٣/١هـ، وهو نفس التأريخ الذي حررت فيه مقدمة المقرر.

يقع الكتاب في (٣٢٧) صفحة، في قسمين اثنين، هما:

القسم الأول: معايير برنامج منهج تدبُّر القرآن الكريم، ويقع في (٢٠) صفحة، تشمل المقدمة وست نقاط رئيسة، هي:

أولًا: أهداف البرنامج.

ثانيًا: معايير برنامج تدبُّر القرآن الكريم.

ثالثًا: مفردات المقرر.

رابعًا: طرق التدريس.

خامسًا: وسائل التقويم.

سادسًا: مراجع المقرر.

القسم الثاني: مقرر تدبُّر القرآن الكريم، ابتداء من الوحدة الأولى، ويقع في (٣٠٧) صفحات، بما في ذلك مراجع الكتاب وفهرس الموضوعات.

وتتضمن معايير البرنامج ثلاثة مجالات فرعية:

المجال الفرعي الأول: مفهوم التدبُّر، ويتضمن (٨) معايير.

المجال الفرعي الثاني: منهجية التدبُّر، ويتضمن (٩) معايير[١].

المجال الفرعي الثالث: تقويم مناهج تدبُّر القرآن الكريم، ويتضمن (١١) معيارًا.

وقد قُسِّم المقرر إلى خمس وحدات:

الوحدة الأولى: مفهوم التدبُّر.

الوحدة الثانية: مقدمات تأصيلية.

الوحدة الثالثة: منهجية التدبُّر.

الوحدة الرابعة: المنهج القويم في تدبُّر القرآن عند السلف.

الوحدة الخامسة: موانع ومناهج مخالفة في التدبُّر.

الكتاب الثاني: مقرر تدبُّر القرآن الكريم للمراكز والمعاهد القرآنية.

أعده فريق برئاسة أ. د. محمد بن عبدالعزيز العواجي، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية.

تم نشر الكتاب في ١٤٣٦/٣/٢٥هـ، وهو نفس التأريخ الذي حررت فيه مقدمة المقرر.

ويقع الكتاب في (١١٣) صفحة، في قسمين:

القسم الأول: معايير برنامج منهج تدبُّر القرآن الكريم، ويقع في (١٤) صفحة، تشمل المقدمة، وتفاصيل البرنامج، ومفردات المقرر، وطرق التدريس، ووسائل التقويم، ومراجع المقرر.

وقد اشتملت على نفس النقاط التي سبق ذكرها في منهج التعليم العالي، وهي: أهداف البرنامج، ومعاييره، ومفردات المقرر، وطرق التدريس، ووسائل التقويم، ومراجع المقرر.

(١) ستأتي الإشارة إلى الاضطراب في عدد هذه المعايير، والاختلاف بين ما ورد في المعايير، وما ورد في المقرر، وما ورد في الفهرس، وذلك عند الحديث عن الملحوظات الفنية.

القسم الثاني: مقرر تدبُّر القرآن الكريم، ويقع في (٩٩) صفحة، بما في ذلك فهرس الموضوعات.

وتتضمن معايير البرنامج ثلاثة مجالات فرعية:

المجال الفرعي الأول: مفهوم تدبُّر القرآن الكريم، ويتضمن (٦) معايير.

المجال الفرعي الثاني: منهجية تدبُّر القرآن الكريم، ويتضمن (٦) معايير.

المجال الفرعي الثالث: تقويم منهج تدبُّر القرآن الكريم، ويتضمن (٨) معايير.

وقد اشتمل على خمس وحدات، وهي أيضًا نفس الوحدات التي وردت في منهج التعليم العالي، مع اختلاف في بعض الألفاظ فقط.

وليس ثمة ما يشير إلى الجهة التي يدرس فيها هذا المقرر أو ذاك، لا في مقدمة الكتابين ولا على الغلاف، باستثناء تخصيص الكتاب الأول للتعليم العالي، والكتاب الثاني للمراكز والمعاهد القرآنية.

ونستطيع القول: إن أصل محتوى المقررين واحد، وهو ما دوِّن في مقرر التعليم العالي، ثم اختُصِر في مقرر المراكز والمعاهد العلميَّة ليتميز- من حيث الطول- عن منهج التعليم العالي.

المطلب الثاني: دراسة محتوى المقررين:

من أهم ما ينبغي الوقوف عليه عند تقييم مناهج التعليم: الوقوف على مفردات كل كتاب ومحتوياته، وعند التأمُّل والنظر والمقارنة بين محتوى المقررين نلحظ ما يلي:

أولًا: المقدمة:

جاء في بداية كل من المقررين مقدمة في ثلاث صفحات، كتبها رئيس فريق إعداد المنهج، أ. د. محمد بن عبدالعزيز العواجي.

ومما يلاحظ على كتابة مقدمة الكتابين: أن هناك تطابقًا في مقدمة الكتابين، ليس في أي منهما زيادة أو نقص عن الآخر، بل بنفس التعبير، ولم يتميز فيه أحد الكتابين عن الآخر، أو يوضح الفئة المستهدفة سواء للتعليم العالي، أو للمراكز والمعاهد القرآنية.

ومما ورد في المقدمة في الباعث على تأليف كل منهما قوله:

«ولكن الملاحظ على كثير من هذه الجهود- وهي مباركة إن شاء الله- عدم وجود منهج تعليمي ينشأ عنه وجود متخصصين في هذا الباب العظيم، ولعل هذا الجهد الذي بين يديك يكون النواة الأولى لمناهج تعليمية متخصصة تضبط التدبُّر، وتعين على إيجاد أساتذة وباحثين متخصصين، يكملون بناء المسيرة، ويحيون التدبُّر في نفوس الناس بطريقة علمية منهجية منضبطة»[1].

ومعنى هذا: أن هدف كل من المنهجين واحد، وأن المخرجات ستكون واحدة، والأصل: أن يوضع لكل منهج هدف محدد ونتائج مستقلة.

بل نجد الخطأ الإملائي يتكرر في المقدمتين، وهذا يدل على أن إحدى مقدمتي الكتابين منسوخة عن الأخرى دون أي اختلاف أو تعديل، باستثناء التأريخ الوارد في نهاية المقدمة، حيث يفصل بينهما (٢٤) يومًا.

والأصل: أن تكتب مقدمة لكل مقرر على حدة، تتناسب مع الفئة المستهدفة في كل منهج، وتوضح الباعث على تأليف ذلك المنهج، وخطوات تأليفه.

ثانيًا: أهداف المقررين:

وضع لمقرر التعليم العالي (٩) أهداف، بينما وضع لمقرر المراكز والمعاهد القرآنية (٧) أهداف، بزيادة هدفين على النحو الآتي:

ومن خلال ما سبق نجد أن هناك اختلافًا يسيرًا في الأهداف بين المقررين، وذلك بزيادة الهدفين الثالث والتاسع في منهج التعليم العالي، وهما:

أن يكون قادرًا على البحث والكتابة، وإنتاج مادة في التدبُّر بأسلوب علمي «الهدف الثالث».

تنمية ملكته وقدرته على التدبُّر، وربط الحياة بمعاني الآية مباشرة «الهدف الخامس»[2].

كما أن هدفين آخرين قد اختلفا في الصياغة، فورد الهداف الرابع في أهداف التعليم العالي بصيغة:

---

(١) ينظر: معايير برنامج منهج تدبُّر القرآن الكريم، مقرر التعليم العالي ص٣، ومقرر المراكز والمعاهد القرآنية ص٣.

(٢) ينظر: معايير برنامج منهج تدبُّر القرآن الكريم، مقرر التعليم العالي ص٥، ومقرر المراكز والمعاهد القرآنية ص٥.

«أن يستطيع استنتاج مناهج وأساليب العلماء في التدبُّر ونقد الخاطئ».

بينما ورد في أهدف مقرر المراكز والمعاهد القرآنية بهذه الصيغة:

«أن يعرف مناهج وأساليب العلماء في التدبُّر».

وكذلك الهدف السادس، ورد في مقرر التعليم العالي بصيغة:

«أن يتقن مهارات التدبُّر والمدارسة وأنواعها».

بينما ورد في مقرر المراكز والمعاهد العلميَّة:

«أن يتعرف على مهارات التدبُّر والمدارسة وأنواعها».

ففي مقرر التعليم العالي: «يستطيع استنتاج» و«يتقن»، بينما في مقرر المراكز والمعاهد القرآنية: «أن يعرف»، و«أن يتعرف».

ويلاحظ على هذه الأهداف ما يلي:

الأهداف متشابهة إلى حد كبير بين المقررين، وكان الأولى أن توضع أهداف واقعية، بحيث يراعى فيها طبيعة المرحلة التعليمية، والمستوى العلمي لكل منهم.

لم نلحظ بناء المفردات على تلك الأهداف بصورة واضحة، فلا يُعلم ما المفردات التي تجعله قادرًا على البحث والكتابة، وما المفردات التي تنمي المَلَكة والقدرة، وأين وضعت في المنهج؟!

لم يتم مراعاة الأهداف في وضع المفردات، فعلى سبيل المثال:

الهدف الأول: أن يتعرف على مفهوم التدبُّر، وعلاقته بالمصطلحات القرآنية الأخرى.

وهذا هدف مشترك بين المقررين، لكننا نجد ما يحقق هذا الهدف في منهج التعليم العالي، وهو المعيار الثاني في المجال الفرعي الأول:

مقارنة المفهوم والعلاقة بين المصطلحات والمفاهيم القريبة من معنى «التدبُّر».

وهذا يخدم الجزء الثاني من الهدف الأول، ولكنه غير موجود في مقرر المراكز والمعاهد العلميَّة، مع أن الهدف متطابق.

ورد في أهداف مقرر التعليم العالي:

أن يكون قادرًا على البحث والكتابة، وإنتاج مادة في التدبُّر بأسلوب علمي.

وقد استبعد هذا الهدف من مقرر المراكز والمعاهد القرآنية.

ومع ذلك نجد في وسائل التقويم لكل مقرر هذه الوسيلة:

«التكليف بالبحوث المتخصصة (٢٠) درجة»[1].

وهي وسيلة مشتركة بين المقررين، مع أن الهدف المتعلق بالبحث مختلف بينهما، وهذا خلل في التطابق بين الأهداف والوسائل.

ثالثًا: معايير برنامج تدبُّر القرآن الكريم:

اتفقت معايير برنامج تدبُّر القرآن في المقررين على ثلاثة مجالات فرعية، وهي:

١- مفهوم تدبُّر القرآن الكريم.

٢- منهجية تدبُّر القرآن الكريم.

٣- تقويم منهج تدبُّر القرآن الكريم.

لكنها اختلفت في معايير ومؤشرات هذه المجالات، على النحو الآتي:

المجال الفرعي الأول: مفهوم التدبُّر.

وقد وردت معايير هذا المجال في (٨) معايير في منهج التعليم العالي، و(٦) معايير في مقرر المراكز والمعاهد القرآنية، كما هو موضح في الجدول الآتي:

ويلاحظ هنا وجود معيارين في مقرر التعليم العالي غير موجودين في مقرر المراكز والمعاهد القرآنية، وهما:

١ - مقارنة المفهوم والعلاقة بين المصطلحات والمفاهيم القريبة من معنى التدبُّر «المعيار الثاني».

(١) ينظر: معايير برنامج منهج تدبُّر القرآن الكريم، مقرر التعليم العالي ص١٧، ومقرر المراكز والمعاهد القرآنية ص١٢.

٢ - حكم تدبُّر القرآن «المعيار الخامس».

على أن هناك اختلافًا في مؤشرات هذه المعايير، فعلى سبيل المثال:

المعيار السادس: أهمية التدبُّر، ورد في مقرر التعليم العالي في (١٢) اثني عشر مؤشرًا، بينما ورد في منهج المراكز والمعاهد القرآنية في (٩) مؤشرات؛ أي: بزيادة ثلاثة مؤشرات في منهج التعليم العالي، وهي:

١ - الثبات على الحق واليقين «المؤشر الرابع».

٢ - الامتثال لأمر الله تعالى إذ أمر بذلك «المؤشر الخامس».

٣ - عمل المرء بكتاب الله وتطبيقه في واقع الحياة «المؤشر الثاني عشر».

المجال الفرعي الثاني: منهجية التدبُّر.

وردت معايير هذا المجال في (٩) معايير في مقرر التعليم العالي، بينما وردت في (٦) معايير في منهج المراكز والمعاهد القرآنية، كما هو موضح في الجدول الآتي:

ومن خلال ما سبق نلحظ أن هناك أربعة معايير موجودة في مقرر التعليم العالي، وهي غير موجودة في مقرر المراكز والمعاهد القرآنية، وهي:

مراحل التدبُّر «المعيار الرابع».

درجات التدبُّر «المعيار الخامس».

مجالات تدبُّر القرآن «المعيار الثامن».

انضباط التدبُّر من خلال سمات مقاصد القرآن الكريم الأساسية «المعيار التاسع».

وقد جاءت إحدى الفقرات في الوسائل، وهي: «وسائل الحفاظ وتنمية التدبُّر»، جاءت فقرة في منهج التعليم العالي، لكنها وردت في منهج المراكز والمعاهد بصفتها معيارًا، فتقلص الفارق في المعايير إلى (٣) بدلًا من (٤) معايير.

المجال الفرعي الثالث: تقويم مناهج تدبُّر القرآن الكريم.

وردت معايير هذا المجال في مقرر التعليم العالي في (١١) معيارًا، بينما وردت في مقرر المراكز والمعاهد القرآنية في (٨) معايير، كما هو موضح في الجدول الآتي:

ومما سبق نلحظ أن هناك ثلاثة معايير مذكورة في مقرر التعليم العالي، ولم تذكر في مقرر المراكز والمعاهد القرآنية، وهي:

١-من وسائل تدبُّر القرآن الكريم عند السلف الصالح «المعيار الثالث».

نماذج عامة للتدبُّر «المعيار السادس».

أسباب الفهم الخاطئ في تدبُّر القرآن «المعيار الثامن».

ولا يمكننا معرفة أسباب حذف هذه المعايير دون غيرها، وبخاصة معيار: أسباب الفهم الخاطئ في تدبُّر القرآن.

ومن خلال ما سبق من المقارنة بين المقررين يظهر جليًّا أن التمييز بينهما لم يُبنَ على أهداف واضحة، ولم يقم على أساس علمي، وإنما اقتصر على الاختصار والحذف، فتم حذف بعض المعايير أو المؤشرات، وتم اختصار بعض الفقرات، دون أن يكون هناك اختلاف جوهري بين المنهجين.

ويجب إعادة النظر في مفردات المقرر، بناء على أهداف خاصة بكل من المرحلتين «التعليم العالي، والمراكز والمعاهد القرآنية»، ومراعاة خواص كل من المرحلتين.



المبحث الثاني

القضايا المنهجية والعلمية

المطلب الأول: القضايا المنهجية.

اعتمد المقرران على الجمع والنقل لمجموعة من الأبحاث المتعلقة بالتدبُّر، وأبرزها أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم، ومما أثر سلبًا على جودة المقرَّرَين الاعتماد على النقل، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النقل- في كثير من الأحيان- كان مجرد إدراج لمباحث من بعض الأبحاث، دون مراجعتها، أو التنسيبق بينها أو حذف المكرر، أو جعلها على نمط واحد في الإخراج، مما أدى إلى كثير من الأخطاء في المقررين.

وكما أشرت سابقًا فإن مقرر تدبُّر القرآن الكريم للتعليم العالي هو الأوسع، وغالب ما احتوى عليه مقرر المراكز والمعاهد القرآنية مندرج ضمن مقرر التعليم العالي، ولهذا فسيكون التركيز عليه في ذكر هذه الملاحظات، ومن أبرز الأخطاء المنهجية ما يلي:

أولًا: التكرار في المادة العلميَّة، وعدم التنسيق بينها، فنجد أن الموضوع الواحد يرد في أكثر من موضع، فعلى سبيل المثال:

ضمن الحديث عن وسائل التدبُّر، وعند الحديث عن الوسائل الإجرائية جاء في الوسيلة السادسة:

«الترتيل والتمهل أثناء التلاوة»[1].

وفي ذكر المنهج النبوي جاء: «ترتيل القرآن»[2].

(١) ينظر: مقرر تدبُّر القرآن للتعليم العالي ص١٢٤.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٧٠.

وفي تفعيل وسائل التدبُّر الإدراكية في النفس، ورد: «ترتيل القرآن»[١].

وفي منهج السلف في تلقي القرآن وتدبُّره: «اهتمامهم بترتيل القرآن»[٢].

وعند الحديث عن وسائل تدبُّر السلف، ورد: «حث السلف على قراءة القرآن على مكث دون استعجال»[٣].

ويلاحظ أن الاستدلال يتكرر في هذه المواضع بنفس الأدلة التي يتم الاستدلال بها في كل منها.

من الأمثلة على التكرار الوارد في المقرر: الحديث عن ترديد الآيات أثناء التلاوة.

ففي وسائل التدبُّر: الوسائل الإجرائية: «ترديد الآية المؤثرة في القلب»[٤].

وفي الأسباب المعينة على التدبُّر: «ترديد الآيات وتكرارها»[٥].

وفي ذكر منهج السلف: «ترديد الآيات التي تؤثر في القلب»[٦].

وفي وسائل تدبُّر السلف: «حث السلف على ترداد الآية الواحدة في الصلاة وخارجها»[٧].

وفي كل هذه المواضع نجد تشابهًا في الأدلة والشواهد إلى حد كبير.

وهذا يشير إلى عدم الدقة في اعتبار هذا الشيء وسيلة أو سببًا أو منهجًا أو نحو ذلك.

عند الحديث عن مراحل التدبُّر ورد قوله:

المرحلة الأولى: لا بد من اليقين التام أنك مع القرآن حي، وبدونه ميت، مبصر، وبدونه أعمى، مهتد، وبدونه ضالٌّ[٨].

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٤٨.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٧٩.

(٣) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٩٣.

(٤) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٢١.

(٥) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٥٧.

(٦) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٨٣.

(٧) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٩٥.

(٨) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٠٤.

وعندما ذكر في وسائل التدبُّر: «أولًا: تهيئة القلب قبل البدء في التلاوة والتدبُّر» وذلك بأمور، ثم قال:

السابع: اليقين التام أن المسلم حي بتدبُّر القرآن، ميت بدونه[1].

فجاء ذكر اليقين التام أن المسلم حي بتدبُّر القرآن، ميت بدونه، في مراحل التدبُّر، وجاء أيضًا في وسائل التدبُّر.

ثانيًا: عدم التوافق بين العنوان والمحتوى:

تتضمن معايير برنامج تدبُّر القرآن ثلاثة مجالات فرعية.

المجال الفرعي الثالث: تقويم منهج «مناهج» تدبُّر القرآن الكريم.

وظاهر هذا العنوان أنها دراسة تقويمية لمناهج تدبُّر القرآن الكريم، سواء كانت تلك المناهج حديثة، أم عبارة عن طرق التدبُّر لدى السلف ومن بعدهم، لكن الناظر في محتوى هذا المجال ومفرداته لا يجد له علاقة بالتقويم، حيث احتوى على المنهج النبوي، ومنهج السلف، ووسائل التدبُّر وآثاره عند السلف، ونماذج من التدبُّر، وموانع التدبُّر، والفهم الخاطئ وأسبابه.

وهذا يدل على أن عناوين الكتاب عناوين مرنة واسعة، يمكن أن يوضع فيها أي شيء دون مراعاة للفظ العنوان.

المطلب الثاني: القضايا العلميَّة.

لم يلق الكتابان العناية الكافية في دراسة محتواهما دراسة علمية صحيحة، بل اعتمدت على النقل والجمع لعدد من الأبحاث، ومع أن هذه الأبحاث محكَّمة إلا أن التحكيم لا يعني إجازة كل ما فيها، ولهذا وقعت بعض الأخطاء التي سنشير إليها:

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١١٣.

أولًا: عدم التحقق من نسبة الأقوال إلى قائليها:

ومن ذلك عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية المشهورة في مقدمته في أصول التفسير، حيث جاء في المقرر:

وقال السيوطي ﷺ: «العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم»[1].

فنسب هذه العبارة إلى السيوطي ﷺ، ومعلوم أن هذا الكلام لابن تيمية ﷺ في مقدمته أصول التفسير[2]، بل إن السيوطي في الإتقان[3] قد عزاه إلى ابن تيمية.

ثانيًا: الاعتماد في الاستدلال على بعض الأقوال المرجوحة:

ينظر الطالب إلى الكتاب المنهجي على أنه خلاصة الأقوال الراجحة، وليست مهمة الطالب التحقيق والبحث في المسألة الواردة في المقرر؛ لكن ورد في المقرر بعض الآراء المرجوحة، والتي توهم أنها راجحة ومقبولة، مع كون الأمر خلافَ ذلك.

فعند الحديث عن وسائل حفظ وتنمية التدبُّر، أورد المؤلف في الفقرة الخامسة: «التعوذ بالله من الشيطان خوفًا من العَجْب».

ثم قال: «إذا كان التعوذ من الشيطان الرجيم مأمورًا به في بداية التلاوة والتدبُّر، فإنه كذلك مأمور به في نهايتها في قول من أخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]»[4].

ثم أخذ يقرر وجه هذا القول ويبني عليه، وكأنه قول راجح، وليس في الكلام ما يدل على كونه مرجوحًا سوى عبارة: «في قول من أخذ بظاهر قوله تعالى...».

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص٤٦.

(٢) ينظر: مقدمة في أصول التفسير، ص٢١ ط دار ابن حزم.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢٢٧٨/٦ ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

(٤) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٥٠.

ثالثًا: عدم التحقيق في كثير من القضايا:

يجب أن يكون الكتاب المنهجي دقيقًا، بحيث يوفر للطالب عناء البحث والترجيح والموازنة بين الأقوال، وقد ورد في المقررين طرح بعض المسائل دون تدقيق وتمحيص، وهي بحاجة إلى وقفات متأنية من أهل الاختصاص؛ للاتفاق على مدى دقتها وصحتها؛ لكي تحظى بدرجة كافية من القبول.

ومن الأمثلة على بعض المسائل التي تحتاج إلى مراجعة وتمحيص ما يلي:

ورد معنى التدبُّر الاصطلاحي شاملًا للتلاوة ومعرفة المعاني وغيرها.

ولا شك أن التلاوة أمر غير التدبُّر، وأن معرفة المعاني يختلف عن التدبُّر، وإن كانت معرفة المعاني أساسًا للتدبُّر، لكنه أمر آخر.

القول بأن التفسير والاستنباط خاص بالمجتهدين من العلماء، بينما التدبُّر عام لكل المسلمين[1].

وهذا القول لا يستقيم؛ إذ لا يمكن التدبُّر إلا بفهم المعنى؛ وهو التفسير.

القول بأن التأويل بمعنى: الرجوع إلى المآل والمصير، يلتقي مع التدبُّر، حيث إنهما يجتمعان في دلالة المآل والعاقبة والمصير[2].

وهذا خلط بين المآل والمصير، وبين النظر في المآل والمصير.

الخلط بين التدبُّر والتفكر والتعقل وغيرها من المصطلحات، ووضع أدلة كل منها موضع الآخر، مع أنه قد تم التفريق بين المصطلحات في بداية الكتاب.

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٣.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٦.

رابعًا: عدم الدقة في ذكر أسماء بعض المراجع، فقد جاء العزو إلى تفسير الطبري بتسميته: «جامع البيان في تفسير القرآن»[1]، ومعلوم أن اسم كتاب الطبري: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

خامسًا: عدم الدقة في استخدام بعض الألفاظ:

فمثلًا ورد بعد تعريف التدبُّر قوله:

«فائدة في مجيء مصطلح التدبُّر على صيغة التفعيل»[2]، والصواب: التفعُّل.

وعند الحديث عن مفهوم التدبُّر، بعد الاستدلال بقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ [المدثر] ورد قوله:

«وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ بالفعل الثلاثي على وزن «كرم» كما في قراءة الباقين من القراء والرواة.

وما نقل هنا ليس موافقًا للقراءة المشار إليها، ولا يمكن للقارئ التمييز بين القراءتين، والصواب أن يقال: «والليل إذا دَبَر»، لكي يتوافق مع القراءة المرادة، وهذا دليل على عدم الفهم لما يكتب.

سادسًا: اشتمل المقرران على نماذج من التدبُّر لبعض المشايخ، وهذا أمر طيب، لكن ذلك يبقى اجتهادًا لأولئك الأشخاص، ومنه ما هو مستقيم، ومنه ما لا يستقيم ويحتاج إلى مراجعة؛ إذ إن منها ما هو بعيد في الاستدلال والاستنباط.

وقد ورد في مقرر التعليم العالي تدبُّر الأمثال في سورة النور، وفي مقرر المراكز والمعاهد تطبيقات عملية للتدبُّر في قصار المفصل.

وكل ما ورد آراء لأفراد، منها ما هو تدبُّر للآيات، ومنها ما هو بعيد عن دلالة الآية.

ومع جلالة هؤلاء العلماء إلا أنه ليس كل ما يقولونه مسلَّم، فلا ينبغي وضعه في منهج تعليمي، كما في مقرر المراكز والمعاهد في السور القصيرة.

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي، حاشية ص٣.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٠.

وأحسب أنه لو عرض عليهم ما كتبوه لمراجعته لأعادوا صياغته بطريقة أكثر دقة وفائدة.

سابعًا: التكلف في استخراج بعض النتائج، وتحميل النصوص ما لا تحتمله:

مما يلاحظ في المقررين التكلف في بعض المسائل دون الاستناد إلى حقيقة علمية واضحة، ومحاولة إقحام بعض القضايا في غير موضعها؛ مما أخرج المقرر عن الأسلوب العلمي الدقيق، ومن الأمثلة على ذلك:

من موانع التدبُّر: «الاعتماد على الأحاديث الواهية والضعيفة عند التدبُّر والتفسير، ورد الأحاديث الثابتة والصحيحة»(١).

وعند دراسة هذا القول نجد فيه تكلُّفًا في ذكر موانع التدبُّر، فالتدبُّر يكون في حال يكون المرء فيه بعيدًا عن نصوص الحديث، والربط بين رد الأحاديث وبين التدبُّر أمر فيه تكلف.

ورد في موانع التدبُّر أيضًا:

الجهل بالناسخ والمنسوخ، الجهل بأسباب النزول، الاعتماد على الإسرائيليات(٢).

وكل هذه ليست من موانع التدبُّر؛ إذ يعني ذلك: أنه يشترط أن يكون المتدبِّر عالمًا بالناسخ والمنسوخ وأسباب النزول... إلخ.

ولو ذكرت هذه القضايا باعتبار العلم بها معينًا على التدبُّر، لكان ذلك أولى.

ورد في مقاصد التدبُّر: المقصد الخامس من مقاصد التدبُّر:

تفويت الفرصة على من يريد تحريف كلام الله أو تأويله(٣).

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص٢٦٧، ٢٦٦.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٠.

(٣) ينظر: مقرر التعليم العالي ص٧٠.

وخلاصته: أن التدبُّر يقطع الطريق أمام كل من يريد أن يحمّل النصوص ما لا تحتمله، وذلك بسبب الفهم الناتج عن التدبُّر.

وهذا ليس على إطلاقه؛ فإن التدبُّر نوع من التأمُّل، وقد يكون طريقًا للهداية، وقد يكون بابًا للتكلف وتحميل النصوص ما لا تحتمله.

المبحث الثالث

الصياغة والترتيب

المطلب الأول: صياغة المقرر.

بما أن الكتاب قد اعتمد على منهج الجمع، فقد اختلفت الصياغة، وتعددت أساليب الكتابة، ووقعت بعض الأخطاء في المقرر، منها:

أولًا: اتباع الأسلوب العلمي التحليلي، الذي لا يتناسب مع المنهج الدراسي، وإنما يتناسب مع البحوث والرسائل العلميَّة، فمثلًا:

جاء تعريف «التدبُّر» في اللغة في أربع صفحات[1].

التعريف الاصطلاحي للتدبُّر استغرق خمس صفحات[2].

أي: أن تعريف التدبُّر في المقرر استغرق تسع صفحات، وهذا لا يتناسب مع مقرر دراسي، ولا يمكن للطالب أن يحفظ هذه التعريفات، كما أنه يصعب تقويم الطالب ومدى استيعابه للمعلومة.

ثانيًا: التوسع والاستطراد:

من أسس بناء المناهج التعليمية: التركيز على الموضوع، وحصر المادة العلميَّة للطالب، لكننا نجد في الكتاب المقرر استطرادًا وتوسعًا لا حاجة له، ومن ذلك:

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص٢-٥.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص٥-١٠.

عند الحديث عن المصطلحات القريبة من معنى التدبُّر، ورد الحديث عن التفكر، وذلك بتعريف التفكر، وذكر الفرق بينه وبين التدبُّر، وأهمية التفكر، وعناصر عملية التفكر، وذلك في (٦) صفحات[١].

وسرد هذه المعلومات بهذا التوسع استطراد لا حاجة له، وهو خروج عن صلب الموضوع إلى تفريعاته.

عند الحديث عن ثمار التدبُّر جعل كل ثمرات الإسلام ثمارًا للتدبُّر، فذكر منها: زيادة الإيمان وتجديده، وتحصيل الهداية وتوابعها، والوقوف على معرفة الله ومعرفة الحلال والحرام، والثبات على الحق واليقين، والامتثال لأمر الله تعالى، ويقظة الأفراد، ونهضة الأمم، وشحذ الهمم وشفاء الصدور، والقناعة في الدنيا، والتعلق بالآخرة، والإنابة والعلم والمعرفة، والعمل بالقرآن... وغير ذلك.

ومن يتأمَّل هذه المفردات يجد أن فيها مبالغةً وتوسعًا، وكثير منها إن لم تكن كلها تحصل للمرء وإن لم يتدبَّر، بل وربما لم يسمع إلا شيئًا يسيرًا من القرآن.

ولا شك في أثر التدبُّر، لكن التوسع بجعل جميع هذه الآثار من آثار التدبُّر فيه نظر، وهذا يحتاج إلى إعادة نظر.

عند الحديث عن أثر تدبُّر القرآن في النهوض الحضاري، جعل التدبُّر سببًا في جميع أنواع النهوض الحضاري علميًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا، على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع.

وقد تحدث عن أثر تدبُّر القرآن في المجالات الآتية:

أثر تدبُّر القرآن في النهوض الأخلاقي الاجتماعي «الفرد، الأسرة، المجتمع».

وفي كل منها مفردات، فمثلًا في الأثر على الفرد: صقل المواهب، وتنمية القدرات العقلية.

أثر تدبُّر القرآن في النهوض الحضاري الأخلاقي.

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٧-٢٣.

أثر تدبُّر القرآن في النهوض الحضاري العلمي.

أثر تدبُّر القرآن في ضبط السلوك وتنظيمه(١).

وخلاصة القول: إن الكتاب جعل كل ما صنعه الإسلام والإيمان بالأمة؛ من تربية ورقي وتزكية وغير ذلك، نتيجة للتدبُّر.

وهذا يفتقر إلى الأسلوب العلمي الدقيق، فالمسلمون الذين لم يحفظوا القرآن، وربما لم يقرؤوه كاملًا، فضلًا عن أن يتدبَّروه، اتسمت سلوكياتهم وأخلاقهم بالالتزام، ولا ينبغي أن نقحم التدبُّر في كل شيء.

عند الحديث عن مقاصد التدبُّر، ذكر المقصد الأول: العمل بالقرآن.

وتحت هذا العنوان استطرد إلى الحديث عن تعلم القرآن وفضله وأهميته، باعتباره وسيلة من وسائل التدبُّر.

ثم أتبعه بالحديث عن النهي عن ختم القرآن في أقل من ثلاث، وأثره في التدبُّر، ثم الحديث عن خطورة الإعراض عن القرآن، وتشبيه حال المعرض بما جاء في قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف](٢).

وإذا جاز مثل هذا الاستطراد في محاضرة أو ندوة أو غيرها؛ فإنه لا يصح أن يكون في كتاب منهج علمي.

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص٨٠-٨٩.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٠٤، ومقرر المراكز والمعاهد القرآنية ص٣٤.

ثالثًا: ركاكة التعبير:

اشتمل المقرران على جملة من العبارات بصيغة ركيكة لا تتناسب مع صياغة العناوين، ومثال ذلك ما يلي:

في مراحل التدبُّر، ورد في المقررين:

«المرحلة الأولى: لا بد من اليقين التام أنك مع القرآن حي، وبدونه ميت، مبصر، وبدونه أعمى، مهتد، وبدونه ضال»[1].

وهذا لا يصلح أن يكون عنوانًا لمرحلة من مراحلة التدبُّر؛ إذ غلب عليه الأسلوب الإنشائي.

في عنوان الوحدة الخامسة، جاء بلفظ: «موانع ومناهج مخالفة في التدبُّر»[2].

وهذه العبارة لا تستقيم؛ لأن المعنى: «موانع مخالفة في التدبُّر»، وكانت بحاجة إلى صياغة أخرى.

وهناك كثير من العبارات التي تحتاج إلى مراجعة في صياغتها.

ورد في أسباب الفهم الخاطئ في تدبُّر القرآن.

أولًا: الزيغ والانحراف العقدي.

ثانيًا: اتباع الهوى يعمي ويصم عن فهم القرآن[3].

وهذا لا يصلح أن يكون عنوانًا، ولو اكتفى بعبارة: «ثانيًا: اتباع الهوى» لكان مناسبًا.

---

(١) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٧-٢٣.

(٢) ورد هذا اللفظ في صلب مقرر المراكز والمعاهد القرآنية وفي فهرس مقرر التعليم العالي، وورد في فهرس مقرر المراكز: «موانع ومناهج وطرق مخالفة للتدبُّر».

(٣) ينظر: مقرر التعليم العالي ص٢٦٣.

المطلب الثاني: الترتيب والتنسيق:

لم يحظ المقرران- وبخاصة مقرر التعليم العالي- بالعناية المطلوبة فيما يتعلق بالترتيب والتنسيق.

وقد ظهر ذلك جليًّا في مواطن كثيرة، منها:

أولًا: في معايير برنامج منهج تدبُّر القرآن الكريم:

«المجال الفرعي الثاني: منهجية التدبُّر، ويتضمن (١٥) معيارًا»[١].

وعند تفصيل هذه المعايير لم يرد إلا (٩) معايير فقط، ولا يعلم القارئ إن كان الخطأ في اعتبار بعض المعايير فقرات «أولًا، ثانيًا، ثالثًا،...» إلخ، أم في النص على أنها (١٥) مع كونها (٩).

ويزيد الأمر تناقضًا في الفهرس؛ حيث وردت (٧) أنواع فقط.

وهكذا نجدها في موضع (١٥) معيارًا، وفي موضع آخر (٩) معايير، وفي موضع ثالث (٧) معايير.

وكذلك أيضًا في المجال الثالث: تقويم مناهج تدبُّر القرآن الكريم، ذكر في المعايير أنه يتضمن (١٣) معيارًا، بينما ورد في التفاصيل (١١) معيارًا فقط[٢].

ثانيا: تفتقد الفقرات إلى حسن الترتيب؛ لكي يظهر علاقة كل منها بالآخر، والتمييز بين العناوين الرئيسة والفرعية، وهذا ما ليس موجودًا في الكتابين، فلا يعلم ما العلاقة بين فقرة وأخرى، وسأنقل هنا جزءًا من فهرس المقرر للمراكز والمعاهد القرآنية؛ ليتضح مدى عدم الاعتناء بالتنسيق، وقد حرصت على أن يكون ذلك في ابتداء وحدة من وحدات المقرر، وهي الوحدة الخامسة:

---

(١) ينظر: معايير برنامج منهج تدبُّر القرآن للتعليم العالي ص٧.

(٢) ينظر: مقرر التعليم العالي ص١٠-١٤.

إن من يلاحظ طريقة ترتيب الموضوعات، لا يمكنه الربط بين موضوع وآخر، ولا يمكنه التمييز بين العناوين الرئيسة أو الفرعية، ولا يمكنه الخروج بفائدة من فهرس الموضوعات، فقد جاءت العناوين على النسق الآتي:

«**الوحدة الخامسة، الأول.، أولًا.، الثالث.، ثالثًا.، ثانيًا.، خامسًا.، رابعًا.، سادسًا.، الرابع.، ثالثًا.، ثامنًا.، الخامس.، خامسًا.، رابعًا.**».

وهكذا يظهر القصور في ترتيب الكتاب وتنسيقه.



الخاتمة والتوصيات

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد:

من خلال البحث حول هذا الموضوع تبين أهمية التدبُّر في المناهج التعليمية، وحاجة الطلاب إلى ما يعينهم على الوقوف مع كتاب الله تعالى.

وبعد دراسة مقرَّرَيِ التدبُّر للتعليم العالي، وللمراكز والمعاهد القرآنية، اتضح جليًّا أنه تم إعداد هذين المقررين على عجل، وأن هناك قصورًا في كثير من الجوانب، ومن أبرز هذه الجوانب:

اتحاد المجالات والوحدات الدراسية بين مقرَّرَيِ التعليم العالي، والمراكز والمعاهد العلميَّة، وعدم التمييز الواضح في الأهداف.

عدم تطابق الأهداف مع المحتوى في كثير من الموضوعات.

الاعتماد على الجمع دون التحقيق.

التكرار للموضوع الواحد وأدلته في أكثر من موضع.

عدم التطابق بين العنوان والمحتوى في بعض الموضوعات.

عدم التحقيق في بعض المسائل العلميَّة.

ذكر بعض الأقوال المرجوحة دون بيان الراجح.

التكلف في الاستدلال على بعض المسائل، وتحميل النصوص ما لا تحتمله.

التوسع والاستطراد في مناقشة الموضوعات بما لا يتناسب مع مقرر دراسي.

ضعف الصياغة وسوء الترتيب.

وبناء على ما سبق فإنني أوصي بما يلي:

- اختيار مجموعة من العلماء والمتخصصين لإعداد منهج خاص بالتدبُّر.

- وضع آلية تشتمل على مراحل لاعتماد المقرر، ابتداء من وضع الأهداف والمعايير، وتحكيمها، ثم الكتابة بناء عليها، وتحكيمها.

- إعادة النظر في مفردات المقرر بناء على أهداف خاصة بكل من المرحلتين: «التعليم العالي، المراكز والمعاهد العلميَّة».

- التركيز على الجانب العلمي، واستبعاد الأسلوب الخطابي في المقرر.

واللهَ أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يرزقنا تدبُّر كتابه واتباعه، وأن يجعلنا من أهل القرآن، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
المقدمة	٥
الجلسة الأولى: أعلام المتدبرين (مدرسة المتقدمين)	٩
ابن عباس رضي الله عنه ومنهجيته في تدبر القرآن الكريم د. أحمد بن محمد العمراني	١١
الحسن البصري ومنهجه في التدبُّر د. عادل رفوش	٦٧
ابنُ جَريرٍ الطَّبَري ومَنهجيَّتُه في التَّدَبُّر فوَّاز بن منصَّر سالم الشاووش	١١٣
الإمام القصاب ومنهجه في تدبُّر القرآن من خلال كتابه «نُكَتُ القُرآن» أ. د. عبد الرحمن بن معاضة الشهري	١٤٥
الجوانب التدبرية في تفسير ابن كثير وطرق استخلاصها د. محمد بن عبد الله الربيعة	١٨١

الجلسة الثانية: أعلام المتدبرين (مدرسة المعاصرين)	٢٠٩
مظاهر التدبر عند الشيخ المفسر محمد الأمين رحمه الله تعالى أحمد بن محمد الأمين حسن الشنقيطي	٢١١
وقفات مع مجالس القرآن للشيخ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى د. مولاي عمر بن حماد	٢٣١
منهجية التدبُّر عند الشيخ ابن عثيمين د. عبد الله بن عبد العزيز العواجي	٢٥٣
محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تدبر القران د. جمال محمود أحمد أبو حسان	٢٩١
الجلسة الثالثة: منهج التدبر قراءة وتقويم	٣٣١
منهج أصحاب القراءة الجديدة للقرآن وأثره على التدبر د. حسن بن محمد الأسمري	٣٣٣
الإعجاز العددي وتدبُّر القرآن الكريم أ. د. إبراهيم بن صالح الحميضي	٣٩١
منهج المدرسة الإشارية في التدبر د. نادر السنوسي العمراني	٤٣١
منهج المدرسة الإصلاحية في التفسير د. محمد السيْسي	٤٥٩
تدبر القرآن عند الاثني عشرية نظرة في المصطلح د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر	٤٨٣

الجلسة الرابعة: المؤلفات في التدبر قراءة وتحليل (الكتب النظرية)	٥٠٩
مفهوم وضوابط التدبر في كتاب معارج التفكّر ودقائق التدبُّر (للعلامة الميداني) محمد بن أحمد بن سعيد مكي	٥١١
كتب المفاتيح والأسباب والموانع (دراسة وصفية تحليلية) د. أبو بكر بن محمد فوزي البخيت	٥٤١
تحليل المؤلفات في تدبر القرآن (المقررات والمناهج) د. فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي	٥٧٥
كتب المفاتيح والأسباب والموانع (دراسة وصفية تحليلية) د. محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي	٦١١
الجلسة الخامسة: المؤلفات في التدبر قراءة وتحليل (الكتب التطبيقية)	٦٤٥
قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل (للعلامة الميداني) د. يحيى ضاحي علي شطناوي	٦٤٧
معالم التدبر في كتاب (المعين على تدبر الكتاب المبين) د. محمد بن عبدالله بن جابر القحطاني	٦٦٣
التدبر في المناهج التعليمية أ. د. صالح يحيى صواب	٧٠١
فهرس المحتويات	٧٣٣